

تفسير

عرائس البيان في مقائق القرآن

تأليف
الشيخ الفاروق بالله تعالى
أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقائي
المتوفى ٦٠٦ هـ

تمقيقه
للشيخ أحمد فريد الزيري

المجلد الثالث

أول سورة النور - إلى آخر سورة الناه



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

HY HUMANISTISEN TIEDEKUNNAN KIRJASTO



107 207 4230

عَمَّا لَيْسَ الْبَيَانُ فِي

حَقَائِقُ الْقُرْآنِ

تأليف
الشيخ العارف بالله تعالى
أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقاي
المتوفى ٦٠٦ هـ

تحقيق
الشيخ أحمد فريد الزيري

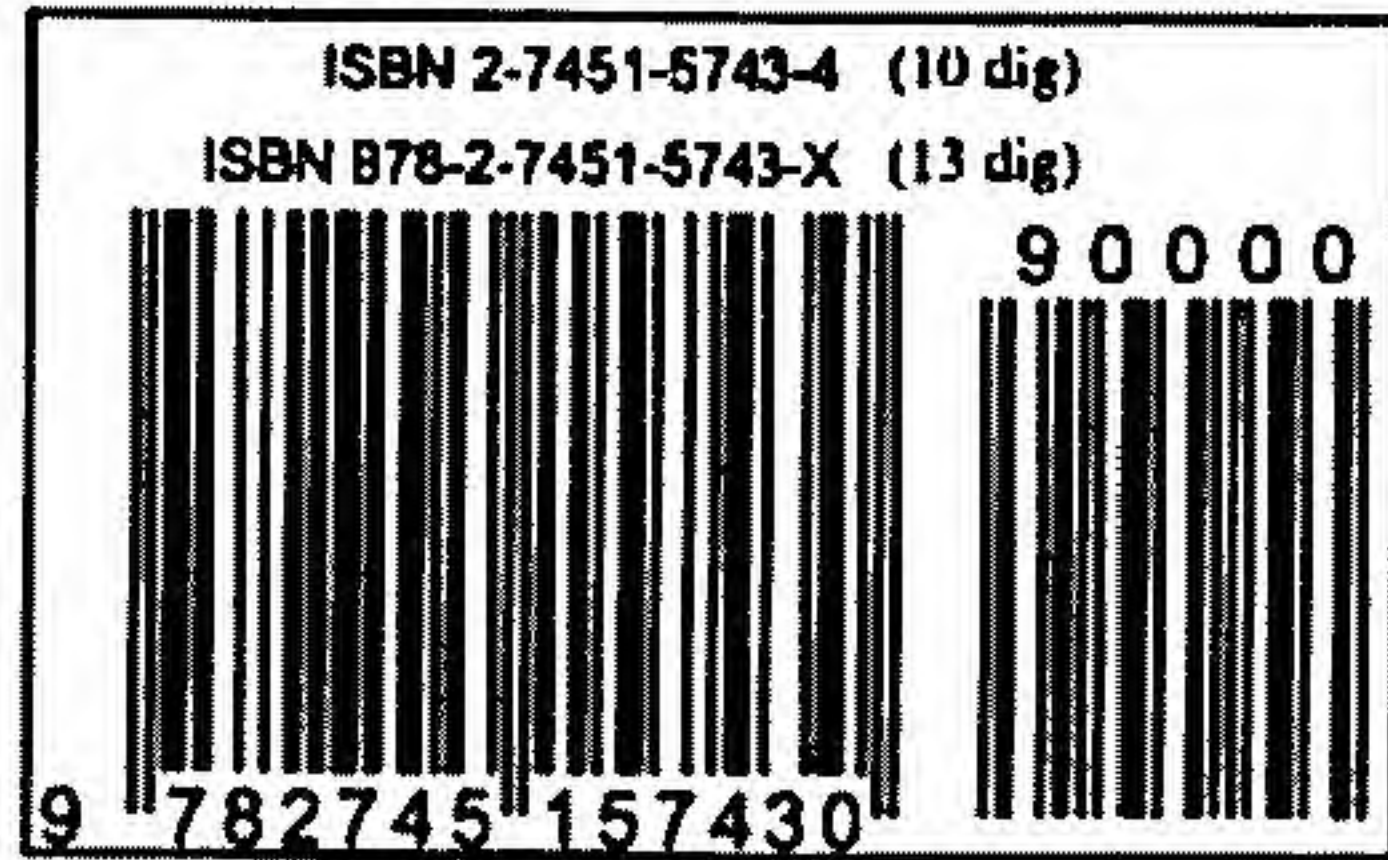
المجلد الثالث

المحتوى:

أول سورة النور - إلى آخر سورة الناه

Title : 'Arā'is al-Bayān
fi Ḥaqā'iq al-Qur'ān
classification: *Exegesis of the Qur'an*
Author : Rūzbahān al-Baqli
Editor : Aḥmad Farīd al-Mizyadi
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages : 1664 (3 volumes)
Year : 2008
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب: عرائس البيان
في حقائق القرآن
التصنيف : تفسير قرآن
المؤلف : الشيخ المارف بالله روزبهان البقلي
المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي
الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات: 1664 (3 أجزاء)
سنة الطباعة : 2008
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى (لونان)



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان



Copyright
 All rights reserved
 Tous droits réservés



جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
 لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
 ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
 مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
 أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى

٢٠٠٨ م - ١٤٢٩ هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

Tel : +961 5 804 810/11/12

Fax: +961 5 804813

P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon

Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عزمون ، القبّة

مبنى دار الكتب العلمية

هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٠/١١/١٢

فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٣

ص.ب. ١١-٩٤٢٤ بيروت - لبنان

رياض الصلح بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

<http://www.al-ilmiyah.com>

sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١)
﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) أنزل الله القرآن من سماء القدم على سيد أهل الكرم، وجعله سرّاً أسرجها من نوار الذات في مشكاة الآيات لألباء الحقيقة، وأدلاء الطريقة لينوروا بأنوارها طرق المعارف، وسبل الكواشف، وأوجب ما فيها من أحكام العبودية على العباد، وأنزل في هذه السورة آيات دالة على أسرار القدوسية، وأنوار السبوحية بينات واضحات لأولي النهي من العارفين، وأهل الفطنة من الموقنين ليتعظ بمواعظها المريدون، ويقتبس أنوارها العارفون، ويدرك حقائقها الموحدون.
قال سهل: جمعناها وبينناها حلالها وحرامها.

وقال بعضهم: لو لم يكن من آيات هذه السورة إلا براءة الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله لكان كثيراً؛ فكيف وقد جمعت من الأحكام والبراهين ما لم يجمعه غيرها؟
﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)
﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٦) ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٧) ﴿وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٨) ﴿وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٩) ﴿وَالْخَمِيسَةُ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(١٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن كنتم تشاهدون عظمتي وجلالي؛ فلا تدهنوا في ديني، وكونوا موافقين لأمري حيث أؤخذ أحداً بقهري فلا تلافوهم في حد من حدودي.

قال بعضهم: إن كنتم من أهل مودتي، ومحبتني فخالفوا من خالف أمري، أو يتركب نهبي؛ فلا يكون محباً من يصير على مخالفة حبيبه.

وقال الجنيد: الشفقة على المخالفين كالإعراض عن الموافقين.

وقال الواسطي: للمؤمن في كل خطوة فائدة؛ فمن يتعظ استفاد، ومن غفل حجب وخاب^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ زجراً لنفوسهم الأماره لتعظ برؤية عذاب الله وتنزجر عن معصية الله، وتعرف الله قطع أنساب الخليقة من جلال الحقيقة، فإن العبودية حقوق الربوبية.

قال أبو بكر بن طاهر: لا يشهد مواضع التأديب إلا من لا يستحق التأديب، وهم طائفة من المؤمنين لا المؤمنون أجمع.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي: لولا فضل الله لصرح بأسراركم، ولم يستر على أحوالكم، ولكن سبقت رحمته وتفضله لكم بأن ستر عوراتكم بحكمته البالغة، وشريعته الجامعة، وجعل رحمته موضع توبتكم بعد مباشرتكم مخالفته.

قال ابن عطاء: لولا فضل الله عليكم في قبول طاعتكم لخسرتم بما ضمن لكم في آخرتكم، ولكن برحمته نجاكم من خسرانكم، وتفضل عليكم.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا

(١) قال الغزالي في «الإحياء» في الحديث: «خيار أمتي أجدأؤها» يعني: في الدين.

سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعْظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ زجر المدعين الذين يتكلمون بلسان الصديقين، ويخبرون بالتقليد عن أحوال المقربين، ويعتقدون أن ما يقولون حالهم، ويكذبون على الله، ويظنون أن ذلك ليس بعظيم، حاشا أن يقع الزور والبهتان موقع الحقائق والعرفان، وأن يكون محالهم وبهتانهم ليس بعظيم عند الله إذ عظمة الله بقوله: ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾^(١) ثم أخبر أنه عظمه، فهم يصغرونه من جهلهم بغيره الله بقوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ يا ليت لو يعلم المدعي الجاهل أن الكل مع شرائف أحوالهم، وفصاحة لسانهم في التوحيد، وإطلاع قلوبهم على مراتب الحقيقة مندرجون تحت هذه الآية التي أخبرت عن غيرته بوصف جلاله وعزة عظمته بأنه ممتنع بذاته عن مقالة كل واصف صفته، وكل عارف بقلبه نعتة؛ إذ نعتة ووصفه لا يدخلان تحت عبارة أهل الحدثان.

قال الحسين في بعض مناجاته: إلهي أنزلهك عما يقول فيك أولياؤك وأعداؤك جميعًا. وقال عبد الله بن المبارك: ما أرى هذه الآية نزلت إلا فيمن اعتاد الدعاوى العظيمة، ويحتري على ربه في الإخبار عن أحوال الأنبياء والأكابر، ولا يمنعه من ذلك هيبة ربه ولا حياؤه.

وقال الترمذي: مَنْ تهاون بما يجري عليه من الدعاوى؛ فقد صَغُرَ ما عَظَّمَ الله إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾.

(١) لعظمة المجهوت عليه، واستحالة صدقه، فإن حقارة الذنوب وعظمتها باعتبار متعلقاتها، البحر المديد (٢٢٤/٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ بين أن تطهير العباد من الذنوب لا يكون إلا بفضل الله السابق، وعنايته الأزلية، كيف يزكي العلل ما يكون عللاً، فالمعلول لا يظهر المعلول، والمعلول أفعال الحدثنان على كل صنف، ولطف القديم غير معلول له استحقاق ذهاب العلل بوصوله.

قال السيارى: قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، ولم يقل: لولا عبادتكم وصلاتكم وجهادكم، وحسن قيامكم بأمر الله ما نجا منكم من أحد؛ ليعلم أن العبادات، وإن كثرت؛ فإنها من نتائج الفضل.

﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٢) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣) يَوْمَ يُوفِّيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (١٤).

قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فيه بيان تأديب الله للشيخ والأكابر ألا يهجروا صاحب العثرات، وأهل الزلات من المريدين، ويتخلقوا بخلق الله حيث يغفر الذنوب العظام، ولا يبالي، وأعلمهم ألا يكفوا أعطافهم عنهم، ويجبرونهم ما وقع لهم من أحكام الغيب؛ فإن من له استعداد لا يحتجب بعوارض البشرية عن أحكام الطريقة أبداً، والعفو والصفح حالان شريفان، فأما العفو الإعراض عما جرى من الزلة، والصفح: الستر على ما يقع بعد الزلة في وقت الامتحان من المنحة، فلا يذكر حال الماضي، ولا يأخذ بها يأتي.

قال بعضهم: العفو هو الستر على ما مضى، وترك التأديب فيما بقي.

وقال الجرجاني: الصفع هو الإغماض عن المكروه.

﴿الْحَيِّثُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (١٥) يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْغَيْبِ وَيَقُولُونَ آمِنُوا بِالَّذِينَ نَحْنُ آمِنُونَ وَلَا تَدْخُلُوا بُيُوتَنَا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٦) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (١٧)

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٣﴾.

قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ خبائث هواجس النفوس، ووساوس الشياطين، ومزخرفاتها للبطلان من المرائين والمغالطين، وهم لها وطيبات إلهام الله بوسائط الملائكة لأصحاب القلوب والأرواح، والقول من العارفين، وهم لها وأيضاً الترهات والطامات للسالوسين، والحقائق والدقائق من المعارف، وشرح الكواشف للمعارفين والمحبين، وأيضاً الأوصاف المذمومة للنفوس، والأخلاق المحمودة للأرواح والقلوب.

وقال عبد العزيز المكي: الدنيا وخبائثها للخبيثين من الرجال المحبين لها ولهم تصلح الدنيا.

والمحبون للدنيا للخبيثات أي: للدنيا ولها يصلحون.

وقال: ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ هي الآخرة وكرامتها، ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ المحبين لها ولهم تصلح الآخرة، ﴿الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ المحبون للآخرة، وإكرامتها ولها يصلحون.

وقال الأستاذ: ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ من الأعمال هي الطاعات والتقرب، ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ وهم المؤثرون لها المسارعون في تحصيلها، و﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ من الأحوال هي تحقيق الموصلات بها هو حق الحق مجرداً عنه الحظوظ، ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال وهم الذين سمت همهم عن كل مبتذل خسيس، ولهم نفوس تسمو إلى المعاني، وهي التحمل بالتذلل لمن له العزة.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي: يغضوا أبصار أسرارهم

عن الحدثان أجمع، وعن نفوسهم ومعاملاتهم وأحوالهم وأشخاصهم بنعت التلاشي في وجود الحق وظهور ذاته وصفاته ليكونوا بوصف ما وصف الله حبيبه عند قربه ومداناته بقوله: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم: ١٧].

قال ابن عطاء: أبصار الرءوس عن المحارم، وأبصار القلوب عما سواه، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُتَذَكَّرُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ فيه استشهاد على أن لا يجوز للعارفين أن يبدوا زينة حقائق معرفتهم، وما يكشف الله لهم من عالم الملكوت، وأنوار الذات والصفات، ولا المواجه إلا ما ظهر منهم بالغلبات من الشبهات والزعقات والاصفرار والاحمرار، وما يجري على ألسنتهم بغير اختيارهم من كلمات الشطح والإشارات المشككة، وهذه الأحوال أشرف زينة للعارفين.

قال بعضهم: أزين ما تزين به العبد الطاعة، فإذا أظهرها فقد ذهبت زينتها.
وقال بعضهم: الحكمة في هذه الآية لأهل المعرفة أنه من أظهر شيئاً من أفعاله إلا ما ظهر عليه من غير قصد له فيه، فقد سقط به عن رؤية الحق؛ لأن ما وقع عليه رؤية الخلق ساقط عن رؤية الحق، قوله تعالى:

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النجم: ١٧] قرن التوبة بالإيمان ثم قرنهما بالفلاح، معناه من رجع إلى الله من نفسه والأكوان وشاهد مشاهد الربوبية فاز من عذاب الفرقة، وظهر بالمشاهدة والوصلة.
قال الواسطي: التوبة عدم المألوفات أجمع.

قال يوسف: من طلب الفلاح والسلامة والنجاة والاستقامة؛ فليطلبه في تصحيح توبته ودوام تضرعه وإنابته؛ فإن تصحيح التوبة تحقيق الإيمان والوصول إلى حقيقة المعرفة قال الله: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا ﴾، وقد وقع لي هنا إشارة لطيفة أن الله سبحانه طالب المؤمنين جميعاً بالتوبة، ومن آمن بالله، وترك الشرك؛ فقد تاب وصح توبته ورجوعه إلى الله، وإن خطر عليه خاطر أو جرى عليه معصية؛ فهو في حيز التوبة، فإن المؤمن إذا جرى عليه معصية ضاق صدره واهتم قلبه، وقدم روحه ورجع سره، هذا لعموم والإشارة في الخصوص أن الجميع محجوبون أصل النكرة، وما وجدوا به من القرية، وسكنوا بمقاماتهم ومشاهداتهم ومعرفتهم وتوحيدهم أي: أنتم بعد في حجاب هذه المقامات توبوا منها إليّ فإن رؤيتها أعظم الشرك في المعرفة؛ لأن من ظن أنه واصل، وليس له حاصل من معرفة وجوده وكنه جلال عزته؛ فمن هذا وجب التوبة عليهم في جميع الأنفاس؛ لذلك هجم حبيب الله في

بحر الفناء، وقال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة»^(١).
وسمعت أن الخضرية قال لأبي يزيد: أريد أن أتوب ولا أقدر، فقال: ويحك العزة لله
وأنت تطلب العزة ويا فهم أن عقيب كل توبة توبة، حتى تتوب من التوبة، وتقع في بحر
الفناء من غلبة رؤية القدم والبقاء.

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ
يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فضلها هاهنا معرفته، ومعرفته
الخروج من نعت الفقر والغنى؛ لأنها علتان موجبتان الشغل عن الله، والعزير في المعرفة من
غنى بالله، وبالانصاف بصفته، والاتحاد بنعت المعرفة بذاته تعالى عن كل علة؛ فإن موارد
شرائع جود مشاهدته مصاهر كل وارد بنعت الفناء في لقائه.

قال بعضهم: من صحَّ افتقاره إلى الله صحَّ استغناؤه بالله.

﴿وَلَيْسَتِ الْيَتَامَىٰ الَّذِينَ لَا يَحْمِلُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ
الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَءَاتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ
الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيحتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصِنَ ۚ لَّا تَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ
الدُّنْيَا ۖ وَمَنْ يُكْرِهْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ
ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ الخير هاهنا: التوحيد والمعرفة
والتوكل والرضا والقناعة، وصدق العمل والوفاء بالعهد والإشارة فيه أن الشيوخ إذا رأوا
مريدًا بهذه المثابة جاز لهم أن يجوزه له الخلوة والانفراد والإسفار والاستقلال بنفسه.

وقال الجنيد في قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾: علما بالحق وعملا به.

وقال بعضهم: محبة لأهل الصلاح وميل إليهم.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ ۖ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۚ الْمِصْبَاحُ
فِي زُجَاجَةٍ ۚ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا
غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَى نُورٍ ۚ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ۚ مَن يَشَاءُ ۚ

(١) رواه البخاري (٥٩٤٨)، ومسلم (٢٧٠١).

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ
وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٨﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا
بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ
وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٩﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ تَحْسَبُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَتَّى إِذَا
جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ أَوْ
كَظُلُمَاتٍ فِي تَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا
فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَنَّهَُا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ
﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّيْتُ كُلِّ قَدْ عَلِمَ
صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ
الْمَصِيرُ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ إن الله سبحانه أوجد الكون من العرش إلى الثرى بالكاف
والنون وكان بين الكاف والنون مظلمًا بظلمة العدم محجوبًا عن نور القدم؛ لأنه معلولة بعله
الحدث، ولم ينكشف الكون هناك نور الكاف، والنون فبقي كمشكاة بلا سراج، فجعل
الكاف قنديلاً، والنون فتيلة، وجعل في القنديل دهن زيت فعله الخاص، وأبقاه بهيئته ما شاء
ثم أسرج القنديل عند ظهور أنوار صفاته بنور الصفة، فأضاء الكون بنور الصفة، ثم وضع
القنديل في زجاجة فعله العلم، ووضع زجاجة الفعل في الكون، ثم نور الكون بعد تنويره
بنور الصفات بأنوار الذات حتى يكون الكون كمشكاة منورة بمصباح الصفة التي معدنها
الذات؛ فأضاء نور الذات في الصفة، وأضاء نور الصفة في نور فعله الخاص، وأضاء نور فعله
الخاص في قنديل الكاف والنون، وأضاء نور الكاف والنون زجاجة فعله العام، وأضاء نور
فعله العام في مشكاة الكون؛ فإذا رأيت المشكاة رأيت نور الكاف والنون، وإذا رأيت نور
الكاف والنون رأيت نور فعله الخاص الذي هو غني بقوله: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾
مباركة إذ هي أصلها مصدر الصفة التي أصلها الذات المنزه عن البداية والنهاية: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ
وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ لا من شرق ظهور الكون من العدم، ولا من غرب عدم الكون عند القدم:
﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضَيُّءُ﴾ قبل أن يصل إليه نور الصفات؛ لأنها صدرت من الصفات، فوصل
نور الصفات إلى نور الفعل الخاص، وصار نورًا كقوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى

نُورٍ ﴿١﴾، وإذا رأيت نور هذه الشجرة رأيت نور الصفة، وإذا رأيت نور الصفة رأيت نور الذات، وإذا رأيت نور الذات رأيت عين العين، وإذا رأيت الصفات رأيت العين، وإذا رأيت الفعل رأيت عين الجمع، وإذا رأيت عين الجمع رأيت الكون مرآة الفعل يظهر منها أنوار الذات والصفات لمن له استعداد النظر إلى مشاهدة القدم بنعت الاصطفائية الأزلية^(١)، وذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ حتى تعرف بهذا المثال ظهور نعوت القدم في مرآة الكون لأهل الكرم من العارفين، قال الله: ﴿وَنَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾ وهو باختصاصهم عليهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢﴾ عليم بكل مثل وعبر وبرهان وسلطان.

وأيضاً فيه إشارة أخرى في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أراد بالسموات والأرض صورة المؤمن رأسه السموات وبدنه الأرض، وهو بجلاله وقدره نور هذه السموات والأرض، إذ زين الرأس بنور السمع والبصر والشم والذوق والبيان في اللسان؛ فنور العين كنور الشمس والقمر، ونور الأذنين كنور الزهرة والمشتري، ونور الفم والأنف كنور المريخ وزحل ونور اللسان كنور العطار، وهذه السيارات النيرات تسري في بروج الرأس، ونور أرض البدن الجوارح والأعضاء والعضلات واللحم والدم والشعرات وعظامها الجبال، وترى أنور الله لهذه السموات والأرضين منورة بنور فعله، وفعله منور بنور أسمائه، وأسمائه منورة بنور صفاته، ونور صفاته منور بنور ذاته، وذاته نور الكل إذا الكل قائم بذاته، فنور ذاته ونور صفاته لا يضاهي الأنوار؛ لأن نوره منزّه عن المشابهة بالأنوار؛ فمن نوره الشجر والشم، ومن نوره الصدف والجوهر، ومن نوره الذهب والفضة، ومن نوره الدر والياقوت، ومن نوره العرش والكرسي والجنة وما فيها، ومن نوره السموات

(١) قال المصنف: وذلك النور في مشكاة القلب، وهو مصباح يزيد نوره بذهن العقل في قنديل الفؤاد، يتلألأ من صورة الإنسان، ويبرز منها أنوار الربوبية، وذلك الذهن لا من شرق ملكوت الأرض، ولا من غرب ملكوت السماء، إنما هو يخرج من برق سنا شجرة قدس القدم، يكاد أن يضيء بنفسه قبل تجلي القدم؛ لأنه نور صدر من الفعل الخاص، ولو لم تلمسه نيران أنوار الكبرياء، لكن غلب نور القدم على نور الحدث، نور على نور وما وهب الحق ذلك النور إلا من اصطفاه الله بما اصطفى آدم ونوحاً وموسى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وزكريا ويحيى ومحمدًا - صلى الله عليهم أجمعين - يهدي الله لنوره من يشاء. فبان لك بهذا البيان الشافي سبب وجود الإنسان، وشرفه على جميع البرية. انظر: تقسيم الخواطر: (ص ١٢١) تحت الطبع بتحقيقنا.

والأرض، ومن نوره الأرواح والأشباح، ومن نوره العقل والقلوب، ومن نوره تنورت هذه النيرات، وأضاءت هذه الآيات نور قدرته زينها بالتركيب، ونور علمه نورها بالانتظام، ونور سمعه نورها بالقيام، ونور بصره زينها بأنوار العجائب، ونور إرادته زينها بالارتسام والبقاء، ونور كلامه زينها بالنماء والبركات، ونور حياته زينها بالحياة، ونور قدمه زينها بغرائب الأنطاف، ونور بقائه زينها بالأرواح الفعلية والقدسية الفطرية، ونور ذاته زينها بالوجود سبحانه المنزه بجلاله أوجد الكون بنور القدم وأنوره عن ظلمة العدم.

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ صدر العارف كوة فعله ومشكاة أمره، وروح العارف قنديل قدرته، وفتيلة قنديله عقله الغريزي، وفطرته الفعلي، واستعداده الروحاني، ودهنه المعرفة، وقلبه زجاجة المشيئة، ومصباحه أنوار الصفة القديمة المنزهة عن مباشرة الأكوان والحدثان والحلول في الزمان والمكان، أسرج بمصباح صفاته قنديل الروح وفتيلة العقل، وزاد نور المصباح من نور الذات؛ إذ الذات والصفات مكشوفان لها في جميع الأوقات بنعت السرمدية، ولو امتنع أنوارها عنها انطفأ مصباحها، ولم يكن ناظرة إلى الغيب، وأمد المصباح بدهن معرفته ذلك، وتلك الشجرة المباركة منابتها العقل الملكوتي، وصباغها الحكمة الجبروتية، وهي في جميع الأنفاس على مقابلة شمس الألوهية لا يقع عليها ظلال غدوة شرق القدم، ولا ظلال عشية غرب الفناء في أرض مشرق المشاهدة منورة بجمال شمس القدم والبقاء؛ لذلك نفى علة الحجاب بالحدثان بقوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾، وتلك المعرفة التي هي الشجرة المباركة يكاد دهن نورها يضيء بنور الفعل.

قيل: إن يصل إليها نور الصفة، قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، فلما وصل نور الصفة إلى نور المعرفة والعقل الملكوتي، ونور الفعل يضيء بنور الله، ويبصر الله بالله لا بغير الله؛ قال الله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ مثل نور صفاته بالمصباح، وشبه الروح بالقنديل، وشبه القلب بالمشكاة؛ لأن الروح في القلب والنور في الروح، والمعرفة دهن قنديل الروح، وتلك الكوة هي القلب، والقلب في الصدر لا منفذ إليها لرياح القهر والشقاوة، إذ القلب في أصبع الصفة يقلبها كيف يشاء، والروح في يمين القدرة.

قال الطيبي: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبهما كيف يشاء»^(١).

وقال: «الأرواح في يمين الرحمن»^(٢)؛ فكيف ينطفئ هذا المصباح الذي نوره من نور

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن حبان (١٨٤/٣)، والحاكم في «المستدرک» (٧٠٦/١).

(٢) ذكره المصنف في مشرب الأرواح له (ص ١٤).

الأزل، وضيأؤه من ضياء الأبد؟

ثم وصف الروح، وشبهه الزجاجاة قنديلها في مشكاة القلب بالكوكب الدرري الذي قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ إذ هي انقدحت من درر الجلال والجمال، وأعلمنا أن ذلك المصباح في تلك الزجاجاة لا ينطفئ أبداً؛ لأن المصباح إذا كان في تحت زجاجاة لا تؤثر فيه الرياح لعواصف إذ لا سبيل إلى نور المشاهدة في نور المعرفة والعقل، ولا يزول بتغاير الحدثان، ولا بالزلة والعصيان، فهذان النوران ينفدان في روازن أبراج الدماغ فينوران تلك السيارات المذكورة، ويتلأأن من مرآة سماء وجه العارف.

ألا ترى كيف قال أبو يزيد -قدس الله روحه: يظهر نور الصمدية من بشرة وجه العارف، ومن هاهنا قال الحكماء: الأول صياحة الوجود من عكس الروح الناطقة هذا يفهم مما سنح لقلبي في إشارة الآية ما يوافق أقوال أئمتي وشيوخي.

قال ابن عطاء: زين الله السماوات باثني عشر برجاً، وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، وزين قلوب المؤمنين باثني عشرة خصلة الذهن والانتباه والشرح والعقل والمعرفة واليقين والفهم والبصيرة وحياة القلب والرجاء والخوف والحياء، فمادامت هذه البروج قائمة يكون العالم على النظام والسعة، وكذلك مادامت هذه الخصال في قلب العارف يكون فيه نور العارف، وحلاوة العبادة.

وقال ابن مسعود: مثل نور المؤمن كمشكاة في كوة، وهي التي لا منفذ لها أشار إلى صدر المؤمن ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، وهو نور قلب المؤمن، و﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾، والزجاجاة سر المؤمن.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَوَّانٍ فَأُحِبُّهَا إِلَيْهِ مَا صَفَا وَرَقٌ»^(١)، ﴿كَأَنَّهُا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

قال ابن عطاء: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾: لا قرب فيها ولا بعد فيها؛ فالله من البعد قريب ومن القرب بعيد.

قال الواسطي: لا دنيائية ولا آخرة جذبها الله إلى قربه، وأكرمها بضيائها، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ يكاد ضياء روحها يتوقد، ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: ولو لم يدعه نبي، ولا يسمع كتاباً ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ نور الهداية وافق نور الروح، ﴿اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ اجتهد

(١) لم أقف عليه.

المجتهدين، وطلب الطالبين، وهرب الهاربين.
وقال الجنيد: لا هي مائلة إلى الدنيا، ولا راغبة في الآخرة، ولكنها فانية الحظ من الأكوان.

قال أبو علي الجوزجاني: في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بدأ بالنور والنور البيان، فالله نور السماوات، ومن نور اليقين سراج يضيئ في قلب المؤمن كما قال الله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يضيئ في قلب المؤمن؛ لأن قلب المؤمن منور بالإيمان، فنور قلبه من نور الله بياناً مبيناً؛ فهو ينظر بنور ربه إلى جميع ملكه، يرى فيها بدائع صنعه، ويرى بنور المعرفة قدرة الله وسلطانه وأمره وملكه فيفتح له ذلك النور علم ما في السماوات السبع وما في الأرضين علماً يقيناً، فيخضع له الملك، ومن نبه فيجب به كل شيء على ما يحب ويهوى مثل ذلك النور ﴿كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾، فنفس المؤمن بيت، وقلبه مثل قنديل، ومعرفته مثل السراج، وفوه مثل الكوة، ولسانه مثل باب الكوة والقنديل معلق بباب الكوة إذا افتتح اللسان بما في القلب من الذكر استضاء المصباح من كونه إلى العرش، فالزجاجة هي التوفيق، وتبيلتها من الزهد، ودهنها من الرضا، وعلائقها من العقل، وهو قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

وقال جعفر بن محمد: الأنوار تختلف أولها نور حفظ القلب، ثم نور الخوف، ثم نور الرجاء، ثم نور الحب، ثم نور التفكير، ثم نور اليقين، ثم نور التذكر، ثم النظر بنور العلم، ثم نور الحياء، ثم نور حلاوة الإيمان، ثم نور الإسلام، ثم نور الإحسان، ثم نور النعماء، ثم نور الفضل، ثم نور الآلاء، ثم نور الكرم، ثم نور العطف، ثم نور القلب، ثم نور الإحاطة، ثم نور الهيبة ثم نور الخيرة، ثم نور الحياة ثم نور الأنس، ثم نور الاستقامة، ثم نور الاستكانة، ثم نور الطمأنينة ثم نور العظمة، ثم نور الجلال، ثم نور القدوة، ثم نور الحول، ثم نور القوة، ثم نور الألوهية، ثم نور الوحدةانية، ثم نور الفردانية، ثم نور الأبدية، ثم نور السرمدية، ثم نور الديمومية، ثم نور الأزلية، ثم نور البقائية، ثم نور الكلية، ثم نور الهوية، ولكل واحد من هذه الأنوار أهل وله حال ومحل كلها من أنوار الحق التي ذكر الله في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ولكل عبد من عبيده مشرب من نور هذه الأنوار، وربما كان حظه من نورين ومن ثلاث، ولا يتم هذه الأنوار لأحد إلا للمصطفى ﷺ؛ فإنه القائم مع الله بشروط تصحيح العبودية والمحبة فهو نور، وهو من ربه على نور.

قال بعضهم: ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ﴾ الملائكة ونور الأرض الأولياء.

وقيل في قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾: نور المشاهدة يغلب نور المتابعة، وقيل: نور الجمع يعلو أنوار التفرقة، وقيل: نور الروح يهدي إلى السر شعاع الفردانية، ونور السر يهدي إلى القلب ضياء الوحدةانية، ونور القلب يهدي إلى الصدر حقيقة الإيمان، ونور السر يهدي إلى انصدر آداب الإسلام؛ فإذا جاء نور الحقيقة غلب هذه الأنوار، وأفرد العارف عنها وأفناه فيها، وحصله في محل البقاء مع الحق متمسكاً بسمته مترسماً برسمه لا يكون للحدث عليها أثر بحال؛ لأن محل أنوار الأحوال هو القيام معها ورؤيتها، والسكون إليها، فإذا جاء نور الحقيقة أفناه عن الحظوظ والمشاهدات، وإذا غلب نور الحق خدت الأنوار لها، وصارت الأحوال دهشاً في فناء، وفناءً في دهش؛ فهو بحصول اسم ورسم، وذهاب الحقيقة في عين الحق ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يخص الله بهذه الأنوار من سبقت له المشيئة فيه بالخصوصية، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْآمِثَلِ لِلنَّاسِ﴾.

قال: العقلاء الألباء الذين خصوا بالفهم عنه، والرجوع إليه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في أن الذي خصهم بهذه الأنوار والمراتب من غير سابقة لا يتقرب إليه إلا بفضلهم وكرمه دون عد التسبيح والصلاة عليه^(١).

وقال الحسين في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: منور قلوبكم حتى عرفتم ووجدتم، وختم بقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فكان أول ابتدائه ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبتدأ النعم ومنبعها والآخر خاتمته، فالأول فضل، والآخر مشيئة؛ فهو المجتبي لأوليائه الهادي لأصفيائه.

(١) قال المصنف: فالإنسان من حيث المناسبة الروحانية والقوة الملكية يقبل الوحي من الغيب، ومن حيث المناسبة البشرية يلقي الوحي إليهم، وهم يواسون الخلق ويربونهم بواضحات الشرع، وهم بالإضافة إلى الناس كالناس إلى الحيوانات، وهم في الناس كالشموس والأقمار في سائر الكواكب، وكما أن نور القمر عكس نور الشمس، فإن نور الناس من أنوار الأولياء والأنبياء، وإن نور العقل وإن كان منوراً لا يتم إلا بنور الشرع والعقل كالبصر، والشرع كالنور، ولا يتم البصر إلا بالنور، قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ولولا العقل ما جاء الشرع، ولولا الإنسان لم يأت العقل، والشرع من الحضرة والإنسان بالحقيقة من له عقل وعلم ويعرف الشرع ويستدين به حتى يكون كاملاً في الجمال الظاهر والباطن؛ لأن العقل نور الباطن والشرع نور الظاهر، قال تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، والنور الثالث معرفة الله التي هي مستفادة من تعريفه إياهم، وإشهادهم مشاهدة ذاته وصفاته وهو مقام النبوة والولاية والمخصوصية، من اصطفاء الله في الأزل به، قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

قال الحسين: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: هو نور النور، يهدي من يشاء بنوره إلى قدرته وبقدرته إلى غيبه، وبغيبه إلى قدمه وبقدمه إلى أزله وأبدته، وبأزله وأبدته إلى وحدانيته لا إله إلا هو المشهود شأنه بقدرته، تقدس وتعالى يزيد من يشاء علماً بتوحيده ووحدانيته وتنزيهه وإجلال مقامه وتعظيم ربوبيته.

وقال الواسطي: إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد نوراً بصفاته وخاطبها بذاته فاستضاءت واستنارت بنور قدسه؛ فأخبر عنها بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لأنه منور الأرواح بكمال نوره.

قال الخراز: من خلقه من نوره ثم أخرجه بنوره ثم أعاده في أكبر كبرياته من نور إذا تجلى له لم يحترق؛ لأنه يكون هو نوراً من نوره على نوره في نوره.

قال الله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

قال الحسين: في الرأس نور الوحي، وفي العينين نور المناجاة، وفي السمع نور اليقين، وفي اللسان نور البيان، وفي الصدر نور الإيمان، وفي الطبائع نور التسبيح فإذا التهب شيء من هذه الأنوار غلب على النور الآخر فأدخله في سلطانه، فإذا سكن عاد سلطان ذلك النور أوفر وأتم مما كان، فإذا التهبوا جميعاً صار نوراً على نور ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

قال الأستاذ: في قوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾: كذلك همهم لا تسكن شرقياً، ولا غربياً، ولا علوياً، ولا سفلياً، ولا جنياً، ولا إنسياً، ولا عرشيّاً، ولا كرسيّاً، شطحت عن الأكوان، ولم تجد له سبيلاً إلى الحقيقة؛ لأن الحق منزّه عن اللحق والدرك، فبقيت عن الخلق منفصلة، وبالحق غير متصلة، ويقال: نور المطالبة يحصل في القلب بدءاً فيحمل صاحبه على المحاسبة؛ فإذا نظر في ديوانه، وما أسلفه من عصيانه يحصل نور المعاينة فيعود على نفسه باللائمة، ويتجرع كاسات ندمه فيرتقي عن هذا باستدامة قصده، والتنقي عما كان عليه في أوقات فترته، فإذا استقام فيه كوشف بنور المراقبة فيعلم دائماً أنه سبحانه مطلع عليه، وبعد هذا نور المحاصرة، وهو لوائح تبدو في السرائر، ثم بعد ذلك نور المكاشفة، وذلك بتجلي الصفات، ثم بعده أنوار المشاهدة؛ فيصير ليله نهاراً، ونجومه أقماراً، وأقماره بدوراً، وبدوره شمساً، ليس في سماء أسرارهم سحاب، ولا في هوائها ضباب، ثم بعد هذا أنوار التوحيد، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد ثم ما لا يتناوله عبارة ولا يدركه إشارة في البيان عند ذلك خرس، والشواهد طمس، وشهود الغير عند ذلك محال؛ فعند ذلك ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝﴾ [التكوير: ١، ٢]، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝﴾ [التكوير: ٤]، ﴿إِذَا

السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴿١﴾ [الانشقاق: ١] ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار: ١]، هذه كلها أقسام الكون، وما من العدم لهم صار إلى العدم القائم عنهم غيرهم، والكائن عنهم سواهم جلت الأحدية، وعزت الصمدية، وتقديست الديمومية، وتنزهت الألوهية.

ثم بين سبحانه أن ذلك المصباح والمشكاة في بيت صورة العبد العارف، وذلك البيت صدره يتنور بنور الله، ونور قربه ليصر سواكنه بنوره ما يفتح فيه من أنوار ملكوته وجبروته بقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ أن يرفع همها إلى مشاهدة الذات، وصرف الصفات، ولا ينزل على غيره من الآيات والكرامات والعقل، يذكر اسم الله هناك، والقلب يذكر وصفه، والروح يذكر ذاته وصفاته تعالى، وأيضاً ترفع الأسرار بنعت الاشتياق حوائج الوصال إليه بنعت المداناة والمناجاة.

وقال بعضهم: ترفع الحوائج من القلوب، وتشغل القلوب بالذكر؛ فإن النبي ﷺ يقول حاكياً عن ربه: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»^(١).

ويقال: «القلوب بيوت المعرفة، والأرواح مشاهد المحبة، والأسرار محال المشاهدة».

ثم وصف سبحانه أهل خالصة تلك البيوت بشهود الحضرة والمراقبة في القرية بنعت التجريد عن غير المشاهدة بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وصف الله العارفين بالرجولية حين أقبلوا عليه بأسرار طاهرة عن الحداث، وبسرهم في صحاري الآزال والآباد بالأرواح القدسية والعقول الملكوتية بين سباع القهر وحيات الامتحان، وآساد الغيرة لا تشغلهم المستحسنات والمستقبحات عن بلوغهم إلى معالي الدرجات في رؤية الذات والصفات، ومثلهم كالبحار لا تتغير بالجيف كذلك أحوالهم تجري عليهم أحكام الكونين بنعت المباشرة والمعاملة، ولا تتغير أسرارهم عن شهود الوصال والنظر إلى الجمال.

قال ابن عطاء: هم خزائن الودائع ومواضع الأسرار.

قال النصر آبادي: أسقط عنهم المكون ذكر المكونات، فلا تشغلهم الأسباب عن المنسب بحال.

قال جعفر: هم الرجال من بين الرجال على الحقيقة؛ لأن الله حفظ سرائرهم عن الرجوع إلى ما سواه، وملاحظة غيره فلا تشغلهم تجارات الدنيا ونعمتها وزهراتها والآخرة،

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٩/٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٠/٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣١٣/٧).

وثوابها عن الله؛ لأنهم في بساتين الأنس، ورياض الذكر، قال الله: ﴿لَا تُلْهِيمِمْ تَجْنِرَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

قال بعضهم: أسقط الله اسم الرجولية عن الغافل إلا من عامل الله على المشاهدة، ولم يؤثر عليه الأكوان؛ فقال: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمِمْ تَجْنِرَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

قال بعضهم: من أسقط عن سره ذكر ما لم يكن لكان سمي رجلاً حقيقة، ومن شغله عن ربه من ذلك شيء، فليس هو من الرجال المتحققين.

ثم زاد سبحانه في وصفهم بالخوف الدائم، والوجل القائم من صرف القلوب والأبصار من مشاهدة الجبار بقوله: ﴿تَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ يفزعون من يوم الشهود حيث تتقلب القلوب عن مشاهدة صرف القدم في الجنان والأبصار في النظر إلى الحور والغلمان والروح والريحان، وأيضاً يخافون من مقلب القلوب في أنوار الصفات، والأبصار في أنوار الذات لثلا يقف في منازل الشهود ومشاهد الحقيقة، وينقطع عن السير في ألوهية الأولية، والسرمدية الأبدية، بل يطمعون أن يبقوا بحسن المعرفة، وكمال الأدب في زمان العبودية مع مشاهدة الأبد بنعت الدنو، ودنو الدنو، وكشف ما كان مكتوماً عنهم بقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ذلك الرزق كشف جمال القدم بغير حجاب.

قال النصر آبادي: النفوس في التنقيب، والقلوب في التقلب.

وقال الحسين: خلق الله القلوب والأبصار على التقلب، وجعل عليها أغطية وستوراً وأكنة وأقفالاً، فتهتك الستور بالأنوار، وترفع الحجب بالذكر، وتفتح الأقفال بالقرب.

وقال الحسين: إذا علمت أنه مقلب القلوب والأبصار؛ فليكن شغلك في النظر إلى أفعاله فيك، وتوقى الخلاف والغفلة.

ثم وصف سبحانه أهل الغرة به الذين معولهم على الرسوم، وما عملوا من المعاملات على رؤية النفس والخلق بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ أي: إن الذين نسوا عهد الله الأزلي الذي أوجب عليه فيه الإقبال عليه بالكلية من الكون، وباشروا صورة العمل رياء وسمعة، شبه أعمالهم بسراب القيعان؛ لأنهم في الرياء والشرك من أهل الخسران واخرمان، فإذا احتاجوا إلى جزاء الأعمال، وهم في حسبانهم لم يجدوا في الحضرة شيئاً من وصول المراد حيث جازى الله أصفياه بأعمالهم التي وقعت على حسن القبول إذ كانت قيمتها من حسن اليقين والصدق والإخلاص، ﴿وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾ بنعت الإعراض عنه يجازيهم

بالفرقة، والانقطاع عن المأمول، وهكذا شأن من رجع إلى الخلق، وسكن إلى الأسباب من المسبب.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿تَحْسَبُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا﴾ قلب ليس فيه شيء من أنوار الله، فقير بما فيه رجوعه إلى الأسباب، والفقير من يكون رجوعه إلى غير الحق، يحسب أن الرجوع إلى غيره يغني، وهو كسراب ﴿تَحْسَبُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا﴾ إذا تبين له أن الرجوع إلى الأسباب شرك يظهر إذ ذاك له أن الرجوع إلى الحق هو الإيمان.

قال الله: ﴿وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ رُءُوسَ بَشَرٍ مَّقْنَعَةً وَالَّذِينَ فِي هِيَاطِهَا مِنْ نَارٍ وَكَانُوا هُمْ أَصْحَابُهَا﴾ وقال أيضًا: كل منادون الله فهو فقير، وكل قلب فيه محبة ما سوى الله؛ فهو فقير، وفقير عن الحق، وعن معرفته، ويعلم أنه تاه قوم في ميدان الجهد فتخلفوا عن واجبات الحق، وظنوا أنهم يصلون بجهدهم إلى الله، وما وصل أحد إليه إلا من سبق له من الله العناية، والمجتهد في مجاهدته، كما قال الله ﷻ: ﴿تَحْسَبُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ رُءُوسَ بَشَرٍ مَّقْنَعَةً وَالَّذِينَ فِي هِيَاطِهَا مِنْ نَارٍ وَكَانُوا هُمْ أَصْحَابُهَا﴾.

ثم بين سبحانه أن هؤلاء المحجوبين عن الله مترددون في ظلمات طبائعهم لم يصحبهم نور العناية، فيبقون في ظلمة عقولهم على ما عملوا لغير وجه الله بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ أي: من لم يصحبه نور معرفة الله الذي صدر من كشف مشاهدة الله في بدور روحه إلى منتهى سيره، فما له هناك من نور المعرفة، ونور المشاهدة، ونور الوصال، والعارف الصادق في مشاهدة الحق يحتاج إلى ألف ألف نور في كل لمحة من نور الأزل والأبد ينظر بها إلى جمال القدم، ويعرف بها طرق الصفات، ويرى بها عجائب الذات.

قال القاسم: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ في وقت القسمة فما له من نور في وقت الخلقة.

﴿لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزِجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ خاطب الحق سبحانه أهل التوحيد والمعرفة بأنه سبحانه ينشئ في سماء صحو القلب سحاب أنوار فعله على مقادير مشيئته، وقوة حملها واردة الغيوب، ويسريها بريح الكرم، ويجمعها بقوة القدم ثم يجعلها متكاثفات بأثقال أنوار الصفات، وذلك قوله: ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا ﴾ ثم ينزل منها قطرات زلال بحر الصفة إلى صحاري القلوب بقوله: ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ تَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ فإذا كُمّل الحال ينكشف جبال أنوار الذات، وينزل منها برد جواهر حقائق علوم القدم، فيقع على بحار عقول العارفين، ويتلقاها أصداف الأرواح فيريها في حواصل الأفئدة والأسرار^(١). ثم بين خاصية من سبق له الحسنی في الأزل في وصول تلك الجواهر القدوسية بقوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَن يَشَاءُ ﴾.

ثم بين أن سنا بروق تجلي الصفات ليغلب على أبصار الأرواح والقلوب حين عاينت الحق، بقوله: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾.

ثم بين مقام المحو والصحو، والقبض والبسط، وأوقات الاستناد والتجلي بقوله: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ يقلب ليالي الهجران، ونهار كشف العيان لأهل البيان والامتحان. ثم بين أن هذه الإشارات لذوي البصائر من العارفين بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي: بصيرة ومعرفة، وما بان من فحوى الخطاب من قوله: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾، وحقائق غلبة مشيئة الأزل على كل مشيئة إذ كل مشيئة قائمة بمشيئته، وكل إرادة صدرت من إرادته، فإذا انسلخ الكون وأهله من محل التصرف والإرادة في نفاذ مشيئة تعالى الله من كل كائن يقع بخلاف إرادته.

قال الواسطي: ما خالفه أحد ولا وافقه، وكلهم مستعملون بمشيئته وقدرته أنى يكون

(١) (الودق) : المطر ، يخرج من فتوقه ووسطه، وقال القشيري : ترتفع بقدرته بخارات البحر، فيتصعد، بتسييره وتقديره إلى الهواء، وهو السحاب، ثم يديره إلى سمت يريد أن ينزل به المطر، ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر، قطرة قطرة، ويكون الماء، حين حصوله في بخارات البحر، غير عذب، فيقلبه عذبا، ويسحبه السحاب سكبا، فيوصل إلى كل موضع قدرا يكون له مرادا معلوما ، لا بالجهد من المخلوقين يمسك عن المواضع الذي عليه ينزله ، ولا بالحيلة يستنزل على المكان الذي لا ينطره.

الوفاق والخلاف، وهو يقلب الليل والنهار بما فيهما، وهو قائم على الأشياء بالأشياء في بقائها وفنائها لا يؤنسہ وْجد ولا يوحشه فُقْد، بل لا فقد ولا وجد، إنما هي رسوم تحت رسوم.

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢٤)
وَأِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٢٥﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُونَ أَمْ يَخَافُونَ
أَنْ يَخِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أَوْلَيْتُكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ
إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٧﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ دعوا إلى مشاهدة الله بنعت المحبة والمعرفة، وعبوديته بنعت الإخلاص، ودعوا إلى رسوله بالمطابقة والموافقة في الشريعة والطريقة، وهنا أنقال من سارت مطيعة روحه بها في بقاء الأزل والأبد بقوة العناية والكفاية، وكيف لا يعرض عنها المعرضون، وليست هذه أحمال مطايا وجودهم المحروم في الأزل عن مشاهدة الأبد.

قال ابن عطاء: الدعوة إلى الله بالحقيقة، والدعوة إلى الرسول بالنصيحة، ومن لم يجب داعي الله كفر، ومن لم يجب داعي الرسول ضل.

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٢٨) • وَأَقْسَمُوا
بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَنْ أَمْرَتِهِمْ لِيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴾ (٢٨) من يطع الله في بذل وجودهم له، ورسوله بالقبول منه ما أتى به بلغت
الحرمة، ﴿ وَخَشِيَ اللَّهَ ﴾ عرفه وعلم منه ما له من لطف صحبته وعزيز وصلته بنعت إجلاله
وتعظيمه، ﴿ وَيَتَّقِهِ ﴾ يتق من فرقته، ومن هجرانه ووصل إلى غفرانه، وعظم في عرفانه،
وظفر بإحسانه، عين عاينه بلا كيف، ولا حيث، ولا حجاب، ولا حساب.

وقال الواسطي: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾: في آداب الفرائض، واجتناب المحارم،
ويخشى الله على ما مضى من ذنوبه من أن يكون مأخوذاً بها، وما مضى من حسناته ألا يقبل
منه، ويتق الله فيما بقي من عمره من ردة محبطة وعقوبة محجة ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴾ (٢٨) أي: سبقت لهم السعادة.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَلَيْفَ الْمَصِيرُ ۝ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْذِنُوا كَمَا اسْتَفْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ إن تطيعوه بالعبودية تهتدوا به إلى أنوار الربوبية، وإن تطيعوه بالمحبة تهتدوا به إلى المشاهدة، وإن تطيعوه بالمعرفة تهتدوا إلى الوصلة، وإن تطيعوا الرسول تهتدوا إلى ما فيه من عجائب المكاشفات والمشاهدات والمعارف والمجائب، وإن تطيعوه بالحرمة والأدب تهتدوا به إلى سني الدرجات ومعالي الكرامات.

قال أبو عثمان: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾.

قال محمد بن الفضل: إن تطيعوه في سته يوصلكم بركتها إلى حقائق القيام بآداب الفرائض، فتكونوا من المهتدين، من المراققين بشرط الأدب مع الله، قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾^(١) الإشارة فيه أن من

(١) قال سعيد بن المسيّب: كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج

طمسته أنوار سطوات العظمة، فهو من رؤية الكل معذور، ومن كسرت رجل همته أحجار منجنيق الأزل في فقر الديمومية، فهو معذور إذا انقطع عن السير في بيداء الأزال والآباد؛ لأن القدم والبقاء غير محصورين، من أمرضته أسقام المحبة والشوق والعشق والمعرفة؛ فهو معذور عن الاشتغال بكثرة العبادة.

قال جعفر في هذه الآية: كل هذا في القعود عن الجهاد وتركه.

وقال بعضهم: إذا دُعي إلى دعوة أن يدخل معه قائده.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مُفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الإشارة فيه إلى الانبساط إلى الإخوان والأصدقاء الصادقين الذين مصادقتهم لله، وفي الله على استواء السر والعلانية في الإخلاص لله.

قال أبو عثمان: الصديق من لا يخالف باطنه باطنك، كما لا يخالف ظاهره ظاهره إذا ذاك يكون محل الانبساط إليه مباحًا في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ إذا دخلتم بيوت أولياء الله بالحرمة والاعتقاد الصحيح، فأنتم من أهل كرامة؛ الله فسلموا على أنفسكم بتحية الله؛ فإنها محل كرامة الله في تلك السلعة.

قال جعفر: تحية الله أي: سلامة من المحن والفتن، ومن الشر كله.

والمرضى وعند أقاربهم، وبأذنهم أن يأكلوا من بيوتهم، فكانوا يتخرجون من ذلك، ويقولون: نخشى أن تكون نفوسهم غير طيبة بذلك، فنزلت الآية، رُخْصَةً لهم. وقيل: كانوا يتخرجون من ذلك ويقولون: نخشى أن تكون نفوسهم غير طيبة بذلك، فنزلت الآية رُخْصَةً لهم وقيل: كانوا يتخرجون من الأكل معهم؛ لأن الأعمى لا يبصر الطيب من الطعام، والأعرج لا يستطيع المراحة عليه، والمرضى لا يستطيع استيفاءه. البحر المديد (٢٦٦/٤).

وقال ابن عطاء: التحية الأمان.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَفِذُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَفِذُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَفِذُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ إشارة الآية إلى المريدين وموافقتهم مشايخهم في جميع الأحوال ألا يستبدوا بأرائهم في أمور الشريعة والطريقة، وألا يخالفوهم بالاستبداد بالخروج من عندهم إلى السفر والحضر والمجاهدة والرياضة.

قال عبد الله الرازي: قال قوم من أصحاب أبي عثمان لأبي عثمان: أوصنا، قال: عليكم بالاجتماع على الدين، وإياكم ومخالفة الأكابر والدخول في شيء من الطاعات إلا بإذنهم ومشورتهم وواسوا المحتاجين بما أمكنكم، فأرجوا ألا يضيع لكم سعي، قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ احترام الرسول من احترام الله، ومعرفة من معرفة الله، والأدب في متابعتة من الأدب مع الله.

قال ابن عطاء: لا تخاطبوه مخاطبة، ولا تدعوه بكنيته واسمه واتبعوا آداب الله فيه بدعائه ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾، و﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة هاهنا والله أعلم فتنة صحبة الأضداد والمخالفين والمنكرين، وذلك أن من صاحبهم بسوء ظنه بأولياء الله؛ لأنهم أعداء الله، وأعداء أوليائه يقعون كل وقت في الحق، ويقبحون أحوالهم عند العامة لصرف وجوه الناس إليهم، وهذه الفتنة أعظم الفتن.

قال أبو سعيد الخراز: الفتنة هي إسباغ النعم مع الاستدراج من حيث لا يعلم العبد.

وقال رويم: الفتنة للعوام، والبلاء للخواص.

وقال أبو بكر بن طاهر: الفتنة مأخوذ بها، والبلاء معفو عنه ومثاب عليه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١﴾ ما في السماوات من خزائن قلوب الملائكة، وما في الأرض من خزائن معرفته وجوده في قلوب أهل المحبة يعلم السرائر والضمائر، وما يجري من داء شوقه ومحبه على قلوب المقبلين إليه فيجازيهم يوم كشف المشاهدة، ويخبرهم بما مضى من أيام الفراق، ويعتذر إليهم بحسن الانبساط، ورفع الحجاب أبد الأبدین.

سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ وصف نفسه بالتنزيه والتقديس وبركة جمال تجليه الذي آثاره في كل ذرة من العرش إلى الثرى فباركها ببركة جماله فتنبو من أصل مصادرها بقوة قيام الحق عليها بقيوميته، وبقيوميته قامت، ومن صولة عزت تفنى فيه، فلم تزل قائما بنفسه، ولا تزال باقيا بوجوده، وخصَّ حبيبه بإنزال الفرقان عليه ليفرق به بين كل داني وعالي، وبين مقام ومقال، وبين حال وإعمال، وبين كشف وخيال فيكون بجمهور السالكين معلما عن الحق مخوفا عن عظمتة واستغنائة عن الخلق، وعن قدسه عن إشارات الخلق إليه.

قال بعضهم: أصل البركات كلها ممن يقدر إنزال مثل هذا القرآن الذي يفرق بين الحق والباطل على أجل عبيده وأولاهم بالبركة وهو محمد ﷺ.

وقال سهل: يريد بالفرقان الفرقان الذي فيه المخرج من كل شبهة.

وقيل: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ أي: على عبده الأخلص، ونبه الأخص، وحبيبه الأدنى،

وصفيه الأولى ليكون للخلق سراجاً منيراً.

قال الجنيد: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾ كالكناية والكناية كالإشارة والإشارة لا يدركها إلا الأكابر.

وقال بعضهم: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعالى عن إدراك الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ ﴿٢﴾ أوجد الكون، وقدر كل شيء قبل وجوده بما في علمه ومشيته على قدر مقادير قوة الأشياء حمل أمانات معرفته لا يزيد عن ذلك، ولا ينقص إلى الأبد.

قال الحسين: أول ما خلق الله تعالى ذكره ستة أشياء في ستة وجوه، قدر بذلك تقديرًا الوجه الأول: المشيئة خلقها على النور، ثم خلق النفس ثم الروح ثم الصورة ثم الأحرف ثم الأسماء ثم الكون ثم الطعام ثم الرائحة، ثم خلق الدهر، ثم خلق انقذار، ثم خلق العماء ثم النور، ثم الحركة، ثم السكون، ثم الوجود، ثم العدم، ثم على هذا خلقًا بعد خلق في كل وجه من الستة خلقهم في غامض علمه لا يعلمه إلا هو قدرهم تقديرًا، وأحصى كل شيء علمًا.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٦﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا﴾ ﴿٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٨﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجعل لَكَ قُصُورًا﴾ ﴿٩﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ﴿١٠﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ ﴿١١﴾ وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ﴿١٢﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ﴿١٣﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا﴾ ﴿١٤﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا﴾ ﴿١٥﴾ وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ ﴿١٧﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ ﴿١٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ

لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۚ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۚ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ • وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ تَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢٦﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكُ لَا يُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٧﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾
تقاصرت أبصارهم عن معاني جوهره الذي هو حامل أثقال أنوار كشف الأزل والأبد، وهو روحه الذي سابق الأشياء بالقدس والأنس، فعاين الحق قبل الخلق، فدخل صورته كمصباح في جوهر زجاجة صافية يضيء، ولو لم تمسه نار تضيء صورته بضياء الفعل، ويتنور روحه بنور الصفة، ثم صار صورته وروحه قنديل أنوار ذات الحق يتجلى منه للعالمين، فمن خصه الله بالأهلية منه فيراه بنور الحق، ويرى الحق منه؛ فلا يقع نظره إلا على قدس وطهارة.
قال جعفر: عيروا الرسول بالتواضع والانبساط، ولم يعلموا أن ذلك أتم لهيبتهم، وأشد في باب الاحترام لهم، وذلك أنهم لم يشاهدوا منه خصائص الاختصاص ألهم ذلك عن قولهم: ﴿مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ...﴾ الآية.

ثم بين سبحانه أن الأكل والشرب والمشي والسعي في الحوائج لا ينافي النبوة والولاية والاصطفائية الأزلية، وأن جمهور الأنبياء ما خلوا من صفة البشرية إذ البشرية مركب الصورة والصورة مركب القلب، والقلب مركب العقل، والعقل مركب الروح، والروح مركب المعرفة، والمعرفة قوة القدوسية صدرت من كشف عين الحق، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ هذا سنة الله في الخلق والأنبياء والأولياء شاركوهم في البشرية، وفارقوهم في المعرفة والمحبة.
قال جعفر: ذلك أن الله لم يبعث رسولا إلا أباح ظاهره للخلق بالكون معهم على شرط البشرية، ومنع سره عن ملاحظتهم والاشتغال بهم؛ لأن أسرار الأنبياء في القبضة لا تفارق المشاهدة بحال.

ثم بين سبحانه أن العارف الصادق فتنة للجاهل الغبي، والمحِب القريب فتنة للمنكر البغيض بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الأغنياء فتنة الفقراء فالكل ممتحنون بنكاية قهره ومكره.

ثم استفهم منهم بقوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: أتصبرون يا أهل الحقائق في بلائي وامتحاني وأنتم بمرأى مني أجازيكم بمشاهدتي وكشف جمالي؟

قال القاسم: أتصبرون عن نظر بعضكم إلى بعض كأنه أمر بالإعراض عما جعل في نظره فتنة، ويدل عليه قوله: ﴿لَا تَعْمَدَنَّ عَيْنَيْكَ﴾^(١) [الحجر: ٨٨].

وقال الحسين: كسا كل شيء كسوة فانية لا ينفك عنها إلا من عصمة الله، وهو اضطرار في الأحوال لا اختبار في التلذذ بالشواهد والأعراض.

وقال الواسطي: ما أوجد موجوداً إلا لفتنة، وما أفقد مفقود إلا لفتنة، قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٢) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا^(٣) وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَتُزَلَّ الْمَلَكُوتُ تَنْزِيلًا^(٤) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْهَاقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا^(٥) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِيَّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٢) أخبر سبحانه عن العمال، وأعمالهم التي عملوها بالرياء والسمعة، واستحسانهم ذلك من قصور نظرهم عن إدراك تنزيه ساحة كبرياء الحق الذي بوجوده مستغنى عن الكون وأهله؛ فلما استكثروها صارت هباءً منثوراً بريح الشوك والرياء أين هم من خوالص عبودية العارفين حتى تفتى عند ظهور عظمتهم وجلالهم؛ فرفعها الحق عن أعينهم، وبقي في عيونهم أنوار عزته وجلال عظمتهم.

قال ابن عطاء: أطلعناهم على أعمالهم؛ فطالعوها بعين الرضا فسقطوا عن أعيننا بذلك، وجعلنا أعمالهم هباءً منثوراً.

ثم أخبر سبحانه عن مقامات المخلصين في طاعته في جوار جلاله بقول الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾^(٣) يعني أصحاب جنات المشاهدة في مستقر الوصلة، ومقيل المداناة في ظلال الجمال والجلال أبداً بلا تحويل ولا تبديل. قال بعضهم: في دار القرار على ميعاد لقاء الجبار من غير خوف ولا زوال، وأحسن مقيلاً استرواحاً.

(١) قال ابن عجيبة: لا تتمدن عينيك إلى شهود الحس، ولا إلى ما متعنا به أصنافاً من أهل الحس، الواقفين مع شهود الحس؛ فإن ذلك يحجبك عن شهود المعاني القائمة بالأواني، بل المفنية للأواني عند سطوع المعاني، ولا تحزن عليهم حيث رأيتهم منهمكين في الحس؛ فإن قيام عالم الحكمة لا يكون إلا بوجود أهل الحس، واخفض جناحك لمن اتبعك من المزمين بخصوصيتك، البحر المديد (٣ / ٢٤٢).

﴿يَنوَيْلُنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ٢٨ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ ٢٩ ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ٣٠.

قوله تعالى: ﴿يَنوَيْلُنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ٢٨ الخلة والمصادقة إذا كان الله يزيد الشرف والراحة والبسط والقربة في الدنيا والآخرة.

قال أبو حفص: الخلة إذا صحت أورثت صاحبها شفقة على خلانه وطاعة لربه، وإذا لم تصح أورثت صاحبها تحيرًا وتكبرًا على إخوانه، وانهاكًا في معصية ربه.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٣١ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ٣٢ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ٣٣ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ٣٤ ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ٣٥ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ ٣٦ ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزِلْنَهُمْ ذَمِيرًا﴾ ٣٧ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ٣٨ ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ ٣٩ ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ إِلَى الْأَمَثَلِ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ ٤٠ ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَلْقَمْنَا يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ ٤١ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُوعًا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ٤٢ ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ٤٣.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٣١ يمتحن أوليائه وأنبياءه بأهل السالوس والناموس والمرائين، وحثهم على إيذاء أهله ليظهر شرف اصطفايتهم، وفضائل عواقبهم، وينصرهم على عدوهم.

ألا ترى كيف قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ٣٢ هداهم إلى نفسه بنفسه، ونصرهم بنفسه على أنفسهم وأعدائهم من شياطين الإنس والجن شاهدتهم مشاهدته، وأيدهم بقوة جبروتية لئلا يتلاشوا في سطوات عظمتهم.

قال أبو بكر بن طاهر: رفعت درجات الأنبياء والأولياء بامتحانهم

بالمخالفين والأعداء.

قال ابن عطاء: هاديًا إلى معرفته، ونصيرًا عند رؤيته لتلا يتلاشى العبد عند المشاهدة.
﴿أَرَأَيْتَ مَنْ آخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (١٣) أم تحسب أن
أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ^١ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
سَبِيلًا﴾ (١٤).

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ آخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾ غير الله سبحانه المتابعين هواهم؛ لأنهم
بمعزل من رؤية الألوهية، ومشاهدة الأزلية، استفهم على وجه التعجب من حبيبه بقوله:
﴿أَرَأَيْتَ مَنْ آخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾ أي: اطلعت شمس أنوار الصفات من مشارق الآيات،
وأن هؤلاء البطالين بقوا في ظلمات الطباع.

قال أبو سليمان: من أتبع نفسه هواها؛ فقد شرك في قتلها؛ لأن حياتها بالذكر وموتها
وقتلها بالغفلة، وإذا غفل اتبع الشهوات، وإذا اتبع الشهوات صار في حكم الأموات.
ثم خاطب نبيه ﷺ وأعلمه أن أهل الغباوة والجهالة لا يسمعون مقالته بأذان قلوبهم،
ولا يعقلون إشاراته بالحقيقة حيث إن أسماعهم وقلوبهم وأبصارهم وعقولهم محجوبة عن
مناداة الحق من الغيوب في القلوب، قال الله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾.
قال ابن عطاء: لا تظن أنك تسمع نداءك إنما يسمعون نداء الأزل؛ فمن لم يسمع نداء
الأزل، فإن نداءك له ودعوتك لا تغني عنه شيئًا، وإجابتهم دعوتك هو بركة جواب نداء
الأزل ودعوته، فمن غفل أو أعرض، فإنما هو لبعده عن محل الجواب في القدم.

(١) اعلم أن الإنسان: إمّا إنسان حقيقي، وهم الذين لهم قلوب يفقهون بها، ولهم أعين يبصرون بها، ولهم
آذان يسمعون بها، فمتعلق فقههم هو العلم الإلهي، ومتعلق أبصارهم آثار الله، ومتعلق أسماعهم كلام
الله، سواء كان بطريق الخطاب الغيبي، أو بطريق الخطاب البشري، أو بطريق غيرهما.

وإمّا إنساني: وهو بعكس من ذكر، وإنما قيل له: إنسان حيواني؛ لأنه إنسان من حيث حيوان من حيث
السيرة؛ ولذا شبه بالأنعام؛ لأن الأنعام لا تتجاوز الحس، والملك إلى عالم المعنى والملكوت، فالإنسان
الحيواني: ليس له روح إنساني، وقلب، وسمع، وبصر بحكم غلبة الحيوانية، فمن قال: إن الروح
الإنساني مشترك فيه دون القلب ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]
فهو ذهل عن الآية المذكورة، وفرّق بين القلب والروح؛ بل القلب، والعقل، والروح جوهر واحد
في الحقيقة، وإنما الاختلاف بحسب الاعتبار، فالقلب محل الشهود، والعقل محل الإدراك، والروح
محل المعرفة، فإذا كان الإنسان خاليًا عن الشهود، والإدراك الحقيقي، والمعرفة الإلهية كان حيوانًا حكيًا،
وإن كان إنسانًا صورة بحكم المرتبة، فالاعتبار ليس بالمرتبة؛ بل بحقائقها، وأحكامها الظاهرة بالفعل،
فاعرف جدًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ۝ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝ لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِيًّا كَثِيرًا ۝ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ۝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۝ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۝ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ (١) الإشارة في الآية أن للعارفين في مقام المراقبة والمحاضرة ثلاث مقامات: مقام كشف أنوار الفعل، وكشف أنوار الصفة وكشف أنوار الذات، فإذا ذهب ظلام ليالي الطبيعة من عالم الغيب، وتلاشى دخان النفس الأمارة، وصار سماء الروح، وهواء العقل، وأرض القلب صافية عن عللها، وظلمات هواها، ولم يكن هناك شمس الذات، وأنوار الصفات يمد الحق سبحانه ظلال بهاء فعله في ولاية القلب على مقادير تربية أسرارها، فلما قويت الأسرار بظلال فعله يطلع عليها أنوار الصفات؛ فلما قويت بأنوار الصفة يطلع عليها شمس الذات فرباه أولاً في ظل الفعل ثم قواه بنور الصفة.

ثم كشف له جلال الذات حتى صار مكاشفاً مشاهداً عين الحقيقة، وأصل الأصول، وهناك محل الفناء والبقاء، ومقام الخطاب الصرف، وظهور أسرار الربوبية، فالأول: ظل العناية، والثاني: مقام النولية، والثالث: مقام المشاهدة التي هي قبلة الكلية لجميع الأنبياء والصديقين والمقربين، ومنتهى مأمول الراغبين، هذه مسالك جميع السالكين، ولسيد العالمين

(١) أي: بسطه فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لأنه لا شمس معه وهو أطيب الأزمنة لأن الظلمة الخالصة سبب لنفرة الطبع وانقباض نور البصر وشعاع الشمس مسخن للجو ومفرق لنور الباصرة وليس فيما بين طلوعيهما شيء من هذين. تفسير حقي (٩ / ٢٣٨).

ﷺ في ذلك خاصية لم يكن لأحد فيها نصيب، وذلك أنهم يسلكون من مقام مشاهدة نور الفعل إلى مشاهدة نور الصفة، ثم إلى مشاهدة نور الذات، وهو ﷺ في أول حاله شاهد العين، ثم شاهد الصفة، ثم شاهد الفعل رحمة للعالمين، ولو بقي في مقام الأول لما استمتع به الخلق في متابعتة.

ألا ترى إلى قوله سبحانه لحبيبه ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أشهده ذاته، وأبرز له صفاته، ثم أحاله إلى رؤية الفعل بقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ لتلا يقنى في سطوات عظمة ذاته وصفاته، فلما ضاق مكانه في رؤية الفعل، وطالب الأصل، وشقَّ عليه الاحتجاب به عنه كاشف الحق عنه ضرار الفعل، وأبرز له مشاهدة ذاته بقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: خفيًا سريعًا، ولولا فضله ورحمته في قبضه خفيًا يسيرًا لاحترق الكل في أول بداية طلوع الجمال والجلال على قلوبهم، وهو تعالى خاطب الجمهور برؤية فعله، وخاطب حبيبه برؤية ذاته وصفاته، وهنا كما قال الواسطي: أثبت للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق، وأثبت للخاصة الخالق، فأثبتوا به المخلوق، ومخاطبة العام ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]، و ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، ومخاطبة الخاص ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾.

قال بعضهم: قال لنبينا محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ العصمة قبل أن أرسلك إلى المخلوق، ولو شاء لجعله ساكنًا أي: جعله مهملاً، ولم يفعل، بل جعل الشمس التي طلعت من صدرك دليلاً، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، هذا خطاب من أسقط منه الرسوم والوسائط.

قال ابن عطاء: كيف حجب الخلق عنه، ومدَّ عليهم ستور الغفلة وحجبها.

وقال في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾: شمس المعرفة هي دلائل القلب إلى الله، وعن جعفر قال: حجب الخلق عنه.

وقال بعضهم: الظل حجاب بينك وبين الله، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، وهو نور الهداية بالإشارة ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ وهو جذب القدرة التي يجذبك من الأشياء إليه.

وقال الأستاذ: ظل العناية على أحوال أوليائه، فقوم هم في ظل الحماية، وآخرون في ظل الرعاية، وآخرون في ظل العناية بالفقراء في ظل الكفاية والأغنياء الراحة والحماية، ويقال: أحيا قلبه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾، ثم أفناه بقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ فكذاسته

مع عباده يردهم بين إفناء وإبقاء.

ثم من الله علينا براحة الليل وستره بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ إذا هجم ظلال الليل على أهل شوقه هاج أسرارهم بنعت الشوق والأنس إلى قربه ووصاله؛ فينكشف لهم أسرار الملك والملكوت، وأنوار العزة والجبروت، وهم يتقلبون فيها بأشكال غريبة، وحركات عجيبة، ومناجاة لطيفة، ومواجيد عظيمة، وعبرات عزيزة، ولولا ستر الليل عليهم لفشا أحوالهم، وانكشف أسرارهم عند الخلق، فإذا كانوا في حالة اليقظة فحالم الغلبات، فإذا أنسوا بنور الجمال يأخذهم النوم، ويقطعهم عن التهجد، وبرجاء الوجد، فيسكنون في روح الأنس وراحة القدس، وربما يرون المقصود في نومهم كما حكى عن شاه بن شجاع أنه لم ينم ثلاثين سنة، فاتفق أنه نام ليلة فرأى الحق سبحانه في منامه، ثم بعد ذلك يأخذ الوسادة معه، ويضطجع حيث كان، فسئل عن ذلك فأنشأ يقول:

فَأَجَبْتُ التَّنَعُّسَ وَالْمَنَامَا رَأَيْتُ سُورَ قَلْبِي فِي مَنَامِي

يا فهم لهم في زمان الامتحان ليل الحجاب، وسبات الغفلات، فإذا ذابوا في مقام الفرقة أخذ الله أيديهم بكشف الوصال بقوله: ﴿وَجَعَلَ الْهَارَ فُشُورًا﴾ أطلع عليهم بعد ذلك شمس العناية من مشرق الكفاية، نومهم سبب الزلفات، وسباتهم راحة المداناة، وهذا حال أهل النهايات.

لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكَ يَلْقَى خَيَالِيَا وَإِنِّي لَأَسْتَفْشِي وَمَا بِي نَعْسَةً

قال الأستاذ: الليل وقت لسكون قوم، ووقت لانزعاج آخرين؛ فأرباب الغفلة يسكنون في ليلهم، والمحبون يسهرون في ليلهم، وإن كانوا في روح الوصال؛ فلا يأخذهم النوم بكمال أنفسهم، وإن كانوا في ألم الفراق، فلا يأخذهم النوم لكمال قلقهم فالسهر للأحباب صفة أو ما لكمال السرور أو لهجوم الهموم.

ويقال: جعل النوم لقوم من الأحباب وقت التجلي، يريهم ما لا سبيل إليه في اليقظة، فإذا رأوا ربهم في المنام يؤثرون النوم على السهر، وهذا كما أنشد:

وَلَوْ لَا مَكَانَ الطَّيْفِ لَمْ أَتَهَجَّعْ فَلَوْلَا رَجَاءُ الْوَصْلِ مَا عَشْتُ سَاعَةً

ثم زاد مته بأن نشق نسائم روح وصاله أهل شوق جماله بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيِّنَ يَدَيَّ رَحْمَتِهِ﴾ إذا أراد سبحانه كشف لقائه لأرواح العاشقين يرسل رياح الواردات قبل حصول كشف المشاهدات، فيستنشقون منها نسيم الأنس، وهم يعلمون أن ذلك مبشر كشف القدس، والحكمة في ذلك أنه تعالى يكتسر بها قلوب المحبين غبار الحدثان، وهواجس النفس، والشيطان حتى لا يبقى فيها غير جمال الرحمن؛ فإذا رأوا آثار

ملك المبشرات علموا أن ذلك وقت ظهور المقصود وحصول المأمول.

إِذَا أَقْبَلْتُ مِنْ نَحْوِكُمْ بِهَبُوبٍ وَإِنِّي لَأَسْتَهْدِي الرِّيحَ نَسِيمَكُمْ

قال ابن عطاء: يرسل رياح الندم بين يدي التوبة.

قال أبو بكر بن طاهر: إن الله يرسل إلى القلب ريحاً، فيكفه من المخالفات، وأنواع الكدورات، ويصفيه لقبول الموارد عليه؛ فإذا صادف القلب ذلك الريح فتنسم نسيمها ثم اشتاق إلى الزوائد من فنون الموارد فيكرمه الله بالمعرفة، ويزينه بالإيمان، ألا تراه يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ الاشتياق على قلوب الأحباب فتزعجها عن المساكنات، ويطهرها ما عن كل شيء إلا عن اللوائح؛ فلا تستقر إلا بالكشف والتجلي.

ويقال: إذا انتسمت القلوب نسيم القرب هام في ملكوت الجلال، وأعمى من كل رسوم ومعهود، ثم زاد المنة سبحانه بذكره وصف مياه الكرم الذي يطهر به قلوب أحباب وجه القدم من لوث غبار العدم بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿١٥﴾ انشأ في الأول سحائب الرحمة، وبشر رياح الزلفة، ثم مطر مطر الخطاب والكلام من بحر الذات والصفات على أرض قلوب أهل المشاهدات، فطهرها عن صفات البشريات وأحيائها من موت الغفلات، وأنبت فيها أشجار المعرفة، ورياحين المحبة، وذلك قوله تعالى: ﴿لِنُخَبِّئَ بِهِ بَلَدَةً مَّيْمَنًا﴾، ثم جعل قلوبهم سواقي المعارف والكواشف، فيفيض سقيها إلى الأرواح والأشباح، قال تعالى: ﴿وَنُفِّقِيَهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِيًّا كَثِيرًا﴾ ﴿١٦﴾.

قال بعضهم: طهر قلوبهم ببركاته عن المخالفات، وطهر أبدانهم بظاهر رحمته من جميع الأنجاس.

قال النصر آبادي: هو الرش الذي يرش من مياه المحبة على قلوب العارفين، فيحيى به نفوسهم بإماتة الطبع فيها، ثم يجعل قلبه إماماً للخلق بفيض بركاته عليهم، فيصيب بركات نور قلبه من كل ذوات الأرواح، قال الله تعالى: ﴿وَنُفِّقِيَهُ...﴾ الآية.

قال الأستاذ: أنزل من السماء ماء المطر فأحيا به الرياض والغياض، وأنبت به الأزهار والأنوار، وأنزل من السماء ماء الرحمة، فغسل للعصاة ما تلطخوا به من الأوضار، وتدنسوا به من الأوزار، وماء الحياء يطهر قلوب العارفين عن الجنوح إلى المساكنات، وما في بعض الأحوال يتداخلها من الغفلات، وماء الرعاية فيحيى به قلوب المشتاقين مما يتداركها من أنوار التجلي حتى يزول عنها عطش الاشتياق، ويحصل فيها من سكرة الاستقلال، ويحيى به نفوساً ميتة اتباع الشهوات، فيردها إلى القيام بالعبادات، ثم مرج سبحانه بحر المعرفة، وبحر

النكرة في قلوب العارفين بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ فبحر المعرفة بحر الصفات، وبحر النكرة بحر الذات^(١).

ثم وصف البحرين فقال: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فبحر الصفات عذب للعارفين إذ هي فياضة لطائفها إلى الأرواح والقلوب والعقول، وهي أدركت نعوتها وأسماءها بنورها ففهمت وعرفت معارفها وكواشفها على قدر الطاقة لا على الحقيقة، وبحر الذات ملح أجاج إذ امتنع بحار حقائقه عن تناول العقول والقلوب والأرواح والأسرار، فإذا انحسرت هذه السائرات رأت في بیداء الأزل، وانقطعت ساحتها في بحار القدم فصارت نكراتها مهلكها، وبين بحر الصفات والذات برزخ المشيئة والإرادة لا يدخل أهل بحر الصفات بحر الذات، ولا يرجع أهل بحر الذات إلى بحر الصفات.

قال تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، ولا يختلطان فمياه بحر الروح من بحار مشاهدة الألفاف، ومياه بحر النفس ملح أجاج، وهي من بحار القهريات.

قال ابن عطاء: تلاطمت صفتان فتلاقتا في قلوب الخلق، فقلوب أهل المعرفة منورة بأنوار الهداية مضيئة بضياء الإقبال، وقلوب أهل النكرة مظلمة بظلمات المخالفات معرضة عن سنن التوفيق، وبينهما قلوب العامة ليس لها علم بما يرد عليها وما يصدر منها، ليس معها خطاب ولا لها جواب.

قال الأستاذ: القلوب بعضها معدن اليقين والعرفان، وبعضها محل الشرك والكفران.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أخبر سبحانه عن حقيقة التوكل بهذه الآية، والإشارة فيها أن من له ذخيرة عظيمة غير منقطعة؛ فإنه ساكن القلب بها،

(١) قال حقي: من مرج الدابة خلاها وأرسلها ترعى ومرج أمرهم اختلط والبحر الماء الكثير عذبا كان أو ملحا عند الأكثر وأصله المكان الواسع الجامع للماء الكثير كما في المفردات. والمعنى خلاها وأرسلها في مجاريها كما يرسل الخيل في المرج متلاصقين بحيث لا يتمازجان ولا يلتبس أحدهما بالآخر ويدل على بعد كل منهما عن الآخر مع شدة التقارب بينهما الإشارة إلى كل منهما بأداة القرب كما يجيء ويجوز أن يكون محمولا على المقيد. تفسير حقي (٩ / ٢٤٨).

والحدثان بأسرها ليست بذخيرة غير منقطعة؛ فإنها ليست بقائمة بنفسها إنما قيامها بالله، وهو تعالى بذاته وصفاته مستند العارفين إذ عزته وجلاله قديم باقي لا يزول فإذا التوكل عليه حقيقة لمن عرفه بهذه الصفة؛ فقطع سر حبيبه عن الخلق جميعاً في أمر العبودية والربوبية والبلاء والعافية، والعيش في الدنيا والآخرة.

ثم أمره بتنزيهه وتقديسه حمداً لكفايته ورعايته بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أولاً ينقطع وجود أبد الأبدين، ويَبَيِّنُ أن أكثر خلقه محجوبون عن هذه الحقيقة، والمحجوبون عنها وقعوا في الأسباب، وهو في حقيقة التوكل ذنب الطريقة فخوفهم بها، وقال الله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِمْ ذُنُوبًا عِيبًا﴾.

قال بعضهم: التوكل استيلاء الوجد على الإشارة، وجذب التشرف إلى الإرفاق حتى يتدنى.

قال الواسطي: من توكل على الله لعله غير الله، فلم يتوكل على الله، ولما أمر سبحانه حبيبه بالتوكل على نعت الحقيقة، وأخبر فيه عن صفته الخاصة في نفسه من الحياة الأزلية الأبدية، وعن ذاته السرمدي زاد الخبر في إعلامنا قدرته وبقائه واشتغال قوته على جميع الحوادث وإنشائها بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ بَيَّنَّ أن الكون قائم به، وذكر رحانيته من حيث إنه رحم الخلق بإيجادهم ثم أمر حبيبه أن يسأل في حقيقة هذا الأمر عن جلال عزته، وبقائه ديموميته والمعرفة بذاته، وصفاته عن خبراء عرفانه، وبصراء العلم بجبروته وملكوته بقوله: ﴿فَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا﴾ وهم الذين عرف الله نفسه لأرواحهم في الأول بالأولية والآخرة والقدرة والمشيئة وكمال الرحمة، وهم باقون في الأشباح بنعت الأرواح في عبوديته وعرقان ربوبيته وفي كل لمحة يزيد معرفته بجلاله وقدره.

وقال الحسين: هم الذين أقامهم الله في البلاد أذلة للعباد منهم من يدل على سبيل الحق، ومنهم من يدل على آداب سبيل الحق، ومنهم من يدل على شرائع الإيمان، ومنهم من يدل على الحق، فهو الدليل على الحق؛ لأن الكل محتاجون إليه وهو مستغن عنهم، يرجعون إليه في السؤال، ولا يسأل هو أحداً كالخضر ونظرائه؛ لأنهم أوتوا العلم اللدني.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾^(٦)
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا^(٧)
وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا

سَلَامًا ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٣٨﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٤١﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٤٢﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٤٥﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِبَآئِتٍ رَبِّهِمْ لَمْ يُحِجُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٤٦﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٤٧﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٤٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٤٩﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٥٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ ﴿٥٠﴾ تقدس بذاته وجلاله عن أن يكون محلاً للأرواح والعقول والأسرار جعل في سماء ذات القدم لأرواح العارفين وأسرار الموحدين، وعقول المقربين، وقلوب الصديقين أبراجاً من أنور صفاته لتسري فيها بنعت المعرفة، وطلب زوائد علوم الربوبية بنجوم الأسرار، وسيارات العقول، وشموس الأرواح، وأقمار القلوب إلى أبد الآباد، لا ينقطع سيرها في سناء الصفات وأنوار الذات؛ لأنها غير متناهية، وأيضاً جعل في سماء القلوب في سائر القلوب بروج المقامات والحالات لشمس الروح وقمر العقل ونجوم الهمم والعزائم.

قال جعفر بن محمد: سمي السماء سماء لرفعته وللقلب سماء؛ لأنه يسمو بالإيمان والمعرفة بلا حد ولا نهاية، كما أن المعروف لا حد له، كذلك المعرفة لا حد لها وبروج السماء مجاري الشمس والقمر وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وفي القلب بروج، وهي: برج الإيمان والمعرفة والعقل واليقين والإسلام والإحسان والتوكل والخوف والرجاء والمحبة والشوق والوله؛ فهذه اثنا عشر برجاً بها دوام صلاح القلب كما أن الاثني عشر برجاً من الحمل والثور إلى آخر

العدد وصلاح الدار الفانية وأهلها.

وقال في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ في السماء سراج الشمس ونور القمر وفي القلب سراج الإيمان والإقرار بالوحدانية والفردانية والصمدية، وقمر المعرفة يشرق بأنوار الأزلية والأبدية فيتلاأ نور معرفته وإيمانه على لسانه بالذكر، وعلى عينيه بالعبر، وعلى جوارحه بالطاعة والخدمة، وتلك الأنوار من تمام أولية الله للعبد في الأحوال كلها. ثم بيّن سبحانه تخالف الليل والنهار لاعتبار العارفين وموعظة المريدين بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ جعل تعاقب ليالي الفترة، وكشوف نهار المشاهدة لزوائد ذكر العارفين وشكر المستأنسين.

قال بعضهم: خليفة يخلف أحدهما صاحبه لمن أراد خدمة ربه أو عبادته.

ثم وصف سبحانه على الوقار من العارفين والمطمئنين من المتمكنين بقوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ وصفهم بالعبودية خاصة، ومن العرش إلى الثري ملكه وعبيده أراد بأنهم بلغوا ميادين العبودية بأنوار الربوبية فانسلخوا من كل مراد دون وجه حبيبهم فتصح عبوديتهم؛ لانقطاعهم عن غيره، يمشون على الأرض على حد الوقار والهدوء والنسكينة إذ على مطايا قلوبهم أثقال أوقار أنوار عظمة الذات وسطوات الصفات.

ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ إذا سمعوا غير ذكر الله الصافي بنعت الإخلاص والمحبة والشوق، يقولون للمتكلفين: ﴿سَلَامًا﴾ أي: سلامة من الله علينا من مصاحبتكم ومباشرة تكلفكم.

قال الجنيد: عباد صفة مهمة، وعبادي صفة بالحقيقة، وعباد الرحمن صفة حقيقية بالحقيقة.

قال جعفر: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ بغير فخر ولا رياء ولا خيلاء ولا تبخر بل بتواضع وسكينة ووقار وطمأنينة وحسن خلق وبشر وجه. كما وصف النبي ﷺ المؤمنين؛ فقال: هينون لينون كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن أنخته على صخرة استناخ^(١).

وذلك لما طالعوا من تعظيم الحق وهيبته، وشاهدوا من كبريائه وجلاله خشعت لذلك أرواحهم وخضعت نفوسهم وألزمهم ذلك التواضع والتخشع.

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٢٧٢)، وابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٣٠).

قال سهل في قوله: ﴿سَلَمًا﴾، قال: صوابًا من القول وسدادًا.

ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ أخبر عن أحوالهم في شهود عظمتهم، وجلال سلطان كبريائه حين كاشفهم جمال وجهه، فساعة يتمرغون في التراب، ويعفرون وجوههم به؛ لحب عظمتهم وهيبته بهائه، وساعة يصرعون من صولة أنوار صفاته وبروز جلال ذاته، وساعة في القيام بنعت البهت والحيرة، وساعة في الركوع في رؤية العظمة، وساعة في السجود في مشاهدة دنو الدنو، فهكذا يبيتون عشاقه في حضرته فيولّهون من الذوق، ويتحIRON من الشوق، ويتيهون في تيه الكبرياء، ويستأنسون بعروس البقاء:

لَيْ اللَّيْلُ هَزَّتْنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَا
وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ بِاللَّيْلِ جَامِعٌ^(١) أَقْضِي نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمُنَى

قال أبو عثمان: أفنوا أوقاتهم في الخدمة تلذذاً بالمناجاة، وتقرباً إليه، وتحنناً إليه، كما قال النبي ﷺ حاكياً عن ربه: «لا ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه...»^(٢) الحديث.

ثم وصفهم بالإنفاق بالقصد بغير الإسراف والتقتير بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ الإسراف في النفقة إنفاق في غير مرضاة الله، الإنفاق بالرياء والسمعة والإقتار النجل والإمساك.

قال بعضهم: الإسراف في النفقة تعظيم المنفق نفقته، والإقتار فيه الامتنان به على من ينفق عليه.

وقال ابن عطاء: الإسراف في النفقة إنفاق في غير مرضاة الله، والإقتار الإمساك عن واجب حق الله.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي: إلا من انسلخ مما دون الله، ورجع بالله إلى الله، وعرف الله بالله وشرع في خدمة الله بنعت الإخلاص، والصدق في طاعة الله فيبدل الله تقصيراً توفيراً أو تحقيره توفيراً، وغيبه حضوراً، ومعصيته طاعة هذا وصف من قام في حضرة جلاله عند

(١) البیتان من الطویل، وهما لابن الدمینة فی «التذکرة الحمدونیة» لابن حمدون ص (٣٦٢٦).

(٢) رواه البخاری (٦٠٢١)، وأحمد فی مسنده (٢٥٦/٦).

شهود جماله بنعت الخجل والحيرة والحياء والفناء؛ فيكون أوزاره أنواره وأنواره أسرارها، فإذا كان كذلك؛ فإنه تعالى يتوب عليه بكشف المشاهدة ومدانة الوصلة، وفتح خزائن جود القدم وحقائق الطاف الكرم بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٧].

وقال رحمه الله: «من تاب تاب الله عليه»^(١).

ثم يبين أن التائب الصالح العارف الصادق تقع توبته عند مشاهدة الله بقوله: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلِنَّهُ يُتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾.

قال ابن عطاء: التوبة الرجوع من كل خلق مذموم والدخول في كل خلق محمود.

وقال طاهر: التوبة أن يتوب من كل شيء سوى الله.

ثم وصفهم بالقدس والطهارة عن شهود قلوبهم مشاهد الرياء والسمعة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ لا يشهدون بقلوبهم وأسرارهم ما دون رؤية القدم؛ فإن ما دون القدم يكون بالمحل كالعدم في العدم بالحقيقة، وكل شيء يكون بنعت العدم فوجوده زور؛ إذ لا حقيقة لوجوده مع وجود الحق الذي لم يزل ولا يزال موجودًا حقيقيًا.

ثم زاد في وصفهم أنهم لم يلتفتوا في مرورهم على أهل الدنيا ومزخرفاتهم إلى دنياهم كرمًا وظرافة بقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

قال ابن عطاء: ﴿يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ هو شهادة اللسان من غير مشاهدة القلب.

وقال جعفر: الزور أمانى النفس ومتابعة هواها.

قال سهل: الزور مجالس المبتدعين.

قال أبو عثمان فيما سأله عنه أحمد بن حمدان من قوله: ﴿يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ قال: لا

يخالطون المدعين.

ثم زاد في وصفهم بالتنبه واليقظ والاعتبار والفهم والإدراك في خطاب الله بقوله:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ إذا سمعوا

كلام الله وقفوا عليه بنعت التدبر والتفكير فيه والاستكشاف والتبين، فإذا وجدوا حقائق الخطاب أخذوا منه لطائف كنوز علوم الربوبية اللدنية، وشاهدوا جمال الحق في كلام الحق.

قال ابن عطاء: لم ينكروها ولم يعرضوا عنها بل أقبلوا على أوامرها بالسمع والطاعة

ونعمة عين.

(١) رواه البخاري (٣٨٢٦)، ومسلم (٤٩٧٤).

ثم أخبر عن مقالته عند شهودهم مشاهدته بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: اجعل أزواجنا وذرياتنا من أهل معرفتك ومشاهدتك ليكونوا زيادة نور أبصارنا، واجعلهم مطيعين لك ومعاونين لنا في خدمتك. قال جعفر: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ معاونة على طاعتك، ومن أولادنا حتى تقر عيننا بهم.

ثم وصفهم بزيادة الدعاء على أنفسهم بأن يجعلهم أئمة الهدى، وأن يجعلهم أئمة للمتقين أي: اجعلنا عرفاءك لتكون أئمة للزهاد والعباد.

يا فهم، إن العارف واصل مراد يعرف من الله مكان الحقائق، ومثله كمثل عنقاء مغرب، ومثل الزهاد وأهل التقوى كمثل الطيور الصغار المختلفة.

قال أبو عثمان: لا يكون إمامًا في التقوى من لم يصحح تقواه مع ربه، وبقي عليه شيء من ذلك إنما الإمام المقدم في الشيء، وإمام المتقين من يتقي كل شيء سوى الله.

ثم أخبر سبحانه عما يجازيهم بمأموهم: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ يجزون بغرف الوصال كشف أنوار الجبال بما صبروا في شوقه عنه به لا بغيره يسمعون سلام الله وتحيته واعتذاره إليهم، والفرق بين السلام والتحية أن السلام سلامة العارفين في الوصال عن الفرقة، والتحية روح تجلي حياة الحق الأزلي في أرواحهم وأشباههم، فيحيون بحياته أبد الآبدين ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين في مشاهدة الله ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ حسنت مستقرًا بهم ومقامًا بهم بحسن جمال الحق.

قال الترمذي: أهل الغرف كائن في أوائل الآية لا في آخرها، وإنما وصف أهل الغرف بما يعقل من ظواهر أمورهم، وإنما نالوها بما في باطنهم، ألا تراه تعالى يقول: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، والصبر في الأخلاق والآداب.

قال الواسطي: التحية غير السلام، السلام من عند الله، والتحية صفة الحياة مع الحق. وقال أيضًا: التحية من الله إلى الروح كسوة يحيا الروح بحياته؛ فلا يلاحظ غير من حياه وأكرمه وأدناه تحية من عند الله مباركة طيبة.

وقال أيضًا: التحية في الأصل ما يحيا به، فيفرح الروح بذلك، ويأنس به، وقال: التحية في الدنيا على العقول بركات ما يقع عليها من طيب ما أجرى عليها.

وقال بعضهم: التحية أنس الأسرار بالحي، والسلام سلامة القلوب من القطيعة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: طاب فيها المقام، وحسن فيها القرار.

وقال بعضهم: أحسن المقام، المقام في مشهد الحق، وأطيب القرار، القرار في جواره على فرش مرضاته.



سورة الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسّم ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ كُنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِمِيسِرٍ زُرُونِ ﴿٦﴾﴾.

﴿طسّم ﴿١﴾﴾ «الطاء» طهارة القدم من الحدثان، و«السين» سنا صفاته الذي ينكشف في مرآتي البرهان، و«الميم» مجده الذي ظهر بوصف البهاء في قلوب أهل العرفان، طاحت أرواح السابقين في مشاهدة طهارة ذاته، وسكرت قلوب أهل الأسرار في رؤية سنا صفاته، وانمحت عقول المحبين في شهود مجد كبريائه، طابت قلوب الوالدين بطيب وصاله، وسارت عقول الهامين في ميادين أسرارهم، وطارت أرواح المحبين بأجنحة محبته في جنان مشاهدته فـ«الطاء» طرب المستأنسين في طلبه، و«السين» سرور المحبين بها، وجدوا من أسرارهم، و«الميم» مهابة العارفين في بسيط ملكه.

قال الجنيد: «الطاء» طرب التائبين في ميدان الرحمة، و«السين» سرور العارفين في ميدان الوصلة، و«الميم» مقام المحبين في ميدان القربة.

وقال بعضهم: «الطاء» شجرة طوبى، و«السين» سدرة المنتهى، و«الميم» محمد ﷺ، وقيل: «الطاء» طرب المشتاقين، و«السين» سرور المحبين بمحبوبهم، والعارفين بمعروفهم، و«الميم» مقام الموافقة.

قال الأستاذ: «الطاء» إشارة إلى طهارة عزة وتقديس علوه، و«السين» دلالة على سنا جبروته، و«الميم» دلالة على مجد جلاله في أزله، ويقال: «الطاء» طرب أرباب الوصلة على بساط القربة بوجدان كمال الروح، و«السين» سرور العارفين بما كوشفوا به من بقاء الأحدية باستظلالهم لوجوده، و«الميم» إشارة إلى موافقتهم لله بترك تحيير على الله، وحسن الرضا باختيار الحق لهم.

ويقال: «الطاء» إشارة إلى طهارة أسرار أهل التوحيد، و«السين» إشارة إلى سلامة

قلوبهم عن مساكنة كل مخلوق، و«الميم» إشارة إلى منة الخالق عليهم بذلك^(١).

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعَ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢﴾ أخبر عن كمال شفقة حبيبه على أمته أنه كان يحب ألا يبقى في الأرض أحدًا إلا يكون لمحبة محبًا خاضعًا ووليًا صادقًا، وهو تعالى أخبره أن حرصك بإيمانهم لا يمنع سوابق حكمي فيهم، وفيه بيان أن الإيمان والمعرفة موهبة خاصة خارجة عن اكتساب الخلق.

قال سهل: تهلك نفسك باتباع المراد في هدايتهم وإيمانهم، وقد سبق مني الحكم في إيمان المؤمنين وكفر الكافرين فلا تغيير ولا تبديل.

﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى الْأَرْضِ كَرًا أُنْبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى الْأَرْضِ كَرًا أُنْبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿٣﴾ كما أنبت سبحانه من أرض الظاهر كل صنف ونوع من النبات الحسن الكريم أنبت في أرض قلوب العارفين كل لون من نبات المعارف وأنوار الكشف وأشجار المحبة ورياحين المودة والحكمة. قال أبو بكر بن طاهر: أكرم زوج من نبات الأرض آدم وحواء؛ فإنهما كانا سبيًا في إظهار الرسل والأنبياء والأولياء والعارفين.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٦﴾ قَوْمٌ فِرْعَوْنٌ إِلَّا يَتَّقُونَ ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٨﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿٩﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذُنُوبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٠﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِفَاتِنَتَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١١﴾ فَآتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٦﴾ ناداه بلسان الوصال وكشف الجمال.

ثم امتحنه بأعظم البلاء، وهو صحبة الأضداد إظهارًا للربوبية، وإيجادًا للعبودية فأشفق موسى على خلقه بأنهم إن كذبوه هلكوا؛ لأنه أخبر عن عظام المقامات وحقائق

(١) الحروف المقطعة في أوائل السور يجمعها قولك: (سر حصين قطع كلامه) وأولى ما قال أهل التفسير في حق هذه الحروف الله أعلم بمراده لأنها من الأسرار الغامضة كما قال سيدنا أبو بكر الصديق ؓ: «إن لكل كتاب سرًا وسر القرآن في المقطعات».

الحالات بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ١٣١ وخوفه كان شفقة عليهم.

قال ابن عطاء: أمره بدعائهم إلى توحيده، وقد أشهد عظمته في القراءة وإحاطة علمه وقدرته بعباده؛ فقال ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ فنطق بخوفه بلسان إعظام الحق وإجلاله؛ خوفاً من أن يرى تكذيبهم بمقال، ورد عليهم من الحق خاف من استماعه إنكاراً وأشفق من مشاهدتهم على ذلك إكباراً، ولما استطاب موسى مقام المداناة والمناجاة مع الحق سبحانه تعلل بقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ أي: ضاق صدري من حمل وارد كشف الألوهية، ومن غاية سكري بشراب المحبة والوصلة، ونظر روحي إلى جمال الديمومية ﴿لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ﴾ بإبلاغ الرسالة، ولا يحتمل صدري رحمة رؤيتهم ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ بالعبارة عن مقامي بين يديك لهم.

قال الشبلي: كذلك صفة من يحقق في المحبة أن يضيق صدره عن حمل ما فيه من أنواع المحن، ويكل لسانه من الإخبار عن شيء منه لنفرح به؛ فيموت فيها كمداً أو يعيش فيها فنداً. ولما طاب وقت موسى في استماعه كلام الحق من الحق بلا واسطة، وحصل له لذة الحضور والمشاهدة ثقل عليه إحكام الرسالة مع الخلق، وإبلاغها إليهم فتعلل بقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ ١٣٢ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٣٣، وليس بعجب طريان خوف الطبيعة وصفات البشرية على الأنبياء في الأصل؛ فالمعرفة ثابت، وهذا شرط الانبساط، والسؤال عن سر القدر هل يكون مقتولاً بيدهم بالحكم السابق، فأخبره الحق سبحانه أن فرعون وقومه من الهالكين لأجل عصيانهم له بقوله: ﴿كَلاَّ فَآذِهْبَا بِمَا نِتَنَآ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ﴾ ١٣٤ أي: من كنت معه بالنصر والظفر لا يخذله أحد.

قال أبو بكر بن طاهر: السؤال سؤال الحق تعالى عن علمه فأجابه: ﴿كلا﴾، ثم بدأ قال: ﴿فَآذِهْبَا...﴾ الآية، وهو تقدير بسؤاله أي: هل في سبق علمك وواجب حكمك أن يقتلون، يستدل على ذلك بجواب الحق له ﴿كلا﴾، ثم خاطبه وبعثه بالرسالة، وأمرهما بإظهار الدلالة.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ١٣٥ وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ١٣٦ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ١٣٧.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ ظن الملعون أنه ربي موسى، وكان موسى مُرَبِّي في حجر وصلة الله سبحانه بألبان شفقتة، ورعاية حسن عنايته حقيقة، فرجع إلى منه

المجاز، وكان ذلك من غاية جهله، وليته مَنْ عَلَى كليم الله الذي كان مستغرقاً في بحار امتنان الحق وتربيته بالطافه بقوله سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]؛ فيكتفي.

قال محمد بن علي: ليس من الفتوة تذكّار الصنائع، وتزداد على من اصطنعت إليه، ألا ترى إلى فرعون لما لم يكن له فتوة كيف ذكر صنيعه، وامتن به على موسى.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ إن الله سبحانه إذا أراد أن يُبلغ أحداً من خلقه إلى مقام من النبوة والولاية، وهو في موضع شائن يلقي عليه رعباً حتى يفر إليه من خلقه؛ فيكشف له خصائص أسرارهِ كما فعل لموسى، وكان في الأزل مجتبي بالرسالة والنبوة؛ فالإخبار عنه بقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ أي: من قبح أعمالكم لما خفتكم من نزول عقوبة الله عليكم، ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ معرفةً بجلاله وعزه، وفهماً بحقائق ملكه وملكوته، وعلماً بذاته وصفاته وربوبيته وعبرديته أي: كانت هذه المنزلة لي بحق الاصطفائية في الأزل، ولكن ظهر على لطائفها لما فررت منكم إليه.

قال بعضهم: الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين.

قال الله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾.

قال ابن عطاء: فررت من مجاورتكم، وخفت من جراتكم على ربكم لما لم تحفظوا حقوق الرسل، ولم أر عليكم علامات التوفيق.

وقال بعضهم: فارقتكم لما خفت نزول العذاب عليكم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا^(٤) إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ^(٥) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ^(٦) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ^(٧) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ^(٨) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ^(٩) قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ^(١٠) قَالَ أُولُو حِفْظِكِ بِشْيءٍ مُّبِينٍ^(١١) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ^(١٢) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ^(١٣) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ^(١٤) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَلِيمٌ^(١٥) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ

فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٢٧﴾ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٠﴾ لَعَلَّكُمْ تَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَخُنُّ الْغَالِبِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٣٤﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٣٦﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿٣٧﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلْفٍ وَلَا صَلْبِنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤١﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ كان الملعون مشبهًا لذلك قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: شيء هو؟ فوقع في الخيال، فأجابه موسى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: موجد الأشياء بلا كيف، وهو منزّه عن التكيف والتصوير، وزاد الحجة عليه من حيث قطع نسبة التشبيه عنه بقوله: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ أي: ليس الخالق كالمخلوق أوجدكم وأوجد آباءكم من العدم بقوة القدم، ومن كان قديمًا انقطع عنه إشارات الأوهام والخيال، فلما سمع الملعون حجة كاملة، وعلم أن حجته القطع نسب موسى إلى الجنون لما لم يكن له جواب لموسى، وخاف أن يسقط من أعين قومه.

قال عمرو المكي: علم فرعون أن الحجة قد وجبت فخاف الافتضاح عند قومه، فأعرض عن مساءلة موسى، ورجع إلى قومه، وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

قال موسى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إن كنتم تعقلون ﴿٤٢﴾ تبين بذلك حجته، وظهر افتضاحه في انقطاعه، فثبت الحجة عليه إذ لم يدفع الحجة بحجة، والإشارة في قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ مشرق قلوب العارفين يشرق بطلوع شمس تجلي الصفات والذات، ومغرب نفوسهم التي هي معدن ظلمات قهره حين ابتلاهم بالاستتار بعد التجلي. قال ابن عطاء: منور قلب أوليائه بالإيمان، ومشرق ظواهرهم به، ومظلم قلوب أعدائه بالكفر والعصيان، ومظهر آثار تلك الظلم على هياكلهم.

﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿١٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿١٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ لما عاينوا مشاهدة الحق سهل عليهم البلاء لا سيما أنهم يطمعون أن يصلوا إليه بنعت الرضا والغفران بقوله: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا ﴾ ﴿١١﴾ خطاياهم: احتجاجهم بالسحر عن رؤية لطائفه التي هي مرآة سر القدم، ولو وجدوا السحر بالحقيقة لم يكن ذلك خطأ، وإنما الخطأ وقع على الاحتجاب به عن الحق.

قال ابن عطاء: من اتصلت مشاهدته بالحقيقة احتمل معها كل وارد يرد عليه من محبوب ومكروه ألا ترى السحرة لما صحت مشاهدتهم كيف قالوا: «لا خير».

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ﴿١٠﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١١﴾ وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ ﴿١٢﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٧﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عِكْفِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٢٠﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ﴿١٠﴾ احتجاج القوم بالبلاء عن رؤية المبلي، وشاهد الكليم مشاهدة الحق في مقام الامتحان؛ لذلك أفرد نفسه من بينهم بقوله: ﴿ إِن مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أي: إن معي ربي بالرعاية والحفظ والعناية والمشاهدة سيهديني إلى وصاله الأبدي، وذخائر علمه الأزلي، وسر المعية في الحقيقة لا يتجاوز عن رؤية الذات والصفات والعلم والقدرة؛ لأن المعية إشارة المحب إلى المحبوب، ولو كان في محل الوحدة يكون حاله مرتفعاً من محل المعية إلى محل الاتحاد إلا أن في المعية مباشرة التجلي بنعت دنو

الدنو، حيث لا يبقى رسوم البعد والقرب.

قال الجنيد: حين سئل العناية أولاً أم الرعاية؟ قال: العناية قبل الماء والطين.

قال ابن عطاء: في قوله: ﴿إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي: معي ربي بعلمه وقدرته سيهديني إلى قربه حتى أكون معه بالمراقبة والرعاية والمحافظة والمشاهدة.

﴿فَلْيَنهَيْهُمْ عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنهَيْهُمْ عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ رأي الخليل عليه السلام نفسه على مثابة في الخلّة بألا يكون في زمانه له نظير يسمع كلامه من حيث حاله، فوق العداوة بينه وبين الخلق جميعاً، وأيضاً هذا إخبار عن كمال محبته إذ لا يليق بصحبته ومحبته أحد غير الحق.

قال سمنون^(١): لا تصح المحبة لمن لم ينظر إلى الأكوان، وما فيها بعين العداوة حتى يصح له بذلك محبة محبوبه، والرجوع إليه بالانقطاع عما سواه.

ألا ترى الله تعالى حاكياً عن الخليل قوله: ﴿فَلْيَنهَيْهُمْ عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ هجرت الكل فيك حتى صحّ لي الاتصال بك.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ الذي خلقني بخلقه فهو يهديني بنفسه إلى نفسه، وعرفني بصفاته ذاته وبذاته صفاته ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ يطعمني من موائد كشف جماله، ويسقيني شراب المحبة من بحر جلاله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ إذا مرضت بداء محبته، وسقمت بسقم شوقي إلى لقائه؛ فهو يشفيني بحسن وصاله وكشف جماله.

وفي لقاءك عجل لي شفائي بِمَقْدَمِكَ الْمُبَارَكِ زَالَ دَائِي
﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ الذي يفنيني بسطوات عظمته، ويحييني بروح كشف بقاءه.

تُمِيتُ بِهَا وَتُحْيِي مِنْ تَرِيدٍ لَهَا فِي طَرَفِهَا لِحْظَاتٍ بِسَحَرٍ

(١) هو العارف بالله سمنون المحب، ويقال: سمنون المجنون.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢٦) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا
وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِ ﴿٢٧﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ
وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٢٩﴾ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٣٠﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٣١﴾
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٣٢﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٣٣﴾ وَأَزَلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾
وَبُرَزْتُ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ ﴿٣٥﴾ وَقِيلَ لَهُمْ آيَنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ
يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٧﴾ فَكُتِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٣٨﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٣٩﴾
قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٠﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤١﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٤٣﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿٤٥﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾
وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٨﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٩﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٥٠﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٥١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٥٢﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٥٤﴾ قَالُوا
أَنْتُمْ مِنْ لَدُنْكَ وَأَتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ
إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢٦) اطمع ان يغفر
لي خطيئتي في طلبي جمال القدم في مرآة الكون بقولي: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى﴾
[القرة: ٢٦٠]، وتقصيري في حقائق التوكل بقولي: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، بأن يكشف لي الكشف
الأكبر في اليوم الأعظم ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِ﴾ (٢٧) أي: هب لي
معرفة كاملة بجلال عزتك، وألهمني غرائب حكمك، وألحقني بمن وحدك وأفردك عن
غيرك في تجريد توحيدك من المرسلين والنبين والعارفين.

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٢٨) أي: اجعلني مدوح العارفين إلى الأبد،
﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٢٩) أي: من ورثة جنة مشاهدتك ووصالك، ﴿وَلَا
تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٠) أي: لا تحجني من جمالك وكشف ووصالك، ولا ترد عليَّ
شفاعتي في المذنبين، ولا تمنعني من الانبساط بين يديك، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٣١)
إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٣٣﴾ يوم لا ينفع الاشتغال بغيرك، بل ينفع من أتاك بقلب

سقيم بمحبتك مملوء من شوقك، محترق بنيران عشقك، خال عن غيرك من العرش إلى الثرى، رفيق بلزوم أنوار كشف جمالك، له لطيف في تقلب ذاتك وصفاتك بنعت المحبة والمعرفة، وأيضاً بقلب طاهر عن الأدناس، وعن الهواجس والوسواس، بيّن سبحانه في هذه الآيات مقام خليله بين يديه من المراتب الشريفة والحالات الرفيعة، الإشارة الأولى بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ إلى محض وحدانية الحق وكمال قدرته الأزلية بنعت نفي الأنداد والأضداد. وأشار في قوله: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى قطع الأسباب والاكتمال في النبوة والولاية والخلة بالإشارة إلى الاصطفائية السابقة، وأشار في قوله: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ إلى مقام التوكل والرضا والتسليم والتفويض، وقطع الأسباب، والأعمال إليه بالكلية، والإعراض عما سواه، وهكذا الإشارة في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ رفع الرجوع إلى غيره والسكون إلى التداوي والمعالجة بشيء؛ فهو كمال التسليم، وأشار بقوله: ﴿وَالَّذِي يُعِيشُنِي ثُمَّ يُمَيِّتُنِي﴾ أنه مشاهد سوابق القدر بنعت الرضا بالحكم والقضاء.

وأشار بقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ إلى مقام حسن اليقين، وحسن الرجاء، وخالص العبودية، وأشار بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْنِي﴾ إلى مقام الإجلال والتعظيم والخوف والخشية والهيبة، وأشار بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَّنْ أَلَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ إلى التخلق بخلق الله والاتصاف بصفته إذ لم يكن القلب سليماً بلا عيب إلا إذا كان متصفاً بطهارة قدس الحق عن النظر إلى الخلق، واستعمل حسن الأدب في كمال خلقه ومعرفته في وصف الحق سبحانه بمكنيات ألفاظ حيث قال: ﴿الَّذِي﴾، وهذا من غلبه حرمة الحق عليه، وتمكينه في الصحو بعد سكره في البداية، وجرأته حين غلب عليه سكر المحبة حيث خاطب الحق بتصريح القول في المواجهة بقوله: ﴿كَيْفَ تُخَيِّ أَلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، و﴿رَبِّ أَجْعَلْنِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]، و﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧]، والدليل على ذلك قول الواسطي قال: لما استغرق إبراهيم في الخلة احتشم من ذكر خليله بالتصريح، فرجع إلى الصفات جعل يقول: «الذي»، ولم يصرح بل كنى، والكناية فيها تصريح، ولما كان في ابتداء مقاماته وأوائل جذبه لم يستغرق في الخلة جعل يصرح، ويقول: «ربي» «ربي».

قال بعضهم: الذي خلقني لعبوديته يهديني إلى قربه.

وقال بعضهم: الذي خلقني لدعوة خلقه سيهديني إلى آداب خلته.

قال الأستاذ: أي: يهديني إلى فإلي محو في وجودي، فليس لي خير عني.

وقال النهرجوري: الذي يطعمني حلاوة ذكره، ويسقيني كأس محبته.

وقال الجريري: الذي يطعمني في حضرته، ويسقيني هو الذي يظهر عليّ بركات ذلك المطعم والمشرب، وفي ذلك قال النبي ﷺ: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»^(١).
وقال ابن عطاء: إذا مرضني رؤية الأغيار؛ فإن شفائي الرجوع إلى مشاهدة الملك الجبار.

وقال جعفر: إذا مرضت برؤية أفعالي وأحوالي شفائي تذكّار الفضل والكرم.
وقال ذو النون: إذا مرضني مقاساة الخلق شفائي مشاهدة الحق.
وقال ابن عطاء: الذي يميّتي عنه ثم يحيني به.
وقال أبو عثمان: يميّتي بخوفه، ويحيني برجائه.
وقال الواسطي: الذي يميّتي بالاستتار، ويحيني بالتجلي.
وقال الجنيد: الذي يميّتي بالافتقار إليه، ثم يحيني بالاستغناء به.
وقال أبو عثمان: أخرج سؤاله على حد الأدب، ولم يحكم على ربه بالمغفرة، ولكنه قال: «وَالَّذِي أَطْمَعُ» طمع العبيد في مواليتهم، وإن لم يكونوا يستحقون عليهم شيئاً، إذ العبد لا يستحق على مولاه شيئاً، وما يأتيه يأتيه من فضل مولاه.
وقال ابن عطاء في قوله: «رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا» أي: شكر ما خصصتني به من مقام الخلد، قال: الراضين عنك في جميع الأحوال، قال: «وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» أي: أطلق لسان أمة محمد ﷺ بالثناء عليّ والشهادة لي فإنك قد جعلتهم شهداء مقبولين.

قال سهل: ارزقني الثناء في جميع الأمم والملل.
وقال في قوله: «وَلَا تُخْزِنِي» لا تقطع حجتني عنه المسألة، ولا تفضحني بالمناقشة، ولا تحشمني بالحياء عنه مواجهة الجزاء.
قال ابن عطاء: لا تشغلني بالخلّة عنك، وأفض عليّ أنوار رحمتك لئلا أغيب عن مشاهدتك برؤية شيء سواك.
وقال في قوله: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» قال: قلب خالٍ من الاشتغال بشيء سوى مولاه، سلم له الطريق إليه، ولم يعرج على شيء سواه.
قال الواسطي: سلم من سوء القضاء، وسئل من القلب السليم.
قال: سلم عن الإعراض عن الله.

(١) رواه أحمد (٣٧٧/٢)، والترمذي (١٤٨/٣)، وأبو داود (١٥/٢).

وقال الجنيد: السليم الذي لا يكون فيه إلا حبه.

وقال ابن عطاء: السليم لا يشوبه شيء من آفات الكون.

وسئل بعضهم: بم ينال سلامة الصدر؟ قال: بالوقوف على حد اليقين.

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١) ﴿ إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٢) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (١٣) قَالَ رَبِّ إِن قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ (١٤) فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَنَجْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٥) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴾ (١٦) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾ (١٧) ﴿ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٩) كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٢١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (٢٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (٢٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٤) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ (٢٥) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (٢٦) وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ (٢٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (٢٨) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٩) أَمَدَّكُمْ بِاتِّعَامٍ وَبَنِينَ ﴾ (٣٠) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (٣١) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣٢) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ (٣٣) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣٤) بِمَعَذَرَةٍ ﴾ (٣٥) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَنَّهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣٦) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣٧) كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٨) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣٩) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (٤٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (٤١) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٢) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُنَا ءَامِينَ ﴾ (٤٣) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (٤٤) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ (٤٥) وَتَنْجِثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ (٤٦) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (٤٧) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٤٨) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٤٩) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ (٥٠) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٥١) قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (٥٢) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٥٣) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ (٥٤) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٥٥) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥٦) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٥٧) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٥٨) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (٥٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونَ ﴿١٣٢﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٣﴾ أَتَأْتُونَ
 الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٤﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
 عَادُونَ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٣٦﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ
 الْقَالِينَ ﴿١٣٧﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي
 الْغَابِرِينَ ﴿١٤٠﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٤١﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٤٢﴾ إِنْ فِي
 ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٤﴾ كَذَبَ أَصْحَابُ
 نَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٧﴾ فَاتَّقُوا
 اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٤٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٩﴾ أَوْفُوا
 الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٥٠﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَبْخُسُوا
 النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٥٢﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ
 الْأُولَى ﴿١٥٣﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٤﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ
 الْكَاذِبِينَ ﴿١٥٥﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٦﴾ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ
 بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٨﴾
 إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ وَإِنَّهُ
 لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٦٣﴾
 بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولَى ﴿١٦٥﴾ أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي
 إِسْرَءِيلَ ﴿١٦٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٦٧﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
 مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٨﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٦٩﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧٠﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧١﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿١٧٢﴾
 أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴿١٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٦٣﴾ أراد بالمؤمنين المؤثر من الله على من
 سواه بشرط المحبة والموافقة.

قال ابن عطاء: ما أنا بمعرض عن أقبل على ربه، قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ
 ﴿١٦٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ ﴾.

وأخبر الله سبحانه أن قلب محمد ﷺ محل نزول الكلام الأزلي؛ لأنه مصفى من جميع

الحدثان بتجلي مشاهدة الرحمن، فكان قلبه ~~الكلية~~ صدف لآلئ خطاب الحق يسبح في بحار الكرم، فيتلقف كلام الحق من الحق بلا واسطة؛ وذلك سر عجيب، وعلم غريب بأنه سمع كلام الحق، وما اتصل به؛ لأن كلامه لم ينفصل منه، وكيف يفارق الصفات عن الذات لكن بقي في قلبه ظاهره وعلمه وسره؛ فجبريل في البين واسطة لجهة الحرمة، وذكر ذلك بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾؛ لأن القلب معدن الإلهام والوحي والكلام والرعاية والعرفان به يحفظ الكلام، وفائدة ذلك إعلام أن من وجود الإنسان ليس شيء يليق بالخطاب، ونزول الأنبياء إلا قلبه، فكل قلب مسدود بعوارض البشرية لا يسمع خطاب الحق، ولا يرى جمال الحق.

قال أبو بكر بن طاهر: ما أنزل على قلبه جبريل جعله محلاً للإنذار لا للتحقيق، والحقيقة هو ما يلقيه من الحق؛ فلم يخبر عنه، ولم يشرف عليه خلق من الجن والإنس والملائكة؛ لأنه ما أطاق ذلك أحد سواه، وما أنزله جبريل جعله للخلق؛ فقال: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ بما نزل به جبريل على قلبك لا من المتحققين به؛ فإنك متحقق بما كافحناك به وخاطبناك على مقام لو شاهدك فيه جبريل لا حرق.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١٦٦﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿١٦٨﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿١٦٩﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٧٠﴾ وَمَا نَنْزِلُ بِهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴿١٧١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ بيّن سبحانه أن الغفلة والجهلة لا يرون بأبصار قلوبهم أنوار الغيب، وإن تبادوا في حياة طويلة؛ لأنها في غشاوة الضلالة. قال يحيى بن معاذ: أشد الناس غفلة من اغتر بحياته الفانية، والتدب بمراداته الواهية، وسكن إلى مآلوفاته، والله يقول: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿١٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ وصف أهل الحرمان أن أسماهم وأبصارهم وعقولهم وقلوبهم في غشاوة الغفلة عن سماع القرآن، والسامع بالحقيقة الذي له سمع خاصة قلبي عقلي غيبي روحي يسمع في كل لحظة من جميع الأصوات والحركات في الأكوان خطاب الحق سبحانه بحيث يصيح سره بنعت الشوق إليه، وهذا وصف أهل السماع

من الواجدین والمتحققین بسماع الخطاب من العارفين، ومن هذا السماع انزلت أسماع العموم، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ .
قال ابن عطاء: لا يسمعون ولا يفهمون كما أخبر الله عن قوم أنهم ينظرون ولا يرون، كذلك هؤلاء يسمعون ولا يفهمون؛ لأنهم ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ حرما فهم معاني السماع.

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٧) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٨) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئْءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٩) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٣٠) الَّذِي يَرْنَكَ حِينَ تَقُومُ (٣١) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ (٣٢) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٣) هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ (٣٤) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ (٣٥) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ (٣٦) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٣٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٣٨) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٣٩)﴾ .

قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٧) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٨) بين أن حقيقة العامل ما يكون على الأقرب والمواساة للأبعد؛ لأن الأقرب يكون في منازل المهابة والأمر عليه أشد أي: أخبر الأقربين من عظيم جلالي وعزتي وسطوات كبريائي وعظمتي، فإني أشدد على الأقرب ما أشدد على الأبعد وواس الضعفاء؛ فإنهم لا يحتملون أثقال حقائق الأمور ليحتملوا بك ما يكلفهم، وأيضا أي: خوف أهل العناد وراع أهل المراد، أمر بالتسليط على المنكرين والعاندين، وأمر بالتواضع وخفض الجناح للمتواضعين والعارفين.

قال سهل: خوف الأقرب منك، واخفض جناحك للأبعدين، دهم علينا بالطف الدلالة، وأخبرهم إلى جواد كريم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ : لِيَن جَانِبَكَ؛ فإنهم على حدّ الرسم بالعبادة لا التحقق بها، والمتوثب على الله أشد من قارئ البس قميص النسك.

ثم أعلمه وأمره بالإعراض عن المعاندين بقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئْءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٩) أي: لا تراع قربتهم منك، وراع ما أمرناك، ولا تحف من خذلانهم، وارجع إليّ بنعت تفويض أمرك إليّ فذلك قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٣٠) أي: أقبل على العزيز ليعزك على الكل ويرحمك بمواصلتك وكشف اللقاء لك.

قال الحسين بن الفضل: برأ كل نبي عمن عصاه من أمته إلا النبي محمد ﷺ لشرف محله؛ فقال: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أي: إن خالفوك بعد الإقرار بارتكاب محرم؛ فقل: إني بريء من أعمالكم لا بريء منكم؛ فإن لك محل الشفاعة، والشفاعة تزيل عنهم ظلمات المعاصي. وقال الجنيد: التوكل أن تقبل بالكلية على ربك، وتعرض بالكلية عما دونه؛ فإن إليه حاجتك في الدارين.

ثم بين سبحانه مقام شهود نبيه ﷺ في عين الحق بنعت الرعاية والحفظ، أمره بالتوكل عليه.

ثم اعلم إنك إذا توكلت عليّ، وفوضت أمرك إليّ؛ فأنا أريك بنظر عنايتي ثم أعلمه مقام الإحسان والمراقبة بقوله: ﴿ الَّذِي يَرْنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي: توكل على من يراك حين تقوم بنعت الإقبال أي: مشاهدته والإعراض عما دونه.

قال رويم: تقوم إليه بالقعود عن الكل، ثم زاد ذكر إحاطة علمه به فقال الله تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴾ أي: الذي يراك في القيام بنعت الاستقامة في المشاهدة، وفي السجود بنعت الفناء في العظمة والكبرياء بين أهل شهود عظمتي وأزليتي وأبديتي، وأيضاً الذي يرى روحك في مشاهد عالم الملكوت بين الساجدين من المقربين.

قال الواسطي: إثبات رؤية الكون على الأزل، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِي يَرْنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أثبت للرؤية في الفقد والوجود، وتقلبه في الساجدين في أصلاب الأنبياء والمرسلين^(١).

وقال بعضهم: تقلب وصفك على السنة الأنبياء والأولياء.

ثم أكمل حقيقة الرعاية بقوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ يسمع خفيات نداء المشتاقين من قلوبهم عليهم بالآلام أرواحهم من داء المحبة فيجازيهم بكشف جماله ولطائف خطابه.

(١) في التأويلات النجمية: أي يرى قصدك ونيتك وعزيمتك عند قيامك للأمور كلها وقد اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخلق، فإن من علم أنه بمشهد الحق راعى دقائق حالاته وخفايا أحواله مع الحق ويقول: (وتقلبك في الساجدين) هون عليه معاناة مشاق العبادات لإخباره برؤيته له ولا مشقة لمن يعلم أنه بمرأى من مولاه ومحبيه وإن حمل الجبال الرواسي يهون لمن جملها على شعرة من جفن عينه على مشاهدة ربه، ويقال كنت بمرأى منا حين تقلبك في عالم الأرواح في الساجدين بأن خلقنا روح كل ساجد من روحك أنه هو السميع في الأزل مقاتلتك «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» لأن أرواحهم خلقت من روحك العليم باستحقاقك لهذه الكرامة انتهى.

قال ابن عطاء: سميع لدعوات عباده عليم بوجود مصالحهم.
 وقال جعفر: السميع من يسمع مناجاة الأسرار، والعليم من يعلم إرادات الضمائر.
 ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٧).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: الذين شاهدوا الله بنعت الإيقان والعرفان، وأصلحوا سرائرهم بتقديسها عما دون الله في قرينة الله، وذكروا الله كثيرًا أي: سافروا بقلوبهم وأرواحهم وعقولهم في ميادين الآزال والآباد على مراكب الأسرار والأنوار بغير طريان الغفلة وهجوم الفترة، وبفهم الذكر الكثير فناء الذاكر في المذكور بعد أن ينكشف له لوائح أنوار الأزلية والأبدية؛ فهذا غاية المجهود من الذاكرين، وفيه نكتة عجيبة أن الله سبحانه وصفهم بالذكر الكثير، وما أخبر أنهم ذاكرون بالحقيقة؛ لأن حقائق الذكر لا يقع للحدثان في قدم الرحمن؛ لأن الذكر الحقيقي إحاطة ذكر الذاكر بالمذكور، وهو مستحيل في حق الأزل؛ لذلك قال الواسطي: من ذكره افترى، وانتصارهم بعد أن ظلموا انتصارهم من نفوسهم الأمارة حين جهلوا حقوق الله بالمجاهدات الكثيرة والرياضات.

قال الجنيد: الذكر الكثير هو دوام المراقبة في جميع الأحوال، وطرد الغفلة عن القلب.
 وقال أبو يزيد: الذكر الكثير ليس بالعدد، ولكنه بالحضور دون العاهة والغفلة.
 قال النصر آبادي: حقيقة الذاكر أن يغيب الذاكر عن ذكره بمشاهدة المذكور ثم تغيب مشاهدته في مشاهدته حتى شاهد حقًا.

ثم وصف الله سبحانه أهل الدعاوي الباطلة بأنهم يعلمون يوم القيامة منقلب دعواهم في مهوات البعد، بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٧) حين عاينوا مقامات أهل الولاية، وانقلبوا إلى معادتهم من الشقاوة.

قال ابن عطاء: سيعلم المعرض عنا ما الذي فاته منا.
 قال الواسطي: ظلم نفسه من لا يراها في أسر القدرة، وفي قبضة العزة، فظن أنه مهمل في مصرفاته.



سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طس﴾ تِلْكَ ءَايَةُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿ طس ﴾ أي: بحرارة وجود الأنبياء والمرسلين والأولياء والمقربين التي ضياؤها من سنا قدسي، ونضارتها من لطائف أنسي.

وقال بعضهم: بوجود نظري يطيب قلوب أوليائي، وبشهود وجهي يغيب أسرار أصفياي.

وقال الأستاذ: أي: بطهارة قدسي وسنا عزتي لا أخيب أمل من أمل لطفي.

﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٣﴾﴾ كان روحه ۞ حاضرًا مشاهدًا الكبر في قرب القرب في جميع أنفاسه يسمع من الحق كلام الأزل على وفاق موارد الشرع والحقيقة بلا واسطة.

ألا ترى كيف قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٣﴾﴾ يعني: تلقف من الحق كفاحًا.

قال أبو بكر بن طاهر: إنك تتلقف القرآن من الحق حقيقة، وإن كنت تأخذه في الظاهر عن واسطة جبريل، قال الله: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾، ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَفَاتِيكُمْ مِنْهَا يُخْرِجُ أَوتِيَكُمْ بِسُحَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ كن موسى في بداية حاله في مقام العشق والمحبة، وكان أكثر أحوال مكاشفًا في مقام التباس؛ فلما حان بدو كشفه جعل سبحانه الشجرة والنار مرآة فعلية، فتجلى بجلاله وجماله من ذاته سبحانه لموسى، وأوقع موسى في رسوم الإنسانية حتى لا يفزع، ويدنى من النار والشجرة.

ثم ناداه منها بعد أن كاشف له مشاهدة جلاله، ولولا ذلك لفني موسى في أول سطوات عظمتة وعزته، ومعنى ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أنه تعالى وتقدس عن المثال والخيال أراد به نفسه المقدس الذي يزيد بركة مشاهدته لموسى؛ فالنداء منه، وهو كلامه السرمدى

المبارك ذاته وصفاته، ﴿بُورِكَ﴾ قدس عن إشارة كل مشبهي، أشار إليه بالأماكن والجهات هو تعالى تجلى بوصف النار والنور من الشجرة، والطور ذاته وصفاته منزّه عن الجملة، وهو قادر أن يُرى نفسه لعاشقه بكل ما يليق بحاله، ولم يتجل له صرفاً من عزة ذاته وجلال صفاته لا يحتمل الكون والكائنات بأسرها بل هذا تربية العاشق، ربما يرى نفسه من شجرة، وربما يرى نفسه من الشمس والقمر والكواكب وغيرها من آيات ملكوت السماوات والأرض، لذلك قال إبراهيم: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ .

وقال ﴿١﴾: إن الله تعالى يرى هيئة ذاته كيف شاء ^(١).

ويجوز أن تلك البركة تعود إلى موسى من مشاهدة من النار، وفي وكل موضع تظهر بركة كشف مشاهدة الحق يكون مباركاً ذا بركة؛ ألا ترى إلى قول القائل:

إِذَا نَزَلْتُ سَلَمِي بِوَادِ فَمَاؤَهَا زُلَالٌ وَسَلْسَالٌ وَشِيخَانَهَا وَرْدُ

قال ابن عطاء: أصابتك بركة النار بمراد الأنوار عليك؛ ومخاطبة الحق إياك؛ فإنك أنست في الظاهر ناراً، وأنست به، وكان في الحقيقة أنواراً؛ فأزال عنك أنسك بها، وخصك بالأنس بنورها فكلّمك وثبتك عند الكلام خصصت بها من بين جميع الرسل.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تهْتَزُّ كَانْتَهَا جَانٌّ وَلَىٰ مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ يَمْوَسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا تَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٥﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا تَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾﴾ أي: لا تخف من الشعبان؛ فإن ما ترى فهو ظهور تجلي عظمتي، ولا يخاف من مشاهدة عظمتي وجلالي في مقام الالتباس المرسلون؛ فإنهم يعلمون أسرار ربوبيتي ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ إلا من وقف منهم في حظ العشق والمحبة؛ فلما احتجب بهما يفرع عند ظهور عظمتي وجلالي، فإنه غير مستأنس بهما، فلما ارتفع ذلك الحجاب عنه، وعلم ما فات عنه ورجع إليّ من حظه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ بسوء الحجاب، والوقوف بالخط: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢﴾﴾ ﴿غَفُورٌ﴾ بلا حرم،

(١) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

﴿رَحِيمٌ﴾ بأن أوصله إلى أعلى المقامات من المشاهدة، وتصديق ما ذكرنا ما قال الواسطي:
﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ برؤية النفس والالتفات إليها.

وقال القاسم: إلا من خاف غيرنا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٥٠ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْهُ مَنَاطِقَ الْطَّرِيقِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ١٥١ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٥٢ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَاءَتِيهَا النَّمْلُ أَخْلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥٣ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ١٥٤.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ افهم أن العلم علما علم البيان وعلم العيان، علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية؛ فما ذكر الله سبحانه فيما أعطاهما، فهو من العلمين البياني والعياني، فالعلم البياني معروف بين العموم، والعلم العياني مشهور بين الخصوص لم يطلع عليه إلا ولي أو نبي؛ لأنه صدر من الحق لأهله، شهوده من المحبين والعارفين والموحدين والصدّيقين والأنبياء والمرسلين، ومن ذلك العلم علم اللدني، والعلم اللدني حقائقه علم المجهول، وعلم المجهول ما يكون صورته بخلاف علم الظاهر مثل صنيع الخضر عند موسى -عليهما السلام- من قتل الغلام وغيره، وهو حلم الأفعال وبطون حقائق المقدرات والأمور الغيبية، وما يتعلق بالملك والملكوت الذي هو المرتبة الأولى من علوم المعارف، والحكم المرتبة الثانية علوم الأسماء والنعوت والصفات مثل ما علمه الله آدم بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، والمرتبة الثالثة العلم بالذات: وهو علم الأسرار وهذه العلوم يجمعها قسمان قسم مستفاد من الخطاب والإلهام والكلام، وقسم يتعلق بكشف الذات والصفات والأفعال، وما أشرنا إلى هذه، وهو صورتها وحقائقها ذوقية كسفي لا يطلع عليها إلا من شاهد الحق بالحق، ويستغرق في بحارها، وعرف أنها غير محصورة للعقول؛ لأنها صفات قديمة لا نهاية لها؛ فلما عظم شأنها حمدا الله بها نالا منه من الله، بقوله: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٥٥ أي: خصنا في الأزل بهذه الخاصية من بين عباده تفضلاً، وامتنانا واصطفائيه مقدسة في سوابقات حكمه الديمومية عن علل الاكتساب.

قال ابن عطاء: علماً بربه، وعلماً بنفسه، وأثبت لهم علمهم بالله علم أنفسهم، أثبت لهم علمهم بأنفسهم حقيقة العلم بالله، لذلك قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»^(١).

ثم بيّن سبحانه أنها مخصوصان بما ذكرنا من علوم الحقائق، وكل واحد منهما مخصوص بعلم من الله فورث سليمان علم أبيه الذي علمه الله من علوم الإلهية بقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ ورث ما عند أبيه من علم العشق والمحبة والشوق وخصائص سره زيادة على ما علمه الله، والولي الصادق العارف يرث من شيوخه علوم الحقائق بعد كونه مستعداً لذلك، فيصير تلك الحقائق مقاماته إذا كان صادقاً مستقيماً في الإرادة، لذلك قال الله: «العلماء ورثة الأنبياء»^(٢).

قال ابن عطاء: ورث منه صدق اللجوء إلى ربه، وتهمة نفسه في جميع الأحوال. ثم بيّن سبحانه أن سليمان أخبر الخلق عما وهبه الله من علمه بمناطق الطيور بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾؛ لأن المتمكن إذا بلغ درجة التمكين يجوز له أن يخبر الخلق بما عنده من موهبة الله لزيادة إيمان المؤمنين، والحجة على المنكرين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وافهم أن أصوات الطيور والوحوش وحركات الأكوان جميعاً هي خطابات من الله سبحانه للأنبياء والمرسلين والعارفين والصديقين والمحبين يفهمونها من حيث أحوالهم، ومن حيث مقاماتهم؛ فللأنبياء والمرسلين علم بمناطقها صرفاً قطعياً، ويمكن أن ذلك يقع لولي، ولكن أكثر فهوم الأولياء بها أنهم يفهمون من أصواتها ما يتعلق بحالهم بما يقع في قلوبهم من إلهام الله لا بأنهم يعرفون لغاتها بعينها، وفي إشارة الحقيقة الطيور الأرواح الناطقة في الأشباح ينطق بالحق من الحق، ونطقها تلفظ رموز الأسرار بلغة الأنوار، ولا يسمعها إلا ذو فراسة صادقة قلبه وعقله شاهدان مشاهدة الحق ولطف الإشارة، علمنا مناطق أطياف الصفات التي تعبر علوم الذات، وأيضاً علمنا منطق أطياف أفعاله التي تخبر عن بطون حكم الأزليات، لذلك قال: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أوتينا كل شيء علماً بالله، وطريقاً إلى الله ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ إخبار عن رؤية المتفضل في فضله غير محجوب بالفضل عن المتفضل.

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (١/ ٢٢٥)، والمجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٣٤٣).

(٢) رواه البخاري (٦٨)، وابن حبان (١/ ٢٨٩).

قال أبو عثمان المغربي: من صدق مع الله في جميع أحواله فهم عنه كل شيء، وفهم عن كل شيء فيكون له في أصوات الطيور، وصرير الأبواب علماً بعلمه وبياناً بتبيينه.

قال الأستاذ: من كان صاحب بصيرة، وحضور قلب بالله يشهد الأشياء كلها بالله، ومن الله ليكون مكاشفاً بها من حيث الفهم؛ فكأنه يسمع من كل شيء، وتعريفات الحق سبحانه للعبد بكل شيء من كل شيء لا نهاية له، وذلك موجود فيهم محكي عنهم، وكما أن صوت الطبل مثلاً دليل يعرفون لسماعه وقت الرحيل والنزول، فالحق سبحانه يخص أهل الحضور بفنون التعريفات من سماء الأصوات، وشهود أحوال المرئيات في اختلافها كما قيل:

إذ المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وما قاله الأستاذ -رحمة الله عليه- دليل على قول خادمه: نشقني الله ما نشق أولياء وأنبياءه، فقد أشرط أن أصوات الطيور والوحوش وغيرها لا يعرف نعتها ومعينها إلا الأنبياء والأولياء، يعرفون معناها بغير نعتها، وهذا كما قال أهل التفسير في قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ جعل ذلك من الطير كمنطق بني آدم إذ فهمه عنها.

وقال مقاتل: كان سليمان عليه السلام جالساً إذ مرَّ به طير يصوت، فقال لجلسائه: هل تدرون ما يقول هذا الطائر الذي مرَّ بنا؟ قالوا: أنت أعلم، فقال سليمان: فإنه قال لي: السلام عليك أيها الملك المسلط على بني إسرائيل أعطاك الله سبحانه الكرامة: وأظهرك على عدوك، إني منطلق إلى فروخي، ثم أمر بك الثانية، وأنه سيرجع إلينا الثانية، فانظروا إلى رجوعه، قال: فنظر القوم طويلاً إذ مرَّ بهم؛ فقال: السلام عليك أيها الملك، إن شئت أن تأذن لي كي ما أكسب على فروخي حتى يشبعوا ثم آتيك فافعل ما شئت فأخبرهم سليمان بما قال فأذن له.

وقال فرقد السبخي^(١): مرَّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه، ويميل ذنبه؛ فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ فقالوا: الله ونبيه أعلم، فقال: يقول: أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء، فهذا وأمثالها معروف من سليمان ومن نبينا ﷺ، وذلك معجزة فوق الكرامة، ومما خصَّ الله سليمان به العلم بنطق النملة والحشرات؛ ليكون أدق في الفهم وأرق للسمع لكن صورة النملة وحركاتها بغير صوتها من حقائق الأفعاليات، خطاب من الحق للأولياء والصديقين، فلما لطف الأمر بعد قوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا﴾، وعرف قولها حاج سره إلى مزيد الشكر، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ سأل لسان الشكر من الحق؛ فإنه كان عالماً بأن شكره لا يمكن إلا به، وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ

(١) فرقد السبخي أبو يعقوب العابد، مات سنة ١٣١ هـ.

صَلِحًا تَرْضَاهُ ﴿١٠١﴾ أي: أسرع إليك بنعت الشوق إلى لقائك، واترك ما دونك لك ﴿١٠٢﴾ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٣﴾ أي: اجعلني مستأنسًا للعارفين، ومحبوبًا للمحبين، وفهم قوله: ﴿فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ إن ضحك سليمان كان ظاهره تعجبًا من قول النملة، وباطنه فرحًا بما أعطاه الله من فهم كلام النملة.

قال الجنيد: قال سليمان لعظيم النمل: لم قلت للنمل: ادخلوا مساكنكم أخفت عليهن مني ظلمًا، قال: لا، ولكن خشيت أن يفتنوا بما يرون من ملكك؛ فيشغلهم ذلك عن طاعة ربهم.

وقال ابن عطاء: في قوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي﴾: حبيبي إلى عبادك الصالحين.

قال سهل: ارزقني خدمة أوليائك لأكون في جملتهم، وإن لم أصل إلى مقامهم.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٠٤﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْنَحُجَّهَ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠٥﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِط بِهِ، وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٧﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٨﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٠٩﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١١٠﴾﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿١١١﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظَرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾ دقيقة الإشارة أن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه، فتفقده ساعة، وكان قلبه غائبًا في غيب الحق، مشغولًا بالمذكور عن الذكر فتفقده وما وجدته، فتعجب من شأنه أين قلبه إن لم يكن معه؟! وما كان في الكونين، فظن أنه غائب عن الحق، وكان في الحق غائبًا، وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم، وهذا من كمال استغراقهم في الله فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْنَحُجَّهَ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١٠٥﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ بالصبر على دوام المراقبة والرعاية والغيبة في بحر النكرة في المعرفة ليفنى، ثم يفنى عن الفناء أو أذبحته بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنور أسرار

الأزل، وعلى صورة الظاهر نكتتها أن سليمان أحب الهدهد؛ لأنه رأى ذلك الهدهد في مكان العشق، ورأى عليه آثار العشق؛ فاستأنس به، وكان للهدهد خاصية أنه عرف مراقبت صلاته، ورأى الماء بين الطين والحجر، وكان يدل الجن على الماء لوضوئه وطهارته حيث نزل، وكان بين هدهد سليمان، وهدهد بلقيس عشق، فغاب عن سليمان عند نزوله، وتلاقيا الهدهدان؛ فلما تفقده علم أنه عند معشوقه، فغار عليه إذ اشتغل بغيره من خدمته فطلبه، وأمر العقاب أن يأتي به فطار العقاب، ورأى هدهد سليمان عند هدهد بلد سبأ، فأتى به على سليمان عليه السلام؛ فقال: لأعذبه عذاباً شديداً، أي: لأحبسه في موقع فراقه عن معشوقه، فلما جاء إليه الهدهد تحير في شأنه إيش يقول: فعلم أن سليمان في مقام أنس الله وعشقه، ويجب أن يستأنس بمستحسن فاحتال بأن يذكر عند سليمان ما رأى من حسن بلقيس وعظيم شأنها ليكون ذلك طريقاً له إلى قرب محبوبه، فلما مهد ذلك مع نفسه تعظم في شأنه، واجترأ من حيث جراءة العشيق ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ فلما قال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ تعجب سليمان ثم أسرع في قوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَلٍ يَقِينٍ﴾ ﴿٢٨﴾ فلما سمع سليمان قوله وجراته عنده، علم أنه تكلم من رأس العشق، ويجلب قوله عجائب، فلما أخبر تمام الحكاية سكن سليمان عنه، واشتغل بإتيان بلقيس، وجعله رسولاً بينه وبين بلقيس، وما أطيّب رسول العاشق والمعشوق، إذ كان عاشقاً، انظر إلى ظرافة الهدهد، ولطافة كلامه عند سليمان كيف ذكر ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً﴾ مرتين ساير ما رأى من الملك والبلاد والعساكر.

ثم ذكر محاسنها بالطف بالإشارة بقوله: ﴿وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وما ذكر وصف جماها بالتصريح؛ لأنه علم أن ذلك من سوء الأدب، ولا تعجب ذلك؛ فإن الأنبياء والأولياء إذا استأنسوا بعالم الملكوت، لم يصيروا من رؤية المستحسنات، ألا ترى كيف كان سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه يحب الوجه الحسن، ومن فرط حب الله، قال: «حب إليّ من دنياكم ثلاث الطيب والنساء»^(١).

وحاشا أنهم يلتفتون إلى شيء لا يكون وسيلة إلى الله، وأحسن وسيلة إلى الله عند العارف الفعلي الوجه الحسن، والصوت الحسن، والطيب، ورؤية كل مستحسن في العالم من الأرواح والأشباح والجواهر والأعراض؛ لأن حسناتها صدر من معدن حسن الأزل، ولذلك قال عليه السلام برؤية الحسن: «إن أحسن الحسن الوجه الحسن، والصوت الحسن،

(١) رواه أحمد في مسنده (١٣١/٢٦)، والنسائي (٢٨٨/١٢).

واخلق الحسن^(١).

وقال ذو النون: من استأنس بالله استأنس بكل شيء مريح، ووجه صبيح، وبكل صوت طيب، وبكل رائحة طيبة.

قال الجنيد في قوله: ﴿لَا تُعَذِّبْنَاهُ﴾: لا فرق بينه وبين إلفه.

وقال جعفر: لا بتليه بشتات السر.

وقال جعفر الخلدي: لألزمته صحبة الأضداد، فإن ذلك من أشد العذاب.

قال بعضهم: لأبعدنه من مجالس الذاكرين.

جئنا إلى قصة العشق في إشارة قوله سبحانه حاكياً عن قول الهدهد: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الإشارة فيه أن القوم وقعوا في بحر عشقها فخدموها بالعشق، وهي كانت تحب وجهها، فهم بالحقيقة يسجدون لشمس الحسن، ثم هاج سر الهدهد بنعت غيره التوحيد إلى أفراد القدم عن الحدوث؛ فقال: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَرَجَ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ^(١) **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴿ هذا التوحيد ذكر الهدهد؛ لأنه علم أن حال سليمان بداية العشق، ونهاية التوحيد، فذكر ما وافق حاله أنه ^(٢) إذا شغله الصافات الجياد، قال: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ^(٣) **رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَنَطْفِقَ فَمَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ** ^(٤) ﴿ [ص: ٣٢، ٣٣].

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّ إِلَهِي إِلَيَّ كَتَبْتُ كَرِيْمٌ﴾ ^(٥) **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ^(٦) **أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ** ^(٧) **قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ** ^(٨) **قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ** ^(٩) ﴿.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهِي إِلَيَّ كَتَبْتُ كَرِيْمٌ﴾ ^(١٠) **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ^(١١) ﴿ حكى الله سبحانه عن قول بلقيس حين ألقي إليها الكتاب أن ذلك الكتاب كتاب كريم، وذلك أنها استنشقت منه رائحة المحبة، لذلك قالت: إنه كتاب كريم، وكان الكتاب مختوماً بخاتم الملك فألهمها الله منقوش الخاتم الذي هو اسم الله الأعظم.

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤١٧)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٦١) بنحوه.

قالت: إنه كتاب كريم، وأيضاً لما قرأت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ عرفت أنه كلام الله، ولا يشبه كلام الخلق، وقالت: كتاب كريم؛ فانبسطت من باء ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ إشارة بدء القدم والبقاء اللذين هما أصل جميع الصفات القديمة القائمة بذات الحق سبحانه من عرفه بالقدم والبقاء فقد عرفه بجميع الذات والصفات، وتلك المعرفة لا تكون إلا لمن شاهد مشاهدة الأزل والأبد، وعرفت من السين إشارة سنا الحق وأسراره، ومن الميم ملكه ومحبه، وإشارة الهيمنة المشاهدة المحيطة بكل ذرة من العرش إلى الثرى من حروف الله إشارة عين الذات الواحد الفرد من الألف، ومن اللامين الجلال والجمال، ومن إلهام الهوية، وغيوبات الغيب، ووجدت في الكلمة وجوب العبودية للربوبية ليصل برحمة الرحمانية العامة في الدنيا والآخرة ورحمة الرحيمية الخاصة في الآخرة لأهل الخصوص، وعلمت أنها بجميعها مقام الاتصاف من اتصف بها سهل عنده بتلفظها مراد أرادته من معنى الإجابة القدرة بالأشياء بالآيات والكرامات.

قال الواسطي في قوله: ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾: مختوم مزين بزينته، وقيل: كرامة الكتاب ابتداءه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وقيل: كرامته عنوانه.

وقال الحسين في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: قولك منك بمنزلة «كن» منه، وإذا أحسنت أن تقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ تحققت الأشياء بقولك: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ كما تحقق بقوله: «كن»، وقيل في قوله: ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾: لأن الرسول كان طيراً، فعلمت أن من يكون الطير مسخرة له [فهر] عظيم الشأن.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (١) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٢) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣) أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٤) قَالَ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٥) قَالَ عَفَرْتُ مِنَ آلِجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ لما وجدت في الكتاب تلك الكرامات، عرفت عظم شأن سليمان وجلاله، وما عليه من أنوار الحسن والجمال، فمال قلبها

إلى العشق والمحبة؛ فأرادت ألا تكون مخدولة حين دخل في بلدها سليمان، ولا تتأذى بنفسه في محبته، فإن العاشق لا يريد إيذاء معشوقه، ومن إشارة المعرفة إذا دخل سلطان الوجد والمحبة والمعرفة، والمجاهدة في قلوب العارفين، أغار ما دون الله من العرش إلى الثرى، ولا يبقى فيها إلا نور بلا ظلمة وصفاء بلا كدورة، وجمع بلا تفرقة، وذكر بلا فترة، وعشق بلا شهوة، وصدق بلا غفلة، ويقين بلا شك، وإخلاص بلا رياء، ويصير أوصاف النفس الأمانة محمودة، وصارت أبواب القلوب على الشياطين مسدودة، ويكون الروح مشاهد الحق بلا حجاب.

قال جعفر الصادق: أشار إلى قلوب المؤمنين أن المعرفة إذا دخلت القلوب زال عنها الأمانى والمرادات أجمع؛ فلا يكون للقلب محل لغير الله.

قال ابن عطاء: إذا ظهر سلطان الحق، وتعظيمه في القلب تلاشى الغفلات، واستولى عليها الهيبة والإجلال، ولا يبقى فيه تعظيم شيء سوى الحق، فلا يشتغل جوارحه إلا بطاعته، ولسانه إلا بذكره، وقلبه إلا بالإقبال عليه.

وسئل أبو يزيد البسطامي عن نعت العارف^(١) فقال: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾.

قال الواسطي في قوله: ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ أي: عطلوها عما سواه، ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ كل ما كان أعز في عينه وقلبه صار ذليلاً طريداً عن قلبه، وحق لهم ذلك، وقد غيبهم الحال عن كل وارد في الحال؛ فأسارهم عن سرهم نافذة، وأماكنهم عن مكانهم غائبة؛ لأن الحق لاحظهم بعناية القدرة، واشتغال التولي والنصرة؛ فحمل عنهم ما حملهم من أثقال هداية وولاية.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٢١) قَالَ تَكَرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَنْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٢٢) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْمِئِينَ (٢٣) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٢٤) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ

(١) وفي رواية «المعرفة»، كما في كتابنا: «سلطان العارفين» (ص ٢٢٢) ..

عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرَخَ مُعَرِّدٌ مِنْ قَوَارِيرُ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ
مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ يَتَقَوَّمِرْ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ
لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا أَطِغَرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ
طَغَرْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿١٤﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ
يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ
لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ الإشارة في قوله:
﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ الهاء راجع إلى العرش لا إلى الله، وكأن القائل به في درجة الاتحاد والأنانية
والاتصاف وعين الجمع وجمع الجمع؛ لأن المتصف بالقدرة يجري عليه تصاريف الملك بغير
رجوعه إلى الله بنعت العبودية والخضوع والدعاء كصنيع من كان في محل العبودية؛ لأن من
شاهد الربوبية يجري عليه أوصاف الربوبية بغير اختياره وتكليفه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فإذا سأل فأجيبه، ويحصل مراده بالدعاء، فهو في درجة
الكرامات لا في درجة الاتحاد والاتصاف، ووصف الله «آصف» بأنه كان عالماً بالكتاب،
والإشارة فيه أنه كان عالماً بعلوم الظاهر، وعالماً بعلوم الباطن، وعرف معاني الاسم الأعظم
في الكتاب الذي أنزل الله على موسى وهارون وإبراهيم وداود وسليمان، وأدق الإشارة فيه
أن ما كان عنده من علم الكتاب ما كان يطلع عليه من علم أسرار الله المكتوم في ألواح النور،
وذلك العلم كان مكاشفاً لقلبه بنعت السرمدية، لذلك قال: ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، قوله:
﴿عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أيضاً فيه إشارة عين الجمع؛ لأن ما كان عنده؛ فهو عند الله،
فإذا قال الله: ﴿عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ والانبساط منه إليه، وهو أشرف في الفضل، وفيه
جواز الكرامات للأولياء في زمان الأنبياء، والعلم بالاسم الأعظم.

قال النبي ﷺ: «إن الاسم الأعظم الذي دعا آصف يا حي يا قيوم»^(١).

قال بعضهم: هو آصف، نظر إلى عين الجمع، وتكلم عن عين حقيقة جمع الجمع؛
نقال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾، والهاء راجع إلى الحق أي: بالله وعونه ونصرته، وقيل: على لسان

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٩/١٦٣).

الجمع أيضًا ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ أي: الله يأتيك به كأنه يقول: إن الله قادر على أن يأتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك.

قال بعضهم في قوله: ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي: له نظر في الغيب، وعلم بمجاري الغيوب؛ فعلم أن الله يريد أن يأتي سليمان بذلك؛ فأخبر عن حقيقة الغيب. ثم أخبر سبحانه عن رؤية سليمان فضله، والثناء عليه، والشكر له خاصة مفردًا عن النظر إلى الأغيار ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ في قوله هذا من فضل ربي غيرة سليمان على آصف، ودفع النظر عن الوسائط، وهذا أيضًا من غيرة التوحيد، فأشار بهذا اللفظ أن آصف وصنيعه عامل من عمل حضرته خلقه الله لنصرته ونفاذ مراده.

قال أبو حفص: من رأى فضل الله عليه أرجو ألا يهلك، قوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ فيه بيان أن شكر الشاكرين منصرف عن المشكور الأزلي إليهم لا إلى الحق؛ فإنه تعالى منزّه عن شكر الشاكرين، وصبر الصابرين، ومعرفة العارفين، وطاعة المطيعين، وإسلام المسلمين، وكفر الكافرين بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، واستعمال لفظ الكرم، والغنى هاهنا من إشارة علم المجهول إذ استغنى الحق بجلال عزته عن كفر الكافر، وإسلام المسلم؛ فقد أسقط الكل عن شرائع الربوبية ومشاهد القدسية وبقي الحق للحق منفردًا بنفسه، مستغنيًا عن غيره، وإذا كان الأمر كذلك؛ فهو كريم يتفضل على الجميع، ويؤديهم إلى ساعة غنى بقاءه وقدمه، إذ لا يضر به كفر الكافر، ولا ينفع به إيمان المؤمن؛ فإذا اشتمل بغناه، وكرمه من العرش إلى الثرى، ولا يعاقب أحدًا من حيث استغناؤه وكرمه.

قال الجنيد: الشكر فيه علة؛ لأنه يطلب لنفسه المزيد، وهو واقف مع ربه على حظ نفسه، قال الله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: طالبًا للمزيد.

وقال الواسطي: في الشكر إبطال رؤية الفضل، كيف يوازي شكر الشاكرين فضله، وفضله قديم، وشكرهم محدث، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾؛ لأنه غني عنه، وعن شكره.

وقال الشبلي: الشكر هو الخمود تحت رؤية المنّة.

﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

امتناع سر الأذية عن مطالعة الخليقة؛ فإذا كان كذلك من ينجو من مكره، والحدث لا

يطلع على سوابق علمه في القدم، فمكره وقهره صفتان من صفاته لا يفارقان من ذاته أبداً، قد أمر العارف قبل وجود العارف، ولا يعرفه منه إلا ما أراد منه، فكلما بقي عنه مستوراً، وهو لا يعرف شأنه حتى وقع عليه؛ فهو مكر، ومن يخلو عن مكره نفساً، وأن قهره مباشر وجوده بنعت الإحاطة، وحقائقه مندرجة تحت غيوب خواطر القلوب، وهي أخفى من ديب النمل، ولا يعرفها إلا المرادون الواصلون المحفوظون برعاية الأزل والأبد.

قال جعفر الصادق: مكر الله أخفى من ديب النمل على صخرة سوداء في ظلمة ظلماء.

قال النوري: المعصية لا تخلو من الخذلان، والطاعة لا تخلو من المكر. وقال الشبلي: اخترنا طريقة التصوف؛ سلامة من مكر الله، فإذا كله مكر. وقال النوري: المكر لا يعرفه إلا الواصلون، فأما المريد فإنه لا يعلم ذلك؛ لأنه في حرقه.

قال ابن عطاء: ما كان منه في القرب؛ فهو مكر، وما كان منه في البعد؛ فهو حجاب. وقال الشبلي: المكر نعم الظاهر، والاستدراج نعم الباطن. وقال الجنيد: المكر هم المشي على الماء، والمشي في الهواء، وصدق الوهم، وصحة الإشارة، وإجابة الدعاء في كل هذا مكر لمن علم. وقال النوري: لولا المكر لما طاب عيش الأولياء.

وقال بعضهم: في طريق الله ألف قاطع من قطاع الطريق، وألف خادع وماكر موكل بالمريد السالك، ولكل موكل غدر، ومكر وخداع خلاف الآخر؛ فإذا حاك السالك غدر الموكل معه بشيء يعطيه يمنعه عن قصده وإرادته، ويحجبه عن مولاه.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١٠﴾ وَأُنَجِّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١١١﴾ وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِي ءَاتَانُوكَ اَلْفَ حِشَّةً وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿١١٢﴾ أَهَيْئَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١١٣﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِيۡۤهٖۤ اِلَّاۤ اَنْۢ قَالَوۡا۟ اُخْرِجُوۡا ؕ اِلَ لُوۡطٍ مِّنۡ قَرِيۡبِكُمْ اِنَّهُمْ اُنَاسٌ يَّتَطَهَّرُوۡنَ ﴿١١٤﴾ فَاُنۢجَيْنٰهُ وَاَهْلَهُۥٓ اِلَّاۤ اَمْرَاۡتَهُۥ قَدَرۡنٰهَا مِنَ الْغٰیۡبِیۡنَ ﴿١١٥﴾ وَاَمۡطَرۡنَا عَلَیۡهِمۡ مَّطَرًاۢ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنۡذَرِیۡنَ ﴿١١٦﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ بيوت أسرارهم خربت بمباشرة شهوات الطبيعة، ومتابعة النفس الأمارة.

قال أبو عثمان: قلوبهم قاسية بها عصوا.

وقال سهل: الإشارة في البيوت إلى القلوب؛ فمنها عامرة بالذكر، ومنها خراب بالغفلة، ومن أهمه الذكر؛ فقد خلّصه من الظلم^(١).

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ وَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ أعظم الحمد علم الحامد بعجزه عن حمد الحق.

قال: فإن حمد الحامدين عند حمده مصروف عليهم؛ لأنه سابق بحمده في الأزل إظهاراً لاستغناؤه عن حمد الحامدين، وقد وجب الحمد عند كل نعمة، وأعظم النعمة ذهاب النفس الأمّارة من قلب العارف؛ لأنها أعظم الحجاب بينه، وبين الحق وأهل هذا الحمد الذين اصطفاهم الله لمشاهدته في الأزل، ووصاله إلى الأبد؛ فسلامه عليهم من سوابق نعمة الأزلية المقرونة باصطفائيتهم فالسلام والاصطفائية أزليتان وأبديتان.

قال الحسين: ما من نعمة إلا الحمد أفضل منها، والحمد النبي ﷺ، والمحمود الله، والحمد العبد، والحمد حاله الذي يوصل بالمزيد.

قال ابن عطاء: من سلم الله عليه في أزله سلم من المكاره في أيده.

قال جعفر بن محمد: سبحانه من اصطفاهم لمعرفته، وسلم عليهم قبل المعرفة.

وقال الواسطي: لم يجعل الحق وسيلة إلى نفسه غير نفسه، ولا اختصاصاً غير ذاته؛ إذ يقول: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ فلم يجعل هاهنا اسم نعت، وجعل اسم حقيقة؛ لأن الهاء تخبر عن حقيقة الذات لا غير.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ ۖ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِقَوْمٍ

(١) وفي قوله تعالى: ﴿قَدَرْنَا مِمَّنَ الْغَافِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]. أي: المرأة التي هي صورة الدنيا إجمالاً، كما أن آدم إجمال العالم؛ لكن لما كانت الشهوات والزين من الأمور السالفة الدنيّة؛ قيل للمرأة: صورة الدنيا بإضافة الصورة إلى الدنيا، ولما كانت المعالم والشواهد من الأمور العالية الشريفة؛ قيل أن آدم صورة العالم؛ لأن أصل العالم علم، ثم أدخل ألف الإشباع؛ وهو علم لوجود الله تعالى على أن العالم أعم من الدنيا؛ لأن الدنيا؛ إنما هي عالم الكون والفساد الذي مبدؤه مقعر السماء السابعة، ومنتهاه نهاية الأرضين.

يَعْدِلُونَ ﴿٥٦﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خلق سموات الأرواح، وأرض القلوب ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مياه المعرفة من بحر الاصطفائية، ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أنبتنا به بساتين المحبة المنورة بنور المشاهدة.

قال ابن عطاء: إذا بهج السر بما ظهر على قلب العبد من الرب، والبهجة نور يظهر، فلا يبقى معها شيء من الظلمة لا ظلمة الجهل، ولا ظلمة الريب والشك، ولا اشتغال بشيء آخر، وعلامته السكون بالله، والانقطاع إلى الله، والاعتماد عليه.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ لَا يُكَفِّرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ جعل قرار أرض القلوب بأنوار الغيوب لنوازل واردات المشاهدات، وكشف القربات، ولسكون الأرواح الملكوتية فيها ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَرًا﴾ أجرى في خلال عقولها أنوار معرفته لإنبات زواهرات المحبة والمودة والزلفة ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ رواسي تلك القلوب غلبات استيلاء استواء أنوار شهود جلاله على دوام الأنفاس، وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ جعل بين بحر مشاهدته القديمة بحر الأرواح المقدسة حواجز الإرادة، وبرزخ امتناع ذات القديم الأزلي عن النهاذج بالحدوثية.

وقال جعفر: من جعل قلوب أوليائه مستقر معرفته، وجعل فيها أنوار الزوائد من بره في كل نفس، وأثبتها بحبال التوكل، وزينها بأنوار الإخلاص واليقين والمحبة، وجعل بينهما حاجزاً، أي: بين القلب والنفس لئلا يغلب عليه النفس ظلماتها فيظلمها، فجعل بينهما التوفيق والعقل.

قال الأستاذ: نفوس العابدين قرار طاعتهم، وقلوب العارفين قرار معرفتهم، وأرواح الواجدین قرار محبتهم، وأسرار الموحدين قرار مشاهدتهم، وفي أسرارهم أنوار الوصلة، وعيون القربة بها يسكن ظمأ اشتياقهم، وهيجان قلقهم، واحتراقهم، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ من الخوف والرجاء والرغبة والرغبة.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطر مستغرق في بحار شوقه، متحير في أودية النكرة، دهش في ميادين المعرفة، واله في سراب الحيرة، يريد أن يفنى في الحق، ويغلب عليه محبة الوصال، وعشق الجمال، والأنس بالجلال، غائب عن الخليفة، واله بكشف الحقيقة، مجاب الدعوة بكشف الوصلة، يريد عشقه بعد معرفة جماله وجلاله، وعشقه بوصاله بنعت الافتقار إلى نوال دنوه، يرى بحار مشاهدته، وهو عطشان إلى قطرة منها، ويقول بوصف الاضطراب:

لِإِنْ كَانَ يَهْدِي بَرْدَ أَنْبِيَائِهَا الْعُلَا لِأَفْقَرِ مِنِّي إِنَّنِي لَفَقِيرٌ
وهذا الفقير بكرمه لمخلص من نفسه وجود الحدثان وجميع الحجاب والفراق وآلام
البعد، ألا ترى كيف قال سبحانه: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.
قال سهل: المضطر هو المتبرئ من الحول والقوة والأسباب المذمومة.
قال ابن عطاء: أحوال المضطر أن يكون كالغريق أو كالمتعطل في مفازة قد أشرف على
الهلاك.

قال عمرو المكي: أوجب الله على الداعين له بصفة خصوص الإجابة، وهو المضطر.
قال الله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.
وقال الحسين: من شاهد اضطرابه؛ فليس بمضطر حتى يضطر في اضطرابه عن
مشاهدة اضطرابه بمشاهدة من إليه اضطرابه.
وقال الأستاذ: فصل بين الإجابة، وكشف السوء؛ فالإجابة بالقبول والكشف
بالطول، الإجابة بالكلام، والكشف بالإنعام، ودعاء المضطر لا حجاب له، ودعاء المظلوم لا
ردله، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، ومعنى قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ هذا وصف
التمكين بعد التلوين، والتجلي بعد الاستتار، والحضور بعد الغيبة، والغنى بعد الفقر،
والكشف بعد الحجاب، والوصال بعد الفراق، والوصلة بعد الحيرة، يجعل العارفين ملوكًا
بعد كونهم مكدين على باب جلاله، مفتقرين إلى وصاله بكشف جماله، فإذا كانوا مستقرين
على مساند الوصال في مجالس الجمال سكارى من شراب المؤانسة بين ياسمين القرية لا
يذكرون أيام الفراق بعد الوصال كما قال القائل:

كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يَغْرَ يَوْمًا إِذَا اكْتَسَى وَلَمْ يَكُ صُغْلُوكًا إِذَا مَاتَ مَوْلَا
قال الأستاذ: كما وعد للمضطر الإجابة، وكشف السوء، وعده أن يجعله من خلفاء
الأرض ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦].

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٧٥﴾ أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٧٦﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٧٧﴾ بَلِ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ۚ بَلْ هُمْ فِيهَا عَمُونَ ٧٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءَ لَمُخْرَجُونَ ۚ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٧٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ٨٠﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ٨١﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٨٢﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ٨٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ٨٤﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يهدي العارفين بنور نوره إلى نور نوره حين غلب عليهم ظلمات النكرة بوسائل بحر الأفعال وبرها: ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يرسل رياح الكشف بين يدي نزول مطر بحال قربه ووصاله. قال بعضهم: من يدلکم على عدو نفوسکم، وفساد طباعکم، ويزیل عنکم وساوس قلوبکم، ويعینکم على استقامتها إلا الله، ومن يرسل رياح فضله بين يدي أنوار معرفته إلا الله، وهل يقدر عليه أحد سواه.

قال بعضهم: من يرسل رياح كرمه على قلوب أهل صفوته، فيطهرها من أنواع المخالفات، ثم زينها بأنوار الإيثار، ويردبها برحمة التوفيق إلا الله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ٨٥﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٨٦﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٨٧﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٨٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٨٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لا يخفى عليه ما تكن صدور أوليائه من شكاياتهم عنه، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من خفي المناجاة وقت اضطرارهم بنعت الشوق إلى وصاله.

قال الجنيد: ما تكن صدورهم من محبته، وما يعلنون من خدمته.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٦)

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ التوكل عند العارف البقلي السكون على اصطفايته السابقة بعد اطلاعه عليها حين عرف نعت الرضا عن الله في مشاهدة الله.

قال بعضهم: التوكل سكون القلب إلى الله، واطمئنان الجوارح عند مصادمة المهرلات حينئذ يظهر للمتوكل الثقة بالله.

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (٧٧) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِغَايَتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٨﴾ * وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِغَايَتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِغَايَتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ أَكْذَبْتُمْ بِغَايَتِنَا وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨١﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ الميت من ليس له استعداد قبول معرفة الحقيقة بغير الدلائل، والأصم من كان أذن قلبه مسدودة بغواشي القهر، ومن كان بهذه الصفة لا يقبل إلا ما يليق بطبعه وشهوته.

قال بعضهم: الميت على الحقيقة من خلى عن المعصية ورد إلى الحول.

وقال يحيى بن معاذ: العارفون بالله الله أحياء، وما سواهم موتى^(١).

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْه دَاخِرِينَ﴾ (٨٤)

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ إذا

(١) أخطأ بوجه من أنكر بهذه الآية سماع الصالحين، فإن الجمهور على حياة الروح، وسماع المسلمين منهم بالأحياء، وجواز التوسل والاستغاثة بهم بعد الممات، وانظر كتابينا: «الدلائل الواضحات في جواز التوسل والاستغاثة بالأولياء بعد الممات»، وكذا جمع المقال في إثبات الكرامات في الحياة وبعد الانتقال.

نفخ نفخ القهر في ناقور الهيبة حين تلاطمت بحار العظمة اضمحلت الأكوان والحدثان في سطوات عظمة الرحمن، فهناك أهل معرفته، ومحبه وشوقه لا يفزعون من رؤية ملك العظام؛ لأنهم في أكناف الوصلة مستأنسون بجمال المشاهدة، وهم المستثنون بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾، وهم الذين ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقال: ﴿لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٣].

ثم بين سبحانه أن الكل في ميادين عظمته، وجلال كبريائه، يفنون في أنوار سطوات قدمه بقوله: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ دَاخِرِينَ﴾ (٨٧).

قال بعضهم: صاغرين خاضعين لعظمته وكبريائه.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٨) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (٨٩) ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أعلمنا الحق سبحانه من غلبة سلطان عظمته وكبريائه على قلوب الخليقة يوم القيامة بحيث لا يعلمون انقلاب الكون من صرلة شهود عظمته على وجوههم، وأيضاً هذا وصف العارفين في طيران أرواحهم إلى الملكوت بأجنحة أنوار الجبروت حين أشباحهم مستقيمة في نعوت الخليقة في مقام العبودية.

قال ابن عطاء: الإيمان ثابت في قلب العبد كالجبال الرواسي، وأنواره تخرق الحجب الأعلى.

قال جعفر: ترى الأنفس جامدة عند خروج الروح، والروح تسري في القدس لتأوي إلى مكانها من تحت العرش.

وقال جعفر الصادق: نور قلوب الموحدين، وانزعاج أنين المشتاقين ﴿تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ حتى يشاهدوا الحق؛ فيسكنوا.

قال جعفر الخلدي: حضر الجنيد مجلس السماع مع أصحابه وإخوانه، فانبطوا وتحركوا، وبقي الجنيد على حاله لم يؤثر فيه، فقال له بعض أصحابه: ألا تنبسط كما انبسط إخوانك؟ فقال الجنيد: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾.

قال الأستاذ: كثير من الناس اليوم من أصحاب التمكين الساكنين بنفوسهم السائحين

في الملكوت أسرارهم.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ مقام العبودية لكل عارف شعبها على قدر مواجيدته ومعرفته ومشاهدته، فالكامل منهم أن يكون عبوديته حفظ الأسرار من النظر إلى الأغيار، وبذل وجوده بنعت الشوق إلى الله؛ لأن هذا حد الانقياد في جنات المراد، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من الباذلين أنفسهم بنعت الفناء لله في الله.

قال بعضهم: العبودية لباس الأنبياء والأولياء.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أوجب على حبيبه الحمد بظفره بمشاهدة الحق، ونور كبريائه عند سقوط حجة أعدائه، آياته ظهور أنوار سطوات عزته لانزاع النفوس الأماراة في هياكل البشرية عن جنود الأرواح القدسية.

قال الأستاذ: عن قرينة آياته فطوبى لمن رجع قبل وفاته، والويل على من رجع بعد ذهاب الوقت وفواته.



سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسّم ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿طسّم ﴿١﴾﴾ اطلاع الحق على أسرار المحبين، وتحلي قدسه بنعت سنا الأزل لفؤاد المقربين، فما أطيب هيجان سر الموحدين إلى طيب وصال بساتين ملكوت الغيب وجبروت النور، طوبى لهم وحسن مأب.

وقال الأستاذ: الطاء يشير إلى طهارة نفس العارفين عن عبادة غير الله، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله، وطهارة أرواح المواجدين عن محبة غير الله، وطهارة أسرار الموحدين عن شهود غير الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ إن فرعون النفس الأمّارة تكبر في الأرض القلوب من قوة ما عليها، من قوة لباس القهر، وغلبت على الهواء، واسترلت على العقل القدسي بإفناذ شهوات الإنسانية الشيطانية، ثم هيجت صاحبها بعد تطاولها بالدعوى الباطلة كدأب فرعون أخبر عن نفسه ما ليس فيه بعد أن احتجب بجهله عن الحق.

قال الجنيد في تفسير هذه الآية: ادعى ما ليس له.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَهْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۚ وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حقيقة الإشارة إلى تخلص الأرواح الملكوتية عن حبس شهوات الناسوتية، لنجعلها في سبيل معارف الآزال والآباد قادة للعقول الهائمة بنعت الذكر والفكر في طلب الوصول في ميادين الآيات، وتكون وارثة لموارث المشاهدات، أراد الحق سبحانه أن يكون القوم أئمة المعارف وسادات الكواشف يقتدي بهم في الطريقة بطلب الحقيقة.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَهْمَةً﴾ هداة نصحاء خيار أبرار أتقياء سادة نجباء حكماء كراماء أولئك الذين جعلهم الله أعلاماً للخلق منشورة، ومنازاً للهدى منصوبة، هم علماء المسلمين، وأئمة المتقين، بهم في شرائع الدين يقتدى، وبنورهم من ظلمات الجهل يهتدى، وبضياء علومهم في المسلمات يستضاء، جعلهم الله رحمة لعباده، وبركة في أقطار بلاده؛ يعلم بهم الجاهل، ويذكر بهم الغافل، من اتبع آثارهم اهتدى، ومن اقتدى بسيرتهم سعد، أحياءهم الله حياة طيبة، وأخرجهم من الدنيا على السلامة منها، خواتيم أمورهم أفضلها، وآخر أعمالهم أكملها.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ ۝ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۚ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ﴾ رأى الحق سبحانه أم موسى في أول الخطاب فزعة ضعيفة الحال في رؤية أنوار إحاطة الحق بجميع الوجود؛ فأمرها أن ترضعه، وبعد ذلك أمرها بأن تلقيه في البحر بغير الإرضاع تسليماً محضاً، لكن سبقت حكمته الأزلية في نظام تدابير الخليقة أي: إذا خفت عليه، فألقيه في بحار الرضا والتسليم، وانظري بعيون الأنوار إلى مشاهد الأقدار؛ فإني أريه بكشف مشاهدي، ولذة خطابي، وأجعله من المخبرين عني، وأجعله إماماً لطلاب وصالي، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾.

قال الجنيد: إذا خفت حفظه بواسطة؛ فسلميه إلينا، وأقطع عنه شفقتك، وتدبيرك ليكون مسلمة إلى تدبيرنا فيه، وحفظنا له.

قال أبو بكر بن طاهر: أي: لا تخافي خلف الوعد، ولا تحزني على غيبوبة الولد.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ۖ﴾ إن الله سبحانه ألبس وجه موسى نور قدسه، ولطائف ملاحه نور محبته؛ فرأت امرأة فرعون ذلك النور والبرهان على وجه موسى، فقالت: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي ۖ﴾؛ لأنني أرى في وجهه أنوار صفات الحق، ولك أن تراها بعين اليقين والإيمان، وحقيقة ذلك أن وجوه الأنبياء والأولياء مرآتي أنوار الذات والصفات، ينتفع بتلك الأنوار الكافر والمؤمن؛ لأن معها لذة حالية نقدية، وإن لم يعرفوا حقائقها.

قال ابن عطاء: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي ۖ﴾ أشارت إلى الحق، ﴿وَلَكَ ۖ﴾؛ لأنك كفرت وأشركت.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ۖ لَوْلَا أَنْ رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا ۖ﴾ وقع على أم موسى ما وقع على آسية بأنها رأت أنوار الحق من وجه موسى، فعشقت عليه، ولم يبق في فؤادها صبر من الشوق إلى وجه موسى، وذلك الشوق من شوق لقاء الله، فغلب عليها شوقه، وكادت تبدي سرها ﴿إِنْ

كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ، وقوله: ﴿فَرَّغًا﴾ من هلاك موسى لكن لم يكن فارغًا من الشوق إلى لقاء موسى؛ لأن شوق موسى وسيلة إلى شوق الله، وكشف لقائه، فلما قل صبرها في فراق موسى ثَبَّتَ الله قلبها بكشف جماله صرفًا، وذلك قوله سبحانه: ﴿لَوْلَا أَنْ رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المشاهدين جمالنا وجلالنا.

قال ابن عطاء: أصبح فؤاد أم موسى فارغًا عن الاهتمام بموسى لما أيقنت من ضمان الله لها فيه بقوله: ﴿إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَىكَ﴾، ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي: تظهر ما أوحى إليها في السر من حفظ موسى ورده إليها، ومنعه أيدي الظلمة عنه.

قال فياض: الصدر معدن الآفة، والقلب معدن الصحة، والفؤاد برزخ بين الصدر والقلب، والقلب معدن الأنوار.

وقال جعفر الصادق: الصدر معدن التسليم، والقلب معدن اليقين، والفؤاد معدن النظر، والصدر معدن السر، والنفس مأوى كل حسنة سيئة.

قال بعضهم: في قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ لولا أن أيدناها بالتوفيق والصبر لأبدت ما في ضميرها من الوجد بولدها، وافهم أن الصدر معدن نور الإسلام، والقلب معدن نور الإيقان، والفؤاد معدن نور العرفان، والعقل معدن نور البرهان، والنفس معدن القهر والامتحان، والروح معدن الكشف والعيان، والسر معدن لطائف البيان، ذكرت ذلك بمفهوم خطاب الغيب موافقة لأئمتي وسادتي.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَئِنْ أَكْثَرْتُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ سقى الله روح موسى ألبان المعرفة من ثدي الوصلة، حين أخرجنا من العدم بنور القدم، وحرّم عليها مراضع الأكوان والحدثان، ومنعها من الاستئناس بغيره من العرش إلى الثرى؛ لذلك أشار في القصة ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ولولا رضاعه الأول لاشتغل بإتيان غير مرضعته، فسقيه لبن المعرفة فطامه عن كل شيء سواه.

قال بعضهم: إشارة إلى العارف؛ فإنه لا يصلح لبساط القرية من لم يكن مرضعًا برضاعة الأنس، فمن كان رضيع مخالفة، أو رضيع وحشة، فإنه لا يصلح لبساط القرية، ألا ترى الكلیم لما كان فيه تدبير الخصوصية بالكلام كيف حرم عليه المراضع.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٥١﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ ۖ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۚ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ ۚ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ٥٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥٣﴾
 قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ لما تمكنت فطرته السليمة القابلة نور الغيب بسنا العقل، وكمل عقله بتأييد الحق ونصرته على النفس والهوى، وقوى قلبه بصفات الإيثار والإيقان، وتجرد روحه عما دون الله، واستوى سره بنعت التمكين في العبودية عند جريان أحكام الربوبية عليه آتيانه حكمة الأزلية، وعلوم الأبدية؛ ليعرف بأنوارها حقائق الصفات، ويرى بسنائها جلال الذات.

قال الجنيد: لما تكامل عقله، وصحت بصيرته، وخلصت نحيزته، وآن أوان خطابه آتيانه حكماً بياناً في نفسه، وعلماً مما يتجدد عنده من موارد الزوائد عليه من ربه.
 قال أبو بكر الوراق: حكماً على عبادنا، وعلماً بنا.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ٥٤﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ٥٥﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَنْبَطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَتُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ٥٦﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنَّ أَلَمَاءَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ۖ إِنَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: بما أنعمت عليّ من كشف جمالك، وما أسمعني من لطائف خطابك لا أساعد المخالفين، ولا أجالس البطالين، ولا أعين المدعين، ولا أكون موافقاً لمراد النفس والهوى، ولا أكون في قيد الشهوة والمنى.

قال ابن عطاء: العارف بنعم الله من لا يوافق من خالف ولي نعمته، والعارف بالمنعم لا يخالفه في حال من الأحوال.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿خَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أن الله سبحانه لما أراد بعبد عبادنا أن يكون له فردًا أوقع عليه واقعة شنيعة ليفزع من تبعاتها، فيفر مما دون الله إلى الله، فلما فرَّ إليه خائفًا من الامتحان بجهد جمال الرحمن، ويعلم أن جميع ما جرى عليه واسطة لوصول المراد هذا حال موسى أقره الحق إلى الافتقار إليه بسبب من الأسباب، والغرض منها كشف النقاب، وإسماع الخطاب، ﴿خَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا﴾ كان واجدًا في نفسه شغلات نيران المحبة، واستأنس بها، واستوحش من الخلق؛ فإذا أقبل إلى الحق بالكلية خاف وترقب أن يلحقه أحد من الضلال، فيمنعه من الوصول إليه، وأيضًا خرج مما دون الله خائفًا عظيمة الله، يتربص طلوع شمس الوصال من مشرق الجمال.

وقال أبو بكر بن طاهر: ﴿خَائِفًا﴾ على قومه العذاب يتربص لهم هداية من الله.

قال ابن عطاء: خرج منها خائفًا من قومه يتربص مناجاة ربه.

وقال بعضهم: مستوحشًا من الوحدة يطلب من يأنس به.

وقال محمد بن حامد: خائفًا من الشيطان راجيًا للعصمة.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ١١﴾
 وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ
 امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا
 شَيْخٌ كَبِيرٌ ١٢ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ
 فَقِيرٌ ١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ لما تخلص من مقام تربية الإرادة، وغار من صحبة الأضداد، ومقام الامتحان هاج سره بحق الحق، واستنشق روحه رائحة ورد الوصال، ورأى بردًا من سحائب القربة، قال في نفسه: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ١١﴾ أي: يهديني ربي إلى مشاهدته، ويسمعي كلامه، وذلك سواء سبيل المعرفة؛ لأن المعرفة بحقيقتها مستفادة من المشاهدة، ومن هناك تبدو سبل قدم الذات ومعرفة أزلية الصفات، فمدين إشارة إلى مشاهدة عالم الأزل والأبد، وتوجهه كان إليها بالحقيقة، فوجد نسائم ذلك من جانب مدين؛ لأن هناك مواضع الكشف والخطاب وصعود أنوار نبوة شعيب عليه السلام، وذا، كما قال عليه السلام في إخباره عن وجدانه نسيم نفحه كشف جمال الحق في مزار قلب أويس

القرني - رحمة الله عليه: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن»^(١)، قال تعالى حكايةً عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].

قال جعفر: توجه بوجهه إلى ناحية مدين، وتوجه بقلبه إلى ربه طالباً فيه سبيل الهداية، وأكرمه الله بالكلام، وكل من أقبل على الله بالكلية؛ فإن الله يبلغه مأموله.

قال أبو سعيد الخراز: حملته الفراسة، وتدابير المكاملة فيه إلى أن توجه أرض الأولياء، وهي أرض مدين، فصادف بها شعيباً، وكان له في لقائه أوائل البركات، فلما كمل هيجانه إلى لقاء ربه قصد مدين بصورته، وقصد بروحه موارد المشاهدة والمكاشفة بقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ورد سره موارد المكاشفة، وسواقي المشاهدة وأنهار القربة، وبحار القدس والأنس فشرب منها بأقدح الأقداح شربات المحبة والعشق والشوق فصار هائثاً في الملكوت حيران في الجبروت.

قال الواسطي: الوارد بطلب المقالة لثقل الحرمة، والقاصد يطلب اللقاء والظفر قال أبو بكر بن طاهر: ورد في الظاهر ماء مدين وورد في الحقيقة على مالك مياه الأنس وبساتين المعرفة ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ﴾ أي: خواص من العباد يرتعون في تلك الميادين، فأنس بهم، وشرب معهم من تلك المياه شربة أورثته ورود ذلك المورد المورد على مخاطبة الحق، وأورثه شرب ذلك الماء الثبات في حال المخاطبة، ثم بيّن سبحانه مقام فراسة موسى بقوله: ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، رأى موسى بنور النبوة أهله، وخاطبهما من حيث رؤية القلب ووجدان الأهلية وأعانها نصحاء الطريقة وأداء شرائط الإرادة بقونه: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، استظل ظل العناية وطلب من هناك حقائق الكفاية بنعت الرضا والتسليم وأظهر افتقاره إلى وصول المشاهدة حين عاين كنوز القدم مفتوحة وجلابيب الصفات مكشوفة فانبسط إليه بالسؤال حين انفرد من الخلق والخلقة.

قال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية فخضع وخضع وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من أنوار الربوبية، فافتقاره افتقار العبد إلى مولاه في جميع أحواله لا افتقار سؤال ولا طلب.

قال بعضهم: تولى إلى كهف الرعاية فإن فيه الراحة والاسترواح.

(١) رواه أحمد في مسنده (٥٤١/٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٧/٥).

قال رويم في قوله ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾: مياه الرحمة والعناية لا تخلو من الواردين والطالبين والعاكفين عليها، فمن أيد بالعناية سُقي ماء الرحمة، ومن أيد بالشفقة سُقي ماء العناية، ومن أيد بالكلاءة سُقي من ماء المعرفة، ومن أيد بالأنس سُقي من ماء المحبة، ومن أيد بالصدق سُقي من ماء الصفاء، وكل وارد مياه الحضرة يُسقى على مقدار عطشه، فمنهم من يروي من عطشه، ومنهم من يزيد عطشاً وهيباً، وكلما ازداد من الشرب ازداد من الظمأ، كما حكى عن أيوب عليه السلام أنه قال: [من يشبع من رحمتك] كذلك قيل: والمشرّب كثير الزحام.

شربت الحب كاساً بعد كاس فما نفذ الشراب ولا رويت

قال الأستاذ: ورد بقلبه موارد الأنس، والموارد المختلفة مورد القلوب رياض البسط لكشوفات المحاضرة، فيطرفون لأنواع الملاحظات ومورد الأرواح مشاهدة الأرواح، فيكاشفون بأنوار المشاهدة، ويسقطون عن الإحساس والنفس، وموارد الأسرار ساحات التوحيد، فعند ذلك الولاية لله فلا نفس ولا حس ولا قلب، ولا أنس، استهلاك في الصمدية وفناء بالكلية، ويقال في قوله: ﴿تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ أي: إلى ظل الأنس وروح البسط واستقلال السر بحقيقة الوجود.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَأْتٍ اسْتَفْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَفْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٥﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُشْقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٧﴾.

قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ الحياء صفة الكرام لكن، هاهنا زيادة على حكم الحياء؛ ولأن تلك السلالة المقدسة لما رأت الكليم عليه السلام استغرقت في أنوار ما كسا وجهه من صولة الموسوية، وما ألبسه من نور العظمة فتحاشت واستحييت مما رأت منه بنور الفراسة، ذلك النور من أهلية المحبة بين روحها وروح الكليم، قال تعالى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ معناه كل من رآه أحبه واستأنس.

قال أبو بكر بن طاهر: لتمام إيمانها وشرف عنصرها وكريم نسبها آتته على استحياء،

فإن النبي ﷺ قال: «الحباء من الإيمان»^(١) ثم بين سبحانه ما رمزنا من وصف فراستها بقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيكِ اسْتَجْرَةٌ﴾ رأت بنور الولاية قوة النبوة وأمانة الصديقية، وأيضاً قوة المعرفة والربوبية وأمانة المحبة والعبودية، وتكلمت عما رأت في المستقبل من أمانة موسى بانوفاء في شرطه شعيب في عهده بقوله، ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ وقوة إرادته في خدمته عشر حجج، وهذه الكلمة أيضاً صدرت منها من رأس شقيقة روحها من روح موسى؛ لذلك صارت له أهلاً، فأبصر شعيب ما أبصرت من سوابق الحكم في المشيئة والمقادير في الأزل لذلك ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ﴾؛ لأنه رأى بنور النبوة أنه يبلغ إلى درجة الكمال في ثماني حجج ولا يحتاج إلى التربية بعد ذلك، ورأى أن كمال الكمال في عشر حجج؛ لأنه رأى أن بعد العشر لا يبقى مقام الإرادة، ويكون بعد ذلك مقام الاستقلال والاستقامة، ولا يحتمل مؤنة الإرادة بعد ذلك؛ لذلك قال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنِّئُ كَانُهَا جَانٌّ وَلِي مُذَبَّرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿١٢﴾ أَسَلُّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾: افهم أن مواقيت الأنبياء والأولياء وقت سير الأسرار من بدء الإرادة إلى عالم الأنوار وأنفاسهم من بدو الإرادة بل من وقت الولادة، بل من كون الروح من العدم في مشاهدة القدم منقسمة على شرائف الأحوال، في كل نفس لهم سر وحوال ووجد وخطاب ومقام وكشف ومشاهدة، فأجل الإرادة أجل المعاملات وأجل الحالات، فإذا تم أوائل المعارف وأمارات الكواشف لموسى ولم يبق عليه حق

(١) رواه البخاري (٢٢٦٨/٥)، ومسلم (٦٣/١).

الإرادات والمقامات والمعاملات وظهر له عين القدم في عين الجمع وبان نور الأزل في النار بعد انقضاء الأجل قال: ﴿إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا﴾ والحكمة في ذلك أن طبع الإنسانية يميل إلى الأشياء المعهودة؛ لذلك تجلى النور في النار لاستئناسه بلباس الالتباس، فأخبر عن حال الاستئناس، وقال ﴿إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرتها وأنستها، ولا تخاط النار من الاستئناس خاصة في الشتاء، وكان شتاء فتجلى الحق بالنور في لباس النار؛ لأنه كان في طلب النار، فأخذ الحق مراده وتجلي من حيث إرادته وهذا سنته تعالى، ألا ترى إلى جبريل أنه إذا علم أن النبي ﷺ أحب دحية فأكثر إتيانه إليه كان على صورة دحية، فلما وصل موسى إلى المقصود ذهب النار وبقي النور وذهب الأنس وبقي القدس، ثم ذهب النور وظهر عين الصفة، ثم عين الذات، فلما وله تحير في صولة الأزل، وبان العيان لم يبق له العرفان، وظن ظنونًا منها أنه كان في سره أين أنا وإيش ما أرى، هل يكون لموسى ما يرى موسى أو أن موسى نام عن موسى، وما يرى لا يرى أو يرى ولا يعرف، فكاد أن يضمحل في الحيرة إذ بان الكشف بالبداهة خارجًا عن العادة فناده الحق: أين أنت يا موسى ﴿إِنِّي - أَنَا اللَّهُ﴾، فأوقعه بطيب الخطاب من الفناء إلى البقاء ومن التفرقة إلى الجمع حتى أنس بالأنس ثم بالقدس، وبقي مع الحق بنعت الفرقان في محل العيان، فأوائل الأحوال كان رسمًا ثم رسمًا ثم واسطة ثم حقيقة، فارتفع الوسائط وبقي الحقائق، وذلك بقوله ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنَ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَى﴾ أتى من الأكوان والحدثان إلى بساط الرحمن، ونودي له من شاطئ وادي الأزل في ساحة القدم من شجرة الذات بأصوات الصفات أن يا موسى ﴿إِنِّي - أَنَا﴾ إشارة البعد في القرب والقرب في البعد والغيبة في الحضور والحضور في الغيبة، أشار إلى الهوية، ثم إلى كشف العيان بقوله: ﴿إِنِّي - أَنَا اللَّهُ﴾ أي: اخرج أنت من أنت من حيث أنت؛ فإني أنا الله أبقى لك؛ فانظر إليّ بعين منا؛ حتى ترى الألوهية وتعلم الحقيقة.

قال بن عطاء: في قوله ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾: لما تم أجل المحبة ودنا أيام القربة والزلفة وإظهار أنوار النبوة عليه سار بأهله ليشارك معه في لطائف الصنع.

وقال جعفر في قوله ﴿ءَانَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾: أبصر نارا دالة على الأنوار؛ لأنه رأى النور على هيئة النار، فلما دنا منها شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلايب الأنس، فخطب بالطف خطابًا، واستدعى منه أحسن جواب؛ فصار بذلك مكلّمًا شريفًا مقربًا أعطى ما سأل وأُمنَ بما خاف، وذلك قوله ﴿ءَانَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: أنس سره برؤية النار لما كان فيه من عظيم الشأن وعلو المتبة، فأخرج الرؤية بلفظ أنست أي: أرى هذه النار رؤية مستأنس بها لا مستوحش منها، فدنا منها فأنسه طهارة الموضع وما سمع فيه من مناجاة ربه وكلامه، فتحقق بالأنس.

وقال الواسطي: الوسائط في الحقيقة لا أوزان لها ولا أخطار، وإنما هي علل لضعف الطاقات، كما جعل الواسطة به موسى بيته الشجرة نادى في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى، ثم دفع الواسطة ثانيًا، فقال ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾.

قال أبو سعيد القرشي: تلك الشجرة في مخاطبة الكلام تعلل التطبيق، بذلك التعلل حمل موارد الخطاب عليه كما تعلل النبي ﷺ بقوله «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ»^(١) أي: أنست منها ولا هي مني في شيء، إنما لي منها تعلل أتمحل به موارد الوحي علي.

قال أبو علي الروذباري: الجبل الذي كلم الله موسى عليه كان من عقيق.

قال القاسم: لما سمع موسى الكلام خرَّ صاعقًا، فجاء جبريل وميكائيل فروَّحاه بمروحة الأنس حتى أفاق من الهيبة، واستأنس بالأنس مع الله، فزال بالرعب والفرع من قلبه، فقال له: يا موسى أنا الذي أكلمك من علوي، وأسمعك من دنوي، فلدنوي لا أخلو من علوي، ومن علوي لا أخلو من دنوي، يا موسى إني أنا الذي أدبتك قربتك وناجيتك، عند ذلك قال له موسى: أقرب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ قال له: أنا أقرب إليك منك.

قال الأستاذ في قوله ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾: لاح له نار ثم لاح نور ثم بدا ما بدا فلا كان المقصود النار ولا النور، وظهر النداء ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ قيل شتان بين شجرة وشجرة؛ فشجرة آدم عندها ظهرت محنة وفتنة، وشجرة موسى عندها افتتحت نبوته ورسالته، يا صاحبي لو يعلم قائل هذا القول حقيقة شجرة آدم لم يقل مثل هذا في حق آدم؛ فإن شجرة آدم إشارة إلى شجرة الربوبية، لذلك قال ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]؛ فإن آدم إذا كان متصفًا بصفات الحق، أراد العينة بحقيقتها فهي الحق عنها، فقال: هذا شيء لم يكن لك؛ فإن حقيقة الأزلية ممتنعة من الاتحاد بالحدثية، هكذا قال، ولكن أظهر أزليته من الشجرة، وسكر آدم ولم يصبر عن تناولها، فأكل منها حبة الربوبية، فكبر حاله في الحضرة، ولم يطق اللجنة حملها، فأهبط منها إلى معدن العشاق، فشجرة آدم الأسرار، وشجرة موسى شجرة الأنوار، وكم بين الأسرار والأنوار، الأنوار للأبرار والأسرار للأخيار، فلما صال آدم بصولة السكر انهزم من

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٠٥)، والمحجب الطبري في الرياض النضرة (١/ ٢٦٥).

سطوات العظمة، ولم يحق له الجنة بعد ذلك، لذلك قيل (اهبط) وقيل في القصة أن موسى لما سمع كلام الحق سبحانه غشى عليه، فأرسل الله إليه الملائكة حتى رَوَّحُوهُ بمراوح الأنس، كان هذا في ابتداء الأمر والمبتدئ مرفوق به، وفي المرة الأخرى خرَّ موسى صعقًا وكان يفيق والملائكة تقول له: يا ابن الحيض مثلك من يسأل الرؤية يا ليت لو يعلم الملائكة أين موسى هناك لم يعيروه؛ فإن موسى كان في أول الأحوال مريدًا، وفي الآخر مرادًا مطلوبًا طلبه الحق واصطفاه لنفسه، وقال ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنُقَسِّيَ﴾، وهيجته إلى سؤال رؤية بعد أن ناجاه، وناداه بأصوات اللطف، وقال ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾، فشهد موسى بين الجلال والجمال حقيقة الذات، فظن أنه خارج الحجاب من غلبة العيان قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾، فأجابه الحق وقال ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أي: أنت في مشاهد وتراني، فمن أين تطلبني وها أنا في عينك تراني بعيني؟ وفيه ألف الاستفهام غائبة مضمرة، لا يدركها بالفهم إلا أهل الحقائق، فيا ليت لو يعلم الملائكة أن موسى في ذلك مراد الحق أراد أن يريه نفسه، وهيجته إلى سؤال رؤيته، ولولا ذلك فمن أين يجد الحدث ظهور وجود القدم؟! وتلك الصعقة لموسى أنه كان في بداية الخطاب طمع الرؤية، فلما تجلَّى الحق سبحانه للجبل له واسطة طمع وصول حقيقة القدم، فهاج بحر الربوبية موجًا، فألقت موسى إلى سراب الحيرة حتى صعق، كما كان آدم يراه من الشجرة، فتعربد كما تعربد الكليم، فأهبطه من دار الوصلة إلى دار المحبة، وكذا يكون من أقبل الأزل بنعت الأجل وصارع مع أسد القدم بوصف العدم:

نديمي غير منسوبٍ إلى شيءٍ من الحـَـيْفِ
سَقَانِي مِثْلَ مَا يَشْرَبُ كَفَعَلَ الضَّيْفِ بِالضَّيْفِ
فَلَمَّا دَارَتْ الْكَأْسُ دَعَا بِالنَّطْعِ وَالسَّيْفِ
كَذَا مَنْ يَشْرَبُ الرَّاحَ مَعَ التَّنِينِ فِي الصَّيْفِ

قيل: في البداية لطف، وفي النهاية عنف، ويقال: في الأول ختل، وفي الآخر قتل.
وقال الأستاذ في وصف الشجرة: الشجرة هي شجرة الوصلة، ثمرتها القرية، أصلها في أرض المحبة، وفرعها باسق في سماء الصفوة، أوراقها الزلفى، أزهارها وأنوارها تنفتق عن نسيم الروح والبهجة.

﴿وَأَخِي هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٢٦).

قوله تعالى ﴿وَأَخِي هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾: افهم أن مقام الفصاحة هو

مقام الصحو والتمكين الذي يقدر صاحبه أن يخبر من الحق وأسراره بعباده لا يكون شفيعه في موازين العلم، وهذا حال نبينا محمد ﷺ حيث قال: «أنا أفصح العرب»^(١)، «وبُعِثْتُ بجوامع الكلم»^(٢)، وهذا قدرة قادية اتصف بها العارف المتمكن الذي بلغ مقام مشاهدة الخاص ومخاطبة الخاص، وكان موسى في محل السكر في ذلك الوقت، ولم يطق أن يعبر عن حاله كما كان؛ لأن كلامه لو خرج على وزان حاله يكون على نعت الشطح عظيمًا في آذان الخلق، وكلام السكران ربما يفتن به الخلق؛ لذلك سأل مقام الصحو والتمكين بقوله ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾؛ لأن كلامه كان من بحر المكافحة والمواجهة الخاصة التي كان مخصوصًا بها دونه.

قال أبو بكر بن طاهر: هو أفصح مني لسانًا؛ لأنه لم يسمع خطابك ولم يخاطبك؛ فهو أفصح مني لسانًا مع الخلق، كيف أكون معهم فصيحًا وسمعت لذة كلامك؟ وكيف أخاطبهم مع مخاطبتك؟ وكيف أجعل لهم وزنًا مع ما أدبني وخصصتني به؟ ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ معهم وأحسن بيانًا لهم، إني لم أستلذ مخاطبة بعدك، ولم ألتذ بكلام غيرك وأنشد: هل كنت تعرف سرًا يورث الصمما أصممني سرهم أيام فرقتهم

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِقَابَتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾^(١) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِقَابَتِنَا بَيَّنَّتْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^(٢) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُوهَا أَلَمَلًا مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَمْنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٤) وَأَسْتَكْبَرَهُ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾^(٥) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾^(٦) وَجَعَلْنَاهُمْ أَهْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾^(٧) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾^(٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٢٣٢).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٠٨٧)، ومسلم (١/ ٣٧١).

الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ
الشَّاهِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي
أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا﴾ سلطان الحق لها ما كساهما من أنوار قدسه
وأنسه ومحبه وهيبته.

قال جعفر: هيبته في قلوب الأعداء ومحبه في قلوب الأولياء.

قال ابن عطاء: سياسة الخلافة مع النبوة.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ
مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتَ
أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى
أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ
﴿١٥﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾
فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ
بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ
الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾
وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٢٠﴾
أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ كان
روحه عليه السلام في مشاهد قرب القدم، وجسمه في بطن العدم، علمه كان قائماً بمجازاة روحه عند
الله، وأخبر عن بعض مقاماته كليمة، فاشتاق إليه، فزفر وبكى من محبه وشوقه، فناداه الحق
بوصفه ودنوه بين يديه، فسأل من الحق رؤيته، فناداه الحق، وخاطبه بلسان حبيبه محمد،
فاستلذ بكلامه وسكن، كما أخبر عليه السلام عن كمال حب علي بن أبي طالب في قلبه وفضله عند الله

بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ خَاطِبُنِي لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ بِلُغَةٍ عَلِيٍّ^(١)﴾، فهو سبحانه وتعالى خاطب الكلیم بلغة محمد ﷺ، وكان ﷺ في حضرة القدس، وموسى كان في مقام الأنس هو في مقام القدس سأل أمته، وموسى في مقام الأنس ذكر أمته، فبين ذكر الحبيب والكلیم أمة محمد ﷺ مغفورة لذلك، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

قال الحسين: في هذه الآية خاطب منصوب القدرة في عين العدم.
وعن أبي يزيد أنه قرئت هذه الآية بين يديه فقال: الحمد لله الذي لم أكن، ثم سأل بعضهم عن معنى قوله هذا، فقال: معناه كيف كنت أستحق سماع النداء من الحق وجوابه فأجابه الحق عناء اللطف ونيابته عناء، ثم قال سهل في قوله ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾: عرضنا عليه لأمته ما أبى علينا فخصصنا به أمتك من قراءة الكتاب حفظاً والصلاة في غير المحارب، كنا ننوب عنك وعن أمتك قبل الإيجاد.
﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَنَّةَ﴾.

قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾: كل كلام بغير خطاب الحال والواقعة فهو لغو.

قال يوسف بن الحسين: اللغو ما يشغلك عن العبادة.
وقال حمدون: اللغو ذكر الخلق.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: الهداية مقرونة بإرادة الأزل، ولو كان إرادة نبينا محمد ﷺ في حق أبي طالب مقرونة بإرادة الأزل لكان مهتدياً، ولكن كان محبته وإرادته في حقه من جهة القرابة، ألا ترى أنه إذا قال: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعَمْرٍ»^(٢) كيف أجابه؟!

قال ابن عطاء: إنك لا تسأل الهداية لمن تحبه طبعاً، وإنما تسأل الهداية لمن تحبه فتكون محبتك له حقيقة؛ لأنك لا تحب على الحقيقة إلا من تحبه، حاشا لنبينا المخالفة.

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه، ولم نقف على من أخرجه.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٩/١)، وابن حبان (٣٠٦/١٥).

﴿وَقَالُوا إِن نَّبْعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطُفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا
يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمَّا تَرْتَكَنَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا
وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿١٩﴾ وَمَا أُوْنِيْتُمْ
مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾ أَفَمَنْ
وَعَدْتُهُ وَغَدَا حَسَنًا فَهُوَ لِقَابِهِ كَمَنْ مَتَّعْتُهُ مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ
الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ
مَا كَانُوا إِلَّا نَا يَعْْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ وَقِيلَ أَذْعَوْا شُرَكَاءَكُمْ فَذَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا
الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥﴾
فَعِمِيتَ عَلَيْهِمُ الْآلُيَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾^(١).

قوله تعالى ﴿أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا﴾ حرهمم
بالحقيقة قلب محمد ﷺ، وهو كعبة القدس، وحرم الأنس، وسرادق مجد تجلي جلاله، وجماله
يجبى إليه ثمرات جميع أشجار الذات والصفات، من دخل ذلك الحرم بشرط المحبة والموافقة
كان آمنة من آفات الكونين والعالمين، وكان منظور الحق في العالم، وهكذا كل من دخل في
قلب ولي من أوليائه، وقلب العارف حرم المراقبات والمشاهدات، من دفع عنه خاطر
الوسواس والهواجس يجبى إليه من أشجار الأنوار ثمرات الأسرار.

(١) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَغَدَا حَسَنًا فَهُوَ لِقَابِهِ﴾ الوعد الحسن: هو الوعد بالجنة، والوعد الأحسن
هو الوعد بالرؤية، والموعد له من المؤمن بالإيمان الرسمي، فهو لاقية يوم القيامة؛ لأنها جنة غير
معجلة، والموعد له هو المؤمن بالإيمان الحقيقي فهو لاقية في الدنيا؛ لأن قيامة العارفين دائمة، وهذا
الوعد مطلقاً مما يقتضيه استعداد كل من الأبرار والمقربين، فلا يتخطى أحدهم حد الآخر بحكم اسم
العدل دون الفضل؛ لكن فرق بين حالة وحالة، فإن الأبرار، وإن كانوا يرون ربهم؛ لكن ذلك في
الآخرة لا في الدنيا، وكذا في الأسبوع مرة لا في كل لحظة، كما هو شأن المقربين؛ لأنه لا حجاب لهم
أصلاً، كما دل عليه قوله: «وصنف لا يتستر الرب عنهم، وذلك من نتائج شهودهم في الدنيا
بالبصيرة».

قال بعضهم: من مكن من رعاية سرّه وافتقاده أوقاته لن يعدم الزوائد من الله ودوام الفوائد، ومن ضيّع أوقاته وأهمل ساعاته فهو متردّد في ميادين الغفلة وساعٍ في مسالك الهلكة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا يُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ﴾: يخلق ما يشاء في قلوب العارفين والمحبين والموحدين من أطيار الإفهام والمعارف بخواطر الحق والإنعام، ويختار بها بمشيئة الأزل أهل محبته ومعرفته ومشاهدته وقربه ووصاله، ونفى عن هذه المواهب السنية علة الاكتساب بقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۝﴾.

قال الجنيد: كيف يكون للعبد اختيارٌ والله المختار له بقوله: ﴿وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۝﴾.

إذا نظروا إلى الأحكام الجارية بجميل نظر الله لهم فيها وحسن اختياره فيما أجراه عليهم لم يكن عندهم شيء أفضل من الرضا والسكون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ۝﴾: إذا أدام ليالي الهجران بظلمة النفس والشيطان والفترة والعصيان من يأتي بنهار الوصال وضياء الجمال إلا الله سبحانه، وإذا أدام نهار الوصلة واستقام شمس المشاهدة في وسط فلك العناية على قلب العارف الصادق من يأتي بليل الفقدان وظلمة الغفلة والنسيان.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۝﴾

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ

إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴿٦٤﴾ ، ثم بيّن سبحانه أن ليل الفترة ونهار المشاهدة من كمال لطفه بأوليائه؛ ليرفها في زمان الفترة، ويستريحوا لحظة من ثقل واردات المشاهدة، ويستبشروا في نهار الكشف والعيان برؤية الرحمن، ويتلذذوا بالروح والريحان، وذلك قوله: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ .

قال الحسين بن منصور: من علم من أين جاء علم أين يذهب، ومن علم ما يَضَع علم ما يُصنَع به، ومن علم ما يُضنَع به علم ما يُراد به، ومن عَلِمَ ما يُراد به علم ما له، ومن علم ما له علم ما عليه؛ ومن علم ما عليه علم ما معه، ومن لم يعلم من أين جاء وأين هو وكيف هو ولمن هو ومما هو وما هو وإلى أين هو فذلك ممن أهمل أوقاته، وترك ما ندبه الله إليه، بقوله: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ .

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ • إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ : شهداء الخلق أصحاب الفرائض والمشاهدات الذين يخاطبهم الله بفعله وصفاته وذاته بوسائط الكون أحياناً، ويخاطبهم صرفاً بكلامه القديم بغير واسطة، فهم مشرفون على أسرار الحق والخلقة، فهم ينطقون من بطون خواطرهم، ولكل طائفة من المريدين شاهد من أهل القصة، يشهدون لهم وعليهم في الدنيا والآخرة، وهو مخصص مستخرج من القوم بنعت الاصطفائية والولاية. قال بعضهم: أخرجنا من كل قوم ولياً وأطلعناه على أسرار قريتنا، ثم أذننا في البرهان، فأظهر البرهان بنا لا به، فعلم الخلق أن لا قيام لأحد بنفسه، ولا يخبر عن الحق سواه، ولا يجيب عن سؤاله غيره، ولا يقوى على مخاطبته إلا من أيد بتأييد خاص.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ : نصيب العارف من الدنيا الوجه الحسن، الصوت الحسن، ورائحة الطيب، والدار الحسنة، ومجالسة الفقراء الصبر الصادقين في العشق القائمين بالله، بشرط المحبة والشوق

والبذل والإيثار في خدمتهم وصحبته، والنظر إلى كل مستحسن والانفراد عن كل مستقبح وإجراء الحياة في السماع والوقت والوجد والحال والمراقبة والمحاضرة، وجميع ذلك مجموع في قوله ﷺ: «حُبِّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: الطَّيِّبُ، وَالنِّسَاءُ، وَقِرَّةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)، وإحسان الله على العارف كشف مشاهدته وتعريف نفسه له، وإحسان العارف الإقبال على الله بنعت التجريد عما دونه وشهوده مشاهدة جلاله وربوبيته في عبوديته.

سئل سفيان الثوري عن قوله ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ قال: لا تغفل عن عمرك في الدنيا أن تعمل بالطاعة.

قال بعضهم: لا تغتر بها ولا تسكن إليها.

وقال الجنيد: لا تترك إخلاص العمل لله في الدنيا؛ فهو الذي يقربك منه ويقطعك عما سواه.

قال القاسم في قوله: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ﴾: اصرف وجهك عن الكل بالإقبال عليه كما أحسن إليك؛ حيث جعلك من أهل معرفته، وأحسن مجاورة معرفته؛ فإنه أحسن إليك؛ حيث أنعم عليك بالإيمان وهو من أعظم النعم، فأحسن جوار نعمه؛ فإنه أحسن إليك في أن وفقك لخدمته، فأحسن القيام بواجب عبوديته وإخلاص خدمته.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾: كل مريد نظر إلى طاعته وعلمه وعمله وكراماته وحكمته ونطقه وفصاحته وما يسهل له من مراداته فهو مفتون بدعواه ساقط عن نظر الشيوخ بترك آدابه وسقوط احتشامهم عن قلبه، نعوذ بالله من هذه الفتنة، والله رأيت أكثر أهل زماننا يسقطون من درجة الإرادة والصدق ومن قلوب أهل الحقيقة بإعجابهم بما هم فيه، فيصير حالهم أقبح من أحوال العصاة المفلسين؛ لأن مآل هؤلاء في أواخر أعمارهم الإنكار على أولياء الله وخروجهم بدعوى الشيخوخة عليهم، أعمى الله أبصار قلوبهم وهم لا يشعرون.

قال سهل: ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح، ولا ادعى لنفسه حالاً فتم له، والسعيد من اخلق من صرف بصره عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل الفضل والإفضال ورؤية من الله

عليه في جميع الأفعال، والشقي من زُين في عينه أقواله وأفعاله، وافتخر بها وادّعاها لنفسه، فشؤمه ومهلكه يوماً فيوماً، وإن لم يهلكه في الوقت، ألا ترى الله تعالى كيف حكى عن قارون بقوله ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ نسي الفضل، وادّعى لنفسه فضلاً، فخسف الله به الأرض ظاهراً، فكم قد خسف بالأسرار وصاحبها لا يشعر بذلك، وخسف الأسرار هو منع العصمة، والرد إلى الحول والقوة وإطلاق اللسان بالدعاوى العريضة، والعمى عن رؤية الفضل، والقفود عن القيام بالشكر على ما أولى وأعطى حيثئذ يكون وقت الزوال.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾: بين سبحانه في هذه الآية شأن قارون وخروجه بالزينة على أهله، وهلاك من يخرج على أولياء الله بالدعاوى الباطلة والكبر والرياسة، لا محالة يسقط من عيون الخلق وقلوبهم بعد سقوطه من عين الحق، ويخسف أنوار إيمانه في قلبه لا يرى أثرها بعد ذلك، وأصل الزينة عند العارفين وجوه معفرة بالتراب عليها آثار دموع الشوق والمحبة، ساجدة على باب الربوبية.

قال ابن عطاء: أزين ما تزين به طاعة ربه، ومن تزين بالدنيا فهو مغرور في زينته.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ خَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٤١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٣﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّثْلَهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: وصف الله سبحانه أهل الفقر من الصادقين والعلم من العارفين بمشاهدتهم جمال الغيب وشهودهم مشاهدة الحق مع تصاغر زينة الدنيا في عيونهم، وإن ذلك المقام لا يناله إلا صابرٌ في بلائه راضٍ في قضائه مشتاقٌ إلى جماله والهِ في رؤية جلاله.

قال بعضهم: العالم بربه من رؤي دوام نعمته عليه، وتتابع آلائه لديه، وقصور شكره

عن نعمه، وإفلاسه عما يظهر منه، هذه صفة العلماء بالله.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾: نبهنا الله سبحانه أن الوصول إلى قربه ووصاله ومراتب دُنُوّه في جنان مشاهدته لمن لا يكون له حبُّ الرياسة والجاه في قلبه، ولا يباشر حظوظ نفسه وهواه، ومن خُصَّ بهذه الدرجات الشريفة لا يأتي منه أفعال المختئين من أهل الرياء والسمعة، الذين تركوا الدين بالدنيا وجاهها، وأفسدوا وجه الأرض بسالوسهم وناموسهم، ضرب الله أعناقهم؛ فإنهم قرناء الشياطين في جهنم، نعوذ بالله من شؤم معصيتهم.

قال يحيى بن معاذ: الدنيا خمر إبليس، من شرب منها شربة لا يفيق إلا في عسكر القيامة.

وقال ابن عطاء: العلو النظر إلى النفس، والفساد النظر إلى الدنيا.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٤٨﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: إن الله سبحانه خلق روح المصطفى ﷺ بين نورين: نور الجمال، ونور الجلال، حين أظهر ذاته سبحانه، فوصل نور الذات إلى نور الجمال والجلال، ثم تجلَّى من جميع الصفات والذات بين الجلال والجمال المكنن غيب الغيب، فظهر روحه ﷻ، وصار أهلاً للقرآن؛ لأنه كان مخصوصاً بأهلية رؤية الذات والصفات جميعاً، فنزل القرآن على معدن أهلية، ليأخذه ويرجع به إلى معدنه الذي بدأ منه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إن الذي خاطبك بكلامه القديم لرادُّك إليه بمراكب القرآن، وذلك المعدن معدن التنزيه المنزه عن التشاكل والتباعد والاجتماع والافتراق، نظر إلى شوقك في قلبك إلى معدنك من عالم الملكوت والجبروت يردك بأنوار صفاته إلى مشاهدات ذاته، تعالى الله عن إشارة الزنادقة والتنوين؛ لذلك قال ﷻ: «حُبُّ الوطن من الإيمان»^(١).

قال الواسطي في ﴿لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: مجالسة ليلة المسرى وإلى مخاطبات الروح بالقرآن.

(١) ذكره القاري في المصنوع (١/٩١).

قال ابن عطاء: الذي يسر عليك القرآن قادرٌ أن يردك إلى وطنك الذي منه ظهرت، حتى تشاهده بترك على دوام أوقاتك.

قال الحسين: إن الذي فرقك برسم الإبلاغ إلى الخلق سيردك إلى معنى الجمع بالفناء عن ملاحظاتهم والترسم معهم على حد الإبلاغ رسومهم، ويخصصك بالمقام الأخص والبيان الأخلص.

وقال ابن عطاء: الذي حفظك في أوقات المخاطبة لرادك إلى وطنك من المشاهدة. قال الواسطي: إلى حيث شاهد روحك وإلى الكرم الذي أظهره منه. قال الأستاذ: إن الذي أقامك شواهد العبودية فيما أثبتك لرادك إلى الفناء عنك بمحوك في وجود الحقيقة.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ﴾ : اطلع الحق على قلب حبيبه ﷺ ورأى بحار عشقه ومحبه وشوقه ومعرفته وأنسه وتوحيده وتفريده تكاد تموج بأفواج الاتحاد والفردانية في الأنانية، فأشده على نفسه لا يتحرك من مقام الاتحاد، فإن ذلك مكن عين الجمع، ولا ينبغي أن يكون محبوباً عنه به بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ؛ فإن اتحادك وأنانيتك صدرت من كشوف جلالٍ وجماليٍّ، ولا يبقى أثرها عند بروز سطوات عظمة قدمي، ألا ترى كيف قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفى عن ساحة كبريائه أنانية كل عارفٍ سكران، وأفنى مدارج التوحيد والمعارف في سبحات ذاته بذاته بقوله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ، فإذا تبين الحقيقة للخلقة تفنى الخلقة في الحقيقة، ولا تبقى أنانية العارف في ألوهية المعروف، وتعالى الله عن الأضداد والأنداد.

قال الواسطي: إذا تحقق ذلك عنده أخذ العبد من العبد لقيام الحق به. قال ابن عطاء: في كشف الذات هلكة ومحرقة، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ .



سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ وَلَقَدْ

فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ^ط فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢﴾

﴿المر﴾ ﴿٢٠﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢١﴾: أقسم الحق سبحانه بإشارة الألف إلى استواء فردانية أزليته على قلوب المفردين من أهل التفريد، وبإشارة اللام إلى كشف جماله للأرواح العاشقين الذين استقاموا مع الله بنعت التجريد، وبإشارة الميم إلى محبة القدمية السابقة لسباق المحبين الذين استغرقوا في بحار التوحيد أنه تعالى لا يدفع من ادعى محبته ومعرفته في مقام وصاله، وكشف جماله في الدنيا بوصف السرمدية إلا ويتليهم بعد التجلي بالاستتار وبعد كشف الأنوار بتعذيب الأسرار؛ لاستيفاء حق الربوبية من العبودية وغيره الأزلية على كون الحدث بالأسامي والنعوت في نعوته الأبدية.

قال ابن عطاء: ظن الحق أنهم يتركون مع دعاوى المحبة، ولا يطالبون بحقائقها، وحقائق المحبة هي صبُّ البلاء على المحب وتلذذه بالبلاء، فبلاء يلحق جسده، وبلاء يلحق قلبه، وبلاء يلحق سره؛ وبلاء يلحق روحه، وبلاء النفس في الظاهر الأمراض والمحن، وفي الحقيقة منعها عن القيام بخدمة القوي العزيز بعد مخاطبته إياه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وبلاء القلب تراكم الشوق ومراعاة ما يرد عليه في الوقت بعد الوقت من ربه والمحافظة على أحواله مع الحرمة والهيبة، وبلاء السر هو المقام مع من لا مقام للخلق معه والرجوع إلى من لا وصول للخلق إليه، وبلاء الروح الحصول في القبضة والابتلاء بالمشاهدة، وهذا ما لا طاقة لأحد فيه، ثم بيّن سبحانه أنه لا ينجو أحد من الأولين والآخرين من دركات الامتحان بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ^ط فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾، ميز بالتبوء بين الصادق والكاذب؛ فتبين شكر الشاكرين في النعمة وصبر الصابرين في المحنة ودعوى الكاذبين بفرارهم عن البلاء والطاعة.

قال ابن عطاء: يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، من شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين، ومن بطر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين، ثم بيّن سبحانه أن الذين عاشوا في البطالة لم يبلغوا منازل الصديقين بالتمني والتجلي وأبواب مقادير سعادة الآزال مسدودة عليهم، أيحسبون أن ينقضوا قضيات الحق السالفة فيهم بوصف الشقاوة والطرده والقطيعة، ويبدلوها بقضياته السابقة بنعت الاصطفائية في حق المحبين المطيعين؟ كلا ليس كما يحسبون؛ فإن أحكام الأزلية مقدسة من

النقوض والتناقض بهوسات المفلسين البطالين.

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾، قال القاسم: أن يسبقوا ما كتبنا عليهم من محتوم القضاء وما قدر عليهم مما مضى الحكم فيهم، ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي: باطل ما يعملون.

قال الواسطي: إنما ذكر الله تنبيهاً للخلق ووصفاً لهم بصفاتهم ونعوتهم قبل أن خلقهم؛ كي يوقنوا أنهم لا يسبقونه بالقول والفعل، وأنهم مرتبطون بما سبق لهم من الصفات، وفيهم قال الله ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ ﴾، ثم سلى قلوب المشتاقين إليه بقوله: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ ﴾: من كان مستغرقاً في بحر أشواقه فإن أوان كشف جماله وجلاله قريب من مشتاقه الناجين من حبس النفس وحجابها، فيرون الحق بلا حجاب وهو سميع لأهل الصفة أسرارهم، عليم بالتهاب قلوبهم بنيران محبته وشوقه، قيل فليسأل ربه سؤال الملح المحتاج، وليطلب منه طلب الراغب المشتاق.

وقال أبو عثمان في قوله: ﴿ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ ﴾: تعزية للمشتاقين أي: أعلم اشتياقكم إليّ، وأنا أجلت لكم أجلاً، فعن قريب يكون وصولكم إلى من تشاقون، فتطيروا نفساً، وتنهوا.

﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿

قوله: ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾^(١): نبه الخلق أن ربوبيته منزّهة عن عبودية الخلق، وأن صفات الحدث يرجع بنعوتها إلى الحدث؛ لأنه مقدس عن النفع والضرر، وهو غني عن وجود الخلق وعدمه، فبين قيمة المجاهدة أنهم إذا جاهدوا ولم يظفروا بمأموهم يعلمون أنهم يدورون حواليتهم، وأن الفضل من الله خاص لأهل الخصوص ممن عرفهم الله نفسه بلا كد ولا عناء.

(١) لأن نفع ذلك له فيتعبها ليريجها، ويشقيها ليسعدها، ويميتها ليحييها، وعبر بالنفس لأنها الأمانة بالسوء، وإنما طوى ما ادعى تقديره لأن السياق للمجاهدة.

قال الواسطي: بالنعم ابتداء الحق الخلق تفضيلاً من غير استحقاق، جلت نعمه وعطاياه أن تستجليها الحوادث بحال الكنه المبتدئ بالنعم والمتفضل بها، قال الله: ﴿وَمَنْ جَاهِدْ﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: من يظهر على نفسه آثار العبودية وزينتها لا يطالب بها قربة إلى ربه؛ فإن الحق لا يتقرب إليه إلا به وبها منه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ آلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (١) ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٣) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (٥) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٦) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾: وصف المتكلفين بدعاوى المعرفة والمحبة، فإذا لحق بهم ملامة الخلق تركوا الطريق، والعارف الصادق المحب المشاهد لا يبالي بأقوال الخلق وأفعالهم في حقه؛ فإن الأكوان والحدثان ومن فيها من الخلق أقل من خردلة في عين العاشقين؛ لأنهم يعرفون غباوة الخلق وجهلهم بحالهم؛ وبلاؤهم لا وزن له كما لا وزن لهم عندهم.

قال الواسطي: لا يؤذى في الله إلا الأنبياء وخواص الأولياء والأكابر من العباد، ومن تعززت نفسه نازع الله في ربوبيته.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٧) وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ عَنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ

الْآخِرَةُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٢﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاَبْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾: اطلبوا رزق المشاهدة والوصلة من مقام المحاضرة مع الله، ﴿وَأَعْبُدُوهُ﴾ بشرط المعرفة والإحسان، ولا تظنوا أن الكشف العيان والمعرفة والبيان يتعلق بالاكْتِسَاب، ﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: اشكروا ما أنعم عليكم بتعريفه إياكم نفسه له لا بغيره من العرش إلى الثرى.

قال ابن عطاء: اطلبوا الرزق بالطاعة والإقبال على العبادة.

وقال سهل: اطلبوا الرزق في التوكل لا في الكسب؛ فإن طلب الرزق في الكسب سبيل العوام.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ﴿١٠٣﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٦﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرِينَ ﴿١٠٧﴾.

قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾: يعذب من يشاء بالاستتار، ويرحم من يشاء بالتجلي، يعذب من يشاء بالقبض، ويرحم من يشاء بالبسط، يعذب من يشاء بالمجاهدة، ويرحم من يشاء بكشف المشاهدة.

قال بعضهم: يعذب من يشاء بالحرص، ويرحم من يشاء بالقناعة.

وقال بعضهم: يعذب من يشاء بالإعراض عن الله، ويرحم من يشاء بالإقبال عليه.

﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٠٨﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾: عاين الحق، ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من نفسي ومن الكون إليه بالانفصال عما دونه، ولا يصحُّ لأحد الرجوع إليه، وهو متعلِّق بشيء من الكون حتى ينفصل عن الأكوان أجمع ولا يتصل بها.

وقال ابن عطاء: أي: راجع إلى ربي من جميع مالي وعليَّ الرجوع إليه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ

فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ : أجر الخلّة كشف المشاهدة والقربة في الدنيا
بالقلب والروح وفي الآخرة عياناً بالعين، وذلك لصلاح الكل.

قال ابن عطاء: أعطيناه في الدنيا المعرفة والتوكل، وإنه في الآخرة لمن الراجعين إلى مقام
العارفين.

قال بعضهم: آتيناه ثناءً وحسناً في دنياه، وآتيناه ذكراً حسناً في عقباه، وهو ما نُحَصِّ به
من أنه خليل الله.

﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ
الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا
إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَُوا ظَالِمِينَ ﴿٢١﴾
قَالَ إِبْرَ فِيهَا لَوْ طَآ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُر
كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ
ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكَّ كَانَتْ مِنَ
الْغَيْرِينَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ
أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٢٧﴾
وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ
جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٢٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا
بِذُنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ
خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾: كل مجلس ليس بمجلس العارفين بالله وبأحكامه فهو مجلس منكر؛ لأن مجالسهم مجالس السماع والوجد والحضور والمراقبة والذكر والفكر والنصيحة، وأهل الغفلة مجالسهم مجالس سهو وهو، سئل الجنيد عن هذه الآية قال: كل شيء يجتمع الناس عليه إلا الذكر فهو منكر.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾: بين الله سبحانه أن من اعتمد على غير الله في أسباب الدنيا والآخرة فهو ينقطع عن مراده غير واصل بربه.

قال ابن عطاء: من اعتمد شيئاً سوى الله فهو هباء لا حاصل له، وهلاكه في نفس ما اعتمد، ومن اتخذ سواه ظهيراً قطع من نفسه سبيل العصمة، ورُدَّ إلى حوله وقوته.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾: دقائق المعارف لا يعرفها إلا صاحب حال مخاطب من الله بنعت الكشف والعيان والبيان.

قال سهل: شواهد القدرة يدل على القادر ولا يعقلها أي: لا يتنبه بها إلا العالمون به وبأسماؤه وصفاته؛ لأنهم علماء النسبة والباقون علماء المنهج، والعالم على الحقيقة من يحجره علمه عن كل ما لا يبيحه العلم الظاهر.

﴿أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْفِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْنَا الْكِتَابَ وَاللَّهُمَّ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْفِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: حقيقة الصلاة

حضور القلب بنعت الذكر والمراقبة بنعت الفكر، فالذكر في الصلاة يطرد الغفلة التي هي الفحشاء، والفكر يطرد الخواطر المذمومة وهي المنكر هذا في الصلاة، وبعد الصلاة تنهى الصلاة الحقيقة التي تنهى صاحبها عن رؤية الأعمال والأعراض، فإذا كان كذلك الصلاة يتكون قرة عيون العارفين، بقوله **﴿قُرْءَانُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ﴾**^(١).

وقال ابن عطاء: بركات الصلاة تذهب بعقاب الفحشاء ونيات المنكر.

قال جعفر: الصلاة إذا كانت مقبولة فإنها تُنهي عن مطالعات الأعمال وطلب الأعراض، وقوله تعالى: **﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾** للعارف بذكر خالص في السر غير مشوب بحركات الصورة، وذلك نور صدر من أنوار كشوف صفات الحق حين أظهر جلاله وجماله لروحه، وله ذكر مشوب بالأعمال الظاهرة مثل الصلاة وجميع الأعمال، والذكر الأول أصفى وأجل؛ لذلك قال: **﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾**؛ لأنه غير مكتسب مقدس عن العلل، وأيضا ذكر الله الأزلي للعارف حين اصطفاه بمعرفته أكبر وأعظم من أن يدركه أحد بالكسب والأعمال، وأن يلحقه نقص أو نقص من جهة الحدث؛ وإذا قلت ذكر الله للعباد أكبر من ذكر العباد له قابلت الحادث بالقديم، وكيف تقول الله أحسن من الخلق، ولا يوازي قدمه إلا قدمه ولا يقابل ذكره إلا ذكره، وأنى يكون الأكوان والحداث في سرادق الرحمن؟ وكيف يبقى الكون في سطوات المكون؟

قال الواسطي: من شاهد نفسه في ذكره فقد شاهد نفسه في مقابلة من لا يقابله شيء، والله يقول: **﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾** من أن يكون أحد فيه بحق العبودية، فكيف بحقوق الربوبية؟

قال أيضا: ذكر الله لكم في الأزل أكبر وأحكم وأقدم وأتم.

وقال ابن عطاء: ذكر الله أكبر من ذكركم؛ لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والأمان والسؤال.

قال القاسم: ذكر الله أكبر من أن يحويه أفهامكم وعقولكم، وحقيقة الذكر طرد الغفلة، وإذا لم تكن الغفلة فما وجه الذكر؛ لأنه أكبر من أن يلحقه ذكر أو يدنيه إشارة؛ لأن الإشارة تطلب الأين، والأين يلحقه الحين.

وقال الأستاذ: لذكر الله أكبر من أن يعرف قدره أحد وأكبر من أن يعارضه ذكر، ويقال ذكر الله أكبر من أن يبقى معه وحشة.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾: إن الله سبحانه أزال عن ساحة الاصطفائية الأزلية وشرف النبوة والرسالة المصطفوية لنبه صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والرسل علل التكلف والأسباب بما أخبرنا بهذه الآية ما علمناه من إنبائه تقديس الولاية، والفضل العميم القديم السابق في حق العارفين والمحبين.

قال أبو سعيد الخراز في هذه الآية: أيدت عنه الرسوم وأشكال الطبائع؛ لما فيه من تدبير المحبة والاختصاص بخصائص القرية، فلم يتدنس بمرسوم، ولم يرجع إلى معلوم؛ لذلك لما بداه الحق أثر فيه حيث وجده خاليًا عما فيه الأغيار، ألا ترى أنه لما قيل له: ﴿أَقْرَأْ﴾ قال: ما أنا بقارئ، فقيل له: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فلما قيل له: ﴿بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ سكن إليه وألفه؛ لخلوه عن التدنس بالمرسومات.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (١٩) وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٢) وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٢٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٥).

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾: عرائس حقائق القرآن لا تنكشف إلا لأرواح المقربين من العارفين والعلماء الربانيين؛ لأنها أماكن أسرار الصفات وأوعية لطائف كشوف الذات، وما سواها من الوعاء أليق بظواهر الخطاب وصورتها مع أهل الشرائع.

قال أبو بكر بن طاهر: علوم الدراية جعل وعاءها صدور العلماء ربانيين، وآيات ذلك ظاهرة عليهم، وأنوارها مشرقة فيهم، فلا ترى عالمًا مستعملًا بعلمه راعيًا لأحكام الحق عليه،

وموارد الحق إياه إلا وأنوار هيئته تشتمل على قلوب حاضريه فلا يكون مجلسه إلا مجلس أدب.

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيتِي فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥).

قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ : بسط الحق بساط عطايا الكرم ونورها بشروق شمس الإقدام لطلاب مشاهدته وقربه ووصاله من العارفين والمحبين. قال سهل: إذا عمل بالمعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَا آيَةٍ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٢٦) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٢٧) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢٨).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَا آيَةٍ الْمَوْتِ﴾ : قهر سلطان كبريائه أعدم كل موجودٍ سواه وإن بقي؛ لأن بقاء الخلق ببقاء الحق يكون ليس لهم بقاء بالحقيقة، إنما البقاء لمن له أزل وقدم.

قال الجنيد: النفوس وإن عظمت خطرتا فإنها مردودة إلى قيمتها لا يثبت لها حال ما دامت قائمة بأنفسها، إلا أن يفني الحق شاهدها عنها ويحييها بشواهد إشهاد منه إياها إذ ذاك تحيا ويزول عنها العلل، قال الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَا آيَةٍ الْمَوْتِ﴾ : ما دامت ما فيه قائمة بذواتها، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بما لنا، فتسقط عنها العوارض والعلل، وقيمها مقام الصدق.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٩) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٣٠) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣١) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٣٢) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٥) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٣٦) وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ : حث سبحانه العباد بالتوكل عليه

والتيقن بلطيف صنعه والكرم العميم منه على جميع البرية، وبأن يرضى العباد بما يجري عليهم من الأقدار السابقة في الأزل، ولا يكونوا مهتمين بما يستقبلون من الأيام الباقية والأعمار الماضية بجهة الرزق؛ لأنه تعالى قدّر مقادير الخلق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وما قدّر في الخلق والرزق والأجل لا يتبدل بقصد القاصدين وجهد الجاهدين، ألا ترى إلى الوحوش والطيور لا تدّخر شيئاً إلى الغد «تغدو خفاصاً وتروح بطاناً»^(١)؛ لا تكالها على الله بما وصل إلى قلوبها من نور معرفة خالقها، كيف يكون الإنسان يهتم لأجل رزقه ويدّخر شيئاً لغده ولا يعرف حقيقة رزقه وأجله، فربما يأكل ذخيرته غيره ولا يصل إلى غده؛ لذلك كان ﷻ لا يدّخر شيئاً لغد؛ إذ الأرزاق مجددة كالأنفاس المجددة في كل لمحة، ولذلك وصف الله سبحانه في أوائل الآية أهل التوكل والرضا بقوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢]، ثم بيّن أنه تعالى رازق جميع ذوات الأرواح بقوله: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾؛ ليسقط عن القلوب اهتمام الرزق من قلوب الخصوص والعموم؛ لأجل نفوسهم ولغيرهم؛ لأنه سميعٌ مقالة السائلين في طلب حوائجهم منه، عليمٌ بما ادخره من أرزاقهم في خزائن جوده، ودقيقة إشارة التوحيد أن الأرزاق في أماكن العدم معدومة ولا يوجد بها بالحدثان؛ لأن إيجادها من نعوت قوة الرحمانية الأزلية، ولو يحصرها بجميعها كيف تحملها الدابة، وأصل حقيقة الرزق مشاهدة العدم والأرواح لا تحمل سطواتها في وقت التجلي، بل الله يكسبها قوة أزلية تحمل بها منه ما عليه من كنه كشفه.

قال بعضهم في تفسير قوله: ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ قال: لا تدّخر شيئاً لغد.

قال النهرجوري: لا تجزعوا من التوكل؛ فإنه عيش لأهله، قال الله: ﴿وَكَايْنٍ مِّن دَابَّةٍ﴾.

وقال ابن عطاء: يرزقها بالتوكل، ويرزقكم بالطلب.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾: أفهم يا غافل أن الله سبحانه اختار أهل صفوته بالاصطفائية القدمية، وخصّهم بعرفان نفسه والإيقان فيما بان منه لهم من أنوار الربوبية في مقام العبودية، فطارت أرواحهم من عالم الملكوت بأجنحة أنوار الجبروت في أوائل إيجادها إلى الأكوان؛ لحصول عبودية الرحمن، فصحبها سنا قربه وضياء دنوه وحلاوة أنسها بما رأت من جلاله وجماله، فتحرّكت من الأزل إلى الأبد بنعت شوقها إلى صانعها، وما

(١) رواه الترمذي (٥٧٣/٤)، وابن ماجه (١٣٩٤/٢)، وأحمد (٥٢/١).

طراً عليها السكون، بل غلب عليها شوق معادنها، فحركاتها جذباً منه تعالى إليه ومحبةً وشوقاً، فلما هامت في ميادين الشوق من غلبة السكر والذوق ولا تعرف مسالك الربوبية بالحقيقة فيكشف الله لها سنا القدس فتصل به إلى حجال الأنس، وتعرف هناك سبيل الصفات، وتتطرق من مدارجها إلى معارج طرق معارف الذات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: جاهدوا بالله في الله الله، فيعرفون الله بالله، وهو معهم بإعطائه إياهم كشف جماله؛ لأنهم يشاهدونه بنعت المراقبة، وبذل وجوههم لحب المشاهدة^(١)، وذلك معنى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)، وأصل المجاهدة فطام النفس عما دون الله من العرش إلى الثرى، سبيل المجاهدة من العبد إلى الله أو من الله إلى العبد. فقال: ما من شيء إلا الله موجدته قال الله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: أوجدكم وأوجد أعمالكم بلا شريك ولا عون فالخلق فأتى بالخلق قائم بالخلق. قال ابن عطاء: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي: في رضانا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾: الوصول إلى محل الرضوان.

قال الجنيد: لنهدينهم سبيل الإخلاص.

قال ابن عطاء: المجاهدة صدق الافتقار إلى الله بالانقطاع عن كل ما سواه. قال النهرجوري: والذين جاهدوا في خدمتنا لنتحنّ عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا والمشاهدة لنا، ومن لم يكن أوائل أحواله المجاهدة كانت أيامه وأوقاته موصولة بالتواني والأمان، ويكون حظه البعد من حيث يأمن القرب. قال عبد الله بن منازل: المجاهدة علم أدب الخدمة لا المداومة عليها، وأدب الخدمة أعزُّ من الخدمة.

قال الشيخ أبو عبد الله بن خفيف: وكل محتملٍ لثقل العبودية في اختلاف ما وضع الله من عوضٍ وفضلٍ فهو داخلٌ في أحوال المجاهدين. قال الأستاذ: شغلوا ظواهرهم بالوظائف، فأوصل إلى سرائرهم اللطائف.

(١) وفي التأويلات النجمية قوله: هذا مثل ضربه الله تعالى للخلق تعريقاً لذاته وصفاته، فلكل طائفة من عوام الخلق وخواصهم اختصاص بالمعرفة من فهم الخطاب على حسب مقاماتهم وحسن استعدادهم فما العوام فاخصاصهم بالمعرفة في رؤية شواهد الحق وآياته بإرآته إياهم في الآفاق، وأما الخواص فاخصاصهم بالمعرفة في مشاهدة أنوار صفات الله تعالى وذاته تبارك وتعالى بإرآته في أنفسهم عند التجلي لهم بذاته وصفاته.

سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٤﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا تُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ .

﴿الر ١﴾ : إشارة الألف هاهنا إلى اشتياق قلوب المشتاقين إلى لقائه، وإشارة اللام والميم إشارة كيف جماله لأرواح المحبين العاشقين لوجهه بقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ : إشارة إلى أن الأرواح وإن كانت مغلوبة من النفوس الأمارة والشياطين الكافرة امتحاناً من الله وتربية لها بمباشرة القهريات، فإنها تغلب على النفوس حين يخرج من مقام الاختيار.

قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ﴿٢﴾ : نفى كل نفس قاتل الأرواح النفوس، فالمؤيد من أعانه الله على نفسه بأن قواه في العبودية بشراب المحبة والقرية، ثم بين أن القهر واللفظ يتعلقان به، والنصر والخذلان يصدران منها بقوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: له أمر الاصطفائية في الأزل ورعايتها له إلى الأبد، فإذا انكشفت أنوار العناية انهمزت ظلمات الطبيعة تفرح الأرواح بتأييد الله حين عاينت ملكوت الله بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴿٦﴾ .

قال سهل في قوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ : من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء؛ لأنه المبدئ والمعيد.

﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السُّوْءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ

السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتُؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ وصف المدققين من أهل السالوس والطارير من أهل الناموس بأنهم عرفوا الأحكام الدنيوية، وهم محجوبون عن معاملات الله، غافلون عما فتح الله على قلوب أوليائه الذين غلب عليهم شوق الله، وأذهلهم حبُّ الله عن تدابير عيش الدنيا ونظام أمورها؛ لذلك قال ﷺ: «أنتم أعلمُ بأمور دنياكم، وأنا أعلمُ بأمور آخرتكم»^(١).

قال القاسم: من كان عن الآخرة غافلاً كان عن الله أغفل، ومن كان غافلاً عن الله فقد سقط عن درجات المتعبدين.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ ۚ فَمَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٣﴾ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٣٥﴾ تَخْرُجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُمِيطُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تَخْرُجُونَ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَاوِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبَتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَنِتُونَ ﴿٤٣﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٤﴾

(١) رواه ابن حزم في الإحكام (١٢٨/٥).

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاهُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ ﴾ : من كان في الدنيا على حد التفرق فيوم القيامة يرجع إليها، ومن كان في الدنيا على حد الجمع فيكون في الآخرة جمعا، ومن كان مع الله فهو جمع ومن كان مع غير الله فهم متفرون إلى أماكنهم من السعادات والشقاوات والبعد والقربات، فأهل القرب في مشاهدة الأنس والقدس، وأهل البعد في الوحشة والتفرقة.

قال أبو بكر بن طاهر: يتفرق كلُّ إلى ما قُدِّرَ له من محل السعادة ومنزل الشقاوة، ومن كان تفرقه إلى الجمع كان مجموع السر، ينقلب إلى محل السعداء، ومن كان تفرقه إلى فرقة كان متفرق السر، ثم لا يالف الحق أبداً فيرجع إلى محل أهل الشقاوة، ثم فسر الله سبحانه حال الفريقين بالنعتين المتضادين بقوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : وصف أهل الحبور بالإيمان والعمل الصالح، فأما إيمانهم فشهود أرواحهم مشاهد الأزل في أوائل ظهورها من العدم، وأما أعمالهم الصالحة فالعشق والمحبة والشوق، فأخر درجاتهم في منازل الوصال الفرح بمشاهدة الله والسرور بقربه، وطيب العيش بسماع كلامه وخطابه، يطربهم الحق بنفسه أبد الأبد في روح وصاله وكشف جماله، فابتداء أحوالهم في صباح الأزل تنزيه القدم، وفي مساء الأبد قدس البقاء بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ أي: إذ طلع في قلوبكم صبح مشرق الأزل فكونوا بنعت التنزيه في طلب عيشكم بالمشاهدة، وإن تروا جلال ذاته وأنوار صفاته في سربال الأفعال فإن هناك مكر الفعل غالب، لئلا تقعوا في التشبيه من غلبة ذوق العشق، وكذا كونوا إذا تخفى عليكم الكشف ويأتي عليكم مساء الصحو هذا نعمة عظيمة لا يقوم الحدثنان بشكرها، فحمد سبحانه نفسه بالسنة كل ذرة من العرش إلى الثرى فعلاً وصفةً بقوله: ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، فهذا وصف تنزيه العارفين في يدي سماعهم ومتهى حالهم في السماع، وهم في روضة شهود الأنس سمعوا بأرواحهم القدسية وعقولهم الملكوتية سماع الحق من نفسه حيث قال لهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ كيلا يقعوا في بحار الأنانية من حدة سكرهم في المحبة والمشاهدة، فيخرجوا عليه بدعوى الربوبية، ليس هاهنا مقام هذا المقال، إنما أردنا

شرح مقام السماع فإن الله بجوده وجلاله يُطَيِّب أوقات عشاقه بكل لسانٍ في الدنيا وكل صوتٍ حسن في الآخرة.

قال الأوزاعي في تفسير قوله: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُخْبَرُونَ﴾: إذا أخذ في السماع لم يبق في الجنة شجرة إلا وردت.

وقال: ليس أحدٌ من خلق الله ﷻ أحسن صوتًا من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطع على سبع سماوات صلواتها وتسبيحها.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين منها كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها سمواً وأوسطها محلة، ومنها يتفجر أنهار الجنة وعليها يوضع العرش يوم القيامة. فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله إني رجلٌ حُبِّبَ إليَّ الصوت الحسن فهل في الجنة صوتٌ حسنٌ؟ فقال: أي والذي نفسي بيده إن الله ليوحى إلى شجرة في الجنة أن أسمع عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي وذكرى عن البرابط والمزامير، فترفع صوتاً لم يسمع الخلائق مثله قط في تسبيح الرب وتقديسه»^(١).

وعن أبي الدرداء قال: «كان رسول الله ﷺ يذكّر الناس فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي آخر القوم أعرابيٌّ فجثا لركبته، فقال: يا رسول الله هل في الجنة من سماع؟ قال: نعم يا أعرابي، إن في الجنة لنهراً حافتاه الأبقار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قط، وذلك أفضل من نعيم الجنة، قال: فسأل أبو الدرداء: بما يتغنين؟ قال: بالتسبيح إن شاء الله. قيل الخوصانية المرهفة الأعلى الخمصة الأسفل»^(٢).

وعن مغيرة عن إبراهيم قال: «إن في الجنة لأشجاراً عليها أجراسٌ من فضة، فإذا أراد أهل جنة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار، فتحركت تلك الأجراس بأصواتٍ، لو سمعها أهل الدنيا لامتوا طرباً»^(٣).

وسئل أبو هريرة: «هل لأهل الجنة من سماع؟ قال: شجرةٌ أصلها من ذهب وأغصانها من فضة وثمرها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، يبعث الله ريحاً فيحكُّ بعضها بعضاً، فما سمع أحدٌ شيئاً أحسن منه»^(٤).

(١) رواه البخاري (١٠٢٨/٣)، والترمذي (٦٧٤/٤).

(٢) رواه ابن حبان في المجروحين (٣٣١/١)، وابن عدي في الكامل (٢٨٥/٣).

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (١٣/١٤).

(٤) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٤٦٠/١).

فافهم، مثل هذه الأحاديث كثيرة وههنا غاية مقاصدنا تفسير قوله سبحانه: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾، وَرُبَّ رَوْضَةٍ فِي الدُّنْيَا لِلْعَارِفِ الصَّادِقِ الْعَاشِقِ بِاللَّهِ يَرَى الْحَقَّ فِيهَا وَيَسْمَعُ مِنَ الْحَقِّ السَّمْعَ بغير واسطة، وربما يكون بواسطة، فيسمعه الحق من السنة كل ذرة من العرش إلى الثرى أصواتاً قدوسية وخطابات سبوحية.

قال جعفر: بالله فابدأ في صباحك، وبه فاختم في مساءك؛ فمن كان به ابتداءً وإليه انتهاءً فلا يشقى فيما بينهما.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: الدين طريق القدم، والحنيفية التبرؤ من الكون، وإقامة الوجه الإعراض عن الكل والإقبال بعد فناء النفس والكل على الأزل، فهذه بمجموعها فطرة الحق التي فطر الخلق بتلك الفطرة، ولا يبدأ هذه الفطرة من حالها؛ فإنها طرق القدم في مكنى العدم، وإذا استقام في السير من العدم إلى القدم وكمل من الحقائق بحيث لا يعوج عن الإقبال على الحق بشيء من الحدوثية، فمحض ذلك الانفراد مع الوصول أصل الدين؛ لذلك قال: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، خاطب الحق حبيبه في بداية تخلصه من نفسه، ومن الكون بعد إقبال الحق عليه أن يستقيم بنعت التجريد في توحيده، ومسيره إلى جلاله في طريق محبته وعبوديته.

قال أبو علي الجوزجاني: دعا الله عباده إلى الإخلاص من كل وجه، وأخبر أن من كان في ظاهره وباطنه شيء سوى الحق لم يكن مخلصاً في قوله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: معرضاً عن الكل، مقبلاً عليه أي: مطهراً عن الأكوان وما فيها.

قال ابن عطاء: الفطرة ما فطرهم عليه وثبتها في اللوح المحفوظ.

وقال: الدين القيم الطريق الواضح لأهل الحقائق.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أُذِقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ

لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٧﴾ فَكَانَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَآبَنَ السَّبِيلِ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾: راجعين إليه من الحدوثية بعد الاتصاف بالربوبية والقوة أي: لا تدعوا الأنانية؛ فإنكم في منازل التوحيد وحقيقة التوحيد ألا تنسى صولة القدم على الحدث، وإن كان مستغرقاً في بحر القدم.

قال ابن عطاء: راجعين إليه من الكل خصوصاً من ظلمات النفوس، مقيمين معه على حد آداب العبودية لا يفارقون عرصته بحال، ولا يخافون سواه، هذا حد المتقين.

﴿وَمَا أَتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِتَبْرُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا أَتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ﴿٦٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾: الزكاة بذل الوجود، فإذا بذلت بحد إرادة طلب جماله جلّ جلاله فيقع التضعيف في أجر الوصول، وهو دنو الدنو بعد الدنو.

قال سهل: وقع التضعيف لإرادة الله وجهه الله به لا إلى إيتاء الزكاة، والزكاة زكاة البدن في تطهيرها من المعاصي وزكاة المال في تطهيره من الشبهات.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٠﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: خلقكم بحكمته، ورزقكم بمحبته ومعرفته، ثم يميتكم عنكم وعن الكون، ثم يحييكم بحياته، وأيضاً يميتكم بسطوة عظمتهم، ثم يحييكم بجمال وصلته، ثم بقي في مواهبه السنية على الاكتساب والخلقة بقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾، ثم نزه نفسه عن تناول أحد بسبب ما أو أن يكون عطاؤه بعلة، وقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧١﴾.

قال الحسين: خلقكم بقدرته ورزقكم معرفته، وأماتكم عن الأغيار وأحياكم به.

قال ابن عطاء: رزقكم العلم به والرجوع إليه.

قال شقيق: كما لا تستطيع أن تزيد في خلقك ولا في حياتك كذلك لا تستطيع أن تزيد في رزقك، فلا تتعب نفسك في طلب الرزق.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي

عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿١٢﴾ فَأَقْرَرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ
مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿١٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ
يَمْهَدُونَ ﴿١٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ : إن الله سبحانه غلب الإنسانية على الكون طاعةً ومعصيةً، فإذا رزق الإنسان الطاعة صلح الأكوان ببركتها، وإذا رزقه العصيان فسد الحدثان بشؤم معصيته؛ لأن طاعته ومعصيته من تأثير لطفه وقهره، ولطفه وقهره هذا بنعت الاستيلاء على الوجود، فإذا فسادها يؤثر في بر النفوس وبحار القلوب، ففساد بر النفوس فترتها عن العبودية، وفساد بحر القلب احتجابه عن مشاهدة أنوار الربوبية.

قال الواسطي: البر النفس، والبحر القلب، وفساد النفس متعلق بفساد القلب، فمن لم يعمل في إصلاح قلبه بالتفكير والمراقبة وفي إصلاح نفسه بأكل الحلال ولزوم الأدب ظهر الفساد في ظاهره وباطنه.

وقيل: في البر والبحر أنه السرائر والظواهر.

قال جعفر: شاهد البر من عرف نفسه، وشاهد البحر من عرف قلبه، وإصلاح هذين بالهية والحياة، فهية الرب تزيل فساد الظاهر، والحياة منه يميت فساد الباطن.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلَهُ كَيْسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ : رياح اللطف تهب في قلوب العارفين، وتبشر بأنوار المشاهدة والكشف ﴿وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ : من وصلته بعد الكشف والعيان، ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾ : يجري القلب في بحر مشاهدته، ويسري في

أنوار الصفات والذات بإرادته ومحبه، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾: تبتغوا من وجوده، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: ظهور الربوبية في العبودية، قيل رياح القدس تبشر بمنازل الأنس. وقال النصر آبادي: هو أن يظهر عليك أوائل الاسترواح إلى ذكره، فيكون ذلك إشارة بالوصول إلى المذكور.

﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ نَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنْحَىٰ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رَحْمَةً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿

قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ نَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(١) إن الله سبحانه يزين الأرض بأنوار فعله، فينبت الحضر بورد الورد، ويضيء الزهر والنبات، ويتجلى من أنوار صفته فيها لا عين العارفين الذين شاهدوا الله بنعت الحسن، ووصفهم الأنس بالورد والريحان والسماع ووجوه الحسان، ألا ترى إلى النبي ﷺ كيف أشار بقوله «النظر إلى الوجه الحسن يزيد في البصر»^(٢)، وقال ﷺ: «النظر إلى الخضرة والماء الجاري يزيد في البصر»^(٣). قيل: أي يحیی النفس الميتة بالشهوات، والقلوب الميتة بالغفلات بأنوار معرفته وآثار هدايته.

قال الأستاذ: يحیی الأرواح بعد حجبها بأنوار المشاهدات، فتطلع شمسها من برج

(١) اعلم أن وجه الإنسان عند مسّ الهم، ووقت الغم؛ كوجه الأرض في الشتاء حيث إن كلاً منهم يتغير عن حاله؛ وهو موته، ثم يحیی الله برحمته التي هي المطر بالنسبة إلى الأرض، والسرور بالنسبة إلى القلب، وأثر تلك الرحمة؛ الخضرة في وجه الأرض، والانبساط في البشرة، فقد أشارت الآية بأن ذلك الموت ليس بمستمر؛ بل يتعقبه الحياة على ما يقتضيه الأسماء الإلهية الحاكمة على هذا العالم، المدبرة في الأنفس، والآفاق المؤثرة في الظاهر والباطن، ولما كان ذلك موقوفاً على النظر الصحيح؛ قال: فانظروا، ونظير ذلك الليل والنهار والنوم واليقظة، والسحابة على وجه الشمس، والانكساف والكدورة للماء وصفوته، ثم الموت والحياة المذكوران، وإن كانا مجازين عند أرباب الظاهر؛ لكنهما حقيقتان عند أهل الباطن، فإن للأرض روحاً نباتياً، كما أن للإنسان روحاً حيوانياً بل للإنسان روح نباتي أيضاً به يشتهي الأكل والشرب، وبه تربته في بدنه لا بالروح الحيواني، وإن كان الروح الحيواني مبدأ الحس الحركة.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/٣٨٧).

(٣) رواه الشهاب في مسنده (١/١٩٣).

السعادات، ويتصل بمشام الكافة، فيتم ما نقص عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحب يقين إلا حظي منه بنصيب.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿١٥﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ .

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾: فطرة آدم عليه السلام خلقت بنعت الضعف عن حمل وارد أنوار الربوبية وعرفان حقائق الألوهية؛ لأنها كانت حادثة وقعت في موازاة القدم، ففנית بسطوة بقاء الأزل.

قال الواسطي: خلقه خلقة لا يمكنه أن يجر نفعا ولا يدفع ضرا، هل هو إلا الضعف التام.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (١٧).

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: سلى نبيه عليه السلام في احتمال جفوة المعاندين والمخالفين، وحثه على الصبر في أداء الرسالة ومباشرة الشريعة التي شغلته عن مشاهدة القدم، قال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ﴾ في العبودية، فإن بعد أداء العبودية كشف الربوبية لك، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾: بكشف الحجاب لك، ويا عاقل إن أشد الصبر، الصبر في الحجاب، ثم الصبر في العتاب، ثم الصبر في كشف النقاب، ثم الصبر في الخطاب، ثم الصبر في القربات، ثم الصبر في المداناة، ثم الصبر في الوصلات، ثم الصبر في لطف الأنس، ثم الصبر في سطوة القدس، ثم الصبر في الانبساط، ثم الصبر في العريضة، ثم الصبر في الاتصاف، ثم الصبر في الاتحاد، ثم الصبر في السكر، ثم الصبر في الغيبة عن الحق، ثم الصبر في رؤية نفسه بعد غيبة الحق، ثم الصبر في غلبة الأنانية، هذا أشد جميع الصبر والاصطبارات، ولا يعرف هذه المقامات في الصبر إلا ذو الكمال من العارفين.

وقال رويم: الصبر ترك الشكوى. وقال المحاسبي: الصبر التهدف بسهام البلاء.

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿الْم ١﴾ : الألف إشارة إلى ألفه العارفين، واللام إشارة إلى لطيف صنعه في المستحسنين، والميم إشارة إلى معالم أنوار محبته في قلوب المحبين، ثم لين زمام الخطاب إلى الإشارة في معنى الحروف بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢﴾ أي: هذه الرموز آيات الكتاب المحكم المبين لطائف الحكم التي لا يدركها إلا أهل الفهم الذين هداهم نوره إلى ما كان فيه من الشرف والفضل والإرشاد إلى معدن الصفة، هم الذين وصفهم الله بالإحسان والهداية والمغفرة والعرفان بقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ٣﴾ عرفهم حقائق مراد الله، وأوقعهم في بحار مشاهدة الله.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢﴾ : أنوار الخطاب المحكم لك وعليك.

قال شاه الكرمانى: ثلاثة من علامات الهدى: الاسترجاع عند المصيبة، والاستكانة عند النعمة، ونفي الامتنان عند العطية.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُّسْتَكْبِرًا ٧ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَآءٌ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٨ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ٩ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٠ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ١١ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ١٢ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ : الإشارة فيه إلى طلب علوم الفلسفة من علم الإكسير والسحر والنيروزجات وأباطيل الزنادقة وترهاثهم؛ لأن هذه كلها

سبب ضلالة الخلق بقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

قال سهل: الجدال في الدين والخوض في الباطل.

قال أبو عثمان: كل كلام سوى كلام الله وسنة رسوله أو سير الصالحين فهو من هو الحديث.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ﴾ الحكمة ثلاثة: حكمة القرآن، وهي حقائقها، وحكمة الإيمان، وهي المعرفة، وحكمة البرهان، وهي إدراك لطائف صنع الحق في الأفعال، وأصل الحكمة إدراك خطاب الحق بوصف الإلهام.

قال شاه: ثلاثة من علامات الحكمة: إنزال النفس من الناس منزلتها، وإنزال الناس من الناس لظنهم، ووعظهم على قدر عقولهم، فيقوموا بنفع حاضر.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۚ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۚ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾: رؤية ما دون الله شرك في التوحيد من العرش إلى الثرى، والشرك على ثلاثة أقسام: شرك النفس، وهو حظها من الدنيا، وشرك العقل، وهو حظها من الآخرة، وشرك القلب، وهو حظها من صفاء العبودية، وأخفى من الشرك ما تستلذ الروح من تروح أنس الله، وهو أعظم الحجاب؛ لأن من بقي من حظه الأكبر فقد احتجب عن الغوص في بحار الألوهية والسير في ميادين الأزلية، والوصل زجر النفس عن الاشتغال بما دون الله.

قال بعضهم: وعظ لقمان ابنه في ابتداء وعظه على مجانبة الشرك وهو التفرد للحق بالكل نفساً وقلباً وروحاً، فلا تشتغل بالنفس إلا بخدمته، ولا تلاحظ بالقلب سواه، ولا تشاهد بالروح غيره، وهو مقام التفريد في التوحيد.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَتْهُ فِي عَامَتَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾: بين سبحانه طريق الجمع والتفرقة في هذه الآية فالجمع ما قال: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي﴾، فإذا أضاف الشكر إلى الغير فقد شغله بالتفرقة؛ لأن السبب غير المسبب، والعارف إذا كمل في معرفته فقد سقط عنه رؤية

السبب والاشتغال بالوسيلة، ألا ترى كيف دعا العارف من التفرقة إلى الجمع بقوله: ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾؛ لأن من بلغ إلى الحق فالرجوع إلى غيره، وإن كان وسيلة الحسنة فهو شرك، وشكر المفرد معرفة المشكور بنعت الاعتراف بالعجز عن شكره؛ لأنه تعالى أجل وأعظم من أن يشكره أحدٌ سواه، وشكر الوالدين؛ لأنها مدارج أفعال الربوبية، وإذا شكرت الفعل شكرت الصفة، وإذا شكرت الصفة شكرت الذات، وإذا كنت كذلك فقد وصلت إلى عين الجمع، فالأول جمع الجمع، وهو قوله ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي﴾، والثاني عين الجمع، وهو قوله: ﴿وَلِوَالِدَيْكَ﴾، فإذا كنت مشاهد الكل في عين الجمع فصار عين الجمع جمع الجمع، كذلك أدق الإشارة بقوله: ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾؛ لأن عين الجمع وجمع الجمع واحدٌ في صورة التوحيد لا في حقيقة التوحيد؛ لأن حقيقة التوحيد أفراد القدم عن الحدوث.

وقال ابن عطاء: اشكره حيث أوجدك، وكثيراً ما سمعت سيدي الجنيد يقول في خلال كلماته: (اشكر من كنت منه على بال حين خلقك، واشكر والديك إذ ههنا سبب كونك، فمن استغرقه شكر المسبب قطعه عن شكر السبب، ومن لم يتحقق في شكر المسبب رد إلى شكر السبب).

قال الأستاذ: شكر الحق بالتعظيم والتكبير، وشكر الوالدين بالإشفاق والتوقير.
﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾: والمعروف ههنا أن تعرفهما مكان الخطأ والغلط في الدين عند جهالتهما بالله.

قال بعضهم: عاملهما معاملة جملة، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: إذ قال فلا تطعهما نفى عنه متابعة المغالطين وحثه على متابعة المنيبين إليه من الصادقين.
قال ابن عطاء: صاحب من ترى غلبة آثار أنوار خدمتي عليه.

﴿يَبْنِيْٓ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْٓ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾: كيف يخفى على موجد الأشياء شيء وهو منشئه؛

فهذا تنبيه منه لإحاطة علمه القديم بكل ذرة من العرش إلى الثرى ظاهرها وباطنها؛ حتى يفرغ المراقب الصادق من اطلاع الحق بوصف العظمة والكبرياء على نواذر الخطرات ويطون الحركات، فإن كان خاطره بادراً من قهره سبحانه تستتر في جريانه في صخرة النفوس أو في سماء الأرواح أو في أرض القلوب، يظهره الحق إلى عرصة العقل لعين السر، فيحاسبه بذلك، ويعرفه مكان نفعه وضره؛ ليعرف صاحبه وصف جلال علمه كيف يحيط بأسرار الضمائر ويطون الخواطر، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ١

قال عبد العزيز المكي: مثال ﴿حَبِيبَةٍ مِّنْ خَزْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ مجتمعة أو في سبع سماوات وأرضين متفرقة يأتي بها الله مجتمعة على صاحبها؛ لأن الله لطيفٌ خبيرٌ لطف أفعاله عن أن يدركه أحدٌ بعقل.

﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ ٢ وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ٣ .

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: الأمر بالمعروف أن ترشد الخليقة إلى الحقيقة بعدما ذقت طعم القربة، والنهي عن المنكر زجرك نفسك عن النظر إلى ما دون خالقها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ أي: اصبر على طوارق القهر وامتحان الريب، واسكن تحت جريان القضاء والقدر؛ فإن ذلك من عزائم الحقيقة والمعرفة، وأيضاً: واصبر على ما أصابك من لطائف كشف جماله وحقائق أنوار ذاته وصفاته، ولا تفش تلك الأسرار بالغلبة والسكر حين يظهر الشطّاح السكران دعوى الأنانية، فإن كتمانها من عزائم أهل الصحو في المعرفة.

قيل: الأمر بالمعروف الدلالة على الرشد، والنهي عن المنكر المنع عن الغي.

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَآغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ ٤ .

قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَآغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾: إن العارف إذا شرب من بحر الوحدة شربة فرح بوجه الحق وكاد أن يتبختر بالعز والكبرياء من صولة الحال، فيؤدبه الله بأن يلقي عليه عزة الوحدة، فيفنيه تحت أنوارها حتى يخرج من حد السكر إلى حد الصحو؛ فتكون خطواته خطوات أهل التمكين لا خطوات أهل التلوين، وكل مريد يشرب

من سواقي صفاء العبودية شربة تفرحه بفرحة الوقت وصفاء الذوق، فيهيجه إلى الزفرات والشهقات، ولا يجوز ذلك له؛ فإن أصواته ممزوجة بخطوات الطبيعة، مخلوطة بهواجس الإنسانية، فإذا صاح صارت صيحته صيحة الطبيعة لا صيحة الحقيقة؛ لذلك نهى الله بقوله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

قال سفيان الثوري: صوت كل شيء تسييح إلا صوت الحمير؛ فإنها تصبح لرؤية الشيطان؛ لذلك سماه الله منكراً.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾: كن فانياً عن شواهدك، مصطلياً عن حولك، مأخوذاً عن قوتك وحولك، متسقاً بما استولى عليك من كشوفات سرّك، وانظر من الذي يسمع صوتك حتى تستفيق من حمار غفلتك: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ في الإشارة أنه يتكلم في لسان المعرفة من غير إذن من الحق. وقالوا: هو الصوفي يتكلم قبل أوانه.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾: النعمة الظاهرة: الخلق الحسن، والخلق الحسن، والأدب الحسن، والظرف، والهيئة اللطيفة، ومتابعة السنة، والاجتناب عن المعصية، والتواضع في أولياء الله، والعبادة الصافية، والعافية والصحة والسلامة، وأن تكون مكسواً بشمل نور الروحانية والربانية، والنعمة الباطنة: الفطرة السليمة، والاستعداد لقبول الغيب والعقل الكامل والفطنة والذكاء والحكمة والفهم وطمأنينة النفس وصفاء الروح، واتصال الذكر على الدوام والإيمان والإيقان والعرفان والإخلاص والتوحيد، وثمرات هذه الأشياء الوجد والحال والمراقبة والأنس والحياء والمحبة والشوق والعشق، فإذا بلغ الرجل إلى هذه المراتب يهيئ الله له بالظاهر مجالسة الأولياء مع السماع بصوت طيب وموضع طيب فيه وجه حسن، والطيب والريحان بلاكدورة ولا فترة ولا صحبة الأضداد، ويلقي في قلبه بروق نيران الأشواق المهيجة لسره إلى مواصلة الحق بنعت المحبة والأنس، فهو ممن أسبغ الله عليه نعمه الظاهرة والباطنة.

قال بعضهم: النعم الظاهرة العافية والأمن، والنعم الباطنة الرضا والغفران.

قال الجنيد: النعم الظاهرة الأخلاق، والنعم الباطنة المعرفة.
 قال أبو بكر الوراق: النعم الظاهرة استواء الخلق، والنعم الباطنة حسن الخلق، لذلك
 قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي»^(١).
 قال بعضهم: النعمة الظاهرة اتباع ظاهر العلم، والنعمة الباطنة طلب الحقيقة في
 الانبعاث.

وقال الأستاذ: النعمة الظاهرة نفس بلا ذلة، والباطنة قلب بلا غفلة.
 ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَنَقَبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا مَحْزَنَ لَكَ كُفْرُهُ إِنَّ إِيَّانَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٧﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٣٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٤٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: من بذل وجوده لوجدان وجود الحق سبحانه وهو يعرفه وتكون معرفته مستفادة من مشاهدته لا بتقليد العلم والأدلة العقلية فقد استمسك بعروة المحبة الأزلية لا يتكدر بعلى الحدثان، والإحسان مشاهدة الربوبية في العبودية، والعروة الوثقى المحبة المتصلة بالالوهية.

قال سهل: من يخلص دينه لله ويحسن آداب الإخلاص، وقال العروة الوثقى هي السنة.

وقال أبو عثمان: العروة محمد ﷺ.

وقال أيضًا: هي كتاب الله وسنة رسوله.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ﴾: افهم كيف تنفذ كلمات الحق وكلماته الأزلية السرمدية وللعارف بكل نفس منه من الحق سبحانه بالمثل ألف خطاب، ولا ينقطع عنه خطابه أبدًا، ولكل خطاب له وجد وله

(١) رواه ابن حبان في الصحيح (٢٣٩/٣)، والديلمي في الفردوس (٤٨١/١).

كشف وعيان وبيان وبرهان ولسان وعلم وحكمة وعمل وإخلاص وعجز وإدراك.

قال ابن عطاء: كلماته علم كتابه وعجائب حكمته.

وقال أبو سعيد الخراز: كلام الحكماء لا ينقطع عن عيون الحكمة كما أن ماء العين لا ينقطع عن عينه؛ لأن حكم الحكيم تلقين من رب العالمين من خزائنه، وخزائنه لا تنفذ، ألا تراه يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ ١

﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ٢ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ٤ .

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: بين سبحانه أن وجوده الأزلي لا يتغير بوجود الخلق وعدمهم، وقدرته شاملة للإيجاد والإعدام.

قال أبو سعيد الخراز: ليس على الحق أثر من الكون من إيجادهم وعدمهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ٥ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ٦ يَتَأْتُوا النَّاسَ اتِّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُورُ ٧ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصَّابِر: من اتصف بصفة صبره، والشَّكُور: من اتصف بصفة شكره؛ لأنه بصفات صبره وشكره يحتمل بلاءه ويشكر نعمه، والصابر: من كان الصبر له مقامًا، وكذلك الشكور لا أن يكون هما له خطرات، بل يكونان له وطنات.

قال أبو حفص: الصَّابِر الذي لا يغيره تواتر المحن والبلايا عليه، ولا يورثه ذلك جزعًا ولا شكوى.

وقال أبو عثمان: الصَّابِر الذي عوّد نفسه للهجوم على المكاره.

وقال ابن عطاء: الشكور الذي يكون شكره على البلاء كشكره على النعماء.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾: الله علوم، منها عام، ومنها خاص، ومنها خاص الخاص، فالعلم العام: علم الشريعة، وعلم الخاص علم الحقيقة، وعلم خاص الخاص علم السر، وهو علم الغيب، ومن علم الغيب ما يطلع عليه الأنبياء والأولياء والملائكة بقوله: ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (١٥) إِلَّا مَنْ آرَتْصَى مِنْ رَسُولٍ، ومنه ما استأثر لنفسه لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، ومنه أيضًا علم الساعة، وهذه الآية برمتها، أما الساعة خاصة سرها عن جميع الخلق حتى أكد الأمر بقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، إلا أن أماراتها بانت من لسان صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه، ولا تخفى هذه الأمارات إلى وقوع الساعة على بعض أولياء أمته، حتى قال يوسف بن الحسين رحمة الله عليه: علمت متى ينزل عيسى عليه السلام، ومن أي قبيلة يتزوج.

وأما قوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾: لا يعلم أحد في أي لحظة ينزل، ولكن كثيرًا ما سمعت من الأولياء يقول: يمطر السماء غدًا أو ليلاً فيمطر، كما قال: كما سمعنا أن يحيى بن معاذ كان على رأس قبر ولي وقت دفنه، وقال لعامة من حضروا إن هذا الرجل من أولياء الله إلهي إن كنت صادقًا فأنزل علينا المطر، قال الراوي: فنظرت إلى السماء وما رأيت فيها راحة سحاب فأنشأ الله سبحانه سحابة مثل ترس فمطرت فرجعنا مبتلين.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾: وسمعت أيضًا من بعض أولياء الله أنه أخبر ما في الرحم من ذكر أو أنثى، ورأيت بعيني ما أخبر، ولكن الله سبحانه يطلع على ما في الرحم، بل ماء الرجل والمرأة أي: شيء يخلق منه حين نزل ولا يعلمه غيره، وربما سمعت حديث واقعة الغد منهم قبل المجيء، وبما قالوا أني أموت بموضع كذا، ومنهم أبو الغريب الأصفهاني - قدس الله روحه - مرض في شيراز في زمان الشيخ أبي عبد الله بن حنيف - قدس الله روحه - وقال: إذا مت في شيراز فلا تدفنوني إلا في مقابر اليهود؛ فإني سألت الله أن أموت في طرطوس، فبرئ ومضى إلى طرطوس ومات بها رحمة الله عليه.

وقال القاسم في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾: من كافر ومؤمن ومطيع وعاص، وهذا دليل على أن الله يعرف الأشياء بالوسم والرسم، الرسم يتغير، والوسم لا يتغير.

وقال سهل في قوله: ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾: ما له في الغيب من المقدور له وعليه.

وقال في قوله: ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: على أي حكمة تموت من السعادة أو الشقاوة^(١)، والله أعلم.



سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿الْم ﴿١﴾﴾ : الألف إشارة إلى الإعلام، واللام إشارة إلى اللزوم، والميم إشارة إلى الملكة، أعلم من نفسه أهل الكون، وألزم العبودية عليهم، وملكهم قهراً وجبراً حتى عبده طوعاً وكرهاً، فمن علم وقع في الاسم، ومن عبد وقع في الصفة، ومن تسخر لمراده كما أراد وقع في نور الذات، وعلى هذا من الله سبحانه تنزيل كتابه أنزل على عبده إشارة للخصوص وعبرة للعموم بقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، لا يتعلل بعلم الكون.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِّن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِّنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٣﴾﴾ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِّن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾ : أفرد نفسه لعباده بأنه لهم ولي ولا شفيع، لا غير حتى لا يلتفتوا إلى الأسباب، ثم ينبههم بحقيقة ذلك فقال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

قال القاسم: أولا تنبهون أن من أسقطته الملك لا يصلح لخدمة الملك، ثم بين سبحانه

(١) أي: أين تموت، فربما أقامت بأرض، وضربت أوتادها، وقالت: لا أبرحها، فترمي بها مرامي القدر حتى تموت بمكان لم يحط بياها. البحر المديد (٥ / ٤٥).

أن أمر العباد في العبودية يكون بمشيئته وإرادته لا لغيره مدخل في تدبير العباد بقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾، ينزل الوحي إلى حبيبه ﷺ بواسطة أخيه جبريل عليه السلام لنظام الشريعة وانتظام الحقيقة والطريقة لا لطبع البشر ومقالة أهل البدع، فيه أثر والإشارة فيه أن تدبير العباد عند تدبيره لا أثر له إذا أراه العباد في قضائه وقدره منفسخة؛ إذ تدبيره إرادته وإرادته مشيئته المقرونتان بالعلم الأزلي الذي لا يشوبه علل الحدثنان.

قال سهل: طوبى لمن رزق الرضا بتدبير الله له، وأسقط عنه سوء تدبيره، وردّه إلى حال الرضا بالقضاء والاستقامة في جريان المقدور عليه أولئك من المقربين.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ٧٥ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ٧٦ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِيهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفِيدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ٧٧ ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ٧٨ ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ٧٩ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ٨٠ ﴿

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾: أوجد الأشياء بأمره، وأبسها نور أمره، وأحسن خلقها بحسن فعله، لا يدخل نقص القبح في أفعاله؛ لأنه أحكمها وركبها ودبرها بعلمه الأزلي وجلاله الأبدي، ولا يرجع إليه علة فالقبيح قبيح من جهة الامتحان، وحسن من حيث صدر من أمر الرحمن، ذكر الحسن في جميع الأشياء، ولم يذكر ههنا في الإنسان، ثم قال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ٧٥، وهو معدن الخصوصية المستعدة لمباشرة صفته بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدِي﴾ [ص: ٧٥]، ثم ذكر تسويته بكمال الصفة بقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾: سواه بتجلي أنوار جميع صفاته حتى صدرت صورة آدم من الغيب منعوتًا بأنوار الصفات ومتصفاً بسناها، ثم ذكر أخص الخصائص، وهو ما سقط من حسن تجلي ذاته في صورته بقوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِيهِ﴾، حتى يكون مجموعها مشكاة أنوار الذات والصفات، ويفيض الحسن من آدم إلى العالم؛ لأنه المعدن الثاني من الحسن، والمعدن الأول من الحسن حسن الأزل، فأى حسن يبقى في حسن آدم وذريته، ذكر حسن الأشياء، ولم يذكر ههنا حسن غيره؛ لأنه موضع محبته واختياره الأزلية، كقول القائل:

وكم أبصرت من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري

قال الواسطي في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ أي: روح اخترته على الأرواح،

وهو روح مكنه من صحبته وأثر قربه.

وقال أيضًا: الجسم يستحسن المستحسنات، والروح واحدة فردانية، لا يستحسن شيئًا لسقطه أبدًا.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾: قَوْمَهُ بِفَنون الآداب، ونفخ فيه الروح الخاص الذي فضله على سائر الأرواح لما كان له عنده من محل التمكين، وما كان فيه من تدبير الخلافة ومشافهة الخطاب^(١).

قال الأستاذ: أحسن صورة كل أحد، فالعرش ياقوتة حمراء، والملائكة أولو أجنحة مشى وثلاث ورباع، وجبريل طاوس الملائكة، والخور العين كما في الخبر من جمالها وشكلها، والجنان كما في الأخبار ونص القرآن، فإذا انتهى إلى الإنسان قال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ﴾، ولكن ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١١٩]، و﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ﴾، ولكن قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾: قطع مشيئة الخلائق عن مشيئة الأزل، ولو أراد أن يكون كلهم عارفين به يكون؛ ولكن وقع خاصية الأنبياء والأولياء بنعت الاصطفائية من إرادته، ووقع الأضداد من إرادته سابق لطفه لأهل لطفه، وسابق قهره لأهل قهره.

قال ابن عطاء: لو شئنا لوفقنا كل عبد لطلب من مرضاتنا، ولكن حق القول بالرعد والوعيد ليتم الاختيار.

وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٣٠﴾: إن جهنم فم قهره انفتح ليأخذ نصيبه ممن له استعداد مباشرة القهر، كما أن الجنة فم لطفه، انفتح ليأخذ من له استعداد مباشرة لطفه؛ فاللطيف يرجع إلى اللطيف، والكثيف يرجع إلى الكثيف، لذلك مضى القسم في الأزل في الوعيد؛ لأن الحدث لا ينفك عن حظ القدم فالعارف الصادق إذا

(١) أضافه إلى نفسه، تشریفاً، إشارة إلى أنه خلق عجيب، وأن له شأنًا ومناسبة إلى حضرة الربوبية، ولذلك قيل: من عرف نفسه عرف ربه. وقد تقدم في سورة الإسراء، في الكلام على الروح، وجه المعرفة منه. البحر المديد (٥/٥١).

كان في جهنم فإن جهنم له مأوى قهره، وقهره مأوى لطفه، ولطفه مأوى أنوار جوده وجوده، مأوى أنوار جوده فيرى مقصوده في العذاب كما كان أيوب عليه السلام يرى رؤية المبلي في بلائه. سئل الشبلي عن هذه الآية، فقال: يا رب أملأها من الشبلي، واعفُ عن عبيدك ليتروح الشبلي بتعذيبك كما يتروح جميع العباد بالعوافي.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾: وصف الله سبحانه أهل معرفته الذين إذا سمعوا خطابه سقطوا على وجوههم في جناب كبريائه وعظمته حبًا له وشوقًا إليه، ولا يكون هذا إلا وصف الواهين من عشقه، الصادقين في توحيده ومعرفته.

قال القاسم: إذا عظوا بها خرُّوا سجَّدًا عند أوقاته، وذلك صفة المؤمنين، ومن أبى ذلك في أوقاته لا يلحقه اسم الإيمان ولا اسمه.

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾: وصف سبحانه أهل ودّه ومحبه وعشقه وشوقه الذين إذا ناموا ناموا بالحق من كمال سكرهم، وإذا انتبهوا من ركضة آلام حزن فوت وصاله ولذيد مناجاته، فانصرفت جنوبهم عن مضاجعهم بغير اختيارهم كأن الأرض ألقتهم من نفسها، وذلك مما ينكشف لهم من أستار الملك والملكوت، ويظهر لهم أنوار مشاهدة الحق ويفتح لهم أبواب قربه ووصاله، ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ خوفًا من هجرانه وإجلالًا لجلاله وطمعًا في وصاله، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: يعني يبذلون أرواحهم وأشباحهم لله، ثم ذكر ما يجازيهم من جمال قربه وكشف لقائه بقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: قرّة أعينهم أنوار جماله وجلاله، وذلك جزاء احتراقهم في حبه بقوله: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾: إن الله وهب لقوم هبة، وهو أن أذن لهم في مناجاته، وجعلهم من أهل وسيلته وصفوته وخيرته، ثم مدحهم على ذلك إظهارًا لكرامته بأن وفقهم بما وفقهم له فقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾. وقال ابن عطاء: جفت جنوبهم وأبت أن تسكن على بساط الغفلة، وطلبت بساط

القربة والمناجاة، وأنشد:

جَفَّتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيضِ حَتَّى كَأَنَّ جَفْوَتَهَا عَنْهَا قَصَارُ
كَأَنَّ جَفْوَتَهُ سَمِلَتْ بِشَوْكِ فَلَيْسَ لَنَوْمِهِ فِيهَا قَرَارُ
أَقُولُ وَلَيْلَتِي تَزْدَادُ طَوْلًا أَيَّالِي لَقَدْ بَعْدَ النَّهَارُ
وقال جعفر: خوفًا منه وطمعًا فيه.

وقال بعضهم: خوفًا من القطيعة وطمعًا في الوصلة.

وقال ابن عطاء: قرت أعينهم بما سبق لهم من حسن الموافقة مع ربهم.

وقال سهل: قرت أعينهم بما شاهدوا من ظاهر الحقائق وباطنها الذي يكشف لهم من علم المكاشفة مراده، وتمسكوا به، فقرت بذلك أعينهم، وسكنت إليه قلوبهم.

وقال الجنيد: تجافت جنوب العارفين عن أنفسهم، وتقطعت قلوبهم للحق، وجنبت أسرارهم بالصدق.

قال محمد بن علي الباقر: تجافت جنوب الزهاد من نعيم الدنيا لما وجدوا من حلاوة نعيم العقبى وجنوب العارفين عن التدبير والاختيار؛ فاستقروا على أحكام الرضا.

وقال ابن عطاء: أخفى لهم من مبارزة ما تعجز النفوس عن التفكير فيها فلن تأملها.

قال الأستاذ: أما الأحباب فالليل لهم إما طربٌ في التلاقي أو هرب الفراق، فإن كانوا في انس القربة فليلهم أقصر من اللحظة، كما قالوا بوصول مجدد ووداد:

زَارِنِي مَنْ هَوِيْتُ بَعْدَ بَعَادٍ بَوْصَالٍ مَجْدِدٍ وَوَدَادِي
وإن كان الوقت وقت مقاساة فرقة وانفراد بكونه فليلهم طويل كما قالوا:
كَمْ لَيْلَةٍ فَيْكَ لَا صَبَاحَ لَهَا أَفْنِيْتُهَا قَابِضًا عَلَى كَبْدِي
قَدْ عَصَتِ الْعَيْنُ بِالدَّمْعِ وَقَدْ وَضَعْتُ خَدِّي عَلَى بَنَانِ يَدِي

وقال قوم: خوفًا من العذاب وطمعًا في الثواب.

وآخرون: خوفًا من الفراق وطمعًا في التلاقي.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ١٨﴾: أفمن كان

عارفاً بذاته وصفاته كمن كان جاهلاً بجلاله وقدرته، لا يستويان أبداً كما لا يستوي البصير والأعمى.

قال ابن عطاء: من كان في بصيرة الطاعة والإيمان لا يستوي مع من هو في ظلمات الفسق والطغيان.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١)
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِقَائِلَتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢﴾
 وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾: العذاب الأدنى حرمان المعرفة، والعذاب الأكبر الاحتجاب عن مشاهدة المعروف، وأيضاً العذاب الأدنى المعرفة، والعذاب الأكبر النكرة.

وقال بعضهم: العذاب الأدنى الهوان، والعذاب الأكبر الخذلان.
 قال أبو الحسن الوراق: العذاب الأدنى الحرص في الدنيا، والعذاب الأكبر هو أن يعذبه الله عليه.

وقال بعضهم: العذاب الأدنى التعب في طلب الدنيا، والعذاب الأكبر شتات السر.
 قال الأستاذ: العذاب الأدنى وقفة في سلوكهم، والأكبر حجبته عن مشاهدة مقصودهم، قال قائلهم:

أدبنتي بانصراف الطرف يا ثقتي فأنظر إليّ فقد أحسنت تأديبي

ويقال: العذاب الأدنى الخذلان في انزلة، والأكبر الهجران في الوصلة.

ويقال: العذاب الأدنى تكدر مشاربهم بعد صفوها، كما قالوا:

لقد كان ما بيني زماناً وبينه كما بين ريح المسك والعنبر الورد

والعذاب الأكبر لهم تطاول أيام العذاب من غير تبين آخرها وبقاء ضرهم ونفاد صبرهم وقيام قيامتهم، كما قالوا:

تطاول عهدنا بالأمر حتى لقد نسجت عليه العنكبوت

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِقَائِلَتِنَا يَوْقُونَ﴾^(٤)
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ
 كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا

يَسْمَعُونَ ﴿٣٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: لما شاهدوا جلالنا وجمالنا عياناً بنعت المعرفة والمحبة، وصبروا فيها وجدوا من كشف الذات والصفات وما أفسوها عند الأغيار، جعلناهم أئمة المعارف والكواشف، يمدون طلابي إليّ بنوري.

قال أبو عثمان: لما صبروا على حقوق العبادة.

وقال أيضاً: لما صبروا مع الله في جميع الأحوال.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤١﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾: سوق مياه معرفته من بحار تجلي جلاله إلى أرض القلوب الميتة الجرزة^(١)؛ فنبت به فيها نرجس الوصلة وياسمين المودة ورياحين المؤانسة وبنفسج الحكمة وزهرة الفطنة، وورد المكاشفة وشقائق الحقيقة.

قال ابن عطاء: تصل بركات المواعظ إلى القلوب القاسية المعرضة عن الحق فتتعظ بتلك المواعظ.

قال الأستاذ: الإشارة منه تسقى حقائق وصلتهم بعد جفاف عودها وزوال المأنوس من معهودها، فيعود عودها مورقاً بعد ذبوله حاكياً بحاله حال حصوله.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ ﴿٤٢﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ﴾: فأعرض عنهم حين لا يكونون في عينيك من أهل المعرفة، وأقبل علينا لتستأنس بمشاهدتنا عن مشاهدة الأغيار، ﴿وَانْتَظِرْ﴾ كشوف جلالنا لك وتخليصك من شرهم، ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾: الحجاب والعتاب والهجران والعذاب.

قال بعضهم: لا تشغل شرك بهم، وانتظر بركات الموارد عليك من أنواع الكرامات إنهم منتظرون منا المقت والبعد.

قال الأستاذ: أعرض عنهم باشتغالك بنا وإقبالك علينا وانقطاعك إلينا، وانتظر زوائد

(١) يعني: اليابسة الملساء التي ليس فيها نبات، يقال: أرض جرز أي: أرض جذب لا نبات فيها، يقال جرزت الجراد إذا أكلت، وتركت الأرض جرزاً. بحر العلوم للسمرقندي (٣/ ٣٨٦).

وصلنا وعوائد لطفنا؛ إنهم منتظرون هواجم مقتنا، وخفايا مكرنا، وعن قريب يجد كل منتظر محتضر.

سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَّيِبُهَا النَّبِيُّ اَتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾

﴿يَتَّيِبُهَا النَّبِيُّ اَتَّقِ اللَّهَ﴾ : كان عليه الصلاة والسلام ألطف خلق الله من الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين، وأعرفهم به ومن كمال معرفته طار بجناح الربوبية في الربوبية، وشاهد مشاهد الألوهية ففي كل شهود له منها لذة وحلاوة كادت توقفه عن طيرانه من جلال لذتها فخوفه الله من نفسه أن يحتجب به عنه فينقطع عن سفر الآزال إلى الآباد. وقال ابن عطاء: أي أيها المخبر عني خبر صدق والعارف في معرفة حقيقة اتق الله في أن يكون لك التفات إلى شيء سواي.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾: عرّفه مكان الوحي منه إليه معرفة حقيقة لا معرفة إبهام، فإن من موجبات معرفة الوحي ألا يكون للنفس والقياس فيه سبيل ولا يدخل فيه حظ النفس بحال بل فيه اتباع حقيقي بلا اعوجاج ولا اضطراب. وقال سهل: قطعه بذلك عن اتباع أعدائه، وأمره بالاتباع في كل أحواله؛ ليعلم أن أصح الطريق شريعة الاتباع والاقتداء.

وقال الأستاذ: أي: أيها المشرق حالاً المفخّم قدرًا منا، المعلى رتبة من قبلنا، أيها المرقى إلى أعلى الرتب الملقى بأسنى القرب، أيها المخبر عنا المأمون على أسرارنا المبلغ خطابنا إلى أحبائنا: اتق الله أن تلاحظ غيرنا معنا، وتستأنس شيئًا من دوننا.

وقال في قوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾: اتبع ولا تبتدع، واقتد بها أمرك، ولا تبتدئ باختيارك غير ما اختياره لك.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: توكل عليّ فيما أجزيك بمشاهدة وصالي، وحلاوة رؤية جمالي أن تبقى فيها؛ فإني أبلغك منك ومما تخدمني إليّ أبدًا إلى محل الكمال، ولا تفرغ من غشيان غمار بحار البلاء فإن المبلى معك في البلاء.

قال ذو النون: التوكل التفويض لأمر الله.

وقال بعضهم: اعتمد على من دعاك إليه وضمن لك الكفاية، وكُل إلى الله أمرك وكفى بالله وكيلًا.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النِّسَى تَضَاهُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۖ﴾ ١٠١ ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۖ﴾ ١٠٢ ﴿

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾: إن الله سبحانه أخبر أن القلب واحد لا يحتاج إلى قلب سواه، فإن القلب خلق على استعداد قبول وقائع أنوار جميع الذات والصفات، وفيه عقل قدسي يعرف الأشياء بحقيقتها، ونفس هي مجرى الأقدار الفعلية القهرية من الله، وفيه روح لطيف قدسي مخاطب من الله بجميع طرق المعارف، وفيه سر هو مرآة كشوفات الغيب، فإذا هُدي القلب ميادين ربوبية الأزل والأبد لا يحتاج إلى شيء سواه؛ فإنه الكون الأصغر بالصورة، وفي المعنى الكون الأكبر ومن عرفه فقد عرف الحق، وعرف ما دونه من العرش إلى الثرى، فالقلب الحقيقي ما لم يكن بينه وبين الحق حجاب ولا يكون شغله بشيء سوى الله.

قال الصادق: قلب يرى به أمور الدنيا وقلب يعلم أمور الآخرة وذو القلب الصحيح السليم من كان قلبه حرًا من الاشتغال بشيء سوى الحق.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾: ما صدر من الحق فهو حق حقيقي لا يشرب بشيء من الحدثان من الهواجس والوسواس، وهو يهدي بنفسه العارف إلى سبيل معرفة الصفات، ثم إلى طرق معرفة الذات.

قال جعفر: والله يقول الحق؛ لأنه الحق، ومنه بدت الحقائق وكلامه حق.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۚ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۚ وَأُولَٰئُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۖ﴾ ١٠٣ ﴿

قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: نفس المؤمن تطلب حظها والنبى ﷺ تطلب حظ الله من أنفسهم، وحظ اخق منهم أولى من حظ أنفسهم فيهم.

قال سهل: من لم ير نفسه في ملك الرسول ﷺ، ولم ير ولاية الرسول ﷺ في جميع الأحوال لا يذوق حلاوة سنته بحال؛ لأن النبي هو الأولى بالخلق من أنفسهم وأموالهم، ألا ترى الله يقول: ﴿الَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، والنبي ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين»^(١).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾: الميثاق الغليظ الذي أخذ الله من الأنبياء ميثاق المحبة ألا يشتغل أحد منهم بغيره من العرش إلى الثرى، ويوافق بعضهم بعضًا فيما أخبر الحق بلسانهم من نفسه، فأخذ الميثاق من الجميع بالوسائط ومن نبينا ﷺ كفاحًا بلا واسطة، بين فضله على الجميع، ثم بين فضل شيخ الأنبياء وفضل الخليل والكليم وعيسى عليهم السلام.

وقال بعضهم: أخذ ميثاق النبيين بالعموم على لسان السفر والوسائط، وأخذ ميثاق الرسول مشافهة بلا واسطة، فأظهر الأنبياء موافقتهم لعمومها، وأخفى النبي ﷺ ميثاقه؛ لأنه في عمل الخصوص، فأخبر الله عنها كفاية بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، وأخبر النبي ﷺ تعجبًا وقال: «لو تعلمون ما أعلم»^(٣)، كذلك موافق خصائص الأحاب يكون سرًا لا يطلع عليهم سواهم.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلُوا بِأَلْسِنَتِهِمُ الْكُفْرَ لَكِنِّي أَتَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ مِنَ الْغَاثِ﴾^(٤) وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿يَتَأْتِيهِمُ الْأُبْهُارُ﴾^(٥) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿إِذْ جَاءَ وَكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾^(٦) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُتَفِيقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٧) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَأَهَّلِ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَفْزِدُنْ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَبَلُوا أَلْفِئَةً لَا تَوْهَا وَمَا تَلَبَّسُوا

(٢) رواه البخاري (٣٥٤/١)، ومسلم (٦١٨/٢).

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٣٠٢/٢).

بِهَذَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّوهُ إِلَّا دَبْرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ تَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ *

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ يَوْمَ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، وإن الله سبحانه أراد بذلك السؤال أن يعرف الخلق شرف منازل الصادقين، فرب قلب يذوب من الحسرة حيث ما عرفهم وما عرف قدرهم.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، ولصدقهم استقامت أسرارهم مع الحق في مقام المحبة والإخلاص.

قال القاسم: لا سؤال أصعب من سؤال الصادق عن صدقه؛ فإنه يطالب بصدق الصدق، وعجز المخلوق أجمع عن الصدق، فكيف يبحث عن صدق الصدق؟!

قال الواسطي: الباطن منه أن يسألهم عن التوسل إلى من لا وسيلة إليه إلا به، عندها تذوب جسامهم، وينقطع آمالهم، وصار صدقهم كذبًا، وصفائهم كدرًا، واستوحشوا من مطالعته فضلًا عن التزين به وذكره.

قال سهل: يقول الله تعالى لهم: عملتم وماذا أردتم؟ فيقولون: لك عملنا، وإياك أردنا. فيقول: صدقتم. فوعزته لقوله لهم في المشاهدة صدقتم ألد عندهم من نعيم الجنة^(١).

(١) التَّغَابُنُ: فاعل من الغبن في البيع والشراء على الاستعارة، وهو أخذ الشيء بدون قيمته.

وقيل: الغبن: الإخفاء، ومنه غبن البيع لاستخفائه، والتفاعل هنا من واحد لا من اثنين، ويقال: غبت الثوب وخبته، أي: أخذت ما طال منه من مقدارك؛ فهو نقص وإخفاء. انظر: اللباب لابن عادل (٣٠٨/١٥).

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: أسوة النبي ﷺ أسوة المحبة، وقدوة الشوق، وطريق المعرفة التي يبلغ المقتدي إلى الحق بلا حجاب وإلى محبته الكبرى، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. قال محمد بن علي: الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع بسنته وترك مخالفته في قول وفعل.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۖ﴾ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾: إن الله سبحانه وصف العارفين بالرجولية في حمل أمانة الأزل، وعرض الأكبر عاهدوا الله ألا يختاروا شيئاً من العرش إلى الثرى، وصدقوا عهدهم، وبلغوا إلى منازل الأمن: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾، فمن بقي في سيره ولم يصل إلى الوصال وهن في عزم وفاء العهد فهو منتظر لتمام سعيه واستيفاء حظه من الله، ومن معرفته وخدمته، ومراقب لكشف جمال الحبيب، ليأخذ يده ويبلغه إلى مراده من مشاهدته، ليس المنتظر أقل درجة ممن قضى نحبه؛ فإنهم كالمنظر لا يدري أوله خير أم آخره.

قال محمد بن علي: خص الله الإنس من بين الحيوان، ثم خص المؤمنين من الإنس، ثم خص الرجال من المؤمنين، فقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا﴾، فحقيقة الرجولية الصدق، ومن لم يدخل في ميادين الصدق فقد خرج من حد الرجولية.

قال بعضهم: منهم من يبذل وسعه ومجهوده في الطاعة ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ التوفيق من ربه، ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ﴿١٤﴾: ما غيروا عن محبة نبيه ﷺ تغيراً.

أو قيل: ما استعانوا بغيره في مهماتهم بعد أن ضمن الله لهم الكفاية في كل الحوائج.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۖ﴾ ﴿١٥﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿١٦﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ

فَرِيقًا ﴿٦٨﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا ؕ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٦٩﴾ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٧٠﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ يٰٓنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ؕ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾: لما صدقوا في عهدهم يجازيهم الله بأن يزيد صدقهم في محبته، ويزيد صدقهم في شوقه، ثم يزيد صدقهم في عشقه ومعرفته هذا في الدنيا، ويجازيهم مشاهدته وكشف جماله في الآخرة.

قال الأستاذ: يجزي الله الصادقين في الدنيا بالتمكين والنصرة على الأعداء، وفي الآخرة بجميل الثواب وجزيل المآب.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِنَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿٧١﴾ يٰٓنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ؕ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٧٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي: ومن يقنت لله لحب لقائه وللرسول لحقوق صحبته، والإيمان به، ومتابعته، والعمل الصالح ألا يطلبن الدنيا من رسول الله ﷺ ﴿نُؤْتِنَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ الأولى: من الأجر حب الرسول لقاءهن، وأجر الآخرة كشف مشاهدة الله، وحسن جواره، والرزق الكريم ظهور مشاهدته لهن على الدوام بلا حجاب.

قال ابن عطاء: من يختار صحبة الرسول منهن على الدنيا فهي من القانتات، وهي التي تخضع للرسول وتذل له ولا تخالفه وتعمل صالحًا وتتبع مراد الرسول فيما يريده.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؕ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿٨٠﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٨١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

تَطَهِّرًا ﴿٦٠﴾ : الرجس ههنا حيث ما دون الله في صحبة رسول ﷺ، فهن مخصصات بالصدقية من الله سبحانه، وهن مقدسات حيث قدس الله أرواحهن وأشباحهن بنظر الاصطفائية إليهن في إنشائهن.

قال أبو بكر الوراق: الرجس الأهواء والبدع والضلالات ﴿وَيُطَهِّرُكُمْ﴾ من دنس الدنيا والميل إليها.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ﴿٦١﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾: المنقادين لأمر الله بحسن الإرادة، ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾: المشاهدين حضرته بنعت الإيقان، ﴿وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ﴾: القانتين هم المتمكنون في العبودية، ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾: الصادقين في محبة الله المتصفين بصدقه الأزلي الذي لا يتكرر بطريق الامتحان، ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾: الصابرين في الغيبة تحت أثقال الشوق، والصابرين في الحضرة في مشاهدة الله تحت جريان سطوات عزته، ألا يبتغوا من الحق سر القدم من حدة السكر كما فعل موسى حيث قال: من مني أنت يا رب، ﴿وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ﴾: المذايبن تحت سلطان عظمتهم وقهر سلطان كبريائه، ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾: المباذلين أنفسهم لقربان القدم، ﴿وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ﴾: الفاطمين أنفسهم عن النظر إلى ما دون الله وحب ما سوى الله، ﴿وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ﴾: الساترين عورات الحقائق عن نظر الأغيار، ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾: الذاكرين في البداية بنور الأفعال، ثم الذاكرين بالأسماء، ثم الذاكرين بالنعوت، ثم الذاكرين بالصفات بنعت رؤية أنوارها، وإدراك أسرارها، وفي النهاية الذاكرين الذات في الحالين ذاكرين الذات قبل مشاهدة الذات صرفًا وعيانًا، وذلك ضمن ظهور أنواره في قلوبهم، الذاكرين ذاته في عيانه كفاحًا؛ لأن الذات لا يتناهى، فهم في أول الكشف مرهونون بما بدا لهم من جلال ذاته ويفنون، فإذا فتوا استغاثوا

منه إليه أن يعينهم بالقوة الأزلية حتى يدخلوا بهمهمهم في بحار الأولية التي لا ساحل لها، فييقون في الذكر أبدًا؛ لأنهم لا يتلقون إلا ما يليق بأحوالهم من الكشوفات والقربات، وهؤلاء المذكورون من أول المقام إلى مقام الذكر عشرة أقوام، بعضهم أهل البداية في الإسلام، وبعضهم أهل الإيقان في الإيمان، وبعضهم أهل العبودية الجامعة لجميع المعاملات، وبعضهم أهل الصدق في المحبة وترك ما دون الله والوفاء في الحقيقة، وبعضهم أهل مقام الرضا والتوكل، وبعضهم أهل التواضع في المشاهدة، وبعضهم أهل السخاء والكرم، وبعضهم المتصفون بالصمدانية، وبعضهم أهل الغيبة في الغيب الذين لا يكشفون أسرارهم عند الخلق والمنتهى منهم المستغرق في ذكر الذات والصفات كما وصفنا، والجميع مأجورون من الحق بقدر منازلهم في مقاماتهم بأن يغفر قصورهم في بذل المهج له، ويكشفهم أستار الغيرة عن جمال المشاهدة بقوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قال سهل: الإيمان أفضل من الإسلام، والتقوى في الإيمان أفضل من الإيمان، واليقين في التقوى أفضل من التقوى، والصدق في اليقين، أفضل من اليقين، وإنما تمسكتكم بأدنى الإسلام فإياكم أن يتقلب من أيديكم.

وقال: الإسلام حكم، والإيمان أصل، والإحسان ثواب.

وقال ابن عطاء: لم يبلغ أحد إلى مقام الصدق بالصوم والصلاة ولا بشيء من الاجتهاد، ولكن وصل إلى مقام الصدق بأن طرح نفسه بين يديه فقال: أنت أنت ولا بد لنا منك.

وقال أيضًا: ليس من ادّعى الذكر فهو ذاكر، والذاكر على الحقيقة من يعلم أن يشاهده فيراه بقلبه قريبًا منه فيستحي منه، ثم يؤثره على نفسه، وعلى كل شيء من جميع أحواله.

سُئل سهل: ما الذكر؟ قال: الطاعة قيل: ما الطاعة؟ قال: الإخلاص.

قيل: ما الإخلاص؟ قال: المشاهدة.

قيل: ما المشاهدة؟ قال: العبودية. قيل: ما العبودية؟ قال: الرضا.

قيل: ما الرضا؟ قال: الافتقار. قيل: ما الافتقار؟ قال: التضرع والالتجاء سلم سلم إلى الملمات.

قال بعضهم: الخشوع استحقاق الكبر، وجميع الصفات تحت هيبة الحق.

قال بعضهم: الصابر هو الحابس نفسه عند أوامر الله، والخاشع هو المتذلل والخاضع له، والمتصدق هو الباذل نفسه وروحه وملكه في رضا مالكة، والصائم المسك عن كل ما لا يرضاه الله، والحافظ فرجه المراعي لحقوق الله عليه في نفسه وقلبه، والذاكر لله الناسي بذكره

كل ما سواه، أوجب على نفسه لمن هذه صفته ستر الذنوب عليه ومغفرتها له وأجرًا عظيمًا ثوابًا لا حدَّ له وهو رضا الله ورؤيته.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ : أنعم الله عليه بمعرفته، وأنعمت عليه بصحبتك ونظرك إليه بالمحبة.

قال ابن عطاء: أنعم الله عليه بمحبتك، وأنعمت عليه بالتبني.

قال بعضهم: أنعم الله عليه بالمعرفة، وأنعمت عليه بالعتق.

وقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ : إن الله سبحانه ابتلى نبيه ﷺ بالعشق الإنساني، وذلك أنه انفرد بالحق مما دون الحق، وخاض في بحر الرحدانية على شريطة الفناء، فكاد يفنى عن الفناء، ويغيب في غيب من غلبات سطوات العظمة عليه، فأراه جمال جلاله صرفًا، فلم يحتمل أيضًا حقيقة ذوق المشاهدة والجمال عيانًا، فسهله الله عليه بأن تجلّى له بنور المحبة ونور الجمال من مرآة وجه الإنساني، فطاب سره بذلك، واحتمل روحه لطائف تلك المحبة، واستأنس بشقيقة شقائق ورد مشاهدة القدس في محل الأنس، لكن خاف على الخلق أن يظهر لهم أحواله لا يعرفون سر العشق، فيهلكون فرفع الله عنه وحشة ذلك، وأمره بأن يُظهر ذلك، ولا يلتفت إلى غير الله في العشق، فإن العشق باقٍ في العشق، ويسقط عنه ملامة اللائمين وخوف النبي ﷺ من الخلق رحمة وشفقة على أمته بقوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ ، كان-عليه الصلاة والسلام- أخفى ذلك السر في نفسه من حيث التمكين، والله مبدية بأنه يقهر على المتمكنين بصولة العشق القديم، وكيف يوازي الحدث القدم، وقد ذكرت معنى قوله تعالى:

﴿وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ أي: لا تراع الخلق في مقام المحبة، وراع الحق؛ فإنه أحق أن تراعيه، لأن الحدث يفنى ويبقى القدم.

قال ابن عطاء: تُخْفِي في نفسك ما أظهر الله لك من أن يزوجه منك، وتخشى أن تُظهر للناس ذلك فيفتنوا.

قال أيضًا: تخشى الناس أن يهلكوا في شأن زيد، فذلك من تمام شففته على الأمة،

﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾: أن تبتهل إليه ليزيل عنهم ما تخشى فيهم^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾: حكم الله في ذلك أن غيره الأزل سابقة على عشق النبي ﷺ المتفرد عما دون الله حتى تزيله بنعت الغيرة وسر الجبروت من كل ما سوى الله، وذلك أن زيدا قضى وطره منها، ليذكره النبي ﷺ ذلك في حال معاشرته معها، فيضيق صدره بذلك، ويضطرب حاله، وينقبض سره، ويرجع إلى الله بالكلية؛ لأن هناك له طيب العشق هنيئاً سرمداً، ومقصود الحق من ذلك عذر العاشقين من أمته حتى لا يقدح الناس في أحوالهم، قال الله: ﴿لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾، فإن العشق المحمود العفيف المطهر من غبار الوسوسة وهواجس النفسانية والشيطانية مقرب العاشقين إلى عشق الألوهية ومشاهدة الأزلية.

قيل: قرئ عند ذي النون هذه الآية فتأوه وتأوها، ثم قال: ذهب بها والله زيد وما على زيد لو فارق الكونين بعد أن ذكره الله من بين أصحاب محمد ﷺ باسمه بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ﴾.

قال يوسف بن الحسين: سئل ذو النون وأنا حاضر عن قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ﴾: ترى كان النبي ﷺ يحتشم زيدا إذا رآه؟ فقال ذو النون: كيف لا يقول فترى كان زيد يحتشم النبي ﷺ إذا رآه إذا قيم لالتباس شيء كان العاقبة قد حكمت لرسول الله ﷺ أجلاً، وإنما كانت عارية عند زيد.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾: رضا الحق في الأزل في حالة عشق النبي ﷺ كان سنة الأنبياء.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾.

قال سهل: أي: معلوماً قبل وقوعه عندكم، وهل يقدر أحد أن يجاوز المقدور.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

(١) أي: وحده ولا تجمع خشية الناس مع خشيته في أن تؤخر شيئاً أخبرك به شيء يشق عليك حتى يفرق لك فيه أمر، قالت عائشة رضي الله عنها: لو كنتم النبي ﷺ شيئاً مما أوحى إليه لكنتم هذه الآية، نظم الدرر (٦/٤٣٠).

حَسْبًا ﴿١٤﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ﴾: خشية الأنبياء من العتاب وخشية الأولياء من الحجاب وخشية العموم من العذاب.

كما قال ابن عطاء في هذه الآية: هذه خشية السادة والأكابر، وإنما خشية عوام الخلق من جهنم.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ .
قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿١١﴾﴾: الذكر الكثير انحصار القلوب في أودية الغيوب عن السير في أنوار النعوت والصفات واضمحلال أسرارها في سنا الذات في جميع الأنفاس بلا فترة ولا غشية.

قال النصر آبادي: وَقَّتْ الله العبادات كلها بأوقاتٍ إلا الذكر؛ فإنه أمر أن يذكر ذكراً كثيراً، والذكر الكثير للقلب، وهو ألا يفتر القلب عن المشاهدة، ولا يغفل عن الحضرة بحال، ألا تراه لما رجع إلى المعلوم وَقَّتْ^(١) وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وأنشد:
الله يعلم أنني لست أذكرُهُ وكيف أذكرُ مَنْ لست أنساه

قال أبو الحسين بن هند: ناداهم، ثم خص النداء، ثم كنأهم، ثم أشار إليهم بالتوحيد، ثم أمرهم بإقامة العبودية، ثم مَنَّ على نبيهم بذلك، ولم يَمُنَّ عليهم؛ فإنه إنما خصهم بسبيك، والذكر إقامة العبودية.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿١٣﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾: صلاة الله اختياره العبد في الأزل بمعرفته ومحبه، فإذا خصه بذلك جعل زلاته مغفورة، وجعل خواص ملائكته مستغفرين له؛ لئلا يحتاج إلى الاستغفار بنفسه من اشتغاله بالله وبمحبه، وبذلك الصلاة يخرجهم من ظلمات

(١) اعلم أن الكثرة هنا عبارة عن: الاستيعاب والإحاطة بجميع الأوقات والحالات، كما أن القلة في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] عبارة عن العدم: أي لا يذكرون الله تعالى إلا ذكراً هو ليس بذكر عنده تعالى؛ لأنهم إنما يذكرون باللسان فقط، والذكر اللساني المجرد عن اعتقاد الجنان وإخلاصه قليل معدوم بالنسبة إلى الذكر القلبي؛ لأن المقصود عمارة الباطن لا عمارة الظاهر، فظهر أن الخلوص بمنزلة الإكسير الخالص في القلب.

الطباع إلى نور المشاهدة، وهذا متولد من اصطفايته الأزلية ورحمته الكافية القديمة ألا ترى إلى قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝١٢﴾ : كان رحيمًا قبل وجودهم حيث أوجدتهم وهداهم إلى نفسه بلا سبب ولا علة.

قال أبو بكر بن طاهر: علامة صلاة الله على عبده أن يُزِينَهُ بأنوار الإيمان، ويحليه بحلية التوفيق، ويتوجه بتاج الصدق، ويسقط عن نفسه الأهواء المضلة والإرادات الباطلة، ويبدله الرضا بالمقدور.

قال الأستاذ: الصلاة من الله بمعنى الرحمة، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة؛ ليعصمكم من الضلال بروح الوصال.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ : سلام الله ونحيته أن يخاطب العباد بخطاب الرضا والعفو عما مضى، وأن يجلسهم على بساط القرب، ويناجيهم بمناجاة البسط والدنو.

قال ابن عطاء: أعظم عطية للمؤمن في الجنة سلام الله عليهم من غير واسطة.

قال الأستاذ: إذا قربت التحية بالرؤية واللقاء إذا قرن بالتحية لا يكون إلا بمعنى رؤية البصر، والتحية الخطاب يفتح بها الملكوت إخبارًا على علو شأنهم، فهذا السلام يدل على عالي رتبهم التي جعلها الله لهم، فاللقاء حاصل والخطاب مسموع لهم.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ إِنْ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٤﴾ وَذَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝١٥ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝١٦ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذِلَّهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝١٧ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعِيَهُنَّ وَسِرْحُونَهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝١٨ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَرْسَلْنَاكَ أَرْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٩﴾ • تُرْجَى مَن تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُتْرَى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَن

أَتَغَيَّتْ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ
وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا
﴿١٥﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدِّلَ بَيْنَ مِنْ أَرْوَاحٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا
مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿١٦﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا
بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِجَدِثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ
فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ
وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ
وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿١٧﴾
تُبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوه فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٨﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ
وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٩﴾ وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا
منيرًا ﴿٢٠﴾: شاهدًا لأحوال العارفين وعلى أسرار الصديقين كيف يكونون في الشوق إلى
لقائي، وأنت شاهدنا شهدناك وشهدت علينا، فألبستك أنوار ربوبيتي، فمن شهدك بالحققة
فقد شهدنا، ومن نظر إليك فقد نظر إلينا؛ لذلك قال ﷺ: «مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَ الْحَقَّ وَمَنْ
رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ»، ومبشرًا للمحبين بحسن وصالي، ونذيرًا للمريدين من عتابي؛ لئلا
يفتروا عن خدمتي وعبادتي، وداعيًا إلى الله للمقبلين إليه بأن تصف لهم جمالنا وجلالنا، وذلك
بإذنه الأزلي وإجازته القديمة، وسراجًا منيرًا أسرجت نورك من نوري، فتور بنوري عيون
عبادي المؤمنين، فيأتون إلي بنورك، ثم أمره بأن يبشر المؤمنين بأنهم يصلون إلى مشاهدته،
وينالون فضائل قربته بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ﴿٢١﴾: الفضل
الكبير مشاهدته بلا حجاب ولا عتاب.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾: ﴿إنا شرفناك برسالتنا، وتخبر عنا خبر
صدق، فنهدي بك قلوبًا عمياء، أرسلناك شاهدًا لنا لا تشهد معنا سوانا، جعلنا الخلق كلهم

يشهدونك، ويشهدوننا فيك، ولا يشهدك إلا من أثر فيه بركة نظرك، فيشهدك ويشهد فيك، ومن لم يجعلك الدليل علينا عمي وضل؛ فإنك البشير تبشر من أقبلنا عليه بالرضوان، وتنذر من أعرضنا عنه بالخذلان، وأنت محل مشاهدة الخلق إيانا بك أخذناك عنهم، فلا تشهد شهودهم، وغيبناك عنهم فلا يشهدون منك إلا ظاهرك، وأنت لا تشهد سوانا بحال.

قال الواسطي: شاهدًا بالحق للحق إلى الحق مع الحق ليوم لا يقبل فيه الحق إلا الحق.

وقال جعفر: داعيًا إلى الله لا إلى نفسه افتخر بالعبودية، ولم يفتخر بالنبوة ليصح له بذلك الدعاء إلى سيده، فمن أجاب دعوته صارت الدعوة له سراجًا منيرًا يدلّه على سبيل الرشد، ويبصره عيوب النفس وغيبها.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٢) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٤) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُخَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٥) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا (٦) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٧) يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُذِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٨) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٩) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَخْرُجُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٠) يَوْمَ تَقْلُبُ رُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (١١) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ (١٢) رَبَّنَا ءَانِهِمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنَا كَبِيرًا (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (١٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (١٥) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (١٦) ﴿

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ : صلوات الله على النبي أن بلغه إلى المقام المحمود، فالمقام المحمود صلواته عليه وهو الشفاعة لأمته، وصلوات الملائكة

عليه دعاؤهم له بزيادة مرتبته بحبهم إياه واستغفارهم لأمتهم، وصلوات الأمة عليه متابعتهم له ومحبتهم إياه والثناء عليه بالذكر الجميل.

قال ابن عطاء: الصلاة من الله وصلة، ومن الملائكة رفعة، ومن الأمة متابعة وعجة.

قال الواسطي: صل عليه بالوقار، ولا تجعل له في قلبك مقدار.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سألت عبد الواحد الساري عن هذه اللفظة، وكأني أستفتحته. فقال: لا تجعل بصلواتك عليه في قلبك مقداراً تظن أنك تقضي به من حقه شيئاً بصلواتك عليه، فإنك تقضي به حق نفسك؛ إذ حقه أجل من أن يقضيه أمته أجمع؛ إذ هو في صلاة الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، فصلواتك عليه استجلاب رحمة على نفسك به.

قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٦٠): التقوى ههنا سقوط احتشام الخلق عن قلوب العارفين عند أداء أمانة الله التي فتح الله على قلوبهم من أسرار الملك والملوك، ولا يلتفت إلى ما سوى الله من أنوار الحدثن، فإذا كان كذلك يصلح الله ما يخافون من فوقه ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، ويستر الهفوات في تقصير الطريقة، ثم جمع هذه المعاني بمجموعها بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٦١): أطاع الله بالحقيقة، وأطاع الرسول بالشرعية، فقد فاز من الحجاب، ووصل إلى اللقاء والمآب.

قال الواسطي: التقوى على أربعة أدعية: للعامة تقوى الشرك، وللخاصة تقوى المعاصي، وللخاص من الأولياء تقوى التوسل بالأفعال، وللأنبياء تقواهم منه إليه. وقال الوراق: القول السديد ما أريد به وجه الله لا غير.

وقال سهل: من وفقه الله لصالح الأعمال، فذلك دليل على أنه مغفور له ذنوبه؛ لأن الله يقول: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

وقال بعضهم: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ بقبولها منكم فإن صلاح العمل في قوله.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: هو أن يصلح باطنه وقلبه فإنها موضع نظر الحق، ويعمرهما بدوام التفكير، ويصلح ظاهره بالطاعات الظاهرة واتباع السنن، فمن فعل ذلك فقد فاز من وساوس الشياطين وهواجس النفس.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ

اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٢﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾: لما لم يكن للكون استعداد حمل أمانة الربوبية بنعت الانفراد والفناء والسكر في العشق، والخروج بنعت الألوهية أبى أن يحملها؛ لأن سطوات الألوهية إذا بدت اضمحلت الأكوان والحدثان فيها، وبقي آدم؛ لأنه كان مستعداً لقبول ذلك؛ لأنه كان مخلوقاً بخلقه، موصوفاً بصفته، مستحكما بتأييده الأزلية، ومباشرة نور صفته الخاصة بقوله: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] قوياً بقوة الروح القدسية التي بدت من ظهور نور الذات حين تجلى من القدم لآدم بقوله: ﴿ وَتَفَخَّتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ [الحجر: ٢٩]، فإذا كان كذلك حمل أمانة الله بالله لا بالحدثان، فإنه تعالى قائم بنفسه منزّه عن مباشرة الحدوثية، فقد حمل أنوار جميع الصفات والذات حيث صدر وجوده عن تجلي الذات والصفات، فخرج موصوفاً بالصفات منور بنور الذات، وهذه بجميعها الأمانة، ولا يكون لتلك الأمانة موضع إلا آدم، ومن كان بوصفه من ذريته من الأولياء والأنبياء فإذا قابل القدم، وقبل الأمانة فقد جهل بالقدم أصلاً حيث قبل الكل بالبعض، كذلك قال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾؛ إذ وازى الأزل والأبد مع علة الحدوثية جهولاً حيث لم يعلم أن حقيقة التوحيد بالحقيقة مزلة أقدام الموحدين، وكيف يكون صفوان القدم موضع أقدام الحدث، فمجاز الأمانة بعد ذلك المحبة والعشق والمعرفة وحقيقتها الأمانة^(١).

قال ابن عطاء: الأمانة هي تحقيق التوحيد على سبيل التفريد.

قال الجنيد: إن الله لما عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبوا حملها وعرض على آدم فقبلها، أبوا حين ظنوا أنهم إياهم يحملون، وحمل آدم حين علم أنه به يحمله لا بنفسه.

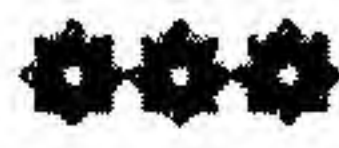
وقال أيضاً: نظر آدم إلى عرض الحق فأنساه لذة العرض ثقل الأمانة، ولما عرض على

(١) قال في الأسئلة المقحمة كيف عرض الأمانة عليه ما علمه بحاله من كونه ظلوماً جهولاً.

والجواب هذا سؤال طويل الذيل، فإنه تعالى قد بعث الرسل مبشرين ومنذرين إلى جميع الخلق ليدعوهم إلى الإيمان مع علمه السابق، بأن يؤمن بعضهم ويكفر بعضهم والخطاب عم الكل مع علمه باختلاف أحوالهم في الإيمان والكفر، فهذا من قبيله وسبيله، فإنه مالك الأعيان والآثار على الإطلاق. وقد قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان ظلوماً بحق الأمانة جهولاً بما يفعل من الخيانة يعني لم تكن الخيانة عن عند وقصد بل كانت عن جهل وسهو. تفسير حقي (١١ / ١٥٥).

الخلائق والجمادات فأشفقوا وهربوا، ظنوا أن الأمانة تحمل بالنفوس، فكشف لآدم أن حمل الأمانة بالقلب لا بالنفس، فقال: أنا أحملها؛ فإن القلب موضع نظر الحق واطلاعه، فإذا أطلق ذلك يطبق حمل الأمانة، فإن الأمانة حدث وإطلاع الحق وتجليه لم تطبقها الجبال وطاقتها القلوب، وأنشدنا:

وَمَنْ عَلَى أَثَرِهِ حَمَلْتُ بِالْقَلْبِ مَا لَا يَحْمِلُ الْبَدَنُ وَالْقَلْبُ يَحْمِلُ مَا لَا يَحْمِلُ الْبَدَنُ
يَا لَيْتَنِي كُنْتُ أَدْنَى مَنْ يَلُودُ بِكُمْ عَيْنًا لِأَنْظُرَ رُكْمَ أُمِّ لَيْتَنِي أَيْ أَدْنَى



سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ١ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ ٢ .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ : حمد نفسه قبل الكون ورفع حقوق الحمد عن الخليقة، ثم حمد نفسه بعد الكون علماً بعجزهم عن أداء شكره، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ حيث يقبل الحسنات، ويعفو عن السيئات، ويدني العارفين من المشاهدات، ويكشف لهم جمال الذات والصفات.

قال أبو العباس بن عطاء: المحمود من لم يربط عباده بشيء من الأكوان قطع أملاكهم عن الجميع لئلا يشتغلوا بها، ويكون اشتغالهم بمن له الأكوان وما فيها وله الحمد في الآخرة حيث لم يناقش بالمحاسبة مع عباده، وهو الحكيم فيما دبر والخير عما عفا وستر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ٣ لَيَجْزِي الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ٥ وَبَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٦ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلَّ

مُزَقِّ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٥﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٦﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ كُشًا نَحِيفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٧﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: وصف نفسه بالإحاطة على كل ذرة من العرش إلى الثرى كيف يعزب عن علمه شيء من علمه وإرادته وقدرته، بدأ ذلك الشيء وبه قيامه ووجوده.

قال الواسطي في هذه الآية: كيف يخفى عليه ما هو أنشأها، أو كيف يستعظم شيئاً هو أبدأها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أُوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَتٍ وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَليحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ وَلَسَلِمَنَّ الرِّيحُ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾: علماً بجلاله وجماله ومحبه للقاءه، وشوقاً إلى وصاله وحكمه بأمور العبودية، وعلماً بأنوار الربوبية، وكشفاً من أسرار له، وإلباسه إياه وصف جلاله حتى يطيب قلبه بالعشق، وروحه بالمحبة، وعقله بالبصيرة وسره بالأنس، و صدره باليقين، وحلقه بالصوت الحسن، فهذه بركة أوصاف الأزل التي ألبسها الله إياه بنعت التجلي والتدلي، ألا ترى إلى قوله: ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾، وذلك الفضل اتصافه بأنوار الذات والصفات؛ لذلك أجابته الجبال بالتسبيح والتهليل بقوله: ﴿يَجِبَالُ أُوْبَى مَعَهُ﴾^(١)، وكذلك الطير بقوله: ﴿وَالطَّيْرُ﴾، إذا زمزم من طيب عشقه قام العالم معه.

(١) قوله: «أوبى» العامة على فتح الهمزة، وتشديد الواو، أمراً من التأويب وهو الترجيع، وقيل: التسبيح بلغة الحبشة، وقال الفتيبي: أصله من التأويل في السير وهو أن يسير النهار كله، وينزل ليلاً كأنه قال: أذابى النهار كله بالتسبيح معه، وقال وهب: نوحى معه، وقيل: سبى معه، وقيل: سبى معه، والتضعيف يُحتمل أن يكون للتكثير، واختار أبو حيان أن يكون للتعدي قال: لأنهم فسروه بجمع مع التسبيح، ولا دليل فيه لأنه دليل معنى.

وقرأ ابن عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق: أوبى بضم الهمزة أمراً من آب يؤوب أي ارجع معه بالتسبيح.

قال جعفر في قوله: ﴿فَضْلًا﴾: ثقة بالله وتوكلًا عليه.

وقال النهرجوري: حلاوة صوته في المناجاة.

وقال ابن خلا: أفضل الفضل من الله على عباده أن يعرفهم أقدارهم وأن يمكن لهم سبيل الرجوع إليه.

قال عبد العزيز المكي: حبًا للمساكين ورحمة على الضعفاء.

وقال الأستاذ: حسن خلقه مع أمته وفيما أوحى الله إليه: ﴿يَدَاوُدَ﴾ أنين المذنبين أحب إلي من صراخ العابدين.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ
أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿٣٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا
دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِمْ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُمْ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ
عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿٣٥﴾
فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ
وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿٣٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿٣٧﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا
لَيَالِيًَّ وَأَيَّامًا ءَامِينَ ﴿٣٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ
عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٤١﴾
قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾: لما بلغ الله داود وسليمان إلى محل التمكين

من المعرفة والتصرف في المملكة الذي هو آخر درجة من درجات الصديقين طالبهم بشكر تلك النعمة ﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ﴾، الشكر الحقيقي أي: ابذلوا أنفسكم في خدمتي، واعرفوا معطيكم بسقوط نظركم عن العطاء؛ فإن الشكر الحقيقي معرفة المشكور على ما هو به.

قال ابن عطاء: اعملوا من الأعمال ما تستوجبون به الشكر.

وقال الأنطاكي: أصل الشكر الطاعة والتوبة والندم بالقلب، قال الله: ﴿اعْمَلُوا
ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾، ثم شكا عن الأكثر من قلة شكرهم بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ
الشَّاكِرُونَ﴾ أي: قليل من واقف بوقف الفناء في مقام الحياء، حين عاين قدم الألوهية
ورؤية مواهب السنية بغير علة قيل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ﴾ من يرى الطاعة منه مني عليه.

قال بعضهم: الشاكرون من العباد قليل، والشكور من الشاكرين قليل، والشكار من
الشكور قليل.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا
مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ • قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ قُلْ لَا
تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا
بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ
اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قُلْ لَّكُمْ
مِيعَادٌ يَوْمٍ لَا تَسْتَفْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْدِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن
نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ
عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِّلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ
عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِّلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا
الْئِدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ تُحِزُّونَ إِلَّا مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢٧﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ •

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ : وصف الله سبحانه أهل الوجد من
الملائكة المقربين، وذلك من صولة الخطاب، فإذا سمعوا كلام الحق من نفس العظمة وقعوا

في بحار هيئته وإجلاله، حتى فنوا تحت سلطان كبريائه، ولم يعرفوا معنى الخطاب في أول وارد السلطنة، فإذا أفاقوا سألوا معنى الخطاب من جبريل عليه السلام، وهو من أهل الصحو والتمكين في المعرفة بقوله: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٢١).

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ (٢٢) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٢٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾: لا تُنال زلفته إلا بزلفته، وأين الحدثان من أن يقرب المعارف من الله، فإنه بنفسه جل جلاله قريبهم منه إليه.

قال سهل: الزلفى هي التقرب إلى الله.

وقال بعضهم: الزلفى هي قطع الأسباب والتعلق بالنجاة.

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ مُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٢٤) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءِ بِإِثْمِهِمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٥) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٢٦) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٢٧) وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٢٨) وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٢٩) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ مُخْلِفُهُ﴾: كل عارف ينفق في عشقه ومحبه قلبه وروحه، فهو بذاته جل جلاله يخلف نفسه مكان قلبه وروحه، فيفنى القلب عنه، ويبقى الرب معه، فإذا فنيت صفات العارف في صفات المعروف صارت صفات المعروف صفته، ألا ترى إلى قوله كيف قال: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقلبه الذي يعقل به،

ولسانه الذي ينطق به^(١).

قال سهل: الخلف على الإنفاق الأنس والعيش مع الله والسرور به.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (١) ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٢) ﴿قُلْ إِنْ رَأَيْتُمْ يُقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ﴾ (٣) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤) ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٥) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٦) ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِءَ وَأَنَّا لَهُمْ الشَّائِئُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٧) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِءَ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٨) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ (٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى﴾ أي:

أوصيكم خصلة واحدة هي أن تقوموا لله لأجل الله ﴿مِثْلِي﴾ الشيخ والمريد، ﴿وَفُرَادَى﴾ العارف المتمكن القيام لله لا يكون إلا بالله، ومن يقوم من الحدثان لله، وقهارية الأزلية أفنت الحدوث في القدم حقيقة فإذا لا يقوم لله إلا الله.

قال سهل: يرجع الحساب يوم القيامة إلى أربعة: وهي الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والاستقامة مع الله في جميع الأحوال، ومراقبة الله على كل حال.

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِثْلِي وَثُلُثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِءَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٨٤).

وَالْأَرْضُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَ تُؤْفِكُوتَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١﴾ يَتَأَيَّأُ النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٢٢﴾.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِيَّةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَنَنِ وَتُلَّتْ وَرُبِعَ ﴾: حمد قدمه بما أوجد من العدم بعين صورة ولا مثال، وجعل حمده إعلاما للحامدين له بأن الحمد منه له حقيقة، ويفنى حمد الحامدين في حمده نفسه، جعل للملائكة أجنحة المعرفة على مراتب المقامات، ففضل بعضهم على بعض في ذلك بقوله: ﴿ مَنَنِ وَتُلَّتْ وَرُبِعَ ﴾، وللأرواح القدسية أجنحة، منها جناح المعرفة، ومنها جناح التوحيد، ومنها جناح المحبة، ومنها جناح الشوق، فبجناح المعرفة تطير إلى عالم الصفات، وبجناح التوحيد تطير إلى عالم الذات، وبجناح المحبة تطير إلى المشاهدة، وبجناح الشوق تطير إلى الوصال.

قال جعفر: أجنحة المؤمنين أربعة: أجنحة التوحيد، وأجنحة الإيثار، وأجنحة المعرفة، وأجنحة الإسلام، والموحد يطير بأجنحة التوحيد إلى الجبروت، والمؤمن يطير بأجنحة الإيثار إلى المشاهدة، والعارف يطير بأجنحة المعرفة إلى الملكوت، والمسلم يطير بأجنحة الإسلام إلى الجنان.

قيل: الأجنحة أربعة: أجنحة التعظيم، وأجنحة التفريد، وأجنحة الحياة، وأجنحة الحياء، فأجنحة التعظيم للمقربين، وأجنحة التفريد للروحانيين، وأجنحة الحياة للوالمين، وأجنحة الحياء للواصلين.

قال الجنيد: الحمد لله الذي جعل ما أنعم على عباده من أنواع نعمه دليلاً هادياً إلى معرفته، ثم بيّن سبحانه أنه بفضله يزيد في حالات العارفين، ومعاملات المحبين، وحسن العاشقين والمعشوقين بقوله: ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾، يزيد في قلوب العارفين المعرفة، وفي قلوب المحبين المحبة، وفي قلوب المشتاقين الشوق، وفي قلوب العاشقين العشق، وفي قلوب المريدين الإرادة، وفي أبدان الصديقين قوة العبادة وصفاء المعاملة، وفي وجوه المستحسنين الحسن، وفي حلوق الروحانيين حسن الصوت.

وقال ابن عطاء: حسن المعرفة بالله: وحسن الإقبال عليه، وحسن المراقبة له والمشاهدة إياه.

وقال بعضهم: يزيد في الخلق ما يشاء محبة في قلوب المؤمنين.

وقيل: التواضع في الإشراف، والسخاء في الأغنياء، والتعفف في الفقراء، والصدق في

المؤمنين، والشوق في المحبين، والوله في المشتاقين، والمعرفة في الواهين، والفناء في العارفين.

قيل: الخلق الحسن، وقيل: الصوت الحسن.

قال الأستاذ: الفصاحة في النطق، ثم بيّن سبحانه أن هذه النعم غير مكتسبة ولا لها مانع يدفع عمن اختاره الله بها، ولا هي مستجلبة بتمنى المتمنين بقوله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾: الرحمة هاهنا المعرفة بالله والاصطفائية الأزلية، فإذا فتح على ولي من أوليائه أبواب كنوز لطائف أنوار صفاته وذاته وجعله بصيراً لأمر الكونين وعالماً بمراد الله منه لا يدفع عنه ذرة من ذلك جميع الخلق؛ فإنه يختص برحمته من يشاء.

قال أبو عثمان: ما يفتح الله لقلوب أوليائه من القرية والإنابة والأنس لو اجتمع الخلق كلهم على أن يمسكوه عن ذلك لعجزوا عنه وما أمسكوا ما أرسل الله، ومن أغلق الله قلوبهم عن الإنابة إليه والقرب منه، فلو اجتمع الناس على أن يفتحوه ما قدروا على ذلك وعجزوا عنه، ثم إنه تعالى لما بيّن موضع الخاصية في افتتاح نعمه على الصادقين حثهم على تذكر نعمه وشكر ما أنعم عليهم من لطائف جوده بنعت أفراد قدمه عن الحدوث بوصف نفى الأنداد عن جلال كبريائه بقوله: ﴿يَتَأَيُّمُ النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، ذكره معرفته ونعمته ومشاهدته، فوجبت حقوق المعرفة والمشاهدة على من عرفه وشاهده بأنه أسقط الأسباب بينه وبين خالقه فيما أولاه من أرزاق وصلته ولطائف قربه.

قال ابن عطاء: من علم أنه لا رازق للعباد غيره ثم يتعلق قلبه بالأسباب فهو من المبعدين عن طريق الحقائق.

قال القاسم: يرزقكم من السماء الهداية ومن الأرض أسباب الغذاء والحفظ والبقاء وما سنح لي من معنى السماء والأرض هاهنا السماء عالم الربوبية يرزقهم منها لطائف علوم المعارف وأنوار جلاله الكواشف، والرزق هناك التجلي والجذب والكشف بالبديهة وواردات المواجيد وسني المخاطبات، والأرض عالم العبودية يرزقهم منها صفاء المقامات ولطيف المعاملات وسنا الحكم والفراشات، وأيضاً السماء إشارة إلى الروح، والأرض إشارة إلى القلب، والرزق الذي يبدو من عالم الروح علوم المعرفة، وما ينبت من أرض القلب فهي علوم الحكمة.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٠﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨١﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾: إنه عدونا؛ لأنه من عالم القهر خلق، ونحن من عالم اللطف خلقنا، والطبعان مخالفان أبداً؛ لأن القهر واللطف تسابقا في الأزل فسبق اللطف القهر؛ فعداوته من جهة الطبع الأول والجهل بالعصمة وأنوار التأيد والنصرة، ومن لا يعرفه بما وصفنا كيف يتخذه عدواً وهو لا يعرف مكائده ولا يعرف مكائده إلا ولي أو صديق.

قال الواسطي: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بما نصركم عليه، واحذروا ألا يغلبنكم؛ فإنه إنما يدعو حزبه، وحزبه هم الراكنون إلى الدنيا والمحبون لها والمفتخرون بها.

وقال جعفر الصادق: من سمع هذا النداء من الله تعالى وجب عليه بهذا النداء نصب آلة العداوة بينه وبين عدوه، ولا ينفك من محاربته طرفة عين كلما عارضه بشيء قابله بغيره إن عارضه بزيئة الدنيا قابله بسرعة الفناء، وإن عارضه بطول الأمل قابله بقرب الأجل، فهو دائم منتبه مستعد لمحاربته؛ لما يعلم أن الشيطان لا يغفل عنه، وأنه يراهم من حيث لا يرونه.

قال سهل في قوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾: أهل البدع والضلالات والأهواء الفاسدة والسامعين ذلك من قائلها.

قال الواسطي: حذر حزبه ومتابعته، وأمر بطرده بضيء المبادرة في العهود وحفظ الحدود ورعاية الود بطرد الوسوس، كما أن بضيء النهار طرد الكلاب من المحابس، وأنشد:

وَمَنْ رَعَى غُثْمًا فِي الْأَرْضِ مَسْبَعَةً وَنَامَ عَنْهَا تَوَلَّى رَعِيهَا الْأَسَدُ

وما فهمت من هذه الآية أن الله سبحانه أراد أن يعرف عباده من محاربة الشيطان معالم قهرياته وحفظ الأوقات والأنفاس من خطراته؛ لأن الشيطان يغوي المصطفين بالولاية، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ من أصحاب الضلالات الذين طردهم الله عن بابه وهو يعرفهم، وإنما هو يدعوهم لا أن الضلالة بيده كما لا تعلق الهداية بالأنبياء.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿٨٣﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَلْبُسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾: سهل الله سبحانه طريق الوصول إلى العزة القديمة لطلاب العزة، وهو الاتصاف بصفاته والتخلق بخلقته، فإذا عرفه بالعزة صار منورًا بنور عزته، عزيزًا بما كساه الحق من سناء عزته، فإذا كان مزينًا بنور العزة صار سلطانًا من الحق يذل عنده جبابرة العالم، ولا يكون ذلك إلا بعد فنائه في بقاء الله.

قال سهل: العزة النصر؛ فليطلب ذلك من عند الله وموالاته أوليائه ومعاداة أعدائه، ثم بين سبحانه ألا يصل إليه إلا ما بدا منه بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، الكلم الطيب ما تلقفه الأرواح القدسية في بدو الأزل من الحق سبحانه حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾، ولا يصل ذلك إلا إليه؛ لأن الحدثان لا يكونا محل الأفراد الفردانية بل الأزلية مصادر التوحيد، ألا ترى كيف قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ يعني لا إلى غيره، والعمل الصالح عمل القلب، وهو محبة الله والشوق إلى لقائه، والمحبة والشوق أيضًا مصدرهما صفة الحق فيصحبان الكلمة؛ لأن الكلمة والمحبة خرجتا من معدن الألوهية، فمنه بدأتا، وإليه تعودان.

قال سهل: ظاهره الدعاء والصدقة، وباطنه عمل بالعلم والاقتداء بالسنة يرفعه، أو يوصله الإخلاص^(١).

(١) في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي ابتداء خلقكم من التراب في ضمن خلق آدم منه؛ لتكونوا متواضعين؛ كالتراب ساكنين تحت الأقدار. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: ثم خنقكم من نطفة خلقًا تفصيليًا؛ لتكونوا قابلين لكل كمال؛ كالماء الذي هو سر الحياة، ومبدأ العناصر الأربعة، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافًا أحمر وأبيض وأسود، وذكرانا وإناثًا، ﴿تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ هو فاعل تحمل، ومن مزيدة لاستغراق النفي وتأكيده، ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ كون تلك الحامل والواضع ملتبسة بعلمه، تابعة لمشيئته، ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ حال من الحامل دون المحمول؛ لأن العلم بالحامل والواضع يتضمن العلم بالمحمول والموضوع، فيعلم تعالى مكان الحمل، ووضعه، وأيامه، وساعاته، وأحواله، وأحواله من النقصان والتمام، والذكورة

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۖ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَلِهَآ لَا تُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ : فطرة الإنسانية وقعت من الغيب مضطربة متحركة إلى الأزل بنعت الافتقار إليه كانهجذاب الحديد إلى المغناطيس؛ لأنها بنعت وقعت، العشق والعاشق مفتقر إلى معشوقه انفعالاً، فمن عرفه بالأزلية والأبدية يفتقر إليه افتقاراً قطعياً؛ لأن بقاءه لا يكون إلا به، وإذا كان كذلك صار غنياً بالله متصفاً بغناه غنياً به عن غيره مفتقراً إليه، فإذا كان في محل الصحو يكون مفتقراً إليه، وإذا كان في محل السكر بقي في رؤية غناه عنه، فصار محجوباً عنه ولا يدري.

والأنوثة، وغير ذلك. وقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ ما نافية، والتعمير عُمر، وهو مدة عمارة البدن بالحياة، والمُعَمَّرُ مَنْ أَطِيلَ عَمْرُهُ، (مِنْ مُعَمَّرٍ): أي من أحد، ومن زائدة لتأكيد النفي، وسُمِّيَ مُعَمَّرًا باعتبار مصيره؛ فهو من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه؛ والمعنى وما يُمدُّ في عمر أحد. ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ من النقص؛ وهو متعد؛ بمعنى: كم، والضمير للمُعَمَّر على الاستخدام، فيراد بضميره ما؛ مَنْ شَأْنُهُ أَنْ يُعَمَّرَ: أي ولا ينقص من عمر أحد؛ ومعنى، (لا ينقص من عمره) بعد كونه زائداً؛ إذ العمر لا يزيد، ولا ينقص؛ بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصاً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي اللوح، أو علم الله، أو صحيفة كل إنسان؛ لأن الملك يكتب والمولود في بطن أمه سعادته وشقاوته، وأجله ورزقه، فلا يتغير ذلك؛ لأن بطن الأم لوح العلم، ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائاه عن الأسباب؛ فكذا البعث، فمن آمن به على هذا الوجه؛ سلم من الاعتراض، والإنكار، وأتبع الهدى والحكمة في كل الأفعال والآثار.

قال الحسين: على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غناه بالله، وكلما ازداد افتقارًا ازداد غنىً.

قال الواسطي: من استغنى بالله لا يفتقر، ومن يتعزز بالله لا يذل.
وقال جعفر الصادق: أنتم الفقراء بذل العبودية والله الغني بعز الربوبية؛ لأن الربوبية القهر والغلبة والعبودية الخضوع والاستكانة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾
وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾: الخوف عموم والخشية خصوص، وقد قرن سبحانه الخشية بالعلم بالله وجلاله وقدره وربوبيته والعبودية له، وحقيقة الخشية وقوع نور جلال الحق في العارفين ممزوجًا بسنا التعظيم ورؤية الكبرياء والعظمة، ولا يحصل ذلك إلا لمن شاهد القدم والأزل والبقاء والأبد، فمن زاد علمه بالله زادت خشيته؛ لقوله عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام: «أنا أعرّفكم بالله وأخشاكم منه»^(١).

قال ابن عطاء: الخشية أتم من الخوف؛ لأنها صفة العلماء.
وقال النصر آبادي: خشية العلماء من الانبساط في الدعاء والسؤال.
قال حارث: العلم يورث الخشية، والزهد يورث الراحة، والمعرفة تورث الإنابة.
وقال الواسطي: أوائل العلم الخشية ثم الإجلال ثم التعظيم ثم الهيبة ثم الفناء، فإذا فئت هربت ثم نست حتى نسيت أفعالها.
وقال الأستاذ: الفرق بين الخشية والرهبة أن الرهبة خوف يوجب هرب صاحبه فيجري في تفرقه، والخشية إذا حصلت كبحت صاحبها، فيبقى مع الله، فقدمت الخشية الرهبة في الجملة.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٣١) بنحوه.

مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٧﴾ جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾: مَنْ الله على عباده المصطفين في الأزل بمعرفته ومحبه بأن أعطاهم كتابه وعلمهم عجائبه وغرائبهم، فالاصطفائية تقدمت الوراثه اصطفاء بمحبته ومشاهدته، ثم خاطبهم بما له عندهم وما لهم عنده، وهذا الميراث الذي أورثهم من جهة نسب معرفتهم به واصطفائيته إياهم، وهو محل القرب والانبساط؛ لذلك قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾، ذكر ﴿ثُمَّ﴾ للتأخير، ثم قسمهم على ثلاثة أقسام: ظالم، ومقتصد، وسابق، والحمد لله الذي جعل الظالم من أهل الاصطفائية، ألا ترى أنه ذكر الاصطفائية، ثم ذكر الظالم وقرنه بالمقتصد والسابق، فالظالم عندي -والله أعلم وأحكم- الذي وازى القدم بشرط إرادة حمل وارد جميع الذات والصفات وطلب كنه الألوهية بنعت إدراكه، فأى ظالم أعظم منه إذ طلب شيئاً مستحيلاً، ألا ترى الله سبحانه كيف وصفه بهذا الظلم بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، وهذا من كمال شوقه إلى حقيقة الحق وكمال عشقه ومحبه وجلاله وجماله، وأيضاً الظالم من أظهر سرّ الأسرار من غلبة المواجيد عن الخلق، وأيضاً الظالم من أخرج قدم المعرفة من جادة الرسوم من كمال سكره؛ لأنه خرج من حد التمكين، وأيضاً الظالم الذي غلب عليه عشق الأزل، ويريد أن يكون الأزل بعينه، وهذا نعت متحد، وأي ظالم أعظم من الحادث الذي يدّعي الأناية على نعوت الحدوثية، وإن كان معذوراً من جهة السكر والوله، وأيضاً الظالم الذي وقف في مقام لذة المشاهدة عن السير في الألوهية، وأيضاً الظالم الذي احتجب منه به ولا يعرف أن ذلك مكر الأزل، وأيضاً الظالم الذي يحب الحق لراحة مشاهدته، وأيضاً الظالم الذي يطلب منه الكرامات والآلاء والدرجات، وأيضاً الظالم الذي أثر البقاء على الفناء، والمقتصد -والله أعلم- الذي عرف الحق بالحق وجعل الخلق للحق، ولا يتجاوز عن حدود العبودية إلى عالم الربوبية، والمقتصد أيضاً الذي استوت أعماله وأفعاله وأقواله وسكره وصحوه وفناؤه، والسابق الخيرات هو المستقيم في جميع الأحوال وصحوه أكثر من سكره وبقاؤه أقوى من فناؤه، وهو السابق في الأزل بالتقدم على أهل الاصطفائية من أهل الولاية، وأيضاً الظالم المرید والمقتصد المحب والسابق العارف.

وقال الحسن البصري: السابق من رجحت حسناته، والمقتصد من استوت حسناته

وسيثاته، والظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته.

قال جعفر الصادق: فرّق المؤمنين ثلاث فرق، سباهم مؤمنين أولاً عبادنا، أضافهم إلى نفسه تفضلاً منه وكرماً، ثم قال: ﴿أَصْطَفَيْنَا﴾ جعلهم كلهم أصفياء مع علمه بتفاوت معاملاتهم، ثم جمعهم في آخر الآية يدخلون الجنة فقال: ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ ثم بدأ بالظالمين إخباراً أنه لا يتقرب إليه إلا بصرف كرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفائية، ثم ثنى بالمقتصدين؛ لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحدٌ مكره، كلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص.

قال الجنيد: لما ذكر الميراث دلّ على أن الخلق فيه خاصٌّ وعامٌّ، وأن الميراث لمن هو أقرب وأصح نسباً، فتصحیح النسبة هو الأصل.

قال: الظالم الذي يحبه لنفسه، والمقتصد الذي يحبه له، والسابق هو الذي أسقط عنه مراده لمراد الحق فيه، فلا يرى لنفسه طلباً ولا مراداً لغلبة سلطان الحق عليه.

سئل النوري عن قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ على ماذا عطف بقوله [ثُمَّ]؟ قال: عطف على إرادة الأزل والأمر المقضي، قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ من الخلق الذين سبقت لهم منا الاصطفائية في الأزل.

وقال عبد العزيز المكي: المغفرة للظالمين، والرحمة للمقتصدين، والقربة للسابقين.
وقال الحسين: الظالم الباقي مع حاله، والمقتصد الفاني في حال، والسابق المستغرق في فناء حاله.

وقال النصر آبادي: لا ميراث إلا عن نسبة صحح النسبة، ثم ادّعى الميراث.
وقال أيضاً: ميراث الكتاب للذين فهموا عن الله خطابه، فكل فهم على قدره، فالظالم فهم منه محل المغفرة والثواب والعقاب، والمقتصد فهم منه محل الجزاء والأعواض والجنان، والسابق استغرقه التلذذ بالخطاب عن أن يرجع منه إلى شيء سواه.

وقال أبو يزيد: الظالم مضروب بسوط الأمل، مقبول بسيف الحرص، مضطجع على باب الرجاء، والمقتصد مضروب بسوط الحسرة، مقتول بسيف الندامة، مضطجع على باب الكرم، والسابق مضروب بسوط المحبة، مقتول بسيف الشوق، مضطجع على باب الهيبة.
قال أبو يزيد: الظالم في ميدان العلم، والمقتصد في ميدان المعرفة، والسابق في ميدان الوجد.

قال محمد بن علي: الإيثار للظالمين، والمعرفة للمقتصدين، والحقيقة للسابقين.

قال ابن عطاء: الظالم معذب، والمقتصد معاتب، والسابق ناجٍ مقرب.

قال بعضهم: الظالم لنفسه آدم، والمقتصد إبراهيم، والسباق محمد صلوات الله عليهم.
وقال الأستاذ: الظالم من نجم كواكب عقله، والمقتصد من طلع بدر علمه، والسابق من درت شمس معرفته.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (١٦) الَّذِي
أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (١٧) وَالَّذِينَ
كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ
نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (١٨) وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي
كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (١٩) إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ (٢٠) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
الْكَاثِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٢١) قُلْ
أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ
فِي السَّمَوَاتِ أَمْ لَهُ أَتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم
بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٢٢) * إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ
أَمْسَكَهُمَا مِن أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٢٣) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ
لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِن إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا
نُفُورًا (٢٤) اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا
(٢٥) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ
قُوَّةً وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا
قَدِيرًا (٢٦) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلِئْسَ اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٢٧) ﴿

قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ : أهل المعرفة إذا دخلوا جنان
المشاهدة، وأدركوا أنوار المكاشفة، وجلسوا على بساط القرية، وشربوا شراب الزلفة، وفازوا
من آلام الفرقة في حجال الوصلة هيجهم حالهم إلى حمد خالقهم، والثناء عليه بما أولاهم من
لطيف كراماته وسنا مشاهداته حين فازوا من هجوم الأحزان في قلوبهم من خوف اليم

الفراق وطريان النفاق بعد حقيقة الاشتياق، وأقروا بأن ذلك من لطفه الخاص بلا امتحان بقوله: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ثم بينوا ألا يلحقهم فيها وجدوا من نعم الله نصب المعاملات ولا لغوب الطبعيات.

قال النصر آبادي: ما كان حزنهم إلا تدبير أحوالهم وسياسة أنفسهم، فلما نجوا منها حمدوا وقالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾.

وقال أبو سعيد الخراز: أهل المعرفة في الدنيا كأهل الجنة في الآخرة، قال الله حاكياً عن أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾، وإنما أحزانهم للاشتغال بالأعراض، فتركوا الدنيا في الدنيا، فتعموا، وعاشوا في الدنيا بعيش الجنانين.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِنْ رِئَا لَغُفُورٌ شَكُورٌ﴾: شكر الله العبد رضاه بما أجرى عليه، وشكر العبد ربه أن يرى النعمة من الله ابتداء وانتهاء.

قال أبو بكر التيمي: إن كانت أعمالك مكتسبة فبفضل الله عملت، والفضل غير مكتسب، وإن كان مكتسباً لم يسمّ فضلاً؛ ألا ترى الله يقول: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وافهم أن ذلك الحزن الذي نجا القوم منه وحمدوا الله بإخراجهم عنه هو الحزن الذي صدر من رؤية قهر الأزل، فلما فروا من الله إلى الله فازوا من قهره بلطفه، ولا يبقى لهم استتار، بل يبقون في المشاهدة بلا حجاب وامتحان واضطراب.

قال ابن عطاء: حزن إبهام العاقبة.

سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسَ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ ۝ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝﴾.

﴿يَسَ ۝﴾: افهم أن حروف يس كحروف الطواسين وحروف الحواميم وغيرها من حروف التهجي، الياء إشارة إلى يد القدرة الأزلية، والسين إلى سنا الربوبية، أقسم سبحانه بثلاث صفات: بالقدرة، وسنا الربوبية، والكلام الأزلي بقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝، مخاطبة المواجهة بعد شرف القسم بنفسه وصفاته؛ لأن المقسم به قديم، فأقسم بالقدم لا بشيء خرج من العدم لشرائفه وفضائله.

قيل: الياء يشير إلى يوم الميثاق، والسين يشير إلى سره مع الأحباب، فقال: وبحق يوم

الميثاق وسري مع الأحباب والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين يا محمد.
قال جعفر الصادق: يا سيدًا مخاطبًا لنبيه ﷺ بذلك؛ لذلك قال النبي ﷺ: «أنا سيّد»^(١)،
ولم يمدح بذلك نفسه، ولكن أخبر عن معنى مخاطبة الحق إياه بقوله: ﴿يس﴾.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً
فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾: حق القول الأزلي في الأزل إن أكثر
الخلق لا يعرفونه؛ لأنه غريب الأزل، والأزلي لا يعرفه إلا الأزلي، والحمد لله الذي حكم على
الأكثر بالشقاوة، وما حكم على الأقل الذين عرفوه به لا بغيره، وهم أوراق بساتين قدسه
ونسائم نرجس أنسه.

قال ابن عطاء: حق القول على أهل الشقاوة في الأزل، إنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل
آية، والنبي ﷺ يُسْمِعُ خطابه من أسمع الحق في الأزل نداء السعادة، فإذا سمع نداء النبي ﷺ
أجاب لما سبق له من إجابة لنداء الحق.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾
﴿١٨﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾: سدّ ما خلفهم سدّ
قهر الأزل، وسدّ ما بين أيديهم شقاوة الأبد، فينفسه منهم من نفسه لا جرم أنهم في غشاوات
الغيرة ولا يبصرونه أبدًا.

قال ابن عطاء في ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾: وهو طول الأمد، وطمع البقاء، ﴿وَمِنْ
خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾: وهو الغفلة عما سبق منه من الجنايات، وقلة الندم والاستغفار عليه أعماه
تردده في الغفلات عن الاعتذار لما سبق منه من الجنايات.

وقال الأستاذ: أغرقناهم اليوم في بحار الضلالة، وأحطنا بهم سرادقات الجهالة، وفي
الآخرة نغرقهم في النار والأنكال، ويضيق عليهم الحال بالسلاسل والأغلال.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ فَبَشِيرَةٌ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ
كَرِيمٍ﴾ ﴿٢٠﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي
إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢١﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا

(١) رواه البخاري (١٢١٥/٣)، ومسلم (١٨٤/١).

إِلَيْهِمْ أَتَيْنَ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿٦﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿٨﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ قَالُوا طَهِّرْ كُمْ مَعَكُمْ أَهِنَ ذِكْرُهُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١١﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومِ آتِبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢﴾ آتِبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٣﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾: الإنذار لا يؤثر إلا في أصحاب الذكر؛ لأنهم في مشاهدة عظمة المذكور يفزعون منه بأقدار ما شاهدوه من العظمة والكبرياء، فبركة موعظة الصادق تزيد لهم تعظيم الله وإجلاله، وتابع الذكر تابع السنة، ثم تابع الحال والوقت والوجد حتى فني هو في ذكره، وفني ذكره في رؤية مذكوره؛ لأنه شاهد العظمة بنعت الفناء في الحضرة حين غاب عن الخلق بقوله: ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ علم الرحمن في غيب الرحمن، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿ لما جرى عليه من وقفة الحال وكشف المشاهدة الكريمة الأزلية الأبدية.

قال الحسين: أشرف منازل الذاكرين من نسي ذكره في مشاهدة المذكور، وحفظ أوقاته من الرجوع إلى الرؤية والذكر.

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿ أَتُخَذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةٌ إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ ﴿ إِنِّي إِذَا لَيْهِ ضَلَلْتُ مُرِيدٍ ﴾ ﴿ إِنْ ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ ﴾: العبودية ممزوجة بالفطرة، والمعرفة فوق الخليقة والفطرة، وهذا المعنى مستفاد من قول النبي ﷺ حيث قال: « كل مولود يُولد على الفطرة^(١)، ولو كانت المعرفة ممزوجة بالفطرة لما قال: « فأبواه يهودانه أو يُمجسانه أو يُنصرانه^(٢)، بل المعرفة تعلق بكشف جماله وجلاله صرفاً بالبديهة بغير علة ولا اكتساب بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ﴾.

(١) رواه البخاري (٤٦٥/١)، ومسلم (٢٠٤٧/٤).

(٢) تقدم في سابقه.

قال ابن عطاء: الفطرة جعل الأشخاص في قبضة القدرة والأرواح في قبضة العزة.
قال بعضهم: العبد الخالص من عمل على رؤية الفطرة لا غير، وأجل منه من يعمل على رؤية الفاطر.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٦٩﴾ ۖ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى قَوْمِي مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٧٠﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٧١﴾ يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٧٤﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٧٥﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا يَجْرِي الْأَنْهَارُ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٧٦﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ۖ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ : ضاق صدر حبيب النجار -قدس الله روحه- لأجل قومه الذين شاهدوا قتله، وضافت صدورهم لأجله حتى تبرأ لأمر فراقهم، إنه في رؤية الخلق بعد خلاصه من الخلق.

قال حدون القصار: لا يسقطه عن النفس رؤية الخلق بحال، ولو سقط عنها في وقت لسقط في المشهد الأعلى في الحضرة، ألا تراه في وقت دخول الجنة يقول: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾، تحدثه نفسه إذ ذاك برؤية الخلق.

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ : خلق الأصناف من العرش إلى الثرى بغير رؤية ولا تفكر، بل على ما سبق في علمه في الأزل لا على مثال، ولا على أشخاص، وهو منزلة أن يكون له شبيه أو نظير.

قال عبد العزيز المكي: خلق الأزواج كلها ثم قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؛ ليستدل بذلك أن خالق الأشياء منزلة عن الروح مستغني عنه.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٧٩﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٨٠﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ

كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿١٦﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ
وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿١٧﴾ وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٨﴾
وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿١٩﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ
إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ
أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾
مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٢٥﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً
وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٦﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يَنْسِلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا يَنْوِيلُنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ
الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٢٩﴾
فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَلِيلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾: عَرَفَ اللهُ
سبحانه أهل معرفته نفسه بآيات المكاشفات وطلوع شمس المشاهدات والغيبية والاستتار
بعده، حين هم في ضياء المشاهدة ونور المكاشفة، فيقبض منهم أنوار المواجهيد والحالات
قبضاً يسيراً بحيث لا يعرفون ذهابه حتى بقوا في الحجاب، فإذا دحا ليل الفقدان عليهم
وهاموا في أودية الحيرة من طلب شمس المشاهدة فتلك الشمس تجري لمستقر لها تنكشف
شمس الجلال من مشارق الأزال على أوقاتهم بمقادير الإرادة الأزلية، فيكون الوقت سرمدًا
بغير فترة ولا انتقال بقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿٣١﴾، فإذا غابت عنهم شمس
الذات طلع عليهم قمر الصفات في أبراج قلوبهم على منازل المقامات بقوله: ﴿وَالْقَمَرَ
قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ﴾ ﴿٣٢﴾، يبدو لهم في أرائل الأحوال أنوار الصفات، فيزيد لهم وضوحًا

(١) قال حقي: (منازل) وهي ثمان وعشرون مقسومة على الاثني عشر برجاً، ينزل القمر كل ليلة في واحدة
من تلك المنازل لا يتخطاها ولا يتقاصر عنها فإذا كان في آخر منازلها دق واستقوس، ويستتر ليلتين إن
كان الشهر ثلاثين أو ليلة إن كان تسعة وعشرين وقد صام ثمانية أو تسعة رمضان خمس منها كانت
تسعة وعشرين يوماً، والباقي ثلاثين وقد قال: «شهر العيد لا ينقصان» أي حكمهما إذا كانا تسعة
وعشرين مثل حكمهما إذا كانا ثلاثين في الفضل وقد صح أن دور هذه الأمة هو الدور القمري العربي

وكشفًا، فيريهم على سنن الواردات حتى صاروا في مشاهدة بدر كمال الصفات، فإذا كادوا يفنوا في تلك الحالة يغيب عنهم أنوار الصفات حتى يبقى لهم اللمعان والبروق، ويصير البدر لهم هلالًا، فيتراءون هلال جمال الصفات بأبصار قلوبهم في سماء اليقين، وهذا من لطف الله لهم الذي يريهم على قدر الأحوال في مقامات مشاهدة الذات والصفات قبضًا وبسطًا حتى لا يفنوا.

قال الأستاذ: نهار الوجود يدخله على ليالي التوقف، ويقود بيد كرمه عصا من عمى عن سلوك رشده، فيهديه إلى سواء طريقه.

وقال في قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيق الحال ضعيف اليقين مختصر الفهم، فيتفكر حتى تزداد بصيرته ويكمل حاله، ثم يصير كاملاً، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً، وكلما ازداد من الشمس دنواً ازداد في نفسه نقصاناً إلى أن يتلاشى ويخفى ولا يُرى، ثم يبعد عن الشمس، لا يزال يتباعد حتى يعود بدرًا من الذي يصرفه على ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم، فشبّه الشمس عارف أبدًا في ضياء معرفته صاحب تمكين غير متلون يشرق بروج من سعادته دائماً، لا يأخذه كسوف، ولا يستره سحب، وشبه القمر عبد يكون أحواله في التنقل، صاحب تلوين له من البسط ما يرقيه إلى حد الوصال، ثم يردُّ إلى الفترة، ويقع في النقص بما كان به من صفاء الحال، فيتناقص ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يجود عليه الحق سبحانه، فيوفقه لرجوعه عن فرقه وإفاقته عن سكرته، فلا تزال تصفو حاله إلى أن يقرب من الوصال، ويرزق صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص والزوال، كذلك حاله إلى أن يحق له بالمقسوم ارتحاله، فكما قالوا: [إن كنت أدري فعلى بدنه من كثرة التلوين إليّ من أنه]، وفي معناه أنشدوا:

كُلُّ يَوْمٍ تَتَلَوْنَ غَيْرَ هَذَا بَكَ أَجَلُ

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَّكِئُونَ هُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾: إذا دخل أهل الجنة في الجنة وتنعموا بها يكشف الله جماله لهم بالبديهة، فيكونون في شغل من المشاهدة عن نعيم الجنة ناظرين إلى الحق بالحق، ويفرحون بما نالوا من جماله وجلاله.

قال ابن عطاء: شغلهم في الجنة استصلاح أنفسهم لميقات المشاهدة، وهذا من أعظم

الاشتغال.

وقال الجنيد: أحيا أقواماً بالراحة ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، فهم متقلبون في الراحة واللقاء والرضوان والمشاهدة، ثم مَنَّ عليهم زيادة منه، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ﴾: شغلهم حظوظ الأنفس عن هذا المعدن وهذا المشهد. وسئل بعض المشايخ عن قول النبي ﷺ: «أكثر أهل الجنة البُله»^(١) قال: لأنهم في شغل فاكهون، شغلهم النعيم عن المنعم.

وقال الحسين: إن الحق قطع أهل الجنة بتجليه عن الالتذاذ بالجنة؛ لأنه أفناهم بتجليه عنها؛ لثلا تدوم بهم اللذة، فيقع بهم الملك فرجوعهم إلى إياهم بعد تجلي الحق لهم يوفر اللذة عليهم، والحق لا يلتذ به.

﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿٥٥﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥٦﴾.

قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾: سلام الله أزلي الأبد غير منقطع من عباده الصادقين في الدنيا والآخرة، لكن في الجنة يرفع عن آذانهم جميع الحجب، فسمعوا سلامه، ونظروا إلى وجهه كفاحاً.

قال ابن عطاء: السلام جليل الخطر، عظيم المحل، وأجله خطر ما كان في المشاهدة والمكافحة من الحق حين يقول: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾: من استقام عليه فقد ظهر عليه سرُّ الربوبية، وشغله ذلك السرُّ به عن الطاعة والمعصية، قد حضر لي نكتة أن السلام يكون بالقول والكلام من رب رحيم يريهم بمشاهدته ويرحمهم؛ لثلا يحجبهم عن جماله أبداً. قال الأستاذ: الرحمة في تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية في حالة ما سلم عليهم ليكمل لهم النعمة.

﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٥٧﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٥٨﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٥٩﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦١﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾.

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣٦٢/١)، وابن عدي في الكامل (٣١٣/٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: طلب الحق منهم ما خلق في فطرتهم من استعداد قبول طاعته أي: اعبدوني بي لا بكم، فهذا صراط مستقيم حيث لا تنقطع العبودية عن العباد أبداً، ولا يدخل في هذا الصراط اعوجاج ولا اضطراب.

قال النوري: الأنفاس ثلاث: نفس في العبودية، ونفس بالربوبية، ونفس بالرب.

قال الواسطي: من عبد الله لنفسه فإنها يعبد نفسه، ومن عبده من أجله فإنه لم يعرف ربه، ومن عبده بمعنى أن العبودية جوهرية تظهرها الربوبية فقد أصاب.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴿٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾: من عمّره الله وذهب أوقاته بالغفلات، ولا يظهر بالمشاهدات نقص وضعف في ميادين العبودية والربوبية.

قال أبو بكر الوراق: من عمّره الله بالغفلة فإن الأيام والأحوال تؤثر فيه حالاً فحالاً من طفولية، وشباب، وكهولية، وشيبة إلى أن يبلغ ما حكى الله عنه من قوله: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾، ومن أحياء الله بذكره فإن تلوين الأحوال لا يؤثر فيه، فإنه متصل الحياة لحياة الحق، حي به، ويقر بهن، قال الله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾.

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٢٥﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٧﴾ أَوْلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٢٨﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي: من كان عارفاً بالله وبصفاته، عاشقاً بوجهه، مشتاقاً إلى لقائه، والهاً في جماله، ذاهلاً في عظمته وكبريائه، متصفاً بحياته.

قال ابن عطاء: أي من كان في علم الله حياً أحياء الله بالنظر إليه والفهم عنه والسماع منه والسلام عليه.

قال الجنيد: الحي من يكون حياته بحياة خالقه، لا من يكون حياته ببقاء هيكله، ومن يكون بقاءه ببقاء نفسه فإنه ميت في وقت حياته، ومن كان حياته بربه كان حقيقة حياته

وفاته؛ لأنه يصل بذلك إلى رتبة الحياة الأصلية، قال الله: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾.
 ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾: إن في خلق الإنسان ووجوه الحسان من علامات قدرته أكثر مما يكون في الكون؛ لأن الكونين والعالمين في الإنسان معجون وفيه عمله معلوم، ولو عرف نفسه فقد عرف ربه؛ لأن الخليفة مرآة الخليفة تجلت في الخليفة لأهل المعرفة، ورُبَّ قلب ميت يحيا بجماله بعد موت جهالته، وإحياؤه بمعرفته.

قال الواسطي: ضرب الأمثال في القرآن إعلاما لصحة الطرق للموحدين على حدة، وللعالمين على حدة؛ ليعلموا أن قليلا من روائع نفحاته خير من كثير توحيدهم ومعاملاتهم.

وقال في قوله: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: من يحيى القلوب الميتة بالقسوة والإعراض عنه، فيردها إلى التفويض والتسليم والتوكل والإقبال عليه.
 ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾: الفهم فيه أن الأمر بالقول، والقول القديم سبب إيجاد الكون، ولا يكون الكون إلا بإرادة المكون، وإرادته قبل الأمر، فلو كان القول وافق الإرادة لصار الكون قديما، لكن بقوته الأزلية وجلاله الأبدي أراد وجود الأشياء إلا في وقت معين، فالأشياء مطيعة له بإجباره الأزلي عليها وغلبة سلطانه على متون العدم بعزة القدم، لا إرادة لها؛ إذ الأمر كله يتعلق بجبروته.

﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٢﴾﴾.
 قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: منزلة عن النقائص الحديثة، لا شريك له في ملكه، من قدرته بدء الأشياء، وإلى قدرته رجوع الأشياء^(١).

(١) الملكوت هو الملك العظيم على ما يقتضيه الزيادة التركيبية؛ كالعظمت بمعنى: العظمة الزائدة.

والرهوت بمعنى: الرهبة الشديدة، والرحوت بمعنى: الرحمة الغالبة، وعلى هذا المراد بالملك العظيم هنا هو: ملك الروح؛ لأنه أعظم من ملك الجسد؛ لأن الجسد من عالم الصورة، والروح من عالم المعنى، والمعنى أوسع من الصورة، وإن كان كل من الروح والجسد مخلوقين على ما دللت عليه النصوص.

قال الحسين: أبدى الأكوان بقوله ﴿كُنْ﴾ إهانة لها وتصغيراً؛ ليعرف الخلق إهانتها، فلا يركنوا إليها، ويرجعوا إلى مبدئها ومنشئها، فشغل الحق زينة الكون، فتركهم معه، فاختر من خواصه خصوصاً اعتقهم من رق الكون، وأحياهم به، فلم يجعل للعلل عليهم سبيلاً ولا للآثار منهم طريقاً.

سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزَيْنَةِ الْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝﴾ .

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝﴾ : والقلوب المتألفة في مقام المحبة صفت بنعت الإقبال إلى جمال الأزل، وهي قلوب المحيين، وأيضاً صفوف العقول المقدسة صفت في مقام العبودية لمشاهدة الربوبية، وهي عقول العارفين، وأيضاً الأرواح العاشقة صفت في حظائر القدس في مقام الأنس، وهي طيور الله في بساتين الله، وهي أرواح الموحدين، ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ : إلهامات الحق التي تأتي على خواطر أهل الحق^(١)، ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ : الملائكة التي تلم على قلوب الحاضرين في الحضرة بوحى الله، فأقسم الحق بهذه النيرات أنه تعالى واحد لا انقسام في ذاته ولا افتراق في صفاته، لا تكون وحدانيته من حيث العدد ولا ألوهيته من حيث المدد، فأظهر وحدانيته بنعت التجلي والظهور للوحدانيين بقوله: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ، ثم أوضح طرق الدليل إليه بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ : المشارق مطالع قلوب العارفين التي تطلع منها أنوار الحق للأرواح والعقول، ثم بين أنه تعالى زين سماء الظاهر بالكواكب، وزين سماء الأرواح بأنجم المعارف ونور الكواشف بقوله: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزَيْنَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ : من نور معرفة العارفين ينزجر الشياطين المتمردة ولا

(١) أقسم بطوائف الملائكة، الصائين أقدامهم في مراتب العبادات، كل على ما أمر به، فالزاجرات السحاب سوقاً إلى ما أراد الله ، أو: عن المعاصي بإلهام الخير. أو: الشياطين عن التعرض لهم. البحر المديد (٥/

يطبقون إلقاء الخواطر الرديئة.

قال ابن عطاء: زين قلوب أوليائه بكواكب المعرفة، وهي الأنوار الظاهرة.

قال الحسين في قوله ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾: دلهم على الوجدانية؛ ليكونوا وجدانيي الذات؛ ليصلحوا لمعرفة الواحد، فمن لم يتحد بإسقاط كل العلائق عنه لا يصلح لمعرفة الواحد.

وقال أيضًا: الواحد لا يعرفه إلا الأحاد من العباد.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (١) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (٢) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (٣) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (٤) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (٥) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) أَوْ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٧) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٨) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (٩) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٠) وَقَالُوا يَتَوَلَّىٰ هَذَا يَوْمَ الدِّينِ (١١) هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ (١٢) * أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (١٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (١٤) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (١٥) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (١٦) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (١٧) وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (١٨) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (١٩) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ (٢١) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٢٢) فَأَغْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ (٢٣) فَلَيْسَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٢٤) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٢٥) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٢٦) وَيَقُولُونَ أَهْنَا لَتَارِكُوآءِ الْهَيْتَا لِشَاعِرٍ مُجْتَوٍ (٢٧) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٢٨) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٢٩).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: جاء الشيطان إلى قلب العارف فالتقى من بعيد إليه وسوسة كاد أن يختطف حظًا من حظوظ مواجيد العارف، وأن يشوش وقته، فلحقه نور غيرته فأحرقه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

﴿وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٢٦) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٢٧) فَوَإِنَّهُمْ لَمُكَرُمُونَ (٢٨) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٢٩) عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٣٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٣١) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٣٢) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا

يُنْزِفُونَ ﴿١٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطُّرْفِ عَيْنٍ ﴿١٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿١٩﴾
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٢١﴾ يَقُولُ
أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ﴿٢٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأِنَّا لَمَمْدِينُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ هَلْ
أُنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾: الجميع في حيز الجزاء الكفار
يجزون بالعذاب، والمؤمنون يجزون بالثواب، والمخلصون خارجون من علل الفريقين، هم
مختارون بالولاية، مخلصون بالمشاهدة، لهم مقام معلوم في القرية والوصلة بقوله: ﴿أُولَئِكَ
لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿٢٤﴾، رزقهم جمال الحق أبد الأبدين بلا حجاب ولا حساب، والمخلص في
المعرفة الخارج بنور الربوبية عن علل الحدوثية.

وقال أبو بكر بن طاهر: صحة البقاء مع الله إخلاص العبودية لله، وفناء رؤية العبد مع
الله ببقاء حفظه من الله.

وقال الأستاذ: الإخلاص أن تلاحظ محل الاختصاص.

﴿فَاطْلَعَ فَرَّاءُهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٢٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لِتَرْدِينِ ﴿٢٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ
رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٢٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَعْتَبَرِينَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٣١﴾ أَذَلِكَ
خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴿٣٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي
أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٣٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٣٥﴾ فَلَهُمْ لَاكُلُونَ مِنْهَا فَمَالُهُونَ مِنْهَا
الْبُطُونُ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٣٨﴾ إِنَّهُمْ
أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٣٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ بِهَرَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ
الْأُولَىٰ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٤٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٤٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ
مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا بَاقِينَ ﴿٤٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٤٨﴾
سَلَامٌ عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٥٢﴾ • وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَاطْلَعَ فَرَّاءُهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٢٥﴾: من شاهد الحق يكون مطلعاً على
ما دون الحق، واطلاع أهل المعرفة على الغيب من قوة نور جمال الحق في أبصارهم، فيصرون

مغيبات الغيب بنظر الغيب.

قال القاسم: الاطلاع اطلاعان: اطلاع التخصيص فيه الحياة والبقاء، واطلاع التخصيص فيه الفناء والهلاك.

﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَإِيفْكَ ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ .

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٤): جاء ربه بقلبٍ محبٍّ مملوءٍ من شوق الله منقادٍ لأمر الله، ومراد الله قَارٌّ منه إليه، سالمٌ مما دون الله من العرش إلى الثرى، مقدسٌ من شوائب الطبيعة، قيل أي: مستسلم مفوض في كل حال إلى ربه، راجع إليه بسره لا تتخاله الأكوان بما فيها.

سئل الجنيد بَمَ ينال سلامة الصدر؟ قال: بالوقوف على حق اليقين.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَى ءَالِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا آبَتُنَا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقَوَهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨): لما طلب القوم من الخليل ﷺ المطاوعة والعيش النفساني من قلة معرفتهم بحاله فأخرج غرائب معاني العشق والمحبة في صورة العلم التي يكون حجة عليهم وامتناعه من صحبتهم لأنسه بالله، فحكى الحق سبحانه عنه: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾، وهذا إشارة يعني طالع أنجم الصفات التي تطلع من مشارق الذات، أي: شاهد جمال القدم، واستغرق في بحر المحبة، فأخبر عن آلام لدغات حيات المحبة والمودة التي أسقمته بدائه، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (٨٩): سقيم مشاهدة الأزل، ومريض جمال الأبد، ولا أقدر أن أشتغل بسواه، وإني أطلب مداواة سقمي ممن أسقمني.

قد لسعت حية الهوى كبدي بلا طبيب لها ولا راقبي
إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقتي وترياقني

قال ابن عطاء: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ مما أرى من مخالفتكم وعبادتكم الأصنام.

قال بعضهم: إني سقيم القلب؛ لفوت مرادي من خليلي؛ فإن الحبيب أبداً سقيم القلب

في القرب والبعد.

وأنشد:

وما في الدهر أشقى من محبٍ وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل حين مخافة فرقة أو اشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم ويبكي إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التباي وتسخن عينه عند التلاقي

وقيل: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ شائق إلى لقاء الحبيب^(١).

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾: لما حصر صدره من معاينة الحدثان، وضاق قلبه في محل الامتحان، واشتاق سره إلى مشاهدة الرحمن، قال إني ذاهب مني إلى ربي، أي: إني أخرج من الحدثان إلى عالم العرفان، أسير في بيداء الأزل إلى الأبد، سيهديني ربي طرق الذات والصفات؛ فأكون فانياً فيه باقياً به معه.

قال الخراز: لما فني الموجود وانقطع القدرة ثبت المشهود بلا شاهد قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، بالرجوع عما سواه، فلا ذاهب في الحقيقة إليه إلا من أعرض عن الأكوان وما فيها، فمن بقي فيه ذرة من الكونين يكون ذهابه لعله.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبُنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْنُحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبُنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْنُحُكَ﴾: لما استوى الولد خلة أبيه وكل حقائقه صار أهلاً لقربان الحق، وفداء كشف جماله، وذلك أيضاً محل امتحان الخليل به؛ فإنه لما وجده أهل الحق استأنس به، فغار به الحق، وأراد أن يتجرد سره من الغير حتى لا يبقى بين الخليلين شيء من الحدثان.

قال ابن عطاء: لما سعى في الطاعة سعيه وقام بحقوق الله حسب ما رضي به الخليل وقرت عينه بقيامه بحقوق مولاه أنس الخليل به، وفرح بمكانه، فقليل له اذبحه فإنه لا يصلح

(١) فأوهم أن مراده أنه مريض الجسد وأراد أنه مريض القلب اسبب آهتهم، مقسم الفكر في أمرهم لأنه يريد أمراً عظيماً وهو كسرهما، ومادة «سقم» بتقاليها الخمسة.

للخليل أن يفرح إلى شيء دون خليله، ولا يُفرح بسواه، فابتلي بذبحه، ثم لما سلّم وقام مقام الاستقامة وأتبع الأمر فداه بذبح عظيم.

قال الواسطي: نقل الله إبراهيم من حال البشرية إلى غيرها، وهو أنه لما امتحنه بذبح ابنه أراد أن يزيل عن سره محبة غيره، ويثبت في قلبه محبته؛ لأن وجود محبة الله في قلب إبراهيم مع رحمة الولد محال، فنظر إلى أقرب الأشياء إلى قلبه، ووجد ابنه أقرب، فأمر بذبحه، وليس المبتغى منه تحصيل الذبح، إنما هو إخلاء السر منه، وترك عادة الطبيعة، وحيثُ نودي: ﴿وَقَدَّيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: قد حصلت ما طالبناك به وافيًا، وحصل لنا منك ما أردناه، ولما وجد الذبح رؤية المبلى في البلاء ومشاهدته ولذة وصاله وجد نفسه في موقع البلاء على محل حلاوة شهود جمال الحق إياه مستلذة ببلائه حين شاهده بوصف الاستئناس به بنعت سقوط الآلام عنها، فسلمها إلى مولاها بوصف الرضا والتسليم، وأخبر عن كمال استقامة حاله في الصبر والرضا، وذلك قوله: ﴿يَتَأَبَّى أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ﴾، صفا حاله في سكر وصال الحق، فاجترأ على استقبال البلاء، وأسقط التجلد عن صفة وجوده، استعان بالله في الصبر في بلائه حيث استثنى بقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

قال أبو سعيد الخراز: أسرع الإجابة بقوله: ﴿أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ﴾؛ لأنه قد أخلاهما من علم ما يراد بهما؛ كيلا يعرجا على رؤية السلامة، فيزول معنى البلاء، ومن يقع موضع الخصوص لا يتقرب بالصبر على حقيقة موجودة.

قال رويم: ﴿أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ﴾، يقبح الخليل مخالفة خليله أو التقصير في أمره، وهلاك الولد وذهابه أهون من مخالفة من اتخذك خليلاً.

وقال بعضهم: ﴿أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ﴾، فإني قد شاهدت من قلبي رشدي وجوارحي كلها راضية بما أمرت به.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (١٢) وَتَدَيَّنَهُ أَنْ يَتْلِبَ إِبْرَاهِيمُ (١١) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَّاكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: لما استوى سرهما في كمال التسليم صرعه في مذبح العشاق الذين قُتلوا بسيوف المحبة حتى استوفيا حظوظ العبودية في دعواهما من شهود أنوار الربوبية.

قال جعفر: أخرج إبراهيم من قلبه محبة ابنه إسماعيل، وأخرج إسماعيل من قلبه محبة الحياة.

﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾: أخبر سبحانه أن هذا بلاء ظاهر أي: هذا بلاء في الظاهر، ولكن لا يكون في الباطن بلاء؛ لأنه في الحقيقة بلوغ منازل المشاهدات، وشهود لأسرار حقائق المكاشفات، وهذه من عظام القربات، وأصل البلاء ما يحجبك عن مشاهدة الحق لحظة، ولم يقع هذا البلاء بين الله وبين قلوب المصطادين بشبكات حبة القدم قط؛ فإن قلوبهم تحت غواشي أنوار سبحات وجهه فانية، وكيف يقع عليها البلاء وهي تفتى في جمال الحق؟! إن كنت تريد بلاءهم فإنه تعالى بلاؤهم، وذلك البلاء لا ينقطع عنهم أبداً، ويمنع هذا البلاء جميع البلاء عنهم.

قال الجريري: البلاء على ثلاثة أوجه: على المخالفين نقم وعقوبات، وعلى السابقين تمحيص وكفارات، وعلى الأولياء والصديقين نوع من الإخبات.

قال الحسين: البلاء من الله، والعافية من الله، والأمر عز الله، والنهي إذلاله.

﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾: سمي الحق الذبح عظيماً، وفي ذلك إشارة لطيفة، وهو أن العاشق الصادق أراد كل وقت أن يذبح نفسه لمعشوقه، وإذا كان المعشوق صادقاً في عشق عاشقه يمنعه عن ذبح نفسه عنده، بل يذبح نفسه لعاشقه، فلما قدس ساحة جلال الكبرياء عن علة الحدثان فداه له مكان نفسه الذبح؛ إعلالاً لكمال محبته له، ولذلك سماه عظيماً؛ لأنه صدر من العظيم لعظيم محبته وعشقه لمعاشقه وأخلائه وأحبائه.

قال بعضهم: عظيم محلها عند الله؛ لأنه قتل عليها نبي ابن نبي، وأحيا عليها نبي ابن نبي، كذلك ذكر في التفسير أنها كانت الشاة التي تقبل من أحد ابني آدم فرتع في الجنة إلى زمان إبراهيم، ففدى به ابنه إسماعيل.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَشَرَّتْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٢٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٢٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿٢٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿٢٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٣١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٤﴾
 أَتَذْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿٣٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾
 فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿٣٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي
 الْآخِرِينَ ﴿٣٩﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٤٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤١﴾ إِنَّهُ مِنْ
 عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٤٤﴾
 إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّا لَنَعْمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصَبِحِينَ ﴿٤٧﴾
 وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ
 الْمَشْحُونِ ﴿٥٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: أخبر سبحانه عن سر ما ذكرت أي: كما
 جزينا إحسانك ببذل وجودك وقتل ابنك وذبحه لكشف مشاهدتنا لكما، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾:
 نفدي مشاهدتنا لكل قتيل محبتي بسيف شوقي إلى جمالي.

قال الكتابي: بين العبد وبين الله ألف مقام من نور وظلمة، وإنما كان اجتهادهم في قطع
 الظلمة حتى وصلوا إلى النور، فلم يكن لهم رجوع، وذلك جزاء المحسنين.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْخَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ ﴿٥٣﴾ لَلَبِثَ فِي
 بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَأُنْبِتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ
 يَقْطِينٍ ﴿٥٧﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿٥٨﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٥٩﴾
 فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبِّيُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿٦٠﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَكَةَ إِنْسًا وَهُمْ
 شَاهِدُونَ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ يَقُولُونَ ﴿٦٢﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٦٣﴾
 أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿٦٤﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٦٥﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾ أَمْ لَكُمْ
 سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٧﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٨﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ
 نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿٦٩﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٧٠﴾ إِلَّا عِبَادَ
 اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧١﴾ فَإِنَّا نَكُفِّرُ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٢﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ
 الْجَحِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾^(١): كان يونس عليه السلام من أهل التوحيد والمعرفة والعشق، وكان يسبح في بحار الألوهية والربوبية، ويجد منها جواهر الأزليات والأبديات ولآلى أسرار المعارف والكواشف، فبلغ قعر عين الأولية والآخرية، وصار متلاشياً في لجج بحار الذات، وخارجاً بنعوت الاتحاد من لجج الصفات، وكاد يدّعي ما يدّعي أهل السكر في الأنانية، فالتقمه حوت نهر غيرة الإلهية، وهو ملام حيث ما انسلخ من أوصاف الحدوثية، وكاد يبقى في بطن حوت القهر، فأغاثه عرفان بقاء الحق بعد عرفانه بفنائه فيه، ونجّاه من طوفان قهر الأزل، ولم يبق في الحيرة والغيرة بقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾^(٢) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ^(٣) أي: فلولا كان من العارفين بقدوم الأزل وتنزيه الأبد للبت في حجاب الغيرة، وفيه حقيقة شطح العارفين أنه كان عليه السلام في حجال الخلوة في بطن الحوت، وهي كانت له معاريج مشاهدة القدم أي: لولا أنه كان من الأنبياء والتمكّنين من أهل القدوة والأسوة لبقى في مشاهدة القدم إلى يوم البعث، إلى محشر مساقط تجلي الجلال والجمال التي قال سبحانه: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، ولكن كان رحمة البلاد والعباد؛ ليعرفهم منازل الأبرار والأتقياء ومقام العبودية والربوبية.

وقال سهل: من المسبحين من القائمين بحقوق الله قبل البلاء.

قال ابن عطاء: من العارفين بنا المتعرّفين إلينا قبل وقوع ما وقع.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾: أهل البدايات في مقام الطاعات والأوساط في المقامات، مثل التوكل والرضا والتسليم، والمحبون في مقام الحالات والمواجيد، وأهل المعرفة في مقام المعارف ينقلون في المشاهدة من مقام إلى مقام، ولا يبقى المقام للموحددين؛ فإنهم مستغرقون في بحار الذات والصفات، وليس لهم مقام معلوم؛ لأن هناك لم يكن لهم وقوف؛ حيث أفناهم قهر الجلال والجمال والعظمة والكبرياء عن كل ما وجدوا من الحق، فبقوا في الفناء إلى الأبد.

قال ابن عطاء: لك مقام المشاهدة، ولهم مقام الخدمة.

(١) قال في كشف الأسرار: فصادفه حوت جاء من قبل اليمن فابتلعه، فسفل به إلى قرار الأرضين حتى سمع تسبيح الحصى (وهو ملِيم) حال من مفعول التقمه أي داخل في الملامة ومعنى دخوله في الملامة كونه يلام سواء لاموه أم لا يقال ألام الرجل إذا أتى أو أتى بما يلام عليه فيكون المليم بمعنى من يستحق اللوم سواء لاموه أم لا يقال ألام الرجل إذا أتى بما يلام عليه أو يلوم نفسه.

وقال جعفر: الخلق مع الله على مقامات شتى، من تجاوز حده هلك، فللأنبياء مقام المشاهدة، وللرسل مقام العيان، وللملائكة مقام الهيبة، وللمؤمنين مقام الدنو والخدمة، وللعصاة مقام التوبة، وللكفار مقام الطرد والغفلة واللعنة.

قال الحسين: المريدون في المقامات يجولون من مقام، والمرادون جازوا المقامات إلى رب المقامات.

وقال الجنيد: المقامات معلومة كما ذكره الله تعالى، وأرباب الحقائق بأنفسهم من المعلومات والمرسومات، لأنهم في قبضة الحق وأمره.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٧٨﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٧٩﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٠﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٨١﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ : لما كانوا من أهل المقامات المعلومات افتخروا بمقاماتهم في العبودية من الصلاة والتسبيح، ولو كانوا من أهل الحقائق في المعرفة لفنوا عن ملاحظة طاعتهم من استيلاء أنوار مشاهدة الحق والاستغراق في بحار من الألوهية.

قال بعضهم: لذلك قطعت بهم مقاماتهم عن ملاحظة المنة حتى قالوا بالتفخيم: إنا نحن وإنا نحن، فلما أظهروا وسرائرهم عارضوا إظهار أفعال الربوبية بالمعارضة حتى قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٨﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٩﴾ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٨٠﴾ أَفَبِعَدَايْنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٨١﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٨٢﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٨٣﴾ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٨٤﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٥﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٦﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ : سبقت لهم كلمة الحسنی باصطفائية الله في الأزل بالولاية والنبوة والرسالة بغير علة الاكتساب ونقائص الحدوثية، أخبر عن محض منته الأزلية عليهم، ونفى عنهم الانقطاع عنه من جهة تغاير الامتحان أنهم مؤيدون بوصف الظفر بالبقية على مرادهم بكل ما أرادوا له، أنزل عليهم جنود أنوار تجلي ظهور جلاله في قلوبهم، تقدست سرائرهم عن كل غالب من الشهوات وعلل النفسيات.

قال سهل: جنوده ترد على الأسرار، وترد على الظواهر، وجنده في السرائر صحة عقد الإيمان في القلب وشرحه به، وما يتولد فيه من صحة إيمانه والتوكل وما يريد فيه بتوكله ومحبة الله تعالى، فإذا نزلت المحبة في القلب وسكنت فيه طهرها من كل ما سواه؛ فإن المحبة لا يسكن معها ما يضادها، وجنوده في الظواهر هو أن يوفقه بالقيام إلى العبادات والأوامر على حدود السنن والتبرؤ من الحول والقوة لما يتقن من حسن قيام الله لعبده بالكفاية في كل أسبابه، ثم أنه سبحانه لما وصف صنائع لطفه بأنبيائه وأوليائه نزه نفسه أن يلحق به وبتنزيه جلاله علل كل حادث ووصف كل واصف وحمد كل حامد؛ حيث قام حمده وتنزيهه مقام أداء حقوق ربوبيته على أهل العبودية بقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨)، ضاق صدر سيد المرسلين عن مقالة أهل الزور والبهتان من الكفرة في حق جلاله، فوأسى الله قلبه بقوله: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ﴾ شرفه مخاطبة المواجهة وإضافة تربيته إليه، ثم وصف نفسه بالعزة المنية من كل إشارة إليه، ثم أظهر منته على أهل عرفانه من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين بسلامه عليهم بقوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٩)، وحمد نفسه بما وهب لهم من سننات القربة وحقائق المشاهدة والمكاشفة بقوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٠)؛ حيث لا يقوم حمد الحامدين مقام حمده له.

سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) بَلِ كَرَّمْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَرَّمْنَا أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحْنِ مَنَاصٍ (٣) وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَجَرٌ كَذَابٌ (٤) أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ إِلَهِتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا آخِثَلِقُ (٧) .

﴿ص﴾ : هذا الحرف من كنوز إشارات الحق إلى حبيبه عليه الصلاة والسلام؛ حيث صادف بنعت الوصال الذي يفنى عنه بصولة صدمات الأزلية عند كشوف قهر القدم صفات الحديث، حتى صار صدق جواهر أسرار الربوبية في بحار الذات والصفات، واصطاده الحق بزمام محبته من صحاري البريات، وصفاء بصفاء عن كدورات الكون، فكان صفواً من بحر النبوة، صاحباً في مشاهدة البقاء بنعت صدق العشق في رؤية أنوار الكبرياء، ما صدق عن

مشاهدة جمال الحق إلى الأكوان حين عارضه صواعق الامتحان، فخرج منها بوصف الصدق في المحبة، وصفو الصحو في المعرفة، حين أسكر الحق صفوة أرواح الصادقين بشربات بحر وصله ووصفه، أخبر بحرف صاد من صفاوة قلوب العارفين، وصدق حقائق محبة المحبين، وتلهب نيران صدور العاشقين، وصباية أسرار الواهين، وصفوف أهل الاستقامة في مقام مشاهدة القدم، حين وازنوا بنعت الفناء جلال البقاء، وإشارة التوحيد فيه أنه كان بجلاله وعظمته في قدم القدم، وأزل الأزل بحار الصمدية صافية عن غبار الحدثان، فأشار به عنه، وبأن كل مصدر كل الكل، صدر منه الوجود؛ إذ كان وجوده منزهاً عن الاجتماع والاقتران والعلل والانقسام أي: أظهرت لك يا صادق ما كان وما سيكون، وجعلتك بصيراً بيسري؛ حتى تطلع على غيبوبة جلال وصالي، فكنت مصوراً بصورة روح الأول التي صدرت مني بيعتي.

ثم قال: شطح من مقام السكر رمز حقيقة الاتحاد سيد أهل الصحو ﷺ بقوله: «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ»^(١)،^(٢) ثم أراد أن يبين للعالمين بحرف الصاد وصف الربوبية، وحقيقة محبة حبيبه ومنازله الرفيعة في مقام وصاله، فأقسم بصفاته التي هي مفاتيح كنوز ذاته التي أخبر عنها بحرف الصاد، فقال: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ أي: أنت بالوصف الذي وصفتك بحق صفاتي ﴿وَالْقُرْآنِ﴾، ثم وصف القرآن بأنه تجلى به من نفسه فيه لقلوب العارفين، فيورث منه أسرارهم أنوار ذكره؛ إذ هو ذكر القدم بذكر جميع الصفات، والذات فؤاد المقربين وأرواح الشائقين، وهذا قوله: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ يتذكر به العقول الراسخة معتبرات لطائف حقائق الربوبية التي برقت أنوارها في صنائع ملكه، وملكوته ومقدورات قدرته، ويدرك بنور قلوب الصادقين أنوار مشاهدته حين خاطبهم به أي: بك وبالقرآن إن المحجوبين عن هذه الشواهد في عزة وظلمة عن معرفتك، وفي خلاف عن إدراك شرفك وفضلك وفضل أمتك بقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، لا يخرجون من مضيق غفلتهم إلى فضاء المعرفة؛ لأنهم طردوا بسوط قهر الأزل عن جناب القدم، ما وهب لهم استعداد قبول نور المعرفة، فبقوا إلى الأبد في شر النفاق وظلمة الشقاق.

قال ابن عطاء: في معنى الصاد قسم صفاء قلوب العارفين، وما أودعت فيها من

(١) رواه البخاري (٢٥٦٨/٦)، ومسلم (١٧٧٦/٤).

(٢) أي: رأى الله على قول بعض أهل الإشارات حيث جعل رؤية العبد له ﷺ يقظة أو مناماً رؤية للحق سبحانه.

لطائف الحكمة، وشريف الذكر ونور المعرفة.

قال الأستاذ: صاد مفتاح اسمه الصادق، والصبور، والصمد، والصانع أقسم بهذه الأسماء ﴿وَالْقُرْءَانُ﴾.

وقال ابن عباس: صاد كان بحرًا بمكة، وكان عليه عرش الرحمن؛ إذ لا ليل ولا نهار. وقيل في صاد: أن معناه صاد يحمل قلوب الخلق وأسمائها حتى آمنوا به.

وقال بعض المشايخ في قوله: ﴿وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي: ذي البيان الشافي والاعتبار، والموعظة البليغة وقال الجنيد: ذي الموعظة البليغة، والنور الشافي وقيل: ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي: في غفلة وإعراض عما يراد بهم، وذلك منهم قريب قوله: ﴿أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، وصف الله سبحانه ضعف قلوب الكافرين عن حمل وارد أنوار ربوبيته حين هجمها صولات العظمة، فانهزموا عن سطوات عزته، ورجوعهم إلى المحدثات أي: اصبروا على مشاهدة أمثالكم؛ حتى لا تجذب قلوبكم أنوار سلطانه المحيطة لوجودكم جميعاً؛ كيلا تحترقوا فيها، وأيضاً اصبروا على ألهتكم حين دفعكم عن شهودها قهر جبروت الأزل التي تصدر من كل ذرة من العرش إلى الثرى، فإن الصبر مع الحدث ممكن ومع القدم لا يمكن، وهذا دأب ضعفاء المريدين في مشاهدة جلال الحق يفرون منه من عظم سطوات قدوسيته إلى مقامات العبودية، وهذا من غلبة شفقتهم على نفوسهم؛ حتى لا يفنوا في أنوار الكبرياء، ويشغلون منه بالوسائط مثل رؤية المستحسّنات من الكونين، وهذا علة طارئة على الجمهور من السالكين.

قال بعضهم: هذا توبيخ لمن ترك الصبر من المؤمنين على دينهم.

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾
﴿أَمْرٌ عِنْدَ مَرْحَزَيْنِ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾
﴿أَمْرٌ لَهُم مَّلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾
﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾
﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾
﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾
﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾
﴿وَمَا يَنْظُرُ هَتُولَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾
﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾: كانوا منظمسة العيون عما ألبسه الحق من أنوار ربوبيته وسنا جلاله وجماله، لم يروه إلا بالصورة الإنسانية التي هي ميراث آدم من ظاهر الخلقة، فهذا كقوله: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، وهم لا ينظرون،

استبعدوا اصطفاية حبيبه بالوحي، ولم يعرفوه بأنه أثر الله في العالم، ومشكاة تجليه حتى قالوا مثل ما قالوا: ﴿عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ رأوه ونفوسهم خالية عن مشاهدة الغيوب، وإدراك نور صفات الحق، فقاسوا نفس محمد ﷺ بأنفسهم، ولم يعلموا أنه كان نفس النفوس، وروح الأرواح وأصل الخليقة، وباكورة من بساتين الربوبية، يا ليت لهم لو رأوه في مشاهد الملكوت، ومناصب الجبروت أن خاطبه الحق بـ (لولاك لما خلقت الأفلاك).

قال بعضهم: في قوله: ﴿عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ لما أكرمناهم به من أشرف الرسل، فلم يعرفوا حقه، ولم يشاهدوا ما خصوا به من فنون المباركات والكرامات.

﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

قوله تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾: كان خاطر النبي ﷺ أرق من ماء السماء بل اللطف من نور العرش والكرسي من كثرة ما ورد عليه نور الحق، فكان ملطفاً بنور نوره، س مرفقاً بلذائذ محبته وشوقه، لا يحتمل زحمة مقالة المنكرين، وهذا من كمال جلاله في المعرفة، لا أنه لم يكن صابراً في مقام العبودية، بل كان جليس الحق وأهل ملكوته، وسرادق مجده كيف يسمع سخرية المستهزئين على دينه وشريعته! فمع ذلك أمره الحق بالصبر على ما قالوا، وأعلمه بأن ذلك امتحان من ولاية القهر، والواجب على العاشق الصادق أن يستقيم في مشاهدة القهر كما يستقيم في مشاهدة اللطف، وأصل الصبر التلبس بنعت صبر الأزل حتى يمكن احتمال أثقال امتحانه به، وإلا كيف يحمل الحدث وارد القدم وأمره له بالاتصاف به! ومع ذلك ذكره شأن داود عليه الصلاة والسلام في صبره على ما قالوا فيه حين عشق بعروس من عرائسه حين تجلى الحق منها له، فإنه كان عاشق الحق، وكان في مبادئ عشقه، فسلاه بواسطة من وسائطه حتى لا يفنى فيه به، ثم زاد في وصفه حين قوى في المحبة بالقوة الملكوتية بقوله: ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾: واهب نفسه له حامل أثقال قهره به راجع من الوسيلة إلى الأصل بقوله: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾: رجع إلى الحق بنعت الندم على ما سلف من أيامه في الفترة من عين القدم بغيره من أهل العدم، وإن كان طريقاً منه إليه، أي: كن يا محمد كداود في بلائي، فأنا بلاء الأنبياء والمرسلين والعرفاء والصديقين.

وقال شاه الكرمانى: الصبر ثلاثة أشياء: ترك الشكوى، وصدق الرضا، وقبول القضاء بحلاوة القلب.

وقال بعضهم: هو الفناء في البلاء بلا ظهور اشتكاء.

قال بعضهم: ﴿ذَا الْآتِدِ﴾ ذا الصبر في أمر دينه^(١).

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۖ وَالطُّيُورُ مَحْشُورَةٌ كُلُّ لَهُزَةٍ أَوَّابٌ ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾: هذا التسخير وقوع نور الفعل معها، ومباشرة أنوار الصفات فيها بواسطة الفعل، فيظهر روح الفعل فيها، فتقبل فيض الصفة من الصفة، فصارت خاضعة متخشعة في نور عظمته تعالى، فلما وصل إليها ألحان داود من حيث روحه العاشقة ترنمت بألحان العشق من أغصان ورد الجمال والجلال، فتحركت من لذة سماع صوت داود وتسييحه وتنزيهه، فوافقت داود في الذكر والتسبيح، وكذلك الطيور إذا سمعت أصوات الوصلة منه صفرت بصفير التنزيه وتقديس من وجدان حلاوة وجد داود وإدراك روح الملكوت؛ لأنهن مقدسات خلقتن مستعدات لقبول أنوار فعل الخاص وأشكال الروحانيات، وفيهن خويصات لهن عشق ومعرفة كالهدهد والبلبل والعندليب والقمرى والحمامة ومالك الحزين، وكان يعرف أصواتهن وتسييجهن من حيث المحبة والعشق، ألا ترى كيف أنشد:

رُبَّ ورقاء هتوف بالضحي	ذات شجوى صرخت في فتن
فبكائي رباً أرقتها	وبكاءها رباً أرقتني
هي أن تشكو فما تشكو فما أفهم	وإذا أشكو فما تفهمني
غير أنني بالجوى أعرفها	وهي أيضاً بالجوى تعرفني

وخاصية العشي والإشراق أن فيهما زيادة ظهور أنوار قدرته القديمة وآثار بركة عظمته العظيمة، وأن وقت الضحي وقت صحو أهل السكر من خمار شهود المقامات المحموده، وأن العشي وقت إقبال المقبلين إلى مشاهد المناجاة وإدراك أنوار المشاهدات واستماع طيب الخطابات.

قال محمد بن علي الترمذي: لما أخلص هو في تسييحه لربه جعل الله الجهاد يوافقه في تسييحه ويعينه على عبادته.

قال ابن عباس: كان يفهم تسبيح الحجر والشجر بالعشي والإشراق.

وقال الأستاذ: كان يفهم تسبيح الجبال على وجه تخصيصه به؛ كرامة له ومعجزة،

(١) أي القوى العظيمة في تخلص نفسه من علائق الأجسام، فكانت قوته في ذلك سبباً لعروجه إلى المراتب العظام. نظم الدرر (٧/١٧٨).

وكذلك الطير كانت تجتمع إليه، فتسبح لله، وداود كان يعرف تسييح الطير، وكل من تحقق بحاله ساعده كل شيء.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢١﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضِيمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢٢﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ ملكه: معرفته بالله وما وصل إليه من الله من النبوة والولاية والمحبة أي: قويناه بتأييدنا في مقام المشاهدة حتى احتمل بنا حمل واردات سطوات عظمتنا، والحكمة ههنا الفهم على مواقع معاني إلهام الخاص ولطائف الوحي والمعرفة على بطون حقائق فعل الحق والعلم بأحكام العبودية وآثار الربوبية، ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢١﴾﴾ فصاحة اللسان وشرح هذه المقامات به بأحسن البيان حيث لا اعوجاج فيه ولا لكنة فيه، أدى به مراد الخطاب على وفق مراد الله وأيضاً: شددنا ملكه أي: ملكته على نفسه بالعدل والإنصاف ومعرفته بها وشرح دقائق أفعالها.

قال بعضهم: شددنا ملكه بالعدل.

وقال سهل: آتيناه الحكمة أي: أعطيناه علماً بنفسه، وأهمناه مراعاة أمته ونصيحتهم.

قال ابن عطاء: العلم والفهم.

قال أيضاً: العلم بنا والفهم عنا.

قال جعفر: صدق القول، وصحة العقل، والثبات في الأمور.

وقال ابن طاهر: مخالطة الأبرار ومجانبة الأشرار.

وقال بعضهم: شددنا ملكه بالعصمة فيه وقلة الاعتماد عليه.

وقيل: آتيناه الحكمة النطق بالصدق وقول الحق.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۖ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٥﴾﴾ فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّقَابِرٍ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ هذه القصة

تسلياً لقلب نبينا محمد ﷺ؛ حيث أوقع الله في قلبه محبة زينب، فضاق صدره، فقال سبحانه: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧]، ففرح بذلك، وزاد له محبة الله والشوق إلى لقائه، فافهم أيها الممتحن بالمحبة؛ إن الله سبحانه خلق قلوب عشاق الأنبياء والأولياء من آثار تجلي جماله وجلاله ومحبه وشوقه وعشقه وبهائه ولطفه، وأوقعها في بحار نور نوره، وغسلها بمياه التنزيه والتقديس، ثم كاشف بها عين الألوهية حتى غرقت فيها وانهمت من سطوات أنوار كبرياء قدمه إلى أكناف أنوار فعله، فعلم الحق ضعفها عن حمل وارد شهود جلال كبريائه، فتلطف عليها، وأراها في أنوار أفعاله وآياته جمال ذاته وصفاته حتى سكنت بها وبقيت بعد فنائها فيه، فمنها واقعة آدم بحواء والحنطة، وإبراهيم بالشمس والقمر والكواكب وحسن سارة، وموسى بالجبل والشجرة، ويوسف بزيخا، ويعقوب بيوسف، وداود بامرأة أوريا، وسليمان ببلقيس، ومحمد ﷺ بزينب، والمراد من ذلك أن جذبهم بنور حسن فعله إلى مشاهدة جمال قدمه، فربّاهم بمقام التباس في العشق في أول المعرفة حتى وصلوا إليه بوسائط حسن فعله بعد أن تجلّى بنفسه منه لهم، فيا محب انظر إلى مقام الاتحاد؛ فإن الكل هو لا غير في البين، ألا ترى كيف خاطب موسى من الشجرة وتجلّى له منها مرة، ثم تجلّى له من الجبل مرة، ثم تجلّى له من العصا مرة بنعت العظمة حيث صارت حية؟^(١) وتلك بروز أنوار قهر عظمته، رأى داود ذلك بصورة الطير في الخلوة، ومن في البين إبليس كان تلبساً من حيث الالتباس، ثم رأى ذلك في صورة امرأة حسناء، وأين الصور والعلل، بل هناك حيل ومكر وقع نظره على جمال الأزل، فظن أن ذلك حاصل له، فلما وصل إليها غاب ذلك عنه، فعلم أنه ممتحن، فرجع من الفعل إلى الفاعل بنعت الخجل والحياء، ومن مقام التفرقة إلى مقام الجمع، ومن مقام الالتباس إلى مقام التوحيد، قال سبحانه في وصف حاله في قصة دخول ملكين إليه بقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّهٗ فَأَسْتَغْفِرُ﴾. استغفر من مقام الالتباس، كما استغفر موسى حيث قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وكما استغفر آدم بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا﴾ [الأعراف: ٢٣٠]، وكقول إبراهيم: ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، وكما من على صفي المملكة وعندليب ورد بساتين المشاهدة محمد ﷺ بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، ثم تضرع بنعت الفناء في البكاء في مقام الإنابة، وفرّ منه إليه بعد أن احتجب منه به^(٢).

(١) هذا يدل على أنه كلما كانت معرفة الله أتم، كان الخوف منه أعظم، وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الإجلال والكبرياء.

قال أبو عثمان: أيقن داود بأوائل البلاء فالتجأ إلى التضرع.

قال أبو سعيد الخراز: زلات الأنبياء في الظاهر زلات وفي الحقيقة كرامات وزلّفى، ألا ترى إلى قصة داود حين أحس بأوائل أمره كيف استغفر وتضرع؟ فأخبر الله عنه بما ناله في حال ظنه من الزلّفى.

وقال: ظن داود أنها فتناه فتضرع ورجع، فكان له بذلك عندنا لزلّفى وحسن مآب. صدق الشيخ أبو سعيد الخراز فيما قال أن بلاء الأنبياء والأولياء لا ينقص اصطفايتهم بل يزيد شرفهم على شرفهم بقوله سبحانه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ زلته كانت التفاته من الذات إلى الصفة ومن الصفة إلى الفعل، فإذا رجع إلى أوائل الحقائق في التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث ستر مقام البلاء عنه بعد ذلك، حتى لم يطق الرجوع من النهاية إلى البداية، ومعنى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ﴾، زاد زلفته حيث أوقعه في بحار الديمومية والأزلية والأبدية، وفي كل لحظة كان له استغراق، وحسن المآب له بأن آواه الحق إليه منه، ووقاه من قهره، حتى كان لا يجري عليه بعد ذلك أحكام الامتحان.

﴿يَٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ لما خرج من امتحان الحق وبلاياه كسائه خلعة الربوبية وألبسه لباس العزة والسلطنة، كأدم خرج من البلاء وحبس في الأرض على بساط ملك الخلافة، وذلك بعد كونها متخلفين بخلق الرحمن مصورين، بصورة الروح الأعظم، فإذا تمكن داود في العشق والمحبة والنبوة والرسالة والتخلق صار أمره أمر الحق ونهيه نهي الحق، بل هو الحق، ظهر من لباس الملك والملكوت، كقول سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه حيث قال: «جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير واستعلى من جبال فاران»^(١)، ثم لما وضع الحق معجون سر قهر الأزل في الطبع الإنساني وهو محل الاستدراج الذي يجري عليه أحكام مكر القدم دقق عليه الأمر، وحذّره أن يرى نفسه في البين في إجراء الحكم بين الخليقة،

(١) ذكره القرطبي في التفسير (١٣/١٥٩)، وياقوت الحموي في معجم البلدان (٤/٢٢٥).

فقال: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أي: فاحكم بحكمي حين عايتني فيك، واخرج منك، ولا تتبع الهوى بأن تنظر إليك، فيضلك ذلك عن رؤيتي وحكم الاتحاد فينطمس عليك سبيل الصواب في ظهور لطائف حكمتي وحقائق أمور ربوبيتي، فمن احتجب به مني فهو محجوب به عني، لا يسلك بعد ذلك طرق الحقائق، فيقع في أليم عذاب الحجاب، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

قال ابن عطاء: جعلتك خليفة في الأرض لتحكم في عبادي بحكمي، ولا تتبع هواك فيهم ورائك، وتحكم لهم كحكمك لنفسك، بل تضيق على نفسك وتوسع عليهم.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ٢٨ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ٢٩ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ٣٠ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّفِيفَتُ الْجَبَّادُ ٣١ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَمْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ٣٢.

قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾: المتقين الذين وقعوا في رؤية أنوار عظمتهم وكبريائهم التي تبرز من مرآتي الأكوان ومقدوراتهم، فتنزها عن كل ما سواه في رؤية جلاله وإجلاله أي: ليس هؤلاء كالذين بقوا في حجاب النفوس، لا يخرجون من غشاوات الهوى، ولا يرون أنوار الهدى.

قال ابن عطاء: أم نجعل المقبلين علينا كالمعرضين عنا.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾: ذكر النزول في الكتاب شرط رسوم الأمر، وفي البرهان ظهور نور الصفة له بحكم التجلي، وفي الحقيقة لا افتراق في صفاته عن عينية الذات، هو منزلة عن التغاير، ألا ترى إلى قوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي: منزلة عن التفرق بل هو ثابت في أصل الأصول، ﴿مُبَارَكٌ﴾ عليك وعلى أمتك الذين يفهمون حقائقه حيث وقعوا في بحار التدبر والتفكير فيه، هو مرآة الصفة أعطاها عباده؛ لينظروا فيها بعيون الأهلية له؛ حتى يبصروا فيها حقائق الأنوار، ويدركوا منها دقائق الأسرار، فعم التدبر لعموم العلماء والفهاء، وخصّ التذكر لخصوص العقلاء؛ لأن التدبر للفهم، والتذكر لوقوع الإجلال وخشية الخاص في قلوب أكابر أهل العلم الذين يرون بعيون الأرواح عرائس الصفات فيه، وينكشف لهم فيه غوامض علوم الألوهية.

قال ابن عطاء: ﴿مُبْرَكٌ﴾ على من سمعه منك، فيفهم المراد منه وفيه، ويحفظ آدابه وشرائعه، وفيه موعظة لأولي العقول السليمة الراجعة إلى الله في المشكلات.

قال بعضهم: من أصابته بركة القرآن رُزق التدبر في آياته، ومن رُزق التدبر في آياته لم يُحرم التذكر والاتعاظ به.

قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَّبُ الرُّوَاةَ وَيُتَمِّمَهُ﴾.

قال بعضهم: ﴿مُبْرَكٌ﴾ عليك بإنزاله عليك، فإنك المخاطب به، وأنت المبين له، ﴿مُبْرَكٌ﴾ على من يسمعه، ويتبع أوامره، و﴿مُبْرَكٌ﴾ على من يتذكر فيه الأوامر والنواهي والمواعظ، فيتعظ بما يعظ به الكتاب، علماً بأنه من عند سيده فيفتخر بأنه خاطبه بما خاطبه.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾: ذكر منته على عشقه داود بعد جريان حكم القدر في أمر الامتحان الذي أخرج من نفس العشق والمحبة العبد المحمود بثناء الحق عليه بقوله: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وذلك أنه لما خلعه الحق كسوة الربوبية نظر إلى تلك الكسوة ولم ير منها لنفسه شيئاً علم أنها هي الحق ظهر منه للعالمين، فأحالتها إليه بنعت رجوعه إليه فرعاً خاشعاً صابراً شاكراً مقراً بالعبودية، هذا وصف من ألبسه الحق لباس القدم، فرجع منه إليه بنعت التضرع والفرع؛ حيث قال: «أعوذُ برضاك من سخطك، وأعوذُ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذُ بك منك»^(١)، فرّ منه إليه بعد ذوق مباشرة الصفة قال: «أنا العبد لا إله إلا الله»^(٢)؛ لأنه كان عالماً بخفيات مكر الأزل، ليس كمن سكر واغترّ بسكره فقال أنا الحق؛ فإنه من أوائل قطرات جرعة أقداح أفراحه التي امتلأت من أشربة بحار الأزال والأباد، فوصف الله سليمان بهذا الوصف؛ لعلمه بمكره القديم.

قال بعضهم: العبودية هي الذبول عند موارد الربوبية، والحمدود تحت صفات الألوهية.

وقال الأستاذ: كان أوّاباً إلى الله، رجّاعاً في جميع الأحوال في النعمة بالشكر، وفي المحنة بالصبر.

﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

قوله تعالى: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾: هذا من جملة امتحان

(١) رواه مسلم (١/٣٥٢)، والترمذي (٥/٥٢٤).

(٢) ذكره المصنف في مشرب الأرواح.

الله سبحانه عبده سليمان في مقام المعرفة والمحبة، هو بجلاله وعزته ذوقه طعم عشقه ومحبه، ثم عرض نفسه بنعت ظهور حسن جمال تجليه؛ ليزيد عليه شوق جماله، فرأى ذلك الحسن والجمال قد ظهر من الصافنات الجياد، فشغله تلك الرؤية عن حقائق الفردانية وتجرد الوجدانية من الوسائط، وغاب عنه شمس جمال القدم صرفاً، فأدرك نفسه خالياً عن شهود عين العين؛ فغار على أحواله فقال: «ردوها عليّ»، فلما قدس طرق الوجدانية بمكنسة الغيرة رجعت إليه أنوار الألوهية والفردانية بنعت الكشف وذهاب الحجاب، فلما مسح الصوافن شكرًا لإنعامه وغيرة على سلطانه سخر الله له الريح التي جناحها بالشرق والمغرب.

قال أبو سعيد القرشي: من غار الله وتحرك له فإن الله يشكر له ذلك، ألا ترى سليمان لما شغله الأفراس عن الصلاة حتى توارت الشمس بالحجاب قال: «ردوها عليّ»، فطفق مسحًا بالسوق والأعناق، قيل: إنه كان عشرون ألف فرس منقش ذوات أجنحة أخرجته الشياطين من البحر فشكر الله له صنيعه، فسخرنا له الريح، وأبدله مركباً أهناً منها وأنعم. وقال ابن عطاء: شكر الله صنيعه وأبدله فرساً لا يحتاج إلى راض ولا إلى علف ولا يبول ولا يروث.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿١﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْكِبْنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿١﴾﴾: هذه الفتنة أيضاً فتنة العشق، التي ظهرت له من محبته بنت الملك، وهكذا كل فتنة لو تراها بالحقيقة ما ولدت إلا من العشق، شغف في محبتها بحسنها وجمالها، فغار عليه الحق، وأسقطه من منازل الملك حتى غرّبه في القفار والبوادي، وأنساه ذكرها غيرة عليه حتى لا يبقى في قلبه غيره، وأجلس مكانه في الملك صخرًا حتى أفسد في الأرض، فتلطف عليه الحق، وأرجعه إلى مكانه ومكانته، فسأل الحق تمكينه في الملك والمملكة، ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً﴾، سأل المغفرة فيما قصّر في واجب المعرفة وحقيقتها التي يوجب انفراد القلب عن غير جمال الحق من العرش إلى الثرى، ثم سأل ملك تمكينه في ذلك المقام، وسأل ألا يحتجب بالملك عن المالك، ولا يجري عليه بعد ذلك الامتحان، ولا يسلط عليه جنود المكر والقهر؛ حتى لا يحتجب بنفسه عن نفسه، وقوله: ﴿لَا يَنْكِبْنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ ليس هذا من البخل هذا شفقة على المقصرين لو كانوا مبتلين بذلك الملك؛ ليكونوا محتجين به عنه، وأيضاً يبلغ السالك في المعرفة والمحبة إلى ألا يطبق أن يرى غير نفسه مقام المشاهدة.

قال ابن عطاء: مكني من مخالفة نفسي حتى لا أوافقها بحال.

وقال بعضهم: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا﴾: أي المعرفة بك حتى لا أرى معك غيرك ولا تشغلني كثرة عروض الدنيا عنك.

قال الجنيد: هب لي ملكاً ثم رجع ونظر فيما سأل فقال: ﴿لَا يَلْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ أن يسأل الملك؛ فإنه يشغل عن المالك^(١).

وقال ابن عطاء: سأل ملك الدنيا؛ لينظر كيف صبره من الدنيا مع القدرة عليها. وقال ابن دانيار: استغفر ثم سأل الملك أعلم بذلك أن الملك لا يخلو من الفتن ظاهراً وباطناً، فجعل أول سؤاله الاستغفار.

﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَآخَرِينَ ۝ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝﴾: كان الله من فرط حبه جمال الحق يحب أن ينظر إلى صنائعه وممالكه ساعة فساعة من المشرق إلى المغرب؛ حتى يدرك عجائب ملكه وملكوته، فسخر الله له الريح الرخاء، وأجراها بمراده حيث أصاب، وهذا جزاء صبره في ترك حظوظ نفسه، وفي إشارة الحقيقة سهل له هبوب رياح الشوق والمحبة، فتسرى بروحه إلى قرب مولاه إذا قصد بصره إليه.

قال محمد بن الفضل: انظر إلى ما أوتي سليمان من الملك الريح التي لا حاصل لها، والشياطين الذين هم أعداؤه ليعلم أن الركون إلى الدنيا ركون إلى ما لا حاصل له ومجاورة الأعداء.

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: فيه إشارة الحقائق أي: ما أعطيتك فهو مقام الاتحاد، وهو عطاء عظيم جعلتك خليفة لي، فامنن بمتي على عبادي، أو أمسك عنهم بأمساكي، وهذا كما قال في إشارة عين الجمع إلى سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، وكما قال سبحانه في بعض الحديث: «إذا أحبته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً»^(٢)، بين لسليمان

(١) دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم طلب المملكة بعده، ثم دلت الآية أيضاً على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لافتتاح أبواب الخيرات في الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولاً، ثم توسل به إلى طلب المملكة. الباب (١٣ / ٣٦٩).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨ / ٣١٩)، وابن أبي الدنيا في الأولياء (١ / ٩).

محل تمكينه في نيابة الحق في ملكه، وأعلمنا أن من لا يكون بوصف سليمان لم يجز له أن يدخل في سعة الدنيا وذكر المنّة، وجوزه أن يمنّ على عباده بنعمة الدنيا؛ إذ كان منته منّة الحق صافيًا عن حظ نفسه، لكن ما أمره بمنّة المعرفة على عباده، فليس في معرفة الله لأحدٍ على أحدٍ؛ فإنها فضلٌ منه على عباده بغير واسطة.

قال ابن عطاء: امنن على من أردت بعطائنا، وإنا لا نمنُّ عليك بذلك، ولا نمنُّ عليك إلا بالمعرفة والهداية، قال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ يُمْنٌ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْنَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

﴿وَإِنْ لَهُرُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنُ مَقَابٍ ۝ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝ آرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ۝﴾.

قوله تعالى ﴿وَإِنْ لَهُرُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنُ مَقَابٍ﴾ ذكر الله سبحانه رتبته ومحلّه في تمكينه، أعطاه ملك الدنيا مع ملك الآخرة من المعرفة والمحبة والنبوة بألا مضرة فيه عليه ولا في مقاماته وأحواله الشريفة، بل كان له مزيدًا في حاله ورفعة، وشرقًا في معرفته، وأخبر من حسن مآبه بأنه تعالى ستره بأنوار قربه حين آواه من قهره بلطفه ورجوعه إلى الحق بحسن التضرع والبكاء والخشوع والحياء في كل لحظة ولمحة.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ۚ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ افهم يا حبيبي أنه تعالى بوجود جلال قدمه أبلى أهل محبته، ولا يوازي بلاؤه صبر أهل الحدثان، بل كان خارجًا عن صبر المخلوق والتصبر المكتسب، ورجع إلى الحق بلا صبر نفسه، وانخلع من حوله وقوته، وسأل أن يعطيه الله صبرًا يحتمل به بلاء القديم، فلما رآه الحق خارجًا من صبره ألبسه من صبره القديم كسوة، فاحتمل به بلاءه، فأثنى عليه الحق بعد اتصافه به وانخلاعه من دعوى الأنانية بعد الاتحاد به الذي لو ألقى ذرة على جميع قلوب العارفين يدعون دعوى الأنانية، فلما لم يؤثر فيه سكر الاتحاد والاتصاف وبقي متمكنًا في العبودية واستلذ بحلاوة مشاهدته من قهره كما استلذ بمشاهدته من لطفه، فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝﴾ أي: راجع من دعوى الأنانية إليّ بنعت العبودية، ومن لم يحمل بلاءه إلا به كيف يحتمل بلاءه بنفسه.

قال ابن عطاء: واقفًا معنا بحسن الأدب لا يؤثر عليه درام النعم، ولا يزعجه تواتر البلاء والمحن؛ لمشاهدته المنعم والمبلي، ونعم العبد عبدٌ لا يشغله ما لنا عنا.

وقال أبو الحسين بن زرعان في هذه الآية: إنه يستلذ وجود البلاء مع الله، فاستزاد ابن البلاء، وذلك قوله: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾، ظهر على آثار العافية، فإن العيش في البلاء مع الله عيش الخواص، وعيش العافية مع الله عيش العوام، ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾؛ لفقدان عيش الخواص والرجوع إلى عيش العوام. قال الحسين: سهل عليه البلاء.

قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾: فمن كان في وجدانه كان فائياً عن رؤية الأغيار.

قال جعفر بن محمد: لما أظهر الله البلاء بأيوب وكثر عليه الدرد عقد لسانه عن الدعاء؛ لإنفاذ الحكم والمشية فيه، وتحكم له بالصبر، فلما دامت أحكام الصبر أورثه الرضا؛ لما وجد من حلاوة القرب مع الله، فأنشئ عليه في الأولين والآخرين بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ﴾.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (١) ﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٢) ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٣) ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَقَابٍ﴾ (٤) ﴿جَنَّاتٍ عَذْنٍ مُمْتَحَةٍ لَهُمْ فِي الْأَبْوَابِ﴾ (٥) ﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفِيكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ (٦) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٍ﴾ (٧) ﴿هَذَا مَا تُوَعْدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٨) ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٩) ﴿هَذَا وَابٌّ لِلطَّغْيِينِ لَشَرِّ مَقَابٍ﴾ (١٠) ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُ اللَّهُ إِلَيْهَا﴾ (١١) ﴿هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ (١٢) ﴿وَأَخْرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ﴾ (١٣) ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ (١٤) ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَنْسِفُ الْفَرَارِ﴾ (١٥) ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ (١٦) ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ﴾ (١٧) ﴿أَخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ (١٨) ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (١٩) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٢٠) ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (٢١) ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢) ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣) ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٢٤) ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي: أخلصناهم مما سوانا حتى خلصوا في محل التمكين في دار التفريد وعين التجريد وحق التوحيد ومشاهدة الجبروت والملكوت، دعوا المریدین إلى مقامات القربات والمداناة والمشاهدات والمكاشفات، وما

اعوجُّوا من حد الاستقامة إلى حد التلوين، وما احتجوا بشيء عنه تعالى؛ فإنهم أولو القوة الألوهية والبصائر الربانية.

قال ابن عطاء: ﴿أَخْلَصْنَهُمْ﴾ لنا، وخصصناهم بنا ومعنا.

وقال: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ تلك الخالصة خلوسه عن ذكر الدارين وما فيها حتى كان لنا خالصاً مخلصاً.

قال سهل: أخلصهم له دون ذكرهم له؛ وليس من ذكر الله بالله كمن ذكر الله بذكر الله. قال أبو يعقوب السوسي: لما قال ﴿أَخْلَصْنَهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ صفت قلوبهم لذكره عند ذلك، ورقت أرواحهم له بإرادته، فهم في مكشوف ما تقدم لهم في الغيب سبقت لهم منه الحسنی، فصاروا بدرجة المخلصين، ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ذكر العندية، وقرن بها الاصطفائية، ويبيِّن أن اصطفائيتهم في العبودية أزلية قبل وجود الكون، فإذا كانت الاصطفائية أزلية يسقط عنها أسباب الحدوث، فصار شرفهم خاصاً وموهبة خالصة بلا علل؛ لذلك قال: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (٧٦) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَاجِدِينَ﴾ (٧٧) ﴿فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٧٨) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٩) ﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيۦ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (٨٠) ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ (٨١) ﴿قَالَ فَآخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٨٢) ﴿وَأِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيۦ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٨٣) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٤) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٨٥) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٨٦) ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمُ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٨٨) ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (٨٩) ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٠) ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٩١).

قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (٧٦) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: بيِّن الله سبحانه ههنا تفضيل آدم على الملائكة المقربين؛ فالخطاب لأكابرهم؛ إذ كان روحه خلقت قبل أرواحهم؛ إذ روحه تكونت من ظهور تجلي الحق بجميع الذات والصفات كاملة بخلعة كسوة الربوبية التي ألبسها الحق حتى صارت مرآة يتجلى منها للعالمين، وبقيت في أول الأول في مشادة أنوار

الأزليات والأبديات، ولو كانت الملائكة بهذه المثابة لكانت معها في الكينونية من سنا برق تجلي الحق، وعرفت بها بالأهلية، فإذا كانت الملائكة نازلة من درجاتها وصارت محجوبة عن رؤية ظهورها في العالم احتاجت إلى إعلام الحق بذلك، فلما علم الحق أنهم جهلوا حقائق وجود آدم لم يذكر ههنا ذكر روحه معهم، وقدم ذكر الصورة من قلة عرفانهم شرف روحه، وقال: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾^(١)، مكر بهم حتى وقعوا في التشويش والنظر إلى أنفسهم بالخيرية حتى يظهر بعد ذلك كمال آدم، فإذا كانوا مخالفين في صورته بأول الخطاب كيف كانوا في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾^(٢)! وذلك من أعظم عجائب الربوبية، وفيه تفهيم تحقيق عبوديته؛ حتى لا يجري في قلوب الملائكة أنه بمعنى من الربوبية في وقت سجوده أي: إني خالق بشرًا من طين أي: من عجز وضعف أكسية أنوار جلالي وعظمتي، فإذا كملت اتصف بصفات منورًا بنور ذاتي، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ أي: أحييه بحياتي وبروحي التي ظهرت من تجلي الجلال والجمال، ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٣)؛ إذ يكون قبله أنوار عزتي وكبريائي ومواقع تجلي ذاتي وصفاتي، فلما رآته الملائكة بتلك الصفات سجدت له كلهم من حيث أراهم الحق آدم منورًا بنوره مصورًا بصورته إلا إبليس؛ لأنه كان من الكافرين المحجوبين؛ لطمس الحق إياه، وبأنه لم يكن مكتحلًا بكحل نور جمال الأزل، فلما لم يكن له أهلية لرؤية وقع في رؤية نفسه ورؤية خيريته حتى ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(٤)، وقع في قياس النار والطين، ولم ير أنوار جمال الحق التي ظهرت من وجه آدم، وهكذا حال المدعين والسالوسين والمرائين المداهنين في حق أوليائه، لا جرم كان مخاطبًا بالطرد والإبعاد إلى يوم الميعاد، حتى لا يذوق حلاوة برد الوصال، ولا يرى أنوار الجمال والجلال، ولا يدرك فضائل الأنبياء والأولياء إلى أبد الآباد، بل إذا يرى أثر سلطنة ولايتهم وعزة أحوالهم، يذوب كما يذوب الملح في الماء، ولا يبقى له حيل، ولا يطيق أن يمكر بهم، بل ينسى في رؤيتهم جميع مكرياته، ولا يطيق أن يرمي إليهم من أسهم وسوسته، سبل وسوسته تلحق بأهله لا بأهل الحق، وذلك قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٥) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ^(٦)؛ المتجردين في قصودهم نحو قدم الحق وبقائه الأبدي وجماله الأزلي عن الأكوان والحدثان، واحذر ألا

(١) فهو عين هذا النفس بفتح الفاء، فقبلته الصورة على حسب استعدادها، وقابليتها.

(٢) هذه أول معارضة ظهرت من إبليس في صنعة الجدل، فإنه جادل ربه وما أحسن في جداله؛ لأنه ما أعطي حقه إن الحق تعالى أراد بقوله: ﴿مَّا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ أي: يد تنزيه وتشبيه، وإن شئت قلت: يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم ملوكًا وملكًا.

يجري على خاطرك أن لإبليس قدرة بأهله، بل يغويهم بإغواء الحق إياهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ظاهره القسم، وباطنه الآلة والاستعانة بقهره، يا ليت الملعون أدرك الخطاب الثالث بعد الخطاب الأول والثاني؛ حيث قال: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾، وحيث قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾، ثم قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لم يعرف مفهوم الخطاب، وهو أن من كان له مباشرة أنوار يد الأزل ويد الأبد في ظاهره وروح تجلي جلال الذات في باطنه يكون مستحقاً في جميع الأحوال لكرامات سنية وأحوال رفيعة وخدمة أهل الملكوت له وسجود الملائكة له؛ إذ كان مشرق أنوار جلال الأزلي وجمال الأبدى.

جئنا إلى مقالة المشايخ رحمة الله عليهم فيما قالوا في هذه الآية:

قال بعضهم في قوله: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾: امتحنهم بالإعلام، وحثهم بذلك على طلب الاستفهام، فيزدادوا علماً بعجائب قدرته، ويتلاشى عندهم نفوسهم.

قال بعضهم في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾: أي كاملاً، يستحق التعظيم بخصائص الاختصاص التي خص بها من خصوص الخلقة، ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾: أبدت عليه آثار شواهد عزتي، وروحت ستره بما يكون به العبيد روحانيين.

قال بعضهم: هو روح ملك، وهو الذي خصه به، فأوجبت تلك الخصوصية سجود الملائكة له.

وقال بعضهم: وهو قول الفناء، جذبهم بشهود التعظيم، فلم يستجيزوا المخالفة، وحجب إبليس برؤية الفخر بنفسه عن التعظيم، ولو رأى تعظيم الحق لما استجاز الفخر عليه؛ لأن من استولى عليه الحق قهره.

قال جعفر في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعَنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾: سخطي الذي لم يزل جارياً عليك، وواصل إليك في أوقاتك المقدرة وأيامك الماضية.

قال بعضهم في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصُونَ﴾: الذي يكون سره بينه وبين ربه، بحيث لا يعلم ملك فيكتبه، ولا هوى فيميله، ولا عدو فيفسده.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: القرآن صفته الأزلية، يذكر للعالمين شمائل جماله وجلاله، ويظهر كنوز أسرارته وأنوار ذاته وصفاته لمن له فهم عقل ومعرفة. قال ابن عطاء: بطرده عند الغفلة ليعتبر به المعتبرون.

وقال عبد العزيز المكي في قوله: ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: لم يعلم المسكين بأي سهم رمى، وبأي سيف قتل، وبأي رمح طعن، وبأي نار أحرق، وفي أي جب ألقى، ولو علم ذلك لما قال: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، بل مات ترحاً وحزناً، وتفتت كآبة وغماً، ولكنه ستر عليه ما عومل به حتى لم يجد من ذلك المأ وما أحس منه وجعاً، فلم يبال بما قيل له حتى قال لقلة مبالاته: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال فإنك من المنتظرين ﴿١﴾ إلى يومِ الوقتِ المعلومِ ﴿٢﴾، فاغتر المسكين بالمدة الطويلة، ولم يعلم أن ما هو آت قريب، ولا يزداد بطول المهلة إلا الذلة والتخيب، وما وقع ههنا نكتة؛ إنه كان في الأزل ذائقاً طعم بعض الوصال في عالم اللطفيات، ولم يكن مع الخبر من عالم القهريات شيئاً، فلما وصل إليه بطش قهر الجبروت استنظر حتى يخوض في بحار قهره، كما غاص في بحار لطفه؛ لكي لا يدركه في سعة رحمته؛ ليستوفي سريات القهريات كاستيفائه شربات اللطفيات، حتى يكون من كلا الجانبين على حظٍّ وافٍ من علومه وربوبيته، وغلط المعلنون؛ لو وافق الأمر لوجد معاني الصفات والذات والقهريات واللطفيات على صورة الأنس والراحة كالأنبياء والأولياء والملائكة المقربين.

سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً زَوْجاً خَلْقَكُمْ فِي بَطُونٍ أَمْهَنِيكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقِي فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَن تَضَرَّفُونَ ﴿٦﴾.

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ أي: هذا تنزيل الكتاب، وهو القرآن، وهو وصفه القديم، بدا منه بنعت التجلي، وأنزل من عنده للأمر ولأحكام ظهوره بنعت الصفة للخصوص وبنعت النزول للعموم، هو العزيز من حيث لا تفارق صفته عن ذاته، وهو الحكيم من حيث منع عباده التمتع بكشفه وإنزاله رحمة للعموم والخصوص.

قال الأستاذ: كتابٌ عزيزٌ نزل من ربِّ عزيزٍ على عبدٍ عزيزٍ بلسان ملكٍ عزيزٍ في شأن أمة، عزيزٍ بأمر عزيزٍ ورد الرسول عن الحبيب الأول بعد التلاقي بعد طول يزيل نزهة قلوب الأحياب بعد ذبول غصن سرورها في كتب الأحياب عند قراءة فصولها والعجب منها، كيف لا نرهق سرورًا بوصلها وارتياحًا بحصولها!

قوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ ﴾: أمر حبيبه ﷺ أن يعبد الله بنعت ألا يرى نفسه في عبوديته ولا الكون وأهله، ولا يتجاوز عن حد العبودية في مشاهدة الربوبية، فإذا سقط من العبد حظوظه من العرش إلى الثرى فقد سلك مسلك الدين، وهو طريق العبودية الخالصة عن رؤية الحدثان بنعت شهود الروح مشاهدة الرحمن، وذلك هو الدين الذي اختاره الحق لنفسه؛ حيث خلص عن غيره بقوله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ ﴾، والدين الخالص وجدان نور القدم بعد تلاشي الحدث في بوادي سنا العظمة والوحدانية، كأنه تعالى دعا عباده بنعت التنبيه إلى خلوص الأسرار عن الأغيار في إقبالهم إليه.

قال الواسطي: ذكر وعيده على اللطافات، فقال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ ﴾، وهو الذي يخلص فيه صاحبه من الشرك والبدعة والرياء والعجب ورؤية النفس. وقال سهل: أخبر الله تعالى أن الذي له من الدين هو الذي يخلص من الرياء والشك والشبهات^(١).

﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ۚ ﴾: نكتة الآية في الحقيقة بعد رسوم

(١) قال الأستاذ: الدين الخالص ما تكون جلته لله؛ فما للبعد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد، اللهم أن يكون بأمره؛ إذا أمر العبد أن يحسب الأجر على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به، ولولا هذا لما صحَّ أن يكون في العالم مُخْلِصٌ. تفسير القشيري (١٢/٧).

العلم أن العبد العارف إذا تحقق في العبودية ووصل إلى رؤية أنوار الربوبية يصل إلى نور الانبساط وذوق الوجد والسكر في رؤية الجمال، فيطيب وقته، ويصير مملوءاً من نور الحق، فلا يرى إلا الحق بالحق، وينسى الحق دون الحق، فيدّعي هناك الأنانية، فهده الحق من ذلك، وقال: إن تخرجوا من عندي بدعوى الأنانية تكونوا محجوبين بالحال عن المحول، وهو منزلة عن أن يحول عليه حال مقدس عن المواصل والمفارقة، ولا يرضى، ولا يستحسن لعبده الاحتجاب به عنه، لكن مكر به بمشيئته القديمة وإرادته السابقة؛ لأنها سبقتا على الأمر، والأمر يتغير، والرضا لا يتبدل، وفي قوله: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ بيان أن الكفر أن نسيان وجوده في غلبة الوجد وذكر الواجد نفسه، ولا يرضى بذلك، بل يرضى أن يفنى نفس الواجد فيه تعالى، وهو باقٍ له لا هو، فإذا فني عنه شكر الله بفنائه في بقائه، وذلك قوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ وفي الآية من الشطح أن الله سبحانه أعدم الكفر، وبيّن أن ليس الكفر لأحد من العرش إلى الثرى، وكيف يكون الكفراً ولا يرضى الله الكفر لأحد، فخرج الكفر من البين بذلك؛ لأن الرضا نعت الأزلية، فإذا بقي الكفر في القدم لا يكون الكفر إلى الأبد ومنبع الرضا والسخط والإرادة والمشيئة ذاته القديم، وهذه الصفات والذات واحدة من جميع الوجوه، وبيان ذلك أن حقيقة الكفر في كونه أن يكون العبد محيطاً بجميع ذاته وصفاته، ثم ينكره بحيث إنكاره يقارن إحاطته وكذلك الإيمان، وذلك مستحيل، فإذا لا يكون الكفر الحقيقي ولا الإسلام الحقيقي.

قال القاسم: لا يرضى لهم الكفر، ولكن يقدر عليهم، وليس الرضا من المشيئة والإرادة والقضاء في شيء.

وقال سهل: أول الشكر الطاعة، وآخره رؤية المنّة.

قال عبد العزيز المكي: الكفران للنعمة هو أن يظن العبد أنه عرف وأدى شيئاً من شكر النعمة.

وقال ابن عطاء: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: لا حاجة به إليكم، ولكن من كفر وأعرض عنه ممن خلقه لنفسه ولجواره لا يرضى له ذلك حتى يجذبه إليه بتوفيقه، ويربيه بفضله ويرضاه.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾: إن وفقتم لشكر نعمتي أوجب لكم به رضاي.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا

إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿١﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾: وصف الله أهل الضعف من اليقين إذا مسه ألم امتحانه دعاه بغير معروفه، وإذا وصل إليه نعمته احتجب بالنعمة من المنعم، فبقي جاهلاً من كلا الطرفين، لا يكون صابراً في البلاء ولا شاكراً في النعماء، وذلك من جهله بربه، ولو أدركه بنعت المعرفة وحلاوة المحبة لبذل نفسه له حتى يفعل به ما يشاء.

قال الواسطي: الخلق مجبورٌ تحت قسمته، مقهورٌ في تحت خلقته وتقديره، ألا ترى إذا ضاقت القلوب واشتدت الأمور كيف تفرغ بالإخلاص إلى الملك الغفورا
وقال الحسين: من نسي الحق عند العوافي لم يُجِبِ الله دعاءه عند المحن والاضطرار، لذلك قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ»^(١).
قال النهرجوري: لا يكون نعمة من تحمل صاحبها على نسيان المنعم نعمة، بل هو إلى النقم أقرب.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ ﴿١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ ﴾: وصف الله سبحانه أحوال أهل الوجود والكشوف والمستأنسين به الذين قَتُوا في أجواف الليالي قائمين على أبواب الربوبية بنعت الفناء والخضوع حين عاينوا مشاهدة جلاله وجماله من وراء ستور الغيب وحجب الملكوت، فساعة دهشوا، وساعة وهوا، وساعة بكوا عليه وبه، وساعة ضحكوا بها أولاهم الحق من نيل أنوار مشاهدته وفيض حلاوة وصلته ولذائذ خطابه ومناجاته وكشفه أسرارهم، فصرعوا، وبكوا، وزفرورا، وصاحوا، إذا قاموا، قاموا بشرط رؤية جمال بقاء الحق، وإذا سجدوا سجدوا على شرط رؤية جلال قدمه، وعلموا من لطائف خطابه مكنون أسرار غيبه من العلوم الغريبة والأنباء العجيبة؛ لذلك وصفهم بالعلم الإلهي الذي استفادوا من قربهِ ووصاله وكشف جماله، بقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، كيف يستوي الشاهد والغائب، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟!

قال ابن عطاء: الغائب الذي يجتهد في العبادة، ولا يرى ذلك من نفسه، ويرى فضل الله عليه في ذلك، فإذا رجع إلى نفسه في شيء من أفعاله فليس بغائب.

(١) رواه أحمد (٣٠٧/١)، والطبراني في الكبير (١٢٣/١١).

وقال سهل: العلم الاقتداء واتباع الكتاب والسنة.
وقال الجنيد: العلم أن تعرف قدر ربك ولا تعدو قدرك.
وقال ابن عطاء: العلم أربعة: علم المعرفة، وعلم العبادة، وعلم العبودية، وعلم الخدمة.

وقال ذو النون: العلم علمان: مطلوب، وموجود.
وقال أبو يزيد: العلم علمان: علم بيان، وعلم برهان.
وقال رويم: العلم مطبوع ومصنوع.
وقال: المقامات كلها علم، والعلم حجاب.
وقال الشبلي: العلم خبر، والخبر جحود، وحقيقة العلم عندي بعد قول المشايخ رحمة الله عليهم الاتصاف بصفة الرحمن من حيث علمه حتى يعرف بالحق ما في الحق.
﴿قُلْ يَنْعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَنْعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾: وصف الله القوم بأربع خلال: بالإيمان، والتقوى، والإحسان، والصبر، فأما إيمانهم فهو المعرفة بذاته وصفاته من غير استدلال بالحدثان، بل عرفوا الله بالله، وتقواهم تجريدهم عن الكون وأنفسهم؛ خوفاً من الاحتجاب بها عنه، وإحسانهم إدراكهم رؤيته بقلوبهم وأرواحهم بنعت كشف جماله، وهذا الإحسان بمعنى العلم، ويكون بعد أن خلعوا شوائب الحدوثية عن طريق الربوبية، وصبرهم استقامتهم بمواظبة الأحوال وكتمان كشف الكلي، وحقيقة الصبر ألا يدعي الربوبية بعد الاتصاف بها، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: أرض القلوب ووسعها بوسع الحق، فإذا كان العارف بهذه الأوصاف فله أجران: أجر في الدنيا، وأجر في الآخرة، أجر الدنيا المواجه البديهة والواردات الغريبة والفهم بغرائب الخطاب والوقوف على مشاهدة الحق بعد كشفها، وأجر الآخرة غوصه في بحار الآزال والآباد والفناء في الذات والبقاء في الصفات.

قال حارث المحاسبي: الصبر التهدف بسهام البلاء.
وقال طاهر المقدسي: الصبر على وجوه: صبر منه، وصبر له، وصبر عليه، وصبر فيه، وأهونه الصبر على أوامره، وهو الذي بين الله ثوابه: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقال يوسف بن الحسين: ليس بصابر من يتجرع المصيبة وييدي فيها الكراهية، بل الصابر من يتلذذ بصبره حتى يبلغ به إلى مقام الرضا.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۖ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۖ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۖ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۗ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ ۗ يَنْعَبَادُونَ ۖ فَاتَّقُوا ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾: بين الله سبحانه مراتب حبيبه ﷺ في منازل التوحيد والعبودية هاهنا، فإذا لم يكن غيره في محل موازنة الأزل توجه إليه خطاب الحقيقة في أمر العبودية وعرفان الربوبية، فإخلاصه في العبودية خروجه من رسم الحدثنان في مشاهدة الرحمن، وبين سبحانه في أمره إياه بقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: حين تظهر طوارق أنوار أزليته وسنا جلال أحديته هو أول من يقبل إليها بنعت قبول حقائقها ومعرفة إجلالها وجلالها بنعت الانقياد في معارك عساكر سلطاتها، والفناء عن أوصاف الحدوثية في ملكوتها وجبروتها هذا شوق الإخلاص والإسلام من يشتري حلاوة وجه المحبوب ببذل وجوده من العرش إلى الثرى، فالكل مخاطبون بخطابه، فمن يرغب أن يفنى في هذه المقامات السنية حتى يبقى ببقاء الحق.

قال الجنيد: الإخلاص أصل كل عمل، وهو مربوط بأوائل الأعمال، ومنوطٌ بأواخر الأعمال، ومضمَّرٌ في كل الأقوال، وهو أفراد الله بالعمل.

وقال أيضًا: أمر جميع الخلق بالعبادة والتعبد، وأمر النبي ﷺ بالإخلاص في العبادة، علم الحق تعالى أن أحدًا لا يطبق تمام مقام الإخلاص سواه، فخاطبه به.

﴿وَالَّذِينَ آجَتَنَّبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ۖ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۖ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ۖ لَيْكِنَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ۖ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ خَرَجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْمًا ۚ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَذِكْرِي لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾: أصل كل طاغوت النظر إلى النفس، وإلى ما سوى الله من العرش إلى الثرى في طريق أفراد القدم عن الحدوث على وجه الإقبال إلى شيء دونه، فالذين جانبوا الكل وأنابوا إلى أصل كل أصل بنعت الاستعانة به فلهم النظر إلى جماله، ولهم النظارة والبشارة في وجهه، والفرح بمشاهدة جماله، فهم مربوطون في الدنيا عند كل نفس ببشارة منه، بأنهم يرونه على وفق مرادهم ومحبته، ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، أمر حبيبه ﷺ بأن يشرهم بالرضوان الأكبر، ثم بين استحقاق البشارة لهم بأي وجه يلحق بهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾^(١): يستمعون الحق من الحق من حيث الحق، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾: يتبعون كل الخطاب بالإيمان وعلى ما يوافق مراد الحق منهم بالعمل، فإذا الكل حسن مبارك، فمن حيث رسوم الأمر أحسن ما يطبقون حمته من وارد الخطاب بنعت متابعتهم، وفي الحقيقة الأحسن ما لم يوافق طباع الحدثان، وذلك مثل أي التشابه في عرفان الذات والصفات؛ فالأوامر والنواهي أحسن لهم، والأنباء من علوم الذات والصفات أحسن للحق، ولكن من حيث إن القول صفته؛ فالكل حسن من حيث معاني الصفة، وأيضا يتبعون أحسنه من الأعمال السنية والأخلاق الكريمة، وبيّن أن هذه المتابعة منهم من هدايته لهم وتعريف نفسه إياهم، وأنه تعالى جعلهم الألباء المستعدين بقبول قوله وإدراك خطابه بالفهوم النورية والعقول الصافية والذكاء العجيب بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ﴾: الدنيا، وأصلها الجهل، وفرعها المآكل والمشارب، زيتها التفاخر، وثمرتها المعاصي، وميراثها القسوة والعقوبة. وقال الأستاذ: طاغوت كل أحد نفسه، وإنما يجتنب الطاغوت من خالف هواه وعائق رضا مولاه.

قال أبو بكر بن طاهر في قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾: بشر الله تعالى من فتح سمعه لاستماع الأحسن من سماعه لا من سمعه على العادة والطبع؛ فإن المتحقق في السماع من يعرف حاله في وقت السماع، فيتبع الأحسن مما يسمع، ويدعي ما فيه شبهة واشتباه، وصفهم الله تعالى

(١) ولذلك قالوا: الصوفي: دمه هدر، وماله مباح؛ لأنه لا يتنصر لنفسه، بل يدفع بالتي هي أحسن السيئة، البحر المديد (٣/٣١٠).

بالهداية إليه والعلم به العقل فيما يسمع، بيّن الشيخ أبو بكر بن طاهر -قدس الله روحه- أن المراد به سماع القول، وأن العارف العاشق بجمال الحق يلقي سمع الخاص في مقام المراقبة على بساط القرب، والحق سبحانه يتكلم بكل لسان من العرش إلى الثرى، فلحظة نطق على السنة الطيور في ألحانها، وساعة نطق في أصوات الخلائق المختلفة، وعلى السنة السماوات والأرضين والجبال وحركات الرياح والأشجار والمياه، وعلى السنة الملائكة والأرواح والنفوس، فبعض إلهام، وبعض إلهام، وبعض وحي، وبعض كلام، فالأحسن منها أن يتكلم معهم بكلامه العزيز الخاص الصفاتي الذاتي الخارج من الوسائط والوسائل، فذلك العارف العاشق يسمع الكل من روحه ونفسه وعقله وقلبه وعدوه والملك والأولياء والأنبياء وحركات الأكوان وأهلها، فيتبع جميع الخطابات من حيث إدراك حقائقها ما يوافق حاله وعلمه وعمله رسماً، ويتبع الكلام الأزلي الذي هو أحسن الخطاب بالفهم العجيب والعلم الغريب والإدراك الصافي وانفراد الحق من المخلوق بالمحبة والشوق والعشق والمعرفة والتوحيد والإخلاص والعبودية والربوبية والحرية، فهذا فضل ورد بالبديهة من حيث ظهور الأنباء الغيبية والروح القدسية والإلهامات الربانية.

قيل: هذا فضيلة لمحمد ﷺ على غيره أن الأحسن ما يأتي به، وإن كان الكل حسناً، ولما وقعت له صحبة التمكين ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون، ظهرت عليه الأنوار في الأحوال، وكان معه أحسن الخطاب، وله السبق في جميع المقامات، ألا تراه ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»^(١): يعني الآخرون وجوداً السابقون في الخطاب الأول في الفضل في محل القدس.

وقال الأستاذ: اللام في قوله القول للعموم يقتضي حسن القول، الاستماع يكون لكل شيء، والاتباع يكون للأحسن.

وقيل: للعبد دواع من باطنه هواجس النفس ووسواس الشيطان وخواطر الملك والخطاب الحق يلقي في الروح، فوسواس الشيطان يدعو إلى المعاصي، وهواجس النفس تدعوه إلى ثبوت الأشياء منه مما له فيه نصيب، وخواطر الملك تدعو إلى الطاعات، وخطاب الحق في حقائق التوحيد.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۖ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢).

(١) رواه البخاري (٢٩٩/١)، ومسلم (٥٨٥/٢).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾: بين الله سبحانه تفضيل شرائف الصديقين من أهل مشاهدته المنورين بأنوار قدسه، أوجد أرواحهم في فضاء ديموميته وميادين أزليته، فأبدى لها نور جماله وجلاله، فهم منورون بنوره؛ حيث ألبسهم قموص سنا عظمته وبهاء كبريائه، فهذا معنى شرح صدورهم، وبعد نشر نور تجليه في أرواحهم وعقولهم حتى وقع فيها نور العبودية وما بدا من نور اليقين والعرفان والإيمان والإسلام، فأول شرح صدورهم بدو أنوار صفاته فيها، وآخر انفساخها ظهور سناء ذاته فيها، فهم على نور منه، وبذلك النور يلبسون؛ فيرون الحق بنور الحق، ويرون ما دون الحق من العرش إلى الثرى بنوره، ثم ويخ أضدادهم بقساوة القلوب وتباعد النيات، واحتجابهم عن نور ذكره، بعد أن قهرهم بخذلانه، وحرمتهم من نور إسلامه وإيمانه، وهددهم بعقوبته بقوله: ﴿قَوْلٌ لِّلنَّفْسِئَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: قساوة قلوبهم من اتباعهم نفوسهم وإعراضهم عن قبول طاعة مولاها، ثم بين أنهم في ضلال عن الوصال بقوله: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

قال بعضهم: شرح صدره لمعرفته فهو على نور من ربه فيشهد بذلك النور الغيوب ويكون حاضرًا بروحه وسره مراقبًا ببركات ذلك الشرح.

قال بعضهم: المعرفة تتولد من الشرح والتنوير، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

وقال جعفر الصادق: شرح صدور أوليائه؛ لأنها موضع خزائنه، ومعدن إشارته، وبيت أمانته، ومفتاح البيت عنده، وحارسه الله، وهو في كنفه، لا يطلعه أحد سواه، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ»^(١).

وقال الشبلي: أنارت بالشرح قلوبهم، وأنطقت بالحكمة ألسنتهم، وأكملوا بكمال الآداب ورياضة النفوس، فوصلوا بالولاية، وسقوا بكأس الصدق.

وقال النوري: استسلم سره بنور القرية، وذلك الشرح.

وقال بعضهم: فهو على نور من ربه، على يقين من مشاهدة ربه بالغيوبة عن الملك والملكوت، فلم يبق عليه مقام إلا سلكه، ولا حال إلا استوفاه.

وقال الواسطي: منحة عظيمة، لا يحتملها أحد إلا المؤيدون بالعناية والرعاية، فإن العناية تصون الجوارح والأشباح، والرعاية تصون الحقائق والأرواح.

(١) رواه مسلم (٤/١٩٨٧)، وأحمد (٢/٢٨٤).

وقال بعضهم: عرف إليهم حتى عرفوه، وبَصَّرَهم حتى أبصروه، وذلك حين شرح قلوبهم برؤية الصنع، وأعمى أبصارهم عن النظر إلى سواه، فبشرح الصدر عرفوه، وبالعَمى عن غيره أبصروه.

وقال يحيى بن معاذ: قساوة القلب من اتباع الهوى.

وقال: عقوبة القلب الرين والقسوة.

وقال الحسين: قساوة القلب بالنعم أشد من قسوته بالنسيان والشدة؛ فإن بالنعمة يسكر، وبالشدة يذكر، وأنشد في معناه:

قَدْ كُنْتُ فِي نَعْمَةِ الْهَوَى بَطْرًا فَأَدْرَكْتَنِي عَقُوبَةُ الْبَطْرِ

وقال: من هَمَّ بشيء مما أباحه العلم تلذذاً عُوقب بتضييع العمر وقسوة القلب وتعب الهم في الدنيا.

وقال الأستاذ: النوري الذي من قبله سبحانه نُورُ اللوائح بنجوم العلم، ثم نُورُ اللوامع ببيان الفهم، ثم نُورُ المحاضرة بزوائد اليقين، ثم نُورُ المكاشفة بتجلي الصفات، ثم نُورُ المشاهدة بظهور الذات، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد، وعند ذلك فلا وجد ولا قصد ولا قرب ولا بعد، كلا بل هو الله الواحد القهار.

وقال في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: الصلبة قلوبهم التي لم يفتر عنها خواطر التعريف، فبقيت على مكاره الجحد، أولئك في الضلالة الباقية والجهالة الدائمة، نعم ما قال المشايخ في تفسير هذه الآية، ولكن حقيقة تفسيرها ما قال النبي ﷺ حين سُئِلَ عن تفسير الشرح المذكور في القرآن فقال: «ذلك نور يقذف في القلب. فقيل: هل لذلك أمانة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: نعم، التجاني عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»^(١)، قوله ﷺ بيّن هذه الأقوال في الآية كالشمس بين الكواكب، بل نوره بين أنوار الأنبياء والأولياء والملائكة المقربين كنور الشمس بين أنوار الكواكب، إذا برز نور شمسها أدرج ضوء نورها ضوء الكواكب.

كما قيل: فلما استبان الصبح أدرج ضوءه بأنواره أنوار ملك الكواكب.

﴿اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ۖ﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/٢٤٦)، والطبري في تفسيره (٨/٢٧).

لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَاذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ اَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مِّثْلَىٰ مِثْلَيْنِ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ : وصف الله سبحانه كلامه القديم حديثه الباقي الذي أحسن من كل حسن، إذ جميع الحسن منه بدا، وحسنه بأن يكون بحسن الأشياء، وأنه صفته الأزلية التي خارجة بنعوتها عن رسوم الأصوات وعلل الحروف ومصنوعات الكون، لا يشابهها كلام الخلق من فعله صدر، وكلامه تعالى من ذاته صدر، فكيف يكون مشابهاً لكلام الحدثان، ومعنى قوله: ﴿مُتَشَبِّهًا﴾ أنه خبر عن كلية الذات والصفات التي منبعها أصل القدم، وصفاته كذاته وذاته كصفاته، وكل صفة كصفة أخرى من حيث التنزية والقدس والتقدیس، والكلام بنفسه متشابه المعاني، وكل معنى يتكرر في موضع غير موضعه بلغة أخرى، ووضعها مذكورة بحروفها، والمتشابه في القرآن خاص، مذكور مبین لأهل الخصوص من أهل شهود وصفات الخاصة الأزلية الذين يشهدون الأرواح والأشباح في المراقدة العبودية، يسمعون من الحق بأسماع القلوب، فإذا سمعوا خطاب الحق من الحق يستولى على أسرارهم أنوار التجلي، ثم تستولي من الأسرار على الأرواح، ثم تستولي من الأرواح على العقول، ثم من العقول على القلوب، ثم من القلوب على الصدور، ثم من الصدور على الجلود، فتقشعر منها جلودهم من حيث وقوف أسرارهم على مشاهدة العظمة بنعت الخشية والإجلال والعلم به، وإذا وصل نور الأنس بنور العظمة ونور الجمال بنور الجلال سهل على وجودهم سطوات الكبرياء، فتلين جلودهم وقلوبهم بنور البسط والأنس، فزاد شوقهم إلى سماع الكلام من العلām؛ لهيائهم إلى رؤية جماله، ذلك قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وخطابه سبحانه سراج يستضيء بنوره كل راشد في المعرفة، مرشد في التوحيد، راسخ في المحبة، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: من الأولياء والأصفياء والمقربين والمؤمنين الصادقين.

قيل في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ و ﴿تَلِينُ﴾ أي: تقشعر بالخوف، وتلين بالرجاء.

وقيل: بالقبض والبسط.

وقيل: بالهية والأنس.

وقيل: بالتجلي والاستتار.

وقال الأستاذ: بالوعد والوعيد.

وقال النهرجوري: وصف الله بهذه الآية سماع المريدين وسماع العارفين.

وقال: سماع المريدين بإظهار الحال عليهم، وسماع العارفين بالطمأنينة والسكون.

﴿قُرْءَانًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: قرأنا قديماً ظهر من الحق على لسان حبيبه ﷺ، لا يتغير بتغير الأزمان، ولا ترهقه عبارات أهل الحدثان، يعوجه الحروف، ولا يحيط به الظروف، بل صفاته قائمة بالذات، تنتشر أنوار تجليه في ساحات الصدور، وعرصات القلوب، وصمائم الأرواح، وأماكن الأسرار، وأصداف الألسنة، وأوراق المصاحف، يخرج بوصف الحقيقة، فيلين منه الحق لأهل الحق.

سئل مالك بن أنس عن هذه الآية قال: غير مخلوق.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَبِكُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَبِكُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾: شبه الله المتشبتين همومهم المائلين إلى غير الله بالرجل الذي يملكه الشركاء المتشاكسون المتخالفون، وشبه المتفردين بنعت الإخلاص بالله وفي الله بالرجل السالم لرجل الخالص له لا يملكه غيره بل عبدٌ قنٌ له لا يدخل في صحة عبوديته خلل لأجل مدخل غيره، فالأول المحتجب بنفسه عن الحق، والثاني الشاهد بالحق على الحق، لا يحويه غبار العلل، ولا يدخل في قلبه قتام الخلل؛ إذ هو محفوظ برعايته القديمة وحراسته الأبدية، مثل هذا العبد لا يعرفه إلا عبدٌ مثله، ولذلك حمد الله نفسه حيث يجهله أكثر الخلق بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وحقيقة الحمد ههنا ظهور تقديس نفسه منه بالألا يعرف حقيقة جلاله أحدٌ غيره، وهو منزلة عن أن يكون ممدوحاً لألسنة الحدثان، بل حمد نفسه لعلمه بعجز الحامدين عن حمده.

قال ابن عطاء: ما لهم في حمد الله من الذخر والفخر.

قال جعفر: لا يعلمون أن أحداً من عباده لم يبلغ الواجب في حمده، وما يستحق من ائحمد على عباده بنعمته، وأن أحداً لم يحمده حق حمده إلا حمده لنفسه.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٢٨﴾
﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى

لِّلْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ﴾: فرَّق الله بين موت حبيبه ﷺ، وبين موت غير في مضمون الخطاب ومظنة الإشارة أي: إنك ميتٌ عند صعقات سطوات تجلي أزلياتي؛ حيث تفنى ضباب عصمتي عند ظهور أنوار كبريائي؛ حتى لا تحاسب عن وجودك في ظهور وجودي لك، فإن الحادث إذا قورن بالقديم زال الحادث وبقي القديم، ﴿وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ﴾ بنزع الأرواح منهم، وأيضاً: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ منسلخ من العلل الإنسانية حي بالأنوار الربانية، ﴿وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ﴾ عن رؤية شرفك وعن إدراك مقاماتك، إنك ميت عن غيرنا حي بنا، وإنهم ميتون عن الدنيا، فإذا كان يوم المعاد تظهر مقامات كل أحد، فيخص بعضهم بالانبساط، وبعضهم من الكمود على ما فات عنه من كرائم مواهبه السنية ولطائفه الكريمة.

قال ابن عطاء: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي: غافل عما هم من الاشتغال بالدنيا، ﴿وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ﴾ عما كوشفت به من حقائق التقريب والقرب.

وقال بعضهم: إنك ميت عن بشرتك باطلاع بركات الحق عليك.

وقيل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ عن رؤية الأكوان بما فيها بمشاهدة المكون^(١).

وقال أبو العباس بن عطاء: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ عن شواهد ما استتر، ﴿وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ﴾ عن شواهد ما أظهر.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: وصف الله كل صادق يعرف مقامه وحاله بين يدي الله، فصدق بما أعطاه الله من الولاية والكرامات والمشاهدات والفراسات والخطابات والمكاشفات، ولا يجري على قلبه شك ولا ريب مما نال من الحق، ولا يتردد في حاله، بل متمكن مستقيم، لا يضطرب عند طوارق الامتحان، وأيضاً وصف الحبيب صلوات الله وسلامه عليه والصديق الذي هو أول من قبل منه الرسالة ﷺ.

(١) إشارة إلى نعيه ﷺ ونعي المسلمين إليهم ليفرغوا بأجمعهم عن ماتمهم ولا تعزية في العادة بعد ثلاث ومن لم يتفرغ عن ماتم نفسه، فإذا فرغ قلبه عن حديث نفسه وعن الكونين بالكلية، فحيثئذ يجد الخير من ربه وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم. حقي (١٢/٢٧٩).

قال ابن عطاء: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وأفاض من بركات أنوار صدقة على أبي بكر ﷺ، فسُمِّيَ صديقًا، وكذلك بركات الأنبياء والأولياء.

قال الطمستاني: كل من استعمل الصدق بينه وبين الله شغله صدقه مع الله عن الفراغ إلى خلق الله.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۚ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضَرَّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ۚ قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۚ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾: فيه من العتاب نبذة من الحق، عاتب عباده بلفظ الاستفهام أي: هل يجري على قلوبهم إن تركهم عن رعايتي وحفظي؟ كلا بل أنا أراعيهم وأحفظهم عن منازل الخطرة، يضرهم جريان امتحاني؛ فلاني أحببتهم في أزل أزلي، فبقيت محبتي لهم إلى أبد الأبد، لا تسقطهم عن عيني، ومن يجترئ أن يقوم لمخاصمة من في نظري! وهذا مذهب كل متوكلٍ راضٍ عن ربه من حيث ما رأى من محافظته وخفايا ألطافه ما يطمئن به صدره عند كل مهالك.

قال أبو بكر بن طاهر: من لم يكف بربه بعد قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ فهو في درجة الهالكين.

قال ابن عطاء: خلع حبل العبودية من عنقه من نظر بعد هذه الآية إلى أحد من الخلق، أو رجاهم، أو خافهم، أو طمع فيهم.

وقال الأستاذ: ﴿أَلَيْسَ﴾ استفهام، والمراد منه التقرير، و﴿أَلَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ اليوم في عرفانه لتصحيح إيمانه ومنع الشرك عنه، وغداً في إحسانه بإدخاله جنته وتأخير العذاب عنه وما بينهما، فكفايته تامة ولأتمته عامة.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۚ﴾ أمر

اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾: خلق الله الأرواح قبل الكون بين النور والسرور، وتجلّى لها من حسنه وجماله، فارتاحت بروح ملكوته، واستبشرت بجمال جبروته، فلما أدخلها في الأجساد انقبضت من الاحتجاب بها عن تلك النسائم، فتشامت، واستنشقت نفحات معادنها في الأشباح، فيتلطف عليها الحق سبحانه، فيخرجها كل ليلة من الأشباح، ويطيرها في بساتين ملكوته، ويلبسها سربال نوره، حتى تجددت عليها لذائد المحبات وحلاوات المشاهدات، وتزيد رغبتها في قرب مولاها وخدمته، فمن حان أجلها من خروجها من الدنيا إلى الحضرة يمسكها عند توفيقها إما بالموت وإما بالنوم، ومن بقي لها بعض سيرها في عالم الامتحان يرسلها إلى محلها إلى وقت خروجها بالكلية إلى عند مولاها، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ تَصْعَدُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى تَحْتِ الْعَرْشِ، فَمَنْ نَامَ عَلَى طَهَارَةٍ أُذِنَ لَهَا بِالسُّجُودِ، وَمَنْ لَمْ يَنْمَ عَلَى الطَّهَارَةِ لَمْ يُؤْذَنَ»^(١).

قال سهل: إن الله إذا توفى الأنفس أخرج الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيفي، فالذي يُتَوَفَّى في النوم من لطيف نفس الطبع، لا لطيف نفس الروح، والنائم يتنفس تنفساً لطيفاً، وهو نفس الروح الذي إذا زال لم يكن للعبد حركة وكان ميتاً.

وقال: حياة نفس الطبيعي بنور لطيف، وحياة لطيف نفس الروح بذكر الله.

وقال أيضاً: الروح يقوم بلطيفة في ذاتها بغير نفسي الطبع، ألا ترى أن الله خاطب الكل في الذر بنفس وروح وفهم وعقل وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف؟

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾: بيّن أنه مرجع الكل الشافع والمشفع؛ حتى يرجع العبد العارف إليه بالكلية، ولا يلتفت إلى أحدٍ سواه.

قال الواسطي: قطع أطماع العباد عن أن يصل إليه أحدٌ إلا به بقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾، و﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٥﴾

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (١١٦/٣) بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾: صورة الآية وقعت على الجاحدين والمنكرين الذين ليس في سجيّتهم إلا متابعة الأشكال والأمثال من حيث التشبيه والخيال؛ لأن قلوبهم خلقت على مشاكلة الأضداد والأنداد وقبولها، ولم يكن في قلوبهم سجية طباع أهل المعرفة بالله، فإذا سمعوا ذكر من لا يدخل في الخيال والمثال انقبضت قلوبهم وصدورهم، ونفرت عقولهم عن الاستقامة في الإقبال إلى الموجود الواحد بالوحدانية، القديم بالأزلية، الباقي بالأبدية، المنزه عن إدراك الخليقة، فإذا سمعوا ذكر غير الله من الصورة والأشباح سكنت نفوسهم إليها من غاية غباوتهم وكمال جهالتهم، وهم مثل الصبيان؛ إذ هم يفرحون بالأفراس الطينية والأسود الخشبية، ولا يطيقون أن ينظروا إلى عدو العاديات، وأن ينظروا إلى صوارم الباديات، ومعنى الآية يقع على ضعفاء المريدين الذين طابوا برؤية الالتباس في مقام المحبة، فإذا بدا بادٍ من أنوار سطوات عظمتة جلّ جلاله بقلوبهم فنيّت قلوبهم، وطاشت عقولهم، واضمحلت أرواحهم، فإذا خرجوا من تلك البحار ورأوا أنوار الصفات في الآيات يستبشرون بقوة الوسائط في رؤية الصفات.

قال سهل: جحدت تلك القلوب مواهب الله عندها.

قال أبو عثمان: كل قلب لا يعرف الله فإنه لا يأنس بذكره ولا يسكن إليه ولا يفرح به، ألا ترى قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ ١٩؟

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ٢٠ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ٢١.

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾: هذه الآية خبرٌ من الله للذين فرحوا بما وجدوا في أوائل البدايات مما يغترّ به المغترون، وقاموا به، وظنوا ألا مقام فوق مقامهم، فلما رأوا ما بخلاف ظنونهم لأهل معارفه وأحبائه وعشاقه من درجات المعرفة وحقائق التوحيد ولطائف المكاشفات وغرائب المشاهدات ماتوا حسرة، وأيضًا سكن قوم إلى الأنوار وظهور بدائع صنيع الحق، واطمأنوا إليها، وظنوا أنها هو، وهم أهل الغلطات، فلما بدا لهم من الله جلال عزته وعزائم قدرته علموا أنهم ليسوا على شيء من معرفة الله، وظاهر الآية يتعلق بأهل الرياء والسمعة الذي يعجبون قبول الخلق واستحسانهم ظواهرهم من الزيِّ والعبادة، واغترّوا بمراعاتهم، وظنوا أنهم على شيء عند الله من ذلك، فإذا بدا لهم من الله بيانًا يوم القيامة أنهم مشركون بالرياء والسمعة افتضحوا هنالك عند العارفين

والصديقين، وافهم أيها الناظر في هذا الكتاب أن لنا من العلوم المجهولة ذوقاً، وذلك الذوق لا يليق بفهم أهل الطيلسان والطرق، ومن ذلك أن الكفر والإيمان طريقان من القهر واللطف إلى عرفان وحدانيته، فبلغ المؤمن إليه بطريق الإيمان واللطف، ويبلغ الكافر إلى رؤية قهرياته بالحقيقة عند المعاينات، فإذا عرف أنه هالكٌ فيها واقتحم في ظلماتها يبدو له في أحيان من الله سبحانه كشوف جلاله وجماله وعلومه الأزلية والطافه الأبدية ما يضمنحل فيها نيران جميع جهلهم، وهو لا يحتسب ذلك منه، ومن أنت من العبد، والرب قوله صدق، ووعدته حق، وإشارته حقيقة، فأول الآية واضحة، وآخر الآية إشارة.

قال سهل في قوله: ﴿وَيَدَا لَهُمْ﴾: أثبتوا لأنفسهم أعمالاً، فاعتمدوها، فلما بلغوا إلى المشهد الأعلى رأوها هباءً منثوراً، فمن اعتمد الفضل نجا، ومن اعتمد أفعاله بدا له منها الهلاك.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّفَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَتُولَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّفَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٢﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾^(١): شكا الله سبحانه عن المدعين الذين يقولون نحن أهل، فإذا وصل إليهم بلاؤه فزعوا إليه؛ ليرفع عنهم البلاء، ولا يفزعون إليه من وجدان ذوق رؤية المبلي في بلائه؛ ليستزيدوا منه الذوق، بل يطلبوا منه راحة أنفسهم، وهم مشركون في طريق المعرفة، وإذا وصل إليهم نعمة الظاهر تركوه، واحتجبوا بها، فإذا هم الحجاب من كلا الطرفين احتجبوا بالبلاء من المبلي وبالنعمة من المنعم.

قال الجنيد: من يرى البلاء ضرّاً فليس بعارف؛ فإن العارف من يرى الضر على نفسه رحمة، والضر على الحقيقة ما يصيب القلوب من القسوة والران، والنعمة هي إقبال القلوب على الله، ومن رأى النعمة على نفسه من حيث الاستحقاق فقد جحد النعمة.

(١) أي أعطيناه على عظمتنا متفضلين عليه محسنين القيام بأمره وجعلناه خليقاً بحاله جديراً بتدبيره على غير عمل عمله محققين لظنه الخير فينا وأحسننا تربيتنا له والقيام عليه مع ما فرط في حقنا (نعمة منا) ليس لأحد غيرنا فيها شائبة منّ ولولا عظمتنا ما كانت. نظم الدرر (٧/ ٢٦٥).

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: بسط الحق في هذه الآية بساط عطايا، وفجر أبحر كراماته لعطاش الرحمة، ورفع سجوف الغيرة عن أطباق الأسرار أي: إيش بكم عبادي، مني تخافون، ومن رحمتي تقنطون، لا تخافوا، ولا تحزنوا؛ فإني أحببتكم في الأزل، وحكمت بإجراء الذنوب عليكم، وأنا عالم في الأزل بذنوبكم قبل وجودكم، ولو كنت غضبان عليكم بذنوبكم ما أحببتكم، في الأزل أجريتها عليكم؛ لافتقاركم إليّ؛ وعجزكم بين يديّ، كيف يقدح ذنوب الأولين والآخرين على بحار رحمتي الواسعة، وجميع الحداث أقل من قطرة في بحار رحمتي! فأنا فتحت خزائن جودي يدخل عصيان جميع خلאתي في حاشية من حواشيها، وهذه الآية من أعظم توجيه العباد جميعاً، يُسَلِّي الله بها قلوب الخائفين الذين يحتشمون من دقائقه، فيقول: لا بأس بكم؛ فإني أغفر الصغائر والكبائر والأسرار والضمائر، أطهركم عن الجميع، وأبسكم أنوار رحمتي حتى تبقوا معي أبداً، وتنظروا إلى وجهي الكريم بلا حساب ولا عتاب ولا حجاب ولا عذاب.

قال سهل: أمهل عباده تفضلاً منه على آخر نفس، فقال لهم: لا تقنطوا من رحمتي، ولو رجعتكم إلى بابي إلى آخر نفس لقبلتكم.

قال الجريري: أمر الله عباده ألا يعتمدوا أعمالهم، ولا يقنطوا من التقصير فيها؛ فإن الرعاية والعناية سبقت بالعبادة، ألا تراه يقول: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ﴾.

وقال يحيى بن معاذ: في كتاب الله كنوزٌ موجبةٌ للعفو عن جميع المؤمنين، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ﴾.

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ (١٠١) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي: ارجعوا بنعت التفريد عن غيره، إليه خاشعين، متضرعين مشتاقين إلى جماله، مستحيين منه مما مضى في سالف الدهور عنكم بغير أنفاس مراقبة هلال جماله، نادمين من ذلك، وانقادوا له كالعاشق الواله المشغف الشائق المتضرع بين يدي معشوقه احتياجاً منه إليه حين تدركونه بوصف الجلال والجمال

والعز والبقاء.

قال سهل: ارجعوا إليه بالدعاء والتضرع والمسألة.

وقال في قوله: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾: فوضوا الأمور إليه.

قال محمد بن علي: اعتذروا إليه مما سلف عنكم من التقصير، وأخلصوا على دوام الموافقة بعده.

وقال محمد بن حنيف: همة النبي حنين القلب إلى أوقاته العامة وعبادته الكاملة.

قال الحسين: الإنابة جاءت من قبل المعرفة، وأحسن الخلق إنابة إلى الله ورجوعاً إليه أحسنهم به معرفة.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾
 ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾
 ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾
 ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ أَيْتِي فَكَذَّبْتُ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتُ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾
 ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾: بين الله سبحانه أن من لم يرجع إليه بنعت الشوق والمحبة واشتغل بحفظ نفسه ووافق طبعه أيام الفترة تأسف على ذلك، وعلى ما قصر في فناء نفسه لله وفي الله في وقت كسوف الأعظم، وأيضاً أي: اطلبوا الحق بالحق؛ حتى تعرفوا أنكم لا تعرفونه بالحقيقة، وانظروا إليه بعينه؛ لتعلموا أن الحادث لا يدرك القديم، ولا تغتروا بصفاء أوقاتكم وطيب مواجيدكم؛ فإنه أعز وأعظم من أن يكون لأحد من أهل الحدثان، إنما هو لنفسه لا للغير، ولا لأحد إليه سبيل لدرك حقائق نعوته الأزلية، فإن لم تكونوا كذلك كثيراً تقولون وقت كشف جماله وجلاله: ﴿يَحْسَرُنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ مما ترون من عزة كبريائه التي تقدست من أن يلحقه أحد بنعت المعرفة الحقيقية.

قال سهل: من ترك المراعاة لحق الله وملازمة خدمته اشتغل بعاجل الدنيا ولذة الهوى ومتابعة النفس، وضيع في جنب الله أي: في ذاته من القصد إليه والاعتماد عليه.

وقال فارس: يقول الله من هرب مني أحرقته أي: من هرب مني إلى نفسه أحرقته بالتأسف على فوتي إذا شاهد غداً مقامات أرباب معارفي، يدل عليه قوله: ﴿يَحْسَرُنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾، وهذا لا يقوله إلا محترق.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَأُيُبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: انقطعوا عن الكل بالكلية، فما يرجع إلينا بالحقيقة أحد، وللغير إليه أثر، وللاخوان على سره خطر، ومن كان لنا كان حراً مما سوانا.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ الشَّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١)
قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ الشَّوْءُ﴾ أي: يُنَجِّي الله الذين تقدس أسرارهم من الالتفات إلى الحدثنان في محبة الرحمن عن الحجاب والحرمان يوم الكشف والعيان، ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾^(٢): بما كان لهم في الله في أزل أزله من محبتهم وقبولهم بمعرفته وحسن وصاله ودوام شهود جماله، ﴿لَا يَمَسُّهُمْ الشَّوْءُ﴾ أي: لا يلحق بهم في منازل الامتحان تفرقة عن مقام الوصلة وحجاباً عن جمال المشاهدة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفوت المراد في المعاد.

قال الواسطي: ينجيهم بما سبق لهم من الفوز، ﴿لَا يَمَسُّهُمْ الشَّوْءُ﴾: زوال النعمة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على الفوات.

وقال القاسم: بسعادتهم السابقة وقضيتهم فيهم الماضية لهم وعليهم، لا بنفوسهم المتعبة في العبادات.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد قال: بسعادتهم القديمة صدق أكابر القوم في هذه الآية بأن نجاة الصديقين بالسعادة الكبرى مما يحل يوم القيامة على أهل الدعوى الذين ما شمووا رائحة المقامات، وما سلكوا مسالك المجاهدات، وما أدركوا من لوائح أنوار المشاهدات ذرة، فيفتضحون يوم القيامة عند وجوه الصادقين، بقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾، بل هم يفتضحون في الدنيا عند أهل معرفة الله.

قال يوسف بن الحسين: أشد الناس عذاباً يوم القيامة من ادعى في الله ما لم يكن له بذلك، وأظهر من أحواله ما هو خالٍ عنها، قال الله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

(١) بفوزهم، مصدر ميمي، يقال: فاز بالمطلوب: ظفر به، والباء متعلقة بمحذوف، حال من الموصول، مفيدة لمقارنة نجاتهم من العذاب بنيل الثواب، أي: ينجيهم الله من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم أو: بسبب فوزهم بالإيمان والأعمال الحسنة في الدنيا، ولذا قرأ ابن عباس: (بمفازتهم بالأعمال الحسنة) البحر المديد (٣٣٧/٥).

وقال النوري في هذه الآية: هم الذين ادّعوا محبة الله، ولم يكونوا فيها صادقين.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: افهم يا مبارك سر هذه الآية؛ فإن الله سبحانه أخبر فيها من سر نفسه كان في أزل الأزل بحار الألوهية متلاطمة قهارة زاخرة، ولم يكن لمكان قهره مقهور ولعزته ذليل، فغلب عزه قهره وجلال سلطانه ونور مشيئته وإرادته، فأوجد الكون، فجاء الكون من العدم مقهوراً ذليلاً لقهره وعزته قهر المخلوقات؛ إذ لم يكن في القدم مكان القهر والمقهورية، فإذا تصاغر الأكوان في قدم الرحمن وسطوات كبريائه، وكادت تضمحل أمسكها بلطفه من قهره، وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وقال الحسين: كل شيء أراد الله به الإهانة والتذليل ألبسه لباس المخلوقية؛ ألا نرى كيف نزه عن ذلك صفاته وكلامه؟ قال: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، المخلوقات ليس لها عز إلا بالنسبة إلى خالقها، وأنها مخلوقة، فنسبته إليها أعزها.

قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مقاليد قدرته القديمة، وإرادته الأزلية، أبواب الأكوان متعلقة بأفعال المشيئة، في خزائنها أنوار القدوسية، وعرائس المشاهدة في حجال الأفعالية، فإذا أراد للعبد العارف السعادة الكبرى يفتح أبوابها بمقاليد حتى يبرز منه لأبصار عشاقه أنوار جماله، فيعيشون بلذة مشاهدته، ويطيبون في لذة المواجيد، ويفرحون بما يجدون من نضارة وجهه الكريم، ويطيرون في سنا قربه وهواء هويته بأجنحة المحبة والمعرفة والمودة.

قال سهل: بيده مفاتيح القلوب، يوفق من يشاء لطاعته وخدمته بالإخلاص، ويصرف من يشاء عن بابه.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾: إن الله سبحانه حث حبيبه عليه الصلاة والسلام على تعبير الغالطين والمقبلين إلى الدنيا بأنهم جاهلون حق الله وحق عبوديته؛ إذ لا يقع للحدثان عبودية، بل لا يستحق للعبودية إلا الرحمن القديم أي: كيف أعبد غير الحق، وأنا أعرف عجز الحدثان، وكيف أنصرف من الخالق إلى المخلوق، وأنوار سلطان قهره محيطه بكل ذرة من العرش إلى الثرى أي: أنا محفوظ مصون بصون الأزلية

وعناية الأبدية عن أن يجري على قلبي الشرك في ربوبية خالقي.

قال أبو عثمان: عبادة الله على الإخلاص تنفي عن صاحبه الجهل والريب والشبهة.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِّمِمينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾.

قوله تعالى: ﴿لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾: هذا من أوائل أحوال النبي ﷺ حين دخل فرسان أسرارهِ في ميادين الآزال والآباد، ورأى جبروتًا في جبروتٍ وملكوتًا في ملكوتٍ وعزًّا في عزٍّ وبحرًا في بحرٍ وسلطانًا في كبرياء وكبرياء في عظمة، فما رأى للقديم الأزلي أهلاً من الحدثنان، وما رأى أثراً من نفسه في جناب الربوبية، فكاد يخطر بقلبه أنه معطل، قال الله: كلا ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾: يعني الرسالة والنبوة والأنباء العجيبة، ولا شك في حالك؛ فإنك مكرَّمٌ بسابق عنايتي واصطفائي الأزلية، ولك إخوان حلَّ بهم ما حلَّ بك من الأحوال السنية وغرائب أنوار العزة، انظر إلى ما وهبت لك من تلك الكرامات، ولا تنظر إليها مني؛ فإن الالتفات إلى المقامات في المكاشفات والمشاهدات شركٌ، وإذا وقفت عني على حظك مني لتحبطن أحوالك؛ فإن الكل قائمٌ بي.

قال أبو العباس بن عطاء: أي: لئن طالعت بسرَّك إلى غيري لتحرمنَّ من حظك من قربي.

وقال ابن عطاء: هذا شرك الملاحظة والتفاتٍ إلى غيره.

وقال جعفر: لئن نظرت إلى سواه لتحرمن في الآخرة لقاءه، ثم أكد إلا وعليه الحق سبحانه في إفراده عن غيره وإقباله إليه بنعت ترك ما سواه.

قال: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ أي: كن خالصاً لله لا لغيره فيك نصيب، وكن شاكرًا له بنعت ألا ترى صنيعك في البين شيئاً، وأظهر عجزك في معرفة المشكور؛ فإنه الشكر لا غير، واسكن عن الشوق إلى إدراك كل القدم؛ فإنه لا يدخل تحت إدراك الحوادث، وهو أجلُّ عن أن تدركه بنعته بمعنى الإحاطة، وخذ ما آتيتك، وكن من الشاكرين؛ فإن الخلق لا يصلون إلى كنه الأزليات والأبديات، وذلك قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: كيف يقدرُونَ حق قدره ونعوته الأزلية جلت من أن تحويها الحوادث، وتحيط بها الأماكن، وتدرکہا الأبصار، وتفطنها الأفهام والأفكار، والأرواح محترقة في أول بوادئ

أنوار قدرته، والعقول فانية في لمعان بديع صنائعه، والقلوب مضمحلة في لزوم واردات
تقلب قضائه وقدره؟! علم سبحانه عجز الخليقة عن وصف جلاله وإدراك كماله؛ فإنهم لا
يحتملون ذرة من أنوار ذاته وصفاته عند ظهور كشفها بنعت غلبة قهره على الأكوان
والحدثان، فأجل القول بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾؛ حيث وصفوه بنعت الأنداد
والأضداد، ثم فصل من بطون الأفعال ولوائح أنوار بعض الصفات، فقال: ﴿وَالْأَرْضُ
جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾؛ لو وصف حقيقة نفسه
بغير ذكر الأكوان والأفعال لغابوا في مهمة الأوهام، وما تخلصوا أبدًا من تراكم الأفكار في
طلب الأسرار، بل أحالهم إلى رؤية الفعل المحيط به صفاته أي: كيف تدركون من كان قهره
وعظمته في مباشرة فناء العالم هكذا من حيث عقولكم، وأن السماوات والأرضين أقل من
كرة في ميادين قهر صفاته؟! وعندكم أن العظيم لو يكون من يقطع جبيلة من الجبال، فذكر
فعله على حد عقولهم، فلما علم ترددهم في مماثلته أفعاله ووقوع عقلهم في أودية الإشكال
ومخائيل الأبعاد نزه نفسه عن ذلك في آخر الآية، كما نزه نفسه في أولها، فقال: ﴿سُبْحَنَهُ
وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس عن أن يقيسه المتقايسون أو يشير إليه المشيرون،
أول الآية ذكر قدم القدم لأهل الفناء في التوحيد الذاتي، وأوسط الآية ذكر ظهور جلاله
وجماله بنعت الالتباس في آياته الأفعال للعاشقين، وآخر الآية ذكر حقيقة السر الصفاقي بنعت
التقديس والتنزيه، ووصف أفراد قدمه عن الحدوث، فرؤية الذات لأهل الفناء، ورؤية
الصفات لأهل البقاء، ورؤية الجمال والجلال في الأفعال لأهل العشق، وكلهم معزولون عن
ساحة الكبرياء بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(١): ما عرفوه حق معرفته في الأصل
ولا في الفرع.

وقال الحسين: كيف يعرف قدره من لا يقدر قدره سواه.

(١) القدر بمعنى التعظيم كما في القاموس فالمعنى ما عظموا الله حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكاً بما لا
يليق بشأنه العظيم ويقال قدر الشيء قدره من التقدير كما في المختار. فالمعنى ما قدروا عظمته تعالى في
أنفسهم حق عظمته، وقال الراغب في المفردات ما عرفوا كنهه.
يقول الفقير: هذا ليس في محله فإن الله تعالى وإن كان لا يعرف حق المعرفة بحسب كنهه؛ ولكن تتعلق
به تلك المعرفة بحسبنا فالمعنى ههنا ما عرفوا الله حق معرفته بحسبهم لا بحسب الله إذ لو عرفوه
بحسبهم ما أضافوا إليه الشريك ونحوه فافهم. تفسير حقي (١٢ / ٣٢٥).

قال الواسطي: لو طالعوا حق حقه في محبتهم لعلموا العجز عن ذلك بالكلية، فلم يعرف قدره من ادعى لنفسه معه مقاماً، قال الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

سئل الجنيد عن قوله: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ﴾: متى كانت منشورة حتى صارت مطوية؟! سبحانه! نفى عن نفسه ما يقع على العقول من طيها ونشرها؛ إذ كل الكون كخردلة أو كجناح بعوضة أو أقل منها، كذلك قال في قوله: ﴿قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾: كيف لا يستحيل قيامه على هذا الكون الذي لا يزن ذرة عنده، بل قيامه بنفسه لنفسه؟!.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئْنَا بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾: أول النفخ والصعقة ترشح أنوار قهر العظمة على الأكوان والأماكن والأزمان والهيكل والأمثال والصور والأشكال والأرواح القدسية الملكوتية في أكناف لطافة قائمة بوجوده، لا يقع عليها تلوين الصفات والفرع والعقوبات، وثاني النفخ والصعقة ظهور أنوار جماله في أنوار جلاله، فمن ذلك تحيا الأنفس، وتقوم الأشباح بنور الأرواح، ينظرون إلى سرادق الكبرياء وساحة العظمة والبقاء، ينتظرون وقوع نور الكشف بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، يتجلى الحق سبحانه أرض أرواح العارفين والأنبياء والمرسلين، وأرض قلوب الصديقين والمقربين، ويظهر نور جماله لأبصار الواهين العاشقين، ثم يستضيء بأنوارها أرض المحشر للعموم والخصوص، تعالت صفاته من أن يقع على الأماكن، أو أن يكون محلاً للحدثان، يا عاقل لا يكون ذرة من العرش إلى الثرى إلا وهي مستغرقة في أنوار إشراق آزاله وآباده.

قال سهل: قلوب المؤمنين يوم القيامة تشرق بتوحيد سيدهم والاقتداء بسنة نبيهم ﷺ. قال القاسم: أشرقت الأرض بأولياء الله؛ فهم فيها أنوار الله ومواضع حججه وغياث عباده وملجأ خلقه.

وقال جعفر في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: أهل الاستثناء محمد ﷺ وأهل بيته وأهل المعرفة.

قال بعضهم: هم أهل التمكين والاستقامة الذين استقاموا لله على بساط العبودية،

فمكّن الله أسرارهم لحمل الموارد.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾: في هذه الآية سرٌ لطيفٌ، ذكر الله سبحانه وصف غبطة الملائكة على منازل الأولياء والصديقين، وذلك قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: أنتم في مشاهدة جماله أبدًا طيبون بلذة وصاله، سالمون عن الحجاب أبدًا، وأيضًا هذا سلام الله ولكن بالواسطة، والسلام الخاص بعد دخولهم في الحضرة بقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾. قال ابن عطاء: السلام في الجنة من وجوه: منهم من يسلم عليهم خزنة الجنة، ومنهم من يسلم عليهم الملائكة، ومنهم من يسلم عليهم الحق لقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾: هذا حمدٌ بعد الوصول، وثناءٌ عليه بعد مشاهدة وصاله من فرح وجدان مواعده الجليلة ومواهبه السنية، حمدوه بعدما وجدوه بالسنة ربانية ملتبسة بنور مدحه، استعاروا لسان المدح من الحق، فاثنوا به على الحق، وإلا كيف يحمدونه بالسنة حديثة معلولة قاصرة عاجزة؟

قال ابن عطاء: إن العبيد إذا شاهدوا في المشهد الأعلى آثار الفضل وما أنعم عليهم من فنون النعم التي لم تكن يبلغونها بأعمالهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾ بفضلِهِ من غير استحقاقٍ منا لذلك، بل فضلًا وجودًا وكرمًا.

وقال جعفر الصادق: هو حمد العارفين الذين استقروا في دار القرار مع الله، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾: حمد الواصلين.

وقال أيضًا: نظروا في الدنيا من الله إلى الله، وإلى موعوده واثقين في الله، ساكنين إلى ما أعدَّ الله لهم.

قال سهل: منهم من حمد الله على تصديق وعده، ومنهم من حمده لأنه يستوجب الحمد في كل الأحوال لما عرف من نعمه وما لا يعرفه.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٧٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾: هذا خطابٌ مع النبي ﷺ حين كان يمر على الصفائح الأعلى فوق الملكوت رأى حراس المملكة طائفين حول العرش بالتحميد والتسبيح والتمجيد والتقديس، يمدون الله على إنجاز وعده لأهل محبته وشوقه، وبما لحق بهم من بركات العاشقين عند شروق أنوار المشاهدة وعند إقرار المتحققين من المدعين، فلما وصل الكل إليه يمدونه بحمده إذ هم يحتاجون إلى حمده، وهو محمود بحمده القديم، لا يختلط حمده بحمد الحامدين، وذلك قوله: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٧٦﴾.

رقال أبو علي الجوزجاني: ما تقرب أحدٌ إليه إلا بالافتقار والعبودية والتذلل والتنزيه له من كل ما نسب إليه مما لا يليق به؛ ألا ترى إلى مواضع الملائكة يحفون بالعرش يسبحون؟! وذلك عبادتهم وتنزيههم.

سورة غافر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَم ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ ٣ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ٤ مَا تَجَدَّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ٥ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٦ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ٧ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ٨ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٩ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ

وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١١﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَتْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٣﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٤﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٥﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٦﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٧﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَىٰ الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٩﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٢٠﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢١﴾

﴿حَم﴾ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ «الحاء» عين جنات الأزل، و«الميم» مناهل المحبة الخاصة الصفاتية الأبدية، ومن خصه الله بقربه سقاه من عين حياته حتى يكون حياً بحياته لا يجري عليه بعد ذلك طوارق الفناء؛ لأن الحق إذا تجلى من حياته التي هي صفته الأزلية لروح قدسي يخرجها من ضرر الفناء والموت؛ لأنه هو محل الاتصاف بصفته، وصفاته ممتعة من تغاير الحدثان، قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ثم سقاه من منهل محبته فيصير سكران شوقه وعشقه والهأ بجبال وجهه، لا يمنعه من ذلك الأكوان بأسرها، فمن حيث الحياة يحیی العالم بأنفاسه الربانية مثل عيسى عليه السلام، ومن حيث المحبة يطيب بجماله قلوب الخلائق أجمعين حتى يشاققوا من النظر إليه إلى جمال الحق مثل محمد ﷺ، ثم ينطق من جاء الحياة بعبارات الحكمة، ومن ميم المحبة من إشارات العلوم المجهولة التي لا يعرفها إلا الواردون على مناهل القدم والبقاء، ومعنى قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذان الحرفان اللذان هما مطيتان أحماهما مظنات هذه المعاني المنزلة من عند الله الحي القيوم الملك المهيمن العزيز المتكبر العليم الحكيم إلى الحبيب المحب الذي هو وسيلة الحق من الحق إلى الحق، والسفير منه إلى عباده وأحبائه ومشتاقه أي: من الله الذي ألوهيته عزيزة ممتعة عن مطالعة الخليقة الغالبة على كل ذرة من العرش إلى الثرى، عالم يبطون

الغيوب ومضمورات القلوب وحركات الأرواح وعلل الأشباح، يعز العارفين بعزته، ويشوق المحبين إلى جمال مشاهدته بمحبته الأزلية التي سبقت في الأزل لأهل خالصته، أنزل هذا التنزيل إلى سيد المرسلين، وإمام العالمين ليبشر بنزوله أهل نزل مواهبه السنية، ومعارفه المقدسة، وليفرح فؤاد المهتمين على ما جرى عليهم خطرات الامتحان، وهواجس النفس، والشيطان بقوله: ﴿عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ يستر ذنوب المذنبين بحيث يرفع عن أبصارهم حتى ينسوها ويقبل عذرهم حين افتقروا إليه بنعت الاعتذار بين يدي ربه.

﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لمن لا يرجع إلى المآب بأن عذبه بذل الحجاب.

﴿ذِي الطُّوْلِ﴾ لمن أفنى نفسه لنفسه، وطوله طول كشف جماله في أوقات الواردات والمواجيد، من خصه بالقرب والجمال، ثم وصف نفسه بالتنزيه والتقديس، ونفى الأنداد والأضداد في ربوبيته وغفران عبادته، وتعذيب عصاته بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ﴾ ﴿٢٠٠﴾ إليه يرجع كل مشتاق، وكل عارف محب عاشق، يقبل منهم عذرهم في تقصيرهم في العبودية، وقلة عرفانهم حقوق الربوبية، هو مصدر الكل، ومصير الكل مصادر القدم ومعادتهم، لا العدم، فإن العدم لا شيء في شيء، وهو موجد الأشياء بلا علل ولا حيل، ثم من غيرته يعدم الكل حتى لا يبقى في ساحة الكبرياء أهل الفناء، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

قال سهل في قوله: ﴿حَم﴾: الحى الملك، وفي قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾: هو الذي أنزل عليك الكتاب، وهو الله الذي ولّيت به قلوب العارفين، والعزیز من درك الخلق العليم بما أنشأ وقدر، ﴿عَافِرِ الذَّنْبِ﴾: أي: ساتره على من يشاء، ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾: أي: ممن تاب إليه، وأخلص العمل بالعلم له، ﴿ذِي الطُّوْلِ﴾: ذي الغنى من الكل.

قال بعضهم: ﴿عَافِرِ الذَّنْبِ﴾: كرمًا، ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾: فضلًا، ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾: عدلاً، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: فردًا، ﴿إِلَهِي الْمَصِيرُ﴾: تصديقًا للوعد.

قال بعضهم: غافرًا للذنوب المذنبين، وقابلًا توبة الراجعين، شديد العقاب على المخالفين، ذي الطول على العارفين.

قال الأستاذ: غافر الذنب لمن أصر وأجرم، وقابل التوب لمن أقر وندم، وشديد العقاب لمن جحد وعند، وذو الطول لمن عرف ووجد.

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ما يخاصم في هذه الإشارات التي رمز الحق فيها من غوامض علومه الإلهية إلا أهل التقليد من المنكرين.

قال سهل: هو المجادلة في الذات دون الفروع.

وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ابتدعوا غير الحق.

قال الخواص: ما كانت زندقة، ولا كفرًا، ولا بدعة، ولا جرأة في الدين، إلا من قبل الكلام، والجدال، والمراء، والعجب، وكيف يجترئ الرجل على الجدال والمراء، والله يقول: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ وصف الله عراف ملائكته الذين ألبسهم الله قوة جبروته، ونور ملكوته، وهم اللاهوتيون يحملون كنز الأعظم بعظمة الله وقوته، والسكر من شراب قربه ومحبه، وفيض مشاهدته، يطرون في هواء هويته بالأجنحة القدوسية، والرفارف السبوحية، مع مرآة الوجود، وكنوز الجود حيث يشاء الحق سبحانه من الأماكن والمشاهد، يسبحون مما يجدون منه القدس والتنزيه، حمدًا لأفضاله، وبأنه منزّه عن النظر والشبه، يؤمنون به في كل لحظة بما يرون منه من كشف صفات الأزليات، وأنوار حقائق الذات التي تطمس في كل لمحة مسالك رسوم العقليات، وهم يقرون كل لحظة بجهلهم عن معرفة وجوده.

ثم يئن أنهم أهل الرقة والرحمة والشفقة على أوليائه؛ لأنهم إخوانهم في نسب المعرفة والمحبة، يستغفرون لهم حين أقروا كلهم بأنه تعالى لا يدركه غوص الأوهام، ولا يحويه بطون الأفهام، سألوا غفرانهم لما جرى على قلوبهم من أنهم على شيء في معرفته: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أوجدت الوجود برحمتك القديمة، وعلمك الأزلي حتى لا يخلو ذرة من العرش إلى الثرى من رحمتك وعلمك، وجعلت الكل مرآة لنفسك، تجليت منها لأهل الخضوع من العارفين تظهر أنوار جمالك منها لأهل رحمتك، وهم أهل المحبة والعشق والشوق، وتبرز منها بنعت الجلال والألوهية والقدم والبقاء لأهل المعرفة والتوحيد.

﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: اغفر للذين

تابوا من وجودهم في وجودك، ورجعوا من دونك إليك، واستقاموا سبيل المعرفة بعظمتك وجلالك، وعجزهم عن إدراك عزتك بأنك تأويهم إلى أكناف قربك، وترجيهم من صولة جبروتك، بما تكاشف لهم من جمال سرمديتك، عجبت من رحمة الملائكة المقربين كيف تركوا المصرين على الذنوب عن استغفار هذه قطعة زهد وقعت في مسالكهم؟ أين هم من قول سيد البشر ﷺ حين آذوه قومه، قال: «اللهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون»^(١).

(١) رواه البخاري (١٢٨٢/٣)، ومسلم (١٤١٣/٣).

أعموا الأشياء بالرحمة ثم أخصوا منها التائبين، يا ليت لو بقوا على القول الأول، وسألوا الغفران للجميع التائبين والعاصين.

قال ابن عطاء في هذه الآية: من خلقوا مطيعين قائمين لله بالتسبيح والتنزيه، يستغفرون لمذنبى المؤمنين، وهم غافلون عن الندم على ذنوبهم والاستغفار منها.

قال بعضهم: الطالب للمغفرة من يتبع الرشد، ويخالف نفسه ومراده.

وقال سهل في قوله: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾: من الغفلة وأنسوا بالذكر واتبعوا سنة المصطفى ﷺ.

قوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ يرفع درجات المريدين إلى الكرامات، ويرفع درجات المحبين إلى المشاهدات، ويرفع درجات العارفين إلى معرفة الذات والصفات، ويرفع أهل المواجيد إلى شهود الجمال، وأهل السلوك إلى مشاهد العظمة والجلال، ويرفع الزاهدين إلى الجنان، ويرفع المنقطعين إليه إلى درجة الإيقان والعرفان، ويرفع النفوس بعد تقديسها بانجادة والرياضة إلى جنته، ويرفع العقول إلى رؤية أنوار سلطانه في برهانه، ويرفع الأرواح إلى قرب مجالس الأنس، ويرفع الأسرار إلى مراقبي القدس، ويرفع إليه سرًا خالصًا من جميع الدرجات حتى لا يبقى بينه وبين الحق درجة، وصار أنوار الذات والصفات منازل شهوده فيكشف كل نور له فيغيب في الأنوار، ويفنى في الأسرار، ثم يفنى في البقاء، ويبقى الحق بالحق ولا فوق الحق إلا الحق، وهو فوق كل الدرجات بقهر الربوبية وسلطنة الكبرياء، وذلك قوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: ذو العرش الذي يحيط بجميع الكائنات، وهو أقل من خردلة في جلال عزة كبريائه ذكر العرش على حد العقول؛ لأن العقل لا يصل إلا إلى مثله وهناك عالم العقل فتستقر العقول هناك، وهو متعلق بأفعاله تعالى، والأفعال قائمة بصفاته، وصفاته قائمة بذاته، وذلك سر استوائه على العرش فجواب الاستواء قوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: مقهور لسلطان عزته، محتاج إلى لباس نور قدرته، مكون بإيجاده تعالى الله بذاته وصفاته عن أن يشهده الأماكن والجهات، هو منور بنور تجلي صفاته، وهو مرآة فعله يظهر منها مقدرات الآيات، وقضايا العلم والقضاء والقدر، وهو روح فعلي فوقه روح صفتي، وفوق تلك الروح روح ذاتي، وذلك تجلي الصفات، وتجلي الذات يلقي تلك الأرواح على من يشاء من خلقه، فروح الأفعال للمؤمنين، وروح الصفات للمحبين، وروح الذات للعارفين، وذلك قوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ فيقع الأمر على ما ذكرنا، فأمره فعله، وقوله وصفاته وذاته، فظهور نور الذات أمر خاص للأنبياء والمرسلين، وظهور نور الصفات أمر خاص لأهل المعرفة والتوحيد، ونور العقل أمر بديهي لأهل محبته والموقنين في رؤية آياته، فهؤلاء مخلصون

بتلك الأرواح من حيث الوحي والرسالة والإلهام والحديث وانكلام والكشف والعيان ليخوفوا العباد من المشهد العظيم، وبروز سطوات عظمة العظيم يوم المشاهدة ويوم المكاشفة ويوم المخاطبة حيث يلقي المحب المحبوب، والعاشق المعشوق، والعبد الرب، والعارف المعروف، والموحد الموحد، تعالى بقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أي: يوم كشف اللقاء.

ثم وصف ذلك اليوم بقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أي: يوم بروزهم في ميادين ملكوته، وصحارى جبروته، بارزون على مراكب النور في ميادين السرور، لو رأيت يا حبيبي هنالك زفرات الواهين، وعبرات الشائقين، وشهقات المشتاقين، وغلبات المحبين، وعريدة العاشقين، وانبساط الصديقين، وسكر العارفين، ووله الموحدين، وذلك عند كشف نقابه وظهور جمال وجهه تعالى، وهو يعلم أسرار الجميع لا يخفى عليه أحوالهم وأسرارهم، قال الله سبحانه: ﴿لَا تَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾، محيط بضمايرهم، ويعلم مراداتهم، فلما تمكنوا يرفع عن أبصارهم جميع الحجب، ويريههم سبحات جمال القيومية، فيفنى فيها الأولون والآخرون، فلما سكنت الأرواح، وهدأت الأصوات، ولا يبقى إلا حي قيوم قديم، يقول بعزته: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: أين المدعون في المعارف والتوحيد والمبارزة بالعريدة والانبساط في مقام المحبة؟ لمن البقاء السرمدي؟ ومن الجلال الأزلي؟ ومن الكبرياء القدمي؟ أين أصحاب الأنائية؟ فأخرس الكل، وأفنى الكل، فيجيب نفسه إذ يستحق بجواب خطابه إلا هو؛ فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ الواحد في وحدانيته، القهار في فردانيته، ثبت نسبة الوجدانية إذ الكل مبهورون في غشاوة التفرقة، القهار من حيث قهر الجمهور، ولا يبقى عند سطوات عظمتة أحد من خلقه، فلما أوجدتهم من صعقات الفناء؛ يجازي الكل على قدر مقاماته، يجازي الزاهدين بالجنة، ويجازي العابدين بالدرجة، ويجازي المحبين بالمشاهدة، ويجازي المشتاقين بالمكاشفة، ويجازي العارفين بالوصلة، ويجازي الموحدين بمطالعة سر الأولية والآخرية، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: من هموم فراقه، ومقاساة بلائه، ودوام الحزن في عبوديته، والكآبة في خدمته، وانتظار الفرج من سجنه؛ فهذه المقاساة عقوباته وبلاياه التي امتحنهم بها في الدنيا، فيرفع الله بذلك عنهم أبد الآبدين، ويفرغ على الجميع من بحار كرمه سيول الرحمة والإنعام، ولا يبقى ذرة من بلائهم إلا وهو يجازيه بحسن صحبته، وكشف نظارة وجهه، تعالى الله عن التشبيه، وقال الله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ سرعة حسابه تعالى أن لو كان مثل ما خلق ألف ألف مرة، وبكل ذرة منها عالم، وفيه على قدر كل ذرة خلق، وهم يعملون على أضعاف ما عملوا، فيريهم جميع

ذلك في أقل لحظة، بحيث هم يعرفونها ويرونها ثم يجازيهم بأقل من لحظة، وهو قادر بذلك، وهاهنا أن يسأل عنهم أعمالهم؛ فيغفر لهم ذنوبهم في أقل من لحظة، وهو غفور شكور رحيم ودود.

قال سهل في قوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾: يرفع درجات من يشاء بالمعرفة به.

وقال في قوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾: أي: ينزل الوحي من السماء بأمره. وقال ابن عطاء: يرفع درجات من يشاء في الدارين، فيجعله عزيزاً فيها، والعرش إظهاراً لقدرته، لا مكاناً لذاته.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ على ضروب، فمن ألقى إليه روح الصفا أنطقه بها وأحياء حياة الأبدى، والروح روحان؛ روح بها حياة الخلق، وأخرى لطيفة بها ضياء الحق. وقال فارس: زين العرش بأنوار ذاته؛ فلا يوازيه شيء، ولا يقابله مثل. وقال الحسين: العرش غاية ما أشار إليه الخلق.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾: حياة الخلق على حسب ما ألقى إليهم من الروح؛ فمنهم من ألقى إليه روح الرسالة، ومنهم من ألقى إليه روح النبوة، ومنهم من ألقى إليه روح الصديقية، ومنهم من ألقى إليه روح الشهادة، ومنهم من ألقى إليه روح الصلاح، ومنهم من ألقى إليه روح العبادة والخدمة، ومنهم من ألقى إليه روح الهداية، ومنهم من ألقى إليه روح الحياة فقط فهو ميت في الباطن، وإن كان حياً في الظاهر.

وقال جعفر: يخص من يشاء من عباده بترويح سره بمعرفته، وتزيين نفسه بطاعته. وقال الأستاذ: روح هو روح الإلهام، وروح هو روح الإعلام، وروح هو روح الإكرام.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾: لولا سوء طباع الجهال، وقلة معرفتهم لما ذكر الله قوله ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؛ فإن الملك لم يزل ولا يزال له، وهو الملك على الحقيقة، ولكن لما جهلوا حقه، وحجبوا عن معرفته في الدنيا، وشاهدوا الملك وحقيقته ألباهم الاضطرار إلى أن قالوا: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وقال: الواحد الذي بطل به الإعداد، والقهار الذي قهر الكل على العجز بالإقرار له بالعبودية طوعاً وكرهاً.

قال جعفر: أخرس المكونات ذوات الأرواح عن جواب سؤاله في قوله: ﴿لِمَنِ

الْمَلِكُ الْيَوْمَ»، فلم يجسر أحد على الإجابة، وما كان بتحقيق أن يجيب سؤاله سواه، فلما سكنت الألسن عن الجواب أجاب نفسه بما كان يستحق من الجواب؛ فقال: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْفَهَّارِ﴾.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿الْيَوْمَ تَجْزَى﴾: من طالع من نفسه أفعاله وأذكاره وطاعته جُزِيَ على ذلك، ولا ظلم عليه فيه، ومن طالع فضله ومنه أسقط عن درجة الجزاء على مقام الأفضال والرحمة بقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وقال أبو بكر بن طاهر: يريك جزاء كسبك، وما تستحق بذلك، لترى بعد ذلك محل الفضل والكرم.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ وصف الله خيانة العيون وخفايا الصدور، وقال: لا يخفى عليّ منها شيء، وذلك أن العين باب من أبواب القلب، فإذا رأت العين شيئاً يكون حظ القلب منه، يعلم ذلك نفسه فيطلب الحظ منه، ومن القلب إلى العين باب يجري عليها حركة هواجس النفس تحثها على النظر إلى شيء فيه لها نصيب، فإذا تحققت ذلك علمت أن خيانة العين متعلقة بما تخفي الصدور، وإذا كان العارف عارفاً بنفسه ويروضها برياضات طويلة، ويقدها بمجاهدات كثيرة، ويؤزمها بزمam الخوف، وآداب الشريعة، صارت صافية من حظوظها، فبقيت في سرها جلستها على الشهوات، ففي كل لحظة يجري في سرها طلب حظوظها، ولكنها سترتها على العقل وأخفتها، عن الروح من خوفها، فإذا وجدت الفرصة خرجت إلى روزنة العين، فتنظر إلى مرادها، وتسرق حظها من النظر إلى المحارم، وذلك النظر خفي، وتلك الشهوة خفية، وصفها الله سبحانه في هذه الآية، واستعاذ منها النبي ﷺ حيث قال: «أعوذ بك من الشهوة الخفية»^(١).

وقال أبو حفص النيسابوري: زنا العارف نظره بالشهوة، وافهم واسمع حقيقة ذلك أن الروح العاشقة إذا احتجبت عن مشاهدة جمال الأزل تنقبض وتطلب حظها، ولا تقدر أن تنظر إلى الحق فتطلب ذلك من صورة الإنسانية التي فيها آثار الروحانية، فتنظر من منظره إلى منظر العقل، ومن منظر العقل إلى منظر القلب، ومن منظر القلب إلى منظر النفس، ومن منظر النفس إلى منظر الصورة، وتنظر من العين إلى جمال المستحسنات، لينكشف لها ما يستر

(١) رواه أحمد في مسنده (١٢٥/٤).

عنها من شواهد الحق، فتذهب النفس معه وتسرق تحته حظها من النظر بالشهوة، فذلك النظر منها غير مرضي في الشرع والطريقة.

وفي سر الحقيقة نظر الروح إلى الحق بالوسائط أيضًا خيانة، وخيانتته في الصدر ألا يصبر في مقام القبض ليجري عليه أحكام الحقيقة، ثم ينكشف له عالم البسط، فنبهنا الله بهذه الآية أنه يعلم بعلمه القديم هذه الخفايا ولا يستحسن.

قال أبو عثمان: خيانة العين هو ألا يغضها عن المحارم، ويرسلها إلى الهوى والشهوات. وقال أبو بكر الوراق: يعلم من يمد عينه إلى الشيء معتبرًا، ومن يمدّها لإرادة وشهوة.

وقال الأستاذ: خيانة أعين المحبين استحسانهم شيئًا، ولهذا يقال:

بمنظرٍ حسنٍ مُدْغِبَتْ عَنْ عَيْنِي يَا قَرَّةَ الْعَيْنِ سَلْ عَيْنِي هَلْ اكْتَحَلْتُ
﴿ أَوَلَمْ يَسْمُرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا
هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ
﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَمَنَ
وَقَرُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي
الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ
الْحِسَابِ ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ
رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا
يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿ يَنْقَوْمِرْ لَكُمْ
الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَهَرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ
إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقَوْمِرْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ
ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿ وَيَنْقَوْمِرْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿ يَوْمَ تَوَلُّونَ مُذْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ
اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ

بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٦٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَمْنُنِ ابْنِ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٦٧﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٦٨﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٦٩﴾ يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٧٠﴾ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٧١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ سبيل الرشاد طريق المعرفة، ومعرفة الله موافقة الله، ومتابعة الأنبياء والأولياء، ولا يحصل الموافقة إلا بترك مراد النفس، لذلك قال: ﴿يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

قال محمد بن علي الترمذي: لم تزل الدنيا مذمومة في الأمم السالفة عند العقلاء منهم، وطالبوها مهانون عند الحكماء الماضية، وما قام داعٍ في أمة إلا حذر متابعة الدنيا وجمعها والحب لها.

ألا ترى إلى فرعون كيف قال: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ كأنهم قالوا: وما سبيل الرشاد؟ قال: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ﴾ أي: لن تصل إلى سبيل الرشاد، وفي قلبك حبة الدنيا، وطالبًا لها.

﴿وَيَنْقُومِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ ﴿٧٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبْنِ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٧٣﴾ فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٧٤﴾ فَوَقْنَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِفَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ

الْعَذَابِ ﴿١٤﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٥﴾ وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿١٦﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿١٨﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَاذْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٩﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٢٠﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٢٢﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِلأُولَى الْأَلْبَسِ ﴿٢٣﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٥﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُمَسِّىءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَآخِرِينَ ﴿٢٩﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٠﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣١﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٢﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ مرد العارفين إلى الله بالتفاوت، ومرد المؤمنين إلى الجنة، ومرد المحبين إلى المشاهدة، ومرد العارفين إلى الوصلة، ومرد الكل إلى قضيات الأزلية.

وقال حمدون القصار: لا أعلم في القرآن آية أرجى من قوله: ﴿وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾؛

فقد حُكي من بعض السلف أنه قال: الكريم إذا قدر عفا، وإنما يكون مرد العبد إلى ربه إذا أتاه على حد الإفلاس والفقر، لا أن يرى لنفسه مقامًا في إحدى الدارين، وهو أن يكون في الدنيا خاشعًا لمن يذله، ولا يلتفت إليه هاربًا ممن يكرمه ويبره، ويكون في الآخرة طالبًا للفضل، مشفقًا من حسناته أكثر من إشفاق الكفار من كفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أفوض أمري في الدنيا والآخرة إلى الله فهو بصير بعجزى وضعفى عن رد القضاء والقدر، وكمال التفويض ألا يرى لنفسه، ولا للخلق جميعًا قدرة على النفع والضرر، ويرى الله إيجاد الوجود في جميع الأنفاس بنعت المشاهدة والحال لا بنعت العلم والعقل.

وقال بعضهم: التفويض قبل نزول القضاء، والتسليم بعد نزول القضاء.

وقال ذو النون حين سُئل عنه: متى يكون العبد مفوضًا؟ قال: إذا آيس من فعله ونفسه، والتجأ إلى الله في جميع أحواله، ولم يكن له علاقة سوى ربه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ نصره الرسل بالعرفان، ونصرة المؤمنين بالإيقان، وأيضًا نصره الرسل بالوحي، ونصرة المؤمنين بالإلهام، وأيضًا نصره الرسل برؤية الصفات، ونصرة المؤمنين برؤية الآيات، نصرتهم يوم الإشهاد على وفق سرهم في المعرفة؛ فنصرة الرسل الوصلة، ونصرة المؤمنين المشاهدة، نصرهم على كل شيء يكاد يحجبهم عن المشاهدة في الدنيا والآخرة.

وقال جعفر: ينصر رسلنا بالمؤمنين ظاهرًا، وينصر المؤمنين بالرسل باطنًا.

وقال سهل: أكرمهم بالمعرفة والعلم، ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ بالرضا والرؤية.

وقال يحيى بن معاذ: لم يرض بما ضمن لهم من النصرة في الدنيا حتى ضمن لهم النصرة في القيامة، ومن كان الله ناصرهم في الدنيا والآخرة؛ فلا سوء عليه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ ظلمهم وضع المذرة في غير موضعها؛ فإن معذرتهم أن يكون في الدنيا لا في الآخرة، وظلمهم أيضًا عدوهم عن الحق إلى الحق، يا ليت لو كان لهم عناية الأزلية التي تؤثر في الإحسان جميعًا، ومن لم يكن له سوابق القدم بنعت العناية لم يؤثر فيه الأعمال والأوقات.

قال بعضهم: يؤثر في العباد السوابق على الأوقات، ولو كان للوقت أثر لنفع الظالمين

معذرتهم، فلما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ علمت أن السوابق هي المؤثرة لا الأوقات.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي: فاصبر في بلائنا؛ فإن النصر مع الصبر، وإن الظفر مع تحمل البلاء، وإن وعد كشف الجمال الأزلي من الله لك ولمحبتك حق، واستغفر لما جرى على قلبك من أحكام البشرية، وأيضًا استغفر لوجودك في وجود الحق، فإن كون الحادث في كون القدم ذنب في إفراد القدم عن الحدوث، وأيضًا استغفر من وقوفك على مقامك بين يدي، فإن الوقوف في ميادين الأزال والآباد ذنب لسؤالك المحبة، ونزهني وقت إشراق أنوار شمس وجودي لك من أن تدركني بالحقيقة، وحمدي ومجدي حين تغيب عنك، وبقيت في الصحو من السكر.

سُئل بعضهم: الصبر على العافية أشد أم على البلاء؟ فقال: طلب السلامة في الأمن أشد من طلب السلامة في الخوف.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: ادعوني في زمان الدعاء الذي جعلته خاصًا لإجابة الدعوة، فادعوني في تلك الأوقات، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ فإن وقوع الإجابة فيها حقيقة بلا شك، ومن لم يعرف أوقات الدعاء فدعاؤه ترك أدب؛ فإن الدعاء في وقت الاستغفار من قلة معرفة المقامات، فإن السلطان إذا كان غضبان لا يسأل عنه، وإذا كان مستبشرًا فيكون زمانه زمان العطاء والفضل، ومن عصى السلطان، ويسأل منه شيئًا فيضرب عنقه، ومن يطع السلطان ثم يسأل؛ فإنه أجدر أن يعطيه مأموله، وأيضًا ﴿ادْعُونِي﴾ في وقت غليان قلوبكم بالشوق إلى لقائي، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بكشف جمالي، وأعطيك مأمولكم لذلك قال ﷺ: «ادعوا الله على رقة قلوبكم».

وأيضًا ادعوني بلا سؤال ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بلا محال، فإنك إذا شوقت إلى جمالي تدعوني لنفسي، فوجب من حيث الكرم أن أجيب لك بنعت مرادك، فإنك إذا سألت شيئًا لم تدعني بل دعوت مرادك.

قال بعضهم: ﴿ادْعُونِي﴾ بلا غفلة، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بلا مهلة.

قال الوراق: ادعوني على حد الاضطراب والالتجاء حيث لا يكون لكم مرجع إلى سواي ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وقال محمد بن علي: من دعا الله، ولم يعمر قبل ذلك سبيل الدعاء بالتوبة والإنابة وأكل الحلال واتباع السنن ومراعاة السر كان دعاؤه مردودًا، وأخشى أن يكون جوابه الطرد واللعن.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: لتسكنوا في حضوركم بما تجدون من روح الملكوت، وتستنشقون نفحات الجبروت، وفي النهار تشاهدون أنوار صفاتي في آياتي.

قال بعضهم: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ إلى روح المناجاة، ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لتبصروا فيه بوادي القدرة.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: ﴿قَرَارًا﴾ لمراقبتكم، وطلب مشاهدتي وخدمتي، ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ لنظركم إلى ديوان ملكوتي، ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ بأن ألبستكم أنوار جلالي وجمالي وخلقتي، وإيجادكم بنفسي، ونفخت من روحي فيكم الذي حسن الهياكل من حسن الهياكل من حسنه، ومن عكس جماله؛ فإنه مرآة نوري أتجلى منه للأشباح أرزاقه ذكره، وصفاء كشوف أنواره للأرواح والعقول، فقوت النفوس من أفعاله، وقوت القلوب من صفاته، وقوت الأرواح من ذاته، وهو أحسن الأرزاق، إذ قامت به حقائق المحبة ولطائف المعرفة، ودقائق التوحيد.

ألا ترى إلى رمز الحق فيه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ثم نزه نفسه عن الأشكال والأبعاد والحلول في الأماكن بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ من بركته وجود العالمين، ومن تربيته تكونت الخلائق أجمعون.

قال أبو سليمان: القرار لمن استقر على طلب الموافقة، واجتنب التخطي إلى المخالفة.

قال بعضهم: جعل الأرض قرارًا لأوليائه، والسماء بناءً لملائكته.

ثم زاد في وصف عزته وجلاله، وحياته الأزلية، وبقائه الأبدي بقوله: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بين أن الحياة الحقيقية القدسية له لا لغيره؛ إذ حييت بحياته الأرواح والأشباح، وبه قامت الكائنات والحوادث، لا بذواتها تجلى من حياته للعدم، فأوجد الكل حيًا بحياته.

ثم نفى عن الكل الألوهية، ونفى الحياة الأزلية عن الكل في أفراد قدمه عن الكون بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ثم أمر العباد بالعبودية الخالصة له، والتضرع إليه بقوله: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: مخلصين عن النظر إلى الأكوان في مشاهدة الرحمن.

ثم حمد نفسه ألا يعرفه أحد سواه بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥﴾ بالآ

يعرفني غيري.

قال الواسطي: هو الذي أحيا القلوب بفوائده أنواره، وسواطع عزته عن هواجس الهياكل، وظلمات الأجسام.

وقال الحسين: هو الذي أحيا العالم بنظره؛ فمن لم يكن به وبنظره حباً؛ فهو ميت، وإن نطق أو تحرك.

وقال الجنيد: الحي على الحقيقة من به حياة كل حي.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٢) هُوَ الَّذِي يُخَيِّمُ عَلَيْكُمْ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢٣) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي بَصْرَفُونَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٤) إِذْ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (٢٥) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (٢٦) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ آيَتِ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٢٧) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨) ذَالِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (٢٩) أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٣٠) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَمَّا نُرِيتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْتَوْفَيْنَاكَ فَأَلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ (٣١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٣٢) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٣٤) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (٣٥) أَفَلَمْ يَسْمُرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٣٦) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٣٧) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٣٨) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا

سُنَّتِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ يَبَيِّنُ أن مراد الحق سابق على كل مراد لا تتغير سوابق مقاديره، فإذا جاء ما قد يظهر حقيقة القضية الأزلية.
قال الواسطي: من ذكر القسمة، وما جرى له في السبق ينقطع عن السؤال والدعاء، ويعلم أن المقضي كان من الحق وبالحق.

قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّكُمْ أَتَيْنِيهِمْ فَأَيُّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ آياته أنبيأؤه وأوليأؤه، وهم أعظم الآيات، إذ يتجلى الحق من وجوههم بنعت العزة والكبرياء للعالمين، وأي منكر أعظم ممن ينكر على هذه الآيات الساطعة، والبراهين الواضحة.

قال سهل: أظهر آياته في أوليائه، وجعل السعيد من عباده من صدقهم في كراماتهم، وأعمى أعين الأشقياء عن ذلك، وصرف قلوبهم عنهم، ومن أنكر كرامات الأولياء؛ فإنه ينكر قدرة الله، فإن القدرة تظهر على الأولياء بالآيات لا هم بأنفسهم يظهرونها، والله يقول: ﴿وَيُزَكِّكُمْ أَتَيْنِيهِمْ فَأَيُّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿سُنَّتِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ يَبَيِّنُ الله سبحانه أنه لا ينفع إيمان المنكرين أوليائه وأنبيأؤه عند معاينة جزاء إنكارهم؛ فإنه بجلاله وعزته متقم لأوليائه من أعدائه.

قال سهل: السنة مشتقة من أسماء الله: السين سناء الله، والنون نور الله، والهاء هداية الله، بقوله: ﴿سُنَّتِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: فطرة الله التي جبل عليها خواص عباده هداية منه لهم؛ فهم على سنن الطريق الواضح إليه.

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١﴾

﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: معنى الحاء والميم أن هذا الخطاب وهذا التنزيل من الحبيب الأعظم إلى المحبوب الأعظم، وأيضًا هو قسم أي: بحياتي ومجدي هذا التنزيل نزل من عين الرحمانية الرحيمية الأزلية الأبدية، نزل برحمتي على عبادي ومحبيهم، وأيضًا بحياتك ومشاهدتك يا حبيبي ويا محبوبي هذا تنزيل أنزلت إليك بالرحمة

والكرم عليك وعلى أمتك.

قال سهل في قوله: ﴿حَمْدُ﴾: قضى في اللوح المحفوظ وكتب فيه ما هو كائن.
وقال الأستاذ: أي: بحقي وحياتي ومجدي في ذاتي وصفاتي إن هذا تنزيل من الرحمن الرحيم.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: بشيرًا لمن أقبل إلى الله بنعت الشوق، وطلب معرفة جلاله وجماله، وكشف لقائه أن مأمولهم حصل لهم، ونذيرًا لمن أعرض عنه، وأقبل إلى نفسه، وينظر إلى طاعته ومعاملته، وأيضًا بشيرًا للأولياء بنيل المقامات، ونذيرًا لهم يحذرهم من المخالفات لئلا يسقطوا من الدرجات.

قال محمد بن علي: بشيرًا بمطالعة الرجاء، ونذيرًا بمطالعة الخوف.
وقال سهل: بشيرًا للعاصين بالغفران والشفاعة، ونذيرًا للمطيعين؛ ليستعملوا آداب السنن في طاعتهم.

قال الأستاذ: بشيرًا لمن اخترناهم واصطفيناهم، ونذيرًا لمن أغويناهم وعن شهود آياتنا أعميناهم.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا إِنَّنَا عَمِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: قلوبنا في أكنان قهريات الأزليات وفي بطش جبروت العظمة ألقته في غيابات الغي وظلمات الريب، وأبعدتها عن مشاهدتك وما أخبرتنا من أحكام العبودية وأنوار الربوبية، وفي آذاننا وقرا لضلالة وغشاوة الغفلة، لا تسمع خطاب الخاص بفهم الخاص وسمع الخاص، وبيننا وبينك حجاب الشقاوة وغطاء الغباوة والغواية.

قال سهل: أي: قلوبنا في أغطية الإمهال، فمالت إلى الشهوة والهوى، ولم تسمع داعي الحق، وفي آذاننا وقرا أي: بها صمم من الخير، ولا يسمع هواتف الحق.

وقال بعضهم: قلوبهم في حجاب من دعوة الحق، وأسماعهم في صمم من نداء الحق، كلت ألسنتهم عن ذكر الحق، وجعل بينهم وبين الحق حجاب الوحشة، وهو الحجاب الذي لا يرفع أبدًا.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ

وَأَسْتَغْفِرُوهُ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾
 إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: استقيموا في إقبالكم إليه بنعت التفريد عن الأكوان والحدثان وعن وجودكم، واصبروا في ساحة كبريائه حين شاهدتم أنوار عظمتة وجلاله حتى يجري عليكم أحكام الفناء في بقاءه وقميص الاستقامة لم يحظ للحدثان، لذلك قال ﷺ: «استقيموا ولن تُحصوا»^(١)، وقال «شَيِّتَنِي هُوَذَا وَأَخَوَاتُهَا»^(٢)؛ لما فيه من قوله: ﴿فَأَسْتَقِيم﴾، فإذا وقع عليكم العلم بمعرفته فاستغفروه من إدراككم وعلمكم به ومعاملتكم له ووجودكم في وجوده؛ فإنه تعالى أعظم من درك الخليقة، وتلاصق الحدثان بجناب جلاله.

قال بعضهم: الاستقامة مساواة الأحوال مع الأفعال والأقوال، وهو ألا يخالف الظاهر الباطن والباطن الظاهر، فإذا استقمت واستقامت أحوالك فاستغفر من رؤية استقامتك، واعلم أن الله هو الذي قَوْمَكَ لَا أَنْكَ اسْتَقَمْتَ.

﴿قُلْ أَهْنَكُم لَنَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَنَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْلٌ أَوْ نَهَارٌ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٠﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١١﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٢﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٤﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٥﴾.

(١) رواه ابن ماجه (١/١٠١)، وأحمد (٥/٢٧٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٦/١٤٨)، وابن عدي في الكامل (٢/٢٤٧).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ وَيَوْمَ الْقَوْلِ وَيَوْمَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ أَيُّكُمْ لَكُمْ وَيَوْمَ الْقَوْلِ وَيَوْمَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ أَيُّكُمْ لَكُمْ وَيَوْمَ الْقَوْلِ وَيَوْمَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ أَيُّكُمْ لَكُمْ﴾: يوم القضاء في يومين لكم، وتكفرون نعمته، وتقبلون إلى غيره.

﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: صاحب هذه النعم، ثم زاد ذكر نعمته عليهم بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾: رواسي أوتاد الأرض من الأولياء، مشرفون على قلوب الخلائق بسر من الله معهم، ونور منه في قلوبهم، ﴿وَبَرَكَ فِيهَا﴾ بإظهار آياته فيها، وخلق منافع الكل فيها، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾^(١): أرزاق الخلائق بكل خلق منهم عنده رزق، فرزق الروحانيين المشاهدة، ورزق الربانيين المكاشفة، ورزق الصديقين المعرفة، ورزق العارفين التوحيد، ورزق الأرواح الروح، ورزق الأشباح الأكل والشرب، وهذه الأقوات تظهر من الحق لهم في هذه الأرض التي خلقت معبداً للمطيعين ومرقداً للمقبلين وقبرا للعارفين، ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾: يوم ظهر نور الفعل العام، ويوم ظهر نور الفعل، ويوم ظهر نور الصفة، ويوم ظهر نور الذات، الأول: نور الإرادة، والثاني: نور المشيئة، والثالث: نور القدرة، والرابع: نور القضاء والقدر، فنور الأفعال بركة على الأشباح، ونور الفعل الخاص بركة على القلوب، ونور الصفة بركة على العقول، ونور الذات بركة على الأرواح؛ فأقواتها على مقادير تلك البركات، وهذان اليومان مع الأول أربعة، ثم بين أنه تعالى قدر هذه المقادير فيها على سنن مستوية بقوله: ﴿سَوَاءٌ لِلَّهِ الْبَاطِلُ﴾، لا يزيد الرزق بالسؤال ولا ينقص، وفيه تأديب لمن لم يرض بقسمته، وبين أن ما سبق منه في الأزل من السعادة والشقاوة لا يتغير بجهد الجاهدين وسؤال السائلين، بل جفَّ القلم بما أنت لاق، ثم ذكر صنيعه المبارك في تسويته السماء وتزيينها بقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾، بسط نور قدمه عليها، فسوّاها سبع سماوات، كما بسط نور قدرته على الأرضين، فلما أدخل في السماوات والأرضين روح فعله وكساها نور قدرته وقهرهما بجبروته دعاهما إلى خدمته، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي: اتينا من العدم إلى ساحة القدم، وائتيا بما قدرنا فيكما من أنوار فعلنا، ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ طوعا: من حيث الحدوثية والعجز، أو كرها من حيث أنكما تعلمان أنكما لا

(١) أي: حكم أن يوجد فيها لأهلها ما يحتاجون إليه من الأقوات المختلفة المناسبة لهم على مقدار معين، تقتضيه الحكمة والمشية، وما يصلح بمعاشهم من الثمار والأنهار والأشجار، وجعل الأقوات مختلفة في الطعم والصورة والمقدار، وقيل: خصا بها التي قسمها في البلاد. البحر المديد (٥/ ٣٩١).

تطيقان حمل وارد أمري وطاعتي بالحقيقة، فتشققا من قهري، اثتيا وإن أنتما خائفان من قهر سلطان وبطش جبروتي، وأيضا اثتيا طوعا من حيث باشركما روح فعلي، فيقسمان على العجز، واثتيا كرها من حيث الحدوثية والعجز، أو كرها من حيث إن عليكما لباس ربوبيتي وما وجدتما من سر الألوهية ونظرتما إلى ذلك وظهور جرأتكما بنعت البقاء؛ فإن عليكما نور صفاتي، وأنتما خارجان من عز الربوبية، فاثتيا وإن عليكما كسوة جباريتي حتى تكونا في جلال كبريائي أقل من خردلة، فلما سمعا خطاب الغيرة ولم يبق فيهما كره ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَآءِغِينَ﴾ في حمل أنوار ضيائك؛ حيث عجزنا عن حمل أمانتك وأنوار صفاتك التي حملها الإنسان، ثم بين أن خلقهن أيضا كان في يومين حتى يكون ستة أيام، كما قال سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، فأتعن جميعا في يومين: يوم أشرقت أنوار القدم عليها، ويوم طلعت شمس البقاء عليها، ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ بما أودعها من خزائن أسرارها ولطائف أنواره وحقائق مقاديره التي لا يطلع عليها إلا من يكشف له منها شيئا من الأنبياء والأولياء والملائكة، ثم خصّ السماء الدنيا من بينهن بالزينة وشرف إلباسه إياها أنوار قدرته الخاصة، وأفعاله المقدسة من الشمس والقمر والنجوم بقوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ﴾: زينها بأنوار الكرويين كما زين الأرض بالأنبياء والأولياء، أيضا زين سماء قلوب العارفين بشموس تجلي الذات وأقمار تدلي الصفات ونيرات سيادات أسرار الملكوت والجبروت.

قال سهل بن عبد الله في قوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾: أي: قضى خلقها في يومين، كما قال: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾.

وقال في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾: استوى أمره على الأرض والسماء وما بينهما وما تحت الثرى.

قال ابن عطاء: استوى علمه فيما قرب منه وبعد إذ لا قرب ولا بعد.

وقال القاسم في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾: الرواسي الأجل من الأولياء الذين هم المشرفون على الخلق؛ لأنهم الخواص منهم وقيل في قوله: ﴿مِنْ فَوْقَهَا﴾ أي: من فوق عامة الأولياء وأشرافهم نظرهم أصح وبركاتهم أعم ولا يشرف عليهم أحد إلا القطب الذي هو الواحد في العدد وبه قوام كل الأولياء والرواسي دونه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ قال: زيننا قلوب العارفين بأنوار المعرفة وجعل فيها مصابيح الهداية وضياء التوحيد.

وقال جعفر: زيننا جوارح المؤمنين بالخدمة.

وقال الجنيد: زيننا الجنة بنور مناجاة العارفين وزهرة خدمة العابدين.

قال الأستاذ في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾: الجبال أوتاد الأرض في الصورة، والأولياء أوتاد الأرض في الحقيقة، فبارك فيها البركة والزيادة، يأتيهم المطر ببركة الأولياء، ويندفع عنهم البلاء ببركتهم^(١).

وقال في قوله: ﴿وَزَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾: جعل نفوس العابدين أرضاً لطاعته وعبادته، وجعل قلوبهم فلکاً لنجوم علمه وشمس معرفته، فأوتاد النفوس الخوف والرجاء والرغبة والرغبة، وفي القلوب ضياء العرفان وشموس التوحيد ونجوم العلوم والعقول والنفوس والقلوب بيده، يصرفها على ما أراد من أحكامه.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَيَوْمَ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْكُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾: هذه الهداية ظهور برهان نبوة الأنبياء بالبراهين الساطعة والدلالات الواضحة بالظاهر، لكن لم يسبق لهم الهداية الأزلية، وبتلك الهداية تقبل هذه الهداية، فالسوابق تؤثر في العواقب، والعواقب لا تؤثر في السوابق، فكان جبلة القوم جبلة الضلالة، فمالوا إلى ما جُبلوا عليه من قبول الضلالة. قال الواسطي: لحاجة ما سبق فيهم من شؤم الجبلة.

قال ابن عطاء: ألبسوا لباس الهداية ظاهراً عوارياً، فتحقق عليهم لباس الحقيقة، فاستحبوا العمى على الهدى، فردوا إلى الذي سبق لهم في الأزل.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ

(١) وقال القشيري أيضاً: أي: جبلاً مرتفعات، وجعلنا بها الماء سقياً لكم، يُذكّرهم عظيم مَنِّه بذلك عليهم. والإشارة فيه إلى عظيم مَنِّه أنه لم يخسف بكم الأرض، وإن عملتم ما عملتم (٨/١٧).

الْمُعْتَبِينَ ﴿١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ﴾: من باشر المعصية تظهر آثارها على جوارحه، لا يقدر أن يسترها، ولو كان عالماً بنفسه يستغفر في السر عند الله حتى تضمحل آثارها، ولا يرى من وجوده تلك الآثار صاحب كل نظر.

قال أبو عثمان الحيري: من لم يذكر في وقت مباشرته الذنوب شهادة جوارحه عليه يجترئ على الذنوب، ومن ذكر ذلك جبن عن مباشرتها، وربما تلحقه العصمة والتوفيق، فتمنعانه عنها.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٢﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿١٣﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا ذَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقْبَلُوا تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَكَةِ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٧﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿١٨﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: فزین الكل النفس والشيطان، النفس تزین لهم الشهوات، والشيطان يزین لهم التسويف والإمهال، وهذا ما بين أيديهم وما خلفهم.

قال الجنيد: النفس لا تألف الحق أبداً.

وقال ابن عطاء: النفس قرين الشيطان وإلفه ومتبعه فيما يشير إليها، مفارق الحق مخالف له لا تألف الحق ولا تتبعه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من طول الأمل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من نسيان الذنوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقْبَلُوا﴾: وصف الله أهل التمكين من العارفين الذين شاهدوا الله بالله، وعاینوه به، واستقاموا في محبته، فتعرضت لهم الأكوان

والحدثان، فرفعوا أبصارهم عنها، ولم يستحسنوها في ديوان المعرفة من النظر إلى الخلق والخلقة، وقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي: يكفينا الله من كل ما سواه، استقاموا بالله في الله؛ فإن عين الألوهية تحرق مطالعيتها من العرش إلى الثرى، فإذا أراد الله استقامة المستقيمين من أهل شهوده ألبسهم أنوار بقاءه وصمديته، فيسبحون بنور البقاء في بحار الأزليات الأبديات.

قال ابن عطاء: استقاموا على إفراد القلب بالله.

وقال أيضًا: استقاموا على المشاهدة؛ لأن من عرف الله شيئًا لا يهاب غيره، ولا يطالع سواه، فتركوا المنازعة والاعتراض مع الحق.

سُئل الشبلي عن هذه الآية، فقال: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ هو خالقنا، فاستقاموا معه على بساط المعرفة، وداموا بأسرارهم على سرير الجنة، ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بانقطاع المدة ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ من دار الهوان، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من دار الامتحان، ﴿وَأَبْشِرُوا﴾^(١) بدوام النعيم، وهو لقاء الله تعالى الذي ليس بعده بؤس ولا شدة.

صدق الشيخ في هذا التفسير، وعجبت ممن استقام مع الله في مشاهدته وإدراك جماله كيف يطبق الملائكة أن يبشروه، أين الملك والفلك بين الحبيب والمحب ليس وراء بشارة الحق بشارة، فإن بشارة الحق سمعوها قبل بشارة الملائكة في نداء الأزل بقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾، ليس لهم خوف القطيعة، ولا لهم حزن الحجاب، وهم في بشر مشاهدة الجبار، قول الملائكة معهم تشريف للملائكة ههنا؛ لأنهم يحتاجون إلى مخاطبة القوم، وهم أجاؤنا في نسب المعرفة من حيث الحقيقة ألا ترى كيف سجدوا أبانا قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، هم أجاؤنا، ونحن أحياء الله، والله تعالى أحيانا في الأزل، واختارنا بالمعرفة والمشاهدة.

قال جعفر: من لاحظ في أعماله الثواب والأعواض كانت الملائكة أولياؤه، ومن تحقق في أفعاله وعملها على مشاهدة أمرها فهو وليه؛ لأنه يقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

قال الأستاذ: استقاموا على دواء الشهود وعلى انفراد القلب بالله.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

(١) قال محمد بن علي الترمذي: تنزل عليهم ملائكة الرحمة، عند مفارقة الأرواح الأبدان، ألا تخافوا سلب الإيمان، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان، وأبشروا بدخول الجنان، التي تُوعدون في سالف الأزمان. البحر المديد (٥/٤٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: ممن عرف الله بعد أن رآه وأحبه واشتاقه، وعشق به ودعا الخلق إليه من حيث هو فيه وصدقه في حاله، يدعو الخلق إلى الله بلسان الأفعال وصدق المقال وحلاوة الأحوال، ويذكر لهم شمائل القدم وخلق الربوبية، ويعرفهم صفات الحق وجلال ذاته، ويحبب الله في قلوبهم، وهذا عمله الصالح، ثم يقول بعد كماله وتمكنه إنني واحد من المسلمين من تواضعه ولطف حاله خلقًا وظرافة، وإن كان إسلامه من قصارى أحوال المستقيمين.

قال سهل: أي: ممن دلَّ على الله وعلى عبادة الله وسنة رسول الله واجتناب المناهي وإدامة الاستقامة مع الله.

وقال حسن بن أبي الحسن البصري: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا خيرة الله، هذا أحب الخلق إلى الله، أجاب الله دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال إنني من المسلمين، هذا خليفة الله.

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: بين الله سبحانه ههنا أن الخلق الحسن ليس كالخلق السيئ، وأمرنا بتبديل الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة، وأحسن الأخلاق الحلم؛ إذ يكون به العدو صديقًا والبعيد قريبًا، حين دفع غضبه بحلمه وظلمه بعفوه وسوء خاتمته بكرمه، وفي مظنة الخطأ أن من كان متخلقًا بخلقه متصفًا بصفاته مستقيمًا في خدمته صادقًا في محبته عارفًا بذاته وصفاته ليس كالمدعي الذي ليس في دعواه معنى.

قال ابن عطاء: لا يسوي بين من أحسن الدخول في خدمتنا والخروج منها وبين من أساء الأدب في الخدمة؛ فإن سوء الأدب في القرب أصعب من سوء الأدب في البعد فقد يصفح عن الجهال الكبار، ويأخذ الصديقين باللحظ والالتفات.

وقال الأستاذ: أي: ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة يعني بالعفو عن المكافات بالتجاوز والصفح عن الزلة.

﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَزَعٌ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: بين الله

سبحانه ألا يبلغ أحدٌ إلى درجة الخلق الحسن وحسنات الأعمال وسيئات الأفعال إلا من يصبر في بلاء الله وامتحانه بالوسائل وغير الوسائل، ولا يحتمل هذه البليات إلا ذو حظٍّ من مشاهدته وذو نصيبٍ من قربه ووصاله، صاحب معرفة كاملة ومحة شاملة، وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر الله، ثم الصبر في مشاهدة الأزل، فبالصبر الاتصافي والمشاهدة الأبدية والحظ الجمالي يوازي طوارق صدمات الألوهية وغلبات القهارية.

قال بعضهم: لا يطيق أحدٌ الهجوم على المعارف إلا من يصبر على احتمال النوائب والشدائد فيها، ولا يرى لنفسه قيمةً، ولا لروحه خطرًا؛ إذ ذاك يمكنه مجاورة المعارف والهجوم عليها.

وقال ابن عطاء: لا يوفق لجميل الأخلاق إلا الصابرون على خفض الخلاف.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: ما يوفق لهذا المقام إلا ذو حظٍّ من عناية الحق فيه.

قال ابن عطاء: ذو معرفة بالله وأيامه.

وقال الجريري: أي: ذو علم بالله، وذو فهم منه، وراجع إليه في كل أحواله، ثم داوى أخق سبحانه المتصبرين في احتمال البلاء، وعليهم جذب الصبر والتحمل بالاستعانة بعد طيران خطرات الشيطان على قلوبهم بقوله: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾: علّم حبيبه ﷺ كيف يدفع شرّ الشيطان عن نفسه حين ألقاه سهم الغيرة عن كنانة مخائله وحيله، وهذا تعليمٌ لأمته؛ إذ كان شيطانه أسلم على يده أي: فروا إلى الله إذا نزغكم قهر الله يدفع عنكم شرّ الشيطان، ويؤويكم من قهره بلطفه، ألا ترى كيف استعاذ النبي ﷺ منه إليه بقوله: «أعوذ بك منك»^(١).

وقال بعضهم: من طرد الشيطان عن نفسه بنفسه فهو قرينه أبدًا، ومن طرده بالالتجاء إلى الله والاستعاذة به منه لم يجعل الله للشيطان عليه سبيلاً؛ فإن الله يقول: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

وسئل أبو حفص: بماذا يتخلص المؤمن من الشيطان؟ قال: بتصحيح العبودية؛ ألا ترى الله يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾.

وقال الأستاذ: لا يتخلص العبد من نزغات الشيطان إلا بصدق الاستعانة بالله وصدق الاستغاثة فيه.

(١) رواه النسائي في الكبرى (١/٤٥٢).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾: أظهر الليل؛ ليطلع على العاشقين صبح وصال جماله، ويؤنسهم إلى مجالس مشاهدته وحجال أنسه ورياض قدسه، وجعل النهار؛ لظهور أنوار صفاته في لباس آياته، وليشرفهم على رؤية نيرات ملكوته وجبروته، خلق الشمس والقمر مرأتين، يتجلى من مرآة الشمس للناظرين إليه والعارفين به من أنوار ذاته، ويتجلى من مرآة القمر للعاشقين من سنا صفاته، ثم حذرهم أن يلتفتوا إلى الوسائط، وحثهم على أن يرجعوا إليه بالكلية كالخليل في أوائل مقام الالتباس، ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾، فإذا عزم الأمر وبلغ صرف الرؤية قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

قال عبد العزيز المكي في هذه الآية: سبحان الذي من عرفه لا يسأم عن ذكره! سبحان الذي من أنس به استوحش من غيره! وسبحان الذي من أحبه أعرض بالكلية عما سواه! ثم أكد التخويف عليهم في وقوفهم على الوسائط، ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وصف المتمكنين من الكرويين والعارفين من أهل الملكوت بأنهم مستغرقون في بحار ربوبيته، يسبحون فيها بلذائذ الأذكار والأفكار لمزيد الكواشف وأنوار المعارف، يتجردون عن الأكوان والحدثان في جمال الرحمن، يستأنسون به، لا يسأمون منه؛ إذ الأنس والوحشة منفيان عن ساحة كبريائه، وهذا شكاية عن المحجوبين به عنه.

قال أبو عثمان: إن الله مستغني عن عبادة عبيده ومجاهدتهم؛ فإن لله عبادًا من الملائكة لا يفترون عن عبادته دائمًا أثناء الليل والنهار، ولم يذكرهم، ولم يجعل لعبادتهم جزاء ولا قيمة. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

وَرَبَّتْ^(١): كل قلب مستعد لقبول وبل المحبة والمعرفة، فيكون بلا زرع الحكمة قبل نزول مطر لطفه، فإذا وصل إليه بحر قرب الحق سبحانه اهتزّ بنبات الحقائق والدقائق، وتبهج بنور الحكمة، والمقامات السنية، ورياض لطائف العلوم الإلهية التي نطق بها صاحبه بلسان الحق والحقيقة، فأحيا بعبارتها وتعبيرها القلوب الميتة والصدور الخاملة؛ فهو تعالى أحيا قلوب العارفين بنظره، وبنظر العارفين يحيا قلوب المريدين، وهم وسائل حياة القلوب من الحق للخلق، كما أحيا الأرض الميتة بالمطر أحيا بهم قلوب العالمين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخِيَّ الْمَوْتِ﴾، فهذا المثل ضربه الله للمعتبرين بلطيف صنعه ونعيم لطفه.

قال عمرو بن عثمان المكي: إن لله تبارك وتعالى قلوباً في أوعية من الأجسام أودع فيها ودائع، وأخفاها عن الخلق، فإذا أنزل عليها مياه رحمته وبركات نظره استخرج ودائعه، فعرف القلوب محل تلك الودائع، وأظهر على النفس بركاتها، وأنقى على الحق هية صاحبها، فهو في هية عند الخلق وانكسار عند نفسه وشفقة ونصيحة للخلق وخوف دائم من ذنوبه، وذلك من آيات الله الظاهرة، وهو حقيقة قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَمْدًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخِيَّ الْمَوْتِ﴾ تلك النفوس بتلك الودائع قادر أن يحيا ببركة نظره قلوباً غفلت عنه وأنفساً ماتت عن القيام بخدمته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾: خوف الله أهل الطامات الذين يديرون رؤوسهم عند العامة ويزعقون ويخرقون ثيابهم، ويجلسون في الزوايا، ويتزهدون، وينظرون في تصانيف المشايخ، ويتقولون عليها ما يتخيلون، ويتزخرفون عند العامة، وينتظرون دخول الأمراء عليهم، ويدعون المكاشفة والأحوال والمواجيد، لا يخفى على الله كذبهم وزورهم وبهتانهم ونياتهم الفاسدة وقلوبهم الغافلة، وعلى أوليائه من الصديقين والعارفين الذين يرون خفايا قلوب الخلق بنور الله، لورأيهم كيف يفتضحون يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وترى أهل الحق ينظرون إلى الحق بأبصار نافذة نورية وأرواح شائقة وقلوب عاشقة، ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، قال الله: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، ثم حذرهم بقوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من الفتاوى بغير علم واستبداع الضلالة في دين محمد ﷺ، قال الله: ﴿وَلَا

(١) (اهتزّت) أي : تحركت (وربّت) انتفخت؛ لأن النبات إذا دنا أن يظهر ارتفعت به وانتفخت، ثم تصدعت عن النبات، وقيل: تزخرفت وارتفعت بارتفاع نباتها، البحر المديد (٥/٤٠٧).

تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ»، ووصف النبي ﷺ هؤلاء الملحدين وشبههم بالفراعنة، وشبه قلوبهم بقلوب الذئاب، قال ﷺ: «يخرج في أمتي أقوامٌ لسانهم لسانُ الأنبياء وقلوبهم كقلوب الفراعنة»^(١)، وفي موضع آخر قال: «قلوبهم كقلوب الذئاب، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، أفتوا بغير علمٍ ضلُّوا وأضلُّوا»^(٢).

قال أبو عبد الله بن جلا: معنى هذه الآية إن الذين يخبرون عنا على غير سبيل الحرمة فإنه لا يخفى علينا جرأتهم علينا، ونعذبهم في دعائهم.
وقال ابن عطاء في هذه الآية: إن المدعي عن غير حقيقة سبى منا ما يستحقه من تكذيبه على لسانه وتفضيحه في أحواله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾: عزيز من حيث امتنعت أسرارُه عن تفهم الأفهام وإدراك الأوهام؛ لأنه كنوز غيب الذات والصفات، وهو صفات الأزلية، مفاتيح كل صفة، لا يدركه بالحقيقة عوض الفطن، ولا تحويه الخواطر والذهن، لا يزيله أباطيل الأولين ولا ترهات الآخرين؛ لأنه لا يحل في الحدثان، ولا يفارق عن ذات الرحمن، فإذا كان الحق موصوفاً به أزلاً وأبداً فكيف تغيره الحوادث؟! وكيف تخلفه الأزمنة والدهور؟!.

قال ابن عطاء: عزيز؛ لأنه لا يبلغ أحد حقيقة حقه؛ لعزّه في نفسه، وعزّه من أنزله، وعزّه من أنزل عليه، وعزّه من خُوطب به من أوليائه وأهل صفوته.
وقيل: البعد أوهام العباد عن حقيقته.

قال ابن عطاء: كيف يأتيه الباطل وهو الحقيقة ونزل من عند الحق؟! وهو كلامه، فكيف يلحقه باطلٌ وبه تتحقق الحقائق، وبه تصحُّ أحوال المتحققين؟! وهو الحق على كل الأحوال، والباطل ضده، فكيف يجتمع المتضادان وهما متباينان من كل الوجوه؟!
قال أيضاً: كيف يكون لباطلٍ عليه سبيلٌ وهو من حقٍّ بدأ وإلى حقٍّ يعود؟! وهو

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه.

(٢) كسابقه.

الحق، فلا يتحقق به إلا محقق.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٧﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَاذْنُكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿١٨﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾^(١): هدى لعقول العارفين إلى معدنه، وهو ذات القديم، وشفاء القلوب العاشقين المشتاقين، وأرواح مرضى المحبة وسقمى الصبابة؛ لأنه حبيبهم، وكتاب مشوقهم، يستلذونه من حيث العبارات، ويعرفونه من حيث الإشارات.

وقال جعفر: شفاء لمن كان في ظل العصمة، وعمى على من كان في ظلمة الخذلان، فكما وصف الله أهل خالصته وما يقع لهم بخطابه وصف المنكرين كلامه والجاحدين وجوده بأن في آذان قلوبهم وأسماع عقولهم وقر الخذلان والضلالة، ولا يرون جمال خطابه بأن ليس في عيونهم أنوار لحمل مشاهدته، ولا سنا عز هدايته بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، إذا لم يروا جمال القرآن بنور الفهم والإيمان زاد طغيانهم بالإنكار عليه؛ لأنهم في مكان الضلالة، وهو بعيد من أن يسمعوا بوصف الفهم والإدراك والمتابعة.

قال ذو النون: من وافر سمعه، وأصم عن نداء الحق في الأزل، لا يسمع نداءه عند الإيجاد، وإن سمعه كان عليه عمى، ويكون عن حقائقه بعيداً، وذلك أنهم نودوا عن بعد، ولم يكونوا بالقرب.

(١) الضمير للقرآن؛ يعني أن الله تعالى هدى من استعد للإيمان إلى الإيمان بسبب القرآن، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]؛ والمقصد هداية الله تعالى بسببه، فوصفه بصفته؛ لقوته في السببية.

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُئْسِرْ قَنُوطٌ ۖ وَلَئِنْ أَدْخَلْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَىٰ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُئْسِرْ قَنُوطٌ﴾: وصف الله من لم يعرفه ولم يعرف لطائف برّه بأوليائه ويكون مقلداً في الدعاء ومعرضاً بسرّه عنه وبظاهره عن طاعته ليس هو يدعوه بالحقيقة، إنما يدعو مراده، فإذا حصل مراده قام على تكلفه وتقليده، وإن لم يحصل مراده ويمسه بلاؤه يفرّ منه، ولا يدعوه، ولو كان على محل التحقيق في دعائه ومعرفته بربه فإنه لا يفرّ من بلائه، ولا يقنط من رحمته؛ فإن العارف الصادق يستلذّ بلاءه، كما يستلذّ نعمه في لسان الخلّاق.

لنا فيه إشارة؛ وذلك أن العارف المشتاق الذي من كمال شوقه يريد أن يشرب جميع بحار الأزل والأبد والربوبية والألوهية والذات والصفات المنزهة عن مباشرة الحدّثان بشرية واحدة وهو لا يقدر؛ لأنه تعالى منزّه عن أن يحيط به أحدٌ من خلقه وإن كان نبياً مرسلًا، فإذا وجد نفسه أنه يسهل عليها شربها على قدر مذاقها وزيادة يستقيم في طلبها، وإذا نظر إلى امتناع الألوهية عن إدراكه ييأس ويقنط عن أن يدركه بالحقيقة، وهذا إذا كان هو مطالعاً في بطون الأزل وأكناف القدم وغيوب الأبد، لو رأيته يا عاقل كيف يفرّ من الحق وهو غضبان عليه معربداً شطاحاً بتكلمه عن سرّ الانبساط، ويخاصمه، وهذا كله من حيرته في الله واشتياقه إلى درك الحقائق.

قال سهل في قوله: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ﴾: يملّ العبد من ذكر ربه وشكره وحده والثناء عليه.

وقال أبو عمرو الدمشقي: لا يسأم العارف من مناجاة معروفيه، بل لا يصبر عنه لحظة ولا نفساً.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ۖ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾: رسم ظاهر الآية أن المضطرب في المعرفة إذا أنعم عليه من نعم الكرامات

اشتغل بها عن الحق، وفرح بما وجد منه، واحتجب عن مشاهدته، وإذا لم ينل مأموله من الكرامات وجزاء الطاعات فيدعو ويتضرع، ويسأل مأموله على الرغبة في جميع الأنفاس، وإشارة الحقيقة في الآية إذا ألبس الحق أنانيته العارف ويكون مستقلاً بقدرته، متصفاً بصفاته، ينظر من القدم إلى ما بدا من القدم، فيسكر، ويخرج بدعوى الأنانية، وذلك حين ينسى القدم في نفسه بما غلب من القدم عليه، وإذا زاد الحق عرفانه بإفراد قدمه عن الحدوث وبمعرفة فنائه في بقاءه وما ترى فهو هو تعالى لا غير يرجع إلى معادن العبودية، ويكون متضرعاً عاجزاً فانياً في سبحات جلاله، يكدي على باب الربوبية بنعت الفقر والافتقار إلى ذرة من معرفته.

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾: أظهر الآيات، وجعلها مرآة لصفاته وذاته سبحانه، ويتجلى منها أنوار الذات والصفات للشاهدين مشاهدة القدم، سرٌّ يسرُّ في حقائق التوحيد، وظاهراً يروونه من الآيات في زمان العشق في لباس الفعل؛ استقامة للمحبة؛ والتباساً لأمر الحقيقة، ولو ظهر بنعت الألوهية ظاهراً وباطناً لتعطلت الأشباح، ولفئيت الأرواح، واضمحلت النفوس والعقول؛ لأن بروز سطوات الأحدية لا تحتمله الآيات ولا الأشباح ولا الأبصار ولا الأفكار، ذكر في الأول آيات ومقصوده صفاته التي تشرق أنوارها في آفاق الأسرار، والآيات العالم الفعلي، والمقصود من الصفات ظهور الذات لنظار حقيقة الحقيقة، وإلا فأين الآيات في ظهور الصفات، والذات الآيات للعيون، والصفات للقلوب، والذات للأرواح، وسرُّ القدم للأسرار، لا ينكشف السر، والعارف الصادق إذا كان في عين الجمع لا يرى شيئاً إلا ويرى الحق بعينه؛ لأنه في حقيقة الحقيقة، ما بدا منه هو فعله، وفعله غرق في صفاته، وصفاته قائمة بذاته، فإذا شاهده في نفسه كما شاهده في آياته يختلط الأمر، ويغيب الحدث في القدم، ويحلُّ عليه سكر الأنانية، فيدعي الربوبية؛ لأن مشاهدة الآيات تقتضي العشق والمحبة، ومشاهدة الحق في مرآة النفس تقتضي الاتحاد من تأثير مباشرة سر التجلي، وهذا حال الحلاج -قدس الله روحه- حيث قال: أنا الحق. وحال الأول حال الواسطي؛ حيث قال: ضحكت الأشياء للعارفين بأفواه القدرة بل بأفواه الرب. لو ترى يا شاهد مشاهدة الحق في الآيات ترى أنوار العظمة والكبرياء من عيون الآساد وأنبياء الثعابين، وترى أنوار جماله من أوراق الورد والنرجس والياسمين ووجوه الحسان، وتسمع أصوات الوصلة من ألحان الطيور والبلابل والعنادل، وأصوات الرياح والسحاب والإنسان

والأوتاد، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «الورد الأحمر من بهاء الله، مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى بَهَاءِ اللَّهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى الْوَرْدِ الْأَحْمَرِ»^(١).

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي: سنريهم هذه الحقائق في الآيات وفي أنفسهم؛ حتى يتبين لهم أنها هي الحق بعينه لا الآيات ولا الآفاق ولا الأنفس إن لاح الحق من الحق لأهل الحق، وتأکید ذلك برهان ظهوره من كل شيء وشهوده على كل ذرة من العرش إلى الثرى بنعت التجلي، وتبسم صبح الأزل في عيون المشاهدين جلاله.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: ظاهر من كل شيء بسطوع نور أزليته منه لكل مستأنس شاهد به فيه، ثم يبين أن المحرومين في الأزل بسبق الشقاوة لا يرونه حقيقة وبيانا وكشفاً وعياناً وعزاً وسلطاناً وبرهاناً بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنَ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: إنهم مطموسون عن مشاهدته بلطحات قهره، فهم في شك وريب من حيث عماهم وجهالتهم، ثم أكد أمر ظهوره على الكل بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾: أحاط علمه وقدرته وجلاله وجماله بكل شيء من العرش إلى الثرى، لكن لا يراه بنعوتها إلا العاشقون الراهون العارفون.

قال القحطبي^(٢): لا يزال العبد يرتقي من حالٍ إلى حالٍ حتى يبلغ إلى الأحوال السنية العلية؛ فيرى الله قائماً بالأشياء، ثم يرقى به من ذلك الحال حتى يرى الأشياء فانية في رؤية الحق، ويتيقن أن القديم إذا قُورن بالحدث لا يثبت له أثر، وإن جُلَّ قدره وعظم خطره، وهو معنى قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، وهو النظر إلى الكون بمشاهد الحق، ثم النظر إلى الحق بالفناء من الكون، وهو أن تصير النعوت نعماً، ولا يشهد إلا حقاً صرفاً.

وسئل أبو عثمان عمن يقول بالشاهد؟ فقال: لا أنكر القول بالشاهد لمن يشهد الأشياء كلها شيئاً واحداً.

وقال الواسطي: ظهر من كل شيء بما أظهر منه، وإظهاره الأشياء ظهوره بها، فإذا فُتّشها لا يجد غير الله، قال الله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَ لَهُمْ أَنَّهُ

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١/ ١٧١).

(٢) أبو القاسم القحطبي: الصوفي كان أحد الصلحاء الصوفية بطرسوس، وذكره أبو عمرو الطرسوسي. بغية الطلب في تاريخ حلب (٤/ ٣٧٥).

أَلْحَقُّ» دون غيره؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «أصدق كلمة تكلمت بها العرب كلمة لييد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(١).

وقال بعضهم: يرى الأشياء عدمها وجودها ووجودها عدمها، كما أن كل قرب بعد، وكل بعد قرب؛ لأن إحاطة القدرة بالشيء وجود الشيء.

وقال الواسطي في قوله: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»: لو شهدوا شواهد الحق فيما جرى عليهم من المخالفة والموافقة لما اضطربوا فرحاً ولا حزناً نفياً للشرك والمقارنة.

وقال أيضاً: أوائلها للطائعين والعابدين، طالعوه، وراقبوه، وأواخرها للواجدين، شاهدوه على آباده وسرمده الذي فيه فناء معانينهم.

وقال ابن عطاء: آيات الحق بادية لمن كُحِّل بنور التوفيق، ونظر إليها بعين التحقيق، وكل ما أظهر الله تعالى من خلقه ناطق بتوحيده إما صريحاً وإما دليلاً منه للحق إن شاهدوا ونظروا عن بصر وبصيرة ولا دليل عليه وإليه سواه، فإن الكل حدث وهو القديم، ومتى يُستدل بالحدث على القديم؟!

سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَشَقَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَشَقَ ﴿٢﴾﴾ : هذه الأحرف رمز الله مع حبيبه ﷺ، يخبره بهن ومن كان أهله من سر الذات والصفات والأفعال، الحاء رمز الحياة الأزلية، والميم رمز محبة القديم، والعين رمز عينية ذاته وعلمه القديم وعيانه لأهل العيان، والسين رمز سره وسر سره وغيبه وغيب الذي منه بدأ العالم، وآدم بالحاء الحياتي، أحيا قلوب العارفين حين تجلت منها حياته لها، وبالميم المحيى بملك الأرواح المحبين بحلاوة محبته، التي برقت سناها في عيونها، ثم بسر الحرفين ورمز النعتين حمى أسرار الواصلين عن خطرات الريب، وكاشف لها أسرار الغيب، ومن العين عاين ذاته وصفاته للعالمين به وبأوصافه ونعوته، وبالسين سار سنا برق سبحاته في

(١) رواه مسلم (١٧٦٨/٧)، والترمذي (١٤٠/٥).

أسرار السابقين، وبالقاف ظهر قاف كبرياء قدم ذاته وقيوميته صفاته للقائمين به في قربه عند ظهور قيامه عليهم، وافهم أن الحروف على أوائل السور رموز الحق، أخفى أسرارها عن غير أهلها، ثم أخفى من تلك الخفيات هذه الأحرف على أوائل هذه السورة بأن رفع عن السنين نقوش الشين، فأراد بالسين الشين وبيان ﴿حم﴾ عشق أي: يحى الأزل، وجمال الأبدى عشق العاشقون، وأنا عشيقهم، وبرمز العشق أخاطبهم، حتى لا يطلع على أحوالها أهل الرسوم فيهلكوا، لأن من بين العاشق والمعشوق ارتفع حشمة الربوبية وكلفة العبودية في مقام المشاهدة، ثم أقسم الحق بهذه النعوت أي: بحياتي يا حبيبي ومجدي وجمالي وملكى ومحبتى لك والأولياء أمتك يا محب يا محمد، وبعلو شأني وعلمي المحيط وعزى وعياني، وخلقى يا عارف يا عالم يا عالي الهمة يا عزيز، وبسنائي وقدسى وسرمديتى، وسبق وجودى على كل شيء، يا صاحب سري، ويا سباق كل سابق بالشرف والفضل والتقدم، ويا سبّاح بحر قدسى وأنسى ومقدمى وقيوميتى وقيامى على كل شيء، وبقولى الحق، وبقدرتى القديمة، وبقضائى وقدرى، وبعشقى يا عاشقى، وبصدقى يا صادق، إن هذه الإشارة قد أشرتها إليك، كذلك أشرتها إلى أنبيائي قبلك وأوليائي وأهل خالصتى، وذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢١)؛ عزيز بعزى عززتك وعززت أوليائي، وبحكمتى اصطفتك واصطفت أحبابى، وأعطيتك وأعطيتهم حكمتى ومعرفتى، ومنعت عنك وعن أهل محبتى كيد الكائدين وغلبة الجاهلين.

قال ابن طاهر: الحاء من الحكيم، والميم من الملك، والعين من العالم، والسين من السيد، والقاف من القادر، هو الذي ﴿يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾. يوحى إليك أبناء من قد سلف من الأمم، ويوحى إلى الذين من قبلك فضلك وفضل أمتك.

وقال أبو بكر الوراق: الحاء حلمه حلیم ملكه، والعين علوه وعلمه، والسين سناؤه، والقاف قدرته، يقول: بحلمى وملكى وعلوى وعلمى وسنائى وقدرتى أنى لا أعذب من عرف ربوبيتى وأحسن ظنه فى وأحب الرجوع إلى.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَتَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٢٣) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٢٤) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ

مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٦٠﴾.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَتَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾: ينهانا الله سبحانه عن عظيم قدره وجلال عزه، وبأنه سبحانه خلق قوماً من الجهلة، وأطلقهم في مهمة الضلالة حتى وقعوا في مقالة السوء، ويقولون على الله ما لا يعلمون من أعظم افتراءهم، تكاد السماوات تنشق من فوقهن من الغضب عليهن، وذلك بعد أن ألبسها الله إقرار قدرته، وأدخلها روح فعله حتى عقلت عبودية صانعها، وعرفت قدسه وطهارته عن قول الزائغين وإشارة الملحددين، والملائكة يقدسون الله عما يقولون فيه من الزور والبهتان والدعاوى والباطلة، ويستغفرون للمؤمنين الذين لم يبلغوا حقيقة عبوديته، ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: غفر ذنوب المقبلين ورحمهم بأن يرزقهم قربه ووصاله.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦١﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٢٦٢﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْآلِئَةِ أَوْ جَا يَذَرُكُمْ فِيهِ لَئِنْ كُنْتُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٦٣﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾: ولي كل ولي، في الأزل أجادهم بتجلي القدم من موت العدم، تولى أسرارهم بنعت حفظها من قهره، ويحيى بجمالها قلوبهم عن موت الجهل به، بعد أن عرفهم نفسه، وألبس أرواحهم أنوار حياته، وفيه شكاية عن المشغولين بغيره، الباقيين في حجاب الوسائط، يعرض نفسه بنعت الجلال والجمال على المقصرين؛ ليجذب بحسنه وجماله قلوبهم إلى محبته وعشقه، ويحييها بنور أنسه وسنا قدسه.

قال ابن عطاء: الحق يتولى أوليائه في كل نفس برعايته وعناية طربه، ومن كان الحق متولياً سعياته وحركاته كان في أصون صون وأحرز حرز، وهو الذي يحيى القلوب بمشاهدته وبالتجلي بعد الاستتار.

وقال الواسطي: يحيى القلوب بالتجلي، ويميت الأنفس بالاستتار.

وقال سهل: لا يحيى النفوس حتى تموت.

قال بعضهم: قلوب أهل الحق مصانة عن كل معنى؛ لأنها موارد الحق، ولما بين أن

المعرضين عن ساحة قدسه وجمال وحدانيته عزيز عزته وعظيم نور كبريائه المقبلين إلى وسائط الحدثان، وطلب لذة الحال من رؤية الأكوان، وكشف الحقيقة عن مرآة الخليفة، إنهم من حقيقة التوحيد عبدة الأصنام إذا انزلوا من ضعف قلوبهم عن طوارق سطوات عظمة القدم، المنزه في ظهوره عن أن يحل في الحوادث، المقدس من أن تكون ذاته وصفاته في الكوائن والمشاهد، قدس نفسه عن المشابهة بغيره بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: كل ما وقفت عليه من العرش إلى الثرى فأنا منزلة عن ذلك، ولو أتجلى من قدس جلالي بالحقيقة لاضمحل الحدثان، وفنيت الأكوان، سبحانه تعاليت عن خطرات الأوهام وعما يحل في الأفهام، وعما تدركه العقول وتشاهده القلوب ويعاينه الأرواح ويصادقه الأسرار من ذكرني بحظه فقد افترى، ومن شكرني بحظه فقد ابتري، ومن صبر في موازاة قدمي فقد اجتراً، لولا رحمتي الواسعة على جميع خلقي ما أوجدتهم وما خاطبتهم؛ إذ خطابي معهم من وراء كل حادث، وليس في عزة قدمي وراء ولا ملأ ولا خلاء ولا مكان ولا زمان، من أشار إليّ بنعت العشق فهو محجوب بحظه عني، ومن أشار إليّ بنعت المعرفة فأنا منزلة عن أن كون معروفه بمعرفته، ومن أشار إليّ بالتوحيد وتوحيده راجع إليه وأنا واحد في وحدانيتي، ما فارقت عن اثنين حتى توحدت؛ فإن وحدانيتي منزلة عن الكثرة والقلة، ولم يكن للحدثان وجود بالحقيقة حتى يكون مثلاً لي؛ إذ قيامها بي، وكيف تكون الأشياء مماثلي والأشياء قائمة لقدرتي؟ ولولا قدرتي ما تكونت الأشياء، ليس لصنعي مثل، فكيف لصفاتي وذاتي؟ يا حبيبي احترق في نيران الغموم والهموم واليأس والقنوط من إدراك عين حقيقته، وإن كنت مشاهداً إياه أبداً فإن الكون غائب في بحر لا إله إلا الله، ولا م ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، نفى الكيفية والأينية والحيثية في أول إبراز نور قدسه بقوله ليس، وقد كفى به أهل التوحيد إذا عدم التشبيه والمشابهة، ولو فهم المخاطبون حروف أول السورة لرأوا معنى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ في رمزها سبحانه، سبحانه هام فؤاد، عرفه كل لسان وصفه، سبحانه ما أعظم شأنه!

قال الواسطي: رموز التوحيد كلها خرجت من هذه الآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لأنه ما عبر عن الحقيقة بشيء إلا والعلة مصحوبةً والعبارة منقوصة؛ لأن الحق لا ينعت على أقداره؛ لأن كل ناعت مشرف على المنعوت، وجل أن يشرف عليه مخلوق.

وقال الشبلي: كل ما ميزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم فهو مصروف إليكم، ومردود عليكم، محدث مصنوع مثلكم؛ لأن حقيقته جل أن تلحقها عبارة، أو يدركها وهم، أو يحيط بها علم، كلاً كيف يحيط به علم وقد انفتحت فيه الأضداد بقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ أي عبارة تخبر عن حقيقة هذه الألفاظ؟ كلا

قصرت عنه العبارة، وخرست الألسن؛ لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١).

وقال الواسطي: احتجب بخلقه عن خلقه، ثم عرّفهم صنعه بصنعه، وساقهم إلى أمره بأمره؛ فلا يمكن للأوهام أن تناله، ولا العقول أن تحتاله، ولا الأبصار أن تتمثله، ولا الأسماع أن تشملها، ولا الأمانى أن تمتهنه، هو الذي لا قبل له ولا بعد له، ولا يقصد عنه، ولا معدل ولا غاية وراءه، ولا منتهى، ليس له أمد ولا نهاية ولا غاية ولا ميقات ولا انقضاء، لا يستره حجاب ولا يقله مكان؛ ولا يحويه هواء، ولا يحتاطه فضاء، ويتضمنه خلاء، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فلما قطع أضلاع الحقيقة عن إدراك جلاله رغبهم في إقبالهم إليه؛ لطلب عرفان وجوده، ووجوده بقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مقاليد مشيئته الأزلية وإرادته القدسية، يفتح بها أبواب كنوز سنوات ذاته وصفاته، وأعرض فعله للمصطفين في الأزل بمحبته، وينثر على أسرارهم جواهر أنوار معرفته، ويعرّفهم شمائل وجوده ومحاسن أفعاله وغرائب صفاته، ثم زاد وصف كرمه لطلاب قربه وعشاق مشاهدته بقوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: يبسط رزق مشاهدته لمن يشاء من أهل صبايته وأهل الاشتياق إلى جماله، وهو قادرٌ بذلك، لا ينقص جلاله، وأن ينظر إليه أهل شوقه أبد الآبدين؛ إنه عالمٌ بحرق فؤادهم ولهب نيران أسرارهم، يميل بذلك أزمنة طلاب الحوائج إلى ساحة جوده؛ حتى لا يميل أحدٌ لكل معنى إلى غيره، يا أخي مقاليد سماواته ما في قلوب ملائكته من أحكام الغيوب، ومقاليد أرضه ما أودع الحق صدور أوليائه من حجاب القلوب.

قال ابن عطاء: مقاليد السماوات الغيوب، ومقاليد الأرض الآيات والبينات.

وقال: عاتب الله أوليائه بنظرهم إلى ما سواه.

(١) قال سيدي علي وفا: اسمع: إن قيل لك المثل بكسر الميم وسكون الثاء ويفتح الميم والشاء واحد، فكيف الجمع بين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وبين قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] وبين قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ فقل: وما توفيق العبد إلا بالله سيده ومولاه: إن كانا واحداً لغة فالمثل قد أثبت للحقيقة التي هي الهوية بقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، ولا سم الجلالة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، ولنور الله بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ ونفي عن مثل الهوية بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأثبت المثل للنور بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ هذا المشكاة أمرٌ وهمي ليس غير؛ لأنه في الحس فراغ متوهم وخلاء، والخلاء ثابت وهما فقط، فهو في الحس والكون لا شيء، فلا يلزم من كونه كائناً أن يكون ذلك الأمر شيئاً. وإنما قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]؛ ليثبت أنه ليس له مثل حقيقي؛ إذ الظاهر منه في المظاهر هو بالحقيقة، ومثاله بالوهم ليس إلا كالذي تراه منك بواسطة المرايا الصفيقة، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [النور: ٣٥]: أي يبين الله الأمثال للناس، فافهم.

وقال: بيدي مقاليد السماوات والأرض؛ فلا تشتغلوا بها ولا بما فيها وعليهما؛ فإن كلها قامت بي، كونوا إلى حقاً؛ أسخر لكم الأكوان وما فيها، ألا ترى كيف قطعهم عن الاعتماد على الأنبياء بقونه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. وقال: مقاليد الأرزاق صحة التوكل، ومقاليد القلوب صحة المعرفة بالله، ومقاليد العلوم الجوع.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿٣١﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مُرِيبٌ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ أي: بسط لكم بساط العبودية التي هي مرعاة عرفان الربوبية، فإذا كنتم تصعدون عليها تبلغون إلى مشاهدة جلالي وكشفي جمالي، عرفتكم نفسي كما عرفت نفسي حبيبي وخليلي وكليمي وروحي، ووصيتكم بالآلا تختاروا عليّ شيئاً من دوني، فإذا تجردتم عن غيري واستقمتم على بساط خدمتي وأقبلتم إلى جمال مشاهدتي بنعت المحبة والشوق فقد بلغت نهاية الدين الذي اصطفينا به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً ﷺ وعليهم أجمعين، لا تتفرقوا من مقام الجمع؛ فإن عين الجمع غاية ذوق العارفين، والتفرقة غاية الحجاب بيني وبينكم.

قال بعضهم في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ أي: من تعظيم محمد ﷺ الأنبياء السابقة. وقال سهل: الشرائع مختلفة، وشرعية نوح هي الصبر على أذى المخالفين. ﴿فَلِذَلِكَ فَادَّعِ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ تَحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٣٤﴾﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٣٥﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: ألبس الله حبيبه أنوار نعوته الأزلية بنعت التجلي والكشوف لقلبه وعقله وروحه وسره وصورته، فلما جعله كاملاً من كل الوجوه قال له: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: استقم بي على مرادي منك؛ بحيث تستقيم بصفتي عند كشف حقائق ذاتي؛ فإن الكون وأهله لا يستقيم في موازاة ذرة من عين الألوهية، والاستقامة في الأمر عموم، وفي المعرفة والمشاهدة خصوص، الاستقامة في العبودية للأولياء، والاستقامة في مشهد الربوبية للأنبياء.

قال بعضهم: حقيقة الاستقامة لا يطبقها إلا الأنبياء وأكابر الأولياء؛ لأنها الخروج من المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الحق على حقيقة الصدق، ولذلك قال النبي ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»^(١) أي: لن تطبقوا الاستقامة التي أمرت بها.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾: لطيف بأوليائه وأهل معرفته ومحبته، بأن أودع أرواحهم في الأزل ودائع العلم اللدني وأنوار محبته الأزلية، واصطفاهم بقربه ووصاله، وأغرقهم في بحار شوقه وعشقه ومعرفته، ثم طالع أسرارهم بعلومه القديمة، فرأى هب نيران قلوبهم من شوقه، لا يخفي عليه هيجانهم وشوقهم إليه، فجذبهم من مكنن العدم أولاً إلى نور القدم، وأشدهم على مشارب بحار الذات والصفات، ثم جذبهم إلى بساط العبودية، وتلطف عليهم بأن رفع عنهم أثقالها تلطفاً وكرماً حتى سهّل عليهم مسالك الاستقامة، ثم جذبهم إلى مشاهدة الربوبية، وأدناهم منه، ودنا منهم؛ حتى يبقى البين في البين، قال تعالى في وصف حبيبه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٢): ثم حماهم من قهر غيبرته، وألبسهم قباء أنوار بقائه، وتوجههم بتيجان المسرة، وشدّ في أوساطهم مناطق الحرمة، وأجلسهم على أرائك المملكة، وخاطبهم بأسرار ملكه وملكوته، وجعلهم أهل سرّه، وأكرمهم بكشف ملكه لهم حتى حكموا فيه بشرط الانبساط، لا يثقل عليهم حقوق المعارف، ولا يجري عليهم إلا أنوار الكواشف، هم طيور مناهل الرصال، يطرون في بساتين الجمال والجلال، وترنمون بألحان الصفات، ويخبرون أهاليهم من أسرار الذات، طوبى لهم، ثم طوبى له، ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَقَابٍ﴾، فأرجو من كمال كرمه القديم وجوده العميم أن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) فإذا ارتفع الأين والبين والمكان والجهات، واتصل أنوار كشوف الذات والصفات بالعارف، فذلك حقيقة المعية، إذ هو سبحانه منزّه عن الانفصال والاتصال بالحدث، البحر المديد (٦/٢٦٦).

أكون طيرًا من ملك البلابل، أصفر بصفير الصفات، وأترنم من بطنان غيب الذات، سكران من رؤية الذات، واهًا بالصفات، وواهًا من شراب الصفات، مشغوفًا بسنا الذات، ثم أفنى في الذات، وأبقى في الصفات، ولا يجري عليّ بعد ذلك طوارق الفناء؛ فأبقى بقاء الأبدى، وأتدارك ما فات مني من المعية القدمية مع القدم؛ فإن الآخر بالحقيقة أول، والأول آخر، وانظاهر باطنًا، والباطن ظاهرًا، فنحن الأولون حيث قام الحق بأوليته مقام أوليتنا وإن كنا معدومين، ونحن الآخرون من حيث ألبسنا الحق وصف بقائه، ونحن الظاهرون بظهوره علينا، ونحن أهل الباطن والغيب؛ إذ لا غيب في الكشف، ولا باطن في الظهور، تعالى الله عن أن يدركه بوصفه غيره، رزق الله هذه المراتب العلية والمواهب السنية من آمن بنا، وبكل ولي صدر من بساتين الغيب، ومشارب القرب الذي يتكلمون بمثل هذه الكلمات البديهية الإلهية الربانية، كما قال سبحانه: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾: قويّ باصطفائيتهم مما اختار لهم في أزله إلى أبده.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾: يعلم من أنفسهم ما لا يعلمونه من نفوسهم، فربط كلا بحده، فمن بقي مع حده حجب، ومن تجاوز حده هلك. قال أبو سليمان الداراني: من لطف الله بعبده أن قصر له كنه معرفته حتى لا تتكدر عليه نعمائه.

وقال الجنيد: اللطيف الذي لطف بأوليائه حتى عرفوه.
وقال ابن عطاء: اللطيف الذي يعرف الغيوب بلا دليل.
قال بعضهم: اللطيف الذي يُنسى العباد في الآخرة ذنوبهم لثلاث يتشردوا.
وقال بعضهم: الذي لم يدع أحدًا يقف على مائة أسمائه فكيف الوقوف على مائة وصفه وذاته؟

وقال أبو سعيد الخراز في قوله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾: موجود في الظاهر والباطن، والأشياء كلها موجودة به، لكن يوجد ذكره في قلب العبد مرة، ويفقده مرة؛ ليجدد بذلك افتقاره إليه.

وقال القاسم في قوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾: الفطنة والحكمة، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾: القوي يقوي الفطن، والعزیز عزز عنايته ورعايته، ولا يبذلها لكل أحد.

قال الأستاذ: اللطيف هو العالم بدقائق الرموز وغوامضها.
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أم لهم شركتوا شرعوا لهم من

الَّذِينَ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٠﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١١١﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾: حَرْث الآخرة مشاهدته ووصاله وقربه، وهذا للعارفين، وحَرْث الدنيا الكرامات الظاهرة، ومن شغلته الكرامات احتجب بها عن الحق، لو يزيد من حَرْث الدنيا فهو معرفة الله ومحبه وخدمته، وإلا فلا يزن الكون عند أهل المعرفة ذرةً. قال بعضهم في هذه الآية: من عمل لله محبة له لا طلباً لنجزاء صَغُرَ عنده كل شيء دون الله؛ فلا يطلب حَرْث الدنيا ولا حَرْث الآخرة، بل يطلب الله من الدنيا والآخرة. قال سهل: حَرْث الدنيا القناعة، وحَرْث الآخرة الرضا.

وقال أيضاً: حَرْث الآخرة القناعة في الدنيا والمغفرة في الآخرة والرضا من الله في كل الأحوال، وحَرْث الدنيا قضاء الوطر منها والجمع منها والافتخار بها، ومن كان بهذه الصفة فما له في الآخرة من نصيب.

قال الأستاذ: نزيده اليوم في الطاعات توفيقاً، وفي المعارف وصفاء الحالات تحقيقاً، ونزيده في الآخرة ثواباً واقترباً وفنون النجاة وصنوف الدرجات.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾: قدَّس الله تعالى بهذه الآية حال نبيه ﷺ أن يكون قلبه مشوباً بشيء من الحداث في دعاء الخلق إليه، وأنه يريد منهم جزاء دعوته أن يتقربوا إلى الله ببذل الأرواح في محبته، وبذل الأشباح في خدمته، وأن يستنوا بسنته، ويتبعوا أسوته في جميع الأنفاس؛ طلباً لزيادة محبة الله إياهم ومتابعتهم، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

قال سهل: أن تقربوا إليّ باتباع سنتي.

قال ابن عطاء: لا أسألكم على دعوتكم أجراً لا أن تتوددوا إليّ بأن تعملوا من الأعمال ما يقربكم إلى ربكم.

وقال الحسن: كل من تقرب إلى الله بطاعته وجبت عليك محبته.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾: بين الله سبحانه قدس استغناؤه عن المخلوقين حتى من نبيه وصفيه وجميع الملائكة والرسل بأنهم لو خالطوا حاشاهم في آياته وبيان شريعته ليمحو وجودهم وقلوبهم وما لا يليق بدينه، ويثبت الحق والحقيقة بكلماته الأزلية التي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، وفيه تقديس كلامه وطهارة نبيه ﷺ عن الافتراء، وكيف يفترى وهو مصون من طريان الشك والريب والوساوس والهواجس على قلبه، وفيه من النكت الغريبة أي: لو تظاهر سر السر وغيب الغيب نربط على قلبك لطف الصحو؛ حتى لا تفشي سرنا من سكرك، فيهلك العباد فيه.

قال سهل: يختم على قلبك ختم غلبة الشوق والمحبة، فلا تلتفت إلى الخلق، وتشتغل بإجابتهم.

وقال الواسطي: إن يشاء الله يختم على قلبك بما شاء، ويمحو الله الباطل بنفسه ونعته، حتى يعلم أنه لا حاجة به إلى أحد من خلقه، ثم يحقق الحق في قلوب أنشأها للحقيقة.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾: يقبل توبتهم حين خرجوا من النفس والكون، وصاروا أهله مقدسين بقدسه، ويعفو عن سيئاتهم ما يخطر بقلوبهم من ذكر غيره، ويعلم ما يفعلون من التضرع بين يديه في الخلوات.

قال الأستاذ: إن لم يتب العبد خوفاً من النار ولا طمعاً في الجنة لكان من حقه أن يتوب؛ ليقبل الحق سبحانه توبته.

﴿وَنَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾: يعني يعطي سؤال السائلين في مشاهد قربه، ويزيدهم ما لا يعلمون؛ إنه مدخر لهم من غرائب لطفه وعجائب كرمه؛ لأنهم شاهدوا مشاهد ربوبيته حين غاب عنها أكثر الخلق،

وعملوا في بذل وجودهم لحب وجهي الكريم، واقتحموا في بلياني بصالح أعمالهم وحسنات نياتهم، فيجازيهم بما هو أهله، قال الله: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: علما ومعرفة بنا وبما لدينا وتوفيقا للزيادة والرغبة في طاعتنا، ونزيده لطفًا وكرمًا من عندنا، ونلبسه نورًا من نورنا، ونجعله حسنًا بحسنتنا.

قال بعضهم: من تقرب إلينا بطاعتنا أكرمناه بالتوفيق، وزدناه من الإحسان إليه، وهو أن نكرمه بالإقبال علينا والاحتراز عما سوانا.

قال الأستاذ في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: الرؤية.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (١٧) وهو الذي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (١٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (١٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا﴾: أراد بالرزق في الحقيقة والبسط كشف مشاهدته على السرمدية في هذا العالم للعارفين، يشكرون، ويشطحون، ويعربدون، ويخرجون من سكرهم وغلبتهم عن الحدود والأحكام، ويدعون بالدعاوي العظام، ويفسد بهم عقائد العباد، ولكن يكشف لهم على ما وافق قوة أسرارهم وثبوت أرواحهم حتى لا يفنوا في سباحات جلاله، وأنهم يعطشون إلى بحار جمال مشاهدته؛ لأنه خيرٌ عالمٌ بضعفهم عن تحمل أثقال الربوبية، بصيرٌ بنياتهم وشكوتهم في خلواتهم؛ حيث يسألون أن يفنوا في وجوده، وذلك حين أبطأ هجوم الواردات عليهم، وهم وقعوا في بحر اليأس بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي: يكشف لهم أنوار جماله بعد أن آيسوا من وجدانها في مقام القبض، وينشر عليهم لطائف بسط القرب؛ لأنه وليهم وحبيبيهم، محمودٌ بلسان افتقارهم ومعاينة اللقاء لهم.

قال ابن عطاء: إن الله تعالى يربي عباده بين طمع ويأس، وإذا طمعوا فيه آيسهم بصفاتهم، وإذا آيسوا أطمعهم بصفاته، وإذا غلب على العبد القنوط وعلم العبد ذلك وأشفق منه أتاه من الله الفرح، ألا تراه يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ (٢٠):

(١) أي: يشوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحقيقه بدونه أيضا لتذكير كمال النعمة، فإن حصول النعمة بعد اليأس والبلية أوجب لكمال الفرح فيكون أدعى إلى الشكر.

معناه ينزل غيث رحمة على قلوب أوليائه، فنبت فيها التوبة والإنابة والمراقبة والرعاية. ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٢٦) ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: إن الله سبحانه قدّر المقادير في الأزل، ومن مقاديره المقدرة كسب العباد، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، وجزاء اكتسابهم من الثواب والعقاب منها صدر، فإذا كسب العبد شيئاً من الجرائم فهي من أسباب القهر، ويكون محجوباً به، فإذا كان أهلاً لله تعالى يعاقبه الله في الدنيا ببعض المصائب، ويخرجه به من ذلك الحجاب، وإن لم يكن من أهل الحق فمصائبه إمهاله له في ضلالته، وإن ترك العبد الصالح بما بدا منه المعصية يكون محجوباً بها، ولكن يداويه ببعض الامتحان حتى يكون صافياً عن كدر الخليقة، ولكن بكرمه وفضله لا يؤاخذة إلا بقليل من عمله، ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٢٨)، وبغفوه ورحمته يخرجهم من ظلماتها، ولم يأخذهم بالقليل سخطه، لكن أراد أن يعرف العبد بالمصيبة عيوب نفسه ومواقع خطره.

قال ابن عطاء: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه، وإنما عفا عنه مولاه أكثر كان قليل النظر في إحسان ربه إليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾، ومن لم يشهد ذنبه وجنائته ويندم عليه لا ترجى له النجاة من المصائب والفتن.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾ (٢٩) ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ (٣٠) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١) ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٢) ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجْنَدُونَ فِي ءَايَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَخِصٍ﴾ (٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾ (٢٩) ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ (٣٠): في هذه الآية إشارة إلى أن سفن قلوب العارفين في بحار أنوار ذاته وصفاته، تجري على اضطراب من غلبات صدمة عواصف سطوات أحديته وأزليته وأبديته، من حيث إنها محدثة عاجزة خائفة من قهر وعظمة والفناء في معارف قاموس كبريائه، فيتلطف الحق بأمسك قهر عظمتها عنها، فيمسكها بنور جماله، ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ﴾: سواكن في جريانها بشمال جماله، ولولا فضله ورحمته لتفتتت في كشوف العظمة وبروز الكبرياء، وهذه الأحوال السنية لا تكون إلا لصبار بالحق في الحق، شكور برؤية فنائه في بقائه ووجوده، قائم بجلوه، قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣٤).

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَنْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ۝ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: ما أُوتِيتُمْ من المقامات والدرجات والكرامات والمعاملات فمتاع المتمتعين بذكر الله، وما عند الله من كشف مشاهدته وظهور أنوار وصاله وعجائب علومه الغيبية وأحكامه المخفية للذين شاهدوا الله وعليه يتوكلون في امتحانه إياهم واستغراقهم في بحار ألوهيته، فهو بجلاله ورحمته يخرجهم من لججها إلى سواحل وصاله؛ حتى لا يفنوا فيه، ويتمتعون بجماله في بقائه.

قال بعضهم: ما ظهر من أفعالك وطاعتك لا يساوي أقل نعمة من نعيم الدنيا من سمع وبصر، فكيف ترجوها النجاة في الآخرة؛ لتعلم أن النعم كلها بفضل لا باستحقاق.

﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ۝ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ۝ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلَالِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفٍ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّا آنَحْسِرُونَ ۝ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۝ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ۝ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي: بعد ظلم الظالم عليه، هذا بيان من لطف عدله، تعالى الله من أن يجور، عدل كما حكم، وصرح بخطابه طرفين من العلم: بيان شرف الظالم؛ إذ جاوز الأمر وجار في العبودية، وبيان ضعف المظلوم وقلة صبره في البلاء، وانخلاعه من شعار الأنبياء والصديقين وأولي القوة من الرسل، وأولي العزائم من أهل الاستقامة؛ حيث صبروا في احتمال الجفاء، وغفروا لمن لم يعرف أقدارهم، وبذلك وصفهم الله بقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝﴾، وما قال لحبيبه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾، والصبر في البلاء من نعوت أهل الرضا، والعفو من شعار أهل الكرم والرضا.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾: خاطب العوام بالانتصار بعد المظلمة، وأباح لهم ذلك، واختار للنبي ﷺ الأخص، وندب إليه بقوله: ﴿وَلَمَنِ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾، ثم لم يتركه ومخاطبة الندب حتى أمره بالأفضل وحثه عليه بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ﴾. وقال جعفر: صبر على إيذائه، وعفا عن مؤذيه؛ ذلك من أحكم الأمور في الدين وأحدها عند الله وأجلها عند الناس.

قال أبو سعيد القرشي: الصبر على المكاره من علامات الانتباه، فمن صبر على مكروه يصيبه ولم يجزع أورثه الله حالة الرضا، وهو أجل الأحوال، ومن جزع من المصائب وشكا وكَّله الله إلى نفسه لم تنفعه شكواه.

قال الأستاذ: صبر على البلوى من غير شكوى، وعفا بالتجاوز عن الخصم، فلا يبقى لنفسه عليه دعوى، بل يبرئ خصمه من جهته عليه من كل دعوى في الدنيا والعقبى، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِن بَنِي اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّجَالٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكَيرٍ ۝١٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبْنَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ۝١٨﴾ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝١٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾: الأمر للعموم في إجابة دعوته، ولا يسمع نداءه إلا من اصطفاة في الأزل لمحل خطابه وسماع دعائه، وكيف يجيب من لم يسمع بأسماع التنبيه والمعرفة والمحبة والفهم هواتف أطيار الإلهام والخطاب والكلام، من خاطبه الحق بلا واسطة؛ فيسمع أيضًا الخطاب بالوسائط، من كان خاليًا عن استعداد قبول الخطاب لا يجيب، ولو ناداه الحق بكل لسان؛ قال الله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾.

قال الجنيد: استجابة الحق لمن يسمع هواتفه وأوامره وخطابه، فتتحقق له الإجابة بذلك السماع، ومن لمن يسمع الهواتف كيف يجيب، وأتى له محل الجواب؟ وقال الأستاذ: الاستجابة الوفاء بعهده والقيام بحقه والرجوع من مخالفته إلى موافقته.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾: كان لي واقعة في ابتداء الأمر، وذلك أني شاهدت الحق بالحق، وكاشف لي مشاهدة جماله، وخاطبني من حيث الأرواح لا الأشباح، فغلب على سكر ذلك، وأفشيت حالي بلسان السكر، فتعرضني واحد من أهل العلم، وسألني: كيف تقول ذلك وأن الله سبحانه أخبرنا بأنه لم يخاطب أحدا من الأنبياء والرسل إلا من وراء حجاب، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾؟! فقلت: صدق الله، هذا إذا كانوا في حجاب البشرية، فإذا خرجوا بشرط الأرواح إلى علم الغيب والملكوت البسم الله أنوار قربه، وكحل عيونهم بنور نوره، وألبس أسماعهم قوة من قوى الربوبية، وكشف لهم سر الغيرة وحجاب المملكة، وخاطبهم كفاحا وعبائنا، ولنبينا ﷺ أخص خاصية؛ إذ هو مصطفى في الأزل بالمعراج والمشاهدة، فإذا صار جسمه روحه ويكون واحدا من كل الوجوه صعد إلى الملكوت، ورأى الحق منزها عن أن يحجبه المحل من الحدثان، أو احتجب بشيء دونه فهو الممتنع بذاته القديم من أن يطالعه إلا بعد أن يكشف له جلال أبديته وجمال سرمديته، وتصديق ما ذكرنا ما قال الواسطي في هذه الآية؛ قال: أخبر أن أوصاف الخلق على سنن واحد، وخص السفير الأعلى والواسطة الأدنى بمشاهدة الخطاب ومكافحته، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾، وهو قائم بصفة البشرية حتى ينزع عنه أوصاف البشرية، ويجلي بحلية الاختصاص، يكلم شفاها^(١)؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

تفسير قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي: كما خصصنا الأنبياء والرسل بالأرواح الروحانية والأرواح الملكوتية والأرواح الجبروتية والأرواح الجمالية والأرواح الجلالية خصصناك بروح قدسية أوجدتها من جملة الأرواح، بتجلي قدسي قدمي من العدم، وفضلناك برؤية القدس والجوهر القدسي المشروح برقوم تجلي جمالي وجلالي، المكسو بكسوة جميع صفاتي، المنور بنور ذاتي، خصصنا روحك المشرقة بهذه الأنوار،

(١) قال الشيخ المصنف: وإذا دخل القلب في عالم الغيب فما يراه فهو كشف، وما يسمعه فهو كلام وما يتكلم به فهو وحي، فيتولد مما يسمع الفهم، وما يتولد مما يبصر فهو بيان وكشف ونظر، وما يتولد مما يتكلم به فهو حكمة ومعرفة وعلم، وما يقع في موضع العقل من القلب فهو علم لدي، وما يقع في الفؤاد وهو الرؤية والإدراك. تقسيم الخواطر (ص ٩٥) بتحقيقنا.

بأن أحيتها بما أودعتها من روح فعلي وروح صفتي وروح ذاتي، وذلك على الغيب وغيب الغيب، وسر الغيب الأول أمر الفعل، والثاني أمر الصفة، والثالث أمر الذات، فإذا صارت جامعة لهذه الخصائص وأن جميع الأرواح صدرت من نورها أرسلناها إلى جسمك المبارك، ونفختها في صورتك كما نفخت في صورة أهلك، فصار آدم العالم فأنت أنت، وآدم والعالم من العرش إلى الثرى يظهر من مرآة وجودك، كما ظهر الكون من جوهر ك القدسي الذي هو أول ما خلقت، فمن يرى نورها منك فقد رآني، فإنك مرآتي للعالمين؛ لذلك قال ﷺ: «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ، وَمَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَ الْحَقَّ»^(١)، وقال: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ نُورِي، ثُمَّ خَلَقَ مِنْهُ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢)، فمن كان له من بحر نوره روحٌ صار بين العالمين مرآة جمال الحق وجلاله، ويكون شاهد الحق في العالم؛ من نظر إليه عشق بالحق؛ إذ الحق يظهر منه من حيث التجلي لا من حيث الحلول، تعالى عن أن يحل في شيء من الحدثان، ثم بين الحق تفصيل مواهبه التي وهبها لحبيبه ﷺ من خصائص النبوة والرسالة، وشرائط المعارف والكواشف التي خفيت عنه في أوائل حاله؛ إذ كان في غواشي صورة الإنسانية من أحكام أزليته، وما سبق له من حسن العناية والكفاية بقوله: «مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلِكْتُبُ وَلَا أَلَايَمَنُ» أي: ما كنت واقفاً على أسرار الخطاب وحقيقة المعرفة في زمان غيبتك؛ إذ زينتك بالطاق في حجب الغيب، ثم تجلي لك نور القرآن الذي ظهر منه نور العرفان، فصار العرفان إيمانك والقرآن عرفانك، فإيمانك العرفان، وعرفانك القرآن، فصار الإيمان والعرفان والقرآن من حيث عين الجمع واحداً؛ إذ جميعها صدر من صفة القدم بالتجلي والتدلي والظهور؛ والصفة صدرت من الذات من حيث المعاينة، والكشف للأرواح الجلالية الجمالية القدسية؛ لذلك تعود الكناية إلى الواحد من الاثنين، إذ هذا الاثنان واحد في الحقيقة.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلِكْتُبُ وَلَا أَلَايَمَنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٢١ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ٢٢﴾.

قاله تعالى: «وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» أي: هذه المعاني التي كشفتها لك نورٌ وهدايةٌ تهدي به إلى معرفتنا وشرفك عندنا، «مِنْ عِبَادِنَا»: من العارفين والموحدين والمحبين الذين كانوا في سوابق الغيب منك صدروا، وعلى رؤية جمالنا

(١) رواه البخاري (٢٥٦٨/٦)، ومسلم (١٧٧٦/٤) بأوله فقط.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٣١١/١).

وجلالنا، وأنت سيدهم وإمامهم، تعرّفهم سبل وصولنا، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ثم أضاف ذلك السبيل بنعت الخصوصية إلى نفسه، وقال: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: صراطك المستقيم هو طريق الله الذي مهّد للعارفين والمشتاقين؛ ليسلكوا فيه إليه بنوره وهدايته، ثم وصف نفسه بأنه مالك الأعيان من العرش إلى الثرى حتى طابت أرواح الصديقين بوحدانيته؛ إذ لا منصرف إلا هو، ولا مصرف من جميع الوجوه إلا ساحة كبريائه وعظمته، وذلك قوله: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾: تعود إليه أمور الخلائق من الحكم والقضاء والقدر والمشينة والفعل والقدرة كما بدأ منه.

قال الواسطي: أظهر الأرواح من بين جماله وجلاله مكسوة بهاتين الكسوتين، لولا أنه سترها لسجد لها كل ما أظهر من الكونين، فمن رداه برداء الجمال، فلا شيء أجمل من كونه في ستره يظهر منه كل دركٍ وحداقةٍ وفطنةٍ، ومن رداه برداء الحلال وقعت الهيبة على شاهده، وهابه كل من لقيه، ولصحة الأرواح علامات ثلاث: صحة الثقة، والتحقيق بالأخلاق، والتخطي في طريق الآداب.

وقال ابن عطاء: الكتاب ما كتبت على خلقي من السعادة والشقاوة، والإيمان ما قسمت للخلق من القرية.

قال القاسم في قوله: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾: لأنه مبتدأ كل شيء وإليه منتهى كل شيء، فمن كان منه وله فهو الساعة به.

قال سهل في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: تدعو إلى ربك بنور هداية ربك.

وقال بعضهم: دعونا أقوامًا في الأزل فأجابوا، فأنتم تهديم إلينا، وتدّهم علينا.

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ۝ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ۝ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا

وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ .

﴿حَم﴾ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ أي: بحياتي منك وحياتك بحياتي، ومحبتي لك ومحبتك لي، وبهذا الكتاب المبارك الظاهر بنوره وبرهانه في صدرك ولسانك، وصدور العارفين المبرهن بيانه للمؤمنين، المبين لطائفه لقلوب الصديقين، إن هذا القرآن أنزله على قلبك، وبلسانك الفصيح؛ ليعرفه كل مؤمن صادق، ويعقل به طريق العبودية وحقوق الربوبية.

قال سهل: بَيَّنَّ فيه الهدى من الضلالة، والخير من الشر، وبيَّن فيه سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء.

قال الأستاذ: الحاء يدل على حياته، والميم على مجده، وهذا قَسَمٌ، ومعناه: وحياتي وملكبي وهذا القرآن المبين إن الذي أخبرت أن رحمتي لعبادي المؤمنين حقٌ وصدقٌ، ثم وصف القرآن بأنه ليس بمخلوق، وأنه صفته الأزلية التي هي قائمة بذاته أزلاً وأبداً بقوله: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أمْرٌ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ أي: إنه صفتي، كان في ذاتي منزهاً عن التغيرات والافتراق؛ إذ هما من صفات الحدث، وأم الكتاب عبارة عن ذات القدم؛ لأنه أصل جميع الصفات لدينا، معناه ما ذكرنا أنه في أم الكتاب لعلِّي، علا من أن يدركه أحدٌ بالحقيقة، ممتنعٌ من انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، حكيمٌ محكمٌ مبينٌ.

قال سهل: أم الكتاب هو اللوح المحفوظ أي: رفيعٌ مستولٍ على سائر الكتب.

قال جعفر: عليٌّ عن درك العباد وما يتوهمون، حكيمٌ فيما دبر وأنشأ وقدر.

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ﴿١٢﴾ ^(١).

قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾: أجلُّ نعمة الله على

(١) أي: مطيعين، وكم سَخَّرَ لهم الفُلُكَ في البحر، والدوابَّ للركوب، وأعظم عليهم المنة بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فَحَمَلَهُمْ عليه إلى بساط الطاعة، وسَهَّلَ للمريدين مركب الإرادة فَحَمَلَهُمْ عليه إلى عَرَصات الجود، وسَهَّلَ للعارفين مركب الهَمِّ فأنَاخوا بعِزَّةِ العِزَّةِ وعند ذلك عَطَّ الكافة؛ إذ لم تحرق سرادفات العِزَّةِ هِمَّةٌ مخلوق سواء كان ملكاً مُقَرَّباً أو نبياً مُرْسَلاً أو ولياً مُكْرَماً فعند سطوات العِزَّةِ يتلاشى كل مخلوق، ويقف وراءها كل محدث مسبوق، القشيري (٧ / ٢١٠).

العباد أن يقويهم على نفوسهم الأمانة، وينصرهم عليها حتى يركبوا عليها، ويميتوها بالمجاهدات، حتى استقامت في طاعة الله، فإذا استقامت وجب عليهم شكر نعمته، وذكر كرامته، وتذكر تلك النعمة أن يعرفوا لطيف صنعه في إبداعهم، ويروا أنوار صفته في ظهورها من صنائعه، ثم ينظروا بنورها إلى غيبه، ويعرفوا في الغيب عين ذاته بعد أن شاهدوه به، وهذه النعم لا تفارق عن العبد لمحة، وشكرها واجب عليه بنعت المعرفة على السرمدية.

قال بعضهم: من لم يعرف نعم الله عليه إلا في مطعمه ومشربه ومركبه فقد صغر نعم الله عنده، ثم بين الله أن تسخير النفس بعد استوائها في طاعة الله يكون بتسخير الله لا بالنكسب والمجاهدة؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾: أخرج تسخيرها من كسبهم أي: وما كنا مطيقين بتذليلها.

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١) وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (٢) أَمْ آتَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (٣) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٤) أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْجَلِيلِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (٥) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (٦) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَتَخْرَصُونَ (٧) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٨) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ (٩) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ (١٠) قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١١) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٢) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (١٣) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (١٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون إلى الله في جميع الحوائج بنعت الشوق إلى جماله والعشق بجماله.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (١٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾: لما كان الخليل عليه الصلاة والسلام

موقع نظر جماله وجلاله وكشف وصاله وتجرد من غيره في خلته ومحبه وخدمته وأفرده بتوحيده عن غيره جعل الله توحيده كلمته العليا الشجرة الثابتة، أصلها في أرض قلبه، وفرعها إلى سماء الأبد، وثمرها الرسل والأنبياء والأولياء، وأشهى ثمرها محمد ﷺ، وبقي ذلك التوحيد في قلوب أمته إلى يوم ورودهم على موارد المشاهدة الكبرى.

قال سهل: هي التوحيد في ذريته إلى يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۚ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۚ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۚ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۚ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ۚ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: جهلوا العظمة، وظنوا أن العظيم من هو له غنى وقوة نفسانية، ولو يعلموا أن العظيم هو من عظمه الله بعظمته، وكساه أنوار سلطانه وبرهانه، وهو المصطفى ﷺ أنه عظم قدره في الدارين بقدر الله، وخصه بما قسم له في الأزل بالرسالة والنبوة والشرف والكرامة، ووبّخهم الله بما تمنوا في القسمة بقوله: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾: جعل معيشة البعض إرادة، وجعل معيشة البعض علماً وخدمة، وجعل معيشة البعض إيماناً وصدقاً، وجعل معيشة البعض توبة وإنابة، وجعل معيشة البعض محبة وشوقاً وعشقاً، وجعل معيشة البعض معرفة وتوحيداً، وجعل معيشة السالكين الفِرَاسات، وجعل معيشة الزاهدين الكرامات، وجعل معيشة العارفين تراكم الواردات، وجعل معيشة الفقراء القناعة والتوكل والرضا والتسليم، هذا للمقبلين إليه، وللمدبرين عنه الغي والضلالة والجهل والغباوة والدنيا الكثيرة الشاغلة عن الله، وهم أيضاً في ذلك متفاوتون؛ فبعضهم أعلى من بعض بالمعرفة، وبعضهم أعلى من بعض بالمشاهدة، وبعضهم أعلى من بعض في المكاشفة، وبعضهم أعلى من بعض في المحبة، وكذلك في جميع المقامات، كما فضل بعض أصحاب الدنيا في الرزق والمعيشة.

قال الواسطي في قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾: رزق قومًا حلالاً ومدحهم عليه، وقومًا شبهة وذمهم عليه، وقومًا حرامًا وعاقبهم عليه، موسراً بالحرام المحض ولم يلمه عليه، قال

النبي ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ»^(١)، وقال الله لهم: «يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ».

وقال سهل: فضَّلنا بعضهم على بعضٍ في المعرفة والطاعة عيشًا لهم في الدنيا والآخرة. قال الجنيد: بالتمييز وحفظ السر.

وقال بعضهم: بالثقة والتوكل.

وقال بعضهم: بمعرفة كيد النفس ووسواس الشيطان، ثم بيَّن الله سبحانه بآخر الآية أن ما عنده من الاصطفائية الأزلية وكشف مشاهد العزيزة الكريمة التي هي مقدسة من شوائب الاكتساب «خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» من جميع الفضائل، وأن عيش الآخرة للمؤمنين خير من العيش في الدنيا بقوله: «وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ».

قال سهل: ذكر الله خالصًا خيرًا من كثرة الأعمال لطلب جزاء.

وقال ابن عطاء: ما يعطيهم على سبيل الفضل خيرٌ لهم مما يجازيهم.

«وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»^(٢) وَإِنَّهُمْ لَبَصَدُ وَنَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَتَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ»^(٣) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ»^(٤) وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْ تَكُونَ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ»^(٥) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»^(٦).

قوله تعالى: «وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» أي: من نسي الله وترك مراقبته ولم يستحي منه وأقبل إلى شيء من حظوظ نفسه قَبِضَ الله له شيطانًا يوسوس له في جميع أنفاسه، ويغوي نفسه إلى طلب هواها حتى يسلطه على عقله وعلمه وبيانه، وهذا كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «الشهوة والغضب يغلبان العقل والعلم والبيان، وهذا جزاء من أعرض عن متابعة القرآن ومتابعة السنة».

وقال سهل: حكم الله تعالى أنه لا يرى قلب عبد يسكن إلى شيء سواه إلا أعرض عنه، وسلَّط عليه الشيطان؛ لِيُضِلَّهُ عن طريق الحق، ويغويه.

وقال ابن عطاء: من لم يداوم على الذكر فإن الشيطان قرينه، ومن داوم عليه لم يقربه الشيطان بحال.

وقال الواسطي: من صرفنا قلبه عن مواعظ القرآن وحجبناه عنه نُقِصَ له شيطانًا،

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٧/١٠)، وهناد في الزهد (٢٨١/١).

فقارنه حتى يصرفه عن الحق، وذلك بإذن الله وخذلانه، قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

قال جعفر: من جهل معرفة ما أنعم الله عليه بذكره ولم يشكر ذلك قرن به شيطاناً لا يفارقه في جميع أفعاله وأحواله وأقواله.

﴿فَلَمَّا نَذَهَبْنَا بِكَ فَرِيقًا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (١١) ﴿أَوْثَرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ (١٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَذَهَبْنَا بِكَ فَرِيقًا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾: إن الله سبحانه نظر في قلب حبيبه ورأى فيه غلبة الشوق إلى جماله واهتماماً لأمته كيف يعيشون بين أضدادهم من الضلال، فقال: لا تهتم؛ فإني أوصلك إليّ، وأدفع شرّ الظالمين عنهم، وأنتقم منهم ما فعلوا بك وبأمتك؛ فإنك أمانهم الساعة.

قال ابن عطاء: أنت الأمان فيما بينهم، فإن قبضناك انتقمنا منهم، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «حياتي خير لكم، وموتي خير لكم»^(١).

وقال يحيى بن معاذ: لله على عباده حجتان: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة الرسول، وأما الباطنة فالعقول.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٣) ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (١٤) ﴿وَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ (١٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (١٧) ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الْكَذَّابُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ (١٩) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَتَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوِي أَلْيَسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١) ﴿أَمْ أَرَأَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٢٢) ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (٢٣) ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ

(١) رواه ابن عدي في الكامل (٧٦ / ٣).

فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿١١﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: لا تسمع قول الزائعين الذين يؤذونك ويقولون لست بحق؛ فأنت على الحق المبين، فاستمسك بالقرآن الذي هو شاهدٌ على شرفك، فأنت على الطريق المستقيم، وهذا تسليّة لقلب نبيه وتأديبٌ لأمته، وهذا عارفٌ يتعرضُه نفسه وشيطانه من الإنس والجن بالمعارضات العريضة بعد مكاشفاته ومعرفته، ويمنعونه من سلوك الحقائق التي لا يعرفها أهل الرسوم من المقلدين في ظاهر العلم والعمل، ويخاصمونهم؛ فإنه سبحانه أيده بنصره، ويسل قلبه بهذا الخطاب المبارك.

قال ابن عطاء: أمر الله النبي ﷺ بالاستمسك بالدين، وهو الإمام فيه؛ ولم يخل من التمسك بما أمر به لحظة، لكنه خاطبه لرفع درجاته وعظم محله، لتكون أنت متأديباً بآداب التمسك والاعتدال والاستقامة، وتعلم أن مثله إذا خوطب بمثل هذا الخطاب ما الذي ألزمك من الاجتهاد والمجاهدة، ثم بين سبحانه أن نزول القرآن يوجب شرف نبينا وشرف أمته بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: هو وصفك، ووصف من اتبعك من العارفين الصادقين، يصفك القرآن، ويصف قومك من الصادقين بما أنت عليه وما هم فيه من الأخلاق الجميلة والأعمال الزكية والدرجات الرفيعة والكرامات السنية والمقامات العلية، ألا ترى إلى قول أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها حين سُئلت عن خلق محمد ﷺ قالت: «كَانَ خَلْقُهُ الْقُرْآنُ»^(١)، وأيضاً أنه شرفك وشرف أمتك بأنك أهله، وهم أهلك.

(١) فيه إشارتان: الأولى: إن القلب إذا كان خفيفاً؛ فالقوي أيضاً كذلك؛ لأنها تابعة له كما أن الرعايا تابعة للسلطان، كما قيل: الناس على دين ملوكهم، وثقله، ومتانته، إنما هو من خوف الله تعالى، فإن الخائف من الله لا يميل إلى المنكرات؛ بل يثبت عندما عُنِيَ له من الشرائع، ويقدر الخوف والعمل بمقتضاه، يُعرف مقادير الناس، ومراتبهم في التقوى.

والثانية: إن الملوك لا بد لهم من الرزانة، والوقار، والحياء في الصورة بلا تقليد، وتلوين، ورياء، فإن ذلك مما يدل على ما في قلوبهم من المعاني والحقائق، وقد طلب بعض الأرياء من الله تعالى أن يلقي في قلوب الناس هيئته في حقه؛ لكون ذلك أقرب لقبول ما عنده من الحق؛ فكأنه طلب أن يُلقى ذلك في قلبه، فإنه إذا كانت حقائق الصفات والأحوال في باطن الإنسان؛ فظاهره يكون أهول وأهيب.

ولذا ترى ملوك الزمان وأمراءه يتكلفون في الأوضاع، ويرون من أنفسهم ما ليس في قلوبهم، ومن ثم لا يعدّهم الناس في جملة المراجيح الرزان؛ بل يسخرون بهم في خلواتهم، والمتحققون المتشيعون، فما اشترى العارفون ذلك منهم بفلس؛ لفرقهم بين الجيد والردىء، والطيب والخبيث.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/١١٥)، وأحمد (٦/٩١).

قال ابن عطاء: شرف لك بانتسابك إلينا، وشرف لقومك بالانتساب إليك.
قال جعفر: ذكر لك بنسبتك إلينا، وذكر لقومك بحسن قدومهم بك واتباعهم
لستك.

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٢﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا
لِّلْآخِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالُوا
ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: فلما قاموا على دعاويهم الباطلة
وكلماتهم المزخرفة وبدعهم الباردة فأصروا على إيذاء أوليائنا وأحبائنا غضبنا وسلطنا عليهم
جنود قهريائنا، وأمتناهم في أودية الجهالة، وأغرقناهم في بحار الغفلة، وجردنا قلوبهم عن
أنوار المعرفة، وطمسنا أعين أسرارهم حتى لا يروا لطائف برنا على أوليائنا.

قال سهل: لما أقاموا مصرين على المخالفة في الأوامر وإظهار البدع في الدين وترك
السنن اتباعاً للآراء والأهواء والعقول نزعنا نور المعرفة من قلوبهم وسراج التوحيد من
أسرارهم، ووكلناهم إلى ما اختاروه، فضلوا وأضلوا.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا
مِنْكُمْ مَّلَآئِكَةً فِي السَّمَاءِ يَخْلُقُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا
صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى
بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ﴿٣٠﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣١﴾ فَاخْتَلَفَ
الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا
السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: بأنه كلمته التي ألقاها إلى مريم
وروح منه، وأنه كان متصفاً بصفاته، ومشكاةً لأنوار قربه ووصاله وولايته ونبوته ومعرفته
ومحبته وعصمته وتوفيقه.

قال يحيى بن معاذ: أنعمنا عليه بأن جعلنا ظاهره إماماً للمريدين، وباطنه نوراً لقلوب
العارفين.

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ يَتَعَبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ

الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كل خلة لا تكون لله تتولد منها العداوة في الدنيا والآخرة، والمتحابون في الله لا يقع بينهم العداوة؛ إذ ارتفعت من بينهم أسباب الكونيين والعالمين، وهم مقدسون بتأييد الله ورعايته عن كل خلاف يورث الوحشة.

قال ابن عطاء: كل وصلة وأخوة منقطعة إلا ما كان لله وفي الله؛ فإنه كل وقت في زيادة، بأن الله يقول: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: في انقطاع وبغضة إلا المتقون؛ فإنهم في راحة أخوتهم يرون فضل ذلك وثوابه، ثم خاطب الله سبحانه هؤلاء المتقين بقوله: ﴿يَسْعَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾: ليس عليكم خوف الفراق ولا حزن الأصحاب.

قال ابن عطاء: لا خوف عليكم اليوم في الدنيا وخوف مفارقة الإيمان، ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة بوحشة البعد والمفارقة.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِقَايَتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٣٧﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِقَايَتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: مشاهدون آياتنا التي هي مشكاة أنوار صفاتنا، وكانوا مسلمين متقادين بجبروتنا بنعت المحبة، ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾: ادخلوا جنان مشاهدتي، ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾: مسرورين بوصالنا.

قال سهل: بلدة النظر؛ لما مَنْ عليهم من التوحيد عند تجلي المكاشفة لأوليائه، فهو البقاء مع الباقي، ألا ترى كيف خصَّهم بالإيمان على شرط التسليم؟ ثم زاد في وصف أحوالهم في جنة مشاهدته بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾: ما تشتهي الأنفس الروحانية القدسية الروحية العاشقية بجمال القدم الني ترى جمال الحق بعين الصورة، فإذا ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين هو وصال الحق والنظر إلى جماله أبد الأبد.

قال سهل: فيها ما تشتهي الأنفس من ثواب الأعمال، وتلذ الأعين مما يفضل الله به من التمكين في وقت اللقاء.

قال جعفر: شتان بين ما تشتهي الأنفس وبين ما تلذ الأعين؛ لأن جميع ما في الجنة من النعيم والشهوات واللذات في جنب ما تلذ الأعين كأصبع تغمس في البحر؛ لأن شهوات الجنة لها حدود نهاية؛ لأنها مخلوقة؛ ولا تلذ الأعين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الباقي -جلّ

وتعالى - ولا حدّ لذلك ولا صفة ولا نهاية.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٨﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٩﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٨٠﴾ وَنَادَوْا يَسْمَلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنِكُوثٌ ﴿٨١﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٨٢﴾ أَمْ أُبْرِمُوا أَمْرًا فَلِنَا مُبْرِمُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: قارن ثواب الجنة بالأعمال، وأخرج المعرفة واللقاء والمحبة والمشاهدة من العلل؛ لأنها اصطفاوية خاصة أزنية، يورثها من يشاء من العارفين الصديقين.

وقال ابن عطاء: الجنة ميراث الأعمال؛ لأنها مخلوقة، فوازي المثل والكتاب ميراث الاصطفائية؛ فإنها صفتان من صفات الحق.

﴿أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾: وصف الله سبحانه نفسه وإحاطته ببطون المغيبات وحقائق المضمرات بالعلم القديم، وسماعه حركات صميم أسرار الخلق بسمعه القديم المنزه عن الإصغاء، وكيف يخفى عليه ما أبدع وأوجد في بطون القلوب والغيوب! بل له كرامٌ كحل عيونهم بنور نوره، حتى يروا حقائق الأمور الغيبية كما قال ﷺ: «انقروا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»^(١)، والملائكة يسمعون من الحق بالإلهام بعد ما وقع الغيب لله الخاص له.

والعارف الصادق له درجتان في ذلك: درجة الملائكة التي هي الإلهام، ولهم خاصية الرؤية والفراصة بنور الله، وهو أن يكون متصفاً بعلمه وصفاته، وهذه الآية وعيدٌ وتحذيرٌ لمن كان له قلبٌ يخطر عليه شيءٌ غير ذكر الله.

قال يحيى بن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيءٌ من السماوات والأرض فقد جعل ربه أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

قال الله: ﴿أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ ما يسرون من الذنوب، ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ ما يخفون من المعاصي، ﴿بَلَىٰ﴾ وكرام الكاتبين شهدوا على ظواهرهم وأنا شاهد على

(١) رواه الترمذي (٢٩٨/٥)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣٥٤/٧).

بواطنهم، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: من لم يزجره عن المخالفات رؤية الحق وسماحه فإنه لا يزجره شيء غير ذلك.

وقال أيضًا: دلّ قومًا من عباده إلى الحياء منه، ودلّ قومًا إلى الحياء من الكرام الكاتبين، فمن استغنى بعلم نظر الله إليه والحياء منه أغناه ذلك عن الاشتغال بكرام الكاتبين.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ (٨١) ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَذَرَهُمْ مَخُوضًا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٨٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥) ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) ﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِن هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾: أمر الله سبحانه بحبيبه الأول صلاة الله عليه أن ألقى رغام الهوان على أنوف أهل الخيال من الكفرة والمشبهة والزنادقة والثوية والنصارى واليهود والمشركين بإظهار تنزيه عزة أوليته، وتقديس جلال قدسه من علل الحدوثية، وأوصاف المخلوقية حتى يموتوا في غمار الغفلة من ضربات قدس الألوهية وقهر الجبرية أي: إن كنتم تزعمون لله المنزه القديم شيئًا لا يليق بجلاله فأنا أول من يقدره من طرآن علل الحدوثان عليه، وأنا أول من أفنى من حياتي فيما أسمع منكم له فيه، وهذا كما قال الله تعالى في وصف السماوات والأرض والجبال كيف تحشعت من أقوال الكفرة فيه بقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾، ويل لمن يتقاعد بعقله من الجمادات في معرفة الله، وإشارة أوليته ﷺ في عبودية الله إشارة إلى بدو وجوده في إتيانه من القدم بنور القدم وانقياده في أول تجلي جلاله، وهذا كما قال الصادق: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ نُورَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ»، وأوَّلُ مَنْ أَوْجَدَ اللَّهُ ﷻ مِنْ خَلْقِهِ ذُرِّيَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأوَّلُ مَا جَرَى بِهِ الْقَلَمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قال: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾: أحق بتوحيد الله، وذكر الله تأكيد تقديسه بقوله: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ»، ذكر غلبة قهره على السماوات والأرض والعرش والكرسي، حتى عرفوا أن ما يرون من أعظم الخلق يكون عاجزاً في خضوعه لسلطانه كيف يليق به ما تصف الكفرة، نَزَّهَ نفسه عن ذلك بقوله: «سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ»، مَنْزَّةٌ عَمَّا وصف به الموحدون والعارفون، فكيف عما وصف به الجاهلون.

وقوله تعالى: «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»: عَظَّمَ أقدار العارفين بهذه الآية؛ حيث شاهدوا جلاله وجماله بأرواحهم وقلوبهم وأسرارهم وعقولهم، وهم يخبرون حقائقها بالسنة عجيبة ربانية إلهامية، يصفون الحق بها بما يليق بوحْدانيته؛ وهم يعرفونه بما عرفهم نفسه تعالى، ولولا قول الله سبحانه في وصفهم بهذه الحالة وما وصفهم بالعلم به لعجبت من الحدثان كيف شاهدوا حق الحقيقة وكيف عرفوا حقيقة الحق.

قال الصادق: هم يعلمون أن الحق غير موصوفٍ بصفات الخلق، أَقَرُّوا باللسان بوحْدانيته، وآمنوا بقلوبهم، وعملوا ما أَقَرُّوا به، وعملوا لمن أَقَرُّوا له بالربوبية علماً بأنه لا يستحق العبودية سواه.

قوله تعالى: «فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ»: أمر الله سبحانه حبيبه ﷺ بالصفح عن الجاهلين بأن يعذرهم من حيث جهلهم بالله، ومن حيث إنه قهرهم وطردهم، وبأنهم يعرفون خصائصه، ومعنى قوله: «وَقُلْ سَلِّمْ» أي: لاطفهم في دعوتك إياهم إليّ، «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» قدرك بعد أن أعرفهم منازلك بتوفيقى لهم، لعل فيض كرمي يدركهم، وهذا تأديبٌ لدعاة الخلق إلى الحق.

قال ابن عطاء: أعذرهم في جهلهم بحقك، وتركهم لحرماتك، وسلّم عليهم؛ ليسلموا من نوابع البلاء.

سورة الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝﴾

﴿حَمْدٌ﴾: الحاء الوحي الخاص إلى محمد، والميم محمد ﷺ، وذلك الوحي الخاص بلا واسطة خبرٌ من سرٍّ في سرٍّ، لا يطلع على ذلك السر الذي بين المحب والمحبوب أحدٌ من خلق الله، ألا ترى كيف قال سبحانه: «فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ»، وذلك إشارة إلى وحي السر

في السر، وجلتها قَسَمٌ أي: بحق الوحي السري والمحِب والمحبوب والقرآن الظاهر الذي ينبى عن الأسرار ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، الليلة المباركة ليلة المعراج التي وصل الحبيب إلى الحبيب، وذلك مباركٌ عليه؛ حيث رأى ربه، وأنزل على قلبه القرآن من سماء الأزل إلى روحه، ووصل إليه بركات جماله وخطابه، سمع من الحق كلامه شفاهاً، ونزل إليه من الحق أنوار كلامه، وكلمه تسعين ألف كلمة، وما نزل القرآن في أي وقتٍ كان إلا وذلك الوقت مباركٌ عليه وعلى أمته، وليلة نصف شعبان ليلة يتجلى الحق بعزته وجلاله للعالمين، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ»^(١)، وما بارك تلك الليلة؛ حيث يصل بركات جماله إلى كل ذرة من العرش إلى الثرى؛ وفي تلك الليلة اجتماع جميع الملائكة في حظيرة القدس.

قال ابن عطاء: ليلة مباركة لمجاورة الملائكة ومقارنتهم.

وقال سهل: أنزل القرآن في هذه الليلة من اللوح المحفوظ على روح محمد ﷺ، وهو الروح المبارك، فسَمَّى الله الليلة مباركة لاتصال البركات بعضها ببعض.

قال جعفر الصادق: هذا من العلوم انكتومة، إلا أن العلماء يخبرون عنها بلطائف الفهوم، فالحاء هو وحي كتابه المنزل على رسوله ﷺ، والميم كتابه إلى محمد ﷺ.

وقال أيضاً: إن نزوله كان ليلة القدر.

وقال الأستاذ في ﴿حَم﴾: فالحاء تشير إلى حقه، والميم تشير إلى محبته، ومعناه: وحقي ومحبي لعبادي وكتابي العزيز إليهم إني لا أعذب أهل محبتي بفرقتي ولا بشيءٍ دونها.

وقال في قوله: ﴿لَيْلَةٌ مُبَارَكَةٌ﴾: لأنها ليلة افتتاح الوصلة لأهل القربة.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(١) أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٢﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٤﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(١): يفصل في تلك الليلة أمور الخلق من العرش إلى الثرى، ويجدها على العقول والأرواح والقلوب على عيون الملائكة قضيات الأولية؛ لإدراك فهمهم صورة المقدرات، ويعطى كل ذي فضل جزاءه من القربات والمداناة، ويوصل بركات جماله إلى كل ذرة في العالم، فتحملها بركاته حتى تلد في أوان

(١) رواه العقيلي في الضعفاء (٢٩/٣).

المواليد بنيرات أفعاله وواضحات آياته، ألا ترى كيف تحمل الأشجار من نسائم اللواقع، وتضع حملها في الربيع، فتهتز الأرض بأنواع الرياحين، وذلك من بركة وصول شمال جماله إليها، ألا ترى كيف قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ١٩؟
قال ابن عطاء: يعطي كل عامل بركات أعماله؛ فيلقي على لسان الخلق مدحه، وعلى قلوبهم هيته.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ٢٠.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ٢٠: يَبْنِي أَنَّ الشك في الله يوجب الغفلة عن الله. قال محمد بن حنيف -رحمة الله عليه-: من استولت عليه الغفلة أذاه ذلك إلى الشك، ومن لزم الشك كان بعيداً عن عين الصواب، قال الله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ٢٠.
﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ٢١ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٢.
قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ٢١: ظاهر الآية دخان الكفرة من الجوع في الظاهر ودخان بواطنهم ودخان النفس الأمارة والأهواء المختلفة التي تغير سماء قلوبهم بغير الشهوات وظلمة الغفلات.

قال سهل: الدخان في الدنيا قسوة القلب والغفلة عن ذكر الله.

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ٢٣ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْلُنَا نَحْنُ كَافِرُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿٢٦﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿٢٧﴾ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٢٨﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٢٩﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ٢٣: ضعف الإيمان ما يكون عند نزول البليات، بل الإيمان الأصلي ما يكون أعظم في العافية مما يكون في البلاء، ولا ينكشف العذاب والحجاب إلا بصدق الافتقار والحياء من الله في النظر إلى غيره.
وقال بعضهم: لا يستكشف العذاب إلا بتمام الإيمان وصحة الالتجاء والرغبة والدعاء.

﴿وَإِنْ لَّمْ تُوْمِنُوا بِى فَاَعْتَرِكُنْ ﴿٣٢﴾ فِدَعَا رَبِّهٖ اَنْ هَتُوْلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَاَسْرِ بِعَبَادِى لَيْلًا اِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا إِلَى فَاغْتَرِلُونِ﴾: أخبر الله سبحانه بهذه الآية أن المفارقة من الأضداد واجبة.

قيل: إن بعض أصحاب الجنيد وقع له إنكارٌ عليه في مسألة جرت له معه؛ فبكر إليه ليعارضه فيها، فلما دخل على الجنيد نظر إليه وقال: يا فلان ﴿وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا إِلَى فَاغْتَرِلُونِ﴾. ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَيَكِينٍ﴾ ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾: خاطب الله موسى بأن يرفع تقاضي سره حقائق المقادير ولا يتفحص، ولا يغوص في بحار الربوبية، حتى لا يستغرق بنعت الفناء في قلزم العدم، ولا يخرج منه أبدًا إلى سواحل النبوة؛ فإن بحار الألوهية لو تكون متلاطمة يستغرق فيها الأولون والآخرون أي: لا تشوشها حتى تفرق المدعين بالربوبية والسلطنة في أول بواديات بحار القهريات.

قال سهل: أي: اجعل قلبك ساكنًا في تدبيري، ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ أي: فإن المخالفين قد غرقوا في التدبير.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾: كيف تبكي السماء والأرض على من يدعي الأنانية في ساحة كبرياء الأزل، والسموات والأرضون في عظمها تصير هناك أقل من خردلة من هبة عزة جبروته وملكوته، فغارت عليهم السموات والأرض؛ إذ ادَّعوا ما ليس لهم في أمر الربوبية، وهي تبكي على العارفين الذين لا يجترئون أن يصفوا معروفهم بجميع الألسنة حياءً منه، إذا فارقوا من الدنيا تبكي السموات والأرض بمفارقتهم حين لا تصعد عليهم أنوار أنفاسهم ولا يجري عليها بركات آثارهم كما روي في الحديث أن: «السماء والأرض تبكي بموت العلماء»^(١).

قال بعضهم: كيف تبكي السماء على من لم يصعد إليه منه طاعة؟! وكيف تبكي الأرض على من يعصي الله عليها؟! معناه ما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء، ولا مواضع عبادتهم من الأرض.

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٤/١٤٣) بنحوه.

﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٧ ﴿وَمَا اتَيْنَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ ٢٨ ﴿إِنْ هَتُولَا لَيَقُولُونَ﴾ ٢٩ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُشْرِينَ﴾ ٣٠ ﴿فَأَتُوا بِقَابَايْنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٣١ ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَعِّ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ٣٢ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ ٣٣ ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٣٤ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٧ أي: على علم بصفاتها، ومعرفة بذاتها، ومشاهدة على أسرارنا، وبيان على معرفة العبودية والربوبية ودقائق الخطرات من القهريات واللطفيات في زمان المراقبات.

قال الواسطي: اخترناهم على علم منا بجناياتهم وما يقتربون من أنواع المخالفات، فلم يؤثر ذلك في سوابق علمنا بهم؛ ليعلم أن الجنايات لا تؤثر في الرعايات.

وقال الخراز: علمنا ما أودعنا فيهم من خصائص برّنا، واخترناهم بعلمنا على العالمين.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٣٥ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ٣٦ ﴿

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٣٥: أرجى آية للعارفين هذه الآية؛ حين فصل الله بينهم وبين الحدثان، وأوصلهم إلى مشاهدته ووصله بنعت القربان.

قال بعضهم: يوم يفصل بين كل عامل وعمله، ويطلب بإخلاص ذلك وبصحيحه، فمن صح له مقامه وأعماله قبل منه وجزي عليه، ومن لم يصلح له أعماله كان عمله عليه حسرة.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٣٧ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ ٣٨ ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ٣٩ ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ٤٠ ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ ٤١ ﴿خَذُوهُ فَاَعْلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ٤٢ ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ٤٣ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ٤٤ ﴿إِنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ ٤٥ ﴿

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٣٧: إن يوم القيامة يوم يكشف السرائر والضمائر، من كان ميله إلى غير الله محتجب به عن الله، ولا ينقذه ذلك عن البعد منه إلا من كان محفوظاً برعايته، محروساً بعنايته، مجتنبى بسوابق الاصطفائية الأزلية.

قال سهل: من رحم الله عليه في السبق فأدرسته في العاقبة بركة تلك الرحمة، حيث

جعل المؤمنين بعضهم في بعض شفعاء.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿١٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٤﴾ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ آمِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾^(١) أي: إن المفردين عن الأكوان وما فيها بنعت التجريد والتوحيد والتبري من غير الله وأستحسانه في محبة الله بعين الرغبة فيه هم في مقام وصلة الحق، حين لا يجري عليهم اضطراب الفراق، ولا يحجبهم غير الحق في مقام الأشواق، آمين منه به حين ألبسهم أنوار كماله وجلاله وجماله.

قال جعفر الصادق: كانوا في الدنيا على خوف العذاب ووجل الفراق وذلك مقام المتقين في الدنيا، فأورثهم ذلك أماناً وأماناً أن يسلب ذلك منهم.

وقال أيضاً: المقام الأمين وصلة الجبار.

وقال بعضهم: المقام الأمين مجالسة الأنبياء والأولياء والصديقين والشهداء.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾: افهم يا فهم لو تدرك حقائق أمور المعارف لا تتهمني بالجهل فيما أقول لك؛ فإن الموت الأصلي هو العدم، وكيف يموت من أوجده الحق بنور القدم، الموتة الأولى هي عدمهم قبل وجودهم، فبعد الوجود لا يكون القدم بالحقيقة، إنما يجري عليهم أطوار فنون امتحانات الحق كالذهب ساعة في طين، وساعة في نار، وساعة في بوتقة، وساعة في سواد، وساعة في بياض حتى يعود إلى ما خرج من المعدن، فأطوار الخليفة إلى الأبد في تقلبها بقاء في بقاء، وكيف يفنى بالحقيقة من أوجده الحق من مكنم الغيب إلى قضاء ربوبيته، فإذا أحضرهم في ساحة كبريائه ويتجلى لهم بالبداهة من عين الجبارية والقهارية يكونون في محل الفناء وفي فناء الفناء من عليات سطوات ألوهيته، فإذا صاروا فانيين ألبسهم الله لباس بقاءه؛ فيبقون ببقائه أبد الآبدين، فإذا الاستثناء وقع على

(١) لما ذكر وعيد الكفار أردفه بآيات الوعد فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ قال أهل السنة: كل من اتقى الشرك صدق عليه أنه متق، فوجب أن يدخل الفساق هذا الوعد فقال: (فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) وقرأ أهل المدينة والشام بضم ميم «مَقَام» على المصدر، أي في إقامة وقرأ الباقون فتح الميم أي في مجلس آمين آمنوا فيه من الغير. تفسير ابن عادل (١٤/١٧٦).

التحقيق لا على التأويل فيأرب موت هناك؛ ويأرب حياة هناك؛ لأن الحدث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القدم، ألا ترى إلى إشارة النبي ﷺ كيف قال: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١).

قيل للجنيد: أهل الجنة باقون ببقاء الحق؟ فقال: لا، ولكنهم مبقون ببقاء الحق، والباقي على الحقيقة من لم يزل ولا يزال باقياً، ثم بين الله سبحانه أن هذه الكرامات فضلٌ منه عليهم؛ حيث اختارهم بما في الأزل، وأخرجها من علل الاكتساب بقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: عطاء واصطفائية لا جزاء للأعمال المعلولة.

قال الواسطي: هو الفضل لا استحقاق بعمل العبد وكسبه وحركته.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِّلسَّانِكِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِّلسَّانِكِ﴾ افهم أن الكلام الأزلي ما فارق من الأزل، وكيف يحل القديم في الحديث؟! وهو مستحيلٌ من كل الوجوه، لكن لما أراد أن يخبر عن نفسه ألبس نور كلامه لسان حبيبه ﷺ، فيحتمل كلام الحق بنور الحق، فإذا الحق مع الحق لا مع غيره؛ فلسانه فعل الحق، وفعل الحق مجرى نور صفاته، جعله فصيحاً بتيسره، وسهّل عليه جريان لسان الحديث به؛ لعلهم يدركون من لسانه معاني صفات الحق، فإن الله لو أسمعهم بغير الوسائط لما اتوا جميعاً.

قال ابن عطاء: يسّر ذكره على لسان من شاء من عباده، فلا يفتر عن ذكره بحال، وأغلق باب الذكر على من شاء من عباده، فلا يستطيع ذكره بحال.

قال جعفر الصادق: لولا تيسيره لما قدر أحدٌ من خلقه أن يلفظ بحرفٍ من القرآن، وأتى لهم ذلك؟! وهو كلام من لم يزل ولا يزال.

﴿فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: انتظر وقوع مقاديري عليهم؛ فإن في رؤيتها عبر العارفين وموعظة المتقين.

قال جعفر: الانتظار معدن الإيمان، وهو سبيل أهل الحق إلى الحق، النبي بنبوته، والولي بالولاية.

(١) رواه مسلم (١/١٦١).

سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

﴿حَمْدٌ﴾: الحاء يدل على أن في بحر حياته حارت الأرواح، وفي ميادين محبته هامت الأسرار.

قال الأستاذ: أي: بحياتي ومودتي لا شيء أحبُّ على أحبائي من لقائي.

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في السماوات والأرض ظهور أنوار قدرته وسنا جماله لأبصار العارفين وبصائر المحبين.

قال سهل: علامات لمن أيقن بقلبه، واستدل بكونها على مكن هذه الآيات الظاهرة.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَضَرِّفُ الرِّيحُ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُمِنُونَ﴾ ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بَعْدَ آيَاتِهِ ﴿الْم﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: ما بان في السماوات والأرض بان في خلق الإنسان والحيوان أيضًا، فما بان في السماوات والأرض للمؤمنين بان في خلق الإنسان والحيوان للموقنين؛ لأن ما بان في خلق الإنسان حقيقة مباشرة الصفة في الفعل، وذلك يوجب حقيقة اليقين، وبين اليقين والإيمان فروقٌ كثيرة، وحقيقة الإيمان هو اليقين؛ حين باشر الأسرار بظهور الأنوار؛ ألا ترى كيف سأل النبي ﷺ بقوله:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيْمَانًا يَبَاسِرُ قَلْبِي وَيَقِينًا لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ»^(١).

قال بعضهم: في شواهد القدرة وآثار الصنع دلالاتٌ وآياتٌ على وحدانيته، فمن استشهد بها على وحدانيته فهو الموحد، ومن كان نظره إلى القادر الصانع المبدئ لها ثم يرجع إلى الصنع والقدرة فهو العارف.

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١١٨/٦).

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ ۝ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾: اتخذوها هزوا لما لم ينكشف لهم أنوار الشاهد في الشواهد، لم يتمتعوا بلطائفها، وصارت لهم زيادة الحجاب.

قال ابن عطاء: من لم يجد في طاعة الله ولم يصرف همه إلى الدخول فيها بشرط الأمر والخروج منها بشرط الآداب نزع الله حب الطاعة من قلبه، وردّه إلى حوله وقوته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، علمها علم استدلال لا علم حقيقة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَءَاتَيْنَاهُمْ يَتِينَ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾: تسخير ما في السماوات والأرض التمتع بمشاهدة مكوّنها فيها؛ لأنها منه بدت منورة بنوره.

قال النهرجوري: سخر لك الكون وما فيه؛ لئلا يسخرك منها شيء، وتكون مسخرًا لمن سخر لك الكل، فمن ملكه شيئًا منها وأسرته زيتنها وبهجتها فقد جحد نعمة الله عنده، وجهل فضله وآلاءه عنده؛ إذ خلقه حرًا من الكل عبدًا لنفسه، فاستعبده الكل، ولم يشغل لعبودية الحق بحال.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ۝ هَٰذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ

سَاءَ مَا تَحْكُمُونَ ﴿٦٠﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾: شريعته منهاجه إلى الحق، وذلك المنهاج جامع؛ إذ فيها جميع شرائع الأنبياء ومقامات الأولياء أي: أنت لا تحتاج إلى من مضى من الأولين؛ فأنت أكمل الخلق اتبع ما اختار الله لك من الطرق المستقيمة؛ لذلك قال: «بُعِثْتُ بِالْخَنِيفَةِ السَّهْلَةِ السَّمْعَةِ الْبَيضَاءِ، لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»^(١).

قال سهل: المنهاج سنن من كان قبلك من الأنبياء والأولياء؛ فإنهم على منهاج الهدى والشرعية هي الشارع الممتد الواضح إلى طريق النجاة وسبيل الرشاد.

قال الصادق: الشريعة في الأمور محافظة الحدود فيها.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٦٣﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾: من نظر إلى ما وصل إليه مما ابتلي به المریدون، فقد اتخذ هواه إلهاً؛ إذ بنفسه محجوب، ومن باب المشاهدة مطروداً، وذلك بإضلال الحق إياه بما سبق في علمه بأنه يكون محجوباً منه به، قال الله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال سهل: من اتبع مراده لم يسلك مسالك الاقتداء، وآثر شهوات الدنيا على نعيم الآخرة، ثم طمع أن له في الآخرة ما للمؤمنين من الدرجات الرفيعة والمنازل السنية.

وقال في قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: ضل عليه علم نجاته، ثم إن الله سبحانه أكد أمر ضلاله بقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾: ختم على سمعه وقلبه ختم الضلال والغيرة والقهر القديم، وغطى بصره بعمى الكفر.

قال سهل: ختم على سمعه، فحوى عليه سماع خطابه، وحرّم على قلبه فهم خطابه وعلى عينه مشاهدة آثار القدرة في صنعه.

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

(١) رواه البيهقي في الشعب (١/ ٢٠٠) بنحوه.

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِدُ خَسِرَ الْمُتَبَطِّلُونَ ﴿٦٧﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾: يخبيكم بمعرفته وتجليه، ويميتكم باستتاره، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لمشاهدته. قال سهل: يخبيكم في بطون أمهاتكم، ثم يميتكم بجهدكم، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لمشاهدته.

قال سهل: يخبيكم في بطون أمهاتكم، ثم يميتكم بجهلكم، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة أولكم وآخركم لا ريب فيه.

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾^(١): هذا إذا بدا سلطان أنوار عزته تجشو على بساط القيامة من ركوب عظمتهم عليهم، لا يتكلم منهم إلا من له انبساط.

وقال سهل: على ركبها يجادل عن نفسها عند الموافق الصادق، يجتهد في تحقيق صدقة، والجاحد يجحد في الدفع عن نفسه، وكل محكوم عليه بالكتاب الذي أملاه مداده ريقه، وقلمه لسانه، وقرطاسه جوارحه.

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ؕ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٦٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٠﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴿٧١﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِمِيسِرٍ هَشَّاهُونَ ﴿٧٢﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٧٣﴾ ذَٰلِكُمْ بِأَنكُم تَأْخُذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٧٤﴾.

قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾: كتاب الحفظ منقوش ما سبق به

(١) فهي عامة للناس في حال المرقف قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، فإن أهل المرقف جاثون على الركب، كما هو المعتاد في مقام التفاؤل والخصام، قلت: ولعل هذا فيمن يناقش الحساب، وأما غيرهم فيلقى عليهم سحابة كنفه، ثم يقرروهم بذنوبهم ويسترهم. البحر المديد (٤٧٩/٣).

القدر، يشهد بما جرى على العبد.

قال ابن عطاء: حكم الأزل ينطق عليهم بتصحيح ما في كتبهم وتحقيقها.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: حقيقة الحمد لله لا لغيره، وهو مستحقُّ الحمد؛ إذ النعم بالحقيقة، وهو المنعم لا غيره، ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ففي الحق الكبرياء عن الحدثان؛ لأنه هو المستحقُّ للكبرياء، وكبرياؤه ظاهرٌ في كل ذرة من العرش إلى الثرى؛ إذ هي كلها مستغرقةٌ مقهورةٌ في أنوار كبريائه، يعزُّ بعزة الأولياء، ويقهره بقهر الأعداء، حكيمٌ في إبداع الخلق وإلزامهم عبوديته التي هي شرائعه المحكمة بحكمه.

قال سهل في قوله: ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ﴾: العلو والقدرة والعظمة والحول والقوة، له في جميع الملك، فمن اعتصم به أيده بحوله وقوته، ومن اعتمد على نفسه وكُله الله إليها.

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

﴿حَمْدٌ﴾ : إشارة الحاء والميم إلى حمايته أسرار الواصلين عن حركات الضمائر؛ لأنها حاتم أبراج الملكوت والجبروت، حمد نفسه بما أولاهم لهم، وَمَنْ عَلَيْهِمْ حتى ارتفع حمده عن الحدثان؛ إذ حمده لا يستطيعه أحدٌ من خلقه أي: بحمدي على نفسي وحمايتي قلوب العارفين هذا تنزيلٌ مني، وأنا العزيز الغالب بقهري على سلب أرواح العاشقين بجمالي وجلالي، وأنا الحكيم في اصطفايتك من اصطفايته كل نبيٍّ ورسولٍ ووليٍّ وملكٍ مقربٍ، يا حبيبي ويا محبي حكمت في نفسي أن أوصلكم إلى وصالي، وأسقيكم من بحار حياتي شرابات أنوار القيومية الباقية الأزلية الأبدية.

قال الأستاذ في قوله ﴿حَمْدٌ﴾ : حميت قلوب أهل عنايتي، فصرفت عنها خواطر التجويز، وأثبتها في شاهد اليقين بنور التحقيق، فلاحت فيها شواهد برهانهم، وأضفنا إليها لطائف إحساننا، فأكمل منها من عين الوصلة، وغذيناها بنسيم الأنس في ساحات القرية.

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا

عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَنْتُمُ الْبِكْتَابِ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْشُرَكُمْ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: كان في علم الله في أزل أزله أنه يوجد الكون من العدم، فأوجده بحق العلم السابق، وذلك الحق حق سوابق إرادته الأزلية على وجود الأكوان والحدثان؛ لتحقيق بأنوار حقائق اصطناعه حقائق أنوار قلوب العارفين، وليتطرقوا بوسائط الشواهد إلى مشاهد جلاله وجماله؛ لنلا يحترقوا بالبديهة في بروز سطوات قدسه وكبريائه.

قال ابن عطاء: خلق السماوات والأرض، وأظهر فيهما بدائع صنعه وبوادي قدرته، فمن نظر إليهما فرأى فيهما آثار الصنع فهو لتيفظه، ومن نظر وشاهد الصنائع فهو لتحقيقه.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِءَ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِءَ فَقَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ أَلَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِءَ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِءَ فَسَيَقُولُونَ هَذَا أَفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١٢﴾ وَمِنْ قَبْلِهِءَ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةًءَ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُشَرِّىَ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾: بين الله سبحانه أن حال حبيب عليه الصلاة والسلام حالة معروفة في الملكوت والعالمين، وهي ما جرت على جميع الأنبياء والمرسلين من كشوف أسرارهم، وبرز أنوارهم، وظهور نفسه لهم، وإخباره عن نفسه، وملكه إياهم ليدعوا العباد إلى ساحة قربه وخدمته، أي: ما كنت بأول من الأنبياء والرسل، ولست عجيباً بحالتي ونبوتي؛ فإن النبوة سنة الله التي جرت على إخواني من الأنبياء والرسل، وهي معروفة بأنه دعا الخلق بلسان الأنبياء إلى طاعته ومعرفته

ومشاهدته، وما أعلم ما حُكِمَ في الأزل على ولا عليكم؛ فإنه شاهد القلوب وعلام الغيوب، أوجد من العدم بنور القدم، ولا أدري أين استغرق في بحار وصال جماله الأبدي، فهناك لجج تغيب في ذرة منها جميع الأرواح العاشقة والأسرار الوالهة والقلوب الحائرة، وما أدري كيف يفعل بكم فيما جرى من السعادة والشقاوة في الأزل؛ فإن علم العواقب عنده، لا يطلع عليه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌ مرسلٌ؛ لأنه من علم ما استأثره لنفسه خاصة، وليس لأحدٍ منه نصيبٌ إلا لمن أظهر له شيئاً منه، كقوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾.

قال سهل: ما كنت عجبياً في المرسلين؛ فإني لم أدعوكم إلا إلى التوحيد، ولم أدلكم إلا على مكارم الأخلاق، وبهذا بعث الأنبياء ﷺ قبل.

قال الواسطي في قوله: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾: إن الله تعالى ستر أمر الروح على جميع خلقه، وستر ماهيته ذاته، وستر ما يعامل به الخلق عند معاينته فقال: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾: ما قال القوم هذا القول حتى شاهدوا بقلوبهم وعقولهم وأرواحهم وأسرارهم مشاهدة الحق سبحانه، فإذا رأوه قالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾، كطلاب الهلال سكتوا في طلبه، فإذا رأوه يقولون: هذا الهلال، وصاحوا، وصفقوا، وضحكوا لهذا القول منهم بعد كشف مشاهدة الحق لهم، فلما رأوه أحبوه، وعرفوه، وشربوا من بحار وصاله وجماله وجلاله شربات المحبة والشرق، وتمكنوا شربها حتى استقاموا بقوتها في موازنة رؤية أنوار الآزال والآباد، واستقاموا في مراد الله منهم، وأداء حقائق عبوديته، فلا يتبقى عليهم خوف الحجاب ولا حزن العتاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

قال ابن طاهر: استقاموا على ما سبق منهم من الإقرار بالتوحيد، فلم يروا سواه منعمًا، ولا شكروا سواه في حال، ولا رجعوا إلى غيره، وثبتوا معه على منهاج الاستقامة. وقال جعفر: استقاموا مع الله بحركات القلوب مع مشاهدات التوحيد. وقال بعضهم: أفردوا الله بالملك والربوبية والقدرة، واستقاموا على هذه الشروط، فلم يخالفوه.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلَتُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَايْنِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِغِيَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٤﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذَهَبَتْكُمْ طَبِيبَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٦﴾ * وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ءَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ إِلَهِنَا فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَيْكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٩﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطِّرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفِيدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفِيدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَتَحَدَّوْنَ بِضَايَةِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٣﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾: وصَّى الإنسان بالإحسان إلى أبويه؛ لأنها أسباب وجوده ومصادر أفعال الحق، بدا منها بدائع قدرته، وأنوار ربوبيته؛ فحرمتها حرمة الأصل، ومن صبر في طاعتها رزقه الله حسن المعاشرة على بساط حرمة وقربته.

قال بعضهم: أوصى الله العوام ببرّ الوالدين لما لهما عليه من نعمة التربية والحفظ، فمن حفظ وصية الله في الأبوين وفقته بركة ذلك لحفظ حرّمات الله تعالى، وكذلك رعاية الأوامر والمحافظة عليها توصل بركاتها بصاحبها إلى محل الرضا والأنس.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾: وصف الله الصديقين في طرفين من أعمارهم أنهم في عنفوان شبابهم، وأشد أسنانهم أهل الاجتهاد والرغبة في الطاعات، وفي أربعين سنة هم أهل الكمال في العقول والفهوم والاستعداد لقبول الوحي والإلهام والكلام والكشف والعيان، ألا ترى كيف عرف شأنه الصديق ﷺ حين بلغ أربعين سنة في صحبة النبي ﷺ في أول شبابه بما أخبر الله عنه بقوله: ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾: ألهمني رشد التوفيق، وألبس قلبي ولساني نور عرفانك وقوة فيض مشاهدتك، أشكر بها نعمة مشاهدتك ومعرفتك وصحبة رسولك؛ فإنه أعظم النعم منك عليّ وعلى والدي.

قال ابن عطاء: خاطب الله الأنبياء، وبعثهم عند كمال الأوصاف وتمام العقول؛ وهو الوقت الذي أخبر الله تعالى عن تمام خلقه عباده، ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾. وقال سهل في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي﴾ أي: ألهمني التوبة والعمل بالطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾: العمل الصالح المقرون بالرضا بذل النفس لله والخروج مما سوى الله للوصول إلى مشاهدة الله.

قال سهل: العمل المرضي ما كان أوائله على الإخلاص مقيداً باتباع السنن.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾: اجعلهم أولياءك وأهل معرفتك وطاعتك.

قال سهل: اجعلهم لي خلف صدق، ولك عبيد حق.

وقال محمد بن علي: لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلاً.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾: وصف الله أهل معرفته من الجن كيف حبست ألسنتهم هيبة الخطاب وحشمة المشاهدة، وهكذا من ألبس أنوار الهيبة والعظمة يخرس لسانه عن الانبساط والمخاطبة وإفشاء السر، وهذا بعد شهود القلوب أنوار الغيوب بنعت إصغاء الأسرار إلى وقوع الخطاب وكشف النقاب.

قال محمد بن سليمان: ليس في مقام الحضرة إلا الخمول والذبول والسكون تحت

موارد الهيبة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾.

قال النصر آبادي: هيبة المشاهدة إذا طالعت السرائر بحقائقها أخرست الألسن عن النطق في ذلك المشهد، كالجن لما حضروا النبي ﷺ، فأراد أن يقرأ عليهم أوصى بعضهم بعضاً بالإنصات، فلما حضروا قالوا أنصتوا.

وقال الواسطي: شاهدوا عز الربوبية ظاهراً في أوصاف البشرية أحرصهم المشهد لشدة الهيبة.

﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: يرشد إلى مشاهدة الحق، وإلى طريق معرفته بنعت الخروج عما دون الله، القرآن صفة الحق، وصفته تدل على ذاته، ترشد ظواهره إلى بواطنه، وبواطنه إلى مصادره الأزلية الأبدية.

﴿يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۚ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۚ أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّمْ يَخْلُقْهُمْ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ﴾^(١): أخبر الله عن مقالة كبراء الجن وعلماهم لمريديهم أي: سمعتم بأذان الأرواح والأسرار مناداة الأزل قبل الكون،

(١) إنها اقتصر على مغفرة الذنوب، والإجارة من العذاب، وطوى ذكر إدخال الجنات، والإثابة بالنعيم؛ لأنه كقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المائدة: ٢]، وذلك لا يقتضي ألا يكون للجن نعيم ورؤية، فإن أول الدعوة الإنذار للنجاة من النار، ثم التبشير للفوز بالنعيم، كما هو مقتضى الإيمان.

ودخل في النعيم الرؤية؛ لأنها أعلى النعيم الإلهية؛ ولذا ورد: «وأسألك لذّة النظر إلى وجهك الكريم». حيث أثبت اللذّة للنظر؛ لأن الرؤية من اللذات المعنوية، والنعيم الروحانية، فظهر من هذا أن المؤمنين من الجن؛ كالمؤمنين من الإنس في الإجارة والإثابة؛ لأن كلاً منهم داخلون تحت التكلف والدعوة، فمشاركتهم في ذلك تقتضي مشاركتهم في النعيم مطلقاً.

فأجيبوها بنعت الطاعة على لسان حبيبه ﷺ؛ فإنه مرشد الحق بهدي إلى الحق، ثم أتبع الإجابة بالإيمان والتصديق فيما أخبر عن الحق سبحانه بقوله: ﴿وَأَمِنُوا بِهِ﴾ أي: بكلامه وخطابه ورسوله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، هذا شرطٌ بعد الإيمان والإجابة والمتابعة أي: يغفر لكم جهالتكم الأولية، ﴿وَيُخْرِجْكُمْ مِنْ عَذَابٍ﴾ الحجاب.

قال سهل: لا يجيب الداعي إلا من أسمع اقتداءً ووفقاً للجواب ولقن، وإلا فمن يجسر على إجابة هذه الدعوة.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾: أدب حبيبه ﷺ بأدب أكابر الأنبياء الذين هم أهل عزائم بذلك الموجود لله وفي الله، بعد أن عاينوه، وعرفوه، وأحبوه، وصبروا له وفيه أي: أنت في بحر بلائي أمتحنك بعظائم الامتحان التي لا يثبت بإزائها الصخور الصم، وأعظم البلاء كشف جمال قدسي لك، الذي يفنى فيه من العرش إلى الثرى، ﴿فَاصْبِرْ﴾ به في مشاهدتي، ولا تفش سري بيني وبينك عند الخلق، فإن بدت منه ذرة لخلقي تضمحل الأكوان والحدثان وحقيقة الإشارة أي: أنت عزمت بسرك وروحك أن تسري من عالم الحديث إلى ميادين الوحدة، وتطير بأجنحة المعرفة في هواء القدم والبقاء الذي لا نهاية له؛ إذ الدهر الدهار أقل من لمحة في زمانها فيه، فاصبر فيما عزمت؛ فإنك تفنى في كل لمحة منك في سطوات ألوهيته كما صبر أولو العزم في أسفار الديمومية، وإدراك حقائق الأزلية والأبدية، صبروا في تقلبهم في لطحات بحار القدمية حين استغرقوا في مقام سر الكبرياء، وما وجدوا نهايتها، فكادوا يفرون، ويخرجون منها، فأغرقتهم أمواجهها، فاستغاثوا منه إليه، فآلبسهم قوى الربانية، فسبحوا فيها بالحق، وذهبت بهم بحار الربوبية إلى معادن الأولية، فلما بلغوا أقصى غايات همهم وظنوا أنهم وصلوا ورأوا أنفسهم أنهم في أوائل أسفار الغيب كادوا أن يفنوا، فصبروا بالله في الله، وآيسوا من الوصول إلى كنه القدم، ولم ينقطعوا من أسفارهم، وأيضاً فاصبر؛ فإنك في تلك الأسفار، ولا يصح حين لم تجد هنالك نفار الخروج منها، فإن من عرفني غرق في بحر كبريائي وعظمتي أباد الأبدية، ألا ترى كيف قال: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ﴾ أي: ولا تستعجل؛ فإن أموري لا تدرك بحلاوة العقول، ولا يدركني غوص الفهم، ولا لباب القلوب، ولا الدهر الدهار، ولا تقلب الأفكار، فإن جميع الأزمنة والدهور مقصورة عند أوليتي وآخريتي، ألا ترى كيف وصف الهالكين في بحار قهره بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا

يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ أَي: ما مضى من بدو الوجود إلى زمان الفناء في أيام القدم المنزّه عن الأدهار والأعصار كلا شيء في شيء، ثم بيّن أن هذه الأسرار والحقائق المكشوف ذلك ﴿بَلَّغٌ﴾ أي: مني إليك ومنك إلى العالمين، ثم بيّن أن عند معاينة سطوات القهريات لا يهلك فيها إلا الخارجون من نعوت استعداد معرفتي حين يحتجبون بظلمات ظنونهم بقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون بالدعاوي الباطلة.

قال سهل في قوله: ﴿أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾: إبراهيم أبتلي بالنار، وذبح الولد، فرضي وأسلم، وأيوب بالبلاء فصبر، وإسماعيل بالذبح فرضي، ونوح بالكذب فصبر، ويونس ببطن الحوت فدعا والتجأ، ويوسف بالجلب والسجن فلم يتغير، ويعقوب بذهب البصر وفقدان الولد، فشكا بثه إلى الله، ولم يشك إلى غيره، وهم اثنا عشر نبياً صبروا على ما أصابهم، وهم أولوا العزم من الرسل.

وقال الواسطي في قوله ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ إلى قوله ﴿مِّنْ نَّهَارٍ﴾: لما جعل الأزل والأبد كساعة من نهار، فأين تقع في ساعة من نهار من طاعته ومعصيته من كرمه؟

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿١﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾: ستر وأنعم الله بنسيانهم عن ذكره وتجهلهم بالمنعم، وخاصموا أولياء الله، وأنكروا عليهم، أبطل الله ما عملوا بالرياء والسمعة والنفاق.

قال سهل: كفروا بتوحيد الله، وصدوا عن دين الإسلام أبطل أعمالهم. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَبِّهِمْ﴾ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٢﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَمَا مَتًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن

يُضِلُّ أَعْمَلَهُمْ ﴿١﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: اتبع الكفرة ما وقع في مخايلهم من هواجس النفس ووساوس الشيطان، ولم يقبلوا طريق الرشd من حيث الوحي والإلهام، وأن الذين صدقوا في دين الله وشاهدوا الله بالله اتبعوا سنة رسوله وخطابه، وما يقع في أسرارهم من النور والبيان والإلهام والكلام بنعت الإخلاص في طاعته، والأدب في خدمته، والإعراض عن غيره.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾: اتباع الباطل ارتكاب الشهوات وأمانى النفس، واتباع الحق اتباع الأوامر والسنن.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنصَرُوا إِلَهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَلُهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنصَرُوا إِلَهَ يَنصُرْكُمْ﴾: نصرة العبد لله أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه؛ فإنهم أعداء الله؛ فإذا خاصمها يقويه الله وينصره عليهم، بأن يدفع شرهم عنه، ويجعله مستقيماً في طاعة الله، ويجازيه بكشف جماله حتى يثبت في مقام العبودية وانكشاف أنوار الربوبية.

قال ابن عطاء: هو أن يكون عون الله على النفس، فإن الله ينصرك عليها حتى تنقاد لك، ولا يكون عون النفس فتضرع ضرورة لا تقوم بعدها أبداً.

قال الترمذي: إن أكرمت أوليائي أكرمتكم.

قال بعضهم: يرزقكم الله الاستقامة في كل أحوالكم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ﴿١١﴾ إِنْ اللَّهُ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيْنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكَنَّاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: إني محبهم وحببيهم في الأزل حين اصطفتيهم بولائي، واجتبيتهم بمعرفتي، وآثرتهم على بريتي، وجعلتهم مواقع نظري،

ومواضع ودائعي، وناصرهم على عدوهم، محبته لا تزول، ونصرته لا تحول.

قال أبو عثمان: معين من أقبل عليه، وناصر من استنصره.

قال سهل: ولي الذين آمنوا بالرضا والمحبة لجملتهم.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ (١) أي: على مشاهدة ويقين، وبراهين واضحة، ومتابعة على وفق ما وقع في قلبه من طريق الخطاب، والإلهام الذي وافق الكتاب والسنة؛ فمن هذا وصفه لا يكون كمن يستحسن ما زين له نفسه وهواه شيطانه من حيث الجهل والغرور.

قال أبو عثمان: البينة هي النور الذي يفرق بها المرء بين الإلهام والوسواس، ولا تكون البينة إلا لأهل الحقائق في الإيمان، والبينة نور، والمترجم عنها البرهان.

قال أبو سعيد الخراز: البيئات مختلفة، منهم من كانت بيئته الإلهام، ومنهم قلوب أقفلت عن أن يدخلها شيء في المعرفة بنفسه، ومنهم من كانت بيئته المعرفة ببلاء الرقت وفتته، ومنهم من كانت بيئته في كشف ما كشف الله له من صحة الرجوع إليه واضح البيئات ما يشهد له شاهد الحق ويتلوه شاهد منه.

قال الأستاذ: البينة الضياء والحجة والاستبصار لواضح المحجة والعلماء في ضياء برهانهم، والعارفون في ضياء بيانهم.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ (٢) وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (٣).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾: لأهل الحق في هذا العالم جنان في قلوبهم وعقولهم، وأرواحهم وأسرارهم، فجنة القلوب روضة الإتيان،

(١) أي: من شهد مقام الله عز وجل بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زين له سوء عمله، واتبع هواه، فأثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيدته، مستقيم على محبة معبوده هـ البحر المديد (٣/٣٩).

وجنة العقول بستان العرفان، وجنة الأرواح حديقة البيان، وجنة الأسرار فردوس العيان، ولكل جنة منها نهرٌ وشجرٌ وثمرٌ وزهرٌ، فنهر جنة القلوب ماء حياة الأزل التي تجري بنعت التجلي فيها من عيون الوجدانية، وهو لا يتغير بكدورات البشرية، يحیی القلوب بنور اليقين حتى لا يجري عليها موت الجهالة، وأشجارها أشجار الإيمان، وثمرها أنوار الإيقان، ونهر جنة العقول من ألبان القدرة يسقيها الحق منه؛ ليربها لصفاء أنوار قدرته التي يورث معرفتها بعزته وجلال قدرته وأشجارها الحكمة وأزهارها الفطنة، ونهر جنة الأرواح نهر كشف الجمال الذي مورده بحر الجلال، يسقيها الحق منه ليطيها بلذة الجمال ورؤية الجلال، وأشجارها المحبة، وأزهارها الشوق، وأثمارها العشق، ونهر جنة الأسرار كشوف الذات المقدس عن انقطاع فيضه المرمد، فيقويها الحق بشربة حتى استقامت في وصله، فهناك أشجارها التوحيد، وأزهارها التفريد، وأثمارها التحقيق، فأصحاب القلوب هم أهل الشهود، وأصحاب العقول هم أهل الكشف، وأصحاب الأرواح هم أهل السكر والوجود، وأصحاب الأسرار هم أهل المحو والصحو، فأهل الشهود أصحاب المراقبات، وأهل الكشف أهل المقامات، وأهل الوجود أهل الحالات، وأهل المحو والصحو أهل الاستقامة، فطوبى لمن كان له مثل هذه الجنان في دار الامتحان.

قال الأستاذ: اليوم للأولياء لهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفة، ثم شراب الولاء، ثم شراب في حال اللقاء، ولكل من هذه الأشربة عملٌ، ولصاحبه سكرٌ وصحوٌ، فمن شرب بكأس الوفاء لم ينظر في غيبته إلى غيره، كما قيل:

وما سرّ صدري منذ شطت بك النوى أنيس ولا كأس ولا متصرف

ومن شرب بكأس الصفاء خلص له عن كل شرب وكدورة في عهده، فهو في كل وقت صافٍ عن نفسه، خالٍ من مطالبته، قائم به بلا شغل في الدنيا والآخرة، ولا أرب، ومن شرب بكأس الولاء عدم فيه القرار، ولم يغب سره لحظة لا الليل ولا النهار، ومن شرب في حال اللقاء أنس على الدوام بقائه، فلم يطلب مع بقائه شيئاً آخر لا من عطائه ولا من لقائه؛ لاستهلاكه في علائه عند سطوات كبرياته.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَتْهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَتْهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي: الذين اهتدوا بنور الله سبل الوصول إلى المشاهدة لله، وطلبوا عرفانه بنية صادقة، وقلوب شائعة راسخة، وعقول صافية، وأسرار طاهرة زادهم الله هدى، بأنه يُعرفهم طرق معارف صفاته،

وشهودهم مشاهد جلال ذاته، وأتاهم وقاية منه، بحيث جعلهم متصفين بصفاته، ثم عصمهم بها عن حجب الكدورات ونكايات الخطوات.

قال ابن عطاء: الذين تحققوا في طلب الهداية أوصلناهم إلى مقام الهداية، وزدناهم هدى بالوصول الهادي.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (١) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٣) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ (٤) .

قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ : ليس في القرآن ذكر الذات المجرد عن ذكر الصفات والأفعال إلا ههنا، والله أعلم؛ فهنا خبر عن عين الألوهية التي تقتضي التوحيد المجرد الخالي عن التفرقة في طلب الصفة والفعل، فدعا حبيبه إلى رؤية عيان الذات بنعت العلم، وأراد أن يعجزه في رؤية ذاته عن إدراك الكل، ويذوق طعم الفناء في سطوات عزة ذاته، لا أنه دعاه إلى أن يعلم كنه عين القدم، فإنه منزلة عن إدراك الخليقة بل عرفه نعوت الأولوية المنزهة عن الإدراك عن درك المتحيرين فيه، بأن يدركوه بعجزهم، فإن العاجز منقطع بعجزه عنه بكل حال، وأيضا دعاه إلى علم أفراد القدم عن الحدوث بقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، فأفاد علمه طرفين من العلم: الأول نفى الأضداد، والثاني إثبات الذات، والمقصود منه هذان الحالان من النفي والإثبات، إلا أنه أعلم كنه الألوهية، ألا ترى كيف قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؟ وهو نفى الأضداد و﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ إثبات الألوهية، وكيف دعاه إلى العلم ببطون الأزل، وهو مستحيل أن يعلمها الحقيقة بالحقيقة، وإشارة قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ (١) أي: من وجودك في مطالعتي ووجود جلالي، فإن بقاء وجود

(١) أمر تعالى بالعلم مع أنه هو العالم، كما أنه هو الشاهد في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ والرامي في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ إشارة إلى ذنب الوجود المغفور؛ ولذا قال عقيه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وهي نسبة الوجود التي بها أضيف العلم إليه، فإذا غفر وستر كان الوجود وما يتبعه لله تعالى؛ وإنما أمره بالعلم مع أن هذه الشهادة أول ما صدر منه ﷺ، وهو في مرتبة العقل الأول، إشارة إلى الفرق بين مرتبتي الروح والجسد، فمرتبة الروح لكونها مرتبة التجرد؛ لا تحتاج إلى التذكير والأمر بالعلم، وأما مرتبة الجسد =

الحدث في بقاء الحق أعظم الذنوب، وأيضًا إذا دعاه إلى العلم بوحديته وقع له الخطيئة أنه يعلم الحق بالحقيقة في سرعة شوقه إليه، وكمال محبته له، فعرفه الحق موضع خاطره في شوقه أنه لا يمكن ذلك، وهو مستحيل، وهو ذنب، فأمره بالاستغفار منه بنعت عرفانه عجزه عن درك حقائق وجود القدم، وأيضًا ألبس روح محمد المصطفى ﷺ نورًا من نور علمه، جعله عالمًا بعلمه، ومتصفًا بصفته، فلما باشر ذلك النور نور روحه وتجلي الحق لسره من عين علمه صار عالمًا بعلم الحق على الحق، فلما وجده بهذه المثابة دعاه إلى العلم بحقيقة أحديته بنعت زوال الشواهد والجواهر والأعراض، والنظر إلى الأفعال وطلب الصفة إلى الذات بالحق إلى الحق ليعلمه، فحار سره في ميادين الأزل والأبد، واستغرق في بحار أولية روحه وسره، ولم يدركه، وكلما وجد علمًا فني في علم آخر، وذهب العلم الأول في العلم الثاني، فلما وجده الحق عاجزًا عن دركه أمره بالاستغفار؛ لما فيه من بقايا وجوده في مقام الاتصاف، فإن في الاتصاف بقي العبد، وبقاء العبد في الاتصاف حجاب الاتصاف، فإذا بقي وجوده، محتجب به عن الإدراك، فإذا لم يبق بقي الحق، وهو عالم بنفسه أزلاً وأبدًا، فوجوده تكلف في البين؛ إذ الحق عالم به لا هو، فأمره الحق بالاستغفار عن بقاءه في الاتصاف، فإنه ذنب عظيم؛ إذ به محتجب عن مقصوده، لذلك عرف حاله صلوات الله عليه، وقال: «إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١)، ومن وقع في هذا البحر فقد وجب عليه في كل نفس ألف استغفار؛ لأن في أول الحال فرح بوجدان المقام والسكون إلى المقام، فلما انكشف إليه مزيد القرب والمعرفة عن الأول وقد وجب عليه الاستغفار من الفرح به والوقوف عليه، ولذلك قال الجنيد: اعلم حقيقة أنك بنا ولنا وبنا علمتنا، وإياك أن ترى نفسك في علمك، فإن خطر بك خاطر غير فاستغفر من خاطرك، فلا ذنب ولا خطرة أعظم ممن رجع عنا إلى سوانا ولو في خطرة ونفس.

فكونها مرتبة التعلُّق؛ تحتاج إلى ذلك؛ ولذا لما خلقه الله تعالى، وهو أول المبدعات قال: (لا إله إلا الله)، ولم يقل: وأنا العبد؛ لأن تلك المرتبة ليست مرتبة العبودية؛ بل مرتبة الحامدية بلسان الروح، ولما وقع المعراج، ودخل على الله تعالى قال: (لا إله إلا الله أنا العبد) فأثبت العبودية حيث لا يقتضيه الموطن، فلكل من الموطن اعتبار غير اعتبار الآخر، ولما كانت الألوهية من الإضافات؛ لأنها تقتضي الألوهية العبد؛ وقع عليها العلم الذي هو نسبة من النسب أيضًا، وليس فوق مرتبة العلم والألوهية إضافة أصلاً؛ لأن ما فوقها ذات بحث لا اسم هناك، ولا رسم، ولا وصف، فإلى مرتبة الألوهية ينتهي علوم العلماء، ومكاشفة المكاشفين، ومن ثم حكم على العالم؛ بل المكاشف أيضًا بالخيبة لكنها هي الخيبة الممدوحة الناشئة عن علم وتجلي، لا عن جهل واحتجاب، والله الهادي إلى عين ذاته.

(١) رواه مسلم (٢٠٧٥ / ٤)، وأبو داود (٨٤ / ٢).

قال الواسطي: من قال لا إله إلا الله على العادة فهو أحق، ومن قالها تعجباً فهو مصروفٌ من الحق، ومن قالها على الإخلاص فأشرك وطعنه؛ لأنه بإياه يخلص حتى يصير مخلصاً، ومن قالها على الحقيقة فقد تبطل عن الشواهد.

وقال القاسم: العلماء أربعة: عالم متروك، وعالم متمكن، وعالم موصول، وعالم مجذوب، فالعالم المتروك هم العامة، والعالم المجذوب وهم الذين جذب الله سرائرهم إلى سره، والعالم الموصول هم الذي يطلبون المعالية، والعالم المتمكن وهو محمد ﷺ وحد القرار في محل المشاهدة؛ لذلك خوطب بقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، ولم يقل فاعرف؛ لأن الإنسان قد يعرف الشيء ولا يحيط به علماً، ما علمه وأحاط به علماً فقد عرفه.

وقال الواسطي: هما دعوتان: دعا إبراهيم إلى قوله: ﴿أَسْلِمَ﴾، ودعا محمد ﷺ إلى قوله: ﴿فَاعْلَمْ﴾، دعا أحدهما إلى العلم، والآخر إلى الإسلام، وأعلاهما العلم؛ فهو مرتبة الأجلّة، والإسلام هو الانقياد، والانقياد إظهار العبودية، والعلم إظهار الربوبية، لا جرم أبتلى حين قال: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ بالنار وذبح الولد وغيرهما.

وقيل: قال لإبراهيم: ﴿أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾: ابتلى لما قال، ونبينا ﷺ لم يقل علمت فعوفي، وما ينكت في سري من الحال هواتف أطياف الغيب التي تنبه أهل الأفهام أبناء الربانية أن الله اختبر الخليل بروية الفعل والعلم بالصفة؛ حيث قطع الطيور ليرى أنوار الشاهد في الشواهد بقوله بعد أن أحيّاها: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وحبل قدر المصطفى ﷺ، فامتنحه الله بالعلم بالذات هاهنا بقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وهناك حيث قال للخليل: ﴿أَسْلِمَ﴾، فهناك امتحان بالعبودية، وما قال للحبيب: ﴿فَاعْلَمْ﴾ امتحان بالربوبية، فكم فرق بين هذين المنزلين! فالخليل اجتراً من حيث شوقه، وقال: ﴿أَسْلَمْتُ﴾، وكان في سكر الخطاب، ولو كان في وقت الصحو علم أن الحدثان لا ينقاد لعز ربوبيته كما يجب، فإن الحادث لا يبلغ إلى حقيقة عبوديته؛ إذ حقيقتها أن يشكر له بشيء يقابل القدم، وهذا مستحيل، فوقع إذًا في الابتلاء، فالخطابان مصدرهما واحدٌ من حيث الأمر، ولكن مصادرها مختلفة.

قال الواسطي: العلم حجةٌ، والمعرفة والغلبة غير محكوم بها.

قال الحسين: العلم الذي دُعِيَ إليه المصطفى ﷺ هو علم الحروف، وعلم الحروف في لام ألف، وعلم لام ألف في ألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في علم الأول، وعلم الأول في المشيئة، وعلم المشيئة في علم الهو، وهو

الذي دعاه إليه، فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ رُ﴾ : فالهاء راجع إلى غيب الهوية.

قال القاسم: أضاف المعرفة إلى الخلق، فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ .

وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ، واختصّ هو بالعلم علم السرائر، ويسمّى بالعلم ولم يسمّ بالمعرفة، وقال لأخصّ أنبيائه وأصفياه: ﴿فَاعْلَمْ﴾ ؛ لقربه من مصدر الحقيقة وموردها، وإشراقه على الغيب والمغيبات، ودعاه إلى العلم، ووصفه به، ووصف العوام بالمعرفة؛ لأن العلم أتم وأبلغ.

قال بعضهم: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ من حيث الله بغيتك عن علمك، ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ من علمك؛ لأن كل حقيقة لا تمحو آثار العبد ورسوله فليست بحقيقة.

وقال بعضهم: أدخل النبي ﷺ في عين الجمع بما دعاه إلى علم ألوهيته؛ إذ الهوية عين الجمع وفرق الخلق في سائر الأسامي والصفات، فطالع كل واحد منها قدره.

قال ابن عطاء: طلب تنزيه العبد؛ لئلا يكون له خاطرٌ غيره في علمه بأن لا إله إلا هو علماً لا قولاً، وهو حقيقة التوحيد حقائق تنبئ عن الموحّد لا حقائق تنبئ عن العبد.

قال علي بن طاهر: إن الله أمر النبي ﷺ أن يدعو الخلق إليه، فلما دعا الخلق إليه دعاه من نفسه إليه بقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: أنت تدعو الخلق إليّ وأنا أدعوك من نفسك إليّ.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أي: إذا علمته أنك علمته فاستغفر لذنبك من هذا؛ فإن الحق علا جلّ قدره أن يعلمه غيره.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أمر على قلوب أقفالها ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿١٨﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿١٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ نُخْرِجَ اللَّهَ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أمر على قلوب أقفالها: وبخ الله سبحانه الجهلة بالقرآن والغفلة عن التدبر فيه، ويئنّ أنهم لا يتدبرون القرآن، وأظهر سبب

منع تدبرهم.

﴿أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي: بل على قلوبهم غطاء الغفلة، من حيث غطّاها الحق سبحانه بغطاء قهره ومنعها عن مشاهدة صفته، وأصم أسماع أسرارهم؛ لئلا تصغي إلى سقوط الإلهام، أو تفهم لطائف الكلام، فالتدبر في القرآن لغواص بحار الفهوم حين غاصت أسرارهم وفهومهم وأولياؤهم في بحر عجائب خطاب الحق، فتستخرج غرائب علومها وأسرارها، فتعبر عنها ألسنتهم الصادقة عند مجامع هموم المريدين وأولي الشهود بنعت إلقاء السمع من المراقبين.

قال ابن عطاء: قلوب أقفلت عن التدبر، وألسن منعت عن التلاوة، وأسماع صمت عن الاستماع، ومن القلوب قلوب كشف عنها الغطاء، ولا يكون له راحة إلا في تلاوة القرآن واستماعه والتدبر فيه، فشتان ما بين الحالتين.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَارْتَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ﴾ (١) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ (٢) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنَ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَلُهُمْ (٣) • يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ (٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٥) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لَا أَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ (٦) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَارْتَيْنَاكُمْ﴾: وصف الله نفسه بالقدرة القائمة والمشية الأزلية بأنه لو أراد أن يكشف عن سرائر الخلق وخفايا قلوبهم لحبسه صلوات الله عليه لكان قادراً، وذلك بعد أن ألبس قلبه أنوار غيبه وغيب غيبه؛ فإنه كان مستعداً بأن ينظر إلى بواطن الغيوب وضمائر القلوب، ولكن ما كان أوائل حاله عرفان بعد ترقى أحواله إلى مصاعد الغيب ورؤية أنوار الصفات، لكن أثبت في أحوالهم بالوسائط في هذا الموضع بقوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، فإذا كمل في مشاهدة الحق أخبر عن وقوف سرّه على إمكانات الغيوب بقوله: «فعلمتُ ما كان وما سيكون»^(١)، فنبهنا الله سبحانه أن أوائل

(١) ذكره القنوجي في أبجد العلوم (١/١٣٨).

الفراسات مقرونةٌ بعلامات الظاهر، وأنها تتم بما بدا من سيماء الوجوه، ولحن القول والفراسة المحضة ما قال عليه الصلاة والسلام: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله»^(١)، ويبيّن أن ما يكون من الصدق في القول آثاره تبدو من السماء وصدق القول وما يكون بخلاف ذلك؛ فلذلك قال القاسم في قوله: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ»: أطلعناك على سرائرهم، «فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَنَهُمْ» فطنة، «وَلَتَعَرَّفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» ظاهراً، «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ»، لا يقف على ما لهم من السعادة والشقاوة أحد.

وقال أيضاً: إن عند الله الأكابر والسادة يعرفون صدق المرید من كذبه بسؤاله وكلامه؛ لأن الله يقول: «وَلَتَعَرَّفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ».

«إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَنُخْرِجُ أَصْغَنَكُمْ» هَاتُتْمُ هَتُولَاءِ تَدْعَوْتَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ.

قوله تعالى: «وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ»^(٢): وصف الله سبحانه نفسه بغنى القدم واستغنائه عن الكون وما فيه وأن خزائن جوده لا نهاية لها، وغناه صفته الأزلية القائمة بحوي حواشي بحارها فقر أهل الأكوان والحدثان، فيغنيهم بغناه الذي لا فقر بعده، وحقائق معنى الخطاب للمتصفين بصفاته الذين وجدوا مقام الغنى من الله بعد أن كساهم الحق نور غناه وجردهم عن مقام الفقر، الذي هو مستفاد من نعوت تنزيه القدم؛ إذ كان ولا مكان ولا وقت ولا زمان أي: أنتم وإن بلغتكم إلى مقام الاتصاف بصفة غنائي فأنتم بعد فقراء، إذ الوصف للموصوف لا للمتصف، وأنه لا نهاية له.

قال الجنيد: في موضع الغنى كسوة الحق.

وقال سهل: معرفة علم السر كله للفقر، وهو ستر الله، وعلم الفقر إلى الله تصحيح علم الغنى بالله.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال القشيري: والله الغني لذاته بذاته، ومن غنائه: تمكُّنه من تنفيذ مُرادِهِ، واستغناؤه عما سواه، وأنتم الفقراء إلى الله، في نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، في الابتداء ليخلقكم، وفي الوسط ليُريكم، وفي الانتهاء يفيكم عن أنانيتكم، ويُبقيكم بهويته، فالله غني عنكم من الأزل إلى الأبد، وأنتم الفقراء محتاجون إليه من الأزل إلى الأبد.

قال الجنيد: والله الغني وأنتم الفقراء، لأن الفقر يليق بالعبودية والغنى بالربوبية، ثم بين وصف غناه عن العالمين في آخر السورة بقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَنْتَبِذْكُمْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي: إذا ذقت طعم شراب وصالي وسكرتم لمشاهدة جمالي وتفقدون إلى بحار الأنانية وتستغرقون في لجج الأحوال وتخرجون منها بالعريضة فأوجد أقوامًا من المستقيمين على بساط جبروتي وساحات ملكوتي، ولا يزيفون عن سبل التمكين إلى شعب التلوين.

قال بعضهم: لا يستقر على حقيقة بساط العبودية إلا أهل السعادة، وقد يطا البساط المترسمون بالعبودية أوقانًا، ثم لا يستقرون عليه، ويبدل الله مكانهم فيه من أوجب لهم السعادة، ألا تراه يقول: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَنْتَبِذْكُمْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾.

سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ۝﴾.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: نبهنا الله في ذلك من سر عجيب، وهو أن أبواب كشف القدم مسدودة على أهل الحداث، ولم يظهر لأحد عين ذات الأزل، ففتح الله أبوابه لعين محمد ﷺ حتى رآه كفاحًا، فتح سمعه فأسمعه كلامه شفاهاً، وفتح باب قلبه وروحه وسره، فعرف نفسه لها، حتى وجدت أبواب خزائن علومه الغيبية مفتوحة، وفتح الله جميع أبواب وجود حبيبه ﷺ حتى الشعرة على بدنه وجعلها عيونًا مفتوحة بمفاتيح توحيده وأنوار حقيقته حتى رآه بجميع عيون وجوده، وذلك الفتح ظاهر من وجوده حتى لا يراه أحد إلا ويرى نور الصمدية ينتشر من بشريته، لكن كان محجوبًا من عيون الأغيار بقوله: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وذلك الفتح سبب غفران ذنبه الأول وذنبه الآخر، الذنب الأول سقوطه من زند الفعل على نور الصفة؛ إذ أتى في أول الأول بوجود الحدث إلى ساحة القدم، ومع ما أتى به لم يأت بحقوق الأزلية عليه بكماله، فإذا قصر في واجب حق الربوبية بكماله عليه صار ذلك ذنبه الأول، وذنبه الآخر وقوفه بنعت الخطاب على مدارج العبودية بعد أن غاص في بحر الربوبية، فإن من شرائط وجدانها الخروج من المرسومات، فذلك الفتح سبب غفران الذنوب، وليبلغه إلى محض

الاتصاف والاتحاد حتى تسير الربوبية في ركاب حيزوم القدم في ميادين الأزل إلى الأبد بنعت التوحيد والتجريد والتفريد، وذلك تمام نعمته التي عليه أخبرنا الحق عنها بقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾، ثم بيّن أنه يهديه إلى طريق مشيئة الأزل المستقيمة بالإرادة والوحدانية، وذلك الطريق ما يسلك فيه عساكر جنود أنوار التجلي والتدلي بقوله: ﴿وَهَدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾، ذلك الصراط للحق لا للخلق؛ لأن الحادث لا يسلك في القدم، أقامه الحق على رأس ذلك الطريق، وكان لا يعرف أين يسلك حتى بدت أنوار بريد تجلي القدم الذي استقبله، فهداه إلى مسالك الديمومية، فأذهب به الحق إلى معارج دنوه، وذلك ما أنبأنا الله من سيره من الحدث إلى القدم بقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، فإذا وصل إلى قلب عساكر الواحدية وغلبت عليه سطوات جنود الفطنة استغاث منه إليه؛ حيث قال: «أعوذ بك منك»^(١)، فلبسه الله أنوار ربوبيته، وأيده بقوته الأزلية حتى استقام بالحق في الحق، فأخرج الحق جنود رحمته الباقية، فقوّاه بها، وسكن بها قهر القدم بقوله: «سبقت رحمتي غضبي»^(٢)، وذلك قوله: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

قال ابن عطاء: جمع الله للنبي ﷺ في هذه الآية من نعم مختلفة: بين الفتح المبين وهو من أعلام الإجابة، والمغفرة وهي من أعلام المحبة، وتمام النعمة وهي من أعلام الاختصاص، والهداية وهي من التحقق بالحق، والنصر وهو من أعلام الولاية، والمغفرة تبرئة من العيوب، وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة من الحق، والهداية هي الدعوة إلى المشاهدة، والنصرة هي رؤية الكل من الحق من غير أن يرجع إلى سواد.

وقال الواسطي: فتح عين رسوله ﷺ لمشاهدته في المسرى، وفتح سمعه لفهم كلامه كفاحاً بعد أن قوّاه لذلك وأكرمه به.

وقال ابن عطاء: كشف ذنوب الأنبياء عليهم السلام، ونادى عليه، وستر ذنوب النبي ﷺ بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

قال أبو يزيد في قوله: ﴿وَهَدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾: هو السبيل إلى قربه ليلة المعراج؛ حيث تأخر جبريل عليه السلام، ولم يكن ذلك محله، فهدى الرسول ﷺ إلى السبيل الحق، وهو الصراط المستقيم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٢٧٤٥/٦)، ومسلم (٢١٠٨/٤).

وقال ابن عطاء: لما بلغ إلى سدره المنتهى قدم النبي ﷺ وأخر جبريل عليه السلام، فقال النبي ﷺ لجبريل: تتركني في هذا الموضع وحدي، فعاتبه الله حين سكن إلى جبريل فقال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

وقال أيضًا: يهدي بك الخلق إلى الطريق المستقيم، وهو الطريق إلى الحق، من جعله أمامه قاده إلى الخلق، ومن لم يقتد به في طلب الطريق إلى الحق ضلَّ في طلبه، وأخطأ طريق رُشده.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ما حرم الله المؤمنين من رشاش بحار معرفته وأنوار قربه، بل خصَّهم بما خصَّ به الأنبياء عليهم السلام في أوائل أحوالهم، وتلك السكينة، وهو وقوع نور المشاهدة على أسرارهم، فقويت به في تراكم بوادي الواردات الغيبية وامتحانات إلهية، وبذلك النور تزيد أنوار إيمانهم.

قال الله في موضع آخر: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، والسكينة شهود كشف الجمال في قلوب أهل الكمال، والبصيرة تورث في أسرارهم الأنس، والبصيرة كشف الجلال في قلوب العارفين، فيصرون به نوادر الغيوب وعجائب القلوب، لذلك قال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾، وذلك الإيمان هو البصيرة.

قال الواسطي: البصيرة مكشوفة، والسكينة مستورة، ألا ترى إلى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ إلخ، فبالسكينة ظهرت البصيرة، والسكينة هداية، والبصيرة عناية، وإذا أكرم العبد بالسكينة يصير المفقود عنده موجودًا والموجود مفقودًا.

سُئل بعضهم ما أول ما كاشف الله به عباده؟ قال: المعارف، ثم الوسائل، ثم السكينة، ثم البصائر، فلما كاشفه الحق بالبصائر عرف الأشياء بما فيها من الجواهر، كأبي بكر عليه السلام ما أخطأ في نطق.

قال جعفر: سمعت الجد يقول لينظروا إلى الإيقان وإلى مشاهدته بعين القلب، فكانت

هذه المعرفة زيادة عن المعرفة الأولى ما غاب عن العيان بها شاهدت القلوب بالإيقان.
وقال سهل: هي نور اليقين، يسلكون به إلى عين اليقين، وعين اليقين هي التي تدل على الحقائق، وهي حق اليقين.
وقال بعضهم: السكينة يقذفها الله في قلوب أوليائه يسكن به نفس أوليائه عن المعارضات.

قال الأستاذ: انسكينة ما يسكن إليه القلب من البصائر والحجج، فيرتقي القلب بوجوده عن حد الفكرة والسير إلى روح اليقين، وتلج الفؤاد، فتصير العلوم ضرورية، هذا للخواص، وأما عوام المؤمنين المراد منه السكون والطمأنينة واليقين.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: جنوده هم سماوات أرواح العارفين وقصور أرض قلوب المحبين، وأنفاسهم جنوده، تنتقم بنفس منهم من جميع أعدائه فيقهرهم، وذلك أن واحدًا منهم يضيق صدره من أعداء الله، فبان أنه يحترق بها أهل الضلالة، ألا ترى كيف قال سكران الطور حين دعا على الكفرة: «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ» (٢)، فصاروا حجارة محماة، وكيف قال سيد البريات في وجوه الكفرة حين قال: «شاهت وجوههم، فانهزموا» (٣) بإذن الله، وكذا حال كل صديق مع الله، يوقع نيران الهلاك بين الضلال بنفس واحد، فيهلكوا بأقل من نحة، كما دعا نوح على قومه، فقال: ﴿لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، فهلك به أهل الأرض جميعًا إلا من آمن، وكل ذرة من العرش إلى الثرى جنوده، حتى لو سلط نملة على حية عظيمة لتدمر عنها، ولو سلط بعوضة على الأكوان جميعًا لخربتها بقوة الله، ألا ترى كيف قال ﷻ:

«لله جنود منها إليك» (٣)، وهذا محل الانفراد بالله والتوكل على الله؛ فإنه عون كل ضعيف وحسب كل عاجز.

قال سهل: جنوده مختلفة؛ فجنوده في السماء الملائكة، وجنوده في الأرض الغزاة، وأيضًا جنوده في السماوات الأنبياء، وفي الأرض الأولياء، وأيضًا جنوده في السماوات القلوب، وفي الأرض النفوس.

(١) رواه الطبري في التفسير (١١/١٥٧).

(٢) رواه الطبري في التفسير (١٠/١٠٠).

(٣) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

قال بعضهم: ما سلط الله عليك فهو من جنوده، إن سلط عليك نفسك أهلك نفسك بنفسك، وإن سلط عليك جوارحك أهلك جوارحك بجوارحك، وإن سلط نفسك على قلبك قادتك في متابعة الهوى وطاعة الشيطان: وإن سلط قلبك على نفسك وجوارحك زَمَّها بالآدب، فالزمها العبادة، وزَيَّنَّها بالإخلاص في العبودية، وهذا تفسير قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: شاهدًا على توحيدهم ومعرفتهم ومحبتهم وولايتهم، وبنور الله على قلوبهم وأسرارهم، ومبشِّرًا يبشرهم بالوصول ورؤية الجمال والجلال، ونذيرًا من العتاب والحجاب، وأيضًا شاهدًا للعارفين، بدا من الحق لهم؛ ليروا امن مشاهدته أنوار جمال الحق، ومبشِّرًا للمحبين، يبشرهم بالوصول إلى قرب حبيبهم بلا علة، ونذيرًا للمقبلين إليه لثلا يميلوا إلى غيره.

قال سهل: شاهدًا عليهم بالتوحيد، ومبشِّرًا لهم بالمعرفة والتأييد، ونذيرًا محذرًا إياهم البدع والضلالات.

قال ابن عطاء: شاهدًا علينا، ومبشِّرًا لنا؛ نذيرًا عنا، وداعيًا إلينا، وأنت المأذون في الكل؛ لأنك أمينٌ على الكل، ولا يطيق هذه المراتب إلا الأمانة؛ فإنك الأمين حق أمين.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: جعلك شاهدًا لهم؛ ليؤمنوا بالله ورسوله أي: ليشاهدوا بأسرارهم مشاهدة الله، ويدركوك في محل الجلال والجمال، ويعرفوا قدرك في قدري وقدري في قدرك؛ حيث سرت مرآتي، أتجلى منك لهم؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ رَأَى فَقْدَ رَأَى الْحَقَّ»^(١)، ويعزروا أمري فيك ببذل وجودهم، ويوقروك بما ألبستك وقاري وهييتي، ويوقروا كلامي وخطابي الذي أنزلت عليك بنعت المتابعة، ويقدسوني من الأضداد والأنداد، وعن أن يجد أحد سبيلًا إلى كنه معرفتي وجلال قدري، أول الخطاب توحيد بقوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾، وهو مقام الجمع، ثم مقام التفرقة بقوله: ﴿وَرَسُولِهِ﴾، ثم رؤية الصفات في الفعل وهو مقام الالتباس بقوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾، ثم إفراد القدم عن الحدوث بقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾،

فأول الخطاب والباقي واحد في معاني التنزيه والتوحيد.

قال سهل: لتؤمنوا تصديقاً بما جاء به، وتعزروه حقه في قلوبكم وطاعته على أبدانكم.
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمًا﴾ (١) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (٣) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (٤) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَا خُذُواهَا ذُرِّيَّتَنَا تَنْبَغُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٦) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرٌ عَيْنٍ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بِأَسْ شَدِيدٍ تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾: ذكرت تحقيق هذه الآية في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وصرح الله ما ذكرنا في هذه الآية؛ حيث بين أمر عين الجمع ومقام الالتباس وظهور العين، وظهور جمع الجمع في عين الجمع، حين جعل نبيه مرآة لظهور ذاته وصفاته، وهو مقام الاتصاف والاتحاد، بدا نور الذات في نور الصفات، وبدا نور الذات والصفات في نور الفعل، فصار هو هو؛ إذ غاب الفعل في الصفة، وغابت الصفة في الذات، ومن هنا ادعى الحلاج - قدس الله روحه - حيث قال: «أنا الحق»، وقال سلطان العارفين أيضًا من هاهنا «سبحاني سبحاني» (١).

(١) قال: شيخ الشيوخ الشيخ شهاب الدين السهروردي في العوارف: وما يحكى عن أبي يزيد قوله: سبحاني حاشا لله أن يعتقد في أبي يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى. قال: وهكذا ينبغي أن يعتقد في الحلاج قوله أنا الحق.

قال أبو سعيد بن أبي الخير: «ليس في الجبة غير الله»^(١)، وأنشد الشبلي في هذا المعنى:
تباركت خطراتي في تعالائي فلا إله إذا نكسرت آلاي
قال الواسطي: أخبر الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾
أن البشرية في نبيه ﷺ عارية وإضافة دون الحقيقة.

وقال: أظهر النعوت في محمد ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾
وقال الحسين: لم يظهر الحق تعالى مقام الجمع على أحد بالتصريح إلا على أخص اسمه
وأشرفه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، أسقط الوسائط عند تحقيق
الحقائق، فأبقى رسومها: وقطع حقائقها، فمن بايع النبي ﷺ بايع الله على الحقيقة؛ فإن تلك
بيعة الله؛ لأن يده في تلك البيعة يد عارية.

قال القاسم النصر آبادي في وقت الاستنفار إلى الروم: ها قد ظهرت صفة البيعة فهل
من راغب فيها، بيعة بلا واسطة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ إلخ، وقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ
أَيْدِيهِمْ﴾: زيادة التصريح في مقام عين الجمع ورسمه أن سنته القديمة غالبية على علل
العبودية.

قال بعضهم: منة الله عليهم في الهداية إلى هذه البيعة أعظم عليهم من بيعتهم وقال
الشبلي في هذه الآية: من صحت أحواله واستقامت أفعاله أخبر الله عنه بعبارة الجمع كما عبر
عن المصطفى ﷺ حين استقام مع الحق في كل أوصافه، أخبر الله أن بيعته بيعة الحق، وطاعته
طاعة الحق، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾.

قال الأستاذ: في هذه الآية تصريح بعين الجمع، كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَيْكِبُ اللَّهُ رَمَى﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ
يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا
أَلِيمًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ﴾: إن الله عذر أقوامًا
من المحبين والعارفين بالرمز في هذه الآية، ظاهرها مع العموم، وباطنها مع الخصوص.

(١) إشارته بها تحت الجبة إلى قلبه الذي وسع ربه، فإنه ليس في قلبه إلا الله. وانظر: كتابنا: سلطان العارفين،
وإرشاد ذوي العقول إلى براءة الصوفية من الاتحاد والحلول.

كما قال ﷺ: «القرآن ظهر وبطنٌ وحدٌ ومطلع»^(١)، إن الأعمى ههنا من طمسته سبحات وجهه حين عاين لقلبه وروحه ظهر عماه، إذ لا يرى غير الله، وعماه الحقيقي ألا يطيق أن ينظر بطون الأزل والغيب وغيب الغيب، وهذا سرُّ قوله عليه الصلاة والسلام في وصف جمال الحق: «حجابُه النور»، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٢)، فجعله معذورًا ألا يدرك حق الحقيقة وحقيقة الحق؛ إذ يستحيل أن يحيط الحدث بالقدم، وإن كان واجبًا معرفة الكل من حيث الحقوق لا من حيث التوحيد، وأيضًا هو معذورٌ باستعمال الرخص والدخول في الرفاهية، والأعرج من عرج سره وروحه من السير في ميادين الأزلية والأبدية؛ إذ كان عرجًا بضرب سيوف الوحدة ووصول إعجاز القهريات، أي: هو معذورٌ حين جلس على بساط الأنس، ولم يسر في ميادين القدس، فإن هناك طوفان الكبرياء وسطوات العظمة والبقاء، وهذا الأعرج معذورٌ؛ إذ لم يأت من مقام المشاهدة إلى مقام المجاهدة، والمريض هو الذي أسقمته محبة مشاهدته ورؤية جماله، فهو معذورٌ؛ إذ باشر الروحانيات مثل السماع واستعمال الطيب والنظر إلى المستحسنات، فإن مداواته تكون أيضًا من قبيل العشق والمحبة؛ لأن العشق أمرضه، فأيضًا يداويه بالعشق كما قيل:

تداويتُ من ليلي بليلي من الهوى كما يتداوى شاربُ الخمر بالخمير

فهؤلاء أهل المشاهدات لا أهل المجاهدات والرسومات.

قال الأستاذ: من كان له عذرٌ في المجاهدة مع النفس؛ فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ۚ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْوَارُ ثُمَّ لَا يَمُجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١/٢٣).

(٢) تقدم تخريجه.

أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١١﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ - رضي الله عنهم - في الأزل وسابق علم القدم، ويبقى رضاه إلى أبد الأبد؛ لأن رضاه صفته الأزلية الباقية الأبدية، لا يتغير بتغير الحدثان، ولا بالوقت والزمان، ولا بالطاعة والعصيان، فإذا هم في اصطفايته باقون إلى أبد الأبد، لا يسقطون من درجاتهم بالزلات ولا بالبشرية والشهوات؛ لأن أهل الرضا محروسون برعايته، لا تجري عليهم نعوت أهل البعد، وصاروا متصفين بوصف رضاه، فرضوا عنه كما رضي عنهم، قال الله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، وهذا بعد قذف أنوار الأنس في قلوبهم بقوله: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

قال ابن عطاء: رضي الله عنهم فأرضاهم، وأوصلهم إلى مقام الرضا واليقين والطمأنينة، فأنزل الله السكينة عليهم؛ ليسكن قلوبهم إليه.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَذَايَ مَعَكُمْ فَمَا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾: انظر كيف شفقة الله على المؤمنين الذين يراقبون الله في السراء والضراء ويرضون ببلائه، كيف حارسهم عن الخطرات، وكيف أخفاهم بستره عن صدمات قهره، وكيف جعلهم في كنفه حتى لا يطلع عليهم أحد، وكيف يدفع ببركتهم البلاء عن غيرهم، وفي الآية رمز إعلام ورعاية الكبرياء للمريدين.

قال سهل: المؤمن على الحقيقة من لا يغفل عن نفسه وقلبه، يفتش أحواله، ويراقب أوقاته، فيرى زيادته من نقصانه، فيشكر عند رؤية الزيادة، ويتضرع ويدعو عند النقصان، هؤلاء الذين يدفع الله بهم البلاء عن أهل الأرض، والمؤمن من لا يكون متهاوناً بأدنى التقصير؛ فإن التهاون بالقليل يستجلب الكثير.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ

كَلِمَةُ التَّقْوَى : سكينه الرسول كشف القدس، وسكيتهم نزول قلوبهم منازل الأنس، وكلمة التقوى كلمة الله التي سبقت في الأزل أنهم أهل السعادة لا أهل الشقاوة، وتلك الكلمة بقيت بنعوتها وأنوارها في قلوبهم، **«وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا»**؛ لأنهم سابقون بها في الأزل من غيرهم الذين حجبهم الله من رؤية نورها، وكانوا أهل الكلمة من حيث الاصطفائية؛ إذ نزلت عند لب التوحيد من سماء التفريد على أغصان ورد قلوبهم، فترنمت بألستهم انصافاً من بطنان أفئدتهم بكلمة التقديس والتوحيد.

قال أبو عثمان: كلمة التقوى كلمة اليقين، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ألزمها الله السعداء من أوليائه المؤمنين، وكانوا أحق بها في علم الله؛ إذ خلقهم لها وخلق الجنة لأهلها. قال الواسطي: كلمة التقوى صيانة النفس عن المطالع ظاهراً وباطناً.

قال الجنيد في قوله: **«وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا»** : من أدركته عناية سبق في الأزل جرت عليه عيون المواصلة، وهو أحق بها؛ لما سبق إليه من كرامته الأول.

«لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا».

قوله تعالى: **«لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ»** : إشارة الآية مع المشتاقين إلى مشاهدة الحق بأنهم يدخلون حرم الربوبية آمنين عن جريان العبودية عليهم، آمنين من ذل الحجاب بعد كشف النقاب، والاستتار وقع على المشيئة الأزلية السابقة بحسن العناية لهم، وفي نفس الآية أنه لو يريد أن يلبسهم وصف الصمدية حتى لا يفنوا في الوجدانية لقدّر، وهو هكذا يفعل، لكن رمز الاستتار يورث هيبة الحق؛ إذ صار عروس القدر غير منكشف لأهل الحدث، أذّب الجمهور برؤية الله مع رؤية القدر السابق؛ حتى لا يسقط عنهم شروط الهيبة والمراقبة.

سئل بن عبد الله: ما هذا الاستتار من الله؟ قال: تأكيداً في الافتقار إليه، وتأديباً لعباده في كل حال ووقت تنبيهاً أن الحق إذا استثنى مع كمال علمه ألا يجوز له الحكم من غير استثناء مع قصور علمه.

«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ

مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَعٍ أُخْرِجَ شَطَقُهُ فَقَارَزَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾: كان بنفسه أبلغ الهداية للخلق؛ فإنه مصارف آياته وبرهانه.

قال الله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ومعه نور الصفة؛ لأنه كان قلبه مشكاة نور القرآن، قال الله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾، وقال: ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، ودينه بيان معرفة الله والآداب في حضرته، وبهذه الصفة شهد الله أنه أرسله بهذه الأوصاف، وأثبت رسالته بشهادته بقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿٢٦﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴿١﴾: شهادته أزلية شهد على اصطفايته في الأزل، ثم وصف أصحابه وأحبائه ومتابعيه إلى يوم القيامة باختصاصات شريفة وأخلاق كريمة وعلامات صحيحة وآداب جميلة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي: معه في الأزل باصطفائية الولاية بنعت الأرواح، لا برسم الأشباح، ومن خاصية صفتهم أنهم أهل الهيبة والغلبة على أعداء الله والرحمة والكرم مع أولياء الله، قال الله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾: ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿تَرْتَبِّهُمْ زُرْعًا سُجَّدًا﴾: راعين على بساط العبودية من رؤية أنوار العظمة، ساجدين على بساط الحرمة من رؤية الجمال، يطلبون مزيد كشف الذات، والدنو والوصال والبقاء مع بقائه بغير العتاب والحجاب، وهذا محل الرضوان الأكبر بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، ثم وصف وجوههم أن يتلأأ منها أنوار مشاهدته التي انكشفت لهم في السجود حين خضعوا في ملكوته من رؤية عظام جبروته

(١) واعلم أنه قد اجتمع حروف المعجم التسعة والعشرون في كل من الآيتين المذكورتين، وأول الحروف في الآية الأولى: الاء المثلثة في ثم، وآخرها: الصاد المهملة في صدروكم، وأولها في الثانية: الميم في محمد، وآخرها: الصاد أيضًا في الصالحات، وليس في القرآن آية تحوت الحروف كلها غيرهما، ومن دعا الله تعالى بهما؛ استجيب له. والمراد: من قرأهما، ودعا عندهما؛ استجيب له؛ لأنها لجمعها الحروف كلها؛ كانت بمنزلة القرآن كله، وقد صحَّ أن الدعاء مستجاب، مستجاب عند ختم القرآن، ولما كانت هذه الحروف مما أنزله الله تعالى على آدم ﷺ، وكان آدم قد تكلم بسبعمائة ألف لغة على ما جاء في بعض الروايات: كان من تكلم بتلك الحروف؛ كمن تكلم بتلك اللغات كلها؛ لأن كلاً منها مشتملة على تلك الحروف، وقد ضم إليها الحروف الأربعة الفارسية التي هي: الباء، والجيم، والزاي، والكاف المعجمة التي تكلم بها بعض القبائل؛ ولذا كانت اللغة الفارسية ملحقة باللغة العربية؛ فجعلت كل منها لسان أهل الجنة.

بقوله: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، ثم وعدهم بنيل مرادهم من وصاله، وكشف جماله لهم أبد الأبدين بلا وحشة ولا فترة في آخر السورة بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: إيمانهم رؤية نور الغيب بالغيب، وتصديق الغيب برؤية الغيب، وعملهم الصالح الخروج من الحدثان شوقاً إلى جمال الرحمن، ومغفرة الله لهم أنه غفر لهم تقصيرهم في العبودية؛ إذ لم يطبقوا أداء حقوقها كما يليق بالحق، وقصور إدراكهم وحقيقة الربوبية بالأجر العظيم بأن يجلسهم على بساط قربه، ويلبسهم لباس نور وصله، ويتوجههم بتاج المحبة، ويسقيهم من شراب الدنو والزلفى، قال سبحانه: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

قال القاسم في قوله: ﴿أَرْسَلْ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾: أرسل الرسول وعظم حرمة بإضافته إلى نفسه، فمن لم يعظم من عظمه الله فهو لقلة معرفته بعظمة الله، أرسله مبيّناً للشرعة، مبيّناً أحكامه، داعياً إليه، وجعل طاعته طاعته، لم ينفصل الرسول عن الحق في الإيجاب والنفي والبلاغ والمشاهدة، ولم يتصل به من حيث الحقيقة.

وسئل الحسين: متى كان محمد ﷺ نبياً وكيف جاء برسالته؟ فقال: نحن بعد في الرسول والرسالة، والنبي والنبوة، أين أنت عن ذكر من لا ذكر له في الحقيقة إلا هو؟ وعن هوية من لا هوية له إلا بهويته؟ وأين كان النبي عن نبوته حيث جرى انعلم بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾، والمكان عليه والزمان عليه، فأين أنت عن الحق والحقيقة؟ ولكن إذا أظهر اسم محمد ﷺ بالرسالة عظم محله بذكره له بالرسالة، فهو الرسول المكين والسفير الأمين، جرى ذكره في الأزل بالتمكين بين الملائكة والأنبياء على أعظم محل وأشرف حال.

قال سهل في قوله: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: المؤمن من وجهه الله بلا فناء مقبلاً عليه غير معرض عنه، وذلك سيما المؤمنين.

وقال عامر بن عبد قيس: كاد وجه المؤمن يخبر عن مكنون عمله، وكذلك وجه الكافر وذلك قوله: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾.

وقال بعضهم: ترى على وجوههم هبة؛ لقرب عهدهم بمناجاة سيدهم.

قال ابن عطاء: ترى عليهم خلع الأنوار لائحة.

وقال عبد العزيز المكي: ليست هي النحولة، وهي الصفوة، لكنه نورٌ يظهر على وجوه العابدين، يبدو من باطنهم على ظاهريهم، يتبين ذلك للمؤمنين، ولو كان ذلك في زنجي أو حبشي، والله أعلم.

سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ﴾: هذا وعيد لمن حكم بخاطره بغير علم بالفرق بين الإلهام والوسواس، والكشف والخيال، وهواجس النفس وخطاب العقل، ولسان السر والنور بخردل من خرافات خاطره، ويحكم بها من الجهل بكلام الله وسنة رسوله، ويلزم المستمعين من أبناء جنسه أنها هي الحق ومقصوده الرياء والسمعة، فإذا قال أحد ما قال الله ورسوله لا ينفك عما انتحله من إلقاء العدو وحديث النفس، فيلزم عليه وعيد الحق وتحذيره بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن عذاب البعد وعما يقوله؛ فإنه تعالى سميع لقوله، ويجازيه بأن يحرم عليه مقالة الحكمة، عليم بنيته الكاذبة، ويجازيه بالنار والشنار، ولا يخلو الإنسان من هذه العلل النفسانية الشيطانية، وإن كان صديقاً فإنها مواضع الامتحان من قهر الله الذي قهر به عباده، وفيه من الأدب للمريدين ألا يتكلموا بين يدي شيوخهم، خاصة أنهم يتكلمون بالمعارف؛ فإنه سبب سقوطهم من أعين الأكابر.

قال سهل: لا يقولوا قبل أن يقول، وإذا قال فأقبلوا منه منصتين له مستمعين إليه، واتقوا الله في إمهال حقه وتضييع حرمة؛ إن الله سميع لما يقولون، عليم بما يعملون.

قال بعضهم: لا تطلبوا وراء منزلته منزلة.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾: أعلمنا الله سبحانه بهذا التأديب أن خاطر حبيبه من كمال لطافته ومراقبته، جمال ملكوته كان يتغير من الأصوات الجهرية، وذلك من غاية شغله بالله وجمع همومه بين يدي الله، فإذا صوت أحد بالجهر عنده خاصة أن يكلم كان يتأذى قلبه من صوته، ويضيق صدره من ذلك، كأنه يتفاعد

سره لحظة عن السير في ميادين الأزل والأبد^(١)، فخوفهم من ذلك؛ فإن تشويش خاطره ﷺ سبب بطلان أعمالكم: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، فإن من العرش إلى الثرى لا يزن عند خاطره ذرة، واجتماع خاطر الأنبياء والأولياء لمحة أحب إلى الله من أعمال الثقلين، وفيه حفظ حرمة رسول الله، وتأديب المريدين بين يدي أولياء الله.

قال ابن عطاء: زجر عن الأذى؛ لئلا يتخطى أحد إلى ما فوقه من ترك الحرمة.

وقال سهل: لا تخاطبوه إلا مستفهمين.

قال الأستاذ: أمرهم بحفظ حرمة ومراعاة الأدب في خدمته وصحبته، ثم وصف الله المتأديين بآداب الله أنهم أهل التقوى الذي هو نور من الله في قلوبهم، فقدس سرائرهم من العجب والخطرات المذمرة، وأنهم ينظرون بذلك النور عظم حرمت حبيبه ﷺ، وما شرفه الله به من المنازل السنية والدرجات العلية، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، ثم بين أن لهم مغفرة بأنهم مستورون عن أعين الشياطين، محفوظون من مكائدهم بما من الله عليهم من رعايته وعنايته، وكشف مشاهدته بقوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

قال الحسين: من امتحن الله قلبه بالتقوى كان شعاره القرآن، ودثاره الإيمان، وسراجه التفكير، وطيبه التقوى، وطهارته التوبة، ونظافته الحلال، وزينته الورع، وعلمه الآخرة، وشغله بالله، ومقامه مع الله، وصومه إلى الممات، وإفطاره من الجنة، وجمعه الحسنات وكثرة الإخلاص، وصمته المراقبة ونظرة المشاهدة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يتأيا الذين ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿١٠١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾: شكا الله عن ترك آداب بعضهم في صحبة رسوله، وبين أن الصبر في حفظ حرمة سبب نيل درجاتهم في الدنيا والآخرة.

(١) شروع في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ، بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل، وإعادة النداء مع قرب العهد؛ للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه، والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه؛ أي: لا تبلغوا بأصواتكم وراء حد يبلغه صوته ﷺ، بل يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهره باهراً لجهركم، حتى تكون مزيتة عليكم لائحة، وسابقته لديكم واضحة. البحر المديد (٦ / ١٠١).

قال أبو عثمان: الأدب عند الأكابر وفي مجالس السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات الأعلى والخير في الأولى والعقبى، ألا ترى الله بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ إلخ.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٥﴾ فَضَلًّا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْبَلُوا إِلَيْهَا تَبَعِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾: جعل قلوبكم مستعدة لقبول معرفته، ثم قذف فيها أنوار قربه، وزينها بنقوش محبته، زين عروس التوحيد بزينة المشاهدة في أعين أزواجهم، وجذبها به إلى بساطين الغيب، حتى رأوا لطائف بره وعجائب ملكه وملكوته، ثم منَّ عليهم بأن بغضهم العصيان والفسوق بتكريهه إليهم، كما أنه حببهم أعمال الإيمان بتحببيه إليهم بغير علة ولا سبب بل فضلاً ومئة؛ حيث أرشدهم إلى نفسه، وحبَّب إليهم قربه ووصاله بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾.

قال سهل: حبَّب إليكم العمل بأوامر الإيمان، وزين في قلوبكم تلك الأوامر، ثم زاد في تأكيد ما ذكرنا أن ذلك الرشد وحب الإيمان فضلٌ منه وكرمٌ بقوله: ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾: فضله اصطفايتهم في الأزل، ونعمته قربه ومعرفته.

قال سهل: بفضل الله عليهم فيما ابتدأهم به، وهداهم إليه من أنواع القرب والزلفى.

قال الواسطي: المؤمن يكره العصيان، ولكن يغيب عن شاهده؛ ليغلب عليه شواهد شهوته، فيأتيها، وذلك إنفاذ قضيته وتنبيه على ضعفه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾: إشارة الحقيقة في الآية أن وقائع الغيب عند كشوفها في صدور الأولياء على خلاف مذاق الروح والقلب والعقل والسر؛ لوجود إتيانها من الغيب بالبديهة، فبعضها للروح، وبعضها للسر، وبعضها للعقل، وبعضها للقلب فما وقع في السر فهو أعظم مما وقع على الروح، وما وقع على الروح أعظم مما وقع على القلب، وما وقع على القلب أعظم مما وقع على العقل؛ لأن واقعة السر

كشف الأولية والآخرية من الأزل والأبد، ونوادره الشطح والعلم المجهول، وما وقع على الروح من كشف الجمال والجلال وعجائبه الشوق والمحبة والسكر والانبساط، وما وقع على القلب من كشف العظمة ولطائفه الهيبة والإجلال وعلوم الصفات وحكم الربوبية، وما وقع على العقل من كشف نور الأفعال ونتائجها الأذكار والأفكار والمعاملة والعبودية، وهذه الأحكام عند أربابها مختلفة باختلاف كواشفها، ول بعضها على بعض معارضة من جهة غرائبها؛ فإصلاح بينهم لا يكون إلا بالكتاب والسنة وموازينها؛ لا أن يعلمها بفرق بيان موارد الأسرار وعجائب الأنوار، قال الله تعالى: ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً﴾، وقال: ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: أصلحوا شأنكم في سير المقامات والأحوال بكلام الله وسنة رسوله ﷺ؛ لتستقيموا في شرائع المعارف.

قال سهل في هذه الآية: هو الروح والقلب والعقل والطبع والهوى والشهوة، فإن بغى الطبع والهوى والشهوة على العقل والروح والقلب فليقاتله العبد بسيوف المراقبة وسهام المطالعة وأنوار الموافقة؛ ليكون الروح والعقل غالباً والهوى والشهوة مغلوباً.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يتأبها الذين ءامنوا لا يستخزقون من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهم ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاتسم الفسوق بعد الإيمن ومن لم يثبت فأولئك هم الظالمون ﴿٥٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾: افهم أيها العاقل أن الله سبحانه خلق الأرواح المقدسة من عالم الملكوت، وألبسها أنوار الجبروت، فمواردها من قربه مختلفة، لكن عينها واحدة، وخلق هياكلها وأشباحها من تربة الأرض التي أخلصها من جملتها، وزينها بنور قدرته، ونفخ فيها تلك الأرواح، وجعل بين الأرواح والأجسام والنفوس الأمارة التي ليست من قبيل الأرواح، ولا من قبيل الأجسام، وجعلها مخالفة للأرواح ومساكنها، فأرسل الله عليها جند العقول؛ ليدفع بها شرها، فإذا امتحن الله عباده المؤمنين هيّج نفوسهم الأمارة؛ ليظهر حقائق درجاتهم من الإيمان والآخرة، فأمرهم أن يعينوا العقل والروح والقلب على النفس حتى تنهزم؛ لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضهم بعضاً، ثم بين أن في الإصلاح بين الإخوان الفلاح والنجاة إذا كان مقروناً بالتقوى الذي يقدس البواطن من البغي والحسد بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، فإذا فهمت ما ذكرت علمت أن حقيقة الأخوة مصدر الاتحاد؛ فإنهم كنفس واحدة؛ لأن مصادرهم مصدر

واحد، وهو آدم عليه السلام، ومصدر روح آدم نور الملكوت، ومصدر روح آدم نور الملكوت، ومصدر جسمه تربة الجنة في بعض الأقوال؛ لذلك تصعد الروح إلى الملكوت، والجسم إلى الجنة كما قال عليه الصلاة والسلام: «كلُّ شيء يرجع إلى أصله»^(١).
قال أبو بكر النقاش: سألت الجنيد عن الأخ الحقيقي؟ فقال: هو أنت في الحقيقة إلا أنه غيرك في الهيكل.

وقال أبو عثمان الحيري: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب؛ فإن أخوة النسب تقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تقطع بمخالفة النسب.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَتُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾: بين الله سبحانه أن أكثر الظنون يؤول إلى الفساد، وأنها بعينها مائمة؛ لأنها من قبل النفس الأمارة التي ليس لها النظر إلى العيوب؛ فتهم في المخايل الشيطانية، وذلك أن الشيطان يلقي فيها عيب المؤمنين، ويهيجها بظنون مختلفة، وبين سبحانه أن بعض الظن حقيقة إذا كان ليس من قبل النفس، بل يكون ذلك من رؤية القلب ما جرى في الغيب، فيتفرس بنور اليقين؛ ولذلك وصف المؤمنين بذلك بقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾.

قال ابن شمعون: الظن ما يتردد في النفس من حيث أملها باستدلالها على حظها بوصفها، فيتردد، ولا يقف، فيمكن من الإيواء إليه، فما كان هذا وصفه فهو ظنٌّ.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ أي: ليس الكريم من يكون ذا نسب، إن الكريم من عرف الله وهابه وخضع له، وعرف نفسه أنه خلق من التراب وما للتراب ورب الأرباب، ولا يفتخر بنفسه على أحد بل الفخر بالله، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»^(٢).

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/ ٢٩٥) بنحوه.

(٢) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٤٠)، والحاكم في المستدرک (٢/ ٦٦٠).

قال جعفر: الكريم هو المتقي على الحقيقة، والمتقي المنقطع عن الأكوان إلى الله.
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٣٠﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾: الإسلام ظاهر العبودية، والإيمان مشاهدة الربوبية، ومحله القلب، بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، والإسلام الحقيقي بنعت الخضوع، واستعمال الأمر لا ينفك من الإيمان؛ فإن أصله الإيمان، وهو متولد منه، أما ما يكون بالتقليد والأعراض فهو أوصاف أهل النفاق.
قال سهل: ليس في الإيمان أسباب، إنما الأسباب في الإسلام، والمسلم محبوب إلى الخلق، والمؤمن غني عن الخلق.

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيْمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾: نفى الله - سبحانه - المنة عن الحدثان؛ إذ لا يصلح أن يكون لأحد قدرة بإنشاء شيء من نفسه، فإذا بين ذلك صرف المنة إلى نفسه بأن له المنة الأزلية، حيث أوجد الخلق بلا علة، بل فضلاً ورحمة منه، فمن أقبل إليه يرجع نفعه إليه؛ لأن ساحة الكبرياء منزّهة عن علل الخليفة، والعجب أن يكون الحدث محل منته القديمة ومنته لا يحتمل غيره.

قال الواسطي: لفظة المنة في محل التلبيس؛ لأن العباد إن لم تصحبهم رؤية المنة هلكوا؛ ولأن رؤية المنة حجاب كبير، وفي رؤية المنة استدراج عظيم، وكيف وهو لا يمتن على أحد يعرفه، وإنما المن على من حجه ذكر المنن جواب في الحقيقة لمن من عليه، ألا ترى إلى قوله ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ﴾، وفي كرمه لا يجوز المنة على أحد من الناس؛ إذ المنة تقع على من هو خارج من ملكه، فالمن على [شيء] يستحيل، وما علمت أن الكريم في الحقيقة لا يمتن لا سيما إذا كان الممتن عليه من خدمه.

قال الحسين في قوله: ﴿بَلِ اللَّهِ يُمْنُ عَلَيْكُمْ﴾: هذا جواب لما سلف من قولهم لا أن أحدا يستطيع حمل منته، فكيف يمين على من خطر له عنده، ولا أثر منه عليه، وأعجب منه ألا يمين على أحد إلا بالمخلوق، ولا وزن للكون عنده، فكيف يمين بمن لا وزن له على أحد؟ عجت من مقالة أكابر المشايخ بأن منة الله على العبد حجاب ومكر إن أرادوا بالمنة الفعل واصطناع الكريم يكون ذلك مكرًا؛ لأن العبد إذا كان في رؤية النعمة فهو محجوب من رؤية المنعم، وإن أرادوا بالمنة صفته الأزلية بأنه منان على كل ذرة من العرش إلى الثرى، فإن ذلك ليس بحجاب؛ إذ منانيته كشوف وصفه بنعت تعريف نفسه لعباده؛ ليعرفوه بالصفة لا بالغير؛ ولذلك قال الجنيد - قدس الله روحه -: إن من العباد تفريع، وليس من الله تفريع، وإنما هو من الله تذكير النعم، وحث على شكر المنعم، ثم بين سبحانه أن المتكلفين بإسلامهم على حبيبه عليه الصلاة والسلام من جهلهم بالله وبأنفسهم؛ إذ ليس لهم منة؛ لأنهم عجزوا أنفسهم، والمنة لمن هو منزلة عن الخلل والنقصان، وهو محيط بكل ذرة بعلم أزلي، ويعلم حقائق الأشياء؛ إذ هو موجد لها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: ليس له غيب؛ إذ الغيب شيء مستور، وجميع الغيوب عيان الله، وكيف يغيب عنه؟ وهو موجد، يبصر ببصره القديم ما كان وما لم يكن؛ إذ هناك العلم والبصر واحد.

سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَوِ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِیْجٍ ۝ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِیْجٍ ۝﴾.

﴿ق﴾: قف، أقسم الله سبحانه بذاته وصفاته، قاف قاف كبرياء قدمه، الذي هو أصل وأصل كل أصل، ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾: الذي هو مخبر عن جميع الذات والصفات، المشتغل على حكميات الأفعال، المقدس عن تغاير الأزمنة والدهور، الذي كشف بيان ما يقع لأرواح العارفين وأسرار الواصلين، وقلوب المحبين، وعقول الصديقين، وصدور المقربين، ظاهره ظاهر البيان من حيث العبودية، وباطنه باطن العيان من حيث الربوبية، وحرف القاف

كناية عن كل اسم فيه القاف، مثل القديم والقادر والباقي والقيوم والقوي والقاهر والمقتدر والقريب أي: بقربي عن قلوب العارفين، وقرب أرواحهم وأسرارهم من مشاهدة بقائي وقدمي، ويقصد كل ذي قصد بنعت الإرادة والشوق إلى مشاهدي، وأيضاً أي: بقيامي على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وبقيامهم بقيوميتي إلى الأبد، وأيضاً أي: بالقلم القادر الذي رُقم القرآن على أوراق لوح الملكوت، وأيضاً أي: بحرقة قلوب العاشقين والشائقين والمستاقين إلى جمالي، والقرآن الذي يشوقهم إلى قربي، وأيضاً أي: بقسمي الاصطفائية لأنبيائي وأوليائي والمقربين في سوابق علوم قدمي، أنا أقرب إلى قلوب الفرّارين مني من عروق قلوبهم، أكشف بكشف جمالي قساوة قلوبهم، وأقربهم مني حتى يشتاقوا إليّ، وأيضاً بقربك مني يا محمد يا قرّة عيون الأنبياء والأولياء والمرسلين والعارفين والصديقين وما أنزلت إليك من القرآن المجيد قف عند قوام كبريائي، ولا تغص في قاموس «قلزم» قدمي؛ حتى لا تستغرق في قعر بحر بقائي، فينقطع منك قوافل الحدثان، ويبقوا عن محل القربان، بل قف في مقابلة قمر جمالي؛ لتشرب قهوات ودادي وعشقي في مشاهدة برقان جلالي، وتبقى ببقائي، وتلقى عجائب قرآني المجيد على قلوب القائمين في مقام الاستقامة، يا فهم إنما يتعلق بحرف القاف ما يكون فيه القاف من جميع كلمات الله، وما كان وما يكون في أفعاله، فهذا القاف القاسم عليه رمز جميعاً، فإذا قال سبحانه: ﴿قَ﴾: أعلم بذلك حبيبه ﷺ جميع معانيها من خبر الذات والصفات والأفعال، وهو عرف بالله ما قال الله فيه بأقل لمحة، فلإنها تنبئ عن جميعها، وهذا رمز بين المحب والحبيب، ألا ترى كيف أنشد العاشق لمعشوقه:

فقلتُ لها قفي قالت لي قاف فكنت عن الوقوف بعاشقها

والمعاني التي فيه بحرف القاف، وهو فهم بها عنها ما كان في خاطرها من الوقوف على مراد عاشقها، فإذا قال سبحانه: ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ فعلم عليه الصلاة والسلام سرّ ما بين الخافقين، وما يصل إليه في ليلة المعراج من الحق من الدنو فيما بين قاب قوسين من القرب وكشف النقاب، ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: بهذين القسمين عجب أقرباؤك أنك من بين البريات تكون حاملاً أمانات الذات والصفات، وأنت منذرهم، وأنت منهم بالظاهر، ﴿فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا مَثْنٍ ؕ عَجِيبٌ﴾ أي: شيء عجيب؛ إذ ظهر أنوار القدم مما خرج من العدم، ولو يعلموا أن الله سبحانه اصطفاه من بين البرية لحمل أمانة رسالته، وكشف جماله وقربته.

قال سهل: أقسم بقوته وقدرته.

وقال ابن عطاء: أقسم بقوة قلب حبيبه صلوات الله وسلامه عليه؛ حيث حمل الخطاب

والمشاهدة، ولم يؤثر ذلك فيه؛ لعلو حاله.

وقال سهل في قوله: ﴿وَالْقُرْآنَ الْكَافِرُ﴾: المشرف على سائر الكلام.

وقال الحسين: المطهر لمن اتبعه عن دنس الأكوان وهو اجس الأسرار.

﴿تَبَصَّرَ وَذَكَرَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَصَّرَ وَذَكَرَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾^(١): بين الله سبحانه أنه بجلاله وقدره أظهر نوره مشكاة السماوات والأرض، وبرز بنوره من نيرات السماوات ومن الجبال والبحار والأشجار وجميع المستحسنات لبصائر العارفين الراجعين إليه بنعت الشوق والمحبة، ويريه تلك الأنوار؛ ليزيد علمهم ومعرفتهم به، ويجدد عليهم أذكار نعم مشاهدته.

قال سهل: اعتباراً واستدلالاً على توحيدهم لربهم وشكرهم له وذكراً لمن كان له قلب حاضر مع الله، وعلمه يكتسب به علم الشرع، ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي: مخلص القلب بالتوبة إلى ربه وإدامة الذكر له برأجهاته.

وقال الحران: المنيب المجيب القريب.

قال بعضهم: التبصرة معرفة من الله عليه، والذكرى عدها على نفسه في كل حال وأوان؛ ليستغل بالشكر فيما عومل به عن النظر إلى شيء من معاملته.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١٠﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١١﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَتْنَا بِهِ بَلَدَةً مِثْلًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١٢﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٣﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٤﴾ وَأَصْحَابُ الْآيِكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٥﴾ أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

(١) راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له تعالى، إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله، فيعتبر، ويعلم أن من قدر على إنشاء هذه الأجرام العظام، قادر على إحياء الأموات وبعثها، وحسابها وعقابها.

الإشارة: يقول شيوخ التربية: بقدر ما يمزق الظاهر بالتخريب والإهمال؛ يحیی الباطن ويعمر بنور الله، وبقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن، فيقع الإنكار عليهم، ويقول الجهلة: هل ندلكم على رجل يُنبئكم إذا مُزقتم في الظاهر كل مُزق، يُجدد الإيمان والإحسان في بواطنكم، أفترى على الله كذباً أم به جنة؟ بل الذين لا يؤمنون بالنشأة الآخرة وهي حياة الروح بمعرفة الله في عذاب الحجاب والضلال، عن معرفة العيان بعيد، ما داموا على ذلك الاعتقاد، ثم يهددون بما يُهدد به منكرو البعث، والله تعالى أعلم. البحر المديد (١٢٦/٥).

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾: زاد تذكير نعمه على عباده بأن نَزَلَ من سماء قربه مياه المعرفة، ونور المشاهدة، وبيان المكاشفة على قلوب المقبلين إليه، وأثبت فيها نبات العقول والعلوم والحكم والمعارف قوة للمريدين وقوتًا لقلوب الطالبين، قال الله تعالى: ﴿رَزَقًا لِلْعِبَادِ﴾.

قال ابن عطاء: أنزلنا من السماء الفهم والعلم والمعرفة، فربينا بها قلوب أولى الألباب وأهل المعرفة والفهم، فهو الخطاب، واستعملوه، وأبسوا به، واتبعوه، فأثبت الله بذلك الماء في قلوبهم معرفته، وعلى لسانهم ذكره، وعلى جوارحهم خدمته: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (٢) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (٣) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (٤) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٥) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَاقٍ وَشَاهِدٌ (٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾: أراد الله سبحانه ظهور نفسه لعشاقه، فخلق آدم على ما كان في علمه، ثم أظهر منه ما غاب عن الوجود من نور غيبه، وبيّن أنه عالم بما يجري في سره وما توسوس به نفسه، وكيف يخفى عليه ما خلقه، وهو مبدئه بجوده، جلّت عظمته من أن تخفى عليه ذرة من العرش إلى الثرى، ألا ترى أوّل الخطاب كيف قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، ذكر الخلق ليعلم المخاطب أن ما توسوس به نفسه أيضًا هو مخلوقه، وتحقيق الإشارة ودقائق الرمز بيان فيه أن نفسه هو، فيظهر ما كان في مكنن مقاديره الغيبية، ولو يرى الإنسان نفسه، يرى هو أنه نفسه، ألا ترى كيف أخبر عن كمال قربه بنعت الاتحاد بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾؛ ولذلك قال سيد المرسلين ﷺ: لَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ (١)؛ إذ لا نفس إلا هو إن فهمت ما قلت وإلا فاعلم أن الفعل قائم بالصفة، والصفة قائمة بالذات، فمن حيث عين الجمع ما هو إلا هو، ولا تظن الحلول؛ فإنه بذاته وصفاته منزّة عن أن يكون له محل في الحوادث، هذا رمز العاشقين، ألا ترى إلى قول مجنون العشق الإلهي:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان خللنا بدنا

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٠٨).

فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا

قال أبو سعيد الخراز في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾: هم قوم صاروا مع الله بلا سبب ولا طلب ولا هرب؛ لأنه مدركهم، وهو معهم يعلم ما في ضمائرهم، ويشهد حركات ظاهرهم، ألم تسمع إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾.

وقال الواسطي في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي: نحن أولى به وأحق؛ إنا جمعناه بعد الافتراق، وأنشأناه بعد العدم، ونفخنا فيه الروح، فالأقرب إليه من هو أعلم به منه بنفسه.

وقال أيضاً: بي عرفت نفسك، وبي عرفت روحك، كل ذلك إظهار النعوت على قدر طاقة الخلق، فأما الحقيقة فلا يحتملها العبد سماعاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾: سائق نفس العارف شوقه إلى جمال الحق، وشاهد شوقه كشف مشاهدة شوقه بنعت الاطلاع على حرقه فؤاده، فشهد له أنه وليّ مقرب يجلسه على بساط أنسه أبد الأبدين.

قال الواسطي: سائقها الحق، وشهيدها الحق.

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(١)
 وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي^(٢) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ^(٣) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ
 مُعْتَدٍ مِّرْيَبٍ^(٤) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ^(٥) * قَالَ
 قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ^(٦) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّْ وَقَدْ قَدَّمْتُ
 إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ^(٧).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾: يا ليت لو علم الغافل هناك غاية أمره؛ إذ كان غافلاً عن مشاهدة الغيب، فصار له منكشفاً؛ فيرى ما يرى مشاهدة وعياناً، وثبت له حقيقة العيان بلا علة الاستدلال؛ ليفرح بوجودها حتى يطير من الفرح بكشفها ما يزيل عن قلبه هم العذاب وحزن العتاب، فإذا حصل المقصود فأنى العذاب خطر؛ إذ الاحتراق بالنار بعد اليقين والعيان سهل على من يسره الله عليه، ويين سبحانه أنه إذا رفع غواشي قهره عن أبصار الغافلين صارت أبصارهم نافذة في رؤية الغيوب، فيرون ما يفرح به قلوب العارفين في الدنيا من كشف عجائب الملكوت وأنوار الجبروت، فأين أنت من العذاب والعقاب عند كشف النقاب وسماع الخطاب ومن ليس بغافل عن كشف عيان العيان وبيان البيان، ومن يطلع على حقيقة الحقيقة هاهنا حتى أتى بساط الأعظم

ومجلس الأقرب، هناك ينكشف أنوار الألوهية وسناء القدوسية، فيكحل عيون الكل ضياء مشاهدته، فيذهب من البين الدليل والاستدلال والمخايل والمنحال والإيمان والإيقان، بل يبقى العيان والعرفان أبداً، وهذا كما قال السيد الضرغام الأمير الهمام علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه-: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»^(١).

قال الواسطي: من كشف عنه خطأ الغفلة أبصر الأشياء كلها في أسر القدم.

وقال أيضاً: أي: علمك نافذ في المقدورات، وحكمك ماضٍ على الخلائق.

﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي: لا يتغير قولي الذي سبق في الأزل بحسن العناية في اصطفاية أنبيائي وأوليائي إلى الأبد، ولا أسقطهم عن درجتهم التي اخترتها لهم في الأزل؛ إذ استحال مني كون الظلم، وأيضاً أي: لا تغير الأقوال عند اطلاعي بها، ولا يقدر أحدٌ على أن يخفى إصدار كلامه عني ما في ضميره، قال الله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، والكون ملكي أنصرف فيه كما أشاء، ولا يرجع إليّ ظلم ولا جهل؛ إذ هما من أوصاف الحدث، وأنا منزّة عن أوصاف الحدثان.

قال سهل: ما يتغير عندي حكمٌ قد سبق علمي فيه، فيكون بخلاف ما سبق العلم.

وقال ابن عطاء: ما يظهر في الوقت هو الذي قضينا في الأزل لا مبدل له.

وقال الأستاذ: لا تبديل لحكمي ولا تغيير لقضائي، وما أنا بظلام للعبيد، وتصرفي فيهم تحت ملكي، فلي كل ما أفعله، ولا مني ظلم؛ لأن الظلم ترك الأمر، وهو ليس بمأمور.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾^(٣) وَأَزَلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ

غَيْرَ بَعِيدٍ^(٤).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾: إن الله سبحانه وعد جهنم أن يملأها من الجن والإنس، فيملأها ثم يقول: هل امتلأت، وهي تستزيد؛ لأن ما يلقي فيها كحلقة تلقى في اليم، وإن جهنم تشتاق إلى الله كما تشتاق إليه الجنة، فإذا رأى الله سبحانه حالها من الشوق إليه يضع أثقال سطوات قهر القدم عليها بنعت تجلٍ، فتملاً من العظمة، وتصير عند عظمة الله كلا شيء في شيء، ويا رب طيب في قلوب الجهنميين في تلك الساعة من رؤية ظلال عظمتهم، ومن رؤية أنوار قدم القدم، لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ، فحينئذٍ

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٠٣).

يصير نيرانها وردًا ريجانًا من تأثير بركة ظهوره لها:

يكون أجاجًا دونكم فلماذا انتهى إليكم تلقي طيبكم فيطيب
وما ذاك إلا حين خبرت أنها تمر بوادٍ أنت منه قريب
تصدق ما ذكرنا قول النبي ﷺ: «حَتَّى وَضَعَ الْجَبَّارُ قَدَمَهُ عَلَى النَّارِ فَتَقُولُ قَطُّ قَطُّ»^(١).
﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي: فاز منه إليه حافظ أنفاسه حتى لا يتيقن إلا الله وفي الله.

قال سهل: هو الراجع قلبه من الوسوسة إلى السكون إلى الله، والحفيظ المحافظ على الطاعات والأوامر.

قال المحاسبي: الأواب الراجع بقلبه إلى ربه، والحافظ قلبه في رجوعه إليه أن يرجع منه إلى أحد سواه.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ آذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٦﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّخِصٍ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾: هذا وصف من وعده الله جنان مشاهدته ووصاله وقربه ووصفه بالخشية والإنابة، والخشية هي العلم بإحاطته بعلمه القديم بكل شيء، ورؤية جلاله الذي ورث في قلبه الخشية والإجلال، فإذا رآه بهذه الصفات العظام رجع من وجوده إلى وجود الحق.

قال الواسطي: الخشية أرق من الخوف؛ لأن المخاوف العامة لا تعين إلا عقوبة، والخشية هي نيران الله في الطبع فيها نظافة الباطن للعلماء، ومن رزق الخشية لم يعدم الإنابة، ومن رزق الإنابة لم يعدم التفويض والتسليم، ومن رزق التفويض والتسليم لم يعدم الصبر على المكاره، ومن رزق الصبر على المكاره لم يعدم الرضا.

وقال بعضهم: أوائل العلم الخشية، ثم الإجلال، ثم التعظيم، ثم الهيبة، ثم الفناء، ثم وصف الله ما لهم في قربه وجواره من المشاهدة والوصال بقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: لهم ما يشاءون مما وصل إلى قلوبهم من الأمان والعلم بوجودي، ولدينا مزيد مما

(١) رواه الخطيب البغدادي في التاريخ (٥/١٢٧).

لا يطلعون ولا يعرفون مني إلى الأبد، وهذا معنى قوله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذَنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١).

قال عبد العزيز المكي: لهم في الجنة ما يحقق أمانيتهم من النعيم، ثم نزيدهم من عندنا ما لا تبلغه الأمانى، وهو الرؤية، وذلك أجل وأعلا.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٢٨﴾ فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٢٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٣٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٣١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٣٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٣٤﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: أثبت الله سبحانه رؤية أنوار حكمته الأزلية وسناء الكبرياء والعظمة وظهور قهر الجبارية لمن له قلب، وله إلقاء السمع، وله شهود السر، والقلب عبارة عن نقطة دائرة الفطرة القدسية التي خلقها الله من نور فعله الخاص، وهو يتجلى لها من نور صفته ونور ذاته، وهناك لطيفة كبرى، وهي سر النقطة، حولها دائرة العقل، وراء الدائرة حواشي فعله، ألقي تحتها ستر الصفات، ثم تحت ذلك الستر ظهور الذات لها، فهو بذاته وصفاته حافظ فعله الخاص، أليس ستر الفعل العام على غاشيتها، وحولها عالم الملك والشهادة، وباطنها كشف الصمدية وجلال الأزلية، وبينها وبين الحق لم يبق حجاب امتناع قدمه عن إحاطتها، وذلك الكشف والعيان من بدو وجودها إلى أبد الأبد لا ينقطع؛ لذلك قال الشبلي: وقتي مسرمد، وتجري بلا شاطئ، سقط عنها أضداد التجلي؛ إذ لم يبق بين الحق وبينها جريان الحوادث، وتلك اللطيفة عيون وأسماع؛ إذ كل وجودها سمع وبصر، فجميع سمعها وبصرها مشغول بخطاب الله ورؤيته، فألقت سمعها لأصوات وصلة الأزلية، شهدت أبصارها بمشاهدة القديم، ثم نورث الهيكل بالحضور والخدمة، وطلب مزيد الصفاء والقراية، وجعلتها مركب سيرانها وطيرانها إلى عالم الملكوت، ورأت من روزنة البصر ما رأت بلا واسطة، وسمعت بسمع الظاهر ما سمعت بلا وسيلة، فإذا رأى صاحب هذا القلب شيئاً من عجائب صنعه صار خاضعاً لعظمته، خاشعاً

(١) رواه البخاري (١١٨٥ / ٣)، ومسلم (٢١٧٤ / ٤).

لهيته، مطيعاً لأمره، جعلنا الله وإياكم من أصحاب القلوب، وأقرّ عيوننا بأنوار الغيوب.

قال الحسين: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾: لا يخطر فيه إلا شهود الرب.

وقال ابن عطاء: قلب لاحظ الحق بعين التعظيم، فذاب له، وانقطع إليه عما سواه.

وقال الواسطي: ذكرى لقوم واحد، لا لسائر الناس، لمن كان له القلب أي: في الأزل، وهم الذين قال الله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾.

وقال القاسم: هم الأنبياء؛ فإن الله خلقهم للمشاهدة، يشهدون له بقلوبهم عند إقبالهم وإدبارهم بأنه المنشئ والمبدئ والمعيد.

قال الحسين: بصائر المبصرين، ومعارف العارفين، ونور العلماء الربانيين، وطرق السابقين الناجين والأزل والأبد، وما بينهما من الحدث غيره: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾.

وقال ابن عطاء: هو القلب الذي يلاحظ الحق، فيشاهده، ولا يغيب عنه خطرة ولا فترة، فيسمع به، بل يسمع منه، ويشهد به، بل يشهده، فإذا لاحظ القلب الحق بعين التخويف رعب وارتعد وهاب، وإذا طالعه بعين الجمال والجلال هدأ واستقر.

وقال: قلبٌ لاحظ الحق بعين التعظيم، فذاب، وانقطع إليه عما سواه، وإذا لاحظ القلب الحق بعين التعظيم لان وحسن.

وقال بندار بن الحسين: القلب مضغّة، وهو محل الأنوار، ومورد الزوائد من الجبار، وبها يصح الاعتبار، جعل الله القلب للجسد أميراً، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، ثم جعله لربه أسيراً، فقال: ﴿تَحُولُ بِرَبِّكَ الْمَرْءَ وَقَلْبِهِ﴾.

وقال جعفر: إذا همّ القلب عوقب على المكاره، ولا يعرفه إلا العلماء بالله.

وقال الصبيحي: خاطب أصحاب القلوب؛ لأن القلوب في قبضة الحق يقبلها كيف يشاء، وسّعها، وصفّاها من البين، ونقّاها، وشرحها، وفسحها، ثم حشاها بمودته وإيمانه ويقينه؛ ولذلك خاطب القلوب بخصائص ما أودع فيها.

وقال بعضهم: للقلوب مراتب، فقلوب في قبضة الحق مأسورة ويكشفه مسرورة، وقلوب المحبين إليه والهة، فقلوب طائفة بالشوق إليه، وقلوب هاجت بالشغف هياماً، أو قلوب اعتقدت فيه الآمال، وقلوب إلى ربها ناظرة، وقلوب تبكي من الفراق وشدة الاشتياق، وقلوب ضاقت في دار الفناء وسمت إلى دار البقاء، وقلوب خاطبها في سرها، فزال عنها مرارة الأوجاع، وقلوب سارت إليه بهمتها، وقلوب صعدت إليه بعزائم صدقها، وقلوب تقدمت بخدمته في الخلوات، وقلوب مرّت في الهدايات، وابتغت من الله العناية،

وقلوب شربت بكأس الوداد، فاستوحشت من جميع العباد، وقلوب ساقطت في الطريق إليه، وقلوب انقطعت بالكلية إليه، فهذه مراتب القلوب في السلوك والقصد فهو متبع قصده.

﴿غَنُّ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾: أمر الله نبيه ﷺ أن يذكر الخاشعين من عظمته والخائفين من رؤية كبريائه بالقرآن؛ لأنهم أهله وأهل القرآن أهل الله وخاصته، يعرفون حقائق الخطاب، وهم يدركون موعظة الله، ويفزعون بها من الله، ويتابعون مواضع الخطاب بنعت العبودية، وهم بالقرآن يرتقون إلى سعادته، فيرون الحق بالحق بلا حجاب، ويصعدون به إلى الأبد.

قال أحمد بن حمدان: ألا يتعظ بمواعظ القرآن إلا الخائفون على إيمانهم وإسلامهم، وعلى كل نفس من أنفاسهم أنهم في محل البعد والهلاك، قال الله: ﴿فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

قال الأستاذ: إنما يؤثر التخويف والإنذار في الخائفين، فأما من لا يخاف فلا ينفع فيه التخويف، وطير السماء على وكارها تقع^(١).

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا ۝١ فَالْحَمِيْلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ۝٥ وَإِنَّ الْدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ ۝٩ قَتَلَ الْحَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا﴾: أقسم الله سبحانه بعواصف تجلي عظمته وكواشف أنوار كبريائه التي تفرق أسرار العارفين في هواء القدم، والبقاء حتى لا يبقى من وجودها من صولة ظهور القيومية في سماء الهوية أثر؛ لغلبة القدم على الحدث وبشمال جماله الذي يأتي بنسيم الوصلة إلى

(١) انظر: تفسير القشيري (٧/ ٣٠٤)، والبحر المديد (٧/ ٥٣).

قلوب المحبين، وينشق طيب نسائم الدنو أرواح الشائقين ومحمل أنين العاشقين إلى بساتين الملكوت، ويطيبها بطيب الجبروت:

وإني لأستهدي الرياح نسيمكم إذا أقبلت من أرضكم بهبوب

وأسألهما حمل السلام إليكم فإن هي يوماً بلغت فأجيب

وأقسم بسحاب ظلال عنايته القديمة التي تحمل ويل المعرفة من بحر الصفات، فتمطر على أرض قلوب العارفين، فينبت به أزهار المحبة وورد الألفة وياسمين المودة ونور الحكمة ورياحين العلوم اللدنية، فيا لها من برد تلك الظلال، ويا لها من تسنيم ذلك الشمان، يا لها من حسن ذلك الجمال، وأيضاً: ﴿وَالذَّارِيَتِ ذَرَوَا﴾: أقسم بريح أنفاس المشتاقين إلى جماله التي تصعد إلى الملكوت، وتنشر طيب نفحات العشق في بساتين الجبروت، فيطيب بنسيمها أهل الملأ الأعلى وصفائح الأدنى.

﴿فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا﴾: سحاب أرواح العارفين التي تحمل أوقار مياه علوم الغيب من بحار الصفات، فتمطر على صحارى الصدور، فتنبت فيها أشجار الحقائق وأنوار الدقائق.

﴿فَالْجَنَرِيَتِ يُسْرًا﴾: للسنن أسرار الريانيين التي تجري في بحار الذات القديم، يسوقها شمال العناية، ويجرسها من الفناء شرف الكفاية.

﴿فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا﴾: عقول المتمكنين في مقام الصدق والاستقامة التي تقسم أمور الإلهام في مواضع العبودية لنظام الطريقة والشرعية، أقسم الله بهذه العجائب بما فيها من لطائف الغرائب والدلالة على صفاته وذاته ومحبة أوليائه وقمع أعدائه إن مواعيد وصاله وكشف جماله لصادقة، وإن ساعات القربات والمدانة لواقعة، فهناك أيام المواصله، وهناك أزمان المكاشفة والمشاهدة إلى الأبد.

قال الأستاذ في قوله: ﴿وَالذَّارِيَتِ ذَرَوَا﴾: إن من حملة الرياح الصباحية تحمل أنين المشتاقين إلى ساعات العزة، ثم تأتي بنسيم القرية إلى مشام أهل المحبة، فيجدون راحة غنيات اللوعة، وفي السحاب ما يمطر بعتاب الغيبة، ويؤذن بهواجم النوى والفرقة، فإذا عنّ لهم شيء من ذلك أبصروا ذلك بنور بصائرهم، فيأخذون في الابتغال والتضرع في السؤال استعادة منهم، كما قالوا:

أقول وقد رأيتُ لها سحاباً من الهجران مقبلة إلينا

وقد سحّت عزالها بهطل حوالياً الصُّدود ولا علينا

وقال في قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾: وعد الله المطيعين بالجنة، والتائبين بالرحمة،

والأولياء بالقربة، والعارفين بالوصلة، ثم أقسم بسماء قلوب الموحدين التي شمسها العرفان، وقمرها الإيقان، ونجمها الإيمان، وصفاءها البيان، وسجابها البرهان، ومطرها الغفران، ورياحها القربان، وحبكها لمعان العيان بقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ﴾ .
قال الأستاذ: الإشارة إلى سماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان وقمر المحبة ونجوم القربة.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (١٠) ءَاخِذِينَ مَاءً أَتَنَّهُمْ رَنُومًا إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١١﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَيَا لَأَسْتَحَارِ هُمُ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٣﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٤﴾ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: الذين يتحرزون بهمومهم الصافية عن غبار الخليقة، يتقلبون في جنات القربة، ويعيشون بنسيم الوصلة، ويشربون من عيون المعرفة شراب المحبة ﴿ءَاخِذِينَ مَاءً أَتَنَّهُمْ رَنُومًا﴾ أي: من لطائف المقامات وغرائب الدرجات، في الدنيا لهم الكرامات، وفي الآخرة لهم المداناة، ثم ذكر سبب وصولهم إليها، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: باذلين وجودهم لله شوقاً إلى الله، ثم زاد في وصفهم بأنهم باتوا في ظلم الليالي؛ لتفقد الواردات وطلب المكاشفات بقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، يتهددون في أجواف الليالي بطيب مناجاتهم وحلاوة مراقباتهم ولذة انبساطهم وعربدتهم على بساط الاحتشام؛ حيث يسمعون لطائف الإلهام والخطاب والكلام، فيا لها من عبراتهم، ويا لها من زفراتهم ويا لها من شهقاتهم: ويا لها من لذة تلفظهم بالشطحيات، وغرائب الكلمات الإلهيات، وهذا من كمال عشقهم وغلبات محبتهم وشوقهم، لا يقدر أن يناموا في مضاجعهم؛ من لذة الأنس بالله ووجدان قرة عيونهم من نور مشاهدته، حيث قال في وصفهم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، أين أنت يا صاحبي من سقوطهم وتمرغهم في التراب؟! لو رأيت عيونهم الباكية لترى فيها دمار أكبادهم، الله يعلم أسرارهم؛ حيث هيَّجهم بشوقه وعشقه إلى قربه حتى لم يناموا على فرشهم مثل البطالين والغافلين، وأنشد:

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل هزتنني إليك المضاجع

أقضى نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهـم بالليل جامع

ثم وصفهم الله بأنهم مستغفرون بالأسحار، وذلك أنهم إذا رجعوا من مقام المشاهدة إلى مقام المراقبة يستغفرون الله من الزلات والخطرات قبل المداناة وبعد المكاشفات من

المعارضات بقوله: ﴿وَيَا لَأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم زاد في وصفهم أنهم بذلوا ما لهم في سبيل الله لمن سأل منهم ولمن لم يسأل بقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْخَرُومِ﴾.
قال سهل: المتقي في الدنيا في جنات الرضا يتقلب، وفي عيون الأنس يسبح.

وقال في قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: لا يغفلون عن الذكر في حال.
وقال بعضهم: ذاقوا حلاوة الأنس في الذكر، فتهجدوا، وهجروا النوم، وقاموا آناء الليل والنهار طالبين مرضاته، متطلعين إلى ما يرد عليهم من زوائد مناجاته وفوائده.

وقال الأستاذ: الليل إما للأحباب في أنس المناجاة، وإما للعصاة في طلب النجاة، والسهر لهم في لياليهم دائم، إما لفرط أسفٍ ولشدة لهف، وإما للاشتياق والفراق، كما قالوا:

كم ليلة فيك لا صباح لها أفنيتها قابضاً على كبدي

وقد غضت العين بالدموع وقد وضعت خدي على بنان يدي

وأما لكمال أنس وطيب روح، كما قالوا:

شقي الله عيشاً قصيراً مضى زمان الصبى في الهوى والمحون

لياليه يحكي انسداد اللحاظ للعين عند ارتداد الجفون

وقال بعضهم: السائل المفتضح، والمحروم المتعرض.

وقال الأستاذ: السائل المتكفف، والمحروم المتعفف.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾: إن آيات الأرض ظهور تجلي ذاته وصفاته في مرآة الأكوان، كما ظهر من الطور لموسى، وما ظهر من المصيصة لعيسى، وما ظهر لمحمد ﷺ من جبال مكة، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «جاء الله من سيناء واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»^(١)، وأيضاً يظهر لكل موقن ذلك النور والبركة، وهذا المقام مقام اليقين، وإذا ظهر بذاته وصفاته للسر والروح والقلب والعقل يكون مقام الانصاف والاتحاد، وهذا للعاشقين، وهو مقام عين الجمع، الأول مقام الجمع، ومن شدة ظهور النفس الناطقة استفهم الحق غرباء المعرفة، ودلهم على عيان المشاهدة، ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: آيات الموقن هو الموقن، وآيات العارف هو العارف سبحانه هو المقدس من مباشرة الحدثان، والمخالطة بالإنسان.

قال سهل: بالعارفين بالله يستدلون على معروفهم.
 وقال في قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أي: أفلا ينظرون فيها إلى آثار الربوبية.
 وقال الواسطي: تعرّف إلى قوم بصفاته وأفعاله، وهو قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وتعرّف إلى الخواص بذاته، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾.
 وقال بعضهم: فمن لا يبصرها ولا يعرفها أضاع حظها منها.
 وقال الحسين: إذا عرج على نفسه بان نفسه لنفسه، ومن لم يعرج على جلته كان محتشماً
 لم يبين خلقه لخلق، فكان كما لم يزل خوطب بلسان الأزل وجميع نعوته عدم، بقوله: ﴿بَلَى﴾،
 فكان المخاطب لهم والمجيب عنهم ولا هم.
 وقال أبو الحسين بن هند: العبد يعرف نفسه على قدر حضوره واستعماله للعلم، وعلى
 قدر رجوعه إلى الله يعرف نعمه وفضله وكلاءته؛ إذ ذاك ينجو من الاستدراج.
 ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا
 أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٦٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: في سماء صفاتي رزق أرواحكم
 من مشاهدة النور، وغذاء العلم الرباني، وما توعدون من مشاهدة الذات وكشف عيانه، وفي
 الآية دليل التوكل على الله، وحث على طلب الحوائج منه، وأحاطهم إلى رؤية الوسائط، ولو
 كانوا على محل التحقيق لما أحاطهم إلى السماء ولا إلى الأرض.
 قال إبراهيم بن شيان: وفي السماء بقاؤكم وما توعدون من الفناء.
 وقال القاسم: ما توعدون من الفناء والبقاء والهداية والضلالة والهلاك والعقوبة^(١).
 ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ﴿٦٩﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا
 قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٧٠﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أي: المكرمين في الأزل
 باصطفائيتهم وقربتهم من الله سبحانه، وأنهم ملبسون لباس نور الحضرة، وأنهم سفرة الله،
 أكرمهم بأنه جعلهم سفراء بينه وبين الأنبياء والمرسلين، فبكرامة الخليل والحبيب عليهما

(١) قال التستري: أي تفرغوا لعبادتي ولا يشغلكم طلب الرزق عنا ، فإننا نرزقكم ، ثم قال: إن الله رضي
 عنكم بعبادة يوم فارضوا عنه برزق يوم بيوم. قال: وفيها وجه آخر: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي من
 الذكر وثوابه. تفسير التستري (٦٧/٢).

الصلاة والسلام أكرمهم الله، ولما رآهم الخليل على هيئة الملكوت استبشر برؤيتهم فيها استنشق منهم رائحة القربة، أكرمهم بكرامة الله إياهم، فصاروا مكرمين من جهة الحبيب واخليل عليهما الصلاة والسلام.

قال ابن عطاء: ضيف الكرام لا يكون إلا كريماً، فلما نزلوا بإبراهيم الخليل وكان سيد الكرام سَمَّاهم الله مكرمين.

قال جعفر: مكرمين حيث أنزلهم أكرم الخليقة وأظهرهم فتوة وأشرفهم نفساً، وأعلامهم همة الخليل صلوات الله وسلامه عليه.

وقال يعقوب السوسي: ما تكلف لهم، ولا اعتذر إليهم، وهذا من أخلاق الكرام.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۖ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۚ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَنَشَرُوهُ بِغُلْمٍ عَلَيْهِ ۖ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۚ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۚ قَالِ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۚ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۖ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ ۚ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۚ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُتَسَامِينِ ۚ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَتَخَفُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۚ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۚ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَجِرٌ أَوْ يَمْجُونٌ ۚ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۚ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۚ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ۚ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُم تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۚ فَفَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْغَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۚ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِّن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ۚ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾: كمال فتوة الخليل في إكرام أضيافه التعجيل بإحضار ما حضر عنده، وتخيره بأن جاء بأسمن ما عنده، فإن من الفتوة وإكرام الضيف أن يختار من أحسن ما عنده لضيفه، كان إكرام الضيف سجية الخليل، ثم لما كان الأضياف رسل حبيبه زاد في إكرامهم، بأن خدمهم بنفسه، وقام على رؤوسهم، وأكل معهم، وهذا دأب العاشقين إكرام رسول الحبيب.

قال أبو العباس الدينوري: تعجيل القرى من المروءة، ألا ترى كيف حكى الله عن

إبراهيم بقوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (١٧) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (١٨) ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٩) ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٠) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢١) ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ (٢٢) ﴿أَتَوَصَّوُا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٢٣) ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ﴾ (٢٤) ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (١٧) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾: وصف الله نفسه بالقدرة القائمة بذاته والقوة الأزلية في ذاته، بأن ركب السماء، ووسعها، وأبسها أنوار القدرة والقوة، وجعلها مرآة لصفاته لنظر نظار الحقيقة وإبصار طلاب المشاهدات في الآيات، وبسط الأرضين لأقدام أوليائه، وجعلها مساجد أصفياه، وأنبت فيها صنوف الأشجار وفنون الأزهار، وأثنى على نفسه في إمهاده الأرض بقوله: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾: ذكر ثناء نفسه في ذكر الأرض لخاصيتها بأنها مواضع أقدام الصديقين، وبأنها أصل طينة آدم وذريته، وبيّن وحدانيته في قوله: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، وقع الكل في القلة والكثرة، وتفرد الوجدانية بالوحدة؛ ليعرف في رؤيتها العارف وحدانيته، ويعتبر بها وجد في الكون أن مآل الكل للفناء، والحق لم يزل ولا يزال باقياً.

قال الخراز: أظهر معنى الربوبية والوجدانية بأن خلق الأرواح؛ لتخلص له الفردانية، فلما تبين أن أشكال الأشياء مواضع علة الفناء دعا العباد إلى نفسه؛ لأنه الباقي وغيره فإن بقوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾، ففروا من وجودكم ومن الأشياء كلها إلى الله بنعت الشوق والمحبة والتجريد عما سواه، وأيضاً فروا إليه منه حتى تفنوا فيه؛ فإن الحادث لا يثبت عند رؤية القديم: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ عنه وعن قهر قدمه وفراقه ﴿مُبِينٌ﴾؛ حيث تعرفون أني صادق فيما ظهر مني من سلطان هيبتي وبرهان قدرتي.

قال سهل: ففروا مما سوي الله إلى الله، وفروا من المعصية إلى الطاعة، ومن الجهل إلى العلم، ومن عذابه إلى رحمته، ومن سخطه إلى رضوانه.

وقال محمد بن حامد: حقيقة الفرار إلى الله ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «وَأَجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ»^(١).

(١) رواه البخاري (٩٧/١)، ومسلم (٢٠٨١/٤).

وما روى عنه في خبر عائشة - رضي الله عنها -: «أعوذ بك منك»^(١)، فهذا غاية الفرار منه إليه.

قال الواسطي: «فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ ط معناه لما سبق لهم من الله لا إلى علمهم، وحركاتهم وأنفسهم كما قال النبي ﷺ: «أعوذ بك منك»^(٢).

سئل بعضهم عن قول النبي ﷺ وسلم: «سافروا تصحُّوا؟» قال: إلينا تجدوننا في أول قدم، ثم قرأ: «فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ»^(٣).

قوله تعالى: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ»: فتول عنهم بترك إلينا، فما أنت بملوم في إيلاغ رسالتك وإشغافك بالظاهر بهم وبإعلامهم بأسباب نجاتهم، فأنت مستقيم، لا يحجبك إيلاغ الرسالة عن شهود العين.

قال الواسطي: ردهم إلى ما سبق عليهم في الأزل من السعادة والشقاوة، وأسقط الملامة عن نبيه ﷺ لما نصح وجهه وعانى بقوله: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ»، فلما أمر أن يتولى عن الأعداء أمر أن يقبل على طلاب مشاهدته من العارفين، ويجدد بقوله سوابق ما أنعم الله عليهم من التوحيد والمعرفة بقوله: «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» أي: ذكرهم جمالي وجلالي وحسن اصطناعي وقربي منهم، وما خصصتهم من سني الدرجات ورفع المقامات؛ فإن ذكرك ينفع لبيب فؤادهم ولوعة قلوبهم وأشواق أرواحهم.

قال جعفر الصادق: يعني يا محمد ذكر عبادي جنودي وكرمي وآلتي ونعمائي وما سبق لهم من رحمتي لأمتك خاصة، والذكرى التي تنفع المؤمنين ذكر الله العباد وما سبق من العناية القديمة بالإيمان والمعرفة والتوفيق للطاعة والعصمة عن المعاصي.

قال الأستاذ: ذكر المطيعين جزيل ثوابي، وذكر العارفين ما صرفت عنهم من بلائي. «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٢٠﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٢١﴾».

قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»: في هذه الآية إشارة عجيبة، وهو أنه تعالى إذا أراد خلق الجن والإنس أبرز من عيون الربوبية عيناً، فأوجدتهم برؤية العين،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٨٠) بأوله فقط.

فلما عكس عليهم سناء التنزيه وياشر ذلك سناء وجودهم في إيجادهم تلتطفوا بلطفه، واستلذوا تلك المباشرة، وفرحوا بوجدانها، وسكروا بحلاوتها، فكادوا أن يدعوا الربوبية، وذلك سرُّ النفس التي سترها في النفس الأمّارة، وذلك ظهر الفراعنة، فادّعوا الربوبية؛ لغلبتها على هواهم، ومن لم يغلب عليه ذلك لم يدع، ولكن ذلك السر مخفي في نفسه، فلما علم الحق منهم ذلك حذّره من بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: أعلمهم أن ما هو عليهم كسوة الربوبية العارية لهم، فلما ارتفعت الكسوة بقوا في رقِّ عبودية الخالق الفرد المنزه عن مباشرة الخليقة، أي: لا تظنوا أنها لكم، فذلك لي حقيقة أزلية إلى أبد الأبد، كيف لا يكونون عابديه، وهم في قبضة عزته تكونوا وما يجري عليهم بغير اختيارهم، وهم بذلك مجبورون، فإذا صحت عبوديتهم؛ لأن حركاتهم وسكناتهم تقع على وفق مشيئته الأزلية، فذلك منهم عين العبودية؛ إذ لا إرادة لهم في حركاتهم وسكناتهم ودخولهم وخروجهم وأنفاسهم وخواطيرهم، فما يظهر منهم فهو محض إرادته القديمة، ما أراد منهم في الأزل فيكون منهم يظهر وهذا عين العبودية؛ إذ قامت بمشيئته الكائنات والحركات والسكنات لا بذواتها، فمن عرف نفسه بالعبودية فقد عرف ربه بالربوبية، ثم بعد ذلك لا يكون منهم نفس ولا حركة إلا ويكون ساقطاً في مشاهد ربوبيته، فبقي الحق هناك، ولم يبق العبد في البين، قال الله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: يا فهم إذا أمر لسان الأزل يكون لا شيء فتكون بأمره، وإذا ناداه من بطنان الأزل ودعاه من غيب العدم كيف لا يجيب المكون وهو تعالى سابق بعلمه في الأزل في وجود ذلك المكون، فإذا أجاب المكون المكون بكل مادة إما مستحسنًا في الظاهر وإما مستقبلاً فإن استقباحه واستحسانه يكون بالإضافة إلى الخلق، وإلا في عين المشيئة كلها مستحسن تكون محض العبودية لربوبية الحق، وإن خرج في لباس المخالفة من حيث الرسوم، ومن عرف ما ذكرنا من عين التوحيد قد سقط عن عينه جهد الجاهدين وتكلف السالكين، وتحير في قبضة الجبروت، واستغرق في بحار الملكوت، لا يكون منه نفس إلا ويخرج بشرط الرضا، ولا يتحرك إلا بوفق الوفاء، ولا ينظر إلا بحقيقة الصفاء.

قال جعفر: إلا ليعرفوني، ثم ليعبدوني على بساط المعرفة؛ ليتبرأوا من الرياء والسمعة.

وقال ابن عطاء: إلا ليعرفوني، ولا يعرف حقيقته من وصفه بما لا يليق به.

قال الواحدي: مذهب أهل المعاني في ذلك ألا يخضعوا لي ويتذلّلوا، ومعنى العبادة في اللغة الذل والانقياد، وكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله، مذلل بمشيئته، خلقه على ما أراد، ورزقه كما قضى، لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق عليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (١) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾: رزقه بالتفاوت، رزق بعضهم الإيمان، ورزق بعضهم الإيقان، ورزق بعضهم العرفان، ورزق بعضهم البيان، ورزق بعضهم العيان هذا لأهل الولاية، ورزق بعضهم من أهل الشقاوة الخذلان، ورزق بعضهم الحرمان، ورزق بعضهم الطغيان، ورزق بعضهم الكفران، فصدر الأول صدوراً من مكان أنوار لطفه، وهؤلاء المحرومون خرجوا من ظلمات قهره، وهو جلّ جلاله ذو القوة الأزلية، وهو متين قوي عزيز، ﴿وَتُعْزُ مِنْ قَشَاءٍ وَتَذِلُّ مِنْ قَشَاءٍ﴾ بعزّه وقوته. قال بعضهم: اعتبروا كيفية الأرزاق باللبيب الطالب وحرمانه والطفل العاجز وتواتر الأرزاق عليه؛ لتعلموا أن الرزق طالبٌ وليس بمطلوبٍ، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (١).

سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ﴾ (١) وَكِتَابٍ مُسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍ مُنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ (١٤) أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَيَكْهِنُونَ بِمَاءٍ أَتَتْهُمْ رِيحٌ رِيحٌ رِيحٌ رِيحٌ عَذَابِ الْجَحِيمِ (١٨) ﴿

﴿وَالطُّورِ﴾ (١) وَكِتَابٍ مُسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍ مُنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) أقسم الله

(١) هذه الآية وأمثالها هي التي غسلت الأمراض وانشكوك من قلوب الصديقين، حتى حصل لهم اليقين الكبير، فسكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، فهم في روح وريحان. والأحاديث في ضمان الرزق كثيرة، وأقوال السلف كذلك. البحر المديد (١٥٦/٦).

ههنا بذاته وصفاته وفعله، الطور ذاته القديم، والكتاب المسطور صفاته القديمة، والرق المنشور أفعاله اللطيفة، وأيضاً الطور قلب محمد ﷺ، والكتاب المسطور رموز ما أوحى، والرق المنشور أسرار المنقوشة بأنوار وحيه وإلهامه وغرائب علومه اللدنية، ظاهر قسمه على الطور الذي تجلى له الحق، فإذا كان ذلك محل قسمه بتجلٍ واحدٍ فما تقول في طور لا تنفك أنوار تجليه منه، وهو قلب محمد ﷺ، سماه طور العظمة واستقامته في موازاة سطوات عزته، وسمى قلب غيره من الأنبياء والأولياء بالبيت المعمور، الذي عمّره بنور القربة والمشاهدة والعلم والحكمة والمعرفة والوجد والحال والمكاشفة، ويمكن أنه تعالى أراد به صورة محمد ﷺ وصورة أبيه آدم، الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وجعله مرآة ظهوره، وجعل روحه ورق أسرار علومه التي ذكرها بقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: روح محمد ﷺ الذي رفعه الحق إليه، ومقام عنديته أرفع من كل رفيع من العرش إلى الثرى، وأيضاً يمكن أنه أراد به العرش.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: بحر سر محمد ﷺ؛ لأن ذلك البحر ملأته أنهار قاموس علومه القديمة، وأسرار كلماته الباقية، وأيضاً الطور طور سيناء الذي هو موضع التجلي والكلام. والكتاب المسطور ما كلّم الله به موسى، فصار منقوشاً في ورق قلبه، أقسم بالطور وبقلبه وبما فيه مما سمع من كلامه.

﴿وَكُتِبَ مُسْطُورٍ﴾: أيضاً ما كتبه بيده على ألواح موسى.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾: أيضاً قلبه كان معموراً بنور مشاهدته؛ ولذلك خاطب الله موسى بقوله: فرغ بيتاً لي أسكن، فلما سكن في بيت قلبه عمّره بنور قربه.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: كناية عن ذاته القديم الذي امتنع بعزته عن تناول الحدثان، ألا ترى كيفما بلغ أماني موسى، فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ بعد قوله: ﴿أَرِنِي﴾.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: صدر موسى الذي هو مملوء من نيران شوقه وحزنه، حين لم يدرك حقائق جلال الألوهية الذي استحال وجود الحدث عن إدراكه بوصف الإحاطة والحقيقة، وأيضاً عم في هذه الأقسام جميع العارفين والصديقين، الطور أرواحهم، والكتاب المسطور إلهامهم، والرق المنشور عقولهم، والبيت المعمور قلوبهم، والسقف المرفوع أسرارهم، والبحر المسجور صدورهم، أقسم بأرواحهم؛ لأنها مواضع تجليه، وأقسم بما خاطبهم من الوحي والإلهام، وأقسم بعقولهم؛ إذ هي ألواح علومه الغيبية، وأقسم بقلوبهم؛ إذ هي مساكن المعارف ومساقط أنوار الكواشف، وأقسم بأسرارهم؛ إذ هي تصعد إلى

مصاعد الملكوت ومعارج الجبروت، وأقسم بصدورهم؛ إذ هي مملوءة من سناء العرفان وضياء الإيمان وأنوار الإسلام، قال الله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

قال جعفر في قوله: ﴿وَالطُّورِ﴾: أي: وما يطراً على قلب أحبابي من الأنس بذكرى والالتذاذ بحبي، ﴿وَكُتِبَ مُسْطُورٍ﴾: وما كتب الحق على نفسه لهم من الاقتراب والقربة.

وقال سهل في قوله: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾: هو القلب، قلوب العارفين معمورة بمعرفته ومحبه والأنس به، ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: هو العمل المرضي الزكي الذي لا يُراد به جزاء من الله في الظاهر.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُرُرٍ مُصْطَفَوَةٍ وَزَوْجَنَّهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي: كلوا من موائد قربه، واشربوا من شراب وصله هنيئاً بلاكدورة العتاب ووحشة الحجاب.

قال سهل: جزاء الأعمال الأكل والشرب، ولا يساوي أعمال العباد أكثر من ذلك، وأما شراب الفضل فهو قوله: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾: شراباً على رؤية المشاهدة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ﴿١٨﴾ وَأَمَّا ذُنُوبُهُمْ فَبِكُفْرِهِمْ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: هذا إذا وقعت فطرة الذرية من العدم سليمة طاهرة لقبول معرفة الله، ولم تغيرها تأثير صحبة الأضداد، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ مولودٍ يُولَدُ عَلَى الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(١)، فإذا بقيت على نعت الأول ووصل إليها فيض مباشرة نور الحق ولم يتم عليها الأعمال والعمار يوصلها الله إلى درجة آبائهم وأمهاتهم الكبار من المؤمنين؛ إذ هناك يتم أرواحهم وعقولهم وقلوبهم ومعرفتهم وعلمهم بالله عند كشف مشاهدته وبروز أنوار جلاله ووصاله، وكذلك حال المريدين عند العارفين، يبلغون إلى درجات كبرائهم وشيوخهم، ما داموا آمنوا بأحوالهم، وقبلوا كلامهم، كما قال رويم قدس الله روحه: من آمن بكلامنا هذا من وراء سبعين حجاباً فهو من أهله.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾، ولا تعجب من ذلك؛ فإنه تعالى مبلغهم إلى أعلى الدرجات، فإذا كانوا معهم في منازل الوحشة يصلون إلى الدرجات العلية، فكيف لا يصلون إليها في مقام الوصلة!

﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيُمُ^(٢) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ^(٣) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ^(٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيُمُ﴾: وصفهم الله في شربهم كاسات شراب الوصلة بالمسارعة والشوق إلى مزيد القربة، ثم وصف شراهم أنه يورثهم التمكين والاستقامة في السكر، لا يثول حالهم إلى الشطح والعريضة، وما يتكلم به سكارى المعرفة في الدنيا عند الحق، ولا يشابه حال أهل الحضرة حال أهل الدنيا من جميع المعاني.

قال ابن عطاء: أي لغو يكون في مجلس محله جنة عدن، والساقى فيه الملائكة، وشربهم على ذكر الله ربحانهم، ﴿تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، وشكرهم على المشاهدة والقوم جلساء الله ﷻ.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ^(٥) فَمَنِ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقِنَا عَذَابَ السَّمُومِ^(٦) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ^(٧) فَذَكَرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ^(٨) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرْتِصُ بِهِ رَبِّبَ الْمَنُونِ^(٩) قُلْ تَرْتَضُوا فَلِي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرْتِصِينَ^(١٠) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَهْلُكُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ^(١١) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ^(١٢) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ^(١٣) أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ^(١٤) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ^(١٥) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ^(١٦) أَمْ هُمْ سُلَّمٌ نَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ^(١٧) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ^(١٨) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ^(١٩) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ^(٢٠) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ^(٢١) أَمْ هُمْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٢٢) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ^(٢٣) فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ^(٢٤) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ^(٢٥) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٢/ ٣٣١).

ذَلِكَ وَلَئِكَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٨﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾: هذا شكرٌ من القوم في رؤية الحق سبحانه أي: كنا مشفقين من الفراق في الدنيا والبعث في يوم التلاق، ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَّلْنَا بَدَلًا بَئِيسًا﴾ من ذلك العذاب المحرق، المعنى هذا في أوائل الرؤية، أما إذا استقاموا في الوصال نسوا ما كان فيهم من ذكر الإشفاق وغيره، والإشفاق وصف الأرواح والخوف صفة القلوب.

قال الجنيد: الإشفاق أرقُّ من الخوف، والخوف أصلب.
وقال بعضهم: الإشفاق للأولياء، والخوف لعامة المؤمنين.
وقال الواسطي: لاحظوا دعاءهم وشفقتهم، ولم يعلموا أن الوسائل قطعت المتوسلين عن حقيقته، وحجبت من إدراك من لا وسيلة إليه إلا به.
قال ابن طاهر: مَنْ عَلَيْنَا بِإِحْسَانِهِ إِلَيْنَا بِأَنْ جَعَلْنَا مِنْ أَهْلِ دَارِ كَرَامَتِهِ، وَوَقَانَا مِنْ دَارِ إِهَانَتِهِ.

قوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: بيّن الله سبحانه في هذه الآية مرتبتين: مرتبة التفرقة، ومرتبة الجمع، الخطاب الأول خطاب الغيبة، والخطاب الثاني خطاب المشاهدة، فإذا قال: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وقع الصبر؛ لجريان الحكم في أمر العبودية، وذكر قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ بالغيبة؛ لأنه في مقام تفرقة العبودية والرسالة يقتضي حاله حال المشقة؛ لذلك أمره بالصبر، فإذا ثقل عليه أحاله من الغيبة إلى المشاهدة بقوله: ﴿فَلِإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظك من الأعوجاج والتغير في جريان أحكامنا عليك حتى تصير مستقيماً بنا لنا فينا، انظر إلى ما قال سبحانه لحبيبه ﷺ في قوله: ﴿فَلِإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: نحن نراك بجميع عيون الصفات والذات بنعت المحبة والعشق، ننظر بها إليك؛ شوقاً إليك، وحراسة لك نحرسك بها؛ حتى لا يغيرك غيرها من الحداث عنا، ويدفع بها عنك طوارقات قهري؛ فإنك في مواضع عيون محبتنا، وأنت في أكناف لطفنا، أفهم يا صاحبي كيف قال الحق، ذكر الأعين وليس في الوجوه أشرف من العيون، انظر كيف شرفه؛ إذ قال: أنت بعيننا أي: أنت على أعيننا محروساً عن قهرنا، ورمز الرمز في قوله: ﴿فَلِإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ فإن الحبيب عليه الصلاة والسلام في مقام المشاهدة، وكاد يفنى في عظمته وجلاله، فحجبه بحكمه لحظة والصبر فيه حتى لا يفنى، والنبى ﷺ كان يريد أن يرى الحق عياناً في عيان ولا طاقة له، فألبس الله بعد ذلك عينه نوراً من

أعينه، فرأى الحق بجميع العيون، فامتَنَّ الله عليه، وتعرف إليه مواضع نعمه بقوله: ﴿فَلْيَنكِحْ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بأعيننا ترانا.

قال سهل: ما نظهره عليك من فعل وقدرة تتولى جملتك بالرعاية والكلاءة بالرضا والمحبة والحراسة من الأعداء.

وقال ابن عطاء: فإنك بأعيننا أي: مغمور في حفظنا، وغريق في فضلنا، ومستور بحفظنا، ومن اختصَّ بالله كان في حفظه، ومن كان في حفظه كان في مشاهدته، ومن كان في مشاهدته استقام معه ووصل إليه، ومن وصل إليه انقطع عما سواه، ومن انقطع عما سواه عاش معه عيش الربانيين.

وقال الحسين: اصبر؛ فإن صبرك بتوفيقنا وبشهود عيوننا؛ فلذلك حصلت العيون منك عيونًا؛ إذ أنت الناظر إلينا بنا، ولم تنظر إلينا بما لنا وعنا، فتكون بذلك محجوبًا عن واجبنا.

وقال جعفر: عند هذا الخطاب سهل عليه معالجة الصبر واحتمال مؤنه، وكذلك كل حال يرد على العبد في حال المشاهدة.

قال الحسين في قوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَلْيَنكِحْ بِأَعْيُنِنَا﴾: وقال للكليم: ﴿وَلْيُصْنَعْ عَلَيَّ عَيْنِي﴾، ليس من هو بالعين كمن هو على العين، وليس من أفنى بالشئ كمن فنى عن الشئ؛ لأن الفناء بالشئ لمعنى الجمع، والفناء عن الشئ لمعنى الاحتجاب.

وقال النوري: الصنع بالعين ليس كالصنع على العين، ومحمد ﷺ كان بالعين في كل وقت وحال ومكان، ولما صبر في جريان أحكام الربوبية واستقام في مقام الجمع بالحق في الحق، وبقي بالحق للحق في الحق، ولم يحتجب بالحق عن الحق أمره بتسبيحه وتقديسه وتحميده في جميع أنفاسه، بأنه نال هذا الفضل بالله لا بنفسه، وأنه لم يدركه حقائق الإدراك، فإنه منزلة عن إحاطة الحدثن به أي: نزهني حين تقوم إلى موازاة مشاهدة قدمي، ﴿وَمِنْ أَلِيلٍ﴾ حين أطبق عليك تراكم ظلال العظمة والكبرياء نزهه عما تجد من النسك به؛ فإن الأنس أيضًا حجاب؛ إذ هو لذة الروح، وسبَّحه عند رؤيتك الأكوان والحدثن وهي ساجدات له، فاسجد أنت لرؤيتي، ولا تنظر إلى تسبيحك وسجودك، ولا إلى تسبيح الكون، فإن النظر إلى التنزيه احتجاب من رؤية المنزلة، وعن إدراك قدسه بالحقيقة بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿١٥٠﴾ وَمِنْ أَلِيلٍ فَسَبِّحْهُ وَإِذَا بَرَأَ النُّجُومَ﴾.

قال سهل: صل المكتوبة بالإخلاص لربك حين تقوم إليها.

وقال بعضهم: نَزَّهَ ربك عن ظلمه إياك فيما نسب إليك أي: فيما أصابك من المحن، فلا يصيبك شيء من المحن دون قضائه ومشيتته، وقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقوم إلى طاعة ربك نَزَّهَهُ بمعرفتك باستغنائه عنك عن طاعتك.

وقال سهل في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَإِذْ بَرَ الْنُجُومِ﴾: لا تغفل صباحًا ولا مساءً عن ذكر من لا يغفل عن برك وحفظك في كل الأوقات.

سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾: أقسم الله بالنجم، وذلك النجم إلهام قلوب الملهمين حين يسقط من صحائف الغيوب إلى معادن القلوب، وأيضًا أي: بأنوار تجلي جماله وجلاله إذا وقع على أرواح العاشقين، وأيضًا بالخان بلابل علومه اللدنية التي تترنم بحقائق ما كنز الحق في كنوز القدم إذا جلست على أغصان ورد بساتين أسرار العارفين، فتكلموا، وأخبروا بها من مكنون غرائب علوم الصفات والذات، وأيضًا أي: بواردات الجذبية التي تبدو بأنوارها من الغيوب لفهوم المحبين، وتسقط على أسرار الواصلين، وتزعجها إلى مشاهدة رب العالمين حقائقها المواجيد والحالات والكشف والمشاهدات وأيضًا أي: بالأرواح العاشقة الشائقة إذا صعدت إلى ملكوت الغيب، وتسقط إلى بحر جبروت الرب، وتحمل مياه حياة القدم من بحر البقاء، وتأتي سكرى إلى معادن الأشباح، وتضوع نفحاتها في بساتين العقول ورياض القلوب، وأيضًا بما نبت في بساتين قلوب الأولياء من عجائب أصناف أزهار الحكم والمعارف والعلوم والفهوم، أي: بهذه المقسمات الشريفة والنيرات الواضحة ما ضلَّ حبيبي عني لمحة وما احتجب بشيء دوني لحظة، وما اعوجَّ عن طريق استقامته قط، وذلك قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، وأيضًا ما ضلَّ عني بي في ميادين عظمتي؛ حيث لا يدري الموحد أين هو، هو كان عالمًا بي بحيث سلك، وما غوى ما ستر بها وجد مني فيشغل به عني.

قال ابن عطاء: أقسم بنجوم المعرفة وضيائها وتجليها ونورها والاهتداء بها وسكون العارفين إلى أنوارها وسلوكهم بالاهتداء بها.

وقال جعفر: هو محل التجلي والاستتار من قلوب أهل المعرفة.

وقال جعفر بن محمد الصادق: النجم محمد ﷺ، إذا هوى انشرح منه الأنوار.

وقال أيضاً: قلب محمد ﷺ إذا هوى إذا انقطع عن جميع ما سوى الله ﷻ.

وقال أيضاً: ما ضلَّ عن قربه طرفة عين.

وقال ابن عطاء: ما ضلَّ عن الرؤية طرفة عين.

وقال سهل: ما ضلَّ عن حقيقة التوحيد قط، ولا اتبع الشيطان بحال.

وقال الشبلي: ما رجع عنا منذ وصل إلينا.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۖ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۖ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ﴾: كيف ينطق عن الهوى من ليس له علة الهوى، كأن مقدساً عن شوائب الخليقة، منوراً بأنوار الحقيقة، كان نطقه نطق الحق، وفعله فعل الحق، وقلبه ميدان تجلي الحق، كيف تجري عليه الخطرات الشيطانية والهواجس النفسانية، وكان محفوظاً بعين الكلاءة وحسن الرعاية، ما نطق فهو وحي الله وكلامه وإشارة الله وإلهامه، جعله الله مصباح وجوده في العالم، وأنوار جوده في آدم. قال الحسين: من عرف اللطائف عُلَّتْ أخطاره ووجَلَّتْ أقداره، وصار الشح عليه فتنة، قال لصفية: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، أخذته النعوت، فنبذته في شواهد شعاعها، فلا يهتم لآدم ومن دونه لقيامه عنده، ومن لبس الأولية بتيقنه وارتدى الآخرة بتوحيده ارتفع كل حادث عن صفاته وأحواله.

قال الواسطي: الوحي للأنبياء ضروب، والوحي للعامة من الأنبياء بالرسل من الملائكة، والثاني آداب نفوسهم من القوة والفهم، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، بأن الوحي إلهام ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ والثالث: ما كان منه في المنامات، وهو على شيء لهم ليس لغير الله فيه معنى.

قال الأستاذ: متى ينطق عن الهوى من هو في محل النجوى في الظاهر مزموم بزمم التقوى في السرائر في إيواء المولى، مصفى عن كدورات البشرية، مرقى إلى شهود الأحدية، مكاشفٌ لجلال الصمدية، مختلفٌ عنه بالكلية، لم يبق عليه منه إلا للحق بالحق بقية، فمن كان بهذا النعت متى ينطق عن الهوى.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾^(١).

(١) ﴿فتدلى﴾ أي: زاد في القرب، أو: استرسل من الأفق مع تعلُّق به. يقال: تدلت الشجرة، ودلى رجله من

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾: أخبر الله سبحانه عن دنو حبيبه منه، وذلك بعد أن ألبسه نعوت الصفات وأنوار الذات، وأخرجه من جميع العلل الحدثانية، فدنا الحق من الحق، دنا بالصفات من الصفات، فلما استلذَّ مشاهدة الصفات كاد أن يقف في سيره بلذة الصفات، فأدناه الحق من الذات بعد أن دنا من الصفات، واستغرق في بحر الذات، ولم يبق معه من علمه شيء، ولا من بصره شيء، ولا من سمعه شيء، ولا من إدراكه شيء، فألبسه الله أيضًا نورًا من سمعه وبصره، فرأى الحق بنور الحق، وسمع من الحق بسمع الحق، فظن أنه قد وصل بالكل إلى الكل، فأراه الحق قيمته.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أي: بيني وبينه قوس الحدوثية وقوس الأنفعالية، فبقي بين القوسين عن إدراك العين بالحقيقة بالعين والقلب، وأيضًا ظن أنه وصل؛ إذ لا فصل هناك ولا وصل ولا قرب ولا بعد، فإن ساحة الكبرياء منزَّهة عن هذه العلل، فبيّن له الحق أن بينه وبين الحق قوسين: قوس الأزل، وقوس الأبد، ومن يصل إلى من بعد منه من الأزل إلى الأبد أي: الحدث بعيدٌ مني بقدر الأزل والأبد؛ إذ لا قدر في الأزل والأبد، وكيف يصل إلى من تنزيهه أبعد بالأزل والأبد من ذاته وصفاته، فإذا كان كذلك استحال قرب الحدث من ذاته وصفاته من حيث المسافة، وأيضًا رمى الحق سهم الدنو من قوس الأزل، ورمى سهم التدلي من قوس الأبد من كناية الذات والصفات إلى قلب حبيبه ﷺ، فجرحه بسهم المحبة وسهم المعرفة، فكان في تلك الليلة مطروحًا في ميدان الأزل، مجروحًا في ميدان الأبد.

قال جعفر: انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى أن الله حجب جبريل من دنوه ودنو ربه منه.

وقال القاسم: وقعت المواصلة فأشرف، والإشراف هو المشاهدة، وقاب قوسين موضع الإشكال، إشكال ليتبين العارف ويهلك الجاحد.

وقال الواسطي: من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثمَّ مسافة، إنما التدلي أنه كلما قربه من نفسه بعده من المعرفة؛ إذ لا دنو للحق ولا بعد، فكلما دنا بنفسه من الحق تدلى بعدًا، فانقلب في الحقيقة خاسئًا وهو حسير؛ إذ لا سبيل إلى مطالعة الحقيقة.

وأما الإخبار عن الفضل أنه أخذه من إياه وأشهده إياه فكان في الحقيقة ذا نفسه

مشاهدًا ذاته، وفي الأخبار أن محمدًا ﷺ شهده.

وقال جعفر: أدناه منه حتى كان منه كقاب قوسين، والدنو من الله لا حدَّ له، والدنو من العبد بالحدود.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾: أبهم الله تعالى سرَّ ذلك الوحي الخفي على جميع فهوم الخلائق من العرش إلى الثرى، بقوله: ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾؛ لأنه لم يبين أي شيء أوحى إلى حبيبه ﷺ؛ لأن بين المحب والمحبوب سرًّا لا يطلع عليه غيرهما، وأظن أن لو بين كلمة من تلك الأسرار لجميع الأولين والآخرين لما تواتر جميعًا من ثقل ذلك الوارد الذي ورد من الحق على قلب عبده، احتمل ذلك المصطفى ﷺ بقوة ربّانية ملكوتية لاهوتية، ألبسها الله إياه، ولولا ذلك لم يحتمل ذرة منها؛ لأنها أنباء عجيبة وأسرار أزلية، لو ظهرت كلمة منها لتعطلت الأحكام، ولفنت الأرواح والأجسام، واندرست الرسوم، واضمحلت العقول والفهوم والعلوم، هكذا رسم العلوم المجهولة التي تنبئ عن عين العشق بين العاشق والمعشوق، وذلك في سره وغيب في غيب يسقط عند ذلك حكم العبودية؛ لأن ذلك محض الانبساط وظهور كشف الكلي وغلبات سيول الرحمة الأزلية الواسعة التي تجري من بحار القدس وأنهار الأنس وبها نشق الله من نفحات نرجسها ووردها مشام المستنشقين نسائم الوصال وشمائل الجمال، فيطيرون من الفرح لوجدانها، ويضحكون، ويبيكون، ويرقصون، ويصيحون من لذة ما وصل إليهم من عرفانها، ويسترون تلك الأسرار عن الأغيار، كما أنشد:

لعمري ما استودعتُ سرِّي وسرّه سوانا حذار أن تشيع السرائرُ
ولاحظته مقلّتي بلحظه فتشهد نجوانا العيون النواظرُ
ولكن جعلت الوهم بيني وبينه رسولاً نادى ما تغيب الضمائرُ

قال جعفر في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾: بلا واسطة فيما بينه وبينه سرٌّ إلى قلبه لا يعلم به أحدٌ سواه بلا واسطة إلا في العقبى حين يعطيه الشفاعة لأمة.

قال الواسطي: ألقى إلى عبده ما ألقى، ولم يظهر ما الذي أرحى؛ لأنه خصّه به وما كان مخصوصًا به كان مستورًا، وما بعثه به إلى الخلق كان ظاهرًا.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ١٠٠ ﴿أَفْتُمِرُونَ عَلَىٰ مَا بَرَأَ﴾ ١٠١ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ١٠٢ ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ١٠٣ ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ ١٠٤

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾: ذكر الله رؤية فؤاده عليه الصلاة والسلام

ولم يذكر العين؛ لأن رؤية العين سرٌّ بينه وبين حبيبه، ولم يذكر ذلك غيره عليها؛ لأن رؤية الفؤاد عامٌّ ورؤية البصر خاصٌّ، أراه جماله عياناً، فرآه ببصره الذي كان مكحولاً بنور ذاته وصفاته، وبقي في رؤيته بالعيان ما شاء الله كان، فصار جسمه بجميعه أبصاراً رحمانية، فرأى الحق جميعاً، فوصلت الرؤية إلى الفؤاد، فرأى فؤاده جمال الحق، ورأى ما رأى بعينه، ولم يكن بين ما رأى بعينه، وبين ما رأى بفؤاده فرقٌ، فأزال الحق الإبهام، وكشف العيان بقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ حتى لا يظن الظان أن ما رأى الفؤاد ليس كما رأى بصره أي: صدق قلبه فيما رآه من لقائه الذي رأى بصره بالظاهر؛ إذ كان باطن حبيبه ﷺ هناك ظاهراً، وظاهره باطناً رآه بجميع شعراته وذرات وجوده، وليس في رؤية الحق حجابٌ للعاشق الصادق، بأنه يغيب عن الرؤية شيءٌ من وجوده، فبالغ الحق سبحانه في كمال رؤية حبيبه ﷺ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «رَأَيْتُ رَبِّي بَعَيْنِي وَبِقَلْبِي»^(١)، رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه.

قال سهل: ما كذب الفؤاد ما رأى البصر.

وقال: هو في مشاهدة ربه كفها يبصره بقلبه.

قال ابن عطاء: ما اعتقد القلب خلاف ما رآه العين.

وقال: ليس كل من رأى مكن فؤاده من إدراكه؛ إذ العيان قد يظهر فيضرب السر عن حمل الوارد عليه.

والرسول ﷺ محمولٌ فيها من فؤاده وعقله وجسمه ونظره، وهذا يدل على صدق طويته وحمله فيما شوهده به، ثم أكد الله تحقيق رؤية نبيه ﷺ ووبخ منكريها بقوله: ﴿أَفْتُمَرُّونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ ٢٠ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ٢١، ما الرؤية الثانية أقل كشافاً من الرؤية الأولى، وما الرؤية الأولى بأكشف من الرؤية الثانية أين أنت؟ لو كنت أهلاً لقلت لك أنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه في لحافه بعد أن رجع من الحضرة أيضاً في تلك الساعة، وما غاب قلبه من تلك الرؤية لمحة، وما ذكر سبحانه بيان أن ما رأى في الأول في الإمكان، وما رأى عند سدره المنتهى كان واحداً لأن ظهوره هناك ظهور القدم والجلال، وليس ظهوره يتعلق بالمكان ولا بالزمان؛ إذ القدم منزلة عن المكان والجهات، كان العبد في مكان والرب فيما لا مكان، وهذا غاية كمال تنزيهه وعظيم لطفه؛ إذ يتجلى من نفسه لقلب عبده، وهو في لا مكان والعبد في مكان، والعقل هاهنا مضمحلٌ، والعلم متلاشٍ، والأفهام عاجزةٌ، والأوهام متحيرةٌ، والقلوب والهةٌ، والأرواح حائرةٌ، والأسرار فانيةٌ، وفي هذه الآية بيان كمال شرف حبيبه عليه

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه.

الصلاة والسلام؛ إذ رآه نزله أخرى عند سدره المنتهى، ظن عليه الصلاة والسلام أن ما رآه في الأول لا يكون في الكون لكمال علمه بتنزيه الحق، فلما رآه ثانيًا علم أنه لا يحجبه شيء من الحدثنان، وعادة الكبرياء إذا زارهم أحدٌ يأتون معه إلى باب الدار إذا كان كريماً، فهذا من الله سبحانه إظهار كمال حبه لحبيبه ﷺ، وحقيقة الإشارة أنه سبحانه أراد أن يعرف حبيبه مقام الالتباس، فلبس الأمر، وظهر المكر، وبان الحق من شجرة سدره المنتهى كما بان من شجرة العتاب لموسى؛ ليعرفه حبيبه عليه الصلاة والسلام بكمال المعرفة؛ إذ ليس بعارف من لم يعرف حبيبه في لباس مختلفة، وبيان ذلك.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (١٦) ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَى﴾ (١٧) ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (١٨) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّى﴾ (١٩) ﴿وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَى﴾ (٢٠) ﴿أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (٢١) ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (٢٢).

قوله سبحانه: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾: وأبهم ما غشيه؛ لأن العقول لا تدرك حقائق يغشاها، وكيف يغشاها والإقدام منزلة عن الحلول في الأماكن، كان ولا شجرة، وكانت الشجرة مرآة لظهوره سبحانه سبحانه، وألطف ظهوره: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ بعد عرفانهم به، ثم وصف حبيبه بأنه ما التفت إلى غيره من الجنان والملوكوت في رؤية جلاله بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَى﴾: ذكر هذه الآية إلى الرؤية الثانية؛ لأن في الرؤية الأولى لم يكن شيء دون الله؛ لذلك ما ذكر هناك غُصَّ البصر، وهذا من كمال تمكين الحبيب في محل الاستقامة وشوقه إلى مشاهدة ربه؛ إذ لم يمل إلى شيء دونه، وإن كان محل الشرف والفضل.

قال الواسطي في قوله: ﴿أَفْتُمِرُّونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى﴾: أفتشكون في دنو مقامه منا وقربه، ولا يشك في دنوه إلا من هو محجوبٌ عن علو محله ومرتبته.

وقال بعضهم: ما يرى منا بنا، وما يرى منا بنا أفضل مما يراه منا به.

وقال الواسطي: إلى سدره المنتهى يبلغ كشف الهموم إلا لرجلٍ واحدٍ، وهو الذي دنا فتدلى، مر على سدره المنتهى، ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَى﴾.

وقال سهل في قوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَى﴾: لم يرجع محمد ﷺ إلى شاهد نفسه، ولا إلى مشاهدتها، وإنما كان مشاهدًا بكلية لربه تعالى، يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التي أوجبت الثبوت في ذلك المحل، ثم بين الله سبحانه أراه من آياته العظام ما لا يقوم برؤيتها أحدٌ سوى المصطفى ﷺ، وذلك بعد أن ألبسه قوة الجبرية الملكونية بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ

ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)، وذلك بروز أنوار الصفات في الآيات، وتلك الآيات لو رآها أحدٌ سواه لاستغرق في رؤيتها، وكان من كمال استغراقه في بحر الذات والصفات لم تكبر عليه رؤية الآيات والأفعال.

قال سهل: رأى من آيات ربه الكبرى، فلم يذهب بذلك عن مشهوده، لم يفارق مجاورة معبوده.

وقال ابن عطاء: رأى الآيات فلم تكبر في عينه؛ لكبر همته، وعلو محله، ولاتصاله بالكبير المتعال.

قال جعفر: مشاهد من علامات المحبة ما كبر عن الاختيار عنها^(١).

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾: يا عاقل احذر مما يغوي أهل العزة بالله من أشكال المخايل التي تبدو في غواشي أدمغتهم، وهم يحسبون أنها مكاشفات الغيوب ونوادر القلوب، ويدَّعون أنها عالم الملكوت وأنوار الجبروت، وما يتبعون إلا هوسات أنفسهم ومخايل شياطينهم التي تصور عندهم أشكالاً وتمثالاً، ويزينونها لهم أنها الحق، والحق منزلة عن الأشكال والتمثال، إياك يا صاحبي وصحبة السالوسيين الجاهلين بالحق، الذين يدَّعون في زماننا بمشاهدة الله مشاهدة حق لأولياء، وليس بمكشوفه للأعداء.

قال الجنيد: رأيت سبعين عارفاً قد هلكوا بالتوهم أي: توهموا أنهم عرفوه، وهو قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾.

وقال الشبلي: من تحقق في حقيقة الحق فهو نفس الحقيقة؛ لأن الله يقول: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾: افهم يا صاحبي أن إشارة حقيقة هذه الآية تؤول إلى الكل؛ إذ الكل معزولون عن إدراك حقيقة الحق، وما أدركوا فهو أقدارهم، وجل قدر الحق عن أقدارهم وإدراكهم.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾؛ ولذلك اجتراً الواسطي في حق

(١) قال سيدي عبد الله التستري: يعني ما يبدي من صفاته من آياته رآها، ولم يذهب بذلك عن مشهوده، ولم يفارق مجاورة معبوده، وما زاده إلا محبة وشوقاً وقوة، أعطاه الله قوة احتمال التجلي والأنوار العظيمة، وكان ذلك تفضيلاً له على غيره من الأنبياء؛ ألا ترى أن موسى صعد عند التجلي، ففي الضعف جابه النبي ﷺ في مشاهدته كفاحاً يبصر قلبه، فثبت لقوة حاله وعلو مقامه ودرجته. تفسير التستري (٨٦/٢).

سلطان العارفين أبي يزيد البسطامي - قدس الله روحه - بقوله: كلهم ماتوا على التوهم حتى أبي يزيد مات على التوهم.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿١﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢﴾ وَكَرَّمْنَا فِي السَّمَاءِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى ﴿٤﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أي: هل للمدعي ما يتمنى وهو غير عارف بنا، وهذا زيادة في بيان جهل المتبعين ظنونهم وتمنيهم، التمني: وصف من لا يصل إليه فمن وصل إليه لم يبق له التمني؛ فإنه تعالى فوق التمني، وفي حقيقة التوحيد أن قول الخليل والكليم والحبيب عليهم الصلاة والسلام: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّ الْمَوْتَى﴾، و﴿أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾، وأرنا الأشياء كما هي وقعت على صورة التمني؛ فإنهم ما شربوا من بحر الوحدة إلا على قدر مذاق العبودية، وكيف بلغوا إلى مناهم وأمانيتهم إدراك الحقيقة بالحقيقة، وساحة الكبرياء منزهة عن درك الداركن ولحوق اللاحقين ووصول الواصلين؟!

قال الحسين: الاختيار طلب الرؤية، والتمني الخروج من العبودية، وسبب عقوبة الله عباده ظفرهم بمنيتهم.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ﴿٢﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى ﴿٤﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٥﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى ﴿٦﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٧﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: فأعرض عن الجاهلين بنا، والمعرضين عنا والمشغولين بغيرنا؛ فإن علومهم الظنون الكاذبة والأوهام الزائفة.

قال بعضهم: ضييع وقته من اشتغل بموعظة طالب الدنيا والراغبين فيها؛ لأن أحدا لا يقبل على الدنيا إلا بعد الإعراض عن الله، قال الله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾^(١): وَفَّى بها امتحنه بكلماته التي قال الله سبحانه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وأول الكلمات الخروج مما سوى الله، ثم الخروج من نفسه لله، ثم الصبر في امتحان الله بالله، ثم إن شاهد الله بمراد الله حين أفرد عنه لباس الآيات بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾، بعد أن قال: ﴿هَذَا نَبِيٌّ﴾، وهناك أعظم الامتحان، ثم إنه ما وقف فيها وجد من الحق، ثم زاد طلبه في سيره في الحق.

قال الواسطي: خرج من نفسه فيما تحمل من محنة مشاهد المحن كلها نعمة في جنبه ومشاهدته.

قال ابن عطاء: وَفَّى أربعة أشياء: يبذل نفسه للنيران، وقلبه للرحمن، وولده للقربان، وماله للإخوان.

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخِرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: ليست الصورة الإنسانية إلا ما سعت من الأعمال الزكية عن الرياء والسمعة يؤول ثوابها إليها من درجات الجنان. أما ما يتعلق بفضل الله وجوده من مشاهدته وقربته فهو الروح الروحاني الذي في تلك الصورة، وأنها إذا استوفت بمقام درجات الجنان التي جزاء أعمالها تمتعت أيضًا بما يجد روحه من فضل الله من كشف مشاهدته ودوام وصاله، وأيضًا أي: ليس للإنسان إلا ما يليق بالإنسان من الأعمال.

وأما الفضل والمشاهدة والقربة لله يؤتيه من يشاء، فإذا وصل إلى مشاهدة الله وتمتع بها

(١) إشارة إلى أن في جبلة الإنسان معرفة لله مركوزة وذلك لأن الله تعالى ذرا ذريات بنى آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم بخطاب (ألسن بركم) فأسمعهم خطابه وعرفهم ربوبيته وفقهم لإجابته حتى قالوا بلى فصار ذلك الإقرار بذرة ثمرة إقرارهم بخالق الله تعالى في هذا العالم لكن الله تعالى لعزته لا يهتدي إلى سرادقات عزته إلا من أعزه الله تعالى بجذبات عنايته وهو العليم الذي يعلم حيث يجعل رسالاته. تفسير حقي (١٣/١٤٥).

فليس ذلك له، إنما ذلك لله وإن كان هو متمتعاً بها، وأيضاً: ليس كل عمل للإنسان؛ إنما بعضها لله مثل الصوم، كما قال ﷺ: «الصَوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ»^(١)، فذلك لله لا للإنسان، وثوابه فضل الله، وذلك رؤيته، وهي قائمة بذاته، وعند ذلك لا يبقى قدر سعايات أهل الكون، وتصديق ذلك قوله: «وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى» أي: سوف يعرف أن سعيه في جلال عزته، وما اختار له في الأزل من كشف جماله ليس بشيء؛ لأن الحادث لا وزن له عند القديم، ثم زاد فضله بأن يؤتیه فوق ما كان في سعيه بقوله: «ثُمَّ تُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى»، فلما خرج من هذه العلل وعن الأعمال والثواب والدرجات يتباهى الكل عند بروز أنوار وجوده وجلاله بقوله: «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ»، ثم وصف نفسه بأنه أضحك وأبكى بطلوع صبح جماله العاشقين، وأبكى بظهور شمس ذاته العارفين، يكون عليه منه بفقدان الكل؛ لأنهم يعرفونه بامتناعه عن إدراكهم وعن تقصيرهم أيضاً في طلب معرفتهم بربهم وقلة معرفتهم بوجود ربهم، وذلك عند كشف المعاينة، أضحك المستأنسين بنرجس مودته وياسمين قرينته وطيب شمال جماله، وأبكى المشتاقين بظهور عظمتهم وجلاله، وأمات العارفين بنعت الفناء في سطوات ديموميته وظهور صدمات أنوار ذاته، وأحى العاشقين بكشف صفاته، فالأولون فنوا فيه، والآخرون بقوا به، وأيضاً أمات المريدين بالحجاب، وأحى المحبين بكشف النقاب. قال ابن عطاء في قوله: «وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى»: ليس له من سعيه إلا ما نواه، إن كان سعيه لرضا الرحمن فإن الله يرزقه الرضوان، وإن كان سعيه للثواب والعطاء والأعواض فله ذلك.

وقال النصر آبادي: سعي الإنسان في طريق السلوك لا في طريق التحقيق، فإذا تحقق يسعى به ولا يسعى هو بنفسه، وأنشد:

الطرق شتى وطرق الحق منفردٌ والسالكون طريق الحق أفرادٌ

وقال الوراق: «وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» ذلك في بدايتهم، «وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى» في توسط أمورهم، «ثُمَّ تُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى»، وذلك في نهايتهم، «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ»، وذلك عند فناء العبد من إرادته وصفاته، «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى» النشء الثاني.

وقال الواسطي في قوله: «وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى»: أنه لم يكن مما يستجلب به شيء

(١) رواه البخاري (٢٧٢٣/٦)، ومسلم (٨٠٧/٢).

من الثواب.

وقال سهل: ﴿سَوْفَ يُرَى﴾ سعيه، فيعلم أنه لا يصلح للحق، ويعلم ما الذي يستحق بسعيه، وأنه لو لم يلحقه فضل ربه لهلك بسعيه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾: إذا وصل العبد إلى معرفة الربوبية تنحرف عنه كل فتنة، ولا تكون له مشيئة غير اختيار الله له.

قيل للحسين: وما التوحيد؟ قال: أن تعتقد أنه فعل الكل بقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ عند ذلك بطلت المعلولات، منه الابتداء، وإليه الانتهاء.

قال الله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾: ذهبت المعلولات، وبقت العلل لها.

وقال سهل: أضحك المطيع بالرضا، وأبكى العاصي بالسخط.

وقيل: أضحك قلوب العارفين بالحكمة، وأبكى عيونهم بالحزن والحرقة.

وقال ابن عطاء: أضحك قلوب أوليائه بأنوار معرفته، وأبكى قلوب أعدائه بظلمات سخطه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾: من كان منه مبدؤه كان إليه منتهاه.

ويقال: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾: أمات بعدله، وأحى بفضله.

وقال النصر آبادي: يميت باستتار، ويحيى بالتجلي.

وقال جعفر: أمات بالإعراض عنه، وأحى بالمعرفة.

وقال أيضًا: أمات النفوس بالمخالفة، وأحى القلوب بأنوار الموافقة.

وقال الأستاذ: أمات نفوس الزاهدين بالمجاهدة، وأحى قلوب العارفين بالمشاهدة.

ويقال: أمات بالهية، وأحى بالأنس.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۖ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ۚ﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا
الْأُولَىٰ ۚ وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ۚ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَعْلَىٰ ۚ
وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۚ فَغَشَّيْنَاهَا مَا غَشَّىٰ ۚ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۚ هَذَا نَذِيرٌ
مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَىٰ ۚ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ۚ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۚ أَفَمِنَ هَذَا
الْحَدِيثِ تَعَجَّبُونَ ۚ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۚ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ۚ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ
وَأَعْبُدُوا ۝ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾: أغنى العارفين به، وأقنى الموحدين فيه، وأيضاً أغنى العارفين برؤية البقاء، وأقنى الموحدين برؤية القدم؛ إذ زاد في كل لمحة الانتقال إلى وصول الحقيقة، ولا يدركونها؛ فتنزیه القدم يورث فقرهم أبداً.
وقال سفيان بن عيينة: أغنى وأقنى أقنع وأرضى.

قال الجنيد: أغنى قومًا به، وأفقر قومًا عنه.

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ﴾ أي: حان وقت كشف جمال الحق للمشتاقين المحبين والعارفين الموحدين، ودنا وصاله للواصلين والأولياء والمقربين، وفي معناه أنشدوا:
دنا وصال الحبيب واقتربا وأطربا للوصال وأطربا
هذه الآية بشارة للمقبلين إلى الله بوصف الشوق، ونذارة للمدبرين عنه^(١).
قال الواسطي في هذه الآية: هذه التي أوجبت الخرس عن الدعاء والثناء والالتماس، وأذهبت المطالعات والمشاهدات.

وقال ابن عطاء: قرب الأمر القريب.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجِدُوا اللَّهَ وَأَعْبُدُوا﴾ أي: إذا قرب أيام الوصال فاشتاقوا، وسارعوا في بذل الوجود ووضع الخدود على التراب، واعبدوا رب الأرباب لوجود كشف النقاب، والله أعلم بالصواب.

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾: علم الله سبحانه انتظار أرواح الأنبياء والمرسلين وملائكته المقربين والأولياء والعارفين من آدم عليه الصلاة والسلام وجميع أولاده الصالحين، كشف رؤية الحق، وقرب وصاله والدخول في جواره، فبشّرهم الله أنها مقرونة بقدوم محمد ﷺ، فلما خرج بالنبوة ورسالة الله شكّ فيها المشركون، فأراهم الله صدق وعده، وأنه من أعظم آياته بانشقاق القمر؛ حتى يعرفوا أنه يريد الله إلى العالمين، يخبرهم بإتيان

(١) في قوله: (أزفت الأزفة) أي: قربت ساعة الفتح حين توجهت وانقطعت عنك العلائق، ووجدت من يُدخلك بحر الحقائق، ليس لها من دون الله كاشفة، لا يكشف لك هذه الحقائق إلا الذي منّ عليك بصحبة من يدلّك عليه. البحر المديد (٦/١٨٦).

الساعة التي فيها كشف العجائب وظهور الغرائب من آيات الله وصفاته وذاته.

قال عبد العزيز المكي: الاقتراب يدل على معنى الأكثر، ويمضي الأكثر عن قريب.

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۖ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾: كل أمر خرج من إخبار الله عباده فذلك مستقر ثابت في مستقر مشيئته وإرادته الأزلية إلى وقوعه في مواضعه، لا يتغير عن مراد الله، ولا يغيره أحد دون الله.

قال القاسم: كل أمر من أموري أمضيته على خلقي استقر قراره لا يزول أبدا لا يقابضني أحد بخلاف، ولا يدافع أمري بجهد، وذلك استقرار أموري قرارها وثبوت قسمي لهم.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ الْتُذُرُ ۖ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَكِيرٍ ۖ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ۖ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ۖ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أي: الكاملة الجامعة لكل حكمة الحكماء وحقيقة علوم العلماء؛ لأنها حكمة أزلية، إذا انكشفت لعارف يراها على كمال النهايات في وضوح بينات الحقائق، فغرق من بحارها نوادر الحقائق، وغرائب الدقائق وهي لا تنتهي أبدا. قال أبو يزيد: كل آية تمر بالعارف له في ذلك حكمة، وأكبر آية له في الحكمة البالغة؛ لأنها ثابتة في حدود المعرفة بالغة منتهاها.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾: لو شاهد الله ما وعد الله في أوائل حاله من النصر والظفر بالحقيقة لسكن في ورود الامتحان عليه، هذا لوط عليه السلام إذ احتجب بالامتحان عن شهود مشاهدته الرحمن ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، وأي قوة أقوى من قوة الله، وأي ركن أشد من الله، لكن حكمته فرار نوح من الله إلى الله، وذلك معادن الأمن والانبساط والحقيقة والافتقار، والأول منزل التوحيد؛ إذ أفنى عن الدعاء صدق هو مغلوب الله، ومن صبر بالله هناك هو غالب على ما دون الله.

قال بعضهم: لولا ما أجرى الله على لسان الوسائط لتأديب العبد لضلوا ممن يتصر بي

منك أين الغالب وأين المغلوب، إذا كان الحق صرفاً ينطق ويسكت معناه أي مغلوب فانتصر الله غالبة وهازمه.

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۖ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسْرٍ ۖ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۖ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ﴾: كما أنزل الله الماء من سماء الظاء الظاهرة ونبع من الأرض الظاهرة فتح سماء الغيب على قلوب العارفين بمياه الكواشف والمعارف، وفتح عيون قلوبهم بمياه الحكمة والمحبة، فإذا وصل مياه المشاهدة إلى مياه المحبة استغرق فيها جنود النفس والهوى، ولا يبقى أثرها، فإذا أزداد الكشف والعيان وامتلاً بحر العيان يستشرف الأرواح على الفناء فيها، فبدخلها الله في سنن العصمة، ويجريها بشمال العناية، وذلك قوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسْرٍ﴾: ألواح العناية ودسر الكفاية، وتجري بعين الكلاءة في بحار الأزلية والأبدية بقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾^(١) أي: تجري بعيون عنايتنا على عيون بحر الذات والصفات، يحفظها بي عني، حتى تستمع بمشاهدي بي، ولا ينقطع عني بي، وهذا بيان محل الفناء والبقاء، وافهم أن الأنبياء والأولياء سفن عنايته يتخلص العباد لهم عن الاستغراق في بحار الضلالة وظلمات الشقاوة؛ لأنهم محفوظون بحسن عنايته، وزين كلاءته، ومن استنَّ بستهم نجا من الطغيان والنيران، ودخل في جوار الرحمن.

قال ابن عطاء: عيون الله في أرض إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وسلامه عليهم أجمعين، وهي تجري ضم وليس بينهما واسطة؛ إذ كانوا به، وكانوا له وعنه وفيه ومنه، وهم يشهدون فعل ذاته، وهو يجري بهم، تجري بأعيننا التنقل في الدرجات والمقامات والكرامات وفي المواجيد وفي الأسرار يلقون فيها تحية وسلاماً.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۖ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۖ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۖ تَنَزَّعُ النَّاسُ ظُفُرًا ۖ وَأَنجَأْنَا نُوحًا وَنَحْنُ مُنْقَرِعُونَ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۖ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۖ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۖ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ۖ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۖ﴾.

(١) أي: تجري السفينة وتسير بمرأى منا أي محفوظة بحفظنا ومنه قولهم للمودع عين الله عليك وقيل بأوليائنا يقال مات عين من عيون الله أي ولي من أوليائه. تفسير حقي (١٤/ ٣٩١).

﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرٌّ﴾ ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِيسْمَةِ بَيْنَهُمْ كُلِّ شَرْبٍ مُخْتَصِرٌ﴾ ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاجِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخْطِرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ ﴿نِعْمَةٌ مِنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾ ﴿كَذَّبُوا بِفَاتِنَتَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ﴿﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي: ذاكر به جلاله وجماله وقربه وصاله ودارك حقائقه، كأنه استبعد كيف يدرك الحدثان حقائق صفات الرحمن.

قال الواسطي: يَسَّرَ القرآن لمن ذكره وعلم روحه قبله.

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي: هل من ذاكر لما جرى منه إليه.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ﴿﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾: أعلم الحق سبحانه أهل معرفته به أنه كان عالماً بالعلم القديم، ومريداً بالإرادة الأزلية، قدر المقادير بعلمه لا بفعله وبيارادته لا بتخلقه، ولم يزل عالماً بذلك، مريداً لذلك، فسرُّ القدر نعته الأزلي ووصفه الأبدي، فأوجد الموجودات بما سبق القدر منه في الأزل، ولا يتغير أبداً عما قدر وقضى ولو خرج المقدر بلباس المحو والإثبات لا تبديل له من سبق تقدير الأول.

قال الله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، و﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، فمقتضى الخطاب الرضا والتفويض والتوكل والتسليم؛ حتى تنكشف أنوار السوابق له، فيصير مشاهداً لما سبق، مكاشفاً لما طرق.

قال القاسم: دخل في هذا المعنى نفوس الخلق وآثارهم وأعمالهم وخطرات قلوبهم وأنفاسهم في أوقاتهم وأخلاقهم المحموده والمذمومة وآجالهم ومعايشهم؛ إظهاراً لما سبق فهم من العلم وإيجاد القدرة أنه ضبط كل شيء بتقديره، لا انفكاك لأحد من ذلك تقديرًا من العزيز العليم، وقهر جميع الأشياء بإجراء إرادته عليهم وتيسيرهم على ما قدر عليهم ولهم.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ١٠٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ١٠١

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾: في هذه الآية بيان ثلاث مراتب: مرتبة سر علم القدر القديم الذي كان موصوفاً به، وذلك العلم، وسر القدر مشيئته؛ إذ عينها واحد، ومن بطنان أزال الآزال، سار سر القدر إلى المرتبة الثانية، وهي الأمر وحقيقة الأمر قبل ظهوره في الفعل، فبلغنا إلى المرتبة الثالثة، وهي الفعل، فلما وصل القدر والأمر إلى الفعل ظهرت المقدرات من العدم بها بأقل لمحة أي: سيران علم سر القدر من بطون أزل الأزل إلى عالم الأمر والفعل أقل من لمحة على تقديركم إذا استحال الزمان في مشيئة الرحمن لا يكون إلا الإرادة والعلم والأمر، وأنها خارجة من علل الزمان، هو ظهور القدم للعدم، فإذا ظهر القدم للعدم صار المقدر مكوناً كينونيته بالله، فخرج على نعت صورة العلم والتقدير، كأنه مع التقدير من حيث العلم لا من حيث الوجود، فأمره علمه إرادته، فإذا أراد ما علم من نفسه تجلى من الإرادة للعلم، ومن العلم للإرادة، ومن الإرادة والعلم للتقدير والحكمة، فصار ذلك عين التوحيد، فإذا تجلها بجمعها للأمر يكون الأمر عين الجمع، وعين الجمع محل الانتباس وأهل الرسوم، سمو ذلك الخلق والفعل، وتسمى ذلك الأول ظهور القدم للقدم، وهو عين العين، ويسمى الثاني ظهور الصفة في الفعل والأمر، وهو عين الجمع.

وقال الحسين: الأمر عين الجمع، والإرادة عين العلم، ثم بين أن أفعال العباد جرت على سابق تقدير لا ومشيئته مسطورة في ألواح علمه، وزبر تقديره وحذرهم بها حتى يرقبوا انفتاح مصادر أسرارهم، ويروا لطائف أنوارهم، ويعرفوه بآياته وصفاته، ويخافوا من قهره وجبروته.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ١٠٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ١٠٣

وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾.

قال يحيى بن معاذ: من علم أن أفعاله تعرض عليه في مشهد الصدق فإنه محاسب عليها لا اجتهد في إصلاح أفعاله وإخلاص أعماله، ولزم الاستغفار على ما سلف من إفراط.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ ١٠٤ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ١٠٥

قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ في مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿١٠﴾: وصف الله سبحانه منازل المتقين الذين أقبلوا على الله بنعت المعرفة والمحبة، وخرجوا مما دونه من البرية، وتلك المنازل عالم بالمشاهدة ومقامات العندية جناتها رفارف الإنسان، وأنهارها أنوار القدس، أجلسهم الله في بساط الزلفى المدانة التي لا يتغير صاحبها بعله القهر، ولا يزول عنها السر والحجاب؛ لذلك سماه مقعد صدق أي: محل كرامة دائمة وقرية قائمة ومواصلة سرمدية.

قال جعفر: مدح المكان بالصدق، فلا تقعد فيه إلا أهل الصدق، وهو المقعد الذي يصدق الله فيه مواعيد أوليائه بأن يبيح لهم النظر إلى وجهه الكريم.

وقال الواسطي: أهل الصفوة والمتحققون في أنوار المعارف الذين لا يحجبهم الجنة لا النعيم ولاثنى عنه أولئك ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، يا أخي هؤلاء غرباء الله في الدنيا والآخرة، أدخلهم الله في أغرب منازل، وهو مقام مجالسة الحق معهم؛ حيث لا يطلع عليهم إلا أهل الصدق في عشقه وأهل الشوق في طلبه وأهل المعرفة به، والله بذلك مقتدرٌ قادرٌ؛ لذلك قال عند ملكٍ مقتدر وأظن أنهم فقراء المعرفة الذين وصفهم رسول الله ﷺ حيث قال: «الفقراء جلساء الله»^(١).

سئل أبو يزيد عن الغريب؟ قال: الغريب من إذا طالبه الحق في الدنيا لم يجده، ولو طالبه مالك في النار لم يجده، ولو طلبه رضوان في الجنة لم يجده. فقيل: فأين يكون يا أبا زيد؟ فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ في مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿١٠﴾.

سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ ۝ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝﴾.

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾: بَيَّنَّ هَاهُنَا فَضْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث عَلَّمَ آدَمَ أَسْمَاءَهُ، وَعَلَّمَ مُحَمَّدًا ﷺ صِفَاتَهُ، إِذِ الصِّفَاتُ لَا تَخْلُو مِنَ الْأَسْمَاءِ، وَالْأَسْمَاءُ تَنْبِئُ عَنِ الصِّفَاتِ وَالذَّاتِ، وَفِيهِ بَيَانٌ أَنَّهُ بِذَاتِهِ سَبْحَانَهُ خَاطِبُهُ بِالْقُرْآنِ شَفَاهَا عِنْدَ

(١) رواه ابن عدي في الكامل (٦/٣٧٧).

كشف لقائه له كفاحًا، وليس من يعلم منه بلا واسطة كمن تعلّم بواسطة، فإذا أراد تعليم أرواح الأنبياء والأولياء حين أوجدها ألبسها نورًا من نوره، وبصرًا من أبصاره، وسمعا من أسماعه، وعقلا من علمه، ثم علّمها صفاته بما خاطبها من كلامه الأزلي؛ حيث لا وسائل ولا وسائط، وليس من علّمه الحق برسم الأرواح كمن علّمه المعلمون برسم الأشباح، لا هناك علمهم بلا آلة الحديثة ولا علة المخلوقية، بل كان خطابًا بنعت ظهور الصفة، وسماعا بلا واسطة، فهموا من كلامه ما استتر من حقائقه على فهم أهل الرسوم من العلماء.

قال بعضهم: علّم آدم الأسماء، ثم عرضهم على الملائكة، وعلّم محمداً ﷺ القرآن، وعرضه على نفسه، فقال: فيم يختصم الملائ الأعلّ؟

وقال بعضهم: علّم الروح القرآن قبل الجسد، فالأجساد أخذت القرآن، وتعلّمته تبعًا للأرواح.

قال الواسطي: أورثهم تعليم الحق إياهم الاصطفائية، وهو أنه لما كان الحق يعلمهم أخبر عنهم، فقال: ﴿أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، أي: وأورثنا القرآن من خصصناهم بتعليمنا، ومن ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، بأن تولى الحق تعليمهم. وقال أيضًا: ذكر بلفظ الماضي عناية ورعاية.

قال ابن عطاء: لما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾: أراد أن يخص أمة محمد ﷺ بخاصية مثله، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ علّم القرءان، أي: الذي علّم آدم الأسماء، وفصله بها على الملائكة هو الذي علمكم القرآن، وفضلكم به على سائر الأمم، فقبل له: متى علّمهم حقيقة في الأزل، وأظهر لهم تعلّمه وقت الإيجاد، فالتعليم حيث كان في جملة العلم فلما كشف العلم عن الإيجاد أظهر عليهم آثار التعليم.

قال الحسين: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ من علّم الأرواح القرآن شفاهًا ومخاطبةً، فأخذتها الأنفس، وتعلّمتها بتلقين الوسائط.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ علّمه البيان ﴿١﴾ أي: خلق آدم بظهور الصفة والذات له، والباسه إياه علم الربوبية، ومعرفة أسرار الإفعالية، وعلّمه أسماء الحسنى التي هي مفاتيح جميع صفاته، وذلك قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدِي﴾، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ علّمه البيان: علّمه بيان خطابه، وكاشف له لطائف أسرار، وعرفه بطون علم أفعاله، وأعطاه العقل القدسي الذي يرى الأشياء كما هي بنوره وبرهانه، و«علم البيان» أي: فصل الخطاب، وانتظام الكلام، وفصاحة اللسان في تأويل القرآن وسنة

رسول الرحمن.

قال الجنيد: خصَّ آدم بأن خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته هو تخصيص الخلافة.

وقال سهل في قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (١) أي: الكلام الذي هو ذهن الخلق، ونفس الروح، وفهم العقل، وفطنة القلب، وعلم نفس الطبع.

وقال الجنيد: خلق الإنسان جاهلاً به، فعلمه السبيل إليه^(١).

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٢) ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (٣) وَأَقِيمُوا
الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (٤).

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٢): رفع سماء المعرفة والتوحيد بحيث لا يلحقها إلا أهل الاصطفائية بالولاية في الأزل، ولا ينالها كل مدَّعٍ كذاب، ووضع ميزان الصدق والإخلاص؛ ليزن به العبودية في بساط الربوبية.

قال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ﴾: أقيموا العبودية بميزان العبودية، ولا تزِنُوا بميزان الربوبية؛ فإن الحادث لا يلحق إلى القديم، فإذا لا تخرجوا من رُقِّ العبودية إلى دعوى الأنانية، وزنوا أنفاسكم، وخواطركم، ومقاماتكم، وأحوالكم بموازين الشريعة والإخلاص في الطريقة.

قال ابن عطاء: أظهر الوجدانية بصدق الظاهر، وصفاء الباطن، وحقيقة السر، واستقامة العزيمة.

وقال: كن لي صرناً أكن لك حقاً.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (٥) ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ (٦) ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ (٧) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٨) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (٩) ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ (١٠) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١١).

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (٥) ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ﴾ (٦): مهَّد قلوب أوليائه، وأحبائه، وعرفانه؛ ليصل منها بركته وآثار جماله إلى جميع الخلائق، وهي بساتين أنسه، ورياض قدسه، وفواكه معرفته، وأشجار محبته، وأزهار حكيمته التي هي قوت أرواح

(١) وقال ابن عجيبة في البحر المديد (٦ / ٢٠٣): أي: بيان السير إلى معرفته، بأن ركب فيه العقل المميز، ونصَّب له مظاهر يتعرَّف بها، ويبحث له داللاً يدلُّه، ويُعلمه أسرار الربوبية وآداب العبودية، فلا يزال يُجاذبه، ويسير به حتى يستتير قمر توحيده، وتشرق شمس عرفانه.

المريدين، وأسرار المتعبدين، سقاها الله من بحار جماله، وأنهار جلاله، وحرسها بعيون كلاءته، وأعوان عنايته.

قال جعفر: جعل الخلق قلوب أوليائه رياض أنسه؛ فغرس فيها أشجار المعرفة، فأصولها ثابتة في أسرارهم، وفروعها قائمة بالحضرة في المشهد، فهم يجنون منها ثمار الأنس في كل أوان، وهو قوله: ﴿فِيهَا فَيْكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي: ذات الألوان، كلٌ يجتبي منها لوناً على قدر سعيه، وما كوشف له من بواجر المعرفة، وآثار الولاية.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾: مشرقه أزله، ومغربه أبده، ومشرقه ذاته، ومغربه صفاته؛ وأيضاً مشرقه فعله، ومغربه أمره، وأيضاً المشرقان السر والروح، والمغربان القلب والعقل، تطلع منها شمس الذات، وأقمار الصفات إلى عالم العقول والقلوب، فإذا ذهب أوان التجلي استترت تلك الشمس والأقمار من العقول والقلوب، فصارت القلوب والعقول مغاربهما، والأسرار والأرواح مشارقهما، وأيضاً المشرقان هما الذات والصفات، والمغربان الأمر والأفعال، وأيضاً المشرقان النعوت والأسامي، والمغربان الذات والصفات، له سبحانه في كل ذرة آثار هذه المشرق والمغرب.

قال سهل: مشرق القلب ومغربه، ومشرق اللسان ومغربه.

وقال بعضهم: مشرقه توحيده، ومغربه مشاهدته.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ ﴿يَبْتَغِيَانِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾^(١): إشارة الحقيقة بالبحرين: بحر مشاهدة تجلّي القدم، وبحر الروح يكشف له بحر جماله وجلاله، ويقرب منه بحيث لا تدري الروح

(١) هما بحر الوجوب، وبحر الإمكان، والبحر في الحقيقة؛ هو بحر الوجوب لاتساعه، لا بحر الإمكان؛ لضيقه إلا أنه لما جمع معه في محل واحد عبّر عنه بالبحر، نعم إن الوجوب، وإن كان أوسع من الإمكان؛ لكن ظهور الشيء في الشيء إنما هو بقدر قابلية المحل، فيكونان سواء دل عليه إنهم جعلوا دائرة الوجود نصفين، وجعلوا الخط المتوهم فاصلاً بين القوسين، فالوجود؛ كالقوسين أحدهما: قوس الوجوب، والآخر قوس الإمكان؛ وإنما جعلوا الخط متوهمًا لا محققاً؛ لأن الوجود الإمكانى اعتباري مفروض؛ لتمييز الحقائق، والمراتب، فإنه لولا الاعتبار؛ لبطلت الحقائق. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ التقاء الروح بالجسم؛ لأن الروح في الحقيقة بحر الوجوب، والجسد بحر الإمكان، وإن كان مخلوقاً كما ورد: «أول ما خلق روعي».

العاشق العارف أين هو؟ فترى الحق، ويفنى هو في الحق، ومن ذلك القرب والدنو عبر الحق بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، ولكن بين البحرين حاجز امتناع عزة وحدانيته بحيث لا يختلط القدم بالحدث؛ لأنه منزلة عن الحلول في الأماكن، والاستقرار في المواطن، وذلك قوله: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ أي: برزخ أعظم من تنزيه قدمه من تناول الحدث، ومع الحدث برزخ الحدوثية، يحتجب به عن الوصول إلى حقيقة ذاته، وعيون صفاته، بل يستمتع بالنظر إلى جماله، وكشف تجلي جلاله، بحر القدم عذب من حيث القدس، وبحر الحدث ملح من حيث علل الحدوثية، فلما تخرج بها جلاله بنعت التجلي صارت عذبا فرائدا، من حسن مجاورتها:

تَكُونُ أَجَاجًا دُونَكُمْ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَيْكُمْ تَلْقَى طَيْبَكُمْ، فَيَطِيبُ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا حِينَ خُبِرْتُ أَنَّهُ يَمُرُّ بِوَادٍ أَنْتَ مِنْهُ قَرِيبُ

وتصديق هذه المعاني تجليه لجبل الطور، ومن الشجرة لموسى، وهناك مقام عين الجمع، انظر إلى البحرين: بحر الحدث، وبحر القدم كيف لا يختطان! والحدثان بأسرها من العرش إلى الثرى كقطرة فانية في قلزم بحار أزليته، وديمومته يخرج من بحر جلاله جواهر العنوم اللدنية، وأسرار الحكمة للعقل والقلب، وتخرج من بحر الروح جواهر المعرفة والآلئ المحبة، وإن كان الكل من بحره خرج؛ لأن بحره موجد البحار، وما يخرج من بحر وجوده يكون قديما مثل القرآن، والأسماء، والنعوت، وما يخرج من بحر الروح المألحة بعلة الحدوث، وما يتعلق بالحدوثية من العلم والمعرفة والفطنة.

﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۚ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾

قال الله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۚ﴾ وأيضًا إذا نزلنا من هذا المقام بحرأذيان المعاني إلى عالم الأمان، فنقول بالبحرين: بحر القلب والنفس في القلب بحر الأخلاق المحمودة، والمقامات العلية الشريفة، ولطائفات المعرفة، والمحبة، والنفس بحر الأخلاق المذمومة من الظلم، والضلالة منبع بحر القلب من عالم لطفه، ومنبع بحر النفس من عالم قهره، وهما لا يختطان أحدهما بالآخر؛ إذ لا تصير النفس قلبًا، ولا يصير القلب نفسًا؛ لأن بينهم برزخ العقل والعلم والشرعة والطريقة، ولؤلؤهما ومرجانها هاهنا الإيمان والإتيقان والصفاء والنور والطمأنينة، فهذه الجواهر تخرج من بحر القلب، فإذا صارت النفس مطمئنة فأيضًا جواهر بحرهما من أضعاف بحر العلوم المجهول، وهي مواضع الأسرار.

قال سهل بن عبد الله: أحد البحرين القلب، فيه أنواع الجواهر، فيه جوهر الإيمان،

وجوهر المعرفة، وجوهر التوحيد، والبحر الآخر النفس، فيها صفوف الرذائل، فيها الحقد الحسد، والكبر، والبخل، والغضب، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾^(١) التوفيق، والعصمة والخذلان، والنقمة.

وقال ابن عطاء: بين العبد وبين الرب بحران عميقان أحدهما: «بحر النجاة»، وهو القرآن من تعلّق به نجا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾، و«بحر الهلاك»: وهو الدنيا من ركن إليها هلك.

وقال الأستاذ: خلق في القلوب بحرين: «بحر الخوف»، و«بحر الرجاء».

ويقال: القبض والبسط.

ويقال: الهيبة والأنس.

فتخرج منها الجواهر من الأحوال الصافية، واللطائف المواتية.

ويقال في الإشارة: البحران النفس والقلب، فالبحر العذب القلب، والمالح النفس، ومن بحر القلب كل جوهر ثمين، وكل حالة لطيفة، ومن النفس كل خلق ذميم؛ فالدر من أحد البحرين يخرج، ومن الثاني لا يكون إلا التماسيح، وما لا قدر له من سواكن النفس، بينهما برزخ لا يبغيان يصون الحق هذا من هذا، ولا يبغي هذا على هذا.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢﴾﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١﴾﴾: لو نظرت بنظر التحقيق في الكون وأهله، لرأيت حقيقة فنائه وفناء أهله، وإن كان في الظاهر على رسم الوجود؛ لأن من يكون قيامه بغيره فهو فانٍ في الحقيقة؛ إذ لا يقوم بنفسه، وكيف الحدث يقوم بنفس ولا نفس له في الحقيقة؟! فإن الوجود الحقيقي وجود القدم، لذلك أثنى على نفسه بقوله تعالى:

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢﴾﴾: وحقيقة البقاء لمن لا يزال باقيا قديما، ومن كان أوله عدما وآخره عدما وجوده بخلاف من كان أوله قدما وآخره بقاء، فإذا شاهدت مشاهدة الحق ترى الحق قائما بنفسه، وترى الأشياء قائمة به، فقد علمت هناك حقيقة الفناء والبقاء، وحقيقة الوجود والعدم.

(١) فإذا هبت رياح العناية من مهب الهداية وتموج البحران فيتلاشى البرزخ باصطكاك البحرين ويصير الكل بحرا واحدا وهو بحر لا إله إلا هو إليه المصير فإذا كان إليه المصير، فقد طاب المسير، تفسير حقي (٣٤٨/١٢).

عرّف الله سبحانه قدمه وبقائه خلقه بفناء الدنيا وأهلها؛ ليتحققوا في معرفته؛ لأن من دخل في البقاء بغير دخوله في الفناء لم يعرف حقيقة البقاء.

سُئِلَ الجنيد عن قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ قال: من كان بين طرفي فناء فهو فانٍ، وذكره جلاله ووجهه الباقي تسليّة لقلوب المشتاقين، وترويحاً لفؤاد الموحدين والعارفين، أي: أنا أبقي لكم أبداً لا تغتمّوا، فإن لكم ما وجدتم في الدنيا من كشف جمالي، ويتسرمد ذلك لكم بلا حجاب أبداً، أيها العاشقون استبشروا ببقائي، وافرحوا بلقائي، وفيه دققة وإشارة إلى حبيبه أي: كلهم استمتعوا بتجلياتي، وكشف الوجه باقٍ لك أبداً، رأيت وجهي خاصة لك، ثم العشاق أتباعك في النظر إلى وجهي، فأول الكشف لك ثم للعموم، فذكر الوجه خاصة وهو صفة خاصة لأهل الخصوص، وإن كان وجود القدم جميعه وجهاً ألا ترى كيف قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَجَلَّى لِأَيِّ بَكْرٍ خَاصَّةً، وَيَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ عَامَةً»^(١)، وذكرُ الجلال تهيج لأهل المحبة والهيمة.

قال الواسطي: الذي أخفى من شاهده للخاصة لا يظهره للعوام، فسُئِلَ: أفرق بين الدارين؟ قال: نعم، أعطاهم في الدنيا على السرائر، وأعطاهم في الآخرة على الظواهر، استتر في الدنيا بما أظهر من عجائبه، واستتر في الآخرة بما أظهر على أقدارهم، وهو الذي لا يطيقه الخلق إلا على من تولّاه بإسبال تغييبه عن شاهده، نظرت يا فهم في مقام التوحيد إلى تلاشي الكون في ظهور جلال وجهه تعالى، ورأيت فناءه في بقاءه حين ظهر؛ وذلك لغلبة سلطان إشراق نور القدم على وجود الحدث، وذلك حين غاب العارف في المعروف، ولا يدري أين هو؟ إذ لا أين، ولا هو إلا هو.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿يَمْعَثِرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنْ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فَإِذَا أَنْشَقَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿يُعَرَّفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَبْتِهِمْ

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٣/ ٨٣) بنحوه.

فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿١١﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿١٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿١٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ : يسأله من في السماوات من الملائكة كلهم على قدر مقاماتهم، يسأله الخائف النجاة من البُعد والحجاب، ويسأله الراجي الوصول إلى محل الفرج، ويسأل المطيع قوة عبادته، ويسأل المحب أن يصل إليه، ويسأل المشتاق أن يراه، ويسأل العاشق أن يَقْرُبَ منه، ويسأل العارف أن يعرفه، ويسأل الموحد أن يفنى فيه، وهكذا أهل الأرض، يسأل الجاهل ما يحتجب به عنه، ويسأل العالم ما يعرف به ربه، وكذلك الأنبياء والأولياء والأصفياء والأبدال، يسألون منه على قدر مراتبهم ودرجاتهم معرفته، ووصاله، والتخلص بوقاية عظمته من قهره، يسأل العارف الرعاية، ويسأل المحب الكفاية، ويسأل العاشق المشاهدة، ويسأل الموحد النهاية، وهو تعالى يكون من حيث مراد الجميع، يعطي الكل مأمولهم، ويزيد من فضله، ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ : مزيد قرب المقربين، ووصل الواصلين، وكشف اللقاء للمشتاقين، وظهوره في كل ذرة للشائقين، يظهر في كل لحظة من أنوار عجائب ربوبيته للمستأنسين، وتلك العجائب بما لم ترها العيون، ولم تدركه العقول، ولم تعلمه القلوب، ولم يلحقه الأرواح، ولم تناولها الأشباح، ولم تشاهده الأسرار، وليس لها نهاية، يبرز كل يوم وساعة أنوار عجائب ملكه وملكوته على قدر قوة إدراك المدركين، وأفهام العلماء والعارفين، وما كان في سوابق علمه في أزل أزله، بشوق أسرارها ومقاديرها، بسوط القدر إلى مجاريها ومواردها، ولا تظن أن أحدا يصل إلى شأنه، فإن شأنه أعظم من أن يدركه أحد من خلقه. قال الواسطي: من سأل الله أعطاه سؤاله على قدره، ومن ابتدأه بالعطاء ابتدأ بما يليق بفضله وجوده وكرمه، قال الله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾، وقال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أعطيتكم قبل أن تسألوني، واستجبت لكم قبل أن تدعوني»^(١).

قال أبو سليمان الداراني: كل يوم له إلى عبيده برٌّ جديد.

وقال أيضًا: هو إيصال نعمه إليك، ودفع الضر عنك، فلا تغفل عن طاعة من لا يغفل عن برك.

قال الواسطي: يغيب ظاهرٌ، وإظهار غائبٍ.

وقال بعضهم: سوق المقادير إلى أوقاتها.

(١) رواه النسائي في الكبرى (٦/٤٢٤).

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ ذَوَاتَا أَفْتَانٍ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَيْكِهِ زَوْجَانِ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۖ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ فِيهِنَّ فُصَيْرَاتٌ ۖ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ أي: من خاف وهاب مقامه في مقام العتاب، وتغير رب الأرباب له، وإسبال النقاب، وصرفه عن المآب، وحيائه بنعت الإجلال عند الخطاب، فترك حظوظه، وأقبل عليه بنعت الخجل والتشويش، والندم عن تضييع أوقاته جنتان: جنة المشاهدة، وجنة المواصلة، جنة المحبة، وجنة المكاشفة، جنة المعرفة، وجنة التوحيد، جنة المقامات، وجنة الحالات، جنة القلب، وجنة الروح، جنة الكرامات، وجنة المداناة.

قال بعضهم: هو المقام الذي يقوم بين يدي ربه يوم القيامة عند كشف الستور، وظهور حقائق الأمور، وسكوت الكل من الأنبياء والأولياء بظهور القدرة والجبروت.

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ مُدْهَامَتَانِ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ فِيهَا فَيْكِهِ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانَ ۖ﴾

قوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ أي: هل جزاء شوق الشائقين إلا لقاء رب العالمين، وهل جزاء الخوف منه إلا الأمن به، وهل جزاء الحزن إلا الفرح، وهل جزاء الفناء فيه إلا البقاء معه.

قال بعضهم: هل جزاء من انقطع عن الإنس المخلوقين إلا أن يوصل إلى محل الأنس بربه.

قيل: هل جزاء من صبر على الله إلا الوصول إليه؟!

قال الجنيد: هل جزاء من ترك الكل لنا وفينا، إلا أن يكون عوضه عن الكل.

قال جعفر: هل جزاء من أحسنت إليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه إلى الأبد.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾: وصف الله سبحانه حوارى جنانه التي خلقهن لخدمة أوليائه، وألبسهن لباس نوره، وأجلسهن على سرير أنسه في جمال قدسه، وضرب عليهن خيام الدر والياقوت، ينتظرن أزواجهن من العارفين والمؤمنين المتقين، لا يطرفن أبصارهن في انتظارهن من مسلك الأولياء من أزواجهن إلى غيرهم، ثم وصفهن الله بأنهن قاصرات الطرف لم يصل إليهن مسُّ الأغيار بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٢﴾﴾، ثم وصفهن بأنهن خيرات، حسان، نور حسن تجلي الحق يتلأل من وجوههن من نظر إلى واحدة منهن بحار عقله فيها، ويغيب قلبه في جمالها، هي ربحانة الحق، يستأنس بها العاشقون؛ لأنها باكورة الجمال، لها طلعة لو رأتها الشمس ما طلعت، ولو رآها قضيب البان لم يمس، يا لها من طيب وصالحا، ويا لها من حسننها وجمالها، لو تفوح ذرة من نفحة مسك ذوابتها في الدنيا لتعطر العالم بأسره من عطر نسيمها.

تُضَوِّعُ مِسْكَاطُ نُعْمَانٍ إِنْ مَشَتْ بِهِ زَيْنَبُ فِي نِسْوَةِ عَطَرَاتِ

قال الحسين: حارت في رؤيتها الأبصار، وقاصرات: قصرت عن إدراك وصفها الأفكار لا يترجم عنها لفظ اللسان.

قال يحيى بن معاذ: هي التي لا يقدر أحدٌ على حكايتها، وتغمى عيون المبصرين عن بلوغ حسننها، كأن السنة العشق تنطق بمغيبات العقول عن وجنتها، وأنامل الأفراح تضرب بدفوف الفتن في صورتها معشوقة، لو رآها الخلق لتحيروا فيها، هي التي قال الله فيها: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾^(١).

﴿تَبَرَّكَ أَتَمُّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٤﴾﴾

(١) أي: أسرار حفية محبوسة في خيام القلوب والأرواح، والأسرار لا يطلع عليها إلا أهلها؛ كالنساء اللاتي تحت خيام الدنيا لا يظهرن إلا على أزواجهن، وكل من هذين النداءين مستمر إلى آخر الزمان إلا أن النداء قل من يجيب له؛ لأن الأسماع مسدودة، والأفواه مقفولة، والقلوب مخنومة غالباً، واقتضت الحكمة الإلهية غلبة أحكام الإمكان على أحكام الوجوب في كل زمان، فلم يحصل على الحق إلا واحد من الألف، كما يقتضيه الاسم الأعظم الحاكم على ألف من الأسماء الجمالية والجلالية، فعليك بالتأمل في هذا المجلس، والاعتبار من الشيطان الذي هو مظهر اسم المضل في مرتبة الشريعة.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ أَتَمُّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

ما نقول في مَنْ اسمه تقدّس عن إدراك الأوهام، وإشارة العقول، إذ اسمه نعتٌ والنعوت صفاتٌ، والصفات قائمةٌ بالذات، فمن عجز عن إدراك حقيقة اسم الموصوف القديم كيف يصل إلى العلم بوجود المسمّى! وهو أجلُّ من أن تحيط بقدس جلاله الأفكار، أو تحوى ذرةً من نعوته الأذكار، جلاله حيّر عقول العارفين في ميادين عزّته، وأغرق أرواح الموحدين في بحار عظمته، وأفنى أسرار الواصلين في شامخات كبريائه، اسمع معاني قدسه كيف فعلت بشاهد الحق في مشاهدته عليه الصلاة والسلام، حيّرت في أدوية الجلال، وأغرقت في «قلزم» الجمال، وكشفت له عين العين، وسلسلة من الأين، فبان له ما بان من عيون الألوهية، وبهاء القديم، والبقاء ما أسكنه عن وصف قدسه؛ حيث قال أفصح العالمين صلوات الله وسلامه عليه من حقيقة الحيرة وساحات العزة بقوله ﷺ:

«لَا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١)، ذكره سبحانه بذكر الجلال لطيب قلوب الواهين، بأن يكشفه لعيونهم، وأبصارهم، وأرواحهم، وأسرارهم، وقلوبهم، وعقولهم؛ ليرى منهم من تراكم الأحزان، وظلمة هذه الأشجان، ويبلغهم إلى مجالس الإحسان، وكشف العيان.

قال بعضهم: ﴿تَبَارَكَ أَتَمُّ رَبِّكَ﴾ أي: جل ربك، وعظم قدره عما يقول فيه الموحدون والمبطلون جميعاً؛ لأن كل شيء يثنى عليه بقدره، وكل ذاكر يذكر على مقدار طاقته، وطبعه، وعلمه، وفهمه، والحق تعالى ذكره خارجٌ عن أوهام الآدميين؛ لأن الثناء والمعارف دون الغايات، فسبحانه وتعالى ما أثنى عليه حق ثنائه غيره، ولا وصفه بما يليق به سواه، عجز الأنبياء بأجمعهم عن ذلك، حتى قال أجملهم قدراً وأرفعهم محلاً صلى الله عليه وعليهم أجمعين: «لَا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢).

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۖ﴾

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ﴾: واقعة كل صاحب قلب حين وقعت عليه أنوار المعارف،

(١) رواه مسلم (١/٣٥٢).

(٢) تقدم في سابقه.

والكواشف من مكامن الغيب، حين أراد الحق جذب قلبه بمباشرة وارد مشاهدته، فتلك الساعة للعارف واقعة القيامة، يستشرف بنوره قبل مجيئها على أمورها الغيبية، فإذا وقعت عليهم الواقعة سلبتهم من حظوظ الدنيا، وطلبها، ولذة هواها، وزينتها، وذهبت بهم إلى مراد الحقيقة، هنا تبين مسالك كل صادق، ومهالك كل مدّع.

قال سهل: إذا ظهر لكل سالك بيان سلوكه، فمن كان سلوكه على منهاج السنة والاقتداء قاده ذلك إلى مناهج الباطل.

وقال ابن عطاء: إذا تبين مراد المريد من مراده.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿١﴾ وَنُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٢﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٣﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٤﴾.

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾: «خافضة»: لظنون النفوس الأمارّة، «رافعة»: لهموم القلوب المطمئنة إلى مدارج القربة، وأيضًا «خافضة»: للنفس الأمارّة عن جوار الروح الناطقة، ومطهرة من دنسها، و«رافعة»: للروح إلى معادن الأفراح من رؤية الملك الغفار، وأيضًا مسقطة للمجاهدات، و«رافعة»: للأرواح إلى المداناة، وأيضًا «خافضة»: للتكاليف، و«رافعة»: للعارفين إلى الرفاهية الكبرى في الصفائح الأعلى، وأيضًا «خافضة»: للمدّعين، و«رافعة»: للصادقين.

قال ابن عطاء: تخفض أقوامًا بالعدل، وترفع أقوامًا بالفضل.

وقال سهل: تخفض أقوامًا بالدعاوي، وترفع أقوامًا بالحقائق.

قال الأستاذ: «خافضة»: لأصحاب الدعاوي، «رافعة»: لأرباب المعاني.

﴿فَأَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ﴾ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ﴾: «أصحاب الميمنة»: أصحاب يمن العناية الأزلية الذين سبقت لهم في الأزل الاصطفائية بالولاية.

﴿وَأَصْحَبُ الشِّمَّةِ مَا أَصْحَبُ الشِّمَّةِ﴾ ﴿٦﴾

﴿وَأَصْحَبُ الشِّمَّةِ﴾: الذين أسقطهم قهر الأزل عن رؤية العناية، فصاروا مشثومين من مشامة الدعاوي الباطلة^(١).

(١) وقال الشيخ حقي: المراد تعجيب المسامع من شأن الفريقين في الفخامة والفضاعة كأنه قيل ما عرفت حالهم أي شيء فاعرفها وتعجب منها فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال وأصحاب المشامة في نهاية سوء الحال، تفسير حقي (١٥/١٥).

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ١٠ ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ١١ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ١٢ ﴿ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأُولَى﴾ ١٣ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ١٤ ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ ١٥ ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ ١٦ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ ١٧ ﴿بِأَنْوَافٍ وَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ ١٨ ﴿

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾: الذين سبقوا بسبق اجتباء الله إياهم في علمه الأزلي، وهم المقربون بأن قربهم منه، وكشف لهم أنوار قرب قربه، وجمال مشاهدته أيضًا، وأصحاب الميمنة أهل الإيمان، وأصحاب المشئمة أهل الكفر والطغيان، والسابقون المقربون أهل العرفان، وأيضًا أصحاب الميمنة أهل المجاهدات، وأصحاب المشئمة أهل الشهوات، والسابقون أهل المشاهدات.

قال ابن عطاء: هم أرواح ثلاثة، «أصحاب الميمنة»: هم أصحاب الجنة، و«أصحاب المشئمة»: هم أصحاب النار، و«السابقون»: هم العبيد المخلصون، ثم يصير أصحاب الميمنة على ثلاث طبقات.

وقال سهل: «السابقون»: هم الذين سبق لهم من الله الولاية.

قيل: كونهم هم المقربون في منازل القربة، وروح الأنس.

قال القاسم: أضاف الله الأفعال إلى عباده بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ١٠، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ١١، ولم يكونوا مقربين لما كانوا سابقين، ولو كانت الأفعال إليهم حقيقة لكانوا متقربين، ولم يكونوا مقربين.

صدق الشيخ فيما حالهم وجدوا السبق بأن اصطفاهم الله في الأزل بقربه، فإذا السبق والقربة من فضل الله، واختياره لهم.

وقال الأستاذ: الذين سبقت لهم من الله الحسنى، فسبقوا إلى ما سبق لهم، أولئك المقربون، ولم يقل المتقربون، بل قال أولئك المقربون، وهذا عين الجمع.

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ ١٩.

قوله تعالى: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾: لا يتغيرون عن حدود الاستقامة بمشارب الوصلة، ولا يحتجبون عن المشاهدة أبدًا.

قال جعفر: لا تذهل عقولهم عن موارد الحقائق عليه، ولا يغيبون عن مجلس المشاهدة بحال.

﴿وَفِيكِهِمْ مِمَّا يَتَخَفَتُونَ﴾ ٢٠ ﴿وَلَحِمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ٢١ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ٢٢ ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْزِ الْمَكْنُونِ﴾ ٢٣.

﴿وَفِيكِهِمْ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ١٠٠ ﴿وَلَحِمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ١٠١، وما يشبهها، ولما كان فضله وإحسانه إلى عباده بالمشاهدة بالبصائر في الدنيا قديماً غير مخلوق جعل ثوابها إلى ثواب تلك المشاهدة غير مخلوق، جعل ثوابها وجزاءها ما يليق بها بالأبصار، فقال هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٠٢ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ١٠٣ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ١٠٤ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ١٠٥ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ١٠٦ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ١٠٧

قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: وقع جزاء المحدث، وما ليس بمحدث لا يقابله أعمال الثقلين، وهو مشاهدة الله.

قال الحسين: رُدَّ الشيخ إلى الشيخ، والمخلوق إلى المخلوق، لما كانت أفعالهم مخلوقة، وأذكاءهم مخلوقة معلولة جعل جزاءها.

﴿وَوَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ١٠٨ ﴿وَمَاءٍ مُسْكُوبٍ﴾ ١٠٩ ﴿وَفِيكِهِمْ كَثِيرَةٌ﴾ ١١٠

قوله تعالى: ﴿وَوَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ١٠٨: انظر الممدود الذي لا نهاية له إلى الأبد، هو كيف وصله الله، وظل جلاله الأزلي الأبدي.

قال جعفر: «الظل»: رحمة الله التي سبقت لأمة محمد ﷺ، و«الممدود»: فضله على الموحدين، وعدله على الملحدين.

﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ١١١ ﴿وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ ١١٢ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ١١٣ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ١١٤ عُرُبًا أَتْرَابًا ١١٥ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ١١٦ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى ١١٧ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ١١٨ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ١١٩ فِي سُمُورٍ وَحَمِيرٍ ١٢٠ وَظِلٍّ مِّنْ تَحْمُومٍ ١٢١ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ١٢٢ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ١٢٣ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ١٢٤ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَهَذَا مِثْنًا وَكُنَّا ثُرَابًا وَعِظِيمًا أَهْ نَا لَمَبْعُوثُونَ ١٢٥ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ١٢٦ قُلْ إِنِّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ١٢٧ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ١٢٨ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ ١٢٩ لَا تَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زُفُورٍ ١٣٠ فَمَا لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ١٣١ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ١٣٢ فَشَرِبُوا شَرِبَ الْهَمِيمِ ١٣٣ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ١٣٤ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ١٣٥ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ١٣٦ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ١٣٧ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ١٣٨

قوله تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ أي: غير منطوعة عنهم أثمار أشجار المشاهدة، وهي ثمرات أنوار الذات، والصفات التي تثمر في قلوبهم ثمار علم العلم، وغيب الغيب، وسر السر إلى الأبد، وهي غير ممنوعة من رؤوسهم، وعلمهم، وإدراكهم أدركوها بالله من الله.

قال جعفر: لم يقطع عنهم المعونة والتأييد، ولو قطع عنهم ذلك لهلكوا، ولا يُمنعون من التلذذ بمجاورة، ولو منعوا من ذلك لاستوحشوا.

﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَتُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَتُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١): يَبَيِّنُ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ حَقَائِقَ الْغُيُوبِ غَيْرُ مَتْنَاهِيَّةٍ، وَحَقَائِقُهَا غَيْرُ مَكْشُوفَةٍ لِلْأَعْدَاءِ، وَمِنْ اخْتَارِهِ بِالْوَلَايَةِ وَكَحَلِّ عَيْنِهِ بِنُورِ الْعَنَاءِ، يَطْلَعُهُ عَلَى نَوَادِرِ الْمَلَكُوتِ، وَعَجَائِبِ الْجَبَرُوتِ، فَهَذَا مِنْ كُنُوزِ الْغَيْبِ الَّتِي اخْتَارَ اللهُ بِهَا سَفَرَةَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالرُّسُلِ، وَالْأَوْلِيَاءِ، وَأَهْلِ الصَّفْوَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غُيُوبِهِ أَحَدًا﴾ إِلَّا مَنْ آزَتْصَىٰ مِنْ رَسُولٍ، وَبَقَرِ الْقَدِيمِ مَنَعَ الْأَعْدَاءَ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ مَكْنُونِ السَّرَائِرِ، فَخَاطَبَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ يَخْرِجُهُمْ بِمَرَادِهِ الْأَزَلِيِّ عَلَىٰ لِبَاسِ مَقَادِيرِهِ الْأُولِيَّةِ، إِمَّا بِصُورَةِ السَّعَادَةِ، وَإِمَّا بِصُورَةِ الشَّقَاوَةِ.

قال الواسطي في قوله: ﴿وَتُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: من أسباب السعادة والشقاوة.

﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿إِنَّا لَمُعْرِضُونَ﴾ بَلْ تَحْرُثُونَ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ

(١) والحاصل: إن الآية وعد لمتوقع الخير، ووعد لفاعل الشر، والله عند حسن ظن عبده به لكن العبد وجب عليه أن يلاحظ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، فإن عبد الكريم لا بد وأن يكون كريماً لا لثيماً، ثم في الآية إشارة إلى أن إنشاء المذكور لا يستلزم الاستحالة؛ وهو قلب الحقائق، فإن الإنسان لا يصير خنزيراً مثلاً أبداً، وإنما يظهر في صورته، وكذا لا يصير ملكاً وإن كان ظاهراً بصورته؛ كجبريل في صورة شاب، أو في صورة دحية، أو نحو ذلك من الصور الحسنة، وكذا الجن والمتروحنون، ومن ذلك الكيمياء فإن الإكسير لا يقلب النحاس ذهباً حقيقة؛ وإنما يقلب صفة النحاس، فيظهر في صورة الذهب، ثم لا يرجع إلى أصله أبداً كما أشار إليه قولهم: لو وصلوا ما رجعوا، وقد نازع فيه بعضهم من لا خبرة له بحقيقة الحال، وقس على هذا سائر الاستحالات؛ فإنها استحالات صورة لا حقيقة، وإن زعم بعضهم الحقيقة في كل ذلك.

مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُتْرَلُونَ ﴿٧٦﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ
النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لقد ظهرت أنوار صفاتي في مباشرة أمري في أطوار فطرتكم الأولية، ما رأيتم تلك المشاهدات بإسبالي ستور الغبرة على أعينكم، وكيف ينفع العلم بصورة الأفعال، إذا لم يدرك لطائف اصطناعه، ولم ير حقائق أنواره.

هذا آدم بديع فطرته، وخليفة ملكه، ظهر الحق منه بديع الآيات، وحقائق أنوار الصفات، خلقه من تراب، ثم خلق ذريته من نطفة، فباشر سر الحقيقة النطفة، كما باشر التراب، يا ليت لذريته لو عرفوا منشأه ومبدأه، كما عرف آدم نفسه، لكانوا عارفين بربهم بحقيقة العرفان، لا برسم الأدلة والبرهان.

قال القاسم: ألم تعلموا أننا خلقناكم من تراب، ثم من مضغة، ثم من علقة، ثم من ماء مهين، أفلا تتعظون بهذه المواعظ، وتبصرون إلى عجائب الصنع فيكم، وتستحيون من هذه الدعاوي، والأمان، والإضافات، وتلزمون الأدب، فإن من تعدى طوره هتك ستره.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتْنًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ : جعل الله تعالى آياته بصنوفها مرأى أنوار صفاته، يتجلى منها لأبصار العارفين، ويقوى برويتها أرواح الموحدين، وتستقيم بها عقول الصادقين، وتفزع من مواعظها قلوب الخاشعين، فصاروا في معابد العبودية متذللين، وفي مراقد أنوار عظمتهم متواضعين.

قال جعفر: موعظة للتائبين، وآلة للأقرباء من العارفين في حمله.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨١﴾ .

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ : أمر الله حبيبه عليه الصلاة والسلام أن ينزه نفسه عند رؤية الآية ونعمائه وظهوره، بكشف الصفات والذات من مشكاة آياته، بأنه منزّه عن أن تكون الحوادث محلّه، أو أن يلحق إليه بنعت مباشرة شيئاً من الحديثين، فأمره أن ينزهه، ويسبحه به لا بنفسه، ألا يرى كيف قال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٢﴾ ، وانسمى والاسم واحد في واحد أي: قدسي بي، فإني أعظم من أن تقدسني بنفسك، أو بشيء من دوني، ألا ترى إشارة قوله: ﴿الْعَظِيمِ﴾ عظم جلاله، أن يبلغ إلى مدحه الخليفة، أو أن تصفه البرية.

قال الواسطي: سبّحه باسمه، فإن الاسم والمسمى هو الشيء بعينه، وهو العظيم.

قال ابن عطاء: «سبحان الله»: أعظم من أن يلحقه تسبيحك، أو يحتاج إلى شيء منك، لكنه شرف عبيده أن أمرهم أن يسبحوه؛ ليظهروا أنفسهم بما ينزهونه به.

﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٧﴾ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٨﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾: أقسم الله سبحانه بمواقع أنوار نجوم صفاته إذا ظهرت منه، فتعود إلى معادنها من ذاته سُبَحَات، منه بدأت وإليه تعود، فالنجوم صفاته، ومواقعها ذاته، لذلك قال: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: عظم لعظمة جلاله، وعظم جلاله، وأيضاً أقسم بمواضع نجوم صفاته من أرواح الأنبياء والمرسلين، والأولياء، والصديقين إذا تجلّت لها، وأيضاً أقسم بقلوب العارفين أنها مواقع نجوم خطابه، وأيضاً أقسم بمواقع نجوم القرآن من أسرار حبيبه عليه الصلاة والسلام؛ لأن قلبه مسقط الوحي، وبيت الخطاب، وموضع كشف الأسرار، ومرآة حقائق الأنوار، أقسم به لعظمة عند الله.

وفي هذا المعنى قال ابن عطاء: «مواقع النجوم»: هي مواقع ما يظهر على سر النبي ﷺ من أنوار الحق، وزوائد التحقيق مما خُصَّ به من الدنوّ، أو وقربه والزلّف التي لم يؤمر بإظهارها والإخبار عنها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾: كلامه القديم إذا بدا في قلبه لا يختلط به هوى الإنسانية، ولا هواجس النفسانية، ولا إلقاء الشيطاني؛ لأن قلبه كان محفوظاً بحفظ الله، ورعايته عن الخطرات المذمومة، والأوهام، والظنون، وكلامه محفوظاً؛ لأنه صفته القديمة المنزهة عن التغيير والتبديل، وصفه بأنه كريم؛ لأنه وصف الكريم القديم المنبئ عن صفاته الكريمة، وذاته الأزلي أنزله إلى أكرم خلقه من تَخَلَّقَ بخلقته يكون كريماً في الدارين، ومن فهم حقائقه يكون إماماً في الثقلين.

قال بعضهم: «كريم»: لأنه يدل على مكارم الأخلاق، ومعاني الأمور، وشرائف الأفعال.

وقيل: «كريم»: لنزوله من عند كريم؛ بوساطة كريم، إلى أكرم الخلق طراً أجمعين.

﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (٨٠) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿٨٢﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ ﴿٨٤﴾ وَأَنْشُرَ حَبَنَيزٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أي: لا تنكشف أسرارته وأنواره إلا للمقدسين بقدس الله عما دون الله، وهم أهل القرآن، وأهل الله وخاصته.

قال بعضهم: لا ينال خيره وبركته إلا من طهره يوم قسمته عن الشقاوة، وخلقه يوم خلقه مطهراً من المخالفات.

وقال ابن عطاء: لا يفهم إشارات القرآن إلا من طهر سره عن الأكوان بما فيها.

وقال الجنيد: إلا العارفون بالله، المطهرون أسرارهم عن سواه.

وقال جعفر: إلا القائمون بحقوقه، المتبعون أوامره، الحافظون حرماته.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾: أفهم أن قرب الله بالنفات، قرب بالعلم، وقرب بالإحاطة، وقرب بالفعل، وقرب بالصفة، وقرب بالفهم، وقرب باللطف والمسافة والمكان منفي عن ذاته وصفاته، لكن تجلي من عين العظمة لقلوب بعض؛ لإذابتها برؤية القهر، ولقلوب بعض تجلي من عين الجمال؛ ليعرفها لطف الاصطفائية، وذلك القرب لا يبصره إلا أهل القرب، وشواهد ظاهرة لأهل المعرفة.

قال ابن عطاء: إنما ذكر هذا ليعرفوا قربهم منهم، لا أن بينه وبينهم مسافة، ولكن خطاب التحذير والترهيب.

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ﴿٤٩﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي: فأما إن كان من العارفين بالله المقربين بقرب الله إياه قلبه روح الوصال، وريحان الجمال، وجنة الجلال لروحه روح الأنس، ولقلبه ريحان القدس، ولنفسه جنة الفردوس.

قال السلمي: «الروح» لقلوبهم، و«الريحان» لنفوسهم، و«الجنة» لأبدانهم.

قال ابن عطاء: «الروح» النظر إلى وجه الجبار، و«الريحان» الاستماع لكلامه، و«جنة نعيم» هو ألا يحتجب العبد فيها عن مولاه إذا قصد زيارته، وللمقربين ذلك في دار الدنيا روحهم المشاهدة، وريحانهم سرور الخدمة، وجنة نعيمهم السرور بالذكر.

وقال الأستاذ: «روح» للعابدين، و«ريحان» للعارفين، و«جنة نعيم» لعوام المؤمنين.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿٥١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿فَنُزِّلَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿٥٣﴾ وَتَصْلِيَةً حَمِيمٍ﴾ ﴿٥٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: وأما إن كان من أهل السعادة هذا المتوفى ويمن العناية وصل إلى دار السلام، ولقاء جلال

العلّام، وهو في سلامة مشاهدته أمن من الفرقة والوحشة، فبشارة سلامته لك أيها الحبيب المشفق، وعليك منه سلام الاشتياق إلى قدومك، وإلى جمالك، وإلى خطابك وخدمتك وصحبتك.

قال سهل: ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ : هم الموحدون إلى العاقبة لهم بالسلامة؛ لأنهم آمناء الله قد أدّوا الأمانة، يعني: أمره ونهيه، والتابعون بإحسان لم يحدثوا شيئاً من المعاصي والزلات، قد آمنوا الخوف والهول الذي ينال غيرهم.

﴿إِنْ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾^(١) أي: خبر ما كان، وما سيكون في القرآن من الحق حق وبيان صحيح، لا يقبله إلا من شاهد قلبه بنعت حق اليقين مشاهدة الحق بالحق، وحق اليقين كشف الذات والصفات، أي: إذا أنت من أهل حق اليقين فيما وجدت من قرب الله ووصاله نزّه ذاته وصفاته عما لا يليق بعزته سبّحه به لا بك، حتى يكون تنزيهك تنزيهاً، وتقديسك تقديساً.

قال ابن عطاء: إن هذا القرآن لحق ثابت في صدور الموقنين وأهل اليقين، وهو الحق من عند الحق؛ فلذلك تحقق في قلوب أوليائه.

قال بعضهم: «حق اليقين»: النظر إلى الحق بعين الحقيقة وتلك البصيرة التي يكرم الله بها خواص عباده المقربين، وهو مشاهدة الغيب بما تريد أن تجري، وإنما يرزق ذاك من فتح بصره لمشاهدة الغيوب.

قال أبو عثمان في قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾: شكرًا لما وفقنا أمنك من التمسك بستك.

سورة الحديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: نزّه الله الأكوان، ومن فيها بلسان العجز عن البلوغ إلى ثنائه وبلسان الافتقار إليه، وفي الحقيقة هو سبّح لنفسه بألستهم؛ لأنها أفعاله

(١) أي: اسبح بفكرك في بحار عقلك، وغض بقوة التوحيد فيها تظفر بجواهر العلم، وإياك أن تقصّر في الغوص لسبب أولآخر، وإياك أن تتداخلك الشبهة فيتلف رأس مالك ويخرج من يدك وهو دينك واعتقادك... وإلا غرقت في بحار الشبهة، وضللت. تفسير القشيري (٧/ ٣٧٧).

وبأفعاله وصف نفسه إذ هو قبل وجود الكون نزه نفسه بصفته القديمة ثم وصف نفسه بفعله تشریفًا للخلقة وتعظيمًا للحقيقة، فتنزيهه غالب على تنزيه الخلق وحكم بعجزهم عن تسبيحه بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: ذكر الله سبحانه ملكه على قدر إفهام الخليفة، وإلا فأين السماوات والأرض من ملكه؟ والسماوات والأرض في ميادين مملكته أقل من خردلة لما علم عجز خلقه عن إدراك ما فوق رؤيتهم، ذكر ملك السماوات والأرض ملكه قدرته الواسعة التي إذا أراد الله إيجاد شيء، يقول: كن فيكون بقدرته، وليس بقدرته نهاية، ولا لإرادته منتهى، يُحْيِي من يشاء برؤيته، وكشف جماله له، ويميت من يشاء برؤية الملك، والاشتغال به عن المالك، وأين الملك والملوك في عين العارف الحي بحياته، البصير بنوره التي هي فانية في الملوك والكائنات سقطت منها بأن ليس فيها موضع إلا وفيه بحار عظمة القدم وجلال الأبد.

قال ابن عطاء: هو مالك الكل وله الملك أجمع، يميت من يشاء بالاشتغال عن الملك، ويُحْيِي من يشاء بالإقبال على الملك.

وقال الأستاذ: يُحْيِي النفوس ويميتها، ويُحْيِي القلوب بإقباله عليها، ويميت بإعراضه عنها.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾: افهم سرّ تفسير هذه الآية، فإن الله سبحانه أشار بها إلى سرّ ذاته وصفاته ونعوته وأسمائه، وأظهر باطن غيبه، وغيب غيبه وسره، وسر سره؛ لتحير أرواح العارفين في بحار قدمه وبقائه، وفناء أسرار الموحدين في صفاته وذاته، وما أفادت هذه الأسرار إلا التحير عن إدراكه وذكر سرّه، ولم يعرف أحد ذلك السرّ، ولا يعرف أحد ذلك السرّ، ولا يعرفه أحد إلى الأبد، هو ذاكره، وهو عالم به لا غير، كيف يعرف الأولية من لا أولية له؟ وكيف يعرف الآخريّة من لا آخريّة له؟ وكيف يعرف بطن سر السر وأصل الأصل، من لا حقيقة له في إدراك كنهه اعبر من هذا البحر العميق، ولا تقف، فإنه أغرق الأولين والآخرين في قطرة من قطراته، وهم عطاشى من بعد أفواههم عن نداوتها أين أنا من الإقبال بنعت الإدراك على قدم القدم وأبد الأبد وبطن العلم وإشراق شمس الألوهية، وسبحاتها تحرق الأبصار، وأسرارها تحير الأفكار أنا والفرار من ضرغام الأزل، وتبين الأبد ما للتراب، ورب الأرباب سقط الزمان والمكان والأوائل والأواخر

والظروف والأماكن والفهوم والعلوم عن بوادي أنوار أوليته وآخريته، وظهور سبحات ظاهريته، ولمعات أسرار باطنيته، فلم تبق لي اللسان حيث لا يبقى البيان والبرهان ولا العرفان ولا الإيقان الإيمان بمن والعرفان لمن والإيقان في من، وهو ممتنعٌ بغير جباريته عن درك الخواطر، وجريان الضمائر سبحانه سبحانه سبحانه.

قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾: إظهار الأزل في الآزال.

وقوله: ﴿وَالْآخِرُ﴾: إظهار الآباد في الآباد.

وقوله: ﴿وَالظَّاهِرُ﴾: عيانه بذاته في صفاته وصفاته في أفعاله؛ إذ الأفعال في الصفات والذات فانية، فبقي ظهوره في نفسه؛ إذ لا شيء دونه.

وقوله: ﴿وَالْبَاطِنُ﴾: استتار كنهه بكنهه وسره بسر، لا يدرك باطنه بعد الأوهام، ولا غوص الأفهام، سبحانه عما أوما إليه الخليفة بكمالها! سبحانه عما أشار إليه البرية بنهايتها! من يعرف عقود علل الأشياء حتى يعرف أوليته، ومن يعرف عروق الأعصار حتى يعرف آخريته، ومن يعرف كينونية الأفعال حتى يعرف ظاهريته، ومن يعرف أسرار بطون الأرواح والنفوس حتى يعرف باطنيته، لو يعرف المخلوق حقيقة مائية وجوده بنعت إحاطة علمه عليها يعرف أصل كل أصل، وعلة كل علة، إذ لا يعرفها إلا من يوجد لها إلا هو الذي نعت الأول والآخر والظاهر والباطن، لا تظن في أوليته عدَّ الأدهار، ولا تظن في آخريته حصر الأعصار، ولا تظن في ظاهريته بوادي الآيات، ولا تظن في باطنيته أسرار الخفيات، فإن هذه الصفات منفية عن كمال ألوهية الأولية في الأذهان تأخرها إلى قدم الزمان ولا زمان في الأزل والآخرية في الإفهام استباقها إلى دوام الأعصار ولا أعصار في الأبد، والظاهرية في العقول الظهور في الأماكن، ولا مكان عند ظهوره، والباطنية في الخيال طوية الخفيات، وهو منزَّه عن أن يكون محل جريان العلل؛ إذ لا علة في وجوده عبر من هذه الظلمات، فإنه تعالى منزَّه عن القياس والوسواس، أوله آخره، وآخره أوله، وظاهره باطنه، وباطنه ظاهره، فإذا خرجت يا نفس من رقومات المكونات، وصور الآيات، ورسم الأنفعاليات، ونسيت العدم والوجود، وسقط عنك الرسم والاسم والوسم فنيت عنك، وبقيت بالحق يرى الله بالله، ولا تبقى عندك هذه الرسومات، ويثبت لك الخفيات الأولى للأرواح بسبق العناية، والآخر للقلوب بحسن الرعايات، والظاهر بنعت الكشف للأسرار، والباطن ببيان علم المجهول، وانكشاف حقيقة حكم الربانية للعقول القدسية، أي: تفضل أعظم من هذا التفضل من الحق سبحانه للعارفين؛ إذ تجردت نعوته وأسمائه وصفاته وذاته لهم، وهذا من كمال حبه لحبهم، وإرادته لمعرفتهم؛ لذلك أظهر كنز الربوبية والألوهية لهم بقوله: «كنتُ كنزًا مخفيًا، فأحييتُ

أَنْ أَعْرِفَ^(١)، يا صاحبي كدت أن أنقل أحجار، فإن الكبرياء بنياني أو أغرف مياه قاموس الأزل والبقاء فما وصلتها رأيتها ممنوعة من إدراك الفهوم ووصول العلوم، ورجعت وما قلت إلا قول حبيبه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية: «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢).

قال الجنيد: نفى العدم عن كل أول بأوليته، ونفى البقاء عن كل آخر بآخريته، واضطر الخلق إلى الإقرار بربوبيته بظاهريته، وحجب الأفهام عن إدراك كنهه وكيفيته بباطنيته. قال الواسطي: لم يدع للخلق نفساً، بعدما أخبر عن نفسه الأول والآخر والظاهر والباطن.

وقال أيضاً: من كان حظه من اسمه الأول كان شغله بها سبق، ومن لاحظ اسمه الآخر كان مرتبطاً بها يستقبله، ومن كان حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته، ومن كان حظه من اسمه الباطن لاحظ ما جرى في السرائر من أنواره.

وقال أيضاً: حظوظ الأنبياء مع تباينها من أربعة أسام، وقيام كل فريق منهم باسم منها، فمن جمعها كلها فهو أوسطهم، ومن فني عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، وهي قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾.

وقال أيضاً: من ألبسه الأولية فالتجلى له في الآخرة محال؛ لأنه لا يتجلى إلا لمن فقدته أو كان بعيداً عنه فقربه.

وقال الحسين: هداهم باسمه الأول إلى الغيب المحيط، وعرفهم باسمه الآخر الشأن القائم الدائم، وبصرهم باسمه الظاهر النور العزيز المبين، وأوزعهم باسمه الباطن الحق والشهادة.

وقال أيضاً: هو الأول الذي لا تخرجه الأولية ولا الآخرة ولا الظاهرية ولا الباطنية إلى نعوت الحلول والافتراق، وكيف يسعه أو يدركه شيء من خلقه وهو المحيط بالأزل والأزال، والأبد والآباد من جميع الوجوه وإليه الغاية والمنتهى.

أزلي العلم، أزلي القدرة، أزلي الشأن، أزلي المشيئة، أزلي النور، أزلي الرحمة، البادئ لكل علم ومعلوم، وشاهد ومشهود جل وتعالى.

وقال الجنيد: نفى القدم عن كل أول بأوليته، ونفى الفناء على الكل الآخر بآخريته،

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١٧٣/٢).

(٢) تقدم تحريجه.

واضطر الخلق إلى الإقرار بربوبيته بظاهريته، وحجب الأفهام عن إدراك كنهه وكيفيته بباطنيته.

قال النوري: الأولية هي الآخريّة، والآخريّة هي الأولية، والظاهريّة هي الباطنيّة، والباطنيّة هي الظاهريّة، كما أن الأزليّة هي الأبدية، والأبدية هي الأزليّة، ليس بينهما حاجز إلا أنه يفقدك ويشهدك: وفناء التجديد الملذّة، ورؤية العبودية.

وقال الأستاذ: الأول لا بزمان، والآخر لا بأوان، والظاهر لا باقتران، والباطن لا باحتجاب.

وقيل: الأول بالتعريف، والآخر بالتكليف، والظاهر بالتشريف، والباطن بالتخفيف.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾: يعلم ما يلج في أرض القلوب من أنوار الغيوب، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات المعرفة وأشجار المحبة وأنهار الحكمة، يعلم ما يلج فيها من سنا تجليه، وما يخرج منها من صفاء التوحيد والتجريد والتفريد.

قال سهل: ليسلم ما يدخل أرض قلبه من الفساد والصلاح، وما يخرج منها من فنون الطاعات، فيتبين آثارها وأنوارها على الجوارح.

قال الأستاذ في قوله تعالى: ﴿مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾: الذي في قلبه من إخلاصه وتوحيده حزنه، وما في قلب الجاحدة من شكه وشركه والأوصاف المذمومة، وما ينزل من السماء على قلوب أوليائه من اللطاف والكشوفات، وفنون الأحوال العزيزة، وما يعرج فيها من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت، وحسراتهم إذا علت.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾: ما ينزل من سماء الغيب من قطرات الإلهام، وما يعرج فيها من أنوار أنفاس المشتاقين والعاشقين وللمحبين ومعاليهم العارفين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾: إن للعارفين في هذه الآية مقامين: مقام عين الجمع، ومقام أفراد القدم عن الحدوث، فمن حيث الوحدة والقدم تصاعر الأكوان في عزة الرحمن وسطوات عظمته حتى لا يبقى أثرها، فتسلط عظمته معها حتى أزالها بحيث لا

افتراق بين فعله وقهر قدرته، ومن حيث الجمع باشر نور الصفة نور الفعل، ونور الصفة قائم بالذات، يتجلى بنوره لفعله من ذاته وصفته، ثم يتجلى من الفعل، فترى جميع الوجود مرآة وجوده، وهو ظاهرٌ بكل شيء للعموم بالفعل وللخصوص، بالاسم والنعته، وللخصوص بالصفة، وللقائمين بمشاهدة ذاته بالذات، وهو تعالى منزلة عن البيئونة والحلول والافتراق والاجتماع، إنما هو ذوق العشق، ولا يعلم تأويله إلا العاشقون.

قال الحسين: ما فارق الأكوان الحق، ولا قارنها، كيف يفارقها وهو موجودها وحافظها! وكيف يقارن الحدث القدم به قوام الكل، وهو بائنٌ عن الكل!، ولا تراه يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾، يا أخي هذه الآية مقتضية البشارة للعاشقين؛ حيث معهم أينما كانوا، وتوثيق للمتوكلين، وسكينة للعارفين، وبهجة للمحبين، ويقين للمراقبين، ورعاية للمقبلين، وإشارة الاتحاد للموحدين.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١)
ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَتَّبِعُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾: يولج ليل الاستتار في نهار التجلي، ويولج نهار كشف النقاب في ليل الحجاب، وأيضاً يولج ليل النفوس الأماره في نهار الأرواح والعقول، ويولج نهار الأرواح والعقول في ظلمات النفوس.

قال سهل: الليل نفس الطبع، والنهار نفس الروح، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً ألف بين طبعه ونفسه وروحه على إدامة الذكر له، فأظهر بذلك على صفاته أنوار الخشوع.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١)

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾: فيه بيان شرف المتقدمين في الطريقة، والباذلين أنفسهم وأموالهم لرعاية الوفاء بالعبودية لحبيبتهم؛ إذ بيان صدق الصادقين إجابة دعوة الحق في البداية لا يتقاعد عن طلبه بمانع نفسه وماله.

قال جعفر: الإرادة القوية والإيمان والتسليم للمهاجرين وأهل الصفة وإمامهم

وسيدهم الصديق الأكبر، وهم الذين لم يرثوا الدنيا على الآخرة، بل بذلوها ولم يعرجوا عليها، واعتمدوا في ذلك ربهم، وطلبوا رضاه وموافقة الرسول ﷺ، فخصهم الله من بين الأمة بقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ﴾.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: شكى الله بهذه الآية من طباع الخليقة المجهولة بالبخل، حيث سأل منهم القرض، ولو كانوا على محل التقديس لخرجوا من وجودهم له قبل سؤاله، ومع ذلك القرض الحسن ما أعطاه بنعت الخجل مما بذل فأين حسن الإيمان؟ يعرف إن العبد وما ملك لسيده، فكيف يقرضه وهو وماله له، فمن عرف نفسه بالعبودية، وعرف أن الكل له فما يعطي بعد ذلك، فهو القرض الحسن.

قال سهل: أعطى الله فضلاً، ثم سألهم قرضاً وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

قال الواسطي: القرض الحسن للعوام، وللخاص الخروج عن جميع الأملاك عن طيبة النفس والرضا كأبي بكر الصديق ؓ.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٧) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٨﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٩﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَانُكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ﴾^(١): إن الله سبحانه ألبس العارفين نور عظمتهم وكبريائهم، وأسبل على وجوههم سنا هيئته وضياء بهائه، وجعلهم مشكاة أنوار تجليه، تتناثر منهم أنوار هبة الحق يميناً وشمالاً وخلفاً وقداماً وفوقاً وتحتاً، وهم

(١) نور المؤمن يسعى بين يديه، له هبة في قلوب المرافقين والمخالفين، يعظمه الموافق ويعظم شأنه، ويهابه المخالف ويخافه، وهو النور الذي جعله الله تعالى لأوليائه، ولا يظهر ذلك النور لأحد إلا إن اتقاد له وخضع، وهو من نور الإيمان. تفسير التستري (٢/ ١٢٤).

يمشون إلى الله بنور الله، فعند ذلك النور تخضع له الأكوان، ومن فيها من الموافق والمخالف، فالموافق يستبشر برؤيته فيعظمه، والمخالف يفرع منه فيها، وهذه الأنوار معه في الدنيا والآخرة.

قال سهل: نور المؤمن يسير بين يديه وهيبته له في قلوب الموافق والمخالف، فالموافق يعظمه ويعظم شأنه، والمخالف يهابه ويخافه، وهو من نوره الذي جعل الله لأوليائه لا يظهر ذلك النور لأحد إلا اتقى له وخضع، وذلك من نور الإيمان.

وقال الأستاذ: كما أن لهم في العرصة هذا النور، فالיום لهم في قلوبهم وبواطنهم نور يمشون في نورهم يهتدون به في جميع أحوالهم.

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ آلَهِ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١٦) ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٧) ﴿ إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُ لَهُمْ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (١٨).

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ :

هذا لقوم من ضعفاء المريدين الذين في نفوسهم بغايا الميل إلى الحظوظ حتى يحتاجوا إلى الخشوع عند ذكر الله، وأهل الصفوة احترقوا في الله بنيران محبة الله، لو كان هذا الخطاب للأكابر لقال: «أن تخشع قلوبهم لله»؛ لأن الخشوع لله موضع فناء العارف في المعروف، وإرادة الحق بنعت الشوق إليهم، فناؤهم في بقاءه بنعت الوله والهيجان والخشوع للذكر موضع الرقة من القلب، فإذا رقق القلب خشع بنور ذكر الله لله، كأنه تعالى دعاهم بلطفه إلى سماع ذكره بنعت الخشوع والخضوع والمتابعة بقوله والاستلذاذ بذكره حتى لا يبقى في قلوبهم لذة فوق لذة ذكره.

قال سهل: لم يمن لهم أو أن الخشوع عند سماع الذكر، فشاهدوا الوعد والوعد مشاهدة الغيب.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (١٩) ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ

عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٠﴾
 قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ﴾ أي:
 الذين شاهدوا الله بالله بنعت المعرفة والمحبة، وتابعوا رسوله بالصحبة، والمعرفة بشرفه
 وفضله، والانقياد بين يدي أمره ونهيه، أولئك هم الصديقون؛ لأنهم معادن الإخلاص
 واليقين، وتصديق الله في قوله بعد أن شاهدوه مشاهدة الصديقية التي لا اضطراب فيها من
 جهة معارضة النفس والشيطان، وهم شهداء الله تعالى، مقتولون بسيف محبته، مطروحون
 في حجر وصلته يحيون بجماله، يشهدون على وجودهم بفنائه في الله وبفناء الكون في عظمة
 الله، وهم قوم يستشرفون على هموم الخلائق بنور الله، يشهدون لهم وعليهم بصدق الفراسة؛
 لأنهم أمناء الله، خصَّهم الله بالصديقية والشهادة والولاية والخلافة.
 وقال أبو علي الجوزجاني: الصديقون حزب الله، خواصهم أهل المعرفة، وأوساطهم
 العقلاء.

وقال: قلوب الأبرار معلقة بالملكوت مقبلين ومدبرين، وقلوب الصديقين معلقة
 بالرب مقبلين بالله والله.

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ : دعا المريدين إلى مغفرته بنعت الإسراع
 ودعا المشتاقين إلى جماله بنعت الاشتياق والأشواق، وقد دخل الكل في مظنة الخطاب؛ لأن
 الكل قد وقعوا في بحار الذنوب حين لم يعرفوه حق معرفته، ولم يعبدوه حق عبادته، دعاهم
 جميعاً إلى التطهير في بحر رحمته حتى صاروا متطهرين من غرورهم بأنهم عرفوه، فإذا وصلوا
 عرفوا أنهم لم يعرفوه، فيأخذ الله بأيديهم بعد ذلك، ويكرمهم بكشف جنان قربه وفراديس
 مشاهدته، ولولا رحمته وغفرانه لهلكوا جميعاً في أول بوادي سطوة غرته، لكن أغفلهم عنه فيه
 حتى يبقوا، ولو رفع عنهم غطاء الغفلة والجهل به في مشاهدته لهلكوا جميعاً حسرة من فقدان
 الحق والحقيقة.

قال الحسين في هذه الآية: لما باشرت هذه المخاطبة العقول نهضت مستحضة للجوارح
 بحسن التوجه؛ لإقامة مائة مخطون عند من استجابوا لدعوته، فظنوا لإشارته، وأقاموا تحت
 العلم بقربه، وقرت عيونهم بما أورد على قلوبهم بالسرور بالخلوة، جلاساً إناساً أكياساً لا
 يرهبون في الطريق إليه غيره، ولا يتوسلون إليه الأبد، ولا يسألونه شيئاً غير التمتع بخدمته،

وحسن المعرفة على موافقته.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١٠) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١١) الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٢) لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (١٣) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٤).

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾: يا عجباً من كان قادراً أن يوصل العباد إليه بلا مصيبة ولا تعب فكيف يصيبهم المصيبة؟ أراد أن يعرفهم بامتحان القهر حقائق الربوبية، وأن يعرفهم غرائب الطريق إليه حتى عرفوه بجميع الصفات، وشاهدوا جميع النعوت، ولولا ذلك لما عرفوه بالحققة في معرفة غيره، فمن سمع هذا الخطاب ينصرف نظره من المصيبة إلى سوابق الامتحان حتى يكون برؤية السبق شاهد الحق راضياً بقضائه، صابراً في بلائه؛ لأنه هناك يحتمل البلاء برؤية المبلي.

قال الجنيد: من عرف الله بالربوبية، وافتقر إليه في إقامة العبودية، وشهد بصره ما كشف الله له من آثار القدرة بقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ إلا به فسمع هذا من ربه وشهد بقلبه وقع في الروح والراحة وانشرح صدره وهان عليه ما يصيبه، ثم زاد سبحانه في تأكيد طلب الرضا من عباده ويقينهم باختياره لهم والصبر في بلائه بقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾: طالب الله بهذه الآية أهل معرفته بالاستقامة والإنصاف بصفاته، أي: كونوا في المعرفة بالأثر فيكم الفقدان والوجدان والقهر واللطف والاتصال والانفصال والفراق والوصال والكفر والإيمان والطاعة والعصيان؛ لأن من شرط الأنصاف ألا تجري عليه أحكام التلوين، والاضطراب في اليقين والاعوجاج في التمكين، لا تأسوا على ما فاتكم من معرفة الأزل؛ فإن الأزل للأزل لا لأنفسكم، فإذا سقط الأسف لا تفرحوا بما تجدون من الأبد؛ فإن الأبد للأبد، وأنتم معزولون من كلا الطرفين؛ فإن الحقيقة ترجع إلى العلة.

قال سهل: في هذه الآية دلالة على حال الرضا في الشدة والرخاء.

وقال القاسم: ما فاتكم من أوقاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم من توبتكم وطاعتكم،

فإنك لا تدري ما قدر الله فيك وقضى.

وقال الواسطي: الفرح من الكرامات من الاغترارات، والتلذذ بالأفعال نوع من الإغفال والحمود تحت جريان الأمور زين لكل مأمور، قال الله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ إلخ.
وقال: العارف مستهلك في كنه المعروف، فإذا حصل مقام المعرفة لا يبقى عليه فضل فرح ولا أساء، قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ إلخ.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾^(١): وصف الله هاهنا أهل السنة وأهل البدعة، أهل السنة أهل الرأفة والرحمة، وأهل البدعة أهل الرهبانية المبتدعة من أنفسهم، ووصف الله قلوب المتمسكين بسنة الأنبياء بالموددة والشفقة في دينه ومتابعة رسوله، تلك المودة من مودة الله إياهم، وذلك بالرحمة من رحمة الله عليهم؛ حيث اختارهم في الأزل؛ لأنهم خلفاء الأنبياء وقادة الأمة، ووصف الله المتكلفين الذين ابتدعوا رهبانية من أنفسهم مثل ترك أكل اللحم والجلوس في الزوايا للأربعين عن الإتيان إلى الجمعة والجماعات؛ لأجل قبول العامة بأنهم ليسوا على الطريق المستقيم، بل هم متابعون شياطينهم الذين غرَّتهم في دنياهم بأن زينوا في قلوبهم المحالات والمزخرفات، وما كتب الله عليهم الابتغاء رضوان الله، ورضوان الله هو الشريعة والطريقة الأحمدية المحمدية ﷺ، ثم وصف هؤلاء بأن ما ابتدعوها من الرهبانية والمجاهدة والرياضة إذا كانت بغير متابعة السنة صارت متروكة.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾^ط حيث خرجوا من طريق السنة، وهكذا حال جهلة زماننا الذين طلبوا الرياسة بالزهد والتعلم والتذكر على رؤوس المنابر، وقولهم الزور والبهتان، وطعنهم في الأولياء، فلما فضحهم الله عند الخلق بما في صدورهم من حب الجاه والمال تركوا رهبانيتهم، ورجعوا إلى ما هم فيه، والرعاية عند العارفين محافظة الحال عن

(١) وذلك أنه لما كثر المشركون وهزموا المؤمنين وأذلّوهم بعد عيسى ابن مريم ﷺ واعتزلوا واتخذوا الصوامع فطال عليهم ذلك، فرجع بعضهم عن دين عيسى، عليه السلام، وابتدعوا النصرانية: تفسير مقاتل (٣/ ٣٢٧) بتحقيقنا.

المحال، ومراقبة الأنوار بعيون الأسرار.

قال سهل: الرهبانية مشتقة من الرهبة وهو الخوف.

قال: معناه ملازمة الخوف ما تعبدنا هم به.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن خفيف في قوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾: المريد الحذر من مطالعة علمه بقعده عن إقامة الأحوال الموظفة، ويجرّه إلى دواعي المرخص بورود الفترة، ويحذر أن يورده الإغماض في مناولة الدنيا والمسامحة في أخذها، فإن الله عليك رقيب، وقد وصف الله القوم في كتابه بقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ لَعَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ﴾: حقيقة الإشارة مع الشاهدين لله بنعت المحبة وحلاوة الوصلة، أيها المشاهدون اتقوني فيما وجدتم مني من لذة الوصال، والشغف بالجمال حتى لا يحجبكم عن السير في أنوار أزالى وآبادي، والسباحة في بحار ذاتي بسفن العجز، فمن احتجب لي عني فهو منقطع عني، واقتدوا بسنة الأنبياء والمرسلين والمشاهدين والعارفين فيها وجد مني، واستقام في طلب المزيد، وما احتجب به عني حيث استغفر في كل يوم سبعين مرة من الخطاب الوقوف والسكون في المعروف، حين سلك مسالك الأزال والآباد بمراكب الاصطفائية الأزلية.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ نصيبين أي: عينين من عيون ذاتي وصفاتي، فتروني بالعين الصفاتية مشاهدة صفاتي، وبالعين الذاتية مشاهدة ذاتي، كما أتى حبيبه هذين الكفين، وهاتين العينين وبهما رأي، وبهما عرفني.

﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾: يعطيكم نورًا من نوره يمشون بمركبه في ميادين الأزل والأبد بنعت المعرفة والمحبة.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾: قصور إدراككم حقيقة وجوده.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: «غفور» بحيث هداكم إلى نفسه، «رحيم» بأنه يغيثكم من الاستهلاك والاستغراق في بحار عظمته، ويبقيكم به بعد الفناء فيه حتى تعيشوا في مشاهدة جماله أبدًا.

قال الجنيد: أي: يا أيها الموحدون اتقوا الله ألا يسلبكم حلاوة معرفته وسرور محبته، وآمنوا برسوله أي: اقتدوا به في محبته لمولاه واستسلام نفسه إليه يؤنكم كفلين من رحمته نوراً من نوره تقوون به في ذكره، ونور تقوون به على مشاهدته، ويؤيدكم بنوره الساطع في أرواح أهل محبته الذي به يقومون على استماع كلامه، والتمتع بمخاطبته، ويغفر لكم ذنوبكم ملاحظتكم أنفسكم.

قال سهل في قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾: هو السر والعين، فالسر سر المعرفة، والعين عين الطاعة.

وقال الأستاذ: نصيبين من فضله عصمة ونعمة، فالعصمة من البقاء عنه، والنعمة في البقاء به، ثم أن الله سبحانه بيّن أن الوصول إلى هذه المقامات من النبوة والولاية لا يكون إلا بفضله وهدايته وإرادته وقدرته بقوله: ﴿لَعَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: أخرج فضله من الاكتساب وعلل الجهد والطلب، يؤتي هذه الكرامات من يشاء من عباده المصطفين في أزله بالعناية والكفاية، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: ذو العطاء في الأزل إلى الأبد عظم فضله بعظمته، والفضل العظيم ما لا ينقطع عن المنعم عليه أبداً.

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ خَوَائِرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فَمَنْ كَفَرَ بِحَيْدِ فَصِيحَةٍ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُخَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنَّا أَعْيُنَ يَدَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾: بَيَّنَّ الله سبحانه في أول هذه السورة مقام الانبساط حيث انبسطت المجادلة مع الحبيب، ثم استحسَنَ الله انبساطها ومجادلتها حين خلصت من الالتفات على غيره بقوله: ﴿وَقَشَّيْنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا إلى غير الله ومنزل الشكوى مقام النجوى وبين النجوى والشكوى انبسطت إلى المولى، ثم زاد الكرم في إظهار فضله عليها حين سمع كلامها وأجابها بخطابه، فأين أنت من مقام الشكوى عنه عنده به له عليه، والنجوى في السر وسر السر وبث الحزن والعريضة في الانبساط حتى يسمع منك سبحانه نجواك وانبساطك، وأعطاك سؤالك ومأمورك أنه سبحانه إذا اصطفى عبداً من عبيده لا ينظر إلى ضعفه وكسبه ونسبه وسببه وحسنه وقبحه وعمله وعلمه، وأنه رجلٌ أو امرأة، بل ينظر إلى أسرارِه المنبسطِ على بساط الربوبية بنعت الذلِّ والخضوع، وينظر إلى طلبات سره وهيجان قلبه وحركات روحه، وتوجهه إليه بنعت الإقبال عليه، فيقبله بحسن إقباله، ويراعيه بكشف مشاهدته، ويصرف عنه هجوم عساكر قهر امتحانه ويومئ قلبه إلى قرب قربه ومعادن جوده، فيملاً من نور العرفان، وسنا الإيقان وضياء الإيمان، ويطيبه بطيب محبته حتى يطير بجناح لطفه في هواء هويته وبساتين مشاهدته، فيجتني من أشجار حقائقها ثمرات الزلفات والمداناة، فيقوى بها في حمل واردات التجلي والتدلي.

قال الأستاذ: لما صدقت في شكواها إلى الله، وأيست من استكشاف ضررها من غير الله أنزل الله في شأنها هذه الآية.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾.

قوله تعالى: ﴿أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾: أخبر الله سبحانه عن عظيم إحاطته بالضمائر والخاطر وذرات الوجود من الأزل إلى الأبد بحيث لا يعزب عن عمله وإحاطته مثقال ذرة في السماوات والأرض.

قال الله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: شاهد الأشياء بعلمه الذي شاهده كينونتها في الأزل، فأوعد العباد، وحذرهم في مراقبته من اطلاعه بما كان وما يكون، وبَيَّنَّ غفلة العباد عن ذلك؛ حيث نسوا ما فعلوا، وما حاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

قال بعضهم: من نسي جرائمه، ولم يكثر عليها بكاؤه، ولم يتأسف عليها بالندم، وطلب التوبة فقد ضيَّع عمره؛ لأن الله أحصى عليه أعماله وسيرتها إياه في المشهد الأعظم حين لا ينفع توبة تائب، ولا يسمع دعاء داع، ولا يقبل معذرة معتذر، قال الله: ﴿أَحْصَنَهُ اللَّهُ

وَنُفُوسُهُۥ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَهَوُا النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا يَهَوُا عَنْهُ وَيَتَنَجَّجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾: المعية بالعلم عموم، وبالقرب خصوص، والقرب بالعلم عموم، ويظهر التجلي خصوص، وذلك دنو دنا فتللى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فإذا ارتفع الأين والبين والمكان والجهات، واتصلت أنوار كشوف الذات والصفات بالعارف، فذلك حقيقة المعية؛ إذ هو سبحانه منزلة عن الانفصال والاتصال بالحدث، لو ترى أهل النجوى الذين مجالستهم لله وفي الله ل ترى من وجوههم أنوار المعية أين أنت من العلم الظاهر الذي يدل على الرسوم! ألم يعلم أن علمه أزل وبالعلم يتجلى للمعلومات، فالصفات شاملة على الأفعال، ظاهرة من مشاهد المعلومات، فإذا كانت الذات لا تخلو من قرب الصفات كيف تخلو عن قرب الذات الأرواح العالية المقدسة العاشقة المستغرقة في بحر وجوده؟! لا تظن في حقي أني جاهل بأن القديم لا يكون محل الحوادث، فإنه حديث المحدثين، اعبر من هذا البحر حتى لا تجد الحدثان، ولا الإنسان في مشاهدة الرحمن.

قال الحسين: اصحب أقواماً بأرواح طاهرة، وملاحظات دائمة، وأنوار قائمة.

قال: ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم علماً وحكماً، لا نفساً وذاتاً.

قال النصر آبادي: من شهد معية الحق معه زجره عن كل مخالفة وارتكاب كل ما لا يجب، ومن لا يشاهده معية، فإنه خطئ إلى الشبهات والمحارم.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَآتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ أي: تناجوا ببذل الأرواح لله، وتزكية الأشباح في طاعة الله.

قال سهل: بذكر الله، وقراءة القرآن، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ﴾: هذا شيطان ينجي النفس الأمارة، ويزين لها المعارضات والشك؛ ليحزن القلب والروح من نجواهما وإلقاء العدو وهو اجس النفس، ويتقاعدان من شؤم معارضتهما والحزن وضيق الصدر من الطيران والسيران في عالم الملكوت، ونجواهما لا تضر بالروح والقلب؛ فإنهما محروسان برعاية الحق وتأنيده^(١).

قال سهل: هو إلقاء من العدو إلى نفس الطبع، كما قال النبي ﷺ: «لِلْمَلِكِ لَمَةٌ وَلِلشَّيْطَانِ لَمَةٌ»^(٢).

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: وسعوا بساط قلوبكم ومجالس صدوركم من ضيق الحدودية، وتضائق النفوسية لموارد تجلي القدم بنعت ألا يبقى لغير نظر الحق شيء دون الحق، يفسح الله لكم بساط قربه، ومجالس أنسه وحجال قدسه. قال فارس: وسعوا لقبول الحق، يَمُنُّ الله عليكم بالحققة.

قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾: الإيمان محل المشاهدة، والمشاهدة محل العين، والعلم عين المعرفة، فصاحب عين العلم وصاحب عين المشاهدة في درجات، فإذا كان مع العلم عين فالعلم مع العين أقوى من العين بلا علم، وذلك العلم يكون بعد العين، فإذا كان قبل العين ليس بعلم حقيقي، إنما حقيقة العلم ما يستفاد من المشاهدة والعين لذلك. قال: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾: وفيه إشارة أخرى أن لأهل العلم درجات، وليس لأهل العين درجات؛ إذ لا يبقى لهم مسلك في القدم لتلاشيهم فيه.

(١) النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا. وإذا كانت المشاهدة غائبة، والقلوب حاضرة، والتوكل صحيحاً؛ والنظر من موضعه صائباً فلا تأثير لثل هذه الحالات، وإنما هذا للضعفاء، تفسير القشيري (٣٩٩/٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٠١/٩).

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَجَيَّتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؕ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٠﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ٢١﴾ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٢٢﴾ يَوْمَ يَتَّبِعُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ؕ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ٢٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَجَيَّتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ إن الله سبحانه أَدَّبَ أهل الإرادة بهذه الآية ألا يتناجوا شيوخهم في تفسير إلهام واستفهام علم المكاشفة والأسرار، إلا بعد بذل وجودهم لهم والإيمان بهم بشرط المحبة والإرادة، فإن الصحبة بهذه الصفة أزكى وأطهر خيراً لقلوبهم، وأطهر لنفوسهم، فإن ضعفوا عن بعض القيام لحقوقهم ومعهم الإيمان والإرادة، وعلموا قصورهم عن أداء الحقوق بالحقيقة، فإن الله يتجاوز عن ذلك التقصير، وهو رحيمٌ بهم بأنه يبلغهم إلى درجات الأكابر قال الله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا﴾.

﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ؕ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ؕ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؕ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ٢٥﴾.

قوله تعالى: ﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾: إذ رأى الشيطان أن يثبت في سبحة أرض النفس الأمارة حظل الشهوة يثبت إليها، ويغريها إلى إنقاذ مرادها، فتكون النفس مركبة، فيهجم على بلد القلب ويخرجه، بأن يُدخل فيه ظلمات الطبيعة وظلمات الشيطان، ولا يرى عن القلب مسلك الذكر وصفاته، فلما احتجب عن الذكر صار وطن إبليس وجنوده، غلب الملعون عليه، وهذا يكون بإرادة الله سبحانه، وسببه اشتراء غرور الملعون وتزيينه، بأن يلبس أمر الدين بأمر الدنيا، ويغويه من طريق العلم، فإذا لم يعرف دقائقه صار فريسة الشيطان.

قال شاه الكرمانى: علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من

المأكل والملابس، ويشغل قلبه عن التفكير في آلاء الله ونعمه عليه، والقيام بشكره، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان، ويشغل قلبه عن التفكير والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها، ويمنعه أكل الحلال ويرزقه الحرام.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأُغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأُغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي: كتب على نفسه في الأزل أن ينصر أوليائه على أعدائه من شياطين الظاهر والباطن، ويعطيهم رايات نصره الولاية، فحيث تبدو راياتهم التي هي سطوع نور هبة الحق من وجوههم صار العدو مغلوبًا بتأييد الله ونصرته.

قال أبو بكر بن طاهر: أهل الحق لهم الغلبة أبدًا، ورايات الحق تسبق الرايات أجمع؛ لأن الله جعلهم أعلامًا في خلقه، وأوتادًا في أرضه، ومفرعًا لعباده، وعمارة لبلاده، فمن قصدهم بسوء أكبه الله لوجهه، وأذله في ظاهر عزه؛ لذلك قال جل من قائل: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأُغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: وصف الله المؤمنين المخلصين في إيمانهم الصادقين في محبتهم وإرادتهم قرب الله وقرب أوليائه أنهم لا يحبون غير من يُقبل بكليته على الله، ولا يطبقون أن ينظروا إلى وجوه المخالفين لأمر الله، وإن كانوا آباءهم أو أبناءهم؛ لأنهم آثروا الله على من دونه، وذلك بأن الله غرس أشجار التوحيد والمعرفة في قلوبهم، وتجلي لأرواحهم من نفسه، فصار معنى حقيقة التجلي منفق شافي نفس أرواحهم وعقولهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾^(١): كتب بصفاته في قلوبهم بنعت ظهورها في قلوبهم، فعرفت القلوب

(١) وهو الصدق في الطلب وحسن الإرادة المنتجة من بذل يجهم ويحبونه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإلا فمن خصوصية طبيعة الإنسان أن يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية وإن كانوا يصلون

برؤيتها، فسكنوا إليها، واستلذوا رؤيتها، فأيدهم الله بتجلي ذاته لأرواحهم، وما أبقاهم في رؤية الصفات، بل أغرقهم في قاموس الذات، فوجدوا فيها جواهر أسرار الربوبية وحقائق أنوار الألوهية، وذلك الوجدان، بأنه نفخ من روح الأزل في أرواحهم روح المعارف، فصارت أرواحهم مؤيدة بروح منه.

قال الحسين: أقبل عليهم بنظره، وملأهم بقدرته، وأحصاهم بعلمه، وأحاطهم بنوره، ودعاهم إلى معرفته.

قال الواسطي: هو الذي كتب الإيمان في قلوب المؤمنين؛ ليكون أثبت وأبقى لوقوع المناسبات.

وقال: الإيمان سواطع الأنوار، وله لمعة في القلوب، ومكين معرفته حملت السرائر في الغيوب.

وقال النصر آبادي: كتابه من الحق، ونُقش منه كتبها ونقشها في قلوب أوليائه، ثم أطلعه عليها، فقرأه كل قارئ وغير قارئٍ لعناية الحق فيه مستترة.

قال سهل: الكتاب في القلب موهبة الإيمان التي وهبها لهم قبل خلقهم في الأصلاب والأرحام، ثم أبدأ سطوراً من النور في القلب، ثم كشف الغطاء عنه حتى أبصر ببركة الكتابة به، ونور الإيمان المغيبات.

وقال: حياة الروح بالتأييد، وحياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة الذكر بالذاكر، وحياة الذاكر بالمدكور، ثم وصفهم الله بأنهم أنصار الله في دينه الذي فازوا بالظفر في الله على نفوسهم وعلى كل عدو بقوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: حزب الله أهل معرفته ومحبه وأهل توحيده الفائزون بنصرة الله من مهالك القربان ومصارع الامتحانات، وجدوا الله بالله، إذا ظهر واحدٌ منهم ينهزم المبتلون وينكسر المغالطون؛ لأن الله ألبس على وجوههم نور هيئته، وأعلى لهم أعلام عظمتهم، يفر منهم الآساد، وتخضع عندهم الشاخحات، كلاًهم بحسن رعايتهم، ونورهم بسنا قربه، ورفع لهم أذكارهم في العالمين، وعظم أقدارهم، وكنتم أسرارهم.

قال سهل: الحزب الشيعة، وهم الأبدال، وأرفع منهم الصديقون، إلا أن حزب الله هم الغالبون، وارثون لأسرار علومه، المستشرفون على معادن ابتدائهم إلى انتهائهم

ويصومون ويزعمون أنهم مسلمون؛ ولكن بالتقليد لا بالتحقيق، اللهم إلا من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه انتهى. تفسير حقي (١٤/ ٢٦٣).

هم المفلحون.

قال الحسين: حزب الله الذين إذا نطقوا بهروا، وإن سكنوا ظهورا، وإن غابوا حضروا، وإن ناموا سهروا، وإن كملوا فكمّلوا، وإن نجت عنهم علل التخليط فطهروا، أولئك حزب الله إلى آخره.

قال أبو سعيد الخراز: حزب الله قوم علاهم البهاء والبهجة، فنعموا، ولم يحتملوا الأذى، وصاروا في حرزه وحماه، فغلب نورهم الأنوار أجمع، وغلب مقامهم المقامات أجمع وهمومهم الهَمَم أجمع، فكانوا في عين الجمع مع الحق أبداً.

وقال ابن عطاء: إن لله عبادةً اتصاهاهم به دائماً، وأعينهم به قريرة أبداً لا حياة لهم إلا به؛ لاتصال قلوبهم به والنظر إليهم بصفاء اليقين، فحياتهم بحياته موصولة لا موت لهم أبداً، ولا صبر لهم عنه لا تقدس أرواحهم، فعلقها عنده، فثَمَّ مأواها قد غشى قلوبهم من النور ما أضاءت به، فأشرقت ونما زيادتها على الجوارح، وصاروا في حرزه وحماه أولئك حزب الله إلخ.

قال رويم: صفتهم أنهم اطمأنوا إلى الله، وهم أولياء الله وخاصته، وأمان بلاده فأعين قلوبهم ناظرة إلى ربهم، وآذان قلوبهم سامعة منه، وهم الذين اصطفاهم الله واختارهم وهداهم إلى نفسه، وسترهم عن خلقه أولئك حزب الله إلخ.

سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: قدس الله كل ذوات الأرض والأشباح والأجسام والحياة، بلسان العقول، ووجدان نور الإيجاد، ومباشرة أفعاله؛ لأنه تعالى خصّ ذوي العقول برؤية نور الصفات في الأفعال، وهيّجهم ذلك إلى تقديسه وتنزيهه من علل الحدثان، ذلك تعريف نفسه إياهم بظهور الصفة في الفعل، فعرفوه، ثم قدسوه، وخصّ ما دونهم من ذوي الحياة بمباشرة نور الله، فوهبها منها أرواحاً مسبحةً، وكذلك الجمادات لها لسان الفعل يصف بها الحق، وتنزهه الجمادات، وسرّ عجيب لا يعرفه إلا من يفقه قول الله سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، ومن عظم قدر ذلك السر واللسان والوصف والتقديس شدّد الأمر في إدراكها بقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰأُولِيَ الْآبْصَارِ ﴿١﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾: لما تمكّن الأعداء في شرّ نفوسهم لم يحتسبوا أن الله سبحانه يقلعهم عن ذلك، ويخذلهم بنفسه، وذلك أضراب جسام قهريات في ظهور عظمته على وجودهم، فاستأصلهم من حيث لا يعرفون، كقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أتاها بكشف نعت قهر عظمته عن طريق الأزل الذي أنسه سبيله عن إدراك عقول الغفلة، ولو رآوه بلسان العظمة هان عليهم المصائب، لكن ليسوا من أهل معرفته، فقهرهم بقهر عزته، فأناهم، ولم يروه، ولم يعرفوه، ولم يجدوا منه إلا مسّ قهره في قلوبهم، بقوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، فحجبهم الرعب عن مشاهدته، وذلك الرعب أورث لهم تخريب قلوبهم بمعول الضلالة والغباوة، فلما وجدوا طعم الرعب هربوا من سلطته، كشف العظمة: وسقطوا في أودية الأهواء وظلماتها، وهذه سنة الله على من أدبر عنه بعد الإقبال عليه، يعذبهم بنفسه كما هداهم إليه بنفسه، وهذه أعظم العقوبة، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، وفيه إشارة عين الجمع؛ لأن إتيان حبيبه إليهم هو إتيانه، فبذلك خوفاً العباد المعتبرين بمثل هذه المكريات القهريات، بقوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يٰأُولِيَ الْآبْصَارِ﴾: يا أولي المعرفة بي والأبصار والبصيرة التي هي منورة بكحل نور مشاهدتي، وخافوني إن كنتم عارفون بي، وهذا كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

قال سهل في قونه: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: قلوبهم بالبدع يا أولي الفهم والعقل عن الله.

قال يحيى بن معاذ: من يعتبر بالمعينة لم ينتفع بالموعظة، ومن اعتبر بالمعينة استغنى عن الموعظة، قال الله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يٰأُولِيَ الْآبْصَارِ﴾.

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾: تفسيره بلسان الإشارة أن ما ينكشف بالبداهة من عالم الملكوت والجبروت، وأسرار الغيوب، وكشوف الصفات؛ لظهور الذات، ونزول الكلام والخطاب بالبداهة التي ليس فيها مراقبة العارفين، ولا ترصد قلوب المحييين، إلا مطالبة الشاهدين، ولا قصور المريدين، بل سدّ بحار أنوار الألوهية، وأسرار الملكوتية، وغلبات سيول عيون الجبروتية، فلله منها نصيب بأن يكتُمونه، ولا يخبرون بذلك أحداً سترًا على الأسرار، وخوفًا من غيرة الجبار، ألا ترى كيف وصف النبي ﷺ بعض الملائكة التي رآهم ليلة المعراج، فأمسك لسانه من الوصف، وقال: «إلى هاهنا أمرت» (١)، وما لرسولٍ منها أن يكون بعضًا من مقاماته لا يجوز أن يخبر عنه؛ فإنه محل ستر الله وغيرته على حبيبه ﷺ، وما للمكاشف الذي هو نائب الأنبياء، هو يتصرف بنفسه كما يشاء، فيؤثر لنفسه الخواص والأسرار فيكتُمها، وما يوافق قلوب أهل الصحة يخبرهم منه وهم على طبقات.

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٤) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٥) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

(١) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

لَكَذِبُونَ ﴿٥٠﴾ لَيْنَ أَخْرَجُوا لَا تَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَيْنَ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَيْنَ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿٥١﴾.

﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾: الذين شاركوا بعض مقاماته، وهم أهل القرية الأعزّة في الصحبة.
﴿وَالْيَتَامَى﴾: هم الذين تقطّعوا مما دون الحق إلى الحق، فبقوا بين الفقدان والوجدان طلاب الوصول.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: هم الذين لهم بلغة المقامات، وليسوا متمكنين في الحالات.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾: وهم الذين سافروا من الحدث إلى القدم، فيلاطف قلوبهم بما وجدوا من الله حتى تكون لهم عوناً في طيرانهم إلى الله، وسيرانهم في أنوار الله، ثم وصف من بينهم المساكين تأكيداً وتشريفاً لهم ومحبة إياهم، بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: وصف المهاجرين بأنهم تركوا ما دون الله، وخرجوا من نفوسهم وحظوظهم بالله، ويقبلون عليه بالكلية، يتغنون المعرفة بالله من الله، والوصول إليه بنعت الرضا، وذلك قوله: ﴿يَتَتَفَعُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، ثم وصفهم بالصدق في آخر الآية بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: صادقون في محبة الله، وخدمة حبيبه ﷺ، ونصرة أوليائه، ما أطيب عيشهم في فقرهم؛ حيث انتقروا إلى الله؛ لطلب قربه ووصاله، والله سبحانه يراعيهم، ويجعلهم ملوكاً، ويخدمهم الأغنياء تشريفاً لهم وتقريباً.

قال ابن عطاء: هم الذين تركوا كل علاقة وسبب، ولم يلتفتوا من الكون إلى شيء، وفرغوا أنفسهم لعبادة ربهم، واتباع رسوله ﷺ.

قال الخراز: من عطف بقلبه على شيء سوى ربه فليس بفقير؛ لأن الله يقول: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾.

وسئل الحسين: من الفقراء؟ قال: الذين وقفوا مع الحق راضين على جريان إرادته فهم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: أثنى الله سبحانه على الفقراء، ووصفهم بأحسن الوصف؛ إذ كانوا صادقين في فقرهم، ثم أثنى على الأغنياء به لصدقهم في غنائهم، ووصفهم بالإيمان والمعرفة بالله من قلوبهم، ولزومهم مواضع قربته، وخفض جناحهم لإخوانهم من الفقراء، ومحبتهم مهاجرتهم إليهم وضيافتهم بقوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، ثم وصف أن صدورهم مقدسة من الشح والبخل والبغض والغش

والحسد وحب الدنيا بقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾، ووصفهم بالسخاوة بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: يَبْنِي فِي الْآيَتَيْنِ شَرَفَ الْمُقَامِينَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى، الَّذِينَ هُمْ مَقَامُ أَمْنَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ لَمْ يَبْقَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا وَمَالِهَا وَجَاهِهَا ذَرَّةٌ، وَهُمْ الْمُوصُوفُونَ فِي آخِرِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: مَنْ صَارَ حَبِيْبَهُ مَقْدَمًا مِنْ حِرْصِ نَفْسِهِ ظَفَرَ بِرُؤْيَا رَبِّهِ.

قال سهل: حرص نفسه على شيء، هو غير الله والذكر له، فأولئك هم الباقون مع من أحيا بحياته.

سُئِلَ أَبُو الْحَسَنِ الْبُوشَنجِي عَنْ الْفَتْوَى؟ قَالَ: الْفَتْوَى عِنْدِي مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَنْصَارَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّانَ﴾.

قال ابن عطاء: يؤثرون به جودًا وكرمًا.

﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: يَعْنِي جَوْعًا وَفَقْرًا^(١).

وقال الحسين: مَنْ رَأَى لِنَفْسِهِ مَلَكًا لَا يَصِحُّ لَهُ الْإِثَارُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى نَفْسَهُ أَحَقَّ بِالشَّيْءِ بِرُؤْيَا مُلْكِهِ، إِنَّمَا الْإِثَارُ لِمَنْ يَرَى الْأَشْيَاءَ لِلْحَقِّ، فَمَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ، فَإِذَا وَصَلَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِ يَرَى نَفْسَهُ وَيدُهُ فِيهِ يَدُ غَضَبٍ، أَوْ يَدُ أَمَانَةٍ يُوَصِّلُهَا إِلَى صَاحِبِهَا، وَيُؤَدِّيهَا إِلَيْهِ.

سُئِلَ سَهْلٌ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

نِعَمَ مَا قَالَ الشَّيْخُ: مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ مِنْ خَبَرِ الْغَيْبِ وَمَكَاشِفَةِ الرَّبِّ، فَخُذُوهُ بِالْيَقِينِ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، فَانْتَهُوا.

﴿لَا تُنْزِرُ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُنْزِرُ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾: وَصَفَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِسَالَةِ

(١) تقول العرب: فلان مخصص إذا كان فقيرًا، فيؤثرون رضا الله على هواهم؛ والإيثار شاهد الحب. وقد حكى عن وهيب بن الورد أنه قال: يقول الله: «وعزتي وعظمتي وجلالي، ما من عبد أثر هواي على هواه إلا قللت همومه وجمعت عليه ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر، وعزتي وجلالي، ما من عبد أثر هواه على هواي إلا كثرت همومه، وفرقت عليه ضيعته، ونزعت الغنى من قلبه، وجعلت الفقر بين عينيه، ثم لا أبالي في أي واد هلك». تفسير التستري (١٣٦/٢).

إياهم رداء عظمتهم، وتعظيمهم في عيون الكفرة والأضداد، حتى فزعوا من رؤوسهم، ولو أنهم تحققوا في معرفة الله لخافوه ولم يخافوا غيره، فلما لم يصلوا إلى معرفة الله صارت أقدار الخلق أعظم من قدر الله في قلوبهم، وذلك قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعرفون عظمة الله وقدرته، فزعهم، وخوفهم بالواسطة من الله، وهم لا يفقهون أن ذلك الخوف من لباس عظمة الله عليهم، فما داموا لم يكونوا من أهل رؤية عظمتهم صرفاً ألباهم الفزع منه بالواسطة.

قال الواسطي: لا يفقهون أن في ترك الدنيا مشاهدة الآخرة، وفي مشاهدة الآخرة رفض الدنيا، كما أن في مشاهدة الثانية وحضوره زوال عزة النفس، وفي مطالعة صفات الله سقوط صفات العبد، وملاحظة الحق لا يقاربها حب الدنيا، ولا عزة النفس، ولا رؤية الأفعال، ولا رؤية الصفات، فما دامت الشواهد والأعراض على سره أثر لم يفقهه، ألا ترى الله يقول: ﴿لَا تَنفَرُ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ﴾، والحق إذا تجلّى لقلب عبد أذهب عنه أخطار الأكوان وأهلها.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَيْرِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾: وصف الله قلوب المخالفين بالتشتت والفرق في نياتهم وقصودهم وأرائهم، بأنهم لا يرشدون طرق المآب إلى الله، ولا يتوافقون بقلوبهم، وإن توافقوا بأبدانهم، وتلك التفرقة من عينهم عن رؤية محل الصواب.

قال سهل: أهل الحق مجتمعين أبدًا موافقين، وإن تفرقوا بالأبدان، وتباينوا بالظواهر، وأهل الباطل متفرقين أبدًا، وإن اجتمعوا بالأبدان، ووافقوا في الظواهر؛ لأن الله يقول: ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٢١﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾: حذر الله المؤمنين مما قبل هذه الآية بقوله: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَيْرِ﴾،

من تضييع العبودية والتفريط في مباشرة الشهوات التي حجبته عن الله، ثم زاد التخويف في الآية الثانية، وأمرهم ألا يكونوا كالذين نسوا الله؛ حيث اشتغلوا بنفاذ شهواتهم، وطلبهم حظوظ أنفسهم من رؤية الملكوت، ونسوا طيب العيش مع الله وروح الأنس في مشاهدة الله، وسكنوا منه بحظوظ النفس، فلما وجدهم الله ساكنين عنه مشتغلين بغيره، فأنساهم أنفسهم؛ حيث لا يعرفونها، ولا يعرفون طريق رشدتها ووصولها إلى معادن الأول، ولا يرشدتهم طريق المآب إليه، وأي شيء أعظم شقاوة ممن احتجب بنفسه عن الله.

قال سهل: نسوا الله عند الذنوب، فأنساهم الله الاعتذار وطلب التوبة، وقد وقعت لي نكتة: بأن الإشارة في الحقيقة إلى المتحدين والمتصفين الذين غلب عليهم سكر الأنانية، ورأوا وجودهم في عين الجمع، فمن حدة السكر خرجوا بدعوى الأنانية، وذلك بأن رؤية الصفة فيهم غلبت على رؤية الذات، فبقوا في رؤية الصفات عن رؤية الذات، ثم وقعوا في نور الفعل، وبقوا عن رؤية الصفة، فطابت قلوبهم بالسطارة ودعوة الأنانية، وهذا مقام المكر، فلما سكنوا في هذا المقام ولم يرتقوا إلى مدارج الفردانية أنساهم الله أنفسهم الحديثة حتى لم يروها في البين، فبقوا بأنانيتهم عن رؤية الحق، ولولا إنساء الله إياهم أنفسهم لوجدوا مقام العبودية أعلى مما هم فيه؛ إذ فيه أفراد القدم عن الحدوث وحقيقة صرف التوحيد، وهو مقام النبي ﷺ، حين عبّر عن هذا المقام ولم يتعلق ذيل همته بحظ الالتباس والمحبة، ووصل إلى رؤية الأحدية، واختيار العبودية بقوله: «أنا العبد لا إله إلا الله»^(١).

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أصحاب النار في الحقيقة أصحاب المجاهدات الذين احترقوا بنيرانها، وأصحاب الجنة أصحاب المواصلات الذين وقعوا في روح المشاهدات، وفي الظاهر أصحاب النار أصحاب النفوس والأهواء الذين أقبلوا على الدنيا، وأصحاب الجنة أصحاب القلوب والمراقبات.

قال الحسين: «أصحاب النار»: أصحاب الرسوم بالعادات، و«أصحاب الجنة»: أصحاب الحقائق والمشاهدات.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾

(١) تقدمت الإشارة إليه.

اللَّهُ ﷻ : في هذه الآية بعض العتاب مع أهل المآب، بأنهم لا يذوبون تحت موارد الخطاب الأزلي، ولا يفنون في مشاهدة الصفات، ولا يرونها عين الذات، فإن من حقه أن يكون المخاطب بعد متابعة فانيًا عن نفسه وعن الكون فيه، ولو كانت الجبال مقامة في الخطاب لتكدكت الجبال، وتدرّرت، وانفلقت الصخور الصم، وانهدمت الشاغحات العاديات في سطوات أنواره، وهجروم سنا أقداره؛ إذ كل حرف من خطابه أعظم من العرش والكرسي والجنة والنار والأكوان والحدثان، وذلك بأنها عرفت حقيقته، وأقرت بالعجز عن حمل هذا الخطاب العظيم، حيث قال سبحانه: ﴿فَأَيُّنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٣٣)، «ظلمه» قيامه بإزاء القدم، و«جهله»: قلة معرفته بحقائق العبودية والربوبية، ولا تخض يا أخي في بحر كلام المتكلمين أن الجبال ليس لها عقل، فإن هناك أرواحًا وعقولًا لا يعلمها إلا الله، قال الله: ﴿يَنْجِبَالُ أَوِىُّ﴾، لولا هناك ما تقبل الخطاب لما خاطبها، فإن ببعض الخطاب ومباشرة الأمر تهبط من خشية الله، قال الله: ﴿وَأَنْ مِنْهَا لَمَّا يَشْقُوقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، والخشية مكان العلم بالله وبخطابه، وفيه إشارة أخرى في بيان شرف النبي ﷺ وأمه، بأنهم حملوا ما لم تحمله الجبال بقوتها، هم يحملونه بذوق الخطاب، وكشف النقاب، والسرور بالمآب، فإنهم حملوا بهذا الوجه عظام كلمات، لو حملتها الجبال الشاغحات لذابت في رياحها، كما قيل:

ولو أن ما بي بالحصا فلق الحصا وبالريح لم يسمع هن هبوب

قال ابن عطاء: أشار إلى فضله بأوليائه، وأهل معرفته أن شيئًا من الأشياء لا يقوم بصفاته، ولا يبقى مع تجليه إلا من قواه الله على ذلك، وهو قلوب العارفين، فقاموا له به لا بغيره، وهو القائم بهم لا هم وهكذا.

قال الأستاذ: ليس هذا الخطاب على وجه العتاب معهم، بل هو على سبيل المدح وبيان تخصيصه إياه بالقوة، فقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾، لم يطق، ولنخشع، وهؤلاء خصصتهم بهذه القوة حتى أطاعوا سماع خطابي.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٤)
 ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ
 الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣٥) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ
 الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ﴾ (٣٦).

قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: هو إشارة غيب الغيب، والله ظهور الغيب الذي رجوع الرصف إلى الغيب، ولا نفى معارف وإله تليس ومكر تشغل المخاطب عنه بالاسم والرسم، وإلا هو بيان حق الحقيقة، وكشفها بنعت الهوية في الغيب، فأول الخطاب نكرة، وآخر الخطاب نكرة غيب في غيب؛ إذ لا يعرف الأزل والأبد، ثم وصف نفسه بأن غيبه مكشوف لعينه يرى الغيب كما يرى الظاهر؛ إذ الغيب ظاهر والظاهر غيب، وهو قوله: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: «الغيب»: ما في صميم السر ومكامن روح الروح ونفس النفس، و«الشهادة»: ما خرج من العدم عالم بالمعلومات الغيبية قبل وجودها، وبعد وجودها لا يزيد علمه بالغيب علمه بالعلانية، ولا علمه بالعلانية علمه بالغيب.

قال سهل: «الغيب»: السر، و«الشهادة»: العلانية، ثم رجع إلى بيان الهوية التي هي مستورة عن الكل بقوله: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: أبرز الصفة بعد غيبتها، ونعت نفسه بالرحمة الواسعة بالمبالغة وتوابعها الإيجاد وظهورها في الأفعال، ثم رجع بعد الإظهار إلى ذكر الغيوب في الغيوب، والنكرات في النكرات بقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثم أبان الصفة بالفعل بقوله: ﴿الْمَلِكُ﴾، ثم أفرد الصفة عن الفعل، فقال: ﴿الْقُدُّوسُ﴾: مقدس عن مباشرة الحدوثية، ثم زاد وصف قدسه عن إدراك الحدث وعلل الكون بقوله: ﴿السَّلَامُ﴾، ووصف نفسه بأنه ما من الخائفين بقوله: ﴿الْمُؤْمِنُ﴾، ثم وصف نفسه أيضا بأنه الصادق في وعده المصدق أوليائه بقوله: ﴿الْمُهَيَّمِ﴾، ثم زاد في وصفه بأنه العالي عن هم الخلاق الممتنع بذاته عن إدراكهم لا يقوم في كبريائه الحدثان بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾، ثم زاد في ذكر قدسه بقوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: عما يشيرون إليه بالنواظر والخواطر، ثم زاد وصف غيبه وكنه الكنه، وعين العين الظاهر بلباس الغيب، ثم ذكر تأثير ظهوره بإظهار الخلق بقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾، ثم بين لذاته النعوت والأسامي القديمة المقدسة عن الإشارك والإدراك بقوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، فلما ظهر بهذه الأوصاف ظهرت أنوار صفاته في الآيات، وألبس أرواح نوره الأرواح والأشباح والأعصار والأدهار والشواهد والحوادث، فسبحه الكل بالسنة نورية غيبية صفاتية بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم بين أنه منزلة بتنزيهه عن تنزيههم وإدراكهم وعلمهم به بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: «العزیز»: عن الإدراك، «الحكيم» في إنشاء الأقدار تعالى الله عما أشار إليه الواصف الحدثاني، واللسان الإنساني.

قال ابن عطاء: ﴿الْقُدُّوسُ﴾: المنزه عما لا يليق به من الأضداد والأنداد.
قال بعضهم: ﴿الْمُؤْمِنُ﴾: الذي لا يخاف ظلمه، و ﴿الْمُهَيِّمُ﴾: الحافظ لعباده
وإن لم يحفظوا أوامره، و ﴿الْعَزِيزُ﴾: الذي عجز طلابه عن إدراكه ولو أدركوه ذلوا،
و ﴿الْجَبَّارُ﴾: الذي خير العباد على ما أراد، ويصرفهم على يريد.

قال ابن عطاء: المؤمن المصدق لمن أطاعه.
وأيضا قال: لأنه آمن المؤمنين عن خوف ما سواه حتى لم يخافوا سواه.
وقال القسيم: ﴿الْبَارِئُ﴾: الذي لا يتلون بتلون العباد، ولا يتقل من صفة الرضا إلى
صفة الغضب بتقبيل الكسوة.

وقال ابن عطاء: ﴿الْبَارِئُ﴾: مبتدع الأشياء من غير شيء، و ﴿الْمُصَوِّرُ﴾: المتمم
تصويره على غاية الكمال، وقال: ﴿الْمُهَيِّمُ﴾ على سرائر العباد، فلا تخفى عليه خافية،
و ﴿السَّلَامُ﴾: هو الذي سلم من النقص والآفات^(١).

سورة المتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ
وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا
أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَّقِفُواكُمْ يَكُونُوا
لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَنْبُسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوِّ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ
أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا تحبوا أنفسكم
الأمارة، فإنها عدوي وعدوكم مبغض عبادي ومبغضكم، إذا لم تكونوا مطيقين لها في أنفاد

(١) قال بعض المشايخ هذا الاسم من أسمائه التي علت بعلو معناها عن مجارى الاشتقاق، فلا يعلم تأويله
إلا الله تعالى، وقال بعضهم: هو البالغ في الحفظ والصيانة عن المضار من قولهم هيمن الطائر إذا نشر
جناحه على فرخه حماية له وفي الإرشاد الرقيب الحافظ لكل شيء وقال المزمروني: هو لغة الشاهد،
تفسير حقي (٢٤٧/١٥).

شهواتها، وأنها تعارضكم في مكاشفاتكم وأحوالكم، ألا ترى كيف قال الله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾، وأصل عداوة النفس أن تفتطمها من مألوفاتها، وتلزمها في حبس المراقبة والرعاية، وعلامة حب الله بغض عدو الله.

قال عليه الصلاة والسلام: «أفضل الإيمان الحب في الله والبغض في الله»^(١).

قال أبو حفص: من أحب نفسه فقد اتخذ عدو الله عدوه ولياً؛ فإن النفس تخالف ما أمرت به وتعرض عن سبيل الرشد، ويهلك بحبها ومتبعتها في أول قدم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخَفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي: ما أضمرتم في صميم قلوبكم من الميل إلى الهوى، وما أعلنتم من الميل إلى الحق، وفي الحقيقة ما أخفيتم من دعوى الأنانية، وما أعلنتم من العبودية، وهذا الخطاب لصاحب نفس، وصاحب قلب.

قال أبو الحسين الوراق: بما أخفيتم في باطنكم من المعصية، وما أعلنتم في ظاهركم للخلق من طاعة.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾: أسوة إبراهيم خلة الله والتبرؤ مما دون الله، والتخلق بخلق الله، والتأوه والبكاء من شوق الله.

قال ابن عطاء: الأسوة القدوة بالخليل في الظاهر من الأخلاق الشريفة، وهي السخاوة، وحسن الخلق، واتباع ما أمر به على الطرب، وفي الباطن الإخلاص لله في جميع الأفعال، والإقبال عليه في كل الأوقات، وطرح الكل في ذات الله.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: أسوة رسول الله ﷺ بحبة الله، ومراقبة الله وترك ما دون الله، واحتمال واردات الغيب بالله، والصبر في الله وبالله والله ومع

(١) رواه الخطيب في التاريخ (١١/٣٥٤).

الله، والتمكين في رؤية الله، ولزوم العبودية بعد الاتصاف بصفة الله، فإنه محل التمكين.
قال ابن عطاء: «أسوة» في الظاهر والعبادات دون البواطن والأسرار؛ لأن أسرارها لا تطبق أحدًا من الخلق؛ لأنه بائن الأمة بالمكان وقع الصفة عليه؛ لذلك قال النبي ﷺ لأنس بن مالك: «حفظ سرِّي»^(١).

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ﴾: هذه إشارة إلى الفرق في مجاهدة النفس، ربما تطمئن وتعين الروح والعقل والقلب في معرفة الله وطاعته.

قال ابن عطاء: لا تبغضوا عبادي كل البغض، فإني قادرٌ على أن أنقلكم من البغض إلى المحبة، كنقلي من الحياة إلى الممات، ومن الموت إلى النشور.

قال ﷺ: «أحب حببيك هونًا ما عسى أن يكون بغضك يومًا ما، وأبغض بغضك هونًا ما عسى أن يكون حببيك يومًا ما»^(٢).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، أي: لا تأخذوا هواجس النفس

(١) رواه ابن حبان في المجروحين (٢٢٣/٢).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٠/٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٤٧/١)، والصحيح وقفه على علي ؑ.

والشيطان من جهة موافقتها ومتابعتها.

قال سهل: لا توافقوا أهل البدع على شيء من آرائهم.

﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَپْسُوْا مِنْ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾: «المعروف»: كل طاعة ونول إلى المعارف والكواشف.

قال ابن عطاء: لا يخالفنك في شيء من الطاعات.

سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: لما عاينوا آيات الله طلبوا فيها مشاهدة الله، مما وجدوا في أنفسهم تأثير مباشرة نور قدرة الله، فلما وجدوا أنوار تنزيهه، فقدسوه بما وجدوه أنه بائنٌ بوجوده من الحدثين.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْنِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُتَيْنٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾: حذر الله المريد أن يظهر بالدعوى مقامات لم يبلغوا إليها، لكلا يقعوا في مقت الله، وينقطعوا عن طريق الحق بالدعوى الباطلة، وأيضًا زجر الأكابر في ترك بعض الحقوق، ومن لم يؤت الحقوق لم يصل إلى الحق والحقيقة.

قال أبو العباس بن عطاء: من شهد من نفسه نفسًا في الطاعات كان إلى العصيان أقرب؛ لأن النسيان من العمى عن بر المنان، وأما زجره لأهل الحق والمشاهدة من طريق

الإشارات بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ١ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ٢: هذا زجرٌ وتهديدٌ لأهل التحقيق والمجاهدة؛ إذ ليس للعبد فعلٌ ولا تدبيرٌ؛ لأنه أسيرٌ في قبضة العزة يجري عليه أحكام القدرة وتصاريف المشيئة، فمن قال: فصلت أو أنبت أو شهدت فقد نسي مولاه وأعرض عن بره، وأدعى ما ليس له.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٣﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ٣﴾: وصف قومًا لهم استعداد الطاعة والمعرفة، وأراهم سبيل الرشd، وخلق في نفوسهم حظوظ الهوى، فتركوا الحق، واتبعوا هواهم، فطمس الله أعين قلوبهم عن مشاهدة الغيب، وهذه فتنةٌ أهلكت أكثر القاصدين في أوائل قصدهم.

قال جعفر: لما تركوا أوامر الخدمة نزع من قلوبهم نور الإيمان، وجعل الشيطان إليهم طريقًا، فزاعغهم عن طريق الحق، وأدخلهم في مسالك الباطل.

وقال الواسطي: لما زاعغوا عن القرية في العلم أزاع الله قلوبهم في الخلقة.

قال الأستاذ: لما زاعغوا عن العبادة أزاع الله قلوبهم عن الإرادة.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ٤ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٦ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٧ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ نَجْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٨ تَوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ٤﴾: بشرهم برؤية أحمد ٥ وقدمه؛ لأن في وجهه شروق أنوار الأزل، ويقدمه ظهرت سواطع نور الأبد، كان أحمد في علم ما كان بحمد الله سماء أحمد، بعد أن جعله محمودًا بحمده، ومصباحًا منورًا بنوره، حمده محمودًا بلسان الحق وثنائه، وذلك اصطفاية خاصة أزلية، منتهاها المقام المحمود، وذلك المقام

دنو الدنو، والاتصاف بالحق، والنظر إلى وجهه بحد الاستقامة بلا تغيير ولا تبديل، وهناك مقام الشفاعة الخاصة الشاملة تشمل الكل بلا سبب ولا علة، وهو خاص له دون غيره من العرش إلى الثرى؛ لذلك بشر عيسى عليه السلام قومه بقدومه المبارك.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿أَسْمُهُرُ أَحْمَدُ﴾: قال أحد الحامدين له حمد، وأحمد المطيعين له طاعة، وأحمد العارفين به معرفة، وأحمد المشتاقين إليه شوقاً على نسق قوله: ﴿أَحْمَدُ﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ آلِهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾: كيف يطيق الحدث أن يطفى نور الأزل والقدم، وهو منزلة عن أن يغيره أهل الحدثان إذا شهر نوره على أحد من أهل نوره، يزيد نوره على نوره عليه، حتى لا يبقى ذرة من العرش إلى الثرى إلا وهي مملوءة من نوره، فلذلك النور يقهر الجبارين والقهارين، ويقرّبه عيون العارفين والموحدين.

قال بعضهم: جحدوا ما ظهر لهم من صحة نبوة النبي ﷺ، فأنكروه بألسنتهم، وأعرضوا عنه بنفوسهم، فقيّض الله لقبوله أنفساً أوجدها على حكم السعادة قلوباً زينها بأنوار المعرفة، وأساراً نورها بالتصديق، فبدلوا له المهج والأموال، كالصديق، والفاروق، وأجلة الصحابة رضي الله عنهم.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَسْكِنَ طَيِّبَةً﴾: المساكن الطيبة مواضع كشف مشاهدة الجمال، وقلوب العارفين مساكن الأرواح العاشقة، طابت وتطيّبت بتجلي الحق سبحانه. قال سهل: «أطيب المساكن»: ما أزال عنهم جميع الأحزان، وأقرّ أعينهم بمجاورة رب العالمين.

وقال بعضهم: «طيبة»: بقاء الله ﷻ.

قال الأستاذ: تطيب تلك المساكن برؤية الحق سبحانه.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصَرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

(١) لما أراد الله سبحانه أن يظهر لعرائس مملكته، ولخاصة أوليائه من قدسية نور سره الأول، وإنسان عينهم الكامل المكمل، وهو النبي المصطفى الطاهر الأجد، سباه في أهل السموات باسمه (أحمد)، إظهاراً لمنزلة عند ربه، وعلو رفعة عند خالقه فكانه يقول لأهل حضرته: لئن ظفرتكم بالغنم في تنزيهي وتقديسي وذكرى، فلقد زاد على حمدكم حببي أحمد الذي بالغ في حمدي وشكري، وفوض أمره لأمرى، فهو أفضل من خلقت ومننت عليه بجميع محامدي، وأعظم من رزقته وصيرته إكسير محامدي.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: «نصر الله»: تأييده الأزلي الذي سبق منه للعارفين والموحدين، و«الفتح القريب»: كشف لقائه، وانفتاح أبواب وصاله، بنصره ظفروا على نفوسهم، فقهروها بخدمته، ويفتحة أبواب الغيب شاهدوا كل مغيب مستورًا من أحكام الربوبية، وأنوار الألوهية.

قال جعفر: بشارة إلى رؤيته في مقعدٍ عند ملكٍ مقتدر.

وقال ابن عطاء: النصر، والتوحيد، والإيمان، والمعرفة، والفتح القريب، والنظر إلى السبل.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لَلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَقَامَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾: أهل الإيمان القلب، والعدو هو النفس، ظفر القلب عليها بتأييد كشوف أنوار سلطان مشاهدة الحق، فصار غالبًا عليها في صباح كشفه، وطلوع أنوار قربه، فزال ظلمها وبقي نوره؛ لأنه تعالى متمم نوره ومؤيده.

سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخِرِينَ مِّنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ تَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: تسبيحها عجزها عن حمل وارد قهره؛ حيث تسخرت لأمر القدم بوجودها، وهي كلها السنة أفعاله بقدسه عن محل التهمة؛ لذلك وصف نفسه بقوله: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾.

قال الأستاذ: تُسَبَّح في بحار توحيد الحق أسرار أهل التحقيق بحرهم بلا شاطئ، فبعدهما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح، فحازت أيديهم جواهر التفريد، فوضعوها في تاج العرفان، ولبسوه يوم اللقاء.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾: فضله معرفته ومحبه والاستقامة فيها بنعت العبودية في مشاهدة الربوبية، يؤت هذا الفضل من يشاء من عباده المصطفين في الأزل.

قال الجوزجاني: ذلك «الفضل»: هو الأنس بالله، إذا وجدوا نعمة الإنس نسوا كل نعمة دونه، إذا وجدوا نعمة فوق كل نعمة، بأن ربهم نعمهم في معرفته، وهو قوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾.

وقال الحسين: جاد الجواد بجوده لغير علة، وتفضل بالفضل، وأتمها بالمنن، وغشاها بالنعم؛ إذ يقول: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾، فقطع بالمشيئة ولحق الأسباب، فكان الكرم منه صرفاً لا يمازجه العلل ولا يكتسبها الحبل، جاد به في الدهور قبل إظهار الأمور.

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ حزب الله المدعين في محبه بالموت، وأفرز الصادقين من بينهم لما غلب عليهم من شوق الله وحب الموت، فتبين صدق الصادقين هاهنا من كذب الكاذبين؛ إذ الصادق يختار اللحق إليه، والكاذب يفر منه.

قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ أَبْغَضَ لِقَاءَ اللَّهِ أَبْغَضَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١).
وقال الجنيد: المحب يكون مشتاقاً إلى مولاه، ووفاته أحب إليه من البقاء؛ إذ علم أن فيه الرجوع إلى مولاه، فهو متمني الموت أبداً، وذلك قوله: «إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ» إلخ.

قوله تعالى: «فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ»: لما جرى حديث البيع والتجارة دعاهم إلى ذكره بنعت السرعة والاستباق، وإلا دعا الكل في الأزل إلى نفسه، فإن الذكر عند المذكور حجاب، والسعي إلى الذكر مقام المريدين، والمحقق في المعرفة غلب عليه ذكر الله إياه بنعت تجلي نفسه لقلبه.

قال النصر آبادي: العوام في قضاء الحوائج في الجمععات، والخواص في السعي إلى ذكره لاستغنائهم بالغنى لم يبق لهم حاجة لعلمهم بالمقادير قد جرت، فلا زيادة فيها ولا نقصان، لكنهم يسعون إلى ذكره سعي مشتاق إلى مذكوره، يطلب منه محل قرينة إليه والدنو منه.

قوله تعالى: «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ»: إذا فرغتم من مشقة العبودية فانتشروا في الأرض إلى طلب أوليائي، وجالسوه؛ لتستفيدوا من لقائهم وكلامهم، الفوائد الغيبية، والأنباء الملكوتية، واجلسوا في مجلس السماع والقول، فهناك فضل الله من الخطاب، وكشف النقاب.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، أي: إذا فرغتم من جميع ذلك غيوا بأرواحكم وقلوبكم وعقولكم في بحار الأولوية والآخرية، واذكروه به لا بكم، وتركوا الذكر هناك بعد رؤية المذكور.

قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا»: أخبر الله سبحانه أنهم في أوائل إرادتهم إذا لم يبلغوا إلى حد الاستقامة في الصحبة، شغلتهم حوائج النفوس عن صحبة النبي ﷺ، فعاتبهم الله بذلك، وأمره بأن يخبرهم أن ما عند الله من مشاهدته ولقائه ولذة خطابه ومناجاته خير من جميع الحظوظ بقوله: «قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ»، وفيه تأديب المريدين حين اشتغلوا عن صحبة المشايخ بخلواتهم وعباداتهم لطلب الكرامات، ولم يعلموا أن ما يجدون في خلواتهم بالإضافة إلى ما يجدون في صحبة مشايخهم.
قال سهل: من شغله عن ربه شيء من الدنيا والآخرة فقد أخبر عن خسة طبعه ورذالة

(١) رواه البخاري (٢٣٨٦/٥)، ومسلم (٢٠٦٥/٤).

همته؛ لأن الله فتح له الطريق إليه، وأذن له في مناجاته، فاشتغل بها يفنى عمن لم يزل ولا يزال.
وقال أيضًا: ما أَدَّخِرَ لكم في الآخرة خيرٌ مما أعطاكم في الدنيا.

قال الأستاذ: ما عند الله للعباد والزُّمَّاد خيرٌ مما نالوه من الدنيا نقدًا، وما عند الله للعارفين نقدًا من واردات القلوب وبواده الحقيقة خيرٌ مما يؤمل في المستأنف في الدنيا والعقبى.

سورة المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يُحَسِّبُونَ كُلَّ صَاحِبَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ .

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ : من كان صادقًا تشهد بصدقه كل ذرة من العرش إلى الثرى، ومن كان مدعيًا كاذبًا تشهد بكذبه كل ذرة من العرش إلى الثرى، وذلك شهادة الله بلسان آياته، يكذبه الزمان والمكان، ويفتضح عند كل صادق بما يبدو من وجهه من آثار نفاقه.

قال سهل: أقرُّوا بلسانهم، ولم يعرفوا بقلوبهم؛ فلذلك سبَّاهم الله منافقين، ومن عرف بقلبه وأقرَّ بلسانه ولم يعمل بأركانه ما فرض الله من غير عذر ولا جهل كان كإبليس.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ

يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾: وصف الله المنافقين بالبخل والحرص والحسد على أمر الدين من قلة معرفتهم بجاههم عند الله، وحسن عواقبهم عنده، وسبق عناية الله فيهم، وخذلان أهل النفاق، وفي كل موضع فيه نفاق، فالبخل والحسد لازمته.

قال الواسطي: مَنْ طَالَعَ الأسباب في الدنيا والأعواض في الآخرة لم يفقه قلبه وبقي في حجاب نفسه ومراده، ألا ترى المنافقين كيف احتالوا بالبخل عليهم بالدنيا، ولم يعلموا أن ذلك لا يحجبهم عن التوفيق، وكيف حكى الحق بقوله: ﴿وَلَيْكِنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٠﴾، ثم بيّن الله أن له خزائن السموات والأرض يفتحها لأوليائه، فيعطيه من فضله، ولا يحتاجون إلى من سواه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. «خزائن السموات»: قدرته وجبروته، و«خزائن الأرض»: ملكه وسلطانه؛ له في السموات خزائن قلوب المقربين، وفي الأرض خزائن قلوب العارفين.

قال الجنيد: «خزائنه في السموات»: الغيوب، و«خزائنه في الأرض»: القلوب، فما انفصل من الغيوب وقع على القلوب، وما انفصل من القلوب صار إلى الغيوب، والعبد مرتين بشيئين: تقصير الخدمة، وارتكاب الزلة.

قال رجل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾: بيّن الله سبحانه مقام عين الجمع، وهو ظهور أنوار عزته للأنبياء والمرسلين والعارفين والصادقين، وبأشرف نور عزته قلوبهم، فصاروا متصفين به، متعززين بعزته، فعزة الله معدن عزتهم، وهم مكتسبون بكسوة عزه، فإذا ظهر ذلك النور منهم يتدلل لهم الحدثن والزمان والمكان والإنس والجان والأسد والثعبان والمياه والنيران والأمير والسلطان، «فعزة الله»: جبروته، و«عزة الرسول»: برهانه نبوته، و«عزة

(١) كل ما عند العبد من مال فهو خزانة الحق عنده والعبد خازنه فمهما تعدى خزانة مولاه بغير إجازة استحق السياسة بقطع آلة التعدي إلى خيانة خزائنه وهي اليد المتعدية.

المؤمنين: نور معرفتهم وولايتهم.

قال الواسطي: «عزة الله»: ألا تكون سبيلاً إلا بمشيئته وإرادته، و«عزة المرسلين»: أنهم آمنون من زوال الإيثار، و«عزة المؤمنين»: أنهم آمنون عن دوام العقوبة.

وقابل ابن عطاء: «عزة الله»: العظمة والقدرة، و«عزة الرسول»: النبوة والشفاعة، و«عزة المؤمنين»: التواضع والسخاء.

قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾: بيان أن من لم يبلغ درجة التمكين في المعرفة، لا يجوز له الدخول في الدنيا من الأهل والمال، فإنها شواغل قلوب الذاكرين عن ذكر الله، ومن كان مستقيماً في المعرفة وقرب المذكور فذكره قائم بذكر الله إياه، وذلك حفظه بأن جعله محفوظاً من الخطرات المدمومة، والشاغل المحجبة، والضعفاء لا يخرجون من بحر هموم الدنيا، فإذا باشرت قلوبهم الحظوظ والشهوات لا يكون ذكرهم صافياً عن كدوريات الخطرات.

قال سهل: لا تشغلكم أموالكم وأولادكم عن أداء الفرائض في أول موافقتها؛ فإن من شغله عن ذكر الله وخدمته عرض من عروض الدنيا فهو من الخاسرين.

سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ٢ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ٣ ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ٤ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٥ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْهُدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ٦ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ٧ ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ٨ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أَبْدَأْ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ : انظر كم قال سبحانه هذه الآية على مبادئ السور، وهذا عتابٌ مع المقصرين عن خدمته، أي: يسبحني وجودك بغير اختيارك، وأنت غافلٌ من تسبيح وجودك له، وذلك أن وجودك قائم في كل لحظة بوجوده، يحتاج إلى الكينونية بتكوينه إياه أين قلبك ولسانك إذا اشتغلا بذكر غيرنا، وفي الحقيقة لم يتحرك الوجود إلا بأمره ومشيتته، وتلك الحركة أجابت داعي القدم في جميع مراده، وذلك محض التقديس، ولكن لا يعرفه إلا العارف بالوحدانية، ومن كان محجوبًا عن رؤية الحق فهو جاهلٌ به؛ لذلك قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ ، فمن وقع نور التجلي في الأزل له وتكون روحه بذلك النور ورأى الحق بنور الحق فهو صادقٌ مصدقٌ في قبول ما صدر من الغيب؛ لأنه أهله، ومن كان روحه محجوبًا عن مشاهدة الوصلة يكون منكراً على ما يبدو له من آيات الله وكراماته وبرهانه وسلطانه.

قال القاسم: خاطبهم مخاطبة قبل كونهم، فسماهم كافرين ومؤمنين في أزله، فأظهرهم حين أظهرهم على ما سماهم وقدر عليهم، وأخبرته علم ما يعملون من خير وشر.

قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ : بيّن الله سبحانه في هذا الآية سرّ مقام التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث، وسرّ مقام عين الجمع، إذا قال: ﴿صَوَّرَكُمْ﴾ أفرد الوحدة ونعتها بالقدم وأفرد آنيتهما عن العلل؛ إذ العلل بتعليله تكوّنت، وإذا قال: ﴿فَأَحْسَنَ صَوَّرَكُمْ﴾ لا يكون حسن الصورة إلا بتجلي حسن فعله ونعته واسمه ونوره وغيبه وصفته وذاته، فألبسها نعوت الصفاتية وأنوار الذاتية، فتصورت على رؤية القدم بنعت ما في القدم من علم الغيب وغيب الغيب؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «خلق الله آدم على صورته»^(١).

قال الحسين: أحسن الصورة صورة أعتقت من ذل كن وتولى الحق تصويرها بيده ونفخ فيه من روحه، وألبسه شواهد النعت وجلاله بالتعليم شفاهاً، وأسجد له الملائكة المقربين، وأسكن في المجاورة وزين باطنه بالمعرفة، وظاهره بفنون الخدمة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ : الغبن كل الغبن ألا يعرف مكان خطابه والطاقة التي ظهرت له في الدنيا والآخرة بلباس القهريات ومكان

(١) رواه البخاري (٢٢٩٩/٥)، ومسلم (٢٠١٧/٤).

الامتحان، وربما زاده الحق في أوحش مقام وهو مشغول الرسم، ولم يعرف شرف حاله، فكان مشغولاً عنه برسم الاعتذار والعبودية، فيا رَبِّ صفاء في الكدورة، ويا رَبِّ مكاشفة في المعصية، اكتم يا أخي غيب الحق بستر غيره حتى لا يكون السر ظاهراً لأهل الرسوم، فيسقطون من إيمانهم، يقع الغبن يوم التغابن لمن كان مشغولاً بالجزاء والعطاء ورؤية الأعراض ورؤية المعصية والطاعة، ومن كان شاهد الحق خرج من وصف الغبن؛ إذ الغبن من أوصاف من كان غائباً عن مشاهدته، فإذا استغرق في بحار جماله وجلاله لا يبقى عليه فرح الغبن، ولا حزن الفوت، إذ الكل غابن له، وسقط عند ذكر ما مضى وما يستقبل، ولي لسان آخر في التوحيد أن الكل يقع في الغبن، إذا عاينوا الحق بوصفه وهم وجدوه أعظم وأجل مما وجدوا منه في مكاشفتهم في الدنيا، فيكونون مبهوتين متحيرين مغبونين؛ حيث لم يعرفوه حق معرفته، ولم يعبدوه حق عبادته، ولا يعرفون أبداً حقيقة المعرفة، وأي غبن أعظم من هذا؛ إذ يرونه ولا يصلون إلى وجوده بالحقيقة.

قال ابن عطاء: «تغابن» أهل الحق على مقادير الضياء عند الرؤية والتجلي، و«التغابن» في رؤية القلب الأعظم وأجل من رؤية الغبن؛ لأن رؤية الغبن تذهل عن التأمل وهو مقصّر عما أطلق لغيره عندها يظهر لكل أحد، ومن ظهر له الحق بحقه أخرسه من جميع نطقه من منازلته أو منازعته.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِفَاتِنَتْنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٤) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٦) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَالِحُونَ (٧) إِنْ تَقَرَّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (٨) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ : بَيَّنَّ الله سبحانه وصف الفطرة السليمة التي فطرها على قبول ما جاء من الغيب من الأمور العالية المبغلة قلوب العارفين إلى معادنها، أي: من كان له قلب سليم يقبل قول الحق ويتبع الحق بالحق، يُعرِّفه الحق طريق الحقيقة،

ويرشده إلى نفسه حتى يراه به بلا واسطة.

قال أبو عثمان: من صحَّح إيمانه بالله يهد قلبه لاتباع سنة نبيه ﷺ، وعلامة صحة الإيمان المداومة على السنن، وملازمة الاتباع، وترك الآراء، والأهواء المضلة.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾: خَفَّفَ الله أثقال التقوى على قلوب المتقين، وسَهَّلَ برجاء أنوارها على قلوب العارفين حين استغرقوا في بحار جلاله ولم يدركوا حقيقة كماله، وكيف يصل الحدث إلى حقيقة القدم، والكون نزول في أول سطوة من سطوات ظهور عظمت، خاطب الكل في أوائل أحوالهم بحقيقة التقوى منه؛ لظهور تذللهم وفنائهم في عزته، وتعليمه إياهم إنها حق الحق، وحقوق الحق في المعرفة لا تَسْقُط بضعف الضعفاء؛ فإن حقه باقٍ، ثم يَبْنِ عجزهم عن البلوغ إلى منتهاه، وسَهَّلَ الأمر عليهم، ورحمهم بضعفهم عن حمل وارد الحقيقة.

قال ابن عطاء: هذا لمن رضي عن الله بالثواب، فأما من لم يَرْضَ منه الآية فإن خطابه ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

قال السري: المتقي من لا يكون رزقه من كُسبه.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: «القرض الحسن»: يكون لمن يرى المُلْك، والمُلْك إلا لله، ويشاهد الحق بالحق في قصده، وإقباله على الحق.

قال سهل: «القرض الحسن»: المشاهدة بقلوبكم لله في أعمالكم كما قال ﷺ: «أَنْ تَعْبَدَ الله كأنك تراه»^(١).

قوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: عالم غيب هموم صميم قلوب العارفين من أجله، وما يجري عليهم من آثارها، يبذل المهج على علانيتهم، وهو العزيز بأنه أعزهم في الأزل بعزته، الحكيم حيث حكم بالعبودية، وإظهار أنوار الربوبية.

سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ

(١) رواه البخاري (٢٧/١)، ومسلم (٣٧/١).

حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُم يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي يَبْسُنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾: خصَّ حبيبهُ بالخطاب، وجمع الكل في مضمونه؛ لأن السيد إذا خاطب خاطب الكل، فبان شرفه على الجمهور؛ إذ جمع الجمع في اسمه، وفيه إشارة الاتحاد، ومراد الحق سبحانه في تأديب العباد بتطليق نسائهم في زمان الطهر أداء وفاء الصحبة، ومراعاة ما مضى من زماني الوصلة والاهتمام بالفرقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾: إن الله حدَّ الحدود بأوامره ونواهيهِ؛ لنجاة سُلاكها، فإذا تجاوز عن حدوده يسقطون عن طريق الحق، ويضلون في ظلمات البعد، وهذا أعظم الظلم على النفوس؛ إذ منعوها من وصولها إلى الدرجات والقربات.

قال إسماعيل بن نجيد: التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالأمر.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ تفسيره بلسان الإشارة أن العارف الصادق الشاهد جلال الحق تبقى منه بالأصل إليه؛ لأن نعوته الأزلية ممتنعة من مطالعة الخليفة، فيتقيه من فقدانه، فهو تعالى إذا رآه في يأس من الوصول إلى القدم ألبسه نعوته، وأوصله إليه به، وذلك ما جعل له مخرجًا مما فيه من خوف الفقدان، ويرزقه ذوق الدنو من حيث لا يحتسب إنه يستحق؛ لذلك فهو تعالى محمود الكرم لا يُجِيبُ رجاء القاصدين إليه، ثم بيّن أن من ألقى زمام الإرادة لإرادته في طلبه ويطرح من بين يديه ويعتمد بقوله عليه فهو تعالى يكفي له مأموله منه، ويرضيه بنفسه من نفسه بحيث يستكمل العبد مراده منه، وذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ومن أدق الإشارة أن الله سبحانه يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾، ولم يقل «ومن يتق من عذابه»، أو «يتق من شيء دون نفسه»، فخصَّ التقوى أن يكون من نفسه خاصة، وذلك إذا كان يتجلى بجلاله

وهيبته وعظمته وكبريائه من الألوهية القدسية، والأبدية الباقية لقلب عارف من عرفانه، ويستولى على قلبه سطوات عظمته، يتقي العارف من صدمات القدوسية، وطوارقات العزة ضعفاً وخوفاً من ألا يحترق فيها فيقر منه؛ لأنه علم أن الحادث يتلاشى في القدم، ولا يطيق أن يستقيم بإزاء الوجدانية، وتطلب الفرار منه مع ما في قلبه من محبة جماله، والشوق إلى لقائه، فإذا رأى الحق سبحانه ذلك منه يتجلى لقلبه من عين الجمال جمالاً، فيجر قلبه بحسنه وجماله إليه، ويعصمه من نفسه بنفسه، وذلك هو المخرج الذي قال: ﴿يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا﴾، يخرج من رؤية العظمة إلى رؤية الجمال، ويستقيم لرؤية الجلال، فيحتمل الحق بالحق، ثم همته همه العجز عن البلوغ إلى دنوه، يتبين في نفسه من نفسه أنوار النعوت الأزلية، فتتصف صفاته بصفاته، فلا يرى هناك إلا عيناً واحدة، وذلك قوله: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، هو أن يكون منعوتاً بنعت الحق في رؤية الحق، لكن يرزقه من حيث لا يحسب أنه يصل إليه بنعت البقاء يبقى ببقاء، ويخرج من فنائه، فبان بعد ذلك في سر سره نور وعرفان خاص يبينه بأنه مخدوع بما وجد، محجوب منه به، فيسقط عنه قيمته، وأيس أيضاً من الوصول إلى الكل، فيعرفه الحق نعتاً من نعوته، ويعلمه أنه لا يصل إلى الكنه، فيرضيه بنعت من جميع النعوت، وباسم من جميع الأسماء، وبصفة من جميع صفاته، ويكشف من ذاته من جميع صفاته حتى لا يبقى له طلب ولا قصد، بل يسكن بالحق من الحق في الحق، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١)، أي: من يتوكل عليه حين يبقى من الفناء فيه فهو حسبه، بأن يبقيه ببقائه، فيبقى الحق له، وإن هو فني فيه فبقاء الحق له من بقاءه، وعلى لسان المعاملة يبقى الله بأن يشغله شيء من دونه عنه من الأسباب، والنظر إلى غيره من الرسومات، يجعل الله له مخرجاً مما يخاف منه، ويرزقه الرضا من نفسه، ويرزقه رزق المقدر في الأزل من حيث لا مشقة عليه في وصوله إليه، ويأكل ويلبس بغير انتظار ولا استشراف نفس ولا تعب، فيخرج له من الغيب بالبديهة ما يكفيه من السؤال والكسب، من عرف الله عرفه بكمال قدرته وإحاطة علمه بكل ذرة، فيلقي زمام الاختيار إليه، فهو تعالى يكفي له كل مؤنة في الدنيا والآخرة وهو ساكن راضٍ، وهذا معنى قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ إلخ.

قال سهل في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾، أي: يتبرأ من الحول والقوة

(١) هذه الآية الشريفة جامعة لأنواع التوكل، وأضاف الحاجات؛ فإن اسم الله تعالى جامع لمراتب الأسماء التي لا يتجاوزها حاجات الناس مع اختلاف مراتبهم، وتفاوت طبقاتهم، فمن ذكر كان أو أنى، عبداً كان أو سيّداً يتوكل على الله الرزاق في أمر الرزق؛ فهو حسبه فيه.

والأسباب كلها دونه والرجوع إليه، «يجعل له مخرجاً» مما كلفه بالمعونة عليه، والعصمة من الطوارق فيها.

وقال سهل: لا يصح التوكل إلا للمتقين، ولا تتم التقوى إلا بالتوكل؛ لذلك قرَنَ الله بينهما، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾.

وقال بعضهم: من يحقق في التقوى هون الله على قلبه الإعراض عن الدنيا، ويسر له أمره في الإقبال عليه، والتزُّين بخدمته، وجعله إماماً لخلقهِ، يقتدي به أهل الإرادة، فيحملهم على أوضح السنن وأصح المناهج، وهو الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الله تعالى، وذلك منزلة المتقين، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾.

وقال: ومن يَكِلْ أموره إلى ربه فإن الله يكفيه هم الدارين أجمع.

قال شاه الكرمانى: «التوكل»: سكون القلب في الموجود والمفقود.

﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُمْ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنْ أُولَتْ حِمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَزَاتُوهُمْ أَجُورَهُمْ وَأَتَعَمَّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى ۖ﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَنَّهُا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۖ وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَثَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نَكِرًا ۖ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، أي: بعد ضيق الصدر من الاهتمام بالرزق وإنفاقه، سعة الصدر، ويسر الرخاء، والطمأنينة والرضاء بالله، وأيضاً سيجعل الله بعد عسر الحجاب للمشناقين يسر كشف النقاب.

﴿أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْآلِيبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۖ﴾ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۖ﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾: «الرزق الحسن»: من الله المعرفة والمحبة،

والقربة، والمشاهدة، والمجالسة، والمخاطبة مع الحق بلا ذل الحجاب، ولا وحشة العتاب. قال الأستاذ: «الرزق الحسن»: ما كان قدر الكفاية، لا نقصان فيه يتعطل عن أموره بسببه، ولا زيادة تشغله عن الاستمتاع بما رُزق لحرصه.

قوله تعالى: ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: لو كانت للأشباح قيمة في المعرفة كالأرواح في الخطاب بلا علة في تعريف نفسه إياها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ هناك خطاب وشهود وتعريف بغير علة، فلما علم عجزها عن حل وارد الخطاب الصرف أحالها إلى الشواهد بقوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ﴾، وليس بعارف في الحقيقة من عرفه بشيء من الأشياء، أو باسم من الأسماء، فمن نظر إلى خلق الكون يعرف أنه ذو قدرة واسعة، وذو إحاطة شاملة، فيخاف من قهره بعلمه في رؤية اطلاع الحق عليه.

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَانَا وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذَا أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣ إِنَّ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلَحُ الْمُسْلِمِينَ ۝٤ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۝٥ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنِيئَاتٍ تَتَّبِعْتِ عِبَادَاتٍ سَيَّحَاتٍ تَتَّبِعْتِ وَأَبْكَارًا ۝٦﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾: أدب نبيه ﷺ ألا يستبدَّ برأيه، ويتبع ما يوحى إليه، وفيه بيان أن من شغله شيء من دون الله وصل إليه منه ضرب لا تبرأ جراحه إلا بالله؛ لذلك قال عقيب الآية: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال ابن عطاء: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ كان يدعو دائماً ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ قَاطِعٍ يَقْطَعُنِي عَنْكَ»^(١).

وقال القاسم: لا يدعو الحق أحدًا يسكن إليه حتى يشغله بغيره؛ لأنه عزيزٌ.

قوله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾: فيه جواز إظهار الشيوخ للفراسة والكرامات لمريديهم؛ ليزيد رغبتهم في الطريقة، وفيه حث على ترك الاستقصاء فيما جرى من ترك الأدب، فإنه صفة الكرام.

قال الحسن البصري: ما استقصى كريمًا قط، ألا يرى الله تعالى يحكي عن نبيه ﷺ قوله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، أي: قدسوا أنفسكم وأهاليكم من محبة الدنيا والاشتغال بها، وأقبلوا على الله ببذل المهج، وانصحوأ أهاليكم؛ كي يكونوا صالحين بمتابعتكم، فإذا رغبت في الدنيا فهم يشتغلون بها، فإن زلة الإمام زلة المأمومين.

قال سهل: أي: بطاعة الله، واتباع السنن.

وقال ابن عطاء: بقبول نصيح الناصحين.

قال الوراق: علّموهم الفرائض والسنن؛ لتتقذوهم بها من النار.

قال أبو عثمان: في طلب الحلال لأنفسكم ولأهاليكم.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَيُفَسِّ الْمَصِيرُ﴾ ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحَ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾: دعاهم الله بالرجوع إليه رجوعًا لا انقطاع فيه، بحيث أقبلوا على الله نادمين على تضييع الأوقات غير

مذبرين عنه إلى شيء من دونه، حتى وصلوا إلى حقيقة الاستقامة في القلوب مع الله، ولا يقدر أن يلتفت إلى شيء سوى الله.

قال الشيخ أبو عبد الله بن خفيف: طلب عباده بالتوبة، وهو الرجوع إليه من حيث ذهبوا عنه، والنصوح في التوبة: الصدق فيها وترك ما منه، تاب سرًا وعلنًا قولًا وفكرةً.

وقال الواسطي: التوبة النصوح لا تبقى على صاحبها أثرًا من المعصية سرًا وجهرًا.

وقال: من كانت توبته نصوحًا لم يبال كيف أمسى وأصبح.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾: لا يخزي النبي أمته بذل الحجاب، وسوء الحساب، والتغيير، والعتاب، بل يكون برضاهم، ويعطيهم مأمولهم، ويقبل شفاعتهم لأهل الكبائر وللهاالكين، ولا يردُّ عليهم ما يسألون منه من نجاة الخلق، ويلبسهم أنوار قربه ووصاله، ويدخلهم في حجال أنسه، ورياض قدسه.

قوله تعالى: ﴿ثَوْرُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِمَنِيهِمْ﴾: يستزيدون منه نور القرب بقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا ثَوْرَنَا وَآغْفِرْ لَنَا﴾، أي: من نورك حتى نفنى بك، وتبقى معك أبد الأبدين.

قال بعضهم في قوله: ﴿لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾، لا يردُّ شفاعته في أمته، والذين آمنوا لا ترد شفاعتهم في إخوانهم وأقربائهم.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ ثَوْرُهُمْ﴾: إنما هي أنوار نور التوحيد، ونور المعرفة، ونور الحقيقة، يسعى بهذه الأنوار إلى محل القرار.

وقال بعضهم في قوله: ﴿رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا ثَوْرَنَا﴾: لا تقطعنا بك عنك، وكن دليلنا منك عليك حتى تتم لنا الأنوار، فإن تمام النور بإتمام المنور له.

وقال سهل: لا يقسط الافتقار إلى الله عن المؤمنين في الدنيا والآخرة، وهم في العقبى أشد افتقار إليه، وإن كانوا في دار العز والغنى؛ لشوقهم إلى لقائه يقولون ربنا أتمم لنا نورنا.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٠﴾ وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾: ظهر فيه نور الفعل، ثم ظهر في نور الفعل نور الصفة، وظهر في نور الصفة نور الذات، وكان بنور الذات والصفات حيًا موصوفًا

بصفاته، ناظرًا إلى مشاهدة ذاته، لم تنقطع عنه أنوار الذات والصفات والفعل أبدًا، وهذه خاصية لمن له أثر من روحه.

قال بعضهم: نفخ من نوره في روح عبده؛ ليحيى بتلك الروح، ويطلب النور، ولا يغفل عن طلب المنور، فيعيش في الدنيا حميدًا، ويُبعث في الآخرة شهيدًا، فلما وجدت روح روح الله صدقت بظهوره في العالم، وشبه قلوب العالمين بأنها تكون مرآة الحق للخلق، وذلك قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾، ولما باشر أنوار القدس وروح الأنس كادت نفسها أن تميل إلى السكر في العنائية، فسبق لها العناية، وأنفاها في درجة العبودية حتى لا يسقط بالسكر عن مقام الصحو، ألا ترى كيف قال: ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، أي: من المستقيمين في معرفتها بربها، ومعرفتها بقيمة نفسها أنها مسخرة عاجزة لربها.

سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤).

﴿تَبَرَّكَ الَّذِي﴾: في هذه الآية تقديس الذات والصفات عن الإدراك، وفيها إشارة غيب الهوية بقوله الذي رفع الأوهام عن ساحة جلاله، وفيها وصف العظمة والإحاطة بكل شيء، وعجز الحدثان في قبضة قدرته، وفيها سر الالتباس، وظهور الصفة عن الفعل، بقوله: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، تعالى الله عن الأشباه؛ إذ لا شبه له في الأزل، وتقديس عن الأضداد؛ إذ لم يكن له ضدٌّ إلى أبد الأبد، فروية قدسه للموحددين؛ إذ مبارك عليهم أنوار قدسه، وهم في زيادة القدس أبدًا، والإشارة للعارفين؛ إذ هم غابوا في غيبه، وهم منه لا يخرجون، وإشارة ظهور الصفة في الفعل للمحبين؛ إذ يؤتيهم ملك مشاهدته، وهم في ملك قربه، لا ينقطع عنهم وصاله أبدًا.

قال بعضهم: ﴿تَبَرَّكَ﴾ كالكناية، والكناية كالإشارة، والإشارة لا يدركها إلا الأكابر.

وقال سهل: تعالى من يعظم عن الأشباه، والأولاد، والأضداد، والأنداد.

﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾: يقلبه بحوله وقوته، يؤتیه من يشاء، ويتزعه ممن يشاء، وهو القادر عليه جلّ وتعالى.

وقال جعفر: أي: هو المبارك على من انقطع إليه، أو كان له.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾، الموت والحياة عرضان، والأعراض والجواهر مخلوقة له، وأصل الحياة: حياة تجلّيه، وأصل الموت: موت استتاره، وهما يتعاقبان للعارفين في الدنيا، فإذا ارتفع العجب يرتفع الموت عنهم، بأنهم يشاهدونه عياناً بلا استتار أبداً، ولا تجري عليهم طوارق الحجاب، بعد ذلك قال الله: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، خلق الموت والحياة، يميت قومًا بالمجاهدات، ويحيي قومًا بالمشاهدات، يميت قومًا بنعت الفناء في ظهور سطوات القدم، ويحيي قومًا بنعت البقاء في ظهور أنوار البقاء، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، لولا التجلي والاستتار لا يظهر شوق المشتاقين في تفاوت درجات الشوق، ولا يتبين ولّه العاشقين وتفاوت درجاتهم في العشق، هو «العزیز» يمنعه الجمهور عن الوصول إلى حقيقة ذاته وصفاته، وهو «الغفور» بأن ينعمهم بكشف مشاهدته، ويتجاوز عن قصور قصودهم في الشوق إليه.

قال سهل: «الموت» في الدنيا بالمعصية، و«الحياة» في الآخرة بالطاعة في الدنيا، بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: الذي يدركه التوفيق، فيحييه بالطاعة، ويبعده عن المعصية.

وقال: «العزیز»: المسيع في ملكه، «الغفور»: يستره بجوده.

قال الجنيد: حياة الأجسام مخلوقة، وهي التي قال الله: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾، وحياة الله دائمة لا انقطاع لها، أوصلها إلى أوليائه في قديم الدهر الذي ليس له ابتداء بمراده. قيل: إن خلقهم فكانوا في علمه أحياء ما هم قبل إيجادهم، ثم أظهرهم فأعادهم الحياة المخلوقة التي أحيى بها الخلق، وأماتهم بسرهم فكانوا في سره بعد الوفاة كما كانوا، ثم أورد عليهم حياة الأبد، فكانوا أحياء، فاتصل الأبد بالأبد، فصار أبداً في أبد في الأبد.

وقيل: «حسن العمل»: نسيان العمل، ورؤية الفضل.

قال الواسطي: من أحياء الله عند ذكره في أزله لا يموت أبداً، ومن أماته في ذلك لا يحيى أبداً، وكم حي غافل عن حياته وميت غافل عن مماته.

قوله تعالى: ﴿فَازْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ثم أزجج البصر كرتين ينقلب: حارت الأبصار والبصائر عن إدراك مائة استواء أفعاله؛ لأنها عاجزة عن اللحاق

بجريان قدرته الواسعة فيها، فإذا كانت كذلك في إدراك خلقه، فكيف تشاهد جلال القدم، والأبصار، والبصائر، والقلوب، والأرواح، والعقول فانية حسيرة في أول سطوة من سطوات عظمته، راجعة عنها خاستة، ولا يبقى عليها من العلم والعرفان.

قال الواسطي: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾، أي: القلب والبصر؛ لأن الأول كان بالعين خاصة، ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾^(١): إذا لم يكن في خلقي فطور، فأنا أشد امتناعاً من الاستفراق والاستحراق.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ ولِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَفْسُ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٢﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٣﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٤﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ فَأَعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُخِّقُوا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، أي: لو سمعنا خطاب الأزل شفاهاً في مشاهدته وعلماً حقيقته ما كنا من أصحاب البعد والحجاب. قال بعضهم: لو سمعنا موعظة الواعظين أو عقلنا نصيحة الناصحين لاتبعناهم فيما أمروا به، ولما كنا إذاً في أصحاب السعير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٧﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿٣٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾: وصف الله معرفة العارفين به قبل رؤيتهم مشاهدته، فإذا عاينوه استفادوا من رؤية علم المعاينة، وهي المعرفة الحقيقية، وخشوا منه في غيبة منه، وهي خشية القلب، فلما رآوه زاد على الخشية الإجلال، وهو علم الروح والسر.

(١) يقال: فطره فانفطر أي شقه فانشق والمعنى من شقوق وصدوع لامتناع خرقها والثامها قاله القاشاني ولو كان لها فروج لفاتت المنافع التي ربت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضها أو كلها كما في المناسبات فإذا لم ير في السماء فطور وهي مخلوقة فالخالق أشد امتناعاً من خواص الجسمانيات.

قال بعضهم: «الخشية» تصيب القلب، و«السر» و«الخوف» تصيب البدن.
 قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾: فيه وعيد لمن يضمّر في خاطره ما لا يليق بالحق، وكيف يخفى ما في القلب والعيوب من المعيبات المكنونة، وهو موجدّها ابتداءً، وعالم بها انتهاءً؛ لأنه من لطفه محيطٌ بها في القلوب، خبيرٌ بما يجري في الصدور.

قال الواسطي: حجب الأشياء عن الوقوف على حقائقها، واستبعد بمعرفة الحقائق، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

قال ابن عطاء: ألا يعلم من خلق الصدور، وما يحدث فيها من حوادث العوارض.
 قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾: ذلّل للأرواح أرض القلوب يمشي في مناكب أسرارها، وأنطار عقولها، وسبيل أنوارها إلى عالم الغيوب، فتأكل منها موائد المعارف، وأثمار الكواشف.
 قال سهل: خلق الله الأنفس ذلولاً، فمن أذلّها مخالفتها فقد نجّأها من الفتن والبلاء والمحن، ومن لم يذلّلها وتبعها أذلته نفسه وأهلكته.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ١٨ ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ١٩ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَتِفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ٢٠ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٌ وَيُقْبَضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ ٢١ ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ ٢٢.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٌ وَيُقْبَضْنَ﴾: إشارة إلى طيور الأرواح القدسية التي تطير في هواء الأزل والأبد بأجنحة الشوق والمحبة باسطات أجنحتهن ببسط الأنس، قابضة لها برؤية عظمة القدس، فهناك محل القبض والبسط، ولولا فضله وكرمه لتفنى في بروز سباحات ذاته، وتسقط من هواء هويته إلى أرض قهره.

قال الله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾.

قال الجريري: أشار الحق إلى أن يتوكل عليه الأولياء، ويسكن إليه الأصفياء؛ لأن الطيور لما صفا توكلهن على الحق طيرهن في الهواء، وقبض أجنحتهن، وأمسكها صافات على ذكر الله، فإذا توكل عليه الولي شوقاً إلى الملك الأعلى طيره بجناح الأنس في هواء المحبة، وأجلسه على بساط المعرفة، ويقبضه الحق بقدرته، ويمسكه بعواطف رحمته.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ۚ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۚ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ﴾: شبه الله صاحب النفس الذي يمشي قلبه في ظلماتها لا تدري أين تمشي كالأعمى الذي يتخبط تخبط العشواء في الظلمات.

وقال: هو أهدي أمَّن تمشي روحه في طرق الملكوت، بنعت المعرفة والنيران في أنوار المشاهدة.

قال سهل: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾، أي: مطرق إلى هوى نفسه بحيلة خلقه بعد هدى من ربه.

﴿أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾، يعني: المؤمن المهتدي على صراط مستقيم، أي: على شريعة طرق التوحيد.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۚ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ۚ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَجَمْنَا فَمَنْ يَحْيِي الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۚ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْمَلُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۚ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: بقي مكنون علمه فيما جرى في الأزل عن الخليقة، وإن كان صديقًا، أو نبيًا مرسلًا، أو ملكًا مقربًا، فيكون عنهم مستورًا، كما كان في سر الأزل قبل الخلق، ولو أمنت النظر يا صاحبي في العلم، فإن حقيقة العلم منفية عن الخلق؛ إذ الخلق لا يعلم حقيقته، فإن حقيقة علم الأشياء لمنشئها لا غير، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، أثبت العلم بالحقيقة لنفسه.

قال يحيى بن معاذ: أخفى الله علمه في عباده عن عباده، فكلُّ يتبع أمره على جهة الإشفاق، لا يعلم ما سبق، وبماذا يختتم له، وذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَعْلِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمُجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنْ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وُدُّوا لَوْ تَدْرُونَ قِيْدَهُنَّوْنَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينٍ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ أَيْنُتْنَا قَالَكُ اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْثَوْنَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، أي: «بنون» صفتي وقلم فعلي، «وما يسطرون» من أحرف مقاديري على ألواح أمري، وأيضًا «النون»: هو الذات، و«القلم»: الصفات، و«ما يسطرون»: من الأفعال على ألواح التقدير، وهي تستطرها بين الكاف والنون من العدم على ألواح الإرادة، وأيضًا «النون»: نور وجهه الذي يظهر يوم الشهود، وبه يسعى جميع العارفين والعاشقين إلى الأبد، وأيضًا: نور عنايته السابقة في الأزل في اصطفاية الأنبياء والأولياء، وأيضًا أي: بنيران قلوب المحبين، ونور فؤاد المشتاقين ونصرتي للأنبياء والمرسلين والأولياء والصدّيقين، وأيضًا أي: بنظري على قلوب أحبائي، ونظر أسرارهم إلى لقائي، وأيضًا أي: بنوادر أنوار صفاتي، وبقلم أفعالي الذي يجري على ألواح أسرار العارفين، و«ما يسطرون»: الأرواح القدسية من مخاطباتي في أوراق أسرارها، وأيضًا أي: بالنون الذي جعلت في بطنها حجال معراج يونس، وأيضًا أي: نيرات ملكوتي ونادرات عجائب جبروتي، وأيضًا أي: بنور القرآن والعلم الذي كتبه في اللوح المحفوظ في أول الأول، وما يتسخون منه سفرتي وكرام بررتي، وأيضًا أي: ابتدائي في أول وليتي من القدم إلى العدم؛ لإسعاد أسر الأرواح القدسية

الملكو تية التي خرجت من العدم بكشف نور القدم، ونداء الأزل، وندائي للقلم حين قلت بعدما أوجدته اكتب ما هو كائن إلى الأبد، وبهذا القلم النوري، وما يسطرون أهل قربي من خطابي أي: بهذه الأقسام المباركة يا حبيبي يا قرّة عيون العارفين، وبنون حاجبيك، وقلم لسانك، ولوح وجهك، وما يسطرون كتبه أنوار تجلاتي من عجائب سنا كشف جمالي في جمالك لنظر هلال جلالك وجمالك.

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، أي: لست باصطفائيك، ونعمة ربك من النبوة والولاية، مثلما يزعمون هؤلاء الظلمة، بل أنت سيدّ حبيب صفيّ نبيّ مرسل، رغم أنف الكفرة.

قال سهل: «النون»: اسم من أسماء الله، وذلك أنه إذا جمعت أوائل هذه السور الثلاث «الر»، و«حم»، و«ن» يكون الرحمن.

وقال جعفر: نور الأزلية الذي اخترع منه الأنوار كلها، فجعل ذلك لمحمد ﷺ، فلذلك قيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٌ﴾، أي: على النور الذي خصّصت به في الأزل.

وقال بعضهم: «النون»: نور القدرة، و«القلم» القضاء، و«ما يسطرون»: الملائكة كرام الكاتين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: بيّن له الأجر، وليس أجره في مقابلة فعله، وليس هو بناظر إلى فعله وإلى شيء من الأعراض، ارتفع قدره عن ذلك لما وصفه الله في شهوده جمال الحق، بالألا يميل إلى غيره بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾، فأجره: قرب الله ووصاله، وكشف جماله له أبداً، وذلك غير محتجب عنه، وأيضاً أجره: قبول شفاعته غير منقطع شفاعته لأهل الكبائر من أمته، لا يخيب رجاءه في غفرانهم جميعاً بلا عتاب ولا عذاب. قال سهل: غير محدود لما لم يطالع الأعواض، ولم يعتمد على شيء سوانا، كأن ذلك أجر غير ممنون، وهو ما شهدت من المشاهد والمواقف.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٌ﴾، أي: ألْبَسْتُكَ خُلُقِي، فأنت على خلقي، وخلقي عظيم، ومن عظم خلقي أنه نعني ووصفي ألْبَسْتُه إياك، وخصصتك بحمله، فإن حمله لا يأتي من غيرك من العرش إلى الثرى، فإن بخلقك ذقت طعم شهود مشاهدي، فيسهل عليك جريان القضاء والقدر، فأنت تشاهدني بنعت تحملك أثقال أمري فيك، فطابت خُلقك من خُلُقِي في خُلُقِي.

قال الواسطي: هو لباس النعوت، والتخلّث بأخلاقه؛ إذ لم يبق للأعراض عنده خطر.

قال الحسين: معناه: أنه لم يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعة الحق.

وقال: صغرت الأكوان في عينك بعد مشاهدة مُكوّنِها.
 وقال: لأنك تنظر إلى الأشياء لتشاهد الحق، ولا ينظر إلى الأشياء ليشاهده ملك.
 قال سهل: تأدّبت بآداب القرآن، فلما تجاوزوا حدوده.
 وقال الواسطي: أظهر الله قدرته في عيسى ونفاده في أصف، وسخطه في عصا موسى،
 وأظهر أخلاقه ونعوته في محمد ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، فإذا فتشت هؤلاء
 في الحقيقة لا تجد إلا نعوتاً قائمة بنعوت للمنعوت لا لغيره.
 وقال: الخُلُق لا تحمله العوام، والخُلُق لمن تخلق بأخلاق الرب؛ لأن الله أوحى إلى داود
 «تَخَلَّقْ بِأَخْلَاقِي، فَإِنِّي أَنَا الصُّبُورُ»^(١)، فمن أوتي الخلق فقد أوتي أعظم المقامات؛ لأن المقامات
 ارتباطٌ بالعامّة، والخُلُق ارتباطٌ بالصفات والنعوت.
 قال الحسين: عظم خلقك حيث لم ترض بالأخلاق وسرت، ولم تسكن إلى النعوت
 حتى وصلت إلى الذات، ثم فנית عن الذات بالذات، حتى وصلت إلى حقيقة الذات، ومن
 فني بالفناء كان القائم عنه غيره بالفناء.
 وقال: كيف لا يكون خلقه عظيماً وقد تجلّى الله سره بأنوار أخلاقه، وحق لمن وقعت له
 المباشرة الثالثة أن يكون مفضلاً في خلقه؟

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْمُونَ﴾ قالوا يَتَوَلَّنَا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿عَسَى رَبُّنَا
 أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ
 كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ أَفَنَجْعَلُ السَّامِينَ كَالْجَرِيمِينَ
 ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَا تَحْزَنُونَ﴾
 أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَأَتْحْكُمُونَ ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾
 ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ
 إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى
 السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾: أخبر الله سبحانه أنه
 ينكشف يوم الشهود لعشاته، وأحبائه، ومشتاقيه، وعرفانه عن بعض صفاته الخاصة، ويتجلى
 منها لهم، وهو كشف ستر الغيرة عن عورات أسرار القدم، فيشاهدونها بعيون عاشقة حائرة

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (١/ ٤٦٥).

ناظرة إلى ربها، فيدعون إلى السجود من حيث غشيتهم أنوار العظمة حتى لا يحترقون في كشف ستر الصفة، فإنها موضع العظمة والكبرياء، وبدو لطائف أنوار أسرار الذات، يظهر في لباس الالتباس حتى لا يفينهم فناء لا بقاء بعده، والمقصود منه زوائد المحبة، والنظر إلى وجود العظمة.

قال جعفر: إذا التقى الولي مع الولي انكشفت عنه الشدائد.

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١١)
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٢﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُثْقَلُونَ ﴿١٣﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ
الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿١٤﴾ .

قوله تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١١) : وصف الله سبحانه في حقيقة الإشارة أهل السكر في المشاهدة، إذا وصلوا محض الانصاف والاتحاد غابوا في غيبته، واستغرقوا في بحار ألوهيته، وفنوا من أوصاف الحدوثية بعد انتعاتهم بنعوت الألوهية، وصاروا باقين بنعته لا يرون وصفهم، ويرون وصف الحق، فكادوا أن يخرجوا بدعوى الأنائية، فإن الله سبحانه سيأخذ أنوار شمس الذات، وأقمار الصفات عن عيون أرواحهم قليلاً، قليلاً، وهم لا يعلمون من غلبة سكرهم وحلاوة أحوالهم حتى يغيب أنوار الغيب عن أبصار أسرارهم، ويبقيهم في عرصات الصحو حتى يروا أنفسهم في مقام الغيبة والاستتار.
قال الواسطي: لو كشف للخلق لصاروا حيارى، ولكن يبدأهم بالتليس والسر، ثم يكشف؛ ليعرفوا قدر ما هم عليه، وأما الغاية فهو الاستدراج.

قال أبو الحسين بن هند: «المستدرج» السكران، والسكران لا يصل إليه ألم فجع المصيبة إلا بعد إفاقته، فإذا أفاقوا من سكرتهم خلص إلى قلوبهم ذلك، فانزعجوا ولم يطمثوا، و«الاستدراج»: هو السكون إلى الذات، والتنعم بالنعمة، ونسيان ما تحت النعم من المحن، والاغترار بحلم الله ﷻ.

قال أبو سعيد الخراز: «الاستدراج»: فقدان اليقين؛ لأن باليقين تستبين فوائد باطنه، فإذا فقد اليقين فقد فوائد باطنه، واشتغل بظاهره، واستكثر عن نفسه حركاته وسعيه لغيوبته عن المنة.

قال بعضهم: لولا الاستدراج لا يخلو العبد منه في وقت من الأوقات، ولولا الاستدراج لما عرف العبد طعم الكرامة، ولما انزجر عن العقوبة، فبالاستدراج يعرف العقوبة ويخلق المقت، وبالاتباه يعرف النعمة ويرجو القرية.

﴿ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ (١٥) لَوْلَا أَنْ

تَذَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبْذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿١١﴾ فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِن الصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾: أَدَبٌ حَبِيبُهُ حِينَ غَلَبَ عَلَيْهِ شَوْقُ لِقَائِهِ، وَثَقُلَ عَلَيْهِ رُؤْيَا غَيْرِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَصِلَ إِلَى جَوَارِهِ، فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ فِي مِيَادِينِ بَلَائِهِ بِامْتِحَانِهِ؛ لِيَعْرِفَهُ شَرَائِفَ مَقَامَاتِهِ فِي مَعْرِفَةِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ، وَيَسْرَجَ مِنْ سِرَاجِهِ سِرَاجَ الْعَارِفِينَ وَالْمُوحِدِينَ، فَيُرْشِدُونَ بِرُشْدِهِ، وَيُرُونَ الْحَقَّ بِنُورِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾، فِي قَلَّةِ صَبْرِهِ عَنْ مَشَاهِدَتِهِ، وَبَلَاءِ اسْتِتَارِهِ وَالْفَنَاءِ تَحْتَ جَرِيَانِ امْتِحَانِهِ، وَذَلِكَ حِينَ نَادَى فِي ظُلُمَاتِ بَطْنِ الْحُوتِ، وَهُوَ مَغْتَمٌّ تَحْتَ ذُلِّ الْحِجَابِ، فَتَلَطَّفَ عَلَيْهِ الْحَقُّ كَاشِفٌ عَنْهُ غَمَّةَ الْفِرْقَةِ، وَأَرَاهُ جَمَالَهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَوْلَا أَنْ تَذَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾: سَوَابِقُ نِعْمِ الْإِصْطِفَائِيَةِ الْأَزَلِيَّةِ، لَكَانَ فِي أَرْضِ الْحِجَابِ ذَلِيلًا، وَلَكِنْ أَغَاثَتْهُ الْاجْتِبَائِيَّةُ وَالْإِصْطِفَائِيَّةُ مِنْ ذَلِكَ الْحِجَابِ، وَشَرَفَهُ بِكَشْفِ النِّقَابِ، وَجَعَلَهُ مِنَ الْمُتَمَكِّنِينَ فِي النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ لَمْ يَقَعْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى بَحْرِ الْامْتِحَانِ، وَلَا فِي حِجَابِ الْحَرَمَانِ.

قال الله تعالى: ﴿فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِن الصَّالِحِينَ﴾.

قال الجنيد في كتاب «صبر الأنبياء»: قال الله لَنَبِيِّهِ ﷺ المصطفى وحبَّبه المرتضى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: يَسْتَكْشِفُ لِنَدَائِهِ مَا مَسَّهُ مِنَ أَلَمِ بَلَائِهِ، وَيَسْتَغِيثُ مَعَ وَجُودِ الْعِزِّ عَلَى الْقِيَامِ بِوَأَجِبِ الصَّبْرِ، خَوْفِ دُخُولِ الْعِجْزِ، وَإِشْفَاقًا مِنْ مَلَامَةِ الْعِلْمِ عِنْدَ الْإِصْغَاءِ إِلَى الْإِبْقَاءِ عَلَى النَّفْسِ الَّتِي لَوْلَا تَذَارُكُ الْمُنْعَمِ بِالْحِفْظِ عِنْدَ أَوَّلِ بَادٍ مِنَ الْبَلَاءِ لَدَخَلَ الْعِجْزُ بِسُلْطَانِ قَهْرِهِ عَلَيْهَا، لَكِنْ لَوَّحَ لَهُ تَعْرِيزُ الْخُطَابِ: ﴿لَوْلَا أَنْ تَذَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبْذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، لَمَّا سَبَقَ عِنْدَهُ مِنْ حُكْمِ الْإِخْتِيَارِ فِي قَدِيمِ الْعِلْمِ.

قال الواسطي: الاجتباءية أورثت الصلاح، لا الصلاح أورث الاجتباءية.

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْخَاقَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْخَاقَةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٦٠﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦١﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٦٢﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٦٣﴾.

﴿الْحَاقَّةُ﴾ ﴿٦٠﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٦١﴾: يوم تُحَقَّقُ حقائق الأمور عيانًا، لا يبقى فيها ريب أهل الظنون، وينكشف الحق لأهل الحق، ولا معارضة للنفس فيها، وتبين للجاهلين أعلام ولاية العارفين.

قال سهل: اليوم الذي يلحق كل أحد بعلمه.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٦٤﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا كُرْمَ فِي الْجَارِيَةِ ﴿٦٦﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيًّا أُذُنٌ وَعَابَةٌ ﴿٦٧﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٦٨﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿٦٩﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا كُرْمَ فِي الْجَارِيَةِ﴾: الإشارة فيه أنه لما أوجد الله الأرواح قبل الكون أتى بها شط قاموس كشف ذاته وصفاته، فشربت الأرواح زلال أنهار القرية، وشراب الوصلة، وسمعت خطاب الألوهية، وسكرت من حلاوة الجمال والجلال، وهاجت إلى لحجها، وكادت تستغرق وتفنى فيها حين علا عليها أمواج سطوات العزة، ولطمت العظمة حملها الله هناك بعض العناية لتجري بها من الأزال إلى الآباد، ومن الآباد إلى الأزال، فلما دار دور الدهر الدَّهَارَ وجري جري الفلك الدَّوَّارَ وخلق الكون جعل لها سفينة صورة آدم، وحمل بها الأرواح الغيبية الملكوتية، فتجري بها إلى معادنها الأولية.

قال القاسم: الأجسام لم تكن، والأرواح لا تحمل الجاري، وإنما هو جريان الحق بشرط الاتسام إذا عاينت الروح هذه المقامات عرفت سره.

قال الواسطي: أحد شقي آدم، وأخرج منه الذرية.

قال: حملناكم بشواهدنا، وأجرينا لكم الأوقات على مقاديرنا.

وقال الأستاذ: ذلك منته على خواص أوليائه أن يسلمهم في سفينة العافية، والكون يتلاطم أمواج بحار أشغالها على اختلاف أوصافها، وهم بوصف السلامة لا منازعة مع كل واحد، ولا محاسبة مع أحد، ولا توقع من أحد، سالمون من الناس، والناس منهم سالمون.

قوله تعالى: ﴿وَتَعِيًّا أُذُنٌ وَعَابَةٌ ﴿٦٧﴾﴾: حقائق أسرار الخطاب لا يعلمها إلا القلوب الذاكرة، والأرواح الشائقة، ولا يسمع أصوات هوائها بالحقيقة إلا سماع الأسرار من

الأنوار للأرواح والعقول، تسمعها من الحق، وتفهمها بالحق.

قال الوسطي: آذانٌ وعت عن الله أسرارها.

وقال: «واعية» في معادنها ليس فيها من شاهدها شيئاً، هي الخالية عمن سواه؛ فما اضطراب الطبائع إلا ضرباً من الجهل.

قال جعفر: تلك آذانٌ فتحها الله للمواعظ، وشرح قلوباً؛ لقبول تلك المواعظ، وسهّل على نفوسها استعمال تلك المواعظ، والقيام بمواجبها.

وقال: تلك آذانٌ أسمعها الله في الأزل خطابه، فهي «واعية»: يعني من الحق كل خطاب^(١).

﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ۚ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۚ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْتَبِيَةٌ ۚ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ۚ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۚ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قَطُوفُهَا دَائِمَةٌ ۚ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۚ﴾: يعتد الحق لأوليائه العاشقين الذين يحملون مؤن أثقال الحجاب يوم كشف النقاب، ويقول لهم: اشربوا شراب وصالي هنيئاً لكم، بأنه وصالٌ بلا فراق، وعيش بلا كدورة، وأنس بلا وحشة، بما أسلفتم من إلقاء أزمة همومكم على أعناق مراكب أفكاركم التي صعدت عند كل نفس إلى مصاعد ملكوتي، وسادات جبروتي، كم شوقٍ تشتاقون به إليّ، وكم غمٌ تغتمون به لأجلي، وكم بذلٍ تبذلون به لأجلي حين بذلتهم أرواحكم لضرب سيوف شوقي، وكم تمرغ من أنفسكم في تراب جناب حضرتي، لأجل مشاهدتي، هنيئاً لكم لقائي أبداً، عيشوا في رياض قربي، واستأنسوا بجمالي، فأنتم لي، وأنا لكم، والإشارة في الأيام الخالية أيام الله الذي هو منزلة عن دور الأفلاك، ومظهر من الكون والأملاك، أيام قدم القدم وأزل الأزل أسلف الله لهم العناية، فتلك الأيام خالية من الأعمال والعلاآت والأسباب، كأن تلك العناية أسفلها المحبوبون؛ إذ الحبيب الأكبر قائم مقامهم قبل وجودهم، فمن حيث الاتحاد الحبيب

(١) أي حافظة لما جاء من عند الله. وقيل آذن سمعت وعقلت ما سمعت وقيل لتحفظها كل آذن فتكون عظة وعبرة لمن يأتي بعد والمراد صاحب الإذن والمعنى ليعتبر ويعمل بالمرعظة. تفسير الخازن (٦/ ص

والمحجوب واحد، ألا ترى كيف قال لحبيبه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾، كأنهم كانوا في الأزل وأيام القدم مع حبيبه، إذ الحبيب كان قائماً مقامهم، وإن كانوا معدومين، أي: اشربوا شراب وصالي من أزل الآزال إلى أبد الآباد، فأيام القدم خالية عن وجود الحدثان، وأيام البقاء لا تكون خالية عن شوق المشتاقين، وزفرة الواهين، ودوران العارفين في ساحة كبريائه، وسرادق بقاءه.

قال الواسطي: أي: الأيام الخالية عن ذكر الله؛ لتعلموا أنكم في فضله دون جزاء الآمال.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ۖ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ۖ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ ۖ يَلَيْتَنِي كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ۖ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ۖ خَذُوهُ فَعُغْلُوهُ ۖ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۖ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۖ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۖ وَلَا تَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۖ فَلَيسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ۖ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۖ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۖ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۖ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۖ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۖ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ۖ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾: أقسم الله سبحانه بما ظهر من أنوار صفاته في آياته لذوي الأبصار من العارفين.

﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾: من كشف ذاته التي لو بدا نورٌ من أنواره لذابت من سبحات الكون وما فيه، وأيضاً «ما تبصرون» من معجزات أنبيائي، وكرامات أوليائي، وما لا تبصرون عما في قلوبهم من العلوم اللدنية، والأحكام الغيبية.

قال جعفر: بما تبصرون من صنع في ملكي، وما لا تبصرون من برِّي إلى أوليائي. وقال الجنيد: بما تبصرون من آثار الرسالة على حبيبي وصفي، وما لا تبصرون من سري معه الذي أخفيته عن الخلق.

قال ابن عطاء: بما تبصرون من آثار القدرة، وما لا تبصرون مما اخترن من خلقه الذي لم يجر القلم به، ولم يشعر الملائكة بذلك، وما أظهر الله للخلق من صفاته، وأراهم من صنعته، وأبدا لهم من علمه في جنب ما اخترن عنهم إلا كدرة في جنب الدنيا والآخرة، ولو أظهر الله من حقائق ما اخترن لذابت الخلائق عن آخرهم فضلاً عن حملها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (١١)﴾: كيف التقوُّل منه، وهو مقدَّسٌ بحفظ الله وعنايته عن الشرك، والشك، والنفاق، وسوء الأخلاق، هو عالم تعالى بأن قلبه ولسانه لم يكونا موضع الاختلاف والقول لكُنه هذه، بأنه لا يكشف بأسرار الحق التي انكشفت له من غيب الغيب، وتلك الأسرار لو ظهرت بعضها للخلق لتعطلت الأحكام، وطاشت الأرواح، واضمحلت الأجسام.

قال الواسطي: ما كشفنا له من الحقيقة لو نطق بها لاقينا أوصافاً، مع أن كل ذكر ليس بذكر، وليس لله وقتٌ ماضٍ، ولا حينٌ مستأنفٌ.

وقال أيضاً: علامة مجذوب الحق إذا رغب حجب، وإذا صرف جذب.

قال: لعمرك أنه حجب، ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل جذب، وإذا أظهر نفسه حجبه، وإذا أظهره لغيره جذبه مع أن كل مثبت محجوب.

وقال أيضاً: لم يلفظ له بلطفه، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٢)﴾، وهذا الخطاب تلييس، ولو تقوَّل تنبيه، وهو أتمُّ له في ذلك الحال.

﴿لَا خَذَنَّا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (١٣) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (١٤) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (١٥) وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٦) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ (١٧) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (١٨) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (١٩) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٢٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (١٩)﴾: «حق اليقين»: ما بان باطنه من ظاهره، وظاهره من باطنه، وباشر نور القلب، ويحرق ما دون الحق من ذكر الخلق، وهو الحق من حيث الحقيقة التي ظهرت في لباس الآيات، إما ذاتاً، وإما صفة، وكلامه حق عيان بأنه فيه الاسم والمسمى، وذلك من حيث الحقيقة واحد، فلم يبق لعارفه شكٌ ولا مكاشفة حجاب، ثم خاطب المكاشف المحقق بأنه منزّه عن الظنون، والأوهام، والممازجة بالحدثان بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٢٠)﴾.

قال الجنيد قدّس سره: «حق اليقين»: ما يتحقق للعبد من معرفة بالحق، وهو أن يشاهد الغيوب، كمشاهدة المرئيات مشاهدة وعيان يحكم على الغيبات، ويخبر عنها بالصدق كما أخبر الصديق الأكبر في مشاهدة النبي ﷺ، وبين يديه حين سأله: «ما أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله»^(١)، فأخبر عن تحقّقه بالحقيقة، وقطعه عن كل ما سواه، ووقوفه معه على

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٠٦/٢).

الصدق، ولم يسأله النبي ﷺ عن كيفية ما أشار إليه؛ لما عرف من صدقه وبلوغه المنتهى فيه، ولما قصر حال حارثة عن حاله لما قال: «أصبحت مؤمناً حقاً»^(١)، فأخبر عن حقيقة إيمانه، سأله النبي ﷺ عن ذلك لما كان يجد في نفسه من عظم دعواه، ثم لما أخبر لم يحكم له بذلك، وقال: «عرفت فالزم»^(٢): أي: عرفت الطريق إلى حقيقة الإيمان حتى تبلغ إليه، وترى حال أبي بكر الصديق رضي الله عنه من غير استخبار عنه، ولا استكشاف؛ لما علم من صدقه فيما ادّعى، وهذا مقام حق اليقين.

سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾.

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ﴾: هذا وصف أهل الأمل، والظن الكاذب الذين يظنون أنهم يُتركون في قبائح أعمالهم، وهم لا يُعذبون.

قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿١﴾﴾: أفهم أن للملائكة والروح مقامات معلومة في عالم الملكوت، فإذا عرجت الملائكة من مسقط الأمر إلى مصعد المعلوم يكون يوم كان مقداره عندنا خمسين ألف سنة، وهم يعرجون بأقل ساعة، وليس للحق مكان ومنتهى، إن الخلق يعرجون بل إن ظهور عزته وجلاله في كل ذرة عيان، فإذا رفعت القرب والبعد من حيث المسافة وأدرجت الأوهام لم يكن بين الحق وبين الروح وصول الحق بأقل طرفة، فإن الوصول منه وهي قريب غير بعيد.

قال سهل: تعرج الملائكة بأعمال بني آدم إلى الله، والروح إليها ناظر في ذلك المشهد.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾: وأسى قلب نبيّه ﷺ، وأمره بالصبر الجميل، وهو الصبر بالله في الله، فإن نازله العذاب لمن مؤذيك يقع عليه نعتة بحيث لا يقدر دفعها من جميع الوجوه، فانظر إلينا ولا تنظر إليه، فإنه مأخوذ.

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢/٢٦٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢/٢٦٦).

قال سهل: الصبر الجميل رضا بغير شكوى، ثم بين أن الكافرين والمنكرين يرونهم عذاباً بعيداً، بقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۖ﴾: إن المنكر لا يظن أنه مأخوذ قط، ولا يعلم أنه وقع في العذاب، ولا يدري.

قال سهل: إنهم يرون المقضي عليهم من الموت والبعث والحساب بعيد البعد، أما قوله: ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾: فإن كل كائن قريب، والبعيد ما لا يكون.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِيلِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۖ وَلَا يَسْقَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا ۖ يُبْصَرُونَ يَوْمَ يَوْمُذِ بَيْنِهِ ۖ وَصَحِيَّتِهِ وَأَخِيهِ ۖ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوِيهِ ۖ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۖ كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَىٰ ۖ تَرَاةٌ لِلْإِنسَانِ ۖ تَذْعُو أَمْ أَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۖ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ۖ﴾: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ﴾. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ﴾: إذا مسه الشر جزوعاً ۖ وإذا مسه الخير منوعاً ۖ: طبع الإنسانية خلق ضعيفاً لا يطيق تحمّل البلاء، قال سبحانه: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ۖ﴾: وذلك الطبع طبع ممتزج بطبع الشيطاني، والنفساني والهوائي، والشهواني، فإذا أتاه مراده سكن به، ويمنع ذلك من طلاب الخير، وإذا لم يؤت إليه مراده يشنكي، ويجزع، ويضجر، ولا يصبر، فإذا أراد الله بالعبد خيراً جعل ذلك الطبع مسخرًا له حتى يطمئن.

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۖ﴾: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۖ﴾.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾: يعني العارفين بالله، الساكنين تحت جريان مقاديره، المستقيمين به عند امتحانه.

قال سهل: هلوفاً منقلباً في حركات الشهوات، واتباع الهوى.

قال ابن عطاء: «الهلع» الذي عند الوجود يرضى، وعند المقصود يسخط.

وقال في قوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾^(١): العارفين بمقادير الأشياء، فلا يكون لهم لغير الله

(١) اعلم أن دوام الصلاة لا يمكن بالصورة؛ بل بالمعنى؛ وذلك أن من سجد قلبه لله تعالى سجدة حقيقية، وخضع خضوعاً تاماً؛ فإن عبادته لله تعالى مستمرة سواء كان على اليقظة، أو على النوم؛ لأن النوم إنما يجري على صورته لا على قلبه، كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ينام عيناى ولا ينام قلبي»، فإذا كان قلب الرجل يقظاً، سرى ذلك في جميع أجزائه وقواه؛ فإن القلب أصل القوى والجسد، فإذا صلح؛ صلح القوى والجسد كلها، كما أنه إذا فسد؛ فسد القوى والجسد كلها.

فرح، ولا إلى غيره سكون.

وقال سهل: إذا افتقر جَزَعٌ، وإذا أثر منع إلا المصلين الموفقين من عباده.

قال الواسطي: «جزوعاً» لما يجهل من القسمة، وأما «المنع» فهو من صفة المنافقين.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (٢١) ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ (٢٢) ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (٢٣) ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الَّذِينَ﴾ (٢٤) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (٢٥) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ (٢٦) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (٢٧) ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (٢٨) ﴿فَمَن ابْتَغَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (٢٩) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٣٠) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ (٣١) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٣٢) ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ﴾ (٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾: «أماناتهم»: أمانة الاصطفائية الأزلية التي أودع أنوارها قلوب العارفين حين عاينته أرواحهم في مشاهد الأولية، و«عهدهم»: ما عهد الله بأنه لهم، وهم له لا لغيره، فهم مدخل بالمحبة فمن راعى عهده، وأمانته بشرط المحبة، والشوق، والعشق، وبذل الوجود، والطرب بلقائه، وحسن الإقبال عليه على السرمدية، ولا يتقاعد عنه بشيء من دونه، فهو من الذين ﴿هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.

قال بعضهم: «الأمانة»: سر الله عند عباده تسلوهم بها في خواطرهم، ويُسَرُّوا به بالجوء، والافتقار إليه أبداً، فإذا سكن القلب إلى ما خطر من وسوسة النفس بإذنه الأمانة بحقها بمفارقتها، والأمانة عهد الله، ورسوله بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾.

قال الجنيد: إنما هي حفظ القلب مع الله على التوحيد، و«الأمانة»: المحافظة على الجوارح.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ (٣١)، أي: الذين شاهدوا مشاهدة الله قائمين في مقام مشاهدته، مستقيمين في النظر إليه، لا يزولون عن مقامهم، وهم بشرط محبته إلى الأبد قائمون، وببذل وجودهم واقفون.

قال سهل: قائمون بحفظ ما شهدوا به من شهادة أن لا إله إلا الله، فلا يشركون به في شيء من الأفعال، والأقوال، والأحوال.

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ (٣٤) ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ (٣٥)

أَيُّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٢٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٣٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِمَّا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٣١﴾ فَذَرَهُمْ مَخْوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ نَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٣٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٣٤﴾ .

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٩﴾: آمين الله على أوليائه الصادقين أنه يبلغهم إلى جواره؛ لأنهم خلُقوا من تربة الجنة، وخلقت أرواحهم من نور الملكوت، وإلى مواضعها ترجع، وللقائه خلُقهم، ومن نوره أوجدهم، وإن أهل الخذلان خلُقوا من عالم الشهواني، والشيطاني، ومنبعها النار، فيدخلون مواضعهم؛ لأنهم ليسوا من أهل جواره، ونحن لا ننظر إلى ما خلقنا منه من النطفة والطين، ولا نعتبر بها، فنحن نعتبر بالاصطفائية والخاصية في المعرفة، فإن بهما يصلون إلى جوار الله. قال الواسطي: ما يؤيسهم من دخول الجنة، أي: خلَقناهم للكفر، والإيمان، والثواب، والعقاب.

سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَنْقُومِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا يُغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ ^(١): كان نوح ^(٢) مشكاة نور عظمة الله؛ لذلك أرسله إلى قومه

(١) أشار بنوح إلى الروح، وذلك من حيث المراتب الأربع التي حصلت للروح من حيث أولية، وآخيرية، وظاهرية، وباطنية، فالروح نوح: أي سابق على قومه من القوى الروحانية، والأعضاء الجسدية، وإذا الفاعل قبل القائل، وقد أرسله الله إلى قومه؛ فهو المؤثر فيه لا غيره تعالى؛ لأنه لا غير هنالك حتى يكون هو المباشر للإرسال، وكذا كل الإرسالات الواقعة في الدنيا؛ فإنها كلها مضافة إلى الله تعالى، فإن الإرسال إمّا من الشيخ المرشد؛ فذلك مضاف إلى الإلهام الإلهي، وإمّا من الجنب النبوي؛ فذلك مضاف إلى الوحي الرباني، والكل؛ لكن المظاهر متعددة بحسب المقامات والأطوار، وقد يترقى

بالإنذار، فلما عصوه أثر منه قومه من قهر الجبروت، والأنبياء، والأولياء في درجات القرب على تفاوت، فبعضهم يخرجون من نور الجلال، وبعضهم يخرجون من نور الجمال أورث قومه البسط، والأنس، والسهولة، ومن خرج من نور العظمة أورث قومه الهيبة، والإجلال.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۚ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۚ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۚ﴾: من أصرَّ على المعصية أورثه التهادي في الضلالة حتى يرى قبيح أعماله مستحسنًا، فإذا رآه مستحسنًا يستكبر ويعلو به على أولياء الله، ولا يقبل بعد ذلك نصيحتهم.

قال سهل: الإصرار على الذنب يُورث الاستكبار، والاستكبار يورث الجهل، والجهل يورث التخطي في الباطل، والتخطي في الباطل يورث قساوة القلب، وقساوة القلب يورث النفاق، والنفاق يُورث الكفر.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۙ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۙ﴾: كان الله في الأزل غفَّارًا لذنوب عباده، فدعاهم إلى رؤية غفرانه الأزلي بنعت الافتقار إليه، ورؤية التقصير في العبودية، والندم على ما ضاع من أيامهم بالغفلة عن الله. قال بعضهم: الاستغفار أوائل طلب التوبة.

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۚ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ رَبِّينَ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ۚ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۚ﴾، أي: إذا كنتم مستسقين من عطش الشوق إلى لقائه يُنزل من سماء قربه مطر رحمته، وهي كشف مشاهدته، ثم ذلك المطر الغزير بأنه يُنبت في بساتين قلوبهم أشجار المعرفة، ورياحين المحبة، ويُجري في أرض عقولهم أنهار الحكمة، بقوله: ﴿وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ۚ﴾.

قال جعفر: يُزَيِّن ظاهركم بزيينة الخدمة، وباطنكم بأنوار الإيمان.

السالك في بعض المواطن إلى حيث يأخذ الإذن من الله تعالى بلا واسطة، وذلك لا يلزم منه ترك الوسطة، فإن ذلك بشفاعاة الوسطة، أو باستهلاك الكل في عين الجمع، وليس هناك إلا الله تعالى.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ ١ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ٢ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ٣ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ٤ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ ١: طورٌ من أهل المعرفة، وطورٌ من أهل الحكمة، وطورٌ من أهل التوحيد، وطورٌ من أهل الشوق، وطورٌ من أهل العشق، وطورٌ من أهل الفناء، وطورٌ من أهل البقاء، وطورٌ من أهل الخدمة، وطورٌ من أهل المشاهدة، خلقَ طورَ الأرواح القدسية من نور الجبروت، وخلقَ طورَ العقول الهادين العارفة من نور الملكوت، وخلقَ طورَ القلوب الشائقة من معادن القرية، وخلقَ طورَ أجسام الصديقين من تراب الجنة، فكل طورٍ يرجع إلى معدنه من الغيب.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ ٦ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٧ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ٨ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ٩ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ١٠ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ١١ مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ١٢ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذُرِّيًّا ١٣ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ١٤ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ ٦: جعل أرض الغيوب بساطًا للقلوب؛ ليسلك في طريق أنوارها الأرواح والعقول؛ لطلب مشاهدة جلاله وجماله.

سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ٢﴾.

﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ ١: خلق الله بعض أوليائه من الجن ولهم أرواح ملكوتية وأجسام روحانية، وهم إخواننا في المعرفة يطيعون الله ورسوله، ويحبون

أولياءه، يستنون بسنة نبينا ﷺ، ويسمعون القرآن، ويفهمون معناه، وبعضهم شاهدوا النبي ﷺ وسمعوا كلام الحق منه شفاهاً، وخضعوا له إذعائاً، واستبشروا بروح الله وروح خطابه استبشاراً.

قال ابن عطاء: تعجبت الجن من بركات القرآن، لما سمعوه وجدوا في قلوبهم روحاً، وفي أسرارهم نوراً، وعلى أرواحهم راحة، وفي أبدانهم نشاطاً للالتفات بأوامره، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ أي: كتاباً عجيب البركة، ثم وصف بركته بقوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾: يهدي إلى معدنه، وهو الذات القديم.

قال الجنيد: إلى الوصول إلى الله، وهو الرشد.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (١) وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِينًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٢) وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَن تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٤) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٥) وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلَيَّتَ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٦) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعُ آلَانِ يَحْذَرُ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا (٧) وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشْرًا أُريدُ بَمَن فِي الْأَرْضِ أَمَرَأَادِيهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (٨) وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا (٩) وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَن تَعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَن تُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ علت عظمة جلاله عن أن يكون لها ضد من الأضداد، ونذ من الأنداد، وأن يدركه أحد بنفسه.

قال الجنيد: ارتفع شأنه عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً.

وقال: الذي تعالى عظمته عن أن يكون إليه سبيلاً إلا به، أو يلوته ما أحدثه بل لا دليل على الله سواه، ولا أثر لشيء عليه؛ لأنه الذي أبدى الآثار.

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ خَسًا وَلَا رَهَقًا﴾ (١١) وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٢) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٣).

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ خَسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: من يعرف ربه فلا يخش على نفسه السقوط من الدرجات، ولا يبقى في حجب المجاهدات، بل يبلغ إلى أنوار

المشاهدات.

قال الواسطي: حقيقة الإيمان ما أوجب الإيمان، فمن بقي في مخاوف المرتابين لم يبلغ إلى حقيقة الإيمان.

﴿وَالْوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِاسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِاسْقِيَنَّهُمْ﴾^(١) أي: لما عاينوا في أهل معارف استقاموا في طوارقات أنوار مشاهدتي، وصبروا في واردات بحار حقائق وجودي؛ لاسقين أرواحهم وعقولهم وقلوبهم مياه بحار أسرارِي وأنهار أنواري.

قال بعضهم: هو القيام على سبيل السنة، والميل إلى أهل الصلاح؛ لكشفنا على قلوبهم ماء الوداد.

﴿وَأَنْ أَلْمَسَجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۖ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْمَسَجِدَ لِلَّهِ﴾: مساجد القلوب لزوار تجلّيه، فلا ينبغي أن يكون فيها ذكر غير الله.

قال ابن عطاء: مساجدك أعضاؤك التي قررت أن تسجد عليها لا تخضعها ولا تذللها لغير خالقها.

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝﴾ إِلَّا بَلَغَا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ۝ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أضعفُ ناصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا ۝ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ۝﴾

(١) الإسقاء والسقي بمعنى واحد، وقال الراغب: السقي والسقيا هو أن تعطيه ماء ليشرب والإسقاء أن تجعل له ذلك له حتى يتناوله كيف شاء كما يقال اسقينه نهرا فالإسقاء أبلغ، وغدق من باب علم إذا غزر وصف الماء به للمبالغة في غزارته كرجل عدل وتخصيص الماء الكثير بالذكر لأنه أصل السعة وإن كان أصل المعاش هو أصل الماء لا كثرته ولعزّة وجوده بين العرب قال عمر - رضي الله عنهما - أينما كان الماء كان العشب وأينما كان العشب كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة والمعنى لأعطيناهم مالا كثيرا وعيشا رغدا ووسعنا على الرزق في الدنيا. تفسير حقي (١٦ / ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾: أمره بإظهار تلاشي الكون في عظمته، وغلبة قهر سلطانه على الكائنات جميعاً، وهذا رؤية فردانية الحق بنعت الاستغراق في بحار كبريائه.

قال القاسم: هذه لفظة تدل على إخلاص التوحيد؛ إذ التوحيد هو صرف النظر إلى الحق لا غير، وهذا لا يصح إلا بالإقبال على الله، والإعراض عما سواه، والاعتماد عليه دون ما عداه.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾: ستر الله أنوار غيبه من جميع الخلق إلا من أرواح النبيين والمرسلين، وعقول الصديقين وقلوب العارفين، وأسرار الموحدين هم مستشرقون بالله على غيب الله، وهم أهل مكاشفات صحيحة، وفراشات صادقة، ومشاهدات واضحة.

قال بعضهم: أخفى الحق الغيب عن الخلق، فلم يُطلع عليه أحدًا من عباده إلا الأولياء على طرف منه بأخبار صدق أو تلقف من الحق والأولياء، والأمناء أصحاب الفراسات الصادقة، فإنهم ينظرون بنور الغيب، فيحكمون على الغيب.

﴿لَيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾: أظهر قهر سلطان جبروته على كل ذرة من العرش إلى الثرى، فإنه موجد الأشياء، والعالم بها قبل إيجادها، ظاهراً وباطناً، صغاراً وكباراً.

قال القاسم: هو أوجدتها، فأحصاها عدداً.

سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ﴾: إن الله سبحانه اشتاق إلى مناجاة حبيبه ﷺ، فناداه أن يقوم في أجواف الليالي بحسن الإقبال، ونعت الاستقامة في مشاهدته، فإنه المقام المحمود

الذي خصّه الله به دون غيره، وهذا كقوله: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، وتسميته بالمزمل؛ لأنه مخفي عن عيون أهل الحدثان لا يطلع على ما خصّه الله به من لطفات قربه، وغرائب دنوه أحد من العرش إلى الثرى، أي: قم عن مكن الغيب، وأظهر شرائط اصطفايتك برفعك أعلام نبوتك، ورايات رسالتك، فإنك مؤيد منصور، كان متزماً بكساء لاطلاعه بامتناع أحدية الأزل، بألا يدركها أهل الحدثان، فمن هموم فقدانها دخل تحت كساء الحياء والإجلال من ظهور عظمة الحق له، وهو في منزل بين رجاء الوجدان وخوف انفقدان.

قال ابن عطاء: أيها المخفي ما يظهره عليك من آثار الخصوصية آن آوان كشفه، فأظهره، فقد أيدناك ممن يتبعك ولا يخذلك ولا يخالفك، وهو أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب.

وقال القاسم: يا أيها المزمل بالنبوة، ويا أيها المدثر بالرسالة.

﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَزِلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَزِلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ أي: غُص في بحار القرآن، فإن فيها جواهر أسرار الرحمن، واسكن عند كشوف معنى أسرار خطابي من القرآن، حتى تستوفي حقائقها، فإن تحت كل حرف بحر من رموز لطائف انقدم، فإن مثلك يسبح في بحر صفاتي؛ لذلك أفردتك بهذا الخطاب.

قال أبو بكر بن طاهر: دثر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾: كيف لا يثقل قوله سبحانه، قوله قديم، وأجدر أن تذهب تحت سطوات عزته الأرواح، والأشباح، والأكوان، والحدثان هو بذاته يحمل صفاته لا غير، وكان مؤيداً بالانصاف بالحق، فكان يحمل الحق بالحق لطائفه لطيفة على قلبه، ثقيلة على من لا يفهمها؛ إذ القرآن بجماله حيث انكشف، صار لطيفاً على أهله، وحيث لا ينكشف ثقيل على غير أهله.

قال أبو بكر بن طاهر: لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، ونفس مزينة بالتوحيد، وهو قلبك ونفسك يا محمد، ومن يطبق حمل ما أطقته من تلقف الخطاب عن المشاهدة، لأنك مؤيد بالعصم.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۖ﴾: تهجد الليل وساعاته موافقة لقلوب أهل مناجاته، وأسهل من طاعة النهار من أهل مراقباته؛ لما فيها من كشف مشاهداته لهم، وحلاوة مخاطباته، أشد ناشئة لأهل المجاهدات، وأسهل لأهل المشاهدات، وأقوم قِيلاً قول الناجي ربه عند شكواه في ظهور عظمته من فقدان كليته.

قال سهل: ما ينشئه العبد من عبادة الليل، هي أشد مواطأة على السمع والقلب، من الإصغاء والفهم، وأقوم قِيلاً، وأثبت رتبة.

وقيل: أصوب قولاً؛ لأنه أبعد من الرياء.

وقيل: عبادة الليل، أتم إخلاصاً، وأكثر بركة.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۖ﴾^(١) أي: في نهار المشاهدة، وكشفها لك في بحر الأزل والأبد، سباحة طويلة سباحة النهار غوص الروح في بحر الآيات؛ لطلب جواهر الصفات.

قال ابن طاهر: اشتغالا بالخدمة، وإقبالاً على الله، وانتظاراً للموارد الوحي.

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۖ﴾ أي: إذا أردت أن تسبح في بحر جلالنا وقربنا وتريد أن تلقي نفسك فيها انقطع عن حدثان، واطرح نفسك فيها بتأييد الرحمن، واعتصم باسمه، فإذا اعتصمت باسم الله لا تفنى في الله، هذا إذا ذكر قوله: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾، فكيف يكون إذا قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾، فإن في الاسم يبقى، وفي المسمى يفنى، دعاه أولاً إلى ذكره، ثم دعاه إلى مذكوره، أي: اذكرني بذكري، ثم انقطع من الذكر إليّ ومني إليّ، فالأول في الذكر حظُّ العبودية، وفي الثاني حظُّ الربوبية، فإذا ظهر حظُّ الربوبية يفنى حظُّ العبودية.

قال ذو النون: سبحان من دلى من الذكر أغصاناً إلى الدنيا، أشجارها في الملكوت، وأطعم القلوب من ثمارها، فأشفقهم في الدنيا والآخرة، هذا فعل الذكر به، فكيف إذ بهجهم

(١) أي: سباحاً في أعمالك، والسبح: الذهب والسرعة، ومنه السباحة في الماء، فالمعنى: مذهبك في النهار فيما يشغلك كثيرة، والليل أخل لك. تفسير القشيري (٧/ ٤٩٤).

الحب عليه، وأنشد لنفسه مفردًا في هواه قد ذاب شوقًا مستطارًا لفؤاد يعشق فردًا.
قال القاسم: اتصل به اتصالاً ما رجع من رجع إلا من الطريق، وما وصل إليه أحد
فرجع عنه.

وقال بعضهم: فتح الله على النبي ﷺ أولاً أسباب التأديب، ثم أسباب التهذيب، ثم
أسباب التدويب، ثم أسباب التغيب، «فالتأديب»: الأمر والنهي، و«التهذيب»: القسمة
والقدرة، و«التدويب»: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ»، و«التغيب»: «وَتَبَيَّنَ إِلَيْهِ
تَبَيُّلاً».

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝ وَذَرِنِي وَالْكَذِبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهْلَهْزَ قَلِيلًا ۝ إِنَّ لَدَيْنَا
أَنْكَالًا وَحَجِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ
الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا
يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ
فَمَنْ شَاءَ اتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝﴾.

قوله تعالى: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»: أفرد نفسه بالفردانية عن الأضداد والأنداد، وعرف
نفسه بالوحدة لحبيبه ﷺ، فلما نفى الغير أقبله على رؤية الوجدانية بقوله: «فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا»
أي: انقطع عليه، فإنه حسبك على كل شيء دونه، ويعطيك ما وعدك من الدرجات الرفيعة،
والمداواة الشريفة، وإدخال أمتك الجنة.

قال سهل: أي: كفيلاً بها وعدك من المعونة على الأمر والعصمة على النهي والتوفيق؛
لشكر والصبر في البلوى، والخاتمة المحمودة.

قوله تعالى: «إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝»: القرآن
تذكرة العارفين؛ لأنه الأنباء الصفاتية تنبئ كل كلمة عن صفة الله الأزلي، ويرشده بنوره إلى
معدنه من الذات، كأنه سراج قلب كل صادق محب موافق يسرون إليه، فلكل منه إلى الحق
سبيلاً يسلك فيه إلى الله وسيلة أكثر من نجوم السماء، أمرهم أن يتخذ كل واحد منهم سبيله
الذي اختصه الله به، فهو سبيل الهدى يبلغه إلى معادن القدام، وأماكن البقاء؛ لذلك قال
لحبيبه: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ»، قبل القرآن موعظة
للمتقين، وطريق للسالكين، ونجاة للهاككين، وبيان للمستبصرين، وشفاء للمتبحرين،

وأمان للخائفين، وأنس للمريدين، ونور لقلوب العارفين، وهدى لمن أراد الطريق إلى ربه؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضِيٌّ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: إن الله سبحانه وتعالى أخبرهم في الأوائل بالمجاهدات، فلما صاروا أهل الذوق والمشاهدات لم يأت منهم المجاهدات؛ لأن أهل الأنس والبسط غائبون بأنوار المشاهدات عن المجاهدات، فتلطّف عليهم الحق، بأن رفع عنهم أثقال العبودية، وكاشف لهم أنوار الربوبية، ثم أمرهم بأن يترنّموا بآيات من كتابه ما يوافق حاجهم من خير وصول الوصال، وصفاء الأحوال والبسط، والانبساط، والروح، والراحات بقوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي: ما يهيج قلوبكم بنعت المحبة إلى مشاهدة الرحمن. قال الواسطي في قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ أي: لن تطيق القيام بأمره، لن تضبطوا أعمالكم بالصحة والبراءة من العيوب، فتاب عليكم، فعاد عليكم بفضله، وقبل منكم أعمالكم مع أن من لقيه بنعمه كان منقطعاً عن المنعم بالنعم، ومحجوباً بالصفات عن الذات. وقال جعفر في قوله: ﴿مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾: قال: ما يتيسر لكم في خشوع القلب، وصفاء السر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: هذا العموم والخصوص خبر أنفاسهم التي صعدت منهم بنعت المحبة والشوق إلى الله، فهم يجدونها بكشوف أنوار الذات والصفات، ولكل نفسٍ من أنفاسهم لهم هناك قرب، ووصال، وحسن، وجمال.

قال الله: ﴿هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ أي: نفس المحبة والشوق خيرٌ من جميع الأعمال الصالحة، وأجرها كشف اللقاء، ثم أمر الجميع بالاستغفار عن رؤية الأعراض والأعمال عند رؤية جماله وجلاله، بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي: من السكون إلى الأحوال، فإنه غفورٌ

لخطرات العارفين، رحيمٌ بهم، بأن يوصلهم إليه بلا كلفة المجاهدات، ولا عسر المعاملات، قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقال بعضهم في هذه الآية: ما تنفقوه في مرضاة الله خيرٌ لكم من الإمساك والشح.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾: على الوجوه كلها، فما كان ذلك خالصاً لوجه الله لا رياء ولا هواء ولا سمعة فيه، فهو عزيزٌ لا يصل إليه إلا الأبرار المقربون.

سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيَ الْمُؤَذِّرُ ۚ ۱﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ۚ ۲﴾ وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ ۚ ۳﴾ وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ ۚ ۴﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۚ ۵﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۚ ۶﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۚ ۷﴾ فَإِذَا يُنْفِرُ الْفَاقُورُ ۚ ۸﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۚ ۹﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۚ ۱۰﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۚ ۱۱﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۚ ۱۲﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ۚ ۱۳﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۚ ۱۴﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۚ ۱۵﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۚ ۱۶﴾ سَأَرْهِقُهُ صَعُودًا ۚ ۱۷﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۚ ۱۸﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ۱۹﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ۲۰﴾ ثُمَّ نَظَرَ ۚ ۲۱﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَسَكَرَ ۚ ۲۲﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۚ ۲۳﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سَحَابٌ مُنِيرٌ ۚ ۲۴﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۚ ۲۵﴾ مَا أَصْلَبِ سَقَرٌ ۚ ۲۶﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ۚ ۲۷﴾ لَا تُتْنَى وَلَا تَذَرُ ۚ ۲۸﴾ لَوْ آحَاةٌ لِلْبَشَرِ ۚ ۲۹﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ۚ ۳۰﴾﴾

﴿يَتَأْتِيَ الْمُؤَذِّرُ ۚ ۱﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ۚ ۲﴾ أي: أيها الغريق في قلزم القدم قُمْ بدعوى محبتي، وأنذر أحبائي عن الاشتغال بغيري، وأظهر جوهر حقائق بحر عيني للمقبلين إلينا.

قال سهل: يا أيها المستغيث من إغاثة نفسك على صدرك وقلبك قم بنا وأسقط عنك ما سوانا، وأنذر عبادنا، فإننا قد هيأناك لأشرف المواقف، وأعظم المقامات.

وقال بعضهم: أزعج سره بالتجريد عن سكونه عن القيام في الطلب، وعن طمأنينته حتى ورمت قدماه، ثم قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، فدل ذلك على دعوته إِيَّاهُ على التفريد.

وقال بعضهم: قُمْ إلينا بالقعود عن سوانا.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾^(١) أي: كبره برؤية كبريائه بحيث لا يبقى في قلبك النظر إلى غير كبريائه، وطهر قلبك عن وقوفه على ما يجد من المداناة والقربات، فإن وراء الورااء.

قال الحريري: كبر الكبير، واعلم أنك لا تنال كنه كبريائه.
قال الحسين: عظم قدره عن احتياجه إليك في الدعوة إليه، فإن إجابة دعوتك ممن سبقت له الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝﴾ أي: لا تعطِ وجودك إلينا على رؤية الأعواض من غيرنا؛ لتستكثر الدرجات والأعواض، فإن هذه من سجية من لا يعرفنا.
﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾ في بذل وجودك في جريان تقديره، وأيضا أي: مع ربك وفي ربك حين انكشف لك أنوار أسرارهِ، وخاصيتك في النظر إلى جلاله وجماله، ولا تنزعج، فتسقط عن درجة التمكين.

قال القاسم: لا ترى ما أنت فيه لله كثيرا وتستكثره؛ فإنه لا حد لأحد يقوم بمواجهه ولوازمه، ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾: تحت القضاء والقدر.

قال ابن عطاء: لا تمنن بعلمك، فتستكثر طاعتك، ولا تكون رؤية الاستكثار إلا برؤية النفس، فمن أسقط عنه رؤية نفسه فقد أزال عنه رؤية الأعمال والطاعات والاستكثار بها.
﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ۝ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ

(١) قال سهل: أي لا تلبس ثيابك على معصية، فطهره عن حظوظك واشتمل به، كما حكى عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان لرسول الله ﷺ خبيصة، فأعطاها أبا الجهم وأخذ إنبجانيته. فقيل: يا رسول الله إن الخبيصة خير من الإنبجانية. فقال: «إني كنت أنظر إليها في الصلاة». التستري (٢/٢٠٣).

الْحَافِضِينَ ﴿١٤﴾ وَكُنَّا تُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١٥﴾ حَتَّىٰ أَتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿١٦﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ
الشُّفَعَاءِ ﴿١٧﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿١٨﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿١٩﴾ فَرَّتْ مِنْ
قَسْوَرةٍ ﴿٢٠﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً ﴿٢١﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَخَافُونَ
الْآخِرَةَ ﴿٢٢﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٢٣﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٢٤﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفِرَةِ ﴿٢٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾: جنوده وعظمته وكبرياؤه وسلطنته
وقهره الذي صدرت منه جنود السماوات والأرض، وله جنود قلوب العارفين، وأرواح
الموحدين، وأنفاس المحبين التي يستهلك بها كل جبارٍ عنيد، وكل قهارٍ عتيد.

قيل: قال الله لمحمد ﷺ: إنكم لا تقفون على المخلوقات، فكيف تقفون على الأسامي
والصفات؟

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٦﴾ وَاللَّيْلِ﴾: أقسم الله بأقمار أرواح الصديقين حين تصوير
بدوًا في رؤية شمس جلاله وجماله، وأقسم بذهاب ليالي هجران أهل الشوق حين أقبلت إلى
قلوبهم أنوار قربه ومشاهدته، وأقسم بطلوع صبح أنوار صفاته وذاته عن مطالع أسرار
الواصلين، ويزيل بنوره ظلمات الطبائع والمياكل، وصارت عرصات قلوبهم صافية عن
كدورات الكون، ولا يرى عيون أسرارهم فيها إلا فردانية الله التي تقدّست من كل علّة من
علل الحدثانية.

قال القاسم: كَلَّا وربّ القمر جذب عباده إليه بالإشارة.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٧﴾﴾: ظلم السرائر إذا انكشف، وضيء الأنوار إذا ظهر على
القلوب.

وقال الأستاذ: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٨﴾﴾: ضياء أنوار الحقائق إذا تجلّت في السرائر.
قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٩﴾﴾: أنفس المحبين رهينةٌ بالمحبة،
وأنفس المشتاقين رهينةٌ بالشوق، وأنفس العاشقين رهينةٌ بالعشق، وأنفس العارفين رهينةٌ
بالمعرفة، وأنفس الغافلين رهينةٌ بالغفلة، ولكل نفسٍ عنه حجابٌ، فمن شاء أن يخرج عن
الحجب فليخرج من الأنفس، وليقبل على مشاهدة ربّ الأنفس، فإن الكل مرتبهٌ مما عنده إلا
من تجرّد مما دون الله بالله، وهم أصحاب يمين مشاهدة الحق، قال الله: ﴿إِلَّا أَصْحَابُ
الْيَمِينِ ﴿٤٠﴾﴾: فإنهم في جنات قربه ووصاله.
قال القاسم: رهينةٌ بما باشرت من الأعمال.

وقال بعضهم: أين الفرار من القدر، وكيف القرار على الخطر؟
 قوله تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ أَن يُوْتَىٰ صُحُفًا مُّنشُورَةً﴾: وصف الله حسدة
 القرائين والمنافقين والسالوسين والمفسدين، بأنهم يتمنون مقام الولاية، وأن يكشف لهم
 الكرامات والآيات، ويعطيهم علوم المعارف والحقائق؛ ليعظم أقدارهم عند الناس، ولا
 يعلمون أن هذا قسمة الأزلية سبقت من الله في اصطفاية أنبيائه وأصفيائه وأحبائه، هذا
 كتاب منشور من الله سبحانه معرضة على الكل، وهم لا يعلمون حقيقته؛ لأنهم أهل الشك
 والنفاق، وكيف يفهمون حقائقه وهم ليسوا بأهل الله وأهل خطابه.

قال الحسين: كيف لهم بهذه الإرادة، ولهم نفوس خالية عن الحق، معرضة عن أمور
 الحق، غافلة عن الوقوف بين يدي الحق، كيف تفهم الصحف المنشورة أسرار خافية أبكار ما
 قبضتها خاطر حق قط، وأصلها أن البشرية لا تضام الربوبية.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾: حقيقة التقوى لله، فإنه تقدس
 بذاته القديم، وصفاته الأزلية من أوهام الخليفة، ويأن ليس له في العالمين شريك في أزليته، أو
 نظير في أبديته، توحد بذاته، وتفرّد بصفاته، كان فيما كان قدوساً، لم يكن مع قدسه علل
 المحدثات، ولم يزل كما كان في الأزل، لا يماسه الحدثنان بحقيقة التقوى، انفرد بفردانيته، ذكر
 قدسه، ولا عن مباشرة الحدوث، ووصول الحدوث إليه بحال، ثم ذكر رحمته، وله الرحمة
 بالحقيقة بأن لو يغفر جميع الكفار، لا ينقص من بحار رحمته قطرة، ورحمة كل راحم منشعية
 من رحمته.

قال: التقوى: هي التبرؤ من كل شيء سوى الله ﷻ، فمن لزِمَ الآداب في التقوى فهو
 أهل المغفرة.



سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ﴾ ١ ﴿أَتَحْسَبُ أَنَّنَا لَنَسْنُ أَلَّن
 نَجْمَعُ عِظَامَهُ ۖ﴾ ٢ ﴿بَلَىٰ قَدَرِينٌ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۖ﴾ ٣ ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۚ
 ٤﴾ ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ﴾ ٥

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ﴾: انظر كيف قرّن الله قسّمه بالنفس اللوامة، بقسمه بيوم
 القيامة؛ لأن ما يكون في القيامة من جميع أحوالها يمكنها الله في النفس اللوامة، القيامة عالم،

والنفس اللوامة عالم، يظهر من النفس اللوامة لحارفيها ما يظهر يوم القيامة؛ لأن الملكوت والجبروت تظهر بنورها وسناها وعجائبها وغرائبها بتجل من النفس اللوامة، وغرض الكل من العرش إلى الثرى هي النفس اللوامة، والنفس اللوامة الروح الناطقة العالمة بربها، العارفة بصانعها، المحبة لمُدبرها، المشتاقة إلى الله، العاشقة بالله، تلوم نفسها عند كل خطرة تطأها بنعت الوقفة على ما يجد من الله من سنا الدرجات، ورفيع المقامات، وتلوم على قصور معرفتها بالله على الحقيقة، ولا تأتي حضرة الله إلا بنعت الخجل والحياء، وهي لا تنظر إلا الأعمال وأعواضها، فإن جميع الأعمال لا تزن عندها جناح بعوضة، بل تلوم النفس الإنسانية الحيوانية والجسمانية بما يقترب من الذنوب والسيئات، حين لم توافق العقل القدسي الذي هو وزيره، وتلك الملامة منها إذا كانت في السير، فإذا وصلت مشاهدة الحق والغاية في شهود الغيب سقطت عنه الملامة؛ لأن هناك تفنى، لا رسوم، ولا يبقى للحدثان أثر، فيخرج من بحر الربوبية على نعت الطمأنينة، فإذا كادت أن تشتغل برسوم العبودية ناداها الحق، ودعاها إلى نفسه بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ۙ﴾.

قال سهل: «النفس اللوامة»: هي النفس الأمارة بالسوء، وهي قرينة الحرص والأمل. ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۖ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۖ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْفَقْرُ ۖ كَلَّا لَا وَزَرَ ۖ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۖ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۖ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ ۖ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۖ لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۖ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ۖ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۖ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۖ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۖ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۖ﴾: هذا على الظاهر جواب المنكر البعث، ولأهل الحقائق هناك وصال لا انفصال فيه، وذلك حين عاين قدس ذات القديم، فبرقت أبصار العارفين في سطوات عظمتهم، وخسفت أقمار قلوبهم في معاينة عزته، فهناك محل الفناء في الحق حين بان شمس الذات، وأقمار الصفات، وجمعت أنوارها في قلوب العارفين، وهم يذوبون تحت أثقال صدماتها، فيفرون منه لضعفهم عن حمل واردات القدسية، وبدييات كشوفات الألوهية، ويطلبون مقر الأنس من رؤية القدس، فأكد الله أمر بقائهم فيه بنعت الفناء حيث قال: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۖ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۖ﴾ أي: مستقركم بين أنوار جلالي وجمالي، لا يطلع عليكم غيري، وهم فيها أبد الآبدن.

قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ﴾: بصيرة الإنسان هناك عارفةٌ بمعرفته، حيث عرف إياه منازلها ومراتبها وجنباياتها ومعاملاتها، ولا تعريف الحق إياها ما أطلعت عليها، كما لم يطلع عليها في الحجة والغربة، فإذا وقعت المعرفة وقعت البصيرة، وإذا وقعت البصيرة وقعت الخاصية، والمختص بهذه المراتب شريفٌ في الدارين.

قال الواسطي: تخلص النحائر أورث مطالعات المعارف، وسلامة البصائر أوجبت الضياء في الضمائر، وملاحظة الكريم أوجبت النعيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي: إن القرآن كلامنا، وهو قائمٌ بنا، لا تعجل عند الوحي تحفظه، فإنه محفوظٌ عندنا بتجلي أنواره لقلبك، حتى يتصف بها، فتصير أهلاً للقرآن، لا تنساه أبداً، بعد أن باشر نوره قلبك، وسرك بجميع معناه، وأسرار لطائفه في قلبك وفهمك، وتبين ظاهره وقراءته وبيانه على لسانك.

قال الواسطي: جمعه في السر، وقرأته في العلانية.

وقال: أودع القرآن سرائرهم، وأودع البيان بواطنهم، فقال الله تعالى:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۚ﴾ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٍ ۖ تَطْمِنُ ۚ﴾ ﴿يُفْعَلُ بِهَا فَاقِرَةٌ ۖ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۖ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۖ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۖ وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۖ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۖ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ۖ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ۖ أَوَلَىٰ لَكَ فَأُوَلَىٰ ۖ ثُمَّ أَوَلَىٰ لَكَ فَأُوَلَىٰ ۖ أَلْتَحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۖ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِن مَّنِي يَمْنَىٰ ۖ ثُمَّ كَانَ عُلُقَةً ۖ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَحْيَىٰ ۚ﴾ ﴿الْقَوَىٰ ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۚ﴾: وصف الله وجوه مشاهديه بالنضارة والبشارة والبهجة والسرور، وذلك أنهم يرونه راضياً عنهم، فإذا وجدوه بوصف الرضا زال عن قلوبهم الهية، وعن وجوههم الصولة، نظروا إلى جماله، فصارت وجوههم ناظرة بهيئة مبتهجة مسرورة مستبشرة، وذلك من حسن تجلي جماله، والآية تدل على أن القوم ينظرون إلى الله وهم في حال الصحو والبسط، ولو عاينوه بوصف الجلال والعظمة والكبرياء صرفاً لهلكوا في أول سطوبة من سطواته، وصارت وجوههم دهشة، يرونه بنوره، بل به يرونه، وهنالك وجود العارف كله عين يرى حبيبه بجميع وجوده، وتلك العيون

مستفادة من تجلّي الحق سبحانه، فإذا فهمت هذا فإنه تعالى يقوم لهم بالنظر من نفسه إلى نفسه، فهناك نظر الحبيب، ونظر المحبوب واحد في معنى الاتحاد.

قال النصر آبادي: من الناس ناسٌ طلبوا الرؤية واشتاقوا إليه، ومنهم العارفون الذين اكتفوا برؤية الله لهم، فقالوا: رؤيتنا ونظرنا فيه عللٌ، ورؤيته ونظره بلا علة، فهو أتمُّ به بركة وأشمل نفعًا.

قال الواسطي: ﴿نَاضِرَةٌ﴾: نضرت بالتوحيد، وابتهججت بالتفريد، وذهبت بالتجريد؛ لأن الله فعَّال لما يريد.

قال الأستاذ: دليلٌ على أنه بصفة الصحو، ولا يداخلهم حياءٌ، ولا دهشًا؛ لأن النضرة من أمارات البسط، والبقاء في حال اللقاء أتمُّ من اللقاء، والرؤية عند أهل التحقيق يقتضي بقاء الرائي عنه، وعندهم استهلاك العبد في وجود الحق أتمُّ^(١).

سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝﴾.

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾: أخبر الله سبحانه عن سرِّ فطرة آدم ﷺ التي أتى عليها أحيانٌ لم تكن شيئًا يطلع عليها المقربون والكرويين من علمهم ومعرفتهم، وكيف ذكروه وهو على علمهم في غيب الغيب مستورًا في حجاب الأنس، ورياض القدس بنوره عن أعين أهل الملكوت، فهناك ليس بمكان ولا زمان يتجلّى له من جميع الذات والصفات، وبقي بين أنوار الصفات وأنوار الذات حتى صارت فطرته الروحية القدسية الملكوتية كاملةً بكمال الله، عالمة، قادرة، سمیعة، بصيرة، متصفة بجميع صفاته، ولم يكن هناك صباحٌ، ولا مساءً، ولا زمانٌ، ولا مكانٌ، عرّفها الله نعوته القديمة: وأسماؤه الحسنی، وصفاته العلا، وسقاها من بحر الذات شربات المحبة والشوق والمعرفة، ففي كل صفة لها طورٌ، وفي كل مشاهدة لها حالٌ ووجدٌ وكشفٌ لا يطلع عليها أهل البریة، فكيف ذكروه، وهو مذكور الله أولاً وأبدًا لم يكشف ذكره لأحدٍ غيره على ذكره، فإذا قالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

(١) النضرة طراوة البشرة وجالها وذلك من أثر التنعم والناضر الغض الناعم من كل شيء أي وجوه كثيرة وهي وجوه المؤمنين المخلصين يوم إذ تقوم القيامة بهية متهلة يشاهد عليها نضرة النعيم ورونقه.

بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ ۖ أَظْهَرَهُ اللَّهُ لَهُمْ بِصُورَةٍ تَرَابِيْعٍ، وَفُطْرَةٍ جَسْمَانِيَّةٍ، وَلَوْلَا أَنَّهُ سَتَرَهُ بِالْمَاءِ وَالطِّينِ لَمَاتُوا جَمِيعًا فِي النَّظَرِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ خَارِجًا مِنَ الْحَضْرَةِ، مَنْعُوتًا بِنَعْتِ اللَّهِ، مُوصُوفًا بِصِفَةِ عَلَى لِبَاسِ أَنْوَارِ الرُّبُوبِيَّةِ، فَقَبْلَ دُخُولِهِ فِي صُورَتِهِ لَمْ تَكُنِ الصُّورَةُ شَيْئًا مَذْكُورًا حِينَ لَمْ تَنْعَكْسْ عَلَيْهَا أَنْوَارُ رُوحِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْفَخَ فِيهَا رُوحَهُ خَلَقَهَا بِيَدِهِ، وَخَرَطَ طِينَهُ لَطْفَهُ، وَصَوَّرَ لَهَا بِصُورَةٍ عِلْمِهِ، وَجَعَلَ فِيهَا أَطْوَارًا مِنْ مَعْجُونَاتِ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ؛ ثُمَّ تَرَكَهَا فِي فُضَاءٍ غَيْبِهِ، حَتَّى مَضَى عَلَيْهَا دَهْرُهَا، وَدَارَ عَلَيْهَا فَلَكٌ دَوَّارٌ، فَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَسَاعَةٍ أُبْدِعَ فِيهَا بَدَائِعَ فُطْرَتِهِ، وَلَمْ يَكْشِفْ تِلْكَ الْحَقَائِقَ لِلْمَلَائِكَةِ، وَلَمْ يَرَوْهَا إِلَّا صُورَةً صَلْصَالِيَّةً، طَوْرًا مِنْ حَمَلٍ مُسْنُونٍ، وَطَوْرًا مِنْ تَرَابٍ وَغُبَارٍ، وَطَوْرًا مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ، حَتَّى تَنْقُشَتْ بِنُقُوشِ الْقُدْرَةِ، وَدَخَلَ فِيهَا رُوحُ الْأُولِيَّةِ، فَلَمَّا قَامَ آدَمُ فِي الْحَضْرَةِ سَجَدَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ؛ لَمَّا عَلَيْهِ مِنْ آثَارِ جَلَالِ الْحَقِّ، وَكَيْفَ تَذَكَّرَهُ أَحَدٌ وَذَكَرَهُ غَابَ فِي ذَاكِرِهِ وَمَذْكُورِهِ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعِلَّةٍ، فَكَمَا خَلَقَ آدَمَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ خَلَقَ ذُرِّيَّتَهُ فِي مَعَادِنِ غَيْبِهِ أَطْوَارًا، وَطَوْرًا رُوحَانِيًّا، وَطَوْرًا عَلِيًّا، وَطَوْرًا عَقْلِيًّا، وَطَوْرًا نَفْسَانِيًّا، وَطَوْرًا حَيَوَانِيًّا، وَطَوْرًا شَهْوَانِيًّا، وَطَوْرًا شَيْطَانِيًّا، وَطَوْرًا سَرِّيًّا، وَطَوْرًا مُلْكُوتِيًّا، وَطَوْرًا رَبَّانِيًّا، فَهَذِهِ الْأَطْوَارُ يَغْلِبُهَا اللَّهُ فِي زَمَانِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَيَجْعَلُهَا فِي كُلِّ أَوَانٍ عَجْبَتَهُ مِنْ عِلْمِهِ غَرِيبًا مِنْ قُدْرَتِهِ مَصْبُوغَةً بِصَبْغِ أَفَانِينَ تَجَلِّيِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ عِنْدَهُ آدَمُ ثَانٍ^(١).
 قَالَ جَعْفَرٌ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَا إِنْسَانُ وَقْتُ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ ذَكَرًا لَكَ فِيهِ.

وَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ الْمَغْرِبِي: ابْتَلَى اللَّهُ الْحَقَّ بِتِسْعَةِ أَمْشَاجٍ: ثَلَاثَ مَفْتَنَاتٍ، وَثَلَاثَ كَافِرَاتٍ، وَثَلَاثَ مُؤْمِنَاتٍ، فَأَمَّا الثَّلَاثَةُ الْمَفْتَنَاتُ: فَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَلِسَانُهُ، وَأَمَّا الثَّلَاثُ الْكَافِرَاتُ: فَنَفْسُهُ وَهَوَاهُ وَعَدُوُّهُ، وَأَمَّا الثَّلَاثُ الْمُؤْمِنَاتُ: فَعَقْلُهُ وَرُوحُهُ وَقَلْبُهُ، فَإِذَا أَيْدَى اللَّهُ الْعَبْدَ بِالْمَعُونَةِ قَهَرَ الْعَقْلَ عَلَى الْقَلْبِ، فَمَلَكَهُ، وَاسْتَأْسَرَتِ النَّفْسُ وَالْهَوَى، فَلَمْ تَجِدْ إِلَى الْحَرَكَةِ سَبِيلًا، فَجَانَسَتْ النَّفْسُ الرُّوحَ، وَجَانَسَ الْهَوَى الْعَقْلَ، وَصَارَتِ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا﴾

(١) قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِي: فَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ الْمُبْتَلَى بِالتَّكَالِيفِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْأُمُورِ الرَّبَّانِيَّةِ وَهُوَ الْمَوْصُوفُ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَجَمْعُ الْبَدَنِ لَيْسَ كَذَلِكَ وَلَيْسَ عَضْوًا مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ كَذَلِكَ فَالنَّفْسُ شَيْءٌ مُغَايِرٌ لَجَمْلَةِ الْبَدَنِ وَمُغَايِرٌ لِأَجْزَاءِ الْبَدَنِ وَهُوَ مَوْصُوفٌ بِكُلِّ هَذِهِ الصِّفَاتِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَحَادِيثَ الرَّارِدَةَ فِي صِفَةِ الْأَرْوَاحِ قَبْلَ تَعَلُّقِهَا بِالْأَجْسَادِ وَبَعْدَ انْفِصَالِهَا مِنَ الْأَجْسَادِ كَثِيرَةٌ وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّفْسَ شَيْءٌ غَيْرُ هَذَا الْجَسَدِ. تَفْسِيرُ الرَّازِي (١٠/١٢٩).

وَأَغْلَلَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾: حقيقة إشارته أنه تعالى عرّف لهم الطريق، فمن بقى في الطريق ولم يصل إليه فممنعه لم يبلغ، ومن وصل إليه فيجد به بلغ إليه، فمن بلغ يكون بمعرفته شاكرًا له، ومن لم يبلغ إليه فيجد؛ لأنه يكون كافرًا به، إذ لم يذق طعم الوصال، ولم ير نور مشاهدة الجمال، مهّد الطريق، ونصّب الأعلام، وأوضح المنار والأدلة، ودعاهم به إلى نفسه، فمن واصل يسكن بها وجد به وهو شاكر، ومن واصل لم يسكن بها وجد، ويكون معرّبًا بطلب مزيد الدنو، وفي كل ما وجد لم يكن راضيًا حتى وصل إلى غيبوبة الغيب، ويشرب من أنهار صرف الصفات والذات، فيخرج متحدًا يدّعي الربوبية، ويكون كافر الحقيقة.

قال سهل: بيّنّا له طريق الخير من طريق الشر، إما أن يكون شاكرًا طائعًا، فمستقره الجنة، وإما أن يكون كفورًا جاحدًا، فمأواه النار.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿١١﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿١٢﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿١٣﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿١٤﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿١٥﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٦﴾ فَوَقْنَاهُمُ اللَّهَ شَرُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١٧﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٨﴾ مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْزَاقِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴿١٩﴾ وَذَانِبَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذَلَّلَتْ فَطْرُهَا تَذَلِيلًا ﴿٢٠﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِقَابِئَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿٢١﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿٢٢﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿٢٣﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴿٢٥﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾: وصف الله سبحانه أوساط أهل المعرفة من أهل السلوك أنهم يشربون شرابًا من كاسات قربه، يكون مزاجها كافور المعرفة مع شراب المشاهدة، لم يكن لهم شرابًا صرفًا من المعرفة؛ لأنهم يبقون في سكر المشاهدة، يغيبون عن مطالعة الحقيقة بعيون المعرفة، فأول شربهم صحو، وآخر شربهم سكر، ولم يكن كذلك العارفون، فإنهم يشربون صرف شراب المشاهدة المنعوت بالمعرفة مع الصحو من أول شربهم إلى آخر شربهم؛ حتى لا يحتجبوا عن رؤية غرائب تجلي

الذات والصفات، ولذلك قال الله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، وعباده ههنا: أهل التمكين في المعرفة، وكذلك حالهم في الدنيا يشربون شراب المحبة ممزوجة ببعض الكشوفات، والعارفون يشربون جميعاً بالرؤية والمكاشفات، فلكل شربة لهم كشفٌ وبيانٌ، فالصافي من له شرابٌ صافٍ من غير مزج، فإن الممزوج لا يخلو من امتحان، انظر كيف قال القائل:

مالي جَفَيْتُ وَكُنْتُ لَا أَجْفِي ودلائلُ الهجرانِ لا تخْفِي

وَأرائي تَسْقِينِي وَتَمَزِجُ لِي ولقد عهد إليك شاربٍ صرفاً

قال سهل: الأبرار الذين هم فيهم خلق من خلق العشيرة، الذين وعدهم النبي ﷺ بالجنة.

قال الواسطي: لما اختلفت أحوالهم في الدنيا، كذلك اختلفت أشربتهم في الآخرة، بل سقت الأشربة الأحوال من قُدِّرَ له شراباً طهوراً في الآخرة، طهره الحق في الدنيا عن رؤية السعائيت بالموافقة والمخالفة، وهو من تحت قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾، بردت الدنيا في صدورهم، وانقطعت عن قلوبهم.

قيل: «الأبرار»: هم الذين سمت همتهم عن المستحقرات، فظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة، وأنفوا من مساكنهم الدنيا يشربون كأساً كان مزاجها كافوراً. قال الأستاذ: اختلفت مشاربهم في الآخرة، فكلُّ يُسْقَى ما يليق بحاله.

وقال يحيى بن معاذ في قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾: إنها عيون يشربون منها في الدنيا، فيورثهم ذلك شراب الحضرة، وذلك من عيون الحياء، وعيون الصبر وعيون الوفاء. قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالْعَذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾: يوفون بنذورهم التي هي غرائم قلوبهم في أوائل قصود أرواحهم بحق الحق ألا يختاروا على الله شيئاً من العرش إلى الثرى، ويخافون من قهره ومكره بمعرفتهم بأنه منزهة من وصولهم وفضولهم.

قال بعضهم: يوفون بما يطيقون، يخافون أن يطالبوا بما لا يطيقون من تمام الوفاء. قال سهل في هذه الآية: البلايا والشدائد في الآخرة عامٌ، والملامة خاصٌ للخاص. ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (١٦) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (١٧) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (١٨) فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا (١٩) وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٠) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢١) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٢) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا

أَسْرَهُمْ^ط وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا^{١٨} إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ^ط فَمَنْ شَاءَ اخْتِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا^{١٩} وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا^{٢٠} يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^{٢١}.

قوله تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾^{١٨}: أخبر الله سبحانه عن سقيه أرواح أوليائه في الأزل شراب بحار رؤية أنوار القدم؛ حيث ظهر جلال ذاته وصفاته لها، وذلك الشراب لظهور طهوريته تجلي قدس ذاته الذي ظهر تلك الأرواح من شرب الامتحان والقهر والحرمان، لا تتدنس أوقاتها بشيء من الحداث بعد شربها أشربة أفانين أنوار الصفات، فتلك الكائنات المروقات عن علل الحجاب والعتاب، دارت عليها في الدنيا حتى يرجع إلى معادنها من الغيب، ففي كل لحظة لهم شراب الوصال والكشف والجمال لا مقطوعة ولا ممنوعة، ولتلك الأشربة آثار السكر في وجودهم من هجوم المواجه عليهم حين سلبتهم جذبات واردات الغيب عن رؤية الأكوان الحداث، سكرت أرواحهم بشارب رؤية القدم، وسكرت أسرارهم بشارب رؤية البقاء، وسكرت عقولهم برؤية نور الصفات، وسكرت قلوبهم بشارب رؤية الذات، وسكرت نفوسهم بشارب المدانة في الخلوات والمناجاة، ففي كل جالٍ لهم من ذلك الشراب وقتٌ، ووجدٌ، وشوقٌ، وعشقٌ، وهيمانٌ، وولهُ، وهيجانٌ، ليس لهم في الكون سؤالٌ غير هذا الشراب، ولا لهم منى غير هذا الوصال، به داوى جروح قلوبهم من آلام المحبة لا بشيء دونه.

تداويتُ من ليلي بليلى من الهوى كما يتداوى شاربُ الخمرِ بالخمرِ

قال بعضهم: إن لله شرابًا صافيًا طاهرًا شهيا نقيًا، ذخرها في كنوز ربوبيته لأوليائه وأصفيائه، يفجر لهم من ينبوع المعرفة في أنهار المعرفة، فسقاهاهم ربهم بكأس المحبة شرابًا طهورًا، فإذا شربوا بقلوبهم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، سقاهاهم ذلك في الدنيا في ميدان ذكره بكأس محبته على منابر السنة بمخاطبة الإيمان، وسقاهاهم في الآخرة في ميدان قربه بكأس رؤيته على منابر النور، بمخاطبته العيان.

قال سهل: فرّق الله بهذه اللفظة بين الطهور والطاهر، وبين خور الجنة وخور الدنيا؛ فإن خور الدنيا نجسة تنجس صاحبها وشاربها بالآثام، وخور الجنة طهور يطهر شاربها من كل دنس، ويصلحه لمجالس القدس، ومشهد العزة.

قال جعفر: سقاهاهم التوحيد في السر، فتأهوا عن جميع ما سواه، فلم يفيقوا إلا عند المعاينة، ورفع الحجاب فيما بينهم وبينه، وأخذ الشراب، ففي أخذه عنه لم يبق عليه منة باقية، وحصله في ميدان الحصول والقبضة.

وقال فارس: منهم من سقاه شراب الهداية فهداه، ومنهم من سقاه شراب الولاية فولاه، ومنهم من سقاه شراب المعرفة فقربه وأدناه، ومنهم من سقاه شراب التوحيد فستره وأواه.

قال أبو سليمان الداراني: سقاهم ربهم على حاشية بساط الود، فأراهم من صحة الخلق، وأراهم رؤية الحق، ثم أقعدهم على منابر القدس، وحيّاهم بتحف المريد، وأمطر عليهم مطر التأيد، فسالت عليهم أودية الشوق والقرب، فكفاهم هموم الفرقة، وحيّاهم بسرائر القرية. وقيل: سقوا شراب المودة في كأس المحبة في دار الكرامة، فسكروا بها، فمشوا في ميدان الشوق، ولم يقنعوا بشيء غير الرؤية.

وقال جعفر: شراباً طاهراً مطهراً صافياً، ادخره في كنوز ربوبيته، سقاه أوليائه في ميدان كرامته بكأس هيته على منابر عزه، فإذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طاشوا، وإذا طاشوا اشتاقوا، وإذا اشتاقوا طاروا، وإذا طاروا بلغوا، وإذا بلغوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا أفنوا، وإذا أفنوا أبقوا، وإذا أبقوا صاروا ملوكاً وسادة وأحراراً وقادة.

قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: في ولايته ونبوته ومعرفته ومحبه، وفي كشف مشاهداته التي لا ينالها إلا بالاصطفائية الأزلية التي تزول عندها جميع الأسباب والسعيات وعلل الأعمال.

قال الواسطي: إن الله تعالى حكم بصفته على صفتك، ولم يحكم بصفتك على صفته، فقال: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾^(١)، كما أن جميع الكون به، كذلك جميع الصفات بصفاته، وكما أنه بنفسه يصرف النفوس، لا النفوس تصرفه على ما يريدون، كذلك بصفته يصرف الصفات، والنعوت أجمع.

سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ۝ وَالنَّشْرِاتِ نَشْرًا ۝ فَالْفَرْقَتِ

(١) قال ابن الخطيب: إن فسرنا الرحمة بالإيمان فالآية صريحة في أن الإيمان من الله تعالى، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئته بسبب مشيئة الله تعالى وفضله، وإحسانه لا بسبب الاستحقاق؛ لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجهل أو الحاجة، وهما محالان على الله تعالى، والمفضي إلى المحال محال، فتركه محال، فوجوده واجب عقلاً، وعنده ممتنع عقلاً، وما كان كذلك لا يكون معلقاً على المشيئة البتة. تفسير اللباب لابن عادل (١٥٦/١٦).

فَرَقًا ﴿١﴾ فَالْمُلَقَّيَاتِ ذِكْرًا ﴿٢﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٣﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ ﴿٤﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِيتَتْ ﴿٨﴾ لَا إِلَهَ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿٩﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٠﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١١﴾.

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ﴿١٢﴾ فَالْعَصِيفَتِ عَصْفًا ﴿١٣﴾: أقسم الله سبحانه بالمرسلات من رياح العناية المتابعة من شمال قربه وبساتين غيب مشاهدته، والعاصفات من رياح تجلي العظمة والكبرياء التي تنفي قلوب الموحدين في سطواتها.

﴿وَالنَّشِيرَاتِ فُشْرًا﴾ ﴿١٤﴾: صبا وصاله التي تنشر طيب الجمال على أرواحهم، فتبقيها بعد فنائها.

﴿فَالْفَرَقَتِ﴾: خطابات متتابعة تفرق بين الحق والباطل في ساحة القلوب.

﴿فَالْمُلَقَّيَاتِ ذِكْرًا﴾ ﴿١٥﴾: كشوفات الصفات مع الخطاب والوحي والإلهام.

﴿عَذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ ﴿١٦﴾: عذرا للأرواح والعقول، نذرا للقلوب والنفوس، عذرا للعارفين، ونذرا للمريدين.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ ﴿١٧﴾: إذا تجلى الحق بجلال كبريائه من عيون القدم تنطمس نجوم عقول العارفين مع نجوم معارفهم، فتتخسف أقطار أرواحهم عند شعاع عزة السرمدية، بحيث لم يكن لها عين إلا حارت، ولا معرفة إلا زالت.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ ﴿١٨﴾: سماء قلوبهم تنفرج عند بروز أنوار الوهيته.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ ﴿١٩﴾: جبال أسرارهم تتسلف في عواصف قهر سلطان ظهور جلال عزته، لا تبقى لها آثار في الأنوار.

قال ابن عطاء: إذا انطمست نجوم ظهور المعارف، وكشفت عن سرائر المعاملات، وهو اليوم الذي يفصل بين المرء وقرنائه وأخذانه وخللانه إلا ما كان منها في الله والله.

﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٢٣﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مُهِينٍ ﴿٢٥﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢٦﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٧﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٣٠﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٣٢﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٣﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٣٤﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٥﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي

مِنَ اللَّهَبِ ﴿٦﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٧﴾ كَأَنَّهُ جُمَلَتْ صُفْرًا ﴿٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٩﴾ هَٰذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿١٠﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿١١﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٢﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿١٤﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿١٦﴾ وَفَوَٰكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٧﴾
كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّا كَذَّالِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٠﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٢﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آزَكُوا لَا يَرْكَعُوا ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ
بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويل الحسرة يوم الإشهاد للمنكرين
أنيائي وأوليائي ودرجاتهم، والويل يومئذ لكل مدع كذاب، ليس في دعواه معنى.
قال الجنيد: الويل يومئذ لمن كان يدعي في الدنيا الدعاري الباطلة.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾: من لم يكن له في الدنيا نطقٌ وحديثٌ
وكلامٌ، كيف ينطق عنده يوم يأتي عنده الكل يهيب، ويسكت عنده كل فصيح.
قال أبو عثمان: أسكتهم رؤية الهيبة، وحياء الذنوب.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي: هذا يوم مفارقة النفس والشيطان عن جوار
قلب العارف، وينفصل عن كل محبٍّ غير محبوبه حيث استغرق في وجوده.
قال جعفر: فصل كل فصلٍ مدخولٍ، وفصل كل وعدٍ مأمولٍ.

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مَخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ
أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾
وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً
ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾
يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ

الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿١٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١١﴾ لِلطَّٰغِيْنَ مَقَابًا ﴿١٢﴾ لَّيْسَ فِيهَا مِنْ أَحْقَابًا ﴿١٣﴾ لَا يَدْخُلُ فِيهَا بَرْدٌ وَلَا شَرَابٌ ﴿١٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ﴿١٥﴾ جَزَاءُ وِفَاقًا ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿١٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿١٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿١٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٢٠﴾

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾: النبا العظيم كلامه القديم، عظم بعظم الله القديم، مرتفع عن خاطر كل مخالف، لا ينال بركتها إلا أهل الله وخاصته.
قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ﴿١﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٢﴾: مهّد أرض قلوب الأولياء، وربطها بجبال المعارف وأوتاد العقول لعساكر تجليه، «الأوتاد»^(١): عصبة من المتمكنين من الأولياء بهم يستقيم العالم والعالمون.

قال بعضهم: الأوتاد على الحقيقة سادات الأولياء، وخواص الأصفياء.
سئل أبو سعيد الخراز عن الأوتاد والأبدال أيهم أفضل؟ فقال: الأوتاد. قيل: كيف؟ فقال: لأن الأبدال ينقلبون من حال إلى حال، ويبدل لهم من مقام إلى مقام، والأوتاد بلغ بهم النهاية وثبتت أركانهم، فهم الذين بهم قوام الحق.
قال ابن عطاء: الأوتاد هم أهل الاستقامة والصدق، لا تغيرهم الأحوال، وهم في مقام التمكين.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ﴿١﴾ حَدَاقًا وَاعْتِبَابًا ﴿٢﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٤﴾ جَزَاءُ مِمَّنْ رَّبَّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٥﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٦﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٧﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اخْتِذْ إِلَى رَبِّهِ مَقَابًا ﴿٨﴾ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبِثَنِي كُنْتُ تَرَبًّا ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ﴿١﴾: لهم فوز المشاهدة، وبغيته المكاشفة ولذة الوصلة؛ لأنهم اتقوا مما سواه، فيعطيه ما يكفيهم رؤية غيره في بساتين القدس، ورياض

(١) إن هذه الآية إنما ذكرت ليستدل على وجود الصانع؛ والشروط فيه أن يكون ذلك أمراً مشاهداً معلوماً، حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع لأن الشيء إذا رأيت حجمه، ومقداره، صار ذلك الحجم، وذلك المقدار عبرة. تفسير اللباب لابن عادل (٣٨٠/٩).

الأنس، لا يسمعون إلا كلام حبيبهم، ما يهيجهم إلا قربه ووصاله، والشوق إلى جماله؛ ليغنيهم بنفسه عن كل مأمول، قال سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ۗ جَزَاءُ مَن رَّبَّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾.

قال بعضهم: فوزهم على قدر قصودهم ونياتهم.

قال الشبلي: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: كلامًا إلا من الحق، فإنه إذا ظهرت الحقيقة خنسست المقادير، وصار الكل هباءً في جنب الحقائق، ومن تحقق بالحق في الدنيا لا يسمعه الحق إلا منه، ولا يشهده سواه؛ لأنه مستغرق في معادن التحقيق، قال الله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾.

قال بندار بن الحسين: الجزاء إذا كان من الله لا يكون له نهاية؛ لأنه لا يكون على حد الأعواض، بل يكون فوق الحدود؛ لأنه ممن لا حد له ولا نهاية، فعطاؤه لا حد له ولا نهاية. قال بعضهم: العطاء من الله موضع الفضل لا موضع الجزاء، والجزاء على الأعمال والفضل موهبة من الله، ينحصر به الخواص من أهل وداده.

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾: من كان كلامه في الدنيا من حيث الأحوال، والأحوال من حيث الوجد، والوجد من حيث الكشف، والكشف من حيث المشاهدة، والمشاهدة من حيث المعاينة، فهو مأذون في الدنيا والآخرة، يتكلم مع الحق على بساط الحرمة والهيبة، ينقل الله به الخلائق من ورطة الهلاك.

قال ابن عطاء: «الخالص»: ما كان لله، و«الصواب»: ما كان على السنة.

قال الواسطي لأهل الحق: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾، لما كان إليهم من برّه، فمن كان مأذونًا في الكلام، كان موفقًا على قدر علمه.

قال الأستاذ: إنما يظهر الهيبة على العموم لأهل الجمع في ذلك اليوم، وأما الخواص وأصحاب الحضور فهم أبدًا بمشهد العز بنعت الهيبة لا نفس لهم، ولا فرحة أحاط بهم سرادقها، واستولت عليهم حقائقها.

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتَّبِعُهَا الرَّاكِدَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ

وَاجِفَةٌ ﴿١﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ يَقُولُونَ أَوْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿٣﴾ أِذَا كُنَّا عِظْمًا
نَّخْرَةً ﴿٤﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذْ أَكَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿٥﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٦﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿٧﴾
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٨﴾.

﴿وَالنَّزِعَتِ غَرْقًا﴾ ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَتِ نَشْطًا ﴿٢﴾: ظاهره وعيدٌ، وإشارة النازعات في الحقيقة إلى صولات صدمات تجلّي العظمة على قلوب العارفين، بنزع الأرواح العاشقة عن المعادن الحدوثية إلى معادن، وطوارقات تجلّي الكبرياء، فتذروها في هواء الأزال والآباد، حتى لا يبقى إلا وجهه، ولا يدوم إلا ملكه.

﴿وَالنَّشِيطَتِ نَشْطًا﴾ ﴿٢﴾: هي الأرواح الشائقة.

﴿وَالسَّيِّحَتِ سَبْحًا﴾ ﴿٣﴾: هي الأرواح العارفة، تسبح في بحار ملكوته، وقاموس كبرياء جبروته، تطلب منها جواهر أسرار الأولية والآخرة والظاهرية والباطنية.

﴿فَالسَّيِّحَتِ سَبْحًا﴾ ﴿٤﴾: هي أنفاس الشائقين، وهموم العارفين العاشقين يصاعدها لعالم الملكوت، وجناب الجبروت، تسابق كل هبة.

﴿فَالْمُدَبِّرَتِ أَمْرًا﴾ ﴿٥﴾: هي العقول القدسية، تدبر أمور العبودية بشرائط إلهام الحقيقة^(١).

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدْسِ طُوى﴾ ﴿٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٧﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدْسِ طُوى﴾ ﴿٦﴾: طير روح كليمه في وادي قدس آزاله وآباده، وطوى لها بعد إصفار القديم والبقاء، فدنا منه، وأغرقه في بحر جماله وجلاله، وأسكره شهود العين، بوصفٍ كاد أن يكون هو من حيث الاتحاد والاتصاف، فاستوفى جميع وجوده حظ الربوبية، وبقي سمعه من الاتصاف بصفته، فناده حتى يكون جامعًا في الاتصاف والاتحاد، فلما كاد أن يدعي الأنانية من حدة السكر، فناده حتى يفيق من سكر سكره، ولا يتجاوز عن حده، فناده أين أنت يا موسى؟ أنا، أنا وأنت، أنت، وأحاله إلى

(١) قال القاشاني أقسم بالنفوس المشتاقة التي غلب عليها النزاع إلى جناب الحق غريقة في بحار الشوق والمحبة والتي تنشط من مقر النفس وأسر الطبيعة أي تخرج من قيود صفاتها وعلائق البدن من قولهم نور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد أو من قولهم نشط من عقله والتي تسبح في بحار الصفات فتسبق إلى عين الذات ومقام الفناء في الوحدة فتدبر بالرجوع إلى الكثرة أمر الدعوة إلى الحق والهداية وأمر النظام في مقام التفصيل بعد الجمع انتهى ثم إن النفوس الشريفة لا يبعد أن يظهر منها آثار في هذا العالم سواء كانت مفارقة عن الأبدان أو لا فتكون مدبرات.

فرعون حتى يكون مشغولاً عن حدة الاتحاد، ولولا الرسالة والإبلاغ لفني في شهود الكبرياء؛ لذلك قال: ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٢٠٦)، حيث يدّعي ما ليس له، إذ هو رأى على نفسه عكس قهر القدم، فظن أنه هو في الربوبية، ولم يعرف أن القهر يمنعه عن الوصول إلى الأزل بالاتصاف، فأغراء موسى عليه؛ ليدمر عليه بعزته، ويكذبه بالعلامة الصحيحة الإلهية الربانية مثل العصا واليد البيضاء، وإرسال موسى إلى فرعون موضع الامتحان والتعريف بالامتنان والفرقان بين العرفان والخذلان، ونجاة أهل الإيمان من بين أهل الطغيان.

قال سهل في قوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾: جوع نفسه طائعا تعبداً، ثم نادى؛ ليكون النداء أبلغ.

وقال أبو عثمان: طوى أياماً قبل القصد، ثم قصد طارياً مقدساً، فطوى الوادي المقدس، فناداه ربه على التقديس.

قال الصبيحي في قوله: ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: الإشارة إلى فرعون، وهو المبعوث إلى السحرة، فإن الله لم يرسل أنبياءه إلى أعدائه، ولم يكن لأعدائه من الخطر ما يرسل إليهم أنبياءه، ولكن يبعث إليهم الأنبياء؛ ليخرج أوليائه المؤمنين من بين أعدائه الكفرة.

﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنَا﴾ (٢٠٧) ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (٢٠٨) ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ (٢٠٩) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ (٢١٠) ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَ﴾ (٢١١) ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ (٢١٢) ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (٢١٣) ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ (٢١٤) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ (٢١٥) ﴿أَن تَمَّ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢١٦) ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا﴾ (٢١٧) ﴿وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٢١٨) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ (٢١٩) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٢٢٠) ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (٢٢١) ﴿مَتَّعْنَا لَكُمُ الْوَسْطَىٰ﴾ (٢٢٢) ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ﴾ (٢٢٣) ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ (٢٢٤) ﴿وَبُورَتْ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ (٢٢٥) ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ (٢٢٦) ﴿وَوَآثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٢٢٧) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٢٢٨).

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنَا﴾ (٢٠٧) ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (٢٠٨): فيه بيان أن: المزمع المطهر هو المهدي يخشى الله لوجود علمه بالله، ومن كان جاهلاً بالله لم يخشَ من الله، وهذا امتحان من الله؛ لقطع حجته، ولم تخف على الله سوء عاقبته.

قال ابن عطاء: هل لك أن أطهرك من الجنايات التي تلطخت بها، وأردك إلى حد العبودية التي بها الفخر والنجاة.

وقال الترمذي: الخشية ميراث صحة الهداية، ألا ترى الله يقول: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكُبْرَى﴾: انظر كيف أشار سبحانه رمزاً عجيباً في هذه الآية أنه أراه آية صرفاً، ولو أراه أنوار الصفات في الآيات لم يكفر، ولم يدع الربوبية؛ إذ هناك موضع المحبة والعشق والإذعان؛ لأن رؤية الصفات تقتضي التواضع، ورؤية الذات تقتضي العريضة، فكان هو محجوباً برؤية الآيات عن رؤية الصفات، فلما لم يكن معها حظ شهود نور الصفة لم ينل على رؤيتها حظ المحبة، ولم يأت منها الانقياد والإذعان؛ لذلك قال سبحانه: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾: ألبس الله نعوت قهره نفس فرعون، وظهرت تلك النعوت لها بوصف الشهوة والحلاوة من تأثير مباشرتها، فسكرت نفسه بشرب القهر، فصارت متمردة عاصية كافرة، تدعي الربوبية، ولم يعلم الكافر أنها لباسات عارية. سئل الواسطي: لماذا خلق الله المعاصي وأظهرها وأظهر هذه الألفاظ التي لا تليق بالربوبية؟ قال: لأنه لم يؤثر على الذات ما أظهر في الحدث من الصفات؛ لأن الصمدية ممتنعة عن الإشارات فضلاً عن العبارات.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾: لما لم يكن صادقاً أفتضح في الدنيا والآخرة، وهكذا كل من يدعي ما ليس من المقامات.

قال بشر: أنطق الله لسانه بالعريض من الدعاوي، وأخلاه من حقائقها. وقال السري: العبد إذا تزين بزى السيد صار نكالا، ألا ترى كيف ذكر الله في قصة فرعون لما ادعى الربوبية، ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾، كذبه كل شيء حتى نفسه. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ يُسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ۚ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۚ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ۚ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾: خاطب العباد بهذه الآية في أوائل مقاماتهم حين وجب عليه تزكية النفوس عن شره هواها والميل إلى حظوظها؛ لأنهم في وقت قصودهم إلى الله لا يجوز لهم الرخص والرفاهية، فقد وجب عليهم الإعراض عن حظوظ أنفسهم خوفاً من الاحتجاب بها عن الوصول إلى الله، ولعلمهم بأنه تعالى يحيط بحركات شهوات نفوسهم الخفية حين تميل

بخفائها إلى مرادها مما دون الله، فإذا جاهدوها وقهروها بتأييد الله أوصلهم الله مقام مشاهدته، وهي جنة العارفين، فإذا بلغوا إلى درجات المعرفة لم يحتاجوا إلى نهي النفس عن الهوى، فإن نفوسهم وأجسامهم وشياطينهم صارت روحانية، فجانست الأرواح الملكوتية، فشعوات نفوسهم هناك من تأثير حلاوة أرواحهم في مشاهدة الحق، فتشتهي الأنفس ما تشتهي الأرواح، الأرواح في الغيوب، والنفوس في القلوب، فنظرهم هناك إلى كل شيء يكون للنفوس، والأرواح جنات، تظهر فيها أنوار شهود الحق، وأين الكافر والمعطل والمدعي من هذا المقام؟ وهم خلُقوا من الجهالة، فيموتون في الضلالة، وأصحاب القلوب والمعارف عيش أرواحهم عيش الربانيين، وعيش نفوسهم عيش الجنانيين، والله قادرٌ بذلك، يختص برحمته من يشاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ولهذا قال ﷺ: «أسلمَ شيطاني»^(١)، وقال: «نحنُ معاشر الأنبياء أجسادنا روح»^(٢).
قال بعضهم: من تحقّق في الخوف ألهاه خوفه عن كل مفروح به، وألزمه الكمد إلى أن يظهر له إلا من خوفه.

وقال سهل: لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء، وبعض الصديقين ليس كلهم، وإنما سلّم من الهوى من ألزم نفسه الأدب.

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكَى ۚ أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَةً ۚ أَلَذِكْرَىٰ ۚ أَمَا مِنْ أَشْتَقَىٰ ۚ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَىٰ ۚ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۚ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۚ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۚ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۚ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۚ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۚ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۚ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۚ﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ﴾: بَيَّنَّ الله سبحانه هاهنا درجة الفقر وتعظيم أهله وخسة الدنيا وتحقير أهلها، وأن الفقر إذا كان نعت الصادق في المعرفة والمحبة كان شرفاً له، وهو من أهل الصحبة، ولا يجوز الاشتغال بصحبة الأغنياء ودعوتهم إلى طريق

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الفقر إذا كانت سجيّتهم لم تكن سجية أهل المعرفة، فإذا كان حالهم كذلك لا يأتون إلى طريق الحق بنعت التجريد، فالصحبة معهم ضائعة، ألا ترى كيف عاتب الله نبيّه ﷺ بهذه الآية.

وقوله: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَىٰ﴾: كيف يتزكى من خلق على جبلة حب الدنيا والعمى عن الآخرة والعقبى.

قال أبو عثمان: أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بمجالسة الفقراء، وحثّه على تعظيمهم، ونهاه عن صحبة الأغنياء، بقوله: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿١﴾.

قال الواسطي في قوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَىٰ﴾: استهانة بمن أعرض عنه^(١).

﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ ﴿٢﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿٣﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿٤﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٥﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٦﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٧﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٨﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٩﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿١٠﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿١١﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿١٢﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿١٣﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿١٤﴾ وَحَدَاقٍ غُلْبًا ﴿١٥﴾ وَفَيْكَةً وَأَبًّا ﴿١٦﴾ مَتَعًا لَكُمُ وَلَا تَعْمِكُمْ ﴿١٧﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ ﴿١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾: لعن الله الكافر، وعظم كفره حين لم يعرف صانعه، ولم يعرف نفسه التي لو عرفها عرف صانعها، وكذلك عرفه ماهية نفسه بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ﴿٣﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿٤﴾ أي: قدره أصنافاً وأطواراً، وفي كل صف وطور له خلقه.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾: يسّر له طريق الهداية والضلالة.

قال الواسطي: ما أجهله بالمعرفة، وذلك لجهله بالموارد والمصادر.

قال ابن عطاء: يسّر على من قدر له التوفيق طلب رشدته واتباع نجاته.

وقال أبو بكر بن طاهر: يسّر على كل أحد ما خلقه له وقدر عليه.

قال جعفر: ما أجهله، وأعماه عن الحق.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أي: لم يف بالعهد الأول حين خاطبه الحق

بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، ولم يأت بمراد الله منه، وهو العبودية الخالصة.

قال القاسم: ذكر أوائله وأواخره وإرادته، وإن كان ذلك من عنده، ثم أمره بالتبتل إليه

(١) أي: وليس عليك بأس في ألا يزكى بالإسلام حتى تهتم بأمره، وتعرض عمن أسلم وأقبل إليك، وقيل:

«ما» استفهامية، أي: أي شيء عليك في ألا يزكى هذا الكافر. البحر المديد (٨/٧).

ورؤية متته.

قوله تعالى: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ﴾: صب ماء المعرفة على قلوب العارفين، وشققها نبات الحكمة، وأزهار المحبة. قال ابن عطاء: صب من ماء معانيه على قلوب أهل معاملته صبًّا، فانشق منها معرفة ووجدًا، ثم أنبت فيها محبة وحكمًا وفهمًا.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْآرُءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۚ وَصَنِيَّتِهِ ۚ وَبَنِيهِ ۚ لِكُلِّ آمَرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۚ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۚ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۚ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۚ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْآرُءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ﴾: أكد الله أمر نصيحته لعباده ألا يعتمدوا إلا من سواه في الدنيا والآخرة، فإن ما سواه لا يفقده من قبض الله، حتى يفر عما دون الله إلى الله.

قال الأبهري: يفر منهم إذا ظهر لهم عجزهم، وقلة حيلتهم إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنهم، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد سوى ربه الذي لا يعجزه شيء، ولكن من فسحة التوكل، واستراح في ظل النفوس.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ آمَرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۚ﴾: لكل واحد منهم شأن يشغله، وللعارف شأن مع الله في مشاهدته يغنيه عما سوى الله.

قال يحيى بن معاذ: إذا شغلتك نفسك في دنياك وعقباك عن ربك، أما في الدنيا ففي طلب مرادها، واتباع شهواتها، وأما في الآخرة فقد أخبر الله عنها بقوله: ﴿لِكُلِّ آمَرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۚ﴾، فمتى تفرغ إلى معرفة ربك وطاعته؟

قال الأستاذ: العارف مع الخلق، ولكنه مفارقهم بقلبه، وأنشد:

ولقد جعلتُك في الفؤادِ محدثي وأبحثُ جسْمي مَنْ أرادَ جلوبي

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۚ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۚ﴾: وجوه العارفين مسفرة بطلوع أسفار صبح تجلّي جمال الحق فيها، ضاحكة من الفرح بوصولها إلى مشاهدة حبيبها، مستبشرة بخطابه، ووجدان حسن رضاه، والعلم ببقائها مع بقاء الله.

قال ابن طاهر: كشف عنها ستور الغفلة، فضحكت بالدنو من الحق، واستبشرت بمشاهدته.

قال ابن عطاء: أسفرت تلك الوجوه بنظرها إلى مولاها، وأضحكها رضا الله عنها.

قال سهل: منورة بنور التوحيد، واتباع السنة، ثم وصف وجوه الأعداء والمدعين وقال: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾: عليها غبرة الفراق يوم التلاقي، وعليها قتره ذل الحجاب، وظلمة العذاب، نعوذ بالله من العتاب.

قال السري: ظاهرٌ عليها حزن البعاد؛ لأنها صارت محجوبةً عن الباب مطرودةً. قال سهل: غلب عليها إعراض الله عنها، ومقته إياها، فهي تزدد في كل وقت ظلمةً وقتره.

وقال الأستاذ: عليها غبرة الفراق، وترهقها قتره ذل الحجاب.

سورة التكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُبِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝﴾.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾: الإشارة في هذه الآيات إلى ظهور تجلي الذات والصفات في قلوب العارفين، فهناك تكوّر شمس أرواحهم من غلبة نور عظمة الذات، وانكدرت نجوم عقولهم من صولة أنوار الصفات، وسيّرت جبال قلوبهم من أثقال واردات محبتها، وتعطّلت نفوسهم في سطوات جلالها، فهناك سُجّرت بحار التوحيد، وحشرت طيور التفريد، ولا يبقى إلا وجه ذي الجلال والإكرام، ولكل عارف في كل حالة من هذه الأحوال له قيامة.

قال الحسين: تطمس الشمس بعد تنويرها، وتغور البحار بعد تفجيرها، وتنسف الجبال بتسييرها، وتدرس العشار بعد تعطيلها، وتُحمد الجحيم بعد تسعيرها، وتطوى الصحف بعد النشر، وتحشر الوحوش من القبر، وتزلزل الأرض، وتخرج أثقالها للعرض على الجبار، وذلك أصعب مقام المخالفين، وأهون مقام الموافقين، فطوبى لمن أثبت في ذلك المقام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾: زُوِّجت الروح الناطقة بالنفس المطمئنة، فتكونان في جنان القرب أبداً، كما تكونان في الدنيا في مقامات المراقبات، وصفاء المعاملات.

قال سهل: تألفت نفس الطبع مع نفس الروح، فمرحت في نعيم الجنة، كما كانتا

متألفتين في الدنيا على أدائه الذكر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ﴾: قُرِبَتْ جنان المشاهدات لأهل المداناة، ووصلت حبال الوصلات بأهل الحالات.

قال القاسم: زُخرفت بسرور البقاء واللقاء، وحسن الجزاء، ورضا المولى، ومواصلة العطاء.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ ﴿الْجَوَارِ الْكُنُسِ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَفَ ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿فَأَن تَذَهَبُونَ﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾: علمت نفوس العارفين بتعريف الله إيّاها حقيقة أنفاسها التي صدرت منها بنعت الأشواق إلى جمال القدم أي شيء صنعت في الملكوت، وكيف حرقت حجاب الجبروت، وكيف وصلت إلى قرب القرب ودنو الدنو، وكيف فعل بها الحق من إرادتها في ميادين الذات والصفات، وتعريفها عين العين، وحقيقة الحقيقة، وعلمت أن ما صدر من الحدثان يرجع إلى الحدثان، فإن الحدوثية لا تليق بجناب الربوبية، وهكذا.

قال الواسطي: أيقنت تلك الأنفس أن كل ما عانت واجتهدت وعلمت لا يصلح لذلك المشهد، وأنه من أكرم بخلع الفصل نجا، ومن قرن بجزاء أعماله هلك وخاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ﴾ ﴿الْجَوَارِ الْكُنُسِ﴾: أقسم الله بنيرات عالم الملكوت إذا شاهدت عرائس الصفات في روازنها، ونظرت إلى قلوب المشتاقين، وجذبتها بنورها إلى أعلى عليين، فلما بلغت الأرواح إلى سرادق الدنو تخنس باستتارها بعد تجليها، وتكنس باحتجابها بعد انكشافها؛ لذويان الأرواح في نيران الأشواق، وهيجان الأشباح إلى عالم الأفراح، وأقسم بظلمة ليالي الهجران في وقت الاستتار في قلوب العارفين، وبطلوع صبح أنوار مشاهدته بنعت الوصال في فؤاد المحبين، وأيضاً أقسم بطيران الأرواح القدسية بجناح المحبة والمعرفة في هواء الهوية، وهذا كنوسها إذا هامت بوجوها في غيب الغيب، فإذا وصلت إلى قاف القدم، وتذورت بسطوات الأزلية تخنس، وتفر من صدمات القيومية إلى

عالم الأمر والحكم؛ لأن الحدوثية تزول عن موازنة القدم، وأيضاً أقسم بسير هذه الأرواح العاشقة في طرقات العلوم المجهولة، فتستفيد منها ما يكون بخلاف العلوم الرسومية.

قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: أين تمضون مما بينت لكم في كتابي من طرق السعادة والمواصلة والمداناة وكشف المشاهدات، تذهبون من هذا الطريق المبارك، وتهلكون في أودية الظنون والحسبان، هذا رشدٌ، فاسلكوا مسلك الرضا بالطاعة، وسيروا في ميادين المرافقة.

وقال الواسطي: الخلق كلهم مقبوضون تحت رقب الملك، محجوبون لعزة الملك على قوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾، وهو الذي يطمس الرسوم، ويعمى الفهوم، ويترك الأجسام قاعاً صفصفاً؛ لأنه لا يلحق الإشارة، فإن الكون أقل خطراً وأضعف أثراً من أن يكون لها سبيل إلى تحقيق الإشارة، فأين تذهبون من ضعف إلى ضعف، ارجعوا إلى فسحة الربوبية؛ ليستقر بكم القرار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾: أغرق الحق مشيئة الحدثان في بحار مشيئة الأزلية؛ إذ مشيئة الخلق صادرة من مشيئة الأزل، هو منزلة عن أن يكون في مشيئته مشيئة غير مشيئة الأزلية، فإذا سقطت مشيئة الحدث ارتفعت الاختيارات والتدابير، واستنارت طرق الرضا والتوكل والتفويض، وبانت حقائق الفردانية؛ إذ الحدثان اضمحلت في جناب عزة الرحمن.

قال الواسطي: أعجزك في جميع أوصافك وصفاتك، فلا تشاء إلا بمشيئته، ولا تعمل إلا بقوته، ولا تطيع إلا بفضلته، ولا تعصي إلا بخذلانه، فإذا يقى لك، وبهاذا تفتخر من أفعالك، وليس من فعلك شيء.

سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ ١ ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ ٢ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ٣ ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ ٤ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ٥ يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢. ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ ١٣: إذا ظهر سلطان كبريائه تنشق سهاوات القلوب، وتتناثر

نجوم العلوم، وتتفجّر بحار الأرواح والعقول، ويخرج ما في القبور والصدور من معاني الحقائق، ولطائف الدقائق، عِلِمَت النفوس الروحانية ما قدمت من بذل وجودها بنعت السوق، وما أخرت من بقايا رمقاتها لاصطياد طيور التجلي والواردات.

قال أبو عثمان: ما قدمت من خير، وأخرت من شر.

وقال بعضهم: ما قدّمت من حق، وأخرت من باطل.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾: عجبْتُ من هذا الخطاب الذي فيه تهديد المخالف، ومواساة الموافق كيف يخاطب بخطابٍ مع المخالف الذي فيه مواساة الموافق، فيه ما فيه من إشارات علومه المجهولة، ورموزات كنوزه الغيبية التي لا يعرفها إلا دَهْشٌ في الوجدانية، هائمٌ في رؤية الفردانية، مشرفٌ بالحق على ما للحق من مكنون سره، ولطائف برّه التي بحلاوتها يغر كل مغرور، وينشط كل مجتري في اقتحامه في شاقات البليّات، وبيان ذلك ظاهرٌ في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، يلقيهم جواب سؤاله؛ ليقولوا: كرمك يا ربنا غرّنا.

قال ابن عطاء: ما قطعك عن صحبة مولاك.

وقال عمر بن الخطاب ؓ: لو قيل لي ما غرّك بي؟ قلت: جهلي بك غرّني لا غير.

قال منصور بن عمار: لو قيل لي ما غرّك بي؟ قلت: يا رب ما غرّني إلا ما علمته من فضلك على عبادك، وصفحك عنهم.

وقال يحيى بن معاذ: لو قيل لي ما غرّك بي؟ قلت: برّك بي.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَّلَكَ ﴿٦﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٧﴾﴾: خلقتك فسواك بعلمه عليك في القدم، فخرجت على وفق ما علمت، فصرت مستويًا بما يعلم الأزل متّصفاً بصفاتي؛ إذ كل صفة مني أورثت صفة فيك، وبصورة الروح الناطقة الأولية ركبك، وهي تنورها منك لا يتفاوت بين صورتك وروحك في الخليقة والصورة، فإن صورتك الظاهرة منقوشة بنقش صورة الروح، وأيضاً: ركبك في صورة المحبة والولاية والخلافة والمعرفة والجهل بحقائق وجودي ووجودك، الذي لو عرفته عرفتني، وأطعتني بمعرفتك لي.

قال الجنيد: تسوية الخلق بالمعرفة، وتعديلها بالإيمان.

وقال ذو النون: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ﴾، فأوجدك، فسخر لك المكنونات أجمع، ولم يسخر لك شيء.

قال الواسطي في قوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾: صورة المطيعين

والعاصين، ومن ركبته على صورة الولاية ليس كمن صورته على صورة العداوة. قال الحسين: من قصده بنفسه صرف عنه حظه، ومن قصده به فهو المحجوب عن نفسه؛ لأنه يقول: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾: في أي حالة ما شاء أنشأك؛ لأنه خلق آدم باللطاف بره، وبإشره بإعلاء قدره، وأظهر الأرواح بين جلاله وجماله، وخصه بنفخ الروح فيه، وكساه كسوة، لولا أنه سترها لسجد لها كل ما أظهر من الكون، فمن راداه برداء الجمال فلا شيء أجمل من كونه، ومن راداه برداء الجلال أوقعه الهيبة على شاهد.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي حَجِيمٍ ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي حَجِيمٍ ﴿: الأبرار في نعيم الوصال، والفجار في حجيم الفراق.

قال جعفر: «النعيم»: المعرفة، و«المشاهدة»، و«الجحيم»: النفوس، فإن لها نيراناً تُفقد.

قال ابن الوردة: «النعيم»: الذكر والمعرفة، و«الجحيم»: المعصية والسكون إلى النفس.

وقال الخواص: طاب النعيم إذا كان منه، وطاب الجحيم إذا كان به.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾: دعا الله بهذه الآية العباد إلى الإقبال عليه بالكلية بنعت ترك ما سواه، فإن الملك كله لله في الدنيا والآخرة، ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

قال الواسطي: ذهبت الرسائل والكلمات والسعائيات، فمن كانت صفته في الدنيا كذلك فقد أفرد التوحيد.

وقال أيضاً: الأمر اليوم ويومئذ ولم يزل ولا يزال لله؛ ولكن الغيب بحقيقته لا يشاهده إلا الأكابر من الأولياء، وهذا خطاب العام إذا شاهدوا الغيب تيقنوا أن الأمر كله لله، فأما أهل المعرفة فمشاهدتهم للأمر اليوم كمشاهدتهم يومئذ، لا تزيدهم مشاهدة الغيب عياناً على مشاهدتهم له تصديقاً، كقول عامر بن عبد العيس: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، وكحارثة أخبر لحضرة النبي ﷺ قوله: «كأني أنظر وكأني وكأني»^(١).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٧٣).

سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝ وَيَلُومُنَزِّلُ لِّلْمُكْذِبِينَ ۝ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِمِ تَكْذِبُونَ ۝ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ الْقُرْبُورُونَ ۝﴾

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ : هذا وعيدٌ للمطففين كلام الأولياء في مجالستهم يسرقونه ويتبعونه في سوق سالوسهم، فويل الحرمان له من البلوغ إلى درجاتهم، وتفتضح عنده الخلق، وأيضا هذا خطابٌ مع النفس الأمارة تسرق من ديوان حقائق القلوب حظوظ الأرواح المشاهدة غيب الحق، وتبدلها بهواجسها الشيطانية.

قال أبو عثمان: حقيقة هذه الآية والله أعلم عندي: هو من أحسن العبادة على رؤية الناس، ويمشي إذا خلا.

قال الله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ أي: أنهم لا بد لهم من المحاسبة، والرجوع إلى أفعالهم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: وصف الله قلوب المخالفين بالقسوة والرين، وذلك ميراث متابعتهم شهوات أنفسهم، والشهوة إذا غلبت على القلب أطبقت القلب بغاشية الغفلة، فصار القلب محجوبا من أنوار الذكر، مملوءا من الخطرات المذمومة التي تحجبه عن مشاهدة الغيب، فمن كان هاهنا من الغيب ورؤية الحق محجوبا فزاد حجاباه عند يوم القيامة؛ لذلك وصفهم الله بقوله سبحانه وتعالى:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُوبُونَ﴾^(١)، حجبهم عن الله ظنونهم وحسبانهم

(١) لا يقتضي الحجاب مطلقا، فإنه يُقَيَّدُ بيوم القيامة، فقد ينكشف عنهم عماهم، وإن كان ذلك دون

وتشبيهم وخیالهم وشهواتهم وغفلاتهم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾: الطاعة على الطاعة حتى يحجب قلبه عن مشاهدة المنة؛ لأن العجب والرياء بالطاعة يورثان نسيان المنة وترك الحرمة.

قال الواسطي: الكافر في حجاب لا يرويه، والمؤمن في حجاب يرويه في وقت دون وقت، ولا حجاب له غيره، وليس يسعه سواه ما اتصلت بشرية بربوبية قط، ولا فارقت عنه.

قال سهل: حجبهم عن ربهم قسوة قلوبهم في العاجل، وما سبق لهم من الشقاوة في الأزل، فلم يصلحوا لبساط القرب والمشاهدة، فأبعدوا وحجبوا، والحجاب هو الغاية في البعد والطرود.

قال ابن عطاء: الحجاب حجابان: حجاب بعد، وحجاب أبعاد، فحجاب البعد: لا تقرب فيه أبداً، وحجاب الأبعاد: يؤدب، ثم يقرب كآدم عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾: كتاب الأبرار كتاب مرقوم برقم الله، رَقَمَهُ بسعادتهم الأزلية، وولايتهم الأبدية، وذلك الكتاب عنده لا يطلع عليه إلا المقربون المخاطبون بحديثه وكلامه، المكاشفون لهم حقائق الغيبة.

قال أبو عثمان المغربي: «الكتاب المرقوم»: هو ما يجري الله على جوارحك من الخير والشر، رقمها بذلك الرقم، وهو لا يخالف ما رقم به، وذلك الرقم معلق بالقضاء والقدر والقدرة بمشيئته عليه؛ ولا رجوع له عن ذلك، ولا حيلة له فيه، فهو في ذلك معذور في الظاهر غير معذور في الحقيقة، هذا لعوام الخلق، وأما للخواص والأولياء وأهل الحقائق فإنه رقم الله على كل شيء أوجده، لم يشرف على ذلك الرقم إلا المقربون؛ فهم أهل الإشراف، فمن شاهد ذلك الرقم من المقربين عرف صاحبه بما رقم به من الولاية والعداوة، فيخبر عنه وهو الإشراف والفراسة، كما كان لعمر بن الخطاب عليه السلام حين أخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «كان في الأمم متكلمون فإن يك في أمتي فعمري»^(١) أي: ممن أشرف على حقائق الرقم، وعلى معاني

انكشاف بصائر أهل النعيم؛ لأن محل أهل النعيم؛ وهو الجنة، وكذا أبدانهم لطيف قابل لكل نور ذاتي، ونعيم صفاتي، وأنا محل أهل الجحيم؛ وهو النار، وكذا أجسامهم، فكيف ليس بمقابل لذلك، فليس لهم نعيم صفاتي أصلاً من الطعام، والمشرب، والمنكح ونحوها، وأنا النعيم الذاتي فبقدر تصفية ذاتهم وصفاتهم؛ وإنما قلنا النعيم الذاتي من طريق المشاكلة، وإلا فلا نعيم هناك أصلاً؛ لأنه عالم الفناء عن الحس، وليس عنده ذوق، ويرد وسلام فاعرفه، واجتهد أن تكون من الذين ابيضت وجوههم في جميع العوالم، فإن النور الدائم لا يلحقه الظلمة.

(١) رواه أحمد (٥٥ / ٦)، والديلمي في الفردوس (٢٧٨ / ٣).

الكتاب المرقوم، فمن كان بذلك الحال فهو تكلم من جهة الحق بلا واسطة.
قال الحريري: رَقَّمَ الله به قلوب عباده بما قضى عليهم في الأزل من الشقاوة والسعادة،
فذلك رَقَّمَ خفي في أسرار العباد، وظاهر على هياكلهم، كما قال النبي ﷺ: «كُلُّ مِسْرٍّ لِمَا خُلِقَ
لَهُ»^(١).

قال ابن عطاء في قوله: «يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ»: يشهد على أسرار الأولياء والأبرار من
المقربين.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ عَلَى الْأَرْآبِكِ يَنْظُرُونَ ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ
النَّعِيمِ﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مُخْتَوٍ ﴿حَتَّمَهُمْ مِسْكَ﴾ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُتَنَفِّسُونَ ﴿وَمَرَّاجُهُمْ مِنْ تَتْنِيمٍ﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ
أَجْرُمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى
أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
حَفِظِينَ﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿عَلَى الْأَرْآبِكِ يَنْظُرُونَ﴾
هَلْ تُؤْتِي الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ عَلَى الْأَرْآبِكِ يَنْظُرُونَ ﴿: هم في نعيم
الوصلة ينظرون إلى المشاهدة، وذلك النظر أورث وجوههم نضرة ونورا وبشارة يعرف
صاحبها بها؛ لذلك قال الله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.
قال ابن عطاء: على أرائك المعرفة ينظرون إلى المعروف، وعلى أرائك القرية ينظرون إلى
الرؤوف.

وقال جعفر في قوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ﴾: تبقى لذة النظر تتلأأ مثل الشمس، في
وجوههم رضا محبوبهم عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ أي: ليبادر في طلبها المبادرون
إلى القربات والمشاهدات بسني المعاملات، وتطهير الأسرار من الخطرات.
قال ذو النون: علامة المتنافسين تعلُّق القلب به، وطيران الضمير إليه، والحركة عند
ذكره، والهرب من الناس، والأنس بالوحدة، والبكاء على ما سلف، وحلاوة سماء الذكر،
والتدبر في كلام الرحمن، وتلقِّي النعيم بالفرح، والشكر والتعريض للمناجاة.

(١) رواه البخاري (٢٧٤٤ / ٦)، ومسلم (٢٠٤١ / ٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾: بَيَّنَّ اللهُ سبحانه أحوال المقربين والأبرار، وفرَّقَ بينهم فرقًا عجيبًا، إن الأبرار يشربون من أنهار أنوار الصفات، والمقربون من بحار الذات، ومزج شراب الأبرار من سواقي أنهار المقربين، ولو شرب الأبرار صرف ما يشرب المقربون لذابوا جميعًا، فالأبرار في مقام الأنس، والمقربون في مقام القدس.

قال بعضهم: قال بها المقربون صرفًا، ونمزج لأصحاب اليمين، فليس كل من احتمل حمل الصفات قوي على مشاهدة الذات والصفات، وشراب المقربين لحملهم الذات والصفات جميعًا.

قال الجريري: يشرب بها المقربون على بساط القرب في مجلس الأنس، ورياض القدس بكأس الرضا على مشاهدة الحق تعالى.

سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ١ ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ٢ ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ ٣ ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ ٤ ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ٥ ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًا فَمُلْقِيهِ﴾ ٦ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ٧ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٨ ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ ٩ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ ١٠ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ ١١ ﴿وَيَصِلَىٰ سَعِيرًا﴾ ١٢ ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ ١٣ ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ ١٤ ﴿

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ١: إذا أراد الله قلع الكون يلقي على السماوات والأرض أثقال هبة عظمت وكبريائه، فتشق السماء، وتمد الأرض من عكس تجلّي عظمته وكبريائه، وحق منهما أن يقصد عالمًا عليها من أثقال قهريات جبروته؛ حيث شققها وهما طائعتان لربهما، وكيف لا يكون منهما طاعته، وهما في نبضة قهر جلاله أقل من خردلة، ألا ترى كيف قال ﷻ: «الكون في عين الرحمن أقل من خردلة»^(١)، وكذلك تتجلّى السماء بأرواح العارفين، وأرض قلوب المحبين بنعت العظمة والكبرياء، فتشق الأرواح، وتزلزل القلوب من وقوع نور هيته عليها، وبهذا الوصف وصف قلوب المقربين عند نزول خطاب الهيبة، قال الله:

(١) هو من الأحاديث التي تفرد بذكرها المصنف في كتبه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾.

قال بعضهم: خطاب الأمر إذا وقع على الهياكل فمن بين مطيع وعاصٍ، وخطاب الهيبة إذا وردت تفنى وتعجز والإقرار معه، كقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾: ورد عليها صفة إلهيته، فانشقت وأذنت لربها، وأطاعت، وانقادت، وحق لها ذلك، وهو الذي أوجده.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَذًّا فَمُلَاقِيهِ ۖ﴾: هذا خطاب فيه حث على اتِّهم الأمر، والقصد إلى بذل الروح، فإذا بلغ إلى نهايته فملاقية أنها وأعمال الثقلين لا تليق بعزته وجلاله.

قال أبو بكر بن طاهر: إنك معامل ربك معاملة ستعرض عليك في المشهد الأعلى، فاجتهد ألا تتجمل من معاملتك مع خالقك.

قوله تعالى: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ﴾: مسرورًا بقاء ربه، وما نال من قربهِ ووصاله، وهذا للمتوسطين، ومن بلغ إلى حقيقة الوصال وصار أهلاً له لا ينقلب عنه إلى غيره. قال ابن عطاء: مسرورًا بما نال من رضا الحق.

قال عبد الواحد بن زيد: مسرورًا بتحقيق ميعاد اللقاء.

وقال إبراهيم بن أدهم: مسرورًا بدخول الجنة، والنجاة من النار.

وقال أبو عثمان: مسرورًا بإنزاله في منازل الأولياء والصدِّيقين.

ويقال: بأن يلقى ربه، ويكلمه قبل أن يدخل الجنة.

﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۖ﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۖ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۖ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۖ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۖ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ۖ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۖ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۖ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۖ﴾: كان في الأزل بصيرًا فيما قدره، وقضى عليه قبل إيجاده، فعلمه عنده كوجوده، ووجوده كعدمه، لا يخفى عن بصره فيه شيء من أوله وآخره وظاهره وباطنه وشقاوته وسعادته وحياته ومماته، حتى لا يخفى نفس من أنفاسه منه إلا هو سبحانه بصير به قبل الإيجاد، وكيف لا يبصره وهو موجد.

قال الواسطي: كان بصيرًا حين خلقه، لماذا خلقه؟ ولأي شيء أوجده؟ وما قدر عليه

من السعادة والشقاوة، وما كتب له وعليه من أجله ورزقه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾: أقسم الله سبحانه بما بقي من عكس أنوار شمس جماله على قلوب المحبين والعارفين دليل الاستتار بعد غيبوبة شمس تجليه، وما يضمه من هموم متفرقة في مقام القبض، وقبر مشاهدته إذا استوى في سماء القلوب حين طلع من الغيوب، فلا يبقى فيها آثار ظلمة الطبيعة، والنفس الأمارة إن حبيبه وجميع أحبائه يركبون على مطبات أنوار قربه، ويسيرون فيها إلى ميادين أزلياته وأبدياته، ففي كل نفس لهم منزل وحال وكشف ومشاهدة ووجد ووصال إلى الأبد، وذلك قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾^(١).

سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾: السماء ذات البروج سماء قلوب العارفين ذات الأبراج من العلوم والحكم والحقائق، تسري فيها الأرواح والعقول؛ لوجدان أنوار وجود الحق؛ ولترية عجائب الخلق والخلق.

﴿وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ﴾: يوم اللقاء والكشف.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾: الشاهد هو، والمشهود هو، يرى نفسه؛ إذ لا يراه أحدٌ

(١) قال التستري في تفسيره (٢/ ٢٥٤): باطنها لترفعن درجة فوق درجة في الجنة، ولتحولن من حال إلى حال أشرف منها وأسر، كما كتتم في الدنيا ترفعون من درجة إلى درجة أعلى منها، من طمع وخوف وشوق ومحبة.

باحقيقة، وأيضاً الشاهد هو، إذا تجلّى بتجلّي الجمال والحسن، والمشهود كله مستحسن جميل بجماله، وأيضاً الشاهد هو، والمشهود قلوب العارفين شاهداً بنعت الكشف، وأيضاً الشاهد قلوب المحبين، ومشهود لقائه هو شاهدهم، وهو مشهودهم هو شاهد العارف والعارف شاهده.

قال الواسطي: الشاهد هو، والمشهود الكون لا يقال متى شهدهم، ولا يحدث لله شهادة، فحيث كانت الربوبية كانت العبودية؛ لأنه شهدهم قبل خلقهم علماً وقدره ورؤية، وتصريفاً في الإيجاد والإبقاء والإفناء، لم يحدث له في إحداث الخلق أحداث؛ لأنه لا فصل، ولا وصل، والوجود معدوم، والمعدوم موجود لم يحضر آباء وقته، وأحضرهم أحداث أوقاته، ولما ثبت الشهود بالمشاهدة وجب أنه لم يكن عنده مفقوداً أبداً، أو يستحيل أن يكون الباري مفقوداً.

قال الفارس: كلاهما عائدٌ عليه هو الناظر، والمنظور إني، وهو الشاهد لخلقه، والمشاهد لهم بوجود الإيمان وحقائقه.

قال الحسين: في هذه الآية علامة أنه ما انفصل الكون عن المكوّن ولا قاربه.

قال سهل: الشاهد نفس الروح، والمشهود نفس الطبع، وقد وقعت لي نكتة في التوحيد: أنه تعالى لم يزل شاهداً، فلو ثبت مشهوداً غير نفسه من الحدّثان، فإذا تقول بقدم الحادث والعلم بوجود المحدثات على الحقيقة كان مشهود الحق إذا كان في علمه علم كينونية المكوّنات، وكيفية وجودها، فإذا وجودها وعدمها سواءً في شهود الحق.

﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ ١٢٠ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ ١٢١ ﴿ذُو الْعَرْشِ الْجَبِيدُ﴾ ١٢٢ ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ١٢٣ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ ١٢٤ ﴿فِرْعَوْنٌ وَثَمُودُ﴾ ١٢٥ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ ١٢٦ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ ١٢٧ ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ﴾ ١٢٨ ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ ١٢٩.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ ١٢٠: يبدئ المفقود من العدم بنور القدم، ويعيد الموجود بقهر استيلاء الرحدانية حتى يصير الموجود معدوماً، ثم يعيده يوم الميثاق للحكم والقضاء، يبدئ بالتجلي قلوب العارفين، فيفنيها ثم يعيد بالتدلي فيحييها.

وقال ابن عطاء: يبدئ بإظهار القدرة، فيوجد المعدوم، ثم يعيد بإظهار الهيبة، فيفقد الموجود.

قال جعفر: يبدئ فيفنى عمّن سواه، ثم يعيد فيبقى بإبقائه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ ١٢١: «غفور» للجنايات، و«الودود» بكشف المشاهدات.

قال الواسطي: «الغفور»: بما يرتكبونه من أنواع المخالفات، و«الودود»: بما أبدئ

عليهم من آثار فضله.

وقال سهل: «الودود» المجيب إلى عباده بإسباغ النعم عليهم، ودوام العافية.
قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾: وصفَ نفسه بإيجاد أعظم خلقه وهو العرش، ثم وصف نفسه بالشرف والتنزيه والقدس إعلماً بأنه كان ولا مكان، والآن ليس في المكان؛ إذ جلاله وجماله منزلة عن مماسة المكان والحاجة إلى الحدثن.
قال الواسطي: هو أعلى من أن يكون له فيه، وإليه حاجة، بل أظهر العرش إظهاراً للقدرة، ولا مكان للذات.

قال سهل: «العرش»: جماع جلال الشرف.

قوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾^(١): كان مريدًا في الأزل بإرادته، منزهاً عن أن يحدث فيه إرادة ثانية، والإرادة مقدمة على الفعل؛ إذ الإرادة قديمة، والفعل منه إيجاد الخلق لا شريك له في إرادته، ولا في إيجاد خلقه، فإذا الإرادة زائلة، والخواطر علية، والتدابير مضمحلة عند ظهور إرادته، يختص برحمته من يشاء بمعرفته، وإن كان فاراً من بابه، ويخذل من يشاء من قربه، وإن كان متزهذاً بزهده.

قال بعضهم: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: في إظهار ربوبيته وألوهيته.

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝﴾^(١) إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَّأَعْلَيْهَا حَافِظٌ ۝ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا

(١) قال القشيري: إن أراد أن يجعل أرباب الأرواح من أرباب النفوس فهو قادر على ذلك، وهو عادل في ذلك، وإن أراد عكس ذلك فهو كذلك فلذا كان العارف لا يزول اضطرابه، ولا يكون مع غير الله قراره، هل أتاك حديث الجنود، أي: جنود النفس التي تُحارب به الروح لتَهوي بها إلى الحضيض الأسفل، ثم فسرها بفرعون الهوى، وشمود حب الدنيا، والطبع الدني، بل الذين كفروا بطريق الخصوص في تكذيب، لهذا كله، فلا يُفرقون بين الروح والنفس، ولا بين الفرق والجمع، والله من ورائهم محيط، لا يفوته شيء، لإحاطة المحيط بالأشياء ذاتاً وصفاتاً وفعلاً، بل هو أي: ما يوحى إلى الأسرار الصافية، والأرواح الطاهرة قرآن مجيد في لوح محفوظ عن الخواطر والهواجس الظلمانية، وهو قلب العارف.

نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَلْهَزَلٍ ﴿١٤﴾ .

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١٥﴾﴾ : أقسم بسما قلوب الصديقين وما يطرق فيها من نجوم تجلّي الذات والصفات.

قال سهل: وما طرق على قلب محمد ﷺ من زوائد البيان والأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ : أقسم بسما ذات القدم إذا أمطرت أمطار أنوار تجلّي الكبرياء والجلال والجمال، وأرض قلوب العارفين التي تتصدع بنبات المعرفة، ورياحين المودة، وأزهار الحكمة.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُودًا ﴿١٧﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ : أعلمهم الكيد، ولم يعرفهم حقائقه، ولم يعلمهم أن الكيد المحدث عند كيد القدم، وكيده مكره، ومكره منزّه عن الخلل؛ إذ هو منزّه عن العجز، كيده سبق شقاوة الأشقياء منه، هذا كيده مع الأعداء، وكيده مع الأولياء ظهور الصفات في نعوت الأفعال؛ لتعزيزهم بالأوقات الصافية، وجذبهم إلى رؤية صرف القدم، وتقديسهم عن رؤية العلة بكشف الوحدة.

قال ابن عطاء: «الكيد»: استدراجك من حيث لا تعلم.

سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾﴾ .

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ أي: نزه اسمه باسمه عن أن يكون له سمي من العرش إلى الثرى حتى يكون بقدس اسمه مقدّساً عن رؤية الأغيار، ويصل بقدس اسمه إلى رؤية قدس الصفات، ثم إلى رؤية قدس الذات، بدءاً بتنزيه الاسم وفقاً به بالألا يضمحل لله في سبحات الصفات وتجلّي الذات.

قال بعضهم: نزه لسانك بعد ذكرك ربك عن لغو وكذب.

قال الحريري: أي: فرّق أوهام الخلق عن كل ما يتوهمون؛ إذ العرش حجاب.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ﴿٢﴾﴾ : خلق آدم ونفخ فيه من روحه، فسوى بين تجلّي

صفته وتجلي ذاته هناك بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدِي﴾، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾: مهّد سبيل الأرواح، والقلوب إلى مشاهدته، فهدى من يختصّ منها بالهداية إلى جماله ووصاله. قال بعضهم: خلق الخلق، فسوّى بينهم في الخليقة، وميّز بينهم في اختصاص الهداية. قال الواسطي: قدر السعادة والشقاوة عليهم، ثم يسّر لكل واحد من الطريقتين سلوك ما قدر عليه.

وقال الأستاذ: هدى قلوب العارفين إلى قدس نعته، فراقبوه، ثم شاهدوه، وهدى الموحدين إلى علاء سلطانه في توحيد كبريائه، فتركوا ما سواه. قوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ أي: فلا تنساني بقراءتك، فإن العبودية والاشتغال بها حجاب عن شهود العين.

قيل: كان يغشى الجنيد في مجلس أهل النسك من أهل العلوم، وكان أحد من يغشى ابن كيسان النحوي، وكان في وقته رجلٌ جليلٌ، فقال يوماً: يا أبا القاسم ما تقول في قوله ﷻ: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾، فأجابه مسرعاً كأنه تقدم السؤال قبل ذلك بأوقات. قال الجنيد: لا ينسى العمل به، فأعجب ابن كيسان إعجاباً شديداً فقال: «لا تفضض الله فاك منك من تصدر».

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿فَذِكْرٌ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ نَخَشَى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾: السر والعلانية عنده سواء؛ إذ هو يبصرهما بالبصر القديم، ويعلمهما بالعلم القديم، وليس في القدم نقصٌ بحيث يتفاوت عنده الظاهر والباطن؛ إذ هناك الباطن هو الظاهر، والظاهر هو الباطن؛ لأن الظاهر ظهر من ظاهريته، والباطن بطن من باطنيته، يعلم ما جهر من بكاء العارفين وزفرائهم، ويعلم خفيات ضمائرهم من تلهب نيران فؤادهم شوقاً إلى جلاله وجماله.

قال محمد بن حامد: يعلم إعلان الصدقة، وإخفائها. قوله تعالى: ﴿فَذِكْرٌ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى﴾: تذكيره وصف جماله وجلاله، كان

يجذب به قلوب العارفين إلى جمال مولا هم، وهم الذين وصفهم الله بالخشية بقوله: ﴿سَيَذْكُرُ مَنْ تَخَشَّى﴾ (١) أي: من يخشى فراقى، فيسلك مسالك وصالي بنعت الإقبال على. قال أبو بكر بن طاهر: عظمهم، فلا يتعظ بموعظتك إلا أهل الخشية، ألا تراه يقول: ﴿سَيَذْكُرُ مَنْ تَخَشَّى﴾ (٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٣): هذا وصف أهل الدهشة تحت طوارق قهر ظهور الأزليات.

قال ابن عطاء: لا يموت، فيستريح من غم القطيعة، ولا يحيى فيصل إلى روح الوصلة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٤): أفلح برؤية الله من زكاه الله في الأزل من خذلانه.

قال الجريري: أفلح من ظهر من شهوات نفسه، ومتابعة هواه ورعونات طبعه. قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٥): أقبل الخسيس على الخسيس، والشريف على الشريف، والرفيع من أقبل على الله، وترك ما سواه، فهذه وصية الله في كتبه لأنبيائه بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (٦) (١): في صحف إبراهيم الخروج عما سوى الله بنعت التجريد، كما قال: ﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧) أي: الإقبال على الله بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ (٨)، وفي صحف موسى سرعة الشوق إلى جماله، والندم على الوقوف في المقامات عند تعريف الصفات، بقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩).

سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ (٢) ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ (٣) ﴿تَصَلَّى﴾ (٤) ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ (٥) ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ أَانِيَةٍ﴾ (٦) ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (٧) ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ (٨) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ (٩) ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ (١٠) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (١١) ﴿لَا تَسْمَعُ﴾ (١٢)

(١) إن هذا الوعظ لفي الصحف المتقدمة، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى وغيرهما؛ لأن التوحيد، والوعد والوعيد، لا تختلف باختلاف الشرائع. تفسير القشيري (٨ / ص ٧٠).

فِيهَا لَئِيغَةٌ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾: وصف الله ظهور أفعاله العظام يوم يبرز أنوار عظمته ويبدى سطوات عزته، فتغشى القلوب والأبصار، وذللتها تحت أنوار كبريائه، وقهر جباريته، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾، ثم وصف وجوه المتكبرين الذين اتقوا من عبادة الله بالإخلاص، ومن محبة أوليائه، وتقشّفوا على ظاهر العبادة بالرياء، والسمعة بالذلة والخسارة، بقوله: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

قال بعضهم: خشوع الظاهر نصب الأبدان لا يقربان إلى الله، بل يقطعان عنه، ألا تراه يقول: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾! وإنما يقرب منه سعادة الأزل، وخشوع السر من هيبة الله، وهو الذي يمنع صاحبه من جميع المخالفات، ثم وصف وجوه أوليائه بالنعومة والنضارة بما نالت من مشاهدة ربها، بقوله: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾: نعومتها بما نورها الحق من ظهور أنوار جماله لها، راضية لما سعت من بذل وجودها لربها حيث صارت مقبولة برضا الأزل، مقرونة بسعادة الأزل والأبد.

قال الحسين: شاهدت بمشاهدته حقيقة عين الحق.

قال الجنيد: جعل الله الطاعة الخدمة على الأشباح، وخصّ المعرفة بالأرواح.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾: في جنان قربه التي علّت أوهام المخلوقين. قيل: في كوامن القدس مقربة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَئِيغَةٌ﴾: آذان المقربين والعارفين مشغولة بسماع كلام الحق، لا يقع فيها كلام غيره بالحقيقة.

قال بعضهم: لاستغراقه في سماع الحق.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾: عيون أنوار الصفات جارية في جنان قلوبهم.

قال الحريري: تجري بأربابها إلى معادن الأنوار.

قال الحسين: جريان الأحوال عليه يجري به عين إلى عين، حتى يحصله في عين العين.

﴿فِيهَا سُرُورٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ ﴿وَزَرَارِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ ﴿إِنَّ إِلَيْنَا

إِيَّاهُمْ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ ﴿١٦﴾: سرر أرواحهم مرتفعة من الأزل إلى الأبد، لا تنحط في المقاومات، ولا في المداناة، بل سبارة من الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الذات.

قال الخراز: هي سرائر رُفعت عن النظر إلى الأعواض والأكوان.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿١٧﴾ أي: أفلا ينظرون إلى أحوال الأرواح وهي حاملة الأبدان، وإلى سماء القلوب التي تبرز فيها أنجم الغيوب كيف رفعت عن استراق أسماع الخواطر والهواجس، وإلى جبال العقول التي تستقيم بها أرض النفوس، وإلى أرض النفوس التي بسطت مهاد العبودية مراكب الأنوار الربوبية، انظر كيف حالهم إلى رؤية الأفعال، ولو كانوا على محل تحقيق المعارف والكواشف لكانوا مخاطبين بما خاطب حبيبه ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾.

قال بعضهم: تعرّف إلى العوام بأفعاله، بقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿١٧﴾، وتعرّف إلى الخواص بصفاته، بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَةَ أَنْ﴾، وتعرّف إلى الأنبياء بنفسه، بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، وتعرّف إلى نبينا ﷺ بأخص التعريف، بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ ﴿١٨﴾: إشارة إلى قلوب العارفين كيف طاعت حمل المعرفة.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ ﴿١٩﴾: أى إلى الأرواح كيف تسمو بأربابها إلى محل القدس.

وقيل: إلى الأرواح كيف حالت في الغيوب.

قال الحسين: إلى الأسرار كيف أشرقت بالمكاشفات.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ﴿٢٠﴾: إلى العقلاء كيف احتملوا مؤنة الجهال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَّاهُمْ﴾ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٢﴾: انظر كيف نفّض بعد الوعيد بأن جعل إلى نفسه مأواهم ومماتهم، وتكفل بنفسه حسابهم، فينبغي أن يعينوا بهذين الفضلين أطيب العيش في الدارين، ويطيروا من الفرع بهذين الخطابين.

قال أبو بكر بن طاهر: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾: في الفضل، ثم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾: في العدل.

سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ تَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ۝ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاسٍ مِرْصَادٍ ۝ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ آلَمَانَ حُبًّا جَمًّا ۝ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِئَاءَ يَوْمٍ يُؤَيَّدُ بِهِ هَمْنٌ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۝ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۝﴾.

﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝﴾: أقسم الله بأشياء عجيبة، وآيات غريبة، أقسم بفجر أنوار كشوف صفاته في قلوب العارفين التي منابعها مشارق الذات الأزلي الأبدى، فتفجرت في أسرارهم أنهار المعارف والكواشف، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝﴾: منها ستُّ ليالٍ في أيامها خلق السماوات والأرض بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، وفي ليلة خلق في يومها آدم، والليلة التي يومها القيامة، والليلة التي كلم الله موسى، والليلة التي أسرى بالنبي ﷺ فيها، و«الشفع»: القلب والعقل، و«الوتر» هو الروح، وأيضا «الشفع»: العقل والروح، و«الوتر»: هو السر المنفرد عما دون الله، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝﴾: أي ليلة قبض الأرواح إذا سارت عنهم بسطوع نور بسط اليقين.

قال ابن عطاء: ﴿وَالْفَجْرِ﴾: هو محمد ﷺ؛ لأن به فُجِّرَت أنوار الإيمان، وغابت الظلم،

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: وليالي موسى التي أكمل بها ميعاده في قوله: ﴿وَأَتَمَمْتُهَا بِعَشْرِ﴾،
﴿وَالشَّفْعِ﴾: الفرائض، ﴿وَالْوَتْرِ﴾: السنن.

وقال: «الشفع»: الخلق، و«الوتر»: الحق.

وقال سهل: «الفجر»: محمد ﷺ منه تفجرت الأنوار، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: هم العشرة من أصحابه الذين حُكِمَ لهم بالجنة، و«الشفع»: الفرض، و«الوتر»: الإخلاص لله في الطاعات، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ﴾ قال: أهل التوحيد في أمته، هم السواد الأعظم.

قال الأستاذ: و«الفجر»: قلوب العارفين إذا ارتقوا من حد العلم، وأسفر صبح معارفهم، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان مما تجلّى في قلوبهم من البيان.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٧٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٧٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾: هي الروح التي صدرت من نور خطاب الأول الذي أوجدها من العدم بنور القدم، واطمأنت بالحق وبخطابه ووصله، فدعاها إلى معدنها الأول، وهي التي ما مالت من الأول إلى الآخر إلى غير مشاهدة الله، راضية من الله بالله، مرضية عند الله بنعت الاصطفائية الأزلية.

قال القاسم: أي: يا أيتها الروح المتصلة بالحق اطمأنت ورضيت بما قضى لها وإليها ارجعي إلى الذي زينك بهذه الزينة العظيمة، حتى أصلحك للرجوع منه إليه.

قال الحسين: «النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ»: هي النفس الواحدة، و«النفس الشاكرة»: هي النفس المرحومة، و«النفس الخاصة»: هي النفس العارفة، و«النفس العاقلة»: هي النفس الراضية، و«النفس الأمارة»: هي النفس الجاهلة.

قال أبو عبد الله بن خفيف: النفس المطمئنة ألبسها الحق أوصاف الهداية، وصارت نفساً لوامة.

وقال ابن عطاء: النفس المطمئنة العارفة بالله التي لا تصبر عن الله طرفة عين.

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَالْوَدَّ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَلَمْ نَحْشُبْ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾

أَلَمْ نَحْشُبْ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾.

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١١﴾﴾: أقسم الله سبحانه بمكة التي فيها بيته الذي فيه آيات شروق أنوار صفاته فيها، لمشاهدي الحضرة، وطلاب القدرة، أقسم مما يبدو منها من أنوار تلك الأسرار.

قال الواسطي: أي: يُجِلُّونك بهذا، أقسم فيك أعظم البلد، كما سماها طابة طابت به وبمكانه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿١٢﴾﴾ أي: في استواء العقل، واعتدال الحسن.

قال ابن عطاء: في ظلمة وجهل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾: عين الروح، وعين القلب، وعين السر التي تبصر بها عجائب المشاهدات والمكاشفات.

قال ابن عطاء: عين في رأسه يبصر بها آثار الصنع، وعين في قلبه يرى بها مواقع الغيب. قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾: طريق الشريعة، وطريق المعرفة، والطريق إلى الصفات، والطريق إلى الذات.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٤﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٦﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٧﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٢١﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١٣﴾﴾: العقبة مقام المجاهدة، ومحاربة النفس الأمارة التي تحارب صاحبها بآلة قهر الحق، واقتحامها لا يكون إلا بفك الرقبة، وفك الرقبة عن المنة والأذية، وإطعام الطعام في تجوُّع النفس، والحاجة إلى إيثار الله.

قال القاسم: العقبة نفسك، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٣﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، وهو أن تعتق نفسك من رق الخلق، وتشغلها بعبودية ربك.

قال بعضهم: تلك العقبة هي مجانبة الاختيار، والرضا بتصاريف الأقدار.

قال الواسطي: فك الرقاب من أربعة أشياء: من نفوسهم، وأفعالهم، ورؤية الفضل، وطلب القرية.

قوله تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (١) أو مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (٢): «اليتيم»: المنقطع عن مقام المواصلة، و«المسكين»: العاشق المتحير الذي يتمرغ في تراب بابه. قال جعفر: هو ما يتقرب به إلى ربك في تعهد الأيتام، وتفقدهم.

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا (٣) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّيَاءُ وَمَا بَدَّنَهَا (٥) وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّنَهَا (٦) وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا تَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥).

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ (١): أقسم الله بشمس جلال قدمه إذا ارتفعت من مشارق قلوب العارفين، فنور بسناها أسرارهم، وأيضاً أي: وشمس عرفانهم حين أشرقت بنور الإيقان، وأورث لهم لطائف العيان والبيان، وقمر صفاته إذا تابعت أنوارها عقيب كشوف أنوار ذاته في فؤاد المقرين، وأيضاً أي: بقمر الإيمان إذا تلا شمس العرفان، ونهار صباح الأزل إذا تجلَّى لأرواح الموحدين والصدّيقين، وليل تحيّر أهل الفناء في ميادين وحدانيته؛ حيث لا يدركون منافذ درك الحقائق، وأيضاً أي: بليل قهريات عظمتها إذا تغشى بعين الامتحان أفئدة الطالبين والمطلوبين؛ لأن الكل في ضرب هذا البلاء، حتى قال سيد الورى ﷺ: «إنَّه ليغان على قلبي» (٢)، وساء قلوب المحييين فيها أبراج الغيوب تسري فيها نيرات كشوفات الملكوت والجبروت وما بينهما، أقسم بالفعل، ثم بالصفة، ثم بالذات، وجميعها خبرٌ عن عين الجمع في الحقيقة، وفي عين التفرقة من حيث رسم الحقيقة، وأرض عقول العارفين التي هي مساقط شروق أنوار المشاهدة، بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، والذي بسطها لنزول مهاد

(١) أي: ذا فقر، يقال: ترب فلان: إذا افتقر والتصق بالتراب، ومن قرأ «فك» و«أطعم» بصيغة الماضي فبدل

من «اقتحم».

(٢) تقدم تخريجه.

الربوبية عليها، وبالذي باشرها بنور الفعل والصفة والذات؛ ليجري فيها أنهار الكواشف والمعارف، وينبت فيها أزهار المحبة، وأثمار الحكمة، ورياحين الشوق، والعشق وياسمين المودة، والزلفة، والنفس الناطقة العارفة التي صورها بصورته، وألبسها نعتة، ووصفه في مدارج الغيوب، وأسكنها في بطون القلوب، ومن سواها بتسوية الصفة، ورقمها بنور الأزلية، سبحانه المقدس عن كل شوب من العرش إلى الثرى! ثم يئن أنه تعالى عرفها طرق لطفيات الذات، وقهريات الصفات بنفسه بلا واسطة، بقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، عرفها أولاً طريق القهر حتى عرفت المهلكات، ثم عرفها طريق اللطف حتى عرفت معالجاتها من المنجيات، والمقصود منها: عرفانها عين الحق بطريق القهر واللطف حتى تكمل في معرفة صانعها.

قال القاسم: ألهم أهل السعادة التقوى، وأهل الشقاوة الفجور.
وقال الواسطي: ألهمها فجورها وتقواها من غير تعلّم من المخلوقين من غيب إلى غيب.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿﴾ أي: فرّ عن العذاب والحجاب من زكّاه الله في الأزل من خذلانه بفوز مشاهدته، وخاب من أحله في الأزل بالشقاوة والحرمان عن مشاهدة الرحمن.

قال ابن عطاء: أفلح من وفق لمراعاة أوقاته.
قال أبو بكر بن طاهر: أفلح من طهر سرّه عن التدنس بالدنيا، وخاب من أشغل سرّه بها.

وقال بعضهم: أفلح من أقبل على ربّه، وخاب من أعرض عنه.
وقال الواسطي: أفلح من زكّاه الله بالإلهام، وخاب من دسّاه بالإبعاد.
قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾: الخوف لمن لا يعرف عواقب الأمور، وهو منزّه عن أن يكون في حكمته خلل، أو لذاته وصفاته ضرر، فإنّه تعالى من خصّه بالاتصاف بصفاته، والتجلي بأنوار ذاته، قد أسقط عنه خوف الدارين، فلا يخاف من الله بالله؛ لاستغراقه في الله.

قال الواسطي: من ألبسه نعوته لا يخاف عقباها، كما لا يخاف الحق عقبي ما أجرى على خلقه، فإذا اعترض عليه معرض يخاف الخوف من خوفه.

سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ أي: وليل قهره إذا يغشى قلوب المحرومين عن مشاهدة الحق، ونهار أنوار مشاهدته إذا تجلَّى لأرواح العارفين، نورها بضياء قدسه، ولطائف أنسه. قال الأستاذ: وليل أصحاب التحير يستغرق جميع أقطار أفكارهم، فلا يقتدون إلى الرشd، ونهار أهل العرفان إذا تجلَّى بضياته لقلوبهم.

قال سهل: أقسم الله بنفس الطبع، ونفس الروح، وهو الضوء مثل في إشراقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾: سعي البعض بالنفوس؛ لطلب الدرجات، وسعي البعض بالعقول؛ لطلب الكرامات، وسعي البعض بالقلوب؛ لطلب المشاهدات، وسعي البعض بالأرواح؛ لطلب المداناة، وسعي البعض بالأسرار؛ لفنائها في أنوار الذات وبقائها في أنوار الصفات، فسعي البعض بالإرادة، وسعي البعض بالمحبة، وسعي البعض بالشوق، وسعي البعض بالعشق، وسعي البعض بالمعرفة.

قال ابن عطاء: باطن هذه الآية أن يرى سعيه قسمته من الحق له من قبل التكوين والتخليق، بقوله: ﴿وَنَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وأن السعي له مراتب كمراتب المتصلين بالسلطان والواصلين إليه والندماء والجلساء وأصحاب الأسرار، كذلك سعي المریدين والمرادين والعارفين والمحبين والمشتاقين والواصلين والفانين عن أوصافهم والمتصفين بأوصاف الحق هذا إلى ما لا عبادة له ولا غاية.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ أي: بذل وجوده، والكونين، وتبرأ من الدارين؛ لمشاهدة الله، ووصاله ﴿وَاتَّقَىٰ﴾: من رؤية الأعواض، ومعارضة النفس، والنظر إلى

غير الله.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ (١): بكشف جماله وجلاله للعارفين، وقربه من الموحدين، ونرى ما وعد الله له في الأزل بوصوله إليه، ولا يجري على قلبه خاطر الشك. ﴿فَسُنِّيَتْهُمْ رُحْمًا يُبَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ (٢): يسهل له طريق الوصول إليه، ويرفع عنه الكلفة والتعب في العبودية.

قال بعضهم: أعطى الدارين، ولم ير شيئاً في طلب رضا الله، وأتقى اللغو والشبهات، و«صدق بالحسنى»: قام على طلب الزلفى.

قيل في قوله: ﴿فَسُنِّيَتْهُمْ رُحْمًا يُبَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ (٢): يعني وعداً صادقاً من الله أن يسير عليه ما خلقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ (٣): جرد التوفيق عن الاكتساب، وأسقط عن المعرفة الكلفة.

قال سهل: المعرفة.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (٤): هذا الرضا لا يكون من العارف حتى يفنى في المعروف، ويتصف بصفاته، ويتحد به حتى يكون نعته في الرضا نعت الحق.

قال الجنيد: يصل إليه أنوار الرضا، ويتحقق له مقامه برضانا عنه، فإنه لا يصل إلى مقام الرضا عن الله أحد إلا برضا الله عنه.

قال الواسطي: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ بنا عما أنفق، فما خسرت تجارة من كنت له عرضاً عن تجارته.

سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَى﴾ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَحَاوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١).

﴿وَالضُّحَى﴾ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) أي: وطلوع شمس جلالى عليك بنعت عرفانك، يا محمد في أيام الوصلة وليل النكرة، حيث كنت في ليل الحيرة من غلبة ليل امتناعي

عن إدراكك كنه القدم: حيث قلت: «لا أحصى ثناء عليك»^(١).
قال ابن عطاء: بمكاشفات سرّك بنا، واشتغالك بالدعوة نظر إلى الخلق.
وقال الجنيد: «وَالضُّحَى»: هو مقام الأشهاد «وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى»: مقام العين الذي
قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَى قَلْبِي»^(٢).

قيل: ويوم أسرار العارفين، وظلمة أفعال المخالفين.
قوله تعالى: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى»^(٣): أقسم الله بهذا القسم أنه تعالى ما ترك
محمدًا ﷺ في محل الإنسانية من مشاهدة الأزلية في الأزل، «وَمَا قَلَى»: حين اصطفاه بالقدم،
وكيف يدخل في اصطفايته وسوابق محبته الأزلية خلل من جهة الأفعال؛ إذ هو منزلة عن
الصغائر.

قال ابن عطاء: ما حجبك عن قربه حين بعثك إلى خلقه.
وقال الواسطي: ما أهملك بعد أن اصطفاك.
قوله تعالى: «وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى»^(٤): ما وجد العارف في الدنيا من كشف
الجمال بالإضافة إلى يوم الوصال كقطرة في البحار أي: لك من الدنو عندي من المعاملات
السنية، والدرجات العلية، لو انكشف لك ما نظرت إلى ما وجدت منا في الدنيا، فإن أمر
القرب والمشاهدة على مزيد في كل نفس شوق حبيبه إلى نفسه، ورفع قدره عن الأكوان
وأهلها، وأخبره عما له من ذخائر المكاشفات، وعجائب المشاهدات.
قال سهل: ما أدخرت لك في الآخرة من المقام المحمود ومحل الشفاعة خير مما أعطيتك
في الدنيا من النبوة والرسالة.

وقال بعضهم: ما لك عندي من مخزون الكرامات أجل مما يشاهده الخلق؛ لأنك
الشفيع المطاع، والناطق بالإذن حين يؤذن لأحد بالكلام.
قوله تعالى: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»^(٥): هذه بشارة لأمته المرحومة، فإنه
لا يرضى حتى يدخل الله جميع أمته الجنة بلا حساب ولا عتاب ولا حجاب، وكيف يرضى
العاشق من معشوقه حتى يكون هو المعشوق يصير هو هو، ولا يكون ذلك إلا بعد فناء
نعوت الحدث في نعوت القدم.

قال ابن عطاء: كأنه يقول لنبيه ﷺ: أفترضى بالعطاء عوضاً عن المعطي؟ فيقول: لا

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

فَقِيلَ لَهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ١ أَي: على همة جليلة؛ إذ لم يؤثر فيك شيء من الأكوان، ولا يرضيك شيء منها.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ ٢ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ٣ أَي: كنت يتيمًا منقطعًا عنا فينا، فأواك عنك بنا إلينا، ووجدك متحيرًا عن إدراك حقيقتنا، فكحلناك بكحل أنوار ربوبيتنا حتى أدركتنا بنا، ووجدك عائلًا من كنوز علوم القدم، ووصال الأبد، فأغناك بهما، فإذا كان كذلك فلاطف كل منقطع عنا وهو يتم الفراق بقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ٤، ولا نكتم شرفك ورفعتك عن كل سائل طالب، وقل له حقائق لطفنا باللطف، ولا تمنعه بقوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ٥، وظهر بعض ما كوشفت من أسرارنا وأنوارنا ولطفنا ورحمتنا لكل مشتاق إلى لقائنا، وحببهم إلينا بحديثك عنا بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ٦.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿أَلَمْ نَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾: معناه: وجدك اليتيم فأوى بك، ووجدك الضال فهدى بك، ووجدك العائل فأغنى بك، ولا يكون الوجدان إلا بعد الطلب، وكان طالبًا له في الأزل، فوجده، ثم أوجده سفيرًا بين خلقه. وقال جعفر في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾: كنت ضالًّا عن محبتي لك في الأزل، فمنتت عليك بمعرفتي.

قال الحريري: وجدك مترددًا عن غوامض معاني المحبة، فهداك بلطفه إلى ما رمته في وهلك، وهذا مقام الوله عندنا.

قال بNDAR بن الحسين في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ ٧: كنت قائمًا مقام الاستدلال، فتعرفت إليك، وأغنيتك بالمعرفة عن الشواهد والأدلة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿أَلَمْ نَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ ٢ أَي: وحيد الأمثل لك، ولا نظير في شرفك وهمتك، فأواك إليه.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ ٣: لا تعلم قدر نفسك، فأعلمتك قدرك.

قال جعفر في قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ٤ أَي: العارين عن خلعة الإسلام، ولا تقنط من رحمتي، فإنني قادرٌ ألبسه لباس الهداية، والسائل إذا سألك عني فدلّه عليّ بالطف دلالة، فإنني قريبٌ مجيب.

وقال ابن عطاء: المزمنون كلهم أيتام الله في حجره، فلا تقهرهم أي: لا تبعدهم عنك،

وسؤالهم أسرار الله، فلا تنهرهم ولين لهم والطف بهم.
وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾: حدث به نفسك؛ كي لا تنسى فضلي عليك قديماً وحديثاً.
قال بعضهم: حدث بنعمة ربك عليك، فإنك لا تبلغ أقصاه؛ لتعلم بذلك عجزك عن تعداد نعمه عليك؛ لذلك قال النبي ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك»^(١).

سورة الانشراح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ١ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ٢ ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ٣ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ٤ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ٥ ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ٦ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ ٧ ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ ٨ .

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ١ : شرح صدره - صلوات الله وسلامه عليه - طلوع شمس جلال الحق فيه، فأضاء منه روحه وقلبه وعقله، وطار روحه في الأزل، وطار عقله في الأبد، وطار قلبه في الجبروت، ونفسه في الملكوت، فتولَّى الحق شرح صدره بنفسه لا بغيره، وذلك حين ظهر لسره ذاته القديم، وصفاته الأزلية، فصار موسعاً مبسوطاً بوسع الذات والصفات، فشرحه يزيد إلى الأبد؛ لأن جلال الحق لا نهاية له، وكان صدره محل تجلّي الحق، فبقي مع الحق في ساحة الكبرياء حيث لا حيث ولا زمان ولا مكان، بل نور الذات في نور الصفات، ونور الصفات في نور الذات، فهو بين النورين محتجباً بأنوار الحقيقة عن أوهام الخليفة؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ٤ : رفع قدره عن إدراك كل إدراك، وأعلى ذكره بذكره عن السنة كل وصاف، لا يصفه الأولون والآخرين بكمال وصفه؛ لأنه كان منسلخاً بأنوار الربوبية من أوصاف الحدوثية؛ لذلك قال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ٢ ، وتلك الحدوثية أثقلت جناح همته العلية الربانية؛ حيث منعه عن الوصول بالكلية، بقوله: ﴿أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ٣ ، فلما خففته عن ذلك جعله رفيع القدر بقدره؛ لذلك قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ٤ ، وسَّع صدره أولاً بكشف المشاهدة، فلما وصل إليه أثقال سطوات الربوبية وثقل

(١) تقدم تخريجه.

عليه صدمات القدوسية كاد أن يفتني تحتها، فبدّلها الله له، وأنوار الكبرياء بأنوار البقاء، وأنوار الجلال وأنوار القدس بأنوار الأنس، وجعله متّصفاً بصفاته، فقوى بالحق، وحمل الحق بالحق، وقال سبحانه: ﴿الْمَرْفُوحَ لَكَ صَدْرُكَ﴾، إلى قوله: ﴿ذِكْرُكَ﴾.

قال سهل: ألم نوسّع صدرك بنور الرسالة، فجعلناه معدناً للحقائق.

وقال ابن عطاء: ألم نوسّع سرك لقبول ما يرد عليك.

وقال في قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾: أعباء النبوة والرسالة، فكنت فيها محموداً لا حامداً.

وقال جعفر: ألم نشرح صدرك لمشاهدتي ومطالعتي.

وقال القاسم: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾: ألم أزل ملاحظة المخلوقين عن سرك.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾: جعلتُ تمام الإيمان بي بذكرك معي.

وقال أيضاً: جعلتُك ذكراً من ذكرى، فكان من ذكرك ذكرى.

وقال ذو النون: همم الأنبياء تحول حول العرش، وهمّة محمد ﷺ فوق العرش؛ لذلك

قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

قال سهل: أزلنا عنك الهمّة إلا لنا، والفكرة في سوانا، والحركة والسكون إلا بأمرنا.

قيل في قوله: ﴿أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾: هو الرجوع من حال المشاهدة إلى حال بلاغ الرسالة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾: مع عسر المجاهدة يسر المشاهدة، ومع عسر الانفصال يسر الاتصال، ومع عسر القبض يسر البسط، وزاد يسراً على يسر على يسر، وجعلها يسرين بعد عسر، «العسر»: هو الحجاب، و«اليسر»: كشف النقاب، ويسر آخر رفع العتاب.

قال الجوزجاني: مع الصبر عن الحرام؛ وشبهات الاسترواح إلى عزّ التوكل.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾: فإذا فرغت ما دون الله فابذل نفسك لله، ثم ارغب بما لله إليه، فإنه درجة لا تليق بغيرك.

قال جعفر: اذكر ربك على فراغ منك عن كل ما دونه.

وقال ابن عطاء: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب بطلب الشفاعة.

وقال القاسم في قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾: يكون رغبتك فيه وإليه.

سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ۝ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ۝﴾.

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝﴾: أقسم الله بمواضع تجلّى جماله وجلاله، أما «التين»: فشجرة آدم التي نهاه عن قربها وهو متجلّى عنها له، و«شجرة الزيتون»: التي تجلّى منها لموسى، حيث قال: ﴿إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا﴾، وقال: ﴿ثُودِيكَ مِنْ شَطِطِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾، و«طور سيناء» الذي تجلّى عنده أيضًا لموسى، ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾: هو الذي بيّنه فيه، وهو محل آياته، وكشوف صفاته، بقوله: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ يَبَيِّنُ﴾؛ لذلك قال ﷺ: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»^(١)، وأيضًا «وَالَّتَيْنِ»: أي: شجرة الروح القدس، «وَالزَّيْتُونِ»: شجرة العقل القدسي، «وَطُورِ سِينِينَ»: هو القلب العارف بالله، «الْبَلَدِ الْأَمِينِ»: صدر المحبّ المتمكن.

قال الجنيد: «التين»: بمسجد إيليا، «والزيتون»: مسجد بيت المقدس، «وطور سينين»: مسجد طور، و«هذا البلد الأمين»: المسجد الحرام، وإنما هذه مساجد عظمها الله؛ لأنها بقاع الله؛ لأن الله جلّ ذكره يُذكر فيها، فأقسم بها.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: أقسم الله بهذه المكرّمات أنه خلق آدم في أحسن منظر، وأكرم خلقه؛ إذ سراه بنور كشف صفاته، وإلباسه إياه سنا ذاته. قيل: في أحسن صورة. وقيل: في أتم معرفة.

وقال بعضهم: «حسن التقويم»: وصف قائم بالحق لا عبارة عنه، وكل عبارة عن تمام تقويمه من تفسيره، وليس لنهاية العبارة عند لفظ.

سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۝ أَسْتَغْنَى ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ۝ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ ۝ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَذِبِيَّةٍ خَاطِفَةٍ ۝ فَليَدْعُ نَادِيَهُ ۝ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝ كَلَّا لَا تَطِيعُہُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝﴾.

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾: كان ﷺ شاهداً في الحضور، غائبا عن الرسوم، تحول حول الحقائق، وتكتم أسرار المعرفة، لا يتحدث بحديث العشق، ولا يرمز بلطائف الحب، كان مستغرقاً في القرب، كأنه جعل نفسه في جانب عن الأجانب، في حواسٍ عن تلك القصة، معرضاً مراقباً عاشقاً، كأنها كان لم يكن له خبر، وهو كان في محل العيان؛ لكن لم يكن في البيان، أقبل بالسر نحو المراد، وإن لم يكن هناك في المراد قرع الحق باب قلبه؛ لأنه هو المريد، والحبيب هو المراد، الأحد طالب، وأحمد المطلوب، لا جرم الطلب منه نداء؛ إذ أوحى إليه قبل طلبه، فقال: ﴿أَقْرَأْ﴾، كأنه كان قارئاً؛ إذ شاهد الأدنى الحق بالحق في الأزل؛ ولكن كان غائبا عن المحضر الأعلى لشهوده الأدنى، فقال: «ما أنا بقارئ»^(١): يعني: أنا لا أقرأ غير الشئ عليه، قال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، أخذه بالاسم، وكشف على ظاهر المعرفة، ثم بان المسمى له، بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾، ثم غيبه في الغيب، وحيره في الهوية بتحقيق الإشارة، بقوله: ﴿الَّذِي﴾، فلما غاب في الغيب أخذ يده من استغراقه في بحر الأزل، وأحضره ساحة أنوار الصفات في مشاهد الأفعال، بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، هكذا فعل بالمرادين، وجعل الطالبين حيارى في طلبهم، ألا ترى شأن موسى ﷺ كيف أقبل عليه في طلبه، فناجاه بعد أربعين يوماً؛ لأنه كان مريداً، والمصطفى ﷺ كان مراداً؛ لذلك ناجاه بالبديهة، إظهاراً لحبه البالغ، واصطفائيته الكاملة.

قال الخليل: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، والكليم قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

(١) رواه البخاري (٤/١)، ومسلم (١/١٤٠).

وحيث ظهر كمال المحبة قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى﴾ .

قال بعضهم: أهل الإرادة في الطلب، والمرادون مطلوبون، ألا ترى أن إبراهيم كان طالباً بقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾، والمراد مطلوب، وذلك صفة الحبيب صلوات الله وسلامه عليه، ألا ترى أنه لما قيل له: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾، استقبله الأمر من غير طلب.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ① عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ : عَلَّمَ بعضاً بالأنفال، وعَلَّمَ بعضاً بكشف الصفات، وعَلَّمَ بعضاً بظهور الذات، عَلَّمَ أهل الملكوت بالعلم ما بان عن علم القدم، وعَلَّمَ آدم الأسماء بغير العِلل، عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم من نعوت القدمية، وأسمائه الأزلية حين عاين الحق له بالصفة، حيث قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، ثم عاين له بالذات، حيث قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، عَلَّمَ العارف ما لم يعلم من أسرارهِ المكتومة، وأنبأه العجيبة، وكلماته السرمدية التي كل حرف منها دليل إلى عيان عيانه، وبيان بيانه.

قال سهل في قوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ : أثبت في اللوح ما جرى العلم والقلم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ : الإنسان الخسيس يطغى برؤية الدنيا الدنيئة، وأي الإنسان هذا من الإنسان الذي استغنى بالله، واستغرق في جمال الله، واتصف بصفات الله، وصار متحدًا بالوحدة، وسكرًا من شراب العزة، وغلبت عليه الأنانية، فيطغى برؤية أنوار الاتصاف، ولا يعلم أنه في حواشي بحار عظمتة، ولم يذق منها قطرة بالحقيقة، فلما أعلمه الحق بأنه لا شيء وفي لا شيء من الربوبية أحوجه إلى مقام الإرادة برجوعه إليه بنعت الافتقار بعدما رجع بالصفة إلى معدن الذات، وهذان المعنيان في قوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ .

قال ابن عطاء: رؤية الغنى تورث الطغيان والبطر؛ لأن الغنى يورث الفخر، والفخر يورث الطغيان:

قوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ② : لما انكشفت صفات القدم لتحبيب كان أن يسكر وشطح، وغلب بها رأى في نفسه من إحاطة أنوار الربوبية، جرَّه الحق من مقام الربوبية إلى معدن العبودية، بأن نصَّب له في سجوده حجال الأنس، ومهدَّ له فيه بساط القدس؛ ليدنوه منه، ويقطع مفاوز الأزال والآباد في سجدة واحدة، ليس الاقتراب بالاكتساب، إنما أراد خلو سره عن الدارين وتربيته في مقام العبودية؛ حتى يكون إمامًا للصديقين والمتمكنين من

العارفين، وأهل الإرادة من المؤمنين إظهارًا للتواضع والتذلل لجبروته وملكوته.

قال ابن عطاء: اقترب إلى بساط الربوبية فقد اعتقناك من بساط العبودية.

وقال الواسطي: العوام منقلبون في صفات العبودية، والخواص مكرمون بأوصاف الربوبية، ولا يشهدون غير صفات الحق؛ لأن العوام بمحتمل الصفات لضعف أسرارهم، وبعدهم عن مصادر الحق.

قال جعفر: اقترب من حيث العبودية فقد قرّبتك من حيث الربوبية.

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: تلك الليلة من كشف جماله للعارفين، وأهل شهوده من المقربين، قدر منازلهم في مقام المعارف والكواشف، وقدر مقادير الغيوب، وأبرز أنوار ملكوته وجبروته لأهل القلوب؛ لذلك تنزل الملائكة والروح في تلك الليلة، يبشرونهم بالوصول، وكشف الجمال أبدًا.

قال سهل: ليلة قدرت فيها الرحمة على عبادي.

وقيل: نزول الملائكة في تلك الليلة؛ لاسترواح قلوب العارفين.

قال الأستاذ: ليلة يجد العابدون فيها قدر نفوسهم، ويشهد العارفون فيها قدر معبودهم، فشتان بين وجود قدر، وبين شهود قدر.

قوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ﴿١﴾ سَلَامٌ: لما بشرهم بأعالي الدرجات وسني الكرامات وسلامتهم من جميع البنيات، يسلم عليهم ويصافحهم؛ لتصل بركات بعضهم إلى بعض.

قال سهل: سلم من انقطعت أوقات العارفين القائمين معه على حدود الأحكام من الأوامر والنواهي.

سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾:
وصف الله النفس الأمارّة وأعوانها من الشياطين أنها عارضت بينات كواشف الملكوت
للأرواح والقلوب والعقول، وأشد إنكاراً إنكاراً من عين البيّنة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾: الإخلاص في
العبودية: تجريد السر عما سوى الله، و«الحنيف»: من حنف عن غير الله من النفس والدنيا.
قال بعضهم: «الإخلاص»: ألا يطلع على عملك إلا الله، ولا ترى نفسك فيه، وتعلم
أن المنّة لله عليك في ذلك حيث أهلك لعبادته، ووفقك لها، ولا تطلب من الله ثواباً.
وقال رويم: «الإخلاص»: إفراد الله بالعمل.

قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: «رضي الله عنهم»: في الأزل حين
اصطفاهم قبل إيجادهم، «ورضوا عنه»: لما عابنوه وآثروه على من دونه عشقاً وشوقاً ومعرفة،
وهذه الدرجات لمن عرف الله، ودأب في إجلاله، ورؤية عظيمته، بقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ
رَبَّهُ﴾، وأصل الرضا الاتصاف بصفة الرضا من الحق.

قال الواسطي: الرضا والسخط نعتان قديمان يجريان على العبد بما جريا في الأزل،
يُظهر أن الرسم على المقبولين والمطرودين، فقد بانّت شواهد المقبولين بضيائها عليهم كما
بانّت شواهد المطرودين بظلمها، فأني ينفع مع تلك الألوان المصفرة، والأقدام المنتفخة،
والأكمام المقصرة؟!

وقال: استعمل الرضا جهداً، ولا تدع الرضا يستعملك، فتكون محجوباً بلذته عن حقيقة ما يطالع بعد درجته.

قال سهل: الخشية سرٌّ، والخشوع ظاهرٌ.

وقال عمرو المكي: اشترط الراضين بالخشية في رضاهم عنه؛ لذلك أوجب لهم رضاه عنهم بأن يرضوا عنه ويخشوه في رضاه عنهم، ولا يكون ذلك إلا باجتناب المحارم، وعقد موافقتهم لموافقته، أن يكرهوا ما كرهه، ويرضوا ما رضي.

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ آلُ نَسْنُ مَا لَهَا ۖ يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ﴾ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۖ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ ۚ﴾ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ﴾.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾: إذا انكشف جمال القدم عياناً تزلزلت أرض قلوب العارفين بوصول سطوات العزة إليها، تحركت بنعوت المواجهين؛ حيث باشرتها أنوار العظمة والكبرياء، وعينت ما في صميمها، وأخرجت أثقال أسرار معارفها وعلومها المجهولة الرئانية إلى بساط الحضرة، وصاحبها يتعجب من تلك الأشكال الحقيقية، بقوله: ﴿وَقَالَ آلُ نَسْنُ مَا لَهَا ۖ﴾، فتشهد الأرواح عليها، وعرفت مكنون سرائرها إياه، فعند ذلك عرف الإنسان نفسه حين ألهمه الحق بما ألهم روحه، بقوله: ﴿تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

قال الحسين: تزلزل الأرض، وتخرج أثقالها للعرض، فتقول ما لها، وتحدث أخبارها، وتظهر أسرارها، فيسألها ما قدمت من [فطها كيميا غيب نبذت]، من عظم ما عينت، وشاهدت مذعنة قد خضعت، ونكست رؤوسها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ﴾: يجيئون بنيات مختلفة، ومأمولات متفاوتة، فالناس الحقيقيون يصدرون من مقام المكاشفة إلى مقام المشاهدة، ومن مقام المشاهدة إلى مقام الوصلة.

قال أبو بكر بن طاهر: معتمداً على فعله وطاعته، ومستحيماً من مخالفته ومعصيته، وراجياً شفاعته ﷺ، ومعتمداً فضل الله عليه، وأهل الصفوة واقفون بلا علة من هذه العلائق

إلى أن يصلوا إلى مأمولهم ومرادهم^(١).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾: العارف يرى جزاء عمله من الخيرات، ولا يكون مقيداً بها؛ إذ هو مشغول بالحق عن غيره، ويرى ما فعله من الحركات المذمومة؛ ليعرف فضل الله عليه بأنه تعالى لا يجازيه بها.

قال جعفر: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾: في الدنيا إذا كان مؤمناً، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾: في الدنيا إذا كان مشركاً.

قال الواسطي: إذا كان من أهل الإسلام، إن الأعراض لا ترى، ولا تبقى وتبين، وكيف يجوز أن يرى؟

قيل: القرآن صفة الله، وأن الصفة لا تبين من الموصوف، وهو يرى في الأرض مكتوباً، كذلك الأعمال.

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ١ ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ ٢ ﴿فَالْغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ ٣ ﴿فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا﴾ ٤ ﴿فَوْسَطْنِ بِهِ جَمْعًا﴾ ٥ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ٦ ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ٧ ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ٨ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَاهُ فِي الْقُبُورِ﴾ ٩ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ ١٠ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ١١.

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾: أقسم الحق سبحانه بأفراس قلوب المحبين إذا صُحبت بأصوات الوصلة من تراكم مواجيد المشاهدة في ميادين الوحدة، حين عاينت مشاهدة السرمدية، وهي الموريات أنوار المعارف من قداح الكواشف، ثم أقسم لواردات كُشوف صفاته حين أغارت أرواح العاشقين عند طلوع صباح مشاهدته.

(١) قال ابن عجيبة: متفرقين، جمع شَتَّ، نزلت في بني ليث بن عمرو، كانوا يتحرَّجون أن يأكل الرجل وحده، فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل، فإذا لم يجد من يؤاكلة من الضيفان أكل أكل ضرورة. وقيل: في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا. وقيل: في قوم تخرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض، فخيرهم. وقيل: كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوي قرابته وصدقاته، ودعاه إلى الطعام، فيقول: إني أخرج أن أكل معك، وأنا غني وأنت فقير، فأباح لهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾^(١) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٢﴾: شهد الحق على أسرار الخلق في الأزل قبل إيجادها، لا يعزب عن علمه ذرة من العرش إلى الثرى، والإنسان لا يعرف ما أعطاه الله من نعمة بالحقيقة، وإنه لكفور؛ إذ لا يعرف منحه.

قال القاسم: هو الذي يشهد بأحواله وعلى أحواله؛ لأن الحق تولّاها في أزليته قبل أن يخلقها، وسيّرّها بتقديره، وأخرجها إلى الكون بتدبيره، وفي عرصة القيامة يسوقها إلى المحشر كما ساقها في الأزل والأبد دون غيره، فانطلق ما شاء بما شاء في سيره في الدارين، وأخرس ما شاء عما شاء بتدبيره.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾: بعد منه من الطاعات، وينسى ما من الله به عليه من الكرامات.

سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ﴾^(١) مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾.

﴿الْقَارِعَةُ﴾^(١) مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾: «القارعة»: ساعة كشف جمال العظمة الذي يفنى الحدثان في سطواتها؛ لذلك قال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾^(٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾، ذلك من وصول قوارعات قهر جبروته.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾^(٦): «فمن ثقلت موازين قلبه بمعرفة الله وتوفيقه

(١) اعلم أن ثقله الموازين عبارة عن: وجود الأعمال الرزينة لها التي لها وزن عند الله، وقدر دلّ عليه العيشة الراضية؛ لأن عيشة الرجل في الجنات؛ إنها هي بأعماله؛ لأن درجاتها ونعيمها مقسومة بقدرها؛ فهو إنها يدخل بثقل الموازين جنة الأعمال، وخفة الموازين عبارة عن: عدم الأعمال المقبولة دلّ عليه قوله: فأمة هاروية؛ لأن الله لا يقيم لمن خفت موازينه يوم القيامة وزناً ومقداراً؛ فيهرى في النار التي هي أصله؛ لأن كل ظلمة، وظلماني؛ إنها هو من النار، كما أن كل نور، ونوراني؛ إنها هو من الجنة، وفيه إشارة إلى أن

الأزلي فهو في عيش مشاهدته الأبدية.

قيل: قال الواسطي: هل يجوز أن تُثقل الموازين بأعمالنا؟ قال: لو جاز ذلك لا من كل من كثرت أعماله وُصفت، بل الله يثقل موازين من شاء، ويخفف من شاء، ألا ترى النبي ﷺ يقول: «الميزان بيد الله يخفض أقوامًا ويرفع آخرين»^(١)، رفعهم في أوزنهم، ووضع آخرين في أوزنهم قبل كون كل كون.

قال سهل: فمن ثقلت موازينه بالإخلاص فهو في عيشة راضية، في رضا الله ينقلب في جواره، ومن خفت موازينه بالرياء والسمعة فأمه هاوية، فإنه ينقلب في سخط الله ومأواه النار.

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ١ حَتَّىٰ رُزِّمَ الْمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوْ نَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّ عَذَابَ الْيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ٨ .

﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ١ حَتَّىٰ رُزِّمَ الْمَقَابِرَ ٢ : شغلكم النظر إلى أحوالكم وأعمالكم، والافتداء بالتقليد على السلف عن مشاهدتنا وقربنا.

الأعمال تتجسد يوم القيامة؛ فيكون لها ثقل وخفة، كما ذهب إليه أهل الشرع؛ لأن الأعراس لا تُوصف بذلك، وكان الظاهر أن تكون ثقلة الموازين بسيئات الأعمال؛ لتهبط بصاحبها إلى النار التي في الأرض السافلة، وأن يكون خفتها بصالحات الأعمال؛ لتصعد بصاحبها إلى الجنة التي في السماء العالية؛ لكن أُعتبرت الثقلة بالصالحات، والخفة بالطالحات؛ لأن الجسم هو الذي يتَّصف بالثقل، والخفة، فوجود الصالحات مما يقتضي جسامتها، ووزنها، وقدرها، وصعودها ليس من حيث وجودها، وثقلها في نفسها؛ بل من حيث حال عاملها، فإن العامل لا بد وأن يكون مخلصًا بالكسر؛ بل مخلصًا بالفتح، والمخلص لا وجود له في نفسه؛ لأنه فإن عن أعماله، والتعلق بها، فاجتمع ثقل؛ وهو العمل، وخفيف؛ وهو حال العامل؛ فارتفع ميزانه إلى جانب العلو؛ كالروح مع الجسد؛ فإنه لولا الروح لم يكن للجسد قيام بنفسه.

(١). رواه الطبراني في الكبير (١١٧/٧).

قال بعضهم: شغلكم التكاثر بموتاكم عن الحياة بذكري.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: تعرفون أنكم لا تعرفونني حق معرفتي؛ حين وقفتم بما وجدتم مني عني.

قال: سيعلم من أعرض عني أنه لا يجد مثلي.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾: بَيَّنَّ الله سبحانه أن علم اليقين قبل الرؤية والمشاهدة يكون، فإذا حصلت الرؤية والمشاهدة صار علم اليقين عين اليقين، بقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، و«حقيقة اليقين» و«حق اليقين»: أن يعرف العبد أنه يرى جسيم قهر القدم الذي كان الحق موصوفاً في الأزل، ولم يصل إلى بطنان كنهه؛ لأنه الحدث والحق قديم، وأنى يصل الحدث إلى القدم أبداً؟!

قال يحيى: «اليقين»: كشف الغطاء عن القلب.

وقال فارس: «علم اليقين»: لا اضطراب فيه، و«عين اليقين»: هو العلم يُودِعُه الله الأسرار.

قال الخراز: «عين اليقين»: هو أن يرفع الحجب عن قلوبهم بتجلُّ لأرواحهم وأسرارهم، ويكشف عن أوهامهم حتى يروه عين اليقين، فيرجعوا عنه سكارى، وينتهوا عنه حيارى.

قال بعضهم: «عين اليقين»: عين البقاء.

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾: أقسم الله بآزاله وآباده التي هي أعصار الأولية والآخرية التي قصر منها الدهر الدَّهَار عن تعدادها، وأيضاً: أقسم بزمان العارفين حين تابوا بجماله، وفرحوا ببقائه ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾، إذا احتجب بنفسه عن نفسه، وأنه لا يبلغ إلى وصله، ثم استثنى أهل شهود القدم الذين تركوا أوصاف الحدوثية على باب الأزلية،

واتصفوا بأوصاف الربوبية، بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾: «تواصوا بالصبر»: بالله في الله، «وتواصوا بالحق»: بالإقبال على الحق. قال بعضهم: «التواصي بالصبر»: هو ألا يشهد البلاء بحال. قال بعضهم: «التواصي بالحق»: هو مقام مع الحق، والقيام بأوامره على حدود الاستقامة.

سورة الهمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۚ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۚ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۚ ۝٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۚ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۚ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۚ ۝٦ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۚ ۝٧ فِي غَمَرٍ مُّتَدَدَةٍ ۚ ۝٨﴾.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: ويل الحجاب لمن لا يرى الأشياء بعين المقادير السبّاقة حتى يكون وقيعه في الخلق بالحسد، وهو مقبل إلى الدنيا بالجمع والمنع. قال تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾.

قال بعضهم: جمع المال: من علامة الجهل، وحب المال: من علامة النفاق، والبخل بالمال: من علامة الكفر.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾: وصف الجاهل بالله بأن ماله يوصله إلى الحق، لا والله لا يصل إلى الحق إلا بالحق.

قال أبو بكر بن طاهر: يظن أن ماله يوصله إلى مقام الخلد.

قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾، «ناران»: نار القهر، ونور اللطف، «نار قهره»: إبعاده قلوب المنكرين عن ساحة جلاله، و«نار لطفه»: نيران محبته في قلوب أوليائه من المحبين والعارفين.

قال جعفر: النيران شيء مختلف، فمنها: نار المحبة، ونار المعرفة تتقد في أفئدة الموحدين، ونيران جهنم تتقد في أفئدة الكافرين، ونيران المحبة إذا اتقدت في قلب المؤمن تحرق كل همة غير الله، وكل ذكر سوى ذكره.



سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾: إِنَّ اللَّهَ وَاسَى قَلْبِ نَبِيِّهِ ﷺ بِذِكْرِ هَلَاكِ
أَصْحَابِ الْفِيلِ الَّذِينَ أَتَكَلَّوْا عَلَى الْفِيلِ بِأَنَّهُ يَدْمُرُ عَلَى أَعْدَائِهِ كَمَا دَمَرَ عَلَى أَصْحَابِ الْفِيلِ،
الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْحَيَوَانَ بِأَضْعَفِ الطَّيُورِ، وَذَلِكَ تَعْرِيفُهُ صِفَتَهُ بِوَاسِطَةِ رُؤْيَا فَعَلَهُ.
قال يوسف بن حسين: من كان اعتماده على غير الله أهلكه بما اعتمد عليه، كأصحاب
الفيل اعتمدوا على أقوى خلق من خلق الله، فأهلكه الله بأضعف خلق من خلقه ﴿وَأَرْسَلَ
عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾^(١).

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِلَّا يَلْفُ قَرِيشٍ ﴿١﴾ إِيَّاهُمْ رَحِلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٣﴾﴾

﴿إِلَّا يَلْفُ قَرِيشٍ﴾: هذا تعداد نعمه لحبيبه ﷺ وأصحابه وعشيرته والمؤمنين، أهلك
أعداءهم ببركته وصفوته؛ لثلاث يُشَقُّ عليهم الوقوف في مقام واحد، فيرتحلوا في الشتاء
والصيف؛ ليروا آيات الله في بلاد الله، ثم أمرهم بعبوديته حتى آمنهم من فزع الحجاب
والعتاب والعذاب، وأطعمهم من موائد كشف النقاب.

(١) قال عكرمة: قال: طير نشأت من قبل البحر، لمارؤوس كروؤوس الأفاعي. وقيل: كروؤوس السباع، لم تر
قبل يومئذ ولا بعده، فجعلت ترميهم بالحجارة لتجدر جلودهم، وكان أول يوم رئي فيه الجدري.
تفسير التستري (٢/٣٥٦).

قال بعضهم: من لَزِمَ طريقة التوكل على الله أغناه الله عن الحركة بالرزق، وأغناه عن السعي والطلب كما قال في: ﴿لَا يَلْفِ قَرِيْشٍ﴾^(١): من اشتغل بالعبادة آمنه الله مما يخاف وأطعمه من جوعه، بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۖ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يَحْضُرْ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۖ ۝ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۖ الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤْنَ ۖ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۖ﴾.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾: من لم يكن من أهل الشهود في الدين فهو منكراً يوم كشف اللقاء.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾: وصف الله أهل الرياء والسمعة الذين لم يجدوا في صلواتهم لذة المناجاة وأنوار المشاهدات.

قال بعضهم: الذين لا يحرصونها بشهود قلب رعاية حقوق المناجاة، وخشوع الأرواح فيها؛ ألا يعلمون أن الصلاة مواصلة بين العبد وبين ربه، فإذا لم يراعِ حقوقها كانت مفاصلة.

قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾: وصفهم بالبخل عن بذل وجودهم في الله. قيل: له ييخلون ببذل المال، والمهج في رضا الحق.

(١) قال القشيري: مصدر أَلَفَ، إذا جَعَلْتَهُ يَأْلَفَ، وهو أَلِفَ إِنْفَاءً، والمعنى: جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافٍ قَرِيْشٍ، أي ليألفوا رحلتهم في الشتاء والصيف، وكانت لهم رحلتان للاختيار: رحلة إلى الشام في القيظ، ورحلة إلى اليمن في الشتاء والمعنى: أنعم الله عليهم بإهلاكِ عدوهم ليؤلفهم رحلتهم. تفسير القشيري (٨ / ١٠٦).

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾: «الكوثر»: حقيقة استغراقه في بحر جماله، ودنؤه في منازل قربه، وله كوثر القلب يجري فيه أنوار مشاهدة الحق من بحار الأزل، والأبد يزيد في كل نفس سواقيها إلى الأبد.

قال جعفر: نور في قلبك ذلك على، ونطعت عما سواي.

وقال: الشفاعة لأمتك.

وقال ابن عطاء: الرسالة والنبوة.

وقال: معرفة ربوبيتي، وانفراد بوحدايتي وقدرتي ومشيتي.

وقال الجنيد: أعطيناك نور المعرفة، وانفراد الوجدانية.

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي: اتصل بنور الربوبية بخالص العبودية، وانحر نفسك قربا لكشف مشاهدي.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: منقطع عن الوصول إلينا.

قال القاسم: المنقطع عن خيرات الدارين أجمع.

سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ

﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ أي: قل إنني وقعت في بحار

القدم والديمومية، ولا أشتغل بغيره أبدا.

قال بعضهم: عبادتكم له عبادة طمع، وعبادتي له عبادة حقيقة، وعبادتكم له عبادة منوّة بشرك، وعبادتي له عبادة حقيقة وحق^(١).

سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾: نصر الله لحبيبه ﷺ وجميع أحبائه أفرادهم بفردانيته عما دونه، وأنجاهم عن جنس النفوس، وإبلاغهم مقام الأنس نظفرهم على كل بغية لهم، وأداء ما عليهم من حقوق العبودية، و«الفتح»: انفتاح أبواب الوصال، وانكشاف أنوار الجمال والجلال، وبلوغهم عين الكمال، وأيضًا «نصر الله»: كشف غطاء النفس، و«الفتح»: وقوع نور القدس في القلب إذا ذهب قتام الحدثان، فجاء النصر، وإذا انكشف جمال الرحمن قام الفتح، وذلك بشارة الله لحبيبه ﷺ بوصوله إليه، وتخلّصه من أعباء النبوة، ومشقة الرسالة، ورؤية الأغيار، فأمره بتقديسه لنفسه، والاستغفار منه لأمته بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، إذا كمل في المعرفة، واستقام في التوحيد، وأقبل بكماله بحق الحق عند رجوعه من نفسه إليه كان معه بحار الثناء، والعرفان والإيقان والإيمان، فأبرز الحق نورًا من قدس قدمه له، فسقط عنه ما معه من جميع الثناء، فأمره باستئناف ثنائه به لا بنفسه، وأعلمه طريق الثناء عليه في أيام الوصول إليه، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: تَزَّهه عما جرى على قلبك في طول عمرك، فإنه أعزُّ من أن يلحقه وصف الواصفين وحمد الحامدين، فالله سبحانه بحمده لا بك، ألا ترى كيف قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: بحمد ربك، فسبّحه الحمد الذي حمد نفسه في الأزل، وأيضًا أي: سبّح بحمد ربك الذي بحمده ما وصل مدحه مدح المادحين، ولا حمد الحامدين، ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ من حمدك وثنائك وجميع أعمالك له، وعرفانك به، فإن لكل معلولٍ إذ وصف الحدثان لا يليق بجمال الرحمن، فإنه كان موصوفًا

(١) الإشارة: إذا طلبت العامة المريد بالرجوع، إلى الدنيا والاشتغال بها، يُقال له: قل يا أيها الكافرون بطريق التجريد، والتي هي سبب حصول التوحيد والتفريد، لا أعبدُ ما تعبدون من الدنيا وحظوظها، أي: لا أرجع إليها فيما يُستقبل من الزمان، ولا أنتم عابدون ما أعبدُ من أفراد الحق بالمحبة والعبادة، أي: لا تقدرون على ذلك، ولا أنا عابد ما عبدتم من الدنيا في الحال. انظر: البحر المديد (١١٦/٧).

بوصفه لا بوصف الغير، وكان ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾: في الأزل، ﴿ذِي الطُّوْلِ﴾: والمئة على عباده؛ حيث قبل ثناءهم وتسييحهم وتوبتهم، إذا كانت بنعت العلم بالعجز عن إدراك كنه قدمه، والاعتراف بالجهل عن المعرفة بحقيقة وجوده.

قال ابن عطاء: إذا اشتغلت به عما دونه فقد جاءك الفتح من النصر، والفتح هو النجاة من السجن، والبشرى بقاء الله.

وقال الواسطي: أي: فتح عليك العلوم، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾ على ما كان منك من قلة العلم بما أريد منك؛ ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

وقيل: إذا فتح الله قلبك برؤية منه عليك أقبل الله قلوب عباده إليك حتى يأتوك فوجاً فوجاً.

قال بعضهم: أحمد الله بحيث جعلك سبب وصل عباده إليه، واستغفر الله من ملاحظة دعائك، إن من أجابك هو الذي أجابنا وقت الميثاق، وكتب له السعادة في الأزل ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾: وبَّخ الله من لا تصل يد همتته إلى وثقى عروة نبوته والإيمان برسالته والمعرفة بكمال شرفه خسرت في الأزل يده؛ إذ قطعها الحق عن مصافحة حبيبه صلاة الله وسلامه عليه، والأخذ بعروة متابعتة، ذلك الخسران من خذلان الحق إيَّاه، فإذا كان محجوباً عن طريق الرشيد لا ينفعه أعماله ولا أمواله.

قال الله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: ظهر خسران من لم ينزلك المنزلة التي أنزلناك من القرب والدنو والنبوة والمحبة خسراً ظاهراً، وضلَّ ضلالاً بعيداً.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾: علمك ألا يصل إليه إلا به وبعنايته السابقة، فما أغنى أبا لهب ماله، ولا ما رآه من قوته؛ حيث حرم سوابق الأول من الخير.

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: كان الله جلّ جلاله مستترًا بنفسه في أزل أزله، قال: «كنت كنزًا مخفيًا، فأحببت أن أعرف»^(١)، فإذا أوجد أعلام ظهور أفعاله تُعرف نعوته بفعله، فلم يعرف أحدٌ بالحقيقة؛ إذ الوسائط حجابٌ، فأراد إظهار كنوز ذاته وصفاته، فاختار من خلاصة الوجود خاصًا خالصًا، فألبس لسانه فصاحة الربوبية، ونور قلبه بنور المعرفة، وظهر لعينه عين الحقيقة، فأمره بتعريفه لعباده العارفين، بقوله: ﴿قُلْ﴾: ظاهره سرٌّ، وباطنه سرٌّ، حرفٌ تحته بحرٌ من غوامض علوم الربوبية، فالقاف: إشارةٌ إلى قهر عظمته على الحدثان حتى لا يصل إلى ذرّة من حقيقة العرفان بالوهمية الرحمن؛ لأن على وجه القدم وقاية الغيرة، وهناك في الأزل قلزم الحيرة، واللام: إشارةٌ إلى لا النفي أي: لا يصل إلى كنه الألوهية أهل الحدوثية أمره بالإشارة إلى الإشارة، وغوامض سرّ الذات؛ إذ قال: هو أوقع قلوب الراسخين في أودية الهوية الغيبية في تيه غيب الغيب بنعت الوله والحيرة، فلم يصلوا إلى هاء الهوية، فانصرفوا إلى واو الوصف، فعجزوا عن الوصف؛ إذ لم يصلوا إلى الموصوف، فاحتجبوا بالغيب وبعد بطون الهوية، وانصرفوا حيارى سكارى عطاشى واليهين غير مدركين أوائل الحقائق، فاعترفوا بالعجز عن الإدراك، وإدراك الإدراك، فلما علم الحق عجزهم عن إدراك سر الهوية أظهر لهم أنوار الذات والصفات، رحمةً ولطفًا بهم لكيلا يُحرموا من نصيب عرفانه وإيمانه، وقال الله أي: الذي لو تركوه، ولم تدركوه بعد طلبكم هذا، هو الله الذي بان بنعت الوجدانية والجمال والجلال من قرار الهوية، وأيضًا لما غاصوا في بحار الهوية بان لهم أنوار الألوهية، فانصرفوا من صدمات الصمدية، وسطوات الأحدية، ووقعوا في تيه الحيرة، ونسوا ما بان لهم، وفرّوا، ثم طلبوا، فلم يجدوا، فأظهر الله ما ظهر لهم في الغيب، فقال: أين أنتم مما رأيتم هذا هو الله، فظهر لهم في الظاهر كما ظهر لهم في الباطن، فلما رأوه عيانًا فنوا في أول ألف الفردانية، ثم بقوا في لام جماله، وهابوا من عظم لام جلاله، ثم سقطوا في بحر هويته، أيضًا منه بدأ وإليه يعود، الأول: إشارةٌ وغيبٌ، والآخر: إشارةٌ وغيبٌ.

(١) تقدم تخريجه.

قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾، وفي البين بدا وخفا بقوله: ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾، فلما عاينوه سكروا بجماله، واتَّصفوا بجلاله، واتَّحدوا بفردانيته، وصاروا وحدانيين، كادوا أن يدَّعوا الوجدانية، فقطعهم الحق عن سرِّ الأحدية^(١).

وقال: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، فانحسرت أطماعهم عن الوجدانية حين بان لهم أنوار وحدته، فسَبَّحوا في بحار ذاته وصفاته، وطلبوا الخروج إلى سواحل العرفان، فناداهم أين أنتم لو تَسْبِّحون أبداً في بحر الذات وبحر الصفات، لم ينتهوا من بحر حقائق الألوهية، فإن بحر الذات والصفات واجد الكل في حيزٍ سراق وحداية الأفعال، غائبة في الصفات

(١) اعلم أن (هو) مبهم ما لا تعيَّن له في الخارج؛ بل عهديته في الذهن، وإنما يُريد إبهامه ما بعده من تفسيره؛ وهو الله أحد، فهو قبل التفسير مبهم في الخارج، ومفسَّر في نفس الأمر، وإنما جاء الإبهام من حيث المراتب، ففيه إشارة إلى قوله تعالى: «كنت كنزاً مخفياً، فأحييت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»، فإنه تعالى كنزاً مخفياً قبل خلق الخلق، فكان ظهوره بذاته في ذاته؛ فكان خلق الخلق كالتفسير له بحيث كان ظاهراً لغيره أيضاً، فالأول: مرتبة الجلاء، والثاني: مرتبة الاستجلاء، فمن قصر نظره؛ لم ير العالم إلا كالضمير المبهم، ومن كاشف عن حقيقة الحال؛ لم يكن عنده مبهم، فإن الحق تعالى كشف عن ذاته وصفاته وأسمائه؛ ولذا قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فالهويَّة كانت ظاهرة للحق قبل خلق الخلق، وباطنة للخلق، ويَعْدُه كانت ظاهرة للخلق أيضاً، فباطن الحق ظاهر الخلق، وبالعكس على هذا نفس الإنسان الكامل؛ فإنه بمنزلة ضمير هو في إبهامه وتفسيره، وليس تفسيره إلا الكرامات العلمية المتعلقة بحقائق الذات، والصفات، والأفعال؛ وهو القرآن الفعلي، والضمير المفسَّر، والهويَّة الظاهرة بآثاره، والباطنة بحقائق ذاته. ومن أنكره؛ فقد أنكر القرآن، ومن أنكر القرآن؛ فقد أنكر الحق بذاته وصفاته، فإن القرآن ذات وصفة، فإن الصفة لا تقوم إلا بالذات، ولا تنجلي إلا بالمحل؛ فلذا قال بعض الأكابر: أنا القرآن والسبع المثاني، ففيه أسرار الحروف والكلمات، والآيات والسور، فإنه حرف عملي روحانية، وآية مثالية، وسورة جسمية. وهذا مراد من قال: من أراد أن يجلس مع الله تعالى (واصطنعته لنفسه) وجعله مجلي لصور كمالاته، فمن رآه فقد رأى الحق، ومن عمى عنه فقد عمى، وكم ترى في كل عصر من يُقبل المصحف صباحاً ومساءً بناءً على أنه كلام الله، ويستحققر الإنسان الكامل مع أنه سرُّ ذلك المصحف، ولو كان عالماً به فاستحققره؛ لمُسَخِّم مسخ الأمم الأولى؛ لكن قد يعذر بالجهل، وذلك من رحمة الله تعالى بعباده؛ ولذا ستر الله الأقطاب في كل عصر إلا عن أهل المعرفة. فالمحجوب ينظر إليهم وهو لا يبصرهم؛ وإنما يبصر البشر، والمكاشف ينظر إليه ويبصرهم على أنهم صورة الحق تعالى. وليس لله تعالى تجلُّ إلا في مرائيهم وعلى صورهم، ومن ينظر إلى الله وهو مجرد عن النعوت، فقد طلب المحال، كما أن من أرد أن ينظر إلى الروح بدون توشُّط مرآة البدن؛ فقد ضرب حديداً بارداً، فإنه لا يتيسَّر إلا بالمرآة، ومرآته الجسم. ومن هذا ظهر أن الإنسان الكامل رداء الحق، فهذا الرداء لا يزول عن المرتدي أبداً، وهو ليس بحجاب له، كما أن المرآة كذلك مع القناع، فعليك بفهم هذا المقام، وكُن مع أهل العافية والسلام. واعلم أن الله ليس منه أثر على الكون في الحقيقة، وكذا الكون ليس منه أثر على الحياة في نفس الأمر، وهو غني عن العالمين.

والصفات في الذات، فمن عين الجمع هو هو، ومن حيث الحقيقة هو الله، ومن حيث الفردانية أريد لا غير؛ إذ الغير يفنى في بقائه، ثم زاد في نبوية فردانيته، بقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾: «الله»: ظاهر بنعوت الجلال والجمال والفردانية والوحدانية، باطن بالهوية، «الصمد»: انقطع عن إدراك الخواطر والضمائر، وغابت في مهمة صفاته الأسرار والأرواح، وتاهت في تيه هويته القلوب والأشباح، وهو تنزيه جلاله وصمديته حجبهم من نفسه؛ ثم أبرز من نعت صمديته نور تنزيهه، ونشقههم روائح قدسه وأنسه، وجعلهم مشتاقين إلى لقائه عاشقين جماله، فيصمدون إليه بنعت الفناء والبقاء، فلما علم عجزهم عن رؤية حقيقة هويته وصمديته ووحدانيته وفردانيته تجلّى لهم بنعوت الجمال من لباس الأفعال، فهاموا بعشقه في بقاء أنوار جماله وجلاله، سكارى متبسطين، وطابوا بكل مستحسن من عالم الأفعال، فلما سكنوا بالمستحسنات ورؤية الجمال في الأفعال أمال أزمن قصودهم إلى فضاء الوحدانية، وأعلمهم أنه منزلة عن مباشرة الحوادث، بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: لم يكن هو محل الحوادث، ولم تكن الحوادث محله، التجلّى ظهور الصفات، والالتباس ظهورها في الأفعال، وهو منزلة عن التمثال والجمال، ألا ترى كيف حقق التوحيد لمن شاهد مشاهدته في أهله، بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾: غلط النصارى واليهود والكفرة والمجوس حين رأوا من الأشخاص أنوار الأرواح، ومن الأرواح سنا روح فعله، ثم نور صفته، ووقعوا في ظلمات الحلول حين لم يعرفوا أصل الأصل، وحقيقة الحقيقة، وعين العين وفردانية الذات والصفات عن مباشرة الأمثال والتمثال، سبحانه المنزه بذاته عن رؤية كل راء، ومعرفة كل عارف، وتوحيد كل موحد، وعبادة كل عابد، وجحود كل جاحد، وجهل كل جاهل، ووصف كل واصف، كلهم في نكرة النكرة، معزولون من حقيقة المعرفة.

قال ابن عطاء: «الهاء»: تنبيه عن معنى ثابت، و«الواو»: إشارة إلى ما لا يدرك حقائق نعوته وصفاته بالحواس، و«الأحد»: المتفرد الذي لا نظير له، و«التوحيد»: هو الإقرار بالوحدانية، و«الأحدية»: هي الانفراد.

وقال الواسطي: «هو»: حرف ليس باسم ولا وصف، ولكنه كناية، وإشارة كناية عن الذات، وإشارة إلى الذات، عَلِمَ الحق من يلحد في الأسماء والصفات، ويفرق بين الصفة والموصوف، فقال: لا يكون فرقاً بين هويته، وهو ذاك لم يكن فرقاً بين هويته، ولم يكن فرقاً بين أسمائه وصفاته.

قال ابن عطاء: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: هو المتفرد باتحاد المفقودات، والمتوحد بإظهار الخفيات.

وقال الحسين: «الأحد»: الكائن عنه كل منعوت، وإليه يصير كل مربوب، فيطمس من مساكنه، ويطرح من نازله أن أشهدك إياه؛ فإنك وإن غيبتك عنه راعك. قال بعضهم: توحد ثم وجد لا سبيل إلى ذلك إلا أن يوجدك الحق له. وقال جعفر: «الصمد»: الذي لم يعط الخليفة من معرفته إلا الاسم والصفة. وقال الواسطي: امتنع الحق بصمديته من وقوف العقول عليه، وإشارتها إليه، ولا يعرف إلا بالطاف أسدائها إلى الجوارح.

وقال ابن عطاء: «الصمد»: المتعالي عن الكون والفساد. وقال جعفر: «الصمد»: خمسة حروف: «الألف»: دليل على أحديته، و«اللام»: دليل على ألوهيته، وهما مدغمان لا يظهران على اللسان، ويظهران في الكتابة، فدل ذلك على أن أحديته وألوهية خفية لا تُدرك بالحواس، وأنه لا يقاس بالناس، فخفاؤه في اللفظ دليل على أن العقول لا تدرك، ولا تحيط به علماً، وإظهاره في الكتابة دليل على أنه يظهر على قلوب العارفين، ويبدو لأعين المحييين في دار السلام، و«الصاد»: أنه صادق فيما وعد فعله صدق، وكلامه صدق، ودعا عباده إلى الصدق، و«الميم»: دليل على ملكه، وهو الملك على الحقيقة، و«الدال»: علامة دوامه في أبديته وأزليته، وإن كان الأزل والأبد؛ لأنها ألفاظ تجري على العواري في عباده.

وقال ابن عطاء: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»: ظهر لك منه التوحيد، «اللَّهُ الصَّمَدُ»: ظهر لك منه المعرفة، «لَمْ يَلِدْ»: ظهر لك منه الإيوان، «وَلَمْ يُولَدْ»: ظهر لك منه الإسلام، «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»: ظهر لك منه اليقين.

قال الأستاذ: كاشف الواهين بقوله: «هو»، وكاشف الموحدين بقوله: «الله»، وكاشف العارفين بقوله: «أحد»، والعلماء بقوله: «الصمد»، والعقلاء بقوله: «لم يلد، ولم يولد» ❶، «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» ❷.

(١) لأن الولد نتيجة، والنتيجة فرع الأصل؛ فكان آدم أبو البشر ﷺ من أهل هذا المقام؛ لأن الله تعالى خلقه لا عن أبوين، فكان على صورة خالقه؛ ولذلك كان مسجوداً وليست السجدة إلا لله تعالى؟ ومن هنا قالوا: ظاهر الكون خلق، وباطنه حق، ومن صفا قلبه؛ كان كأنه لم يلد ولم يولد، وإن كان والدًا ومولودًا.

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ١ ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ٢ ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ٣ ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ٤ ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ٥ .

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾: في هذه الكلمة سرائر حبيبه بالاستعاذة به، ثم ذكر وصف تربيته بقوله: ﴿بِرَبِّ﴾، ثم ذكر وصفه وصفته وفعله بقوله: ﴿الْفَلَقِ﴾، و«الفلق»: انفلاق صحور العارفين بمياه المنجبة والمعرفة من تأثير انكشافات سبحات الغيرة عن جمال المشاهدة، وطلوع صباح الوصلة من مشارق الأحذية، أمره بالاستعاذة به منه حتى لا يكون بين الوصل والفصل محجوبًا عن عين العين، وإدراك حقيقة الحقيقة بعوارض البشرية، وهو قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ٢ ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: شر ظلمات قهره إذا غطى قلوب أهل الحرمان، وطار على أسرار أهل العرفان في زمان الامتحان.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ٤: «الحاسد»: النفس الأتارة، والشيطان الملعون حسدًا على روح جزالة في الملكوت، سيّارة في أنوار الجبروت، فحسدهما مرام سهام غيرة قهر القدم، ألا ترى كيف قال ﷺ: «العين حق»^(١)؛ لأنها سهم من سهام قهره.

قال بعضهم: «الفلق»: فلق الكمون من القلوب، فأدارها على الألسنة. وقال محمد بن علي التهذي: عطف الله على قلوب خواص عباده، فقذف فيها، فانفلق الحجاب، وانكشف الغطاء، وهو قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾. قال الحسين: إشارة الحق أن جميع خلقه في معنى القطيعة عنه بكلمة واحدة، وهي من لطائف القرآن.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ١: فالتق الإصباح، وفالتق الحب والنوى، وفلق البحر لموسى، وفلق الأسماك والأبصار، وفلق القلوب حتى انكشف له الغيوب.

قال ﷺ: «سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره»^(٢)، وفلق الصدور وفتقها وشرحها؛ لتدارك ما جرى فيها من المباشرة؛ إذ في ذلك صحة التحير، وصفًاها من شر ما

(١) رواه البخاري (٢١٦٧/٥)، ومسلم (١٧١٩/٤).

(٢) رواه مسلم (٥٣٥/١).

خلق أن يكون مربوطاً، وإن علت أحواله وعظمت أخطاره، فإن الانقطاع علامة الارتباط بهادونه من خلقه وفلقه.

قال محمد بن حامد في قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾: أعلمك أن الخلق كلهم موصوفون بالبشرية، وأن الخير الذي لا شر فيه هو الذي خلق الخلق على هذه الصفة.

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾: أمر حبيبه صلوات الله وسلامه عليه بالاستعاذة به، ويبيّن أن مربّي الناس مزين آدم وذريته بزينة أنوار صفاته.

﴿مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾﴾: بأنه أعطاهم ملكاً أوّله معرفته، ومَلِكَ قلوبهم بجمال مشاهدته.

﴿إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾: حيث أرواحهم بسنا قدسه في رياض أنسه.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾: للوسوسة مراتب: الأولى: هواجس النفس الأمارة، والثانية: وسوسة الشيطان، والثالثة: وسوسة جنود القهريات، وموضع هذه الوسواس الصدر؛ لأن القلب موضع العقل، والروح اللطيفة والتجلي والخطاب والملاحظة، وهو مصون برعاية الحق، فأما «وسوسة النفس»: فتكون في طلب الشهوات والحظوظ، وأما «وسوسة الشيطان»: فتكون في الكفر والطغيان والبدع، وأما «وسوسة القهر»: فتذر وسوسة النفس والشيطان ألقاها الحق في أرض الصدور؛ لامتحان عباده وغيره الأزل، منعهم بهذه الوسواس عن مشاهدة الكل، فإذا أراد بلطفه وصولهم إليه ينكشف لأسرارهم سباحات جمال عظمتهم، فيهب في صحاري قلوبهم مثال جماله، فيكشف عن قلوبهم وصدورهم الوسواس، وظلمة الهواجس، وذلك قوله: ﴿الْخَنَّاسِ ﴿٥﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٦﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

ثم بيّن أن الوسوسة تأتي من الشيطان تارة بلا واسطة، وتارة بالواسطة؛ إذ لم يقدر الملعون أن يوسوس في صدره من غلبة نور التوفيق والملاحظة، وظهارة الكفر وصفاء الذكر، وعار عليه في مقام غرارة بعض شياطين الإنس، ويدعوه بلسانه إلى بعض الشهوات أو البدع والأهواء، فيوقعه إلى الحجاب، فأمر الله حبيبه أن يستعيذ به من وسوسة شياطين الإنس

والجن الذين وصفهم الله بقوله: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، واحذر يا صاحبي من هذه الوسواس، واعرف شأنها وأصلها وفرعها، فإن الوسواس تأتيك في جميع المقامات، وفي بعض المواجهات والأحوال، فينبغي أن تعرف مكائده وأسلحته ومواقعه ووساوسه، واستعن بالله في جوابه وعلاجه؛ حتى تبلغ إلى مقام مشاهدة الحق بالحق، ويغني عنك بشرتك وأوصافها، ويكون نوراً بنوره، مقدساً بقدسه عن كل خاطرٍ وعارضٍ، فإن عرفت حقيقة ما ذكرت فصررت إماماً للمتقين، وسراجاً للمقتبسين.

قال عمرو المكي: الوسواس من وجهين: من النفس، والعدو، «فوسواس النفس»: بالمعاصي التي يوسوس فيها العدو كلها غير طبعي، فإن النفس لا توسوس بهما، أحدهما: التشكيك، والآخر: القول على الله بغير علم، قال الله في وصف الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقال يحيى بن معاذ: «الوسوسة»: بذر الشيطان، فإن لم تعطه أرضاً وماءً ضاع بذره، وإن أعطيته الأرض والماء بذر فيها، فمثل ما الأرض والماء؟ فقال: الشبع أرضه، والنوم ماؤه.

وقال يحيى: إنما هو جسمٌ وروحٌ وقلبٌ وصدرٌ وشغافٌ وفؤادٌ، «فالجسم»: بحر الشهوات، قال الله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، و«الروح»: بحر المناجاة، و«الصدر»: بحر الوسواس، قال الله تعالى: ﴿يُوسِسُ الَّذِي فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، و«الشغاف»: بحر المحبة.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، و«الفؤاد»: بحر الرؤية، قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، و«التقلب»: بحر العمل.

وقال سهل: «الوسوسة»: ذكر الطبع.

وقال: إذا كان القلب مشغولاً بالله لم يصل إليه الوسواس بحالٍ.

وقال عبد العزيز المكي: يوسوس في فؤاد العامة، وقلوب الخواص لو دنا منها إبليس لاحترق.

صدق الشيخ فيما قال، ولكن في سر السر، وغيب الغيب، ونور النور، وسنا السنا، ولطف اللطف، وشهود الشهود، ودنو الدنو، ووصال الوصال، وبقاء البقاء وعيان العيان تكون قلوب العارفين والموحدين والمحبتين والمريدين والمؤمنين في قبض العزة منقلبة بين

أصابع الصفة التي هي أنوار آزال الآزال، وآباد الآباد، طالیه يوصل الوصل، وعرفان العرفان، وحقيقة الحقيقة، كالفراش حول الشمع كمال شوقها الاحتراق بنيرانه، كذلك قلوبهم محترقة هناك بنيران الكبرياء، فانية في سطوات الجلال، باقية بسبحات الجمال، مصونة عن ذل الحجاب، محروسة عن طيران العذاب، كيف يخللها قتام الوسواس، فهواجس بالنفس، وحديث الناس، سبحان من صفاهم بصفاته عن كل كدور، وبراهم بقدسه عن كل علة، الوسواس في الصدور، والقلوب في الحضور والنور والسرور، كيف يصل حركات الإنسانية إلى من استغرق في بحار الوحدةانية، لا بأس بأن طرى على الصدور وسواس وهواجس من محل الامتحان، فإنّ الأرواح في يمين الرحمن، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، والحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة، ألا ترى كيف شكّا عنه خواص الصحابة إلى حبيب الله وصفية صلوات الله وسلامه عليه، فقالوا: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلّم به»، فقال: «أوقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: «ذلك صريح الإيمان»^(١).

وقال أبو عمرو البخاري: أصل الوسوسة يتتجها من عشرة أشياء:

أولها: «الحرص»: فقاتله بالتوكل والقناعة، والثانية: «الأمل»: فاكسره بمناجاة الأجل، والثالثة: «التمتع بشهوات الدنيا»: فقاتله بزوال النعمة وطول الحساب، والرابعة: «الحسد»: فاكسره برؤية العدل، والخامسة: «البلاء»: فاكسره برؤية المنّة والعوافي، والسادسة: «الكبر»: فاكسره بالتواضع، والسابعة: «الاستخفاف بحرمة المؤمنين»: فاكسره بتعظيم حرمتهم، والثامنة: «حب الدنيا والمحمدة من الناس»: فاكسره بالإخلاص، والتاسعة: «طلب العلو والرفعة»: فاكسره بالخشوع، والعاشرة: «المنع والبخل»: فاكسره بالجود والسخاء، والحمد لله حمدا لا انقطاع له ولا انتهاء، والصلاة والسلام على سيد الرسل وخاتم الأنبياء، وعلى آله وصحبه وسائر الأولياء، ما دامت الأرض والسماء.

تم بحمد الله وتوفيقه

فهرس المحتويات

٣	سورة النور
٢٥	سورة الفرقان
٤٢	سورة الشعراء
٥٧	سورة النمل
٧٧	سورة القصص
٩٨	سورة العنكبوت
١١٠	سورة الروم
١١٩	سورة لقمان
١٢٧	سورة السجدة
١٣٤	سورة الأحزاب
١٥٠	سورة سبأ
١٥٥	سورة فاطر
١٦٥	سورة يس
١٧٤	سورة الصافات
١٨٤	سورة ص
٢٠١	سورة الزمر
٢٢٦	سورة غافر
٢٤١	سورة فصلت
٢٥٨	سورة الشورى
٢٧٤	سورة الزخرف
٢٨٥	سورة الدخان
٢٩٢	سورة الجاثية
٢٩٦	سورة الأحقاف
٣٠٣	سورة محمد صلى الله عليه وسلم
٣١٣	سورة الفتح
٣٢٥	سورة الحجرات

٣٣١.....	سورة ق
٣٤٠.....	سورة الذاريات
٣٤٩.....	سورة الطور
٣٥٥.....	سورة النجم
٣٦٦.....	سورة القمر
٣٧١.....	سورة الرحمن
٣٨١.....	سورة الواقعة
٣٨٩.....	سورة الحديد
٤٠١.....	سورة المجادلة
٤٠٨.....	سورة الحشر
٤١٧.....	سورة الممتحنة
٤٢٠.....	سورة الصف
٤٢٣.....	سورة الجمعة
٤٢٦.....	سورة المنافقون
٤٢٨.....	سورة التغابن
٤٣١.....	سورة الطلاق
٤٣٥.....	سورة التحريم
٤٣٨.....	سورة الملك
٤٤٣.....	سورة القلم
٤٤٧.....	سورة الحاقة
٤٥٢.....	سورة المعارج
٤٥٥.....	سورة نوح
٤٥٧.....	سورة الجن
٤٦٠.....	سورة المزمل
٤٦٥.....	سورة المدثر
٤٦٨.....	سورة القيامة
٤٧١.....	سورة الإنسان
٤٧٦.....	سورة المرسلات
٤٧٨.....	سورة النبأ

فهرس المحتويات ----- ٥٤٣

٤٨٠	سورة النازعات
٤٨٤	سورة عبس
٤٨٧	سورة التكوير
٤٨٩	سورة الانفطار
٤٩٢	سورة المطففين
٤٩٥	سورة الانشقاق
٤٩٧	سورة البروج
٤٩٩	سورة الطارق
٥٠٠	سورة الأعلى
٥٠٢	سورة الغاشية
٥٠٥	سورة الفجر
٥٠٦	سورة البلد
٥٠٨	سورة الشمس
٥١٠	سورة الليل
٥١١	سورة الضحى
٥١٤	سورة الانشراح
٥١٦	سورة التين
٥١٧	سورة العلق
٥١٩	سورة القدر
٥٢٠	سورة البينة
٥٢١	سورة الزلزلة
٥٢٢	سورة العاديات
٥٢٣	سورة القارعة
٥٢٤	سورة التكاثر
٥٢٥	سورة العصر
٥٢٦	سورة الهمزة
٥٢٧	سورة الفيل
٥٢٧	سورة قريش
٥٢٨	سورة الماعون

٥٤٤ ----- عرائس البيان في حقائق القرآن / اجزاء الثالث

٥٢٩.....	سورة الكوثر
٥٢٩.....	سورة الكافرون
٥٣٠.....	سورة النصر
٥٣١.....	سورة المسد
٥٣٢.....	سورة الإخلاص
٥٣٦.....	سورة الفلق
٥٣٧.....	سورة الناس
٤٥١.....	فهرس المحتويات